

سُتَيْف بَيْرِي خاتمة في البندقية

رواية



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

حَيَاتَة فِي البُنْدُقِيَّة

يعود الروائي الأمريكي الشهير، ستيف بيرلي، صاحب الكتب الأكثر مبيعاً، مع بطله كوتون مالون، في أكثر قصص التشويق إثارة، ألا وهي البحث عن الموت الغامض للإسكندر الكبير.

في عام 323 قبل الميلاد، وبعد أن قام بغزو بلاد فارس، يخطف الموت فجأة القائد العظيم، الإسكندر الكبير، بعد تعرضه فجأة لحمى غريبة، وعمره لا يتعدى الثانية والثلاثين. وقد بقيت مهمة تحديد مآواه الأخير - الذي لم يعرف حتى يومنا هذا - هدفاً مثيراً لعلماء الآثار وصائدي الكنوز في شتى أنحاء العالم. فهل سينجح كوتون مالون في حل هذه الأحجية الجيوسياسية التي تخطف الأنفاس والتي قد تكون مناوراتها قاتلة... وعواقبها عالمية...؟



خَيَابَانَةٌ

فِي

الْبَيْدَقِيَّةِ

WWW.REWITY.COM
RAYAHEEN.COM



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

إهداء

إلى كارين أليزابيث

WWW.REWITY.COM
RAYAHEEN.COM

ومن التأشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق حملة للترجمة لكافة كتب من
لغات العالم إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات أي بمعدل كتاب في اليوم
قريباً.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج
الاستراتيجي جسراً عظيماً لربط المؤسسة المجتمعية في تمكين الأجيال القادمة من
التأثير والتطوير خلق مستدامة لمواصلة التحديات عن طريق نشر المعرفة ورعاية

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القاريء:

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة. وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التبشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية

الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة: www.mbrfoundation.ae.

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت - الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقف لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.

كلمة شكر

أوجه أولى كلمات شكري إلى بَّامَ آهرِن، وعليكم بأخذ الحذر لأن عميلاً ذا مزية جديدة مميزة إنما هو أمر بالغ الخطورة. أما كلمة الشكر الثانية فتذهب، حسبما جرت العادة، إلى الأخوة الرائعين في دار راندوم هاوس للنشر: جيتا جنتريلو ناشرتي التي أفاخر بها؛ لبي ماك غواير لوجودها دائماً إلى جانبي في دعم ليس يستكين؛ مارك تافاني، الذي منحني لمرة جديدة آراءه التقويمية الصائبة؛ سيندي موراي التي أكثر ما يسرُّها هو أن تدفع بي إلى أقصى الأبعاد؛ كيم هوفي الذي يجعل الناس بشكل أو بآخر، أكثر رغبة بي؛ راشيل كند التي تحسن رشق الكتب إلى سائر أصقاع الدنيا؛ بكُ سْتيفان، المصمِّم الرائع لغلافات الكتب؛ كارول لُوينشتاين وفريقها العبقريُّ في التصميم الداخلي للكتب؛ ولا أنسى جميع الطاقم العامل في التسويق والمبيعات لأن لا شيء مطلقاً يمكن تحقيقه دون جهودهم الهامة.

كما أنه لا يسعني سوى أن أنكر أيضاً: فيكي ستالو وكيلتنا الأدبية التي جعلت من رحلتنا إلى إيطاليا رحلة ناجحة؛ وميشال بنزوتي وزوجته، ليسلي، وقد استقبلانا على الرحب والسعة في البندقية؛ وكذلك كريستينا كورتيز التي تجولت بنا في كاتدرائية القديس مارك ولم تبخل علينا بأفكارها البصيرة التي لا تقدَّر بثمن؛ وكذلك كل جماعة منسوبي دار نورد للنشر في إيطاليا، ويا لهم من فريق عمل رائع؛ وكذلك إلى داماريس كوريغان وهي سيِّدة المعية استطاعت ذات عشية أن تقدح زناد خيالي على مائدة عشاء. أقول: إنني أهدي شكري الخالص إليكم جميعاً.

والفضل يعود كذلك إلى أخي بوب وزوجته، كيم؛ وكذلك إلى ابنتي ليندسي؛ وإلى ولدي، غرانت، فإن لهما عليّ ذكراً يوجبهُ الفضل السابق. ومع أن المجال يضيق عن واسع التعبير فإن لكم عليّ أن تعرفوا مبلغ مكانة كل منكم المميزة عندي.

وأخيراً، أهدي هذا الكتاب إلى زوجتي التي ما توقفت خلال الأشهر القليلة العابرة عن مراقبة نمو هذه القصة وهي تتحول من طور الأفكار الأولية إلى كلمات وصفحات. ولم تبخل عليّ طيلة تلك الرحلة بإرشاداتها، وتصويباتها، فضلاً عن تشجيعها لي.

- مع أن للمجد ثمناً باهظاً من المعاناة والمجازفة، إلا أنه من الرائع أن يعيش المرء في شجاعة وأن يترك بعد رحيله شهرة لا تنطفئ لها شعلة.

الإسكندر المقدوني الكبير

- من بين الحقوق الخاصة المقدسة التي يصرُّ الجنون على الاحتفاظ بها لنفسه، هي عدم المقدرة على رؤية الشر رغم مثوله أمام ناظرينا.

كاتب مسرحي دانماركي مجهول

WWW.REWITY.COM
RAYAHEEN

التسلسل الزمني للأحداث التاريخية التي تدور حولها الرواية

- 20 يوليو/تموز 356 ق. م. وُلد الإسكندر المقدوني.
- 336 ق. م. تم اغتيال فيليب الثاني، وصار الإسكندر ملكاً.
- 334 ق. م. عبرت جيوش الإسكندر إلى آسيا الصغرى بادية فتوحاتها.
- سبتمبر/أيلول 326 ق. م. انتهت حملة الإسكندر على آسيا في بلاد الهند بعد تمرّد جيشه.
- أكتوبر/تشرين الأول 324 ق. م. توفي فستيشيون.
- 10 يونيو/حزيران، 323 ق. م. توفي الإسكندر في بابل، وتقاسم قوّاده إمبراطوريته، حيث استأثر بطليموس بحكم مصر.
- 321 ق. م. غادرت العربة الجنائزية للإسكندر متجهة نحو مقدونية. إلا أن بطليموس تصدى للموكب، مختطفاً الجثمان إلى مصر.
- 305 ق. م. جرى تتويج بطليموس فرعوناً.
- 283 ق. م. توفي بطليموس.
- 200 م. جرى قتل القديس مرقس في الإسكندرية بسبب عقيدته الدينية، وتم إخفاء جثمانه.
- 391 م. جرى تدمير المقبرة واختفى جثمان الإسكندر.
- 828 م. قام تجار من البندقية بسرقة جثة القديس مرقس وبإعادتها إلى البندقية حيث جرى حفظها في قصر الدوق، ثم ما لبثت أخبارها أن اختفت مع مرور الأيام.
- يونيو/حزيران 1094 م. ظهر جثمان القديس مرقس من جديد في البندقية.
- 1835 م. نُقلت جثة القديس مرقس من قبو الكنيسة لتُدفن تحت المذبح الرئيسي في الكاتدرائية التي لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم.

خِيَانَةٌ فِي الْبُنْدُقِيَّةِ

WWW.REWITY.COM
RAYAHEEN

فصل تمهيدي

بابل، مايو/أيار 323 ق. م.

بالأمس كان الإسكندر المقدوني قد قرر القيام بإعدام الرجل بنفسه. وكانت العادة قد جرت بتكليف شخص ما بتنفيذ مثل هذه المهمة، لكن الأمر الآن مختلف. وكان وايلد الإسكندر قد علّمه، في ما علّمه، أشياء أخرى كثيرة قد بان نفعها الجزيل له لاحقاً، لكن أحد هذه الدروس، وأكثرها أهمية، كان الدرس الذي لا يسعه نسيانه.

إنّ القتل هو السبيل إلى الحياة.

وهكذا، وقف ست مئة من أفضل حُرّاس الإسكندر في تجمع غير عادي. رجال لا يعرفون الخوف، وكانوا في معركة تلو أخرى رأس حربية جيوشه يؤدون واجبهم بكل تفانٍ في سدّ كل ثغرة حساسة فيه. فالفضل يرجع إليهم في تمكن جيوش الإسكندر التي لا تقهر من الاستيلاء على آسيا. لكن لم يكن ثمة موقعة عسكرية في ذلك اليوم.

لذلك، لم يكن أيّ جنديّ منهم آنثز يتقلّد سلاحاً أو ينتضي درعاً. إذ بدلاً عن ذلك، ورغم قلقهم، فقد كان اجتماعهم في ملابس خفيفة كانت القلائس فوق الرؤوس، أما الأعين فقد كانت شاخصة حديدة النظر.

ووقف الإسكندر يستعرض الموقف بعينه المتعبتين أكثر من أيّ وقت مضى.

لقد كان الإسكندر قائد مقدونيا واليونان، وسيد آسيا، وحاكم بلاد فارس. حتى أنّ البعض كان يلقبه بلقب ملك الدنيا. وبعضهم لقبه بلقب إله العالم. وكان أحد قوّاده قد قال عنه مرة بأنه الفيلسوف الوحيد الذي شوهد يتقلّد سلاحاً.

لكن الإسكندر كان رغم كل ذلك إنساناً.

وها هو خدينه الغالي فسيتشيون قد بات يضطجع ميتاً.

لقد كان هذا الرجل هو كل شيء بالنسبة إلى الإسكندر؛ فهو موضع أسرارهِ، وقائد فرقة حمايته، وكبير وزرائه، بل خليله. وكان معلمه أرسطو قد علّمه في الصغر أن الصديق صنو النفس الذي يأتي بعدها مباشرة، وقد كان فسيتشيون يقع عنده في هذه المنزلة فعلاً. وقد استعاد الإسكندر في الذاكرة بشيء من السلوان كيف أن صديقه هذا كان قد أخطأ بحقه مرة. وكيف أن ذلك الخطأ قد تسبّب له بشيء من الحرج العام. لكن الإسكندر قد اكتفى حيال ذلك بالابتسام قائلاً بأن اللغط حول فسيتشيون لم يكن ذا بالٍ أبداً لأن فسيتشيون لم يكن شيئاً سوى الإسكندر، وكلاهما سيّان.

ترجّل الإسكندر من على صهوة جواده. وكان النهار صافياً ودافئاً وقد مرّت مطرة الأمس الربيعية مرّاً العابرين. هل كانت نذيراً؟ ربما.

فمنذ اثنتي عشرة سنة كان الإسكندر قد اجتاح الشرق، قاهراً آسيا الصغرى، وبلاد فارس، ومصر، وأجزاء من الهند. وكان هدفه الآن أن يتقدم جنوباً للاستيلاء على شبه الجزيرة العربية، ثم يتابع منها زحفه نحو شمالي إفريقيا فصقلية، فأيبيريا. وقد كان قد أعدّ عدته لذلك من السفن، وحشد ما حشده من جيوش. وكانت ساعة الزحف قد باتت قريبة، لكن كان عليه أن يعالج مسألة الرحيل المبكر لصديقه فسيتشيون أولاً، وقد أتى هذا الرحيل في وقت رديء الملاءمة.

خطا الإسكندر على أديم الأرض الطرية وقد التفتّ الوحل حول صنداله.

وكان الإسكندر ضئيل القامة، رشيق المشية، أشقر البشرة، قويّ العبارة؛ وقد حمل جسده العضليّ عدداً لا يحصى من آثار جراحات المعارك. وكان قد ورث عن أمه الألبانية ذلك الأنف الأقنى والذقن المعتدلة، والفم الذي لم يكن له بدٌّ عن الإفصاح عن مشاعر صاحبه. ومثل سائر جنوده، كان الإسكندر حليق الوجه. وكان شعره الأشقر يجري مهملاً. أما العينان فأحدهما زرقاء رمادية، والأخرى عسلية، وقد كانتا دائماً في يقظة واحتراس. وكان الإسكندر يعتزُّ بصبره وسعة صدره. أمّا في تلك الأيام فإنه كان يجد صعوبة متزايدة في لجم غضبه. وها هو اليوم قد أتى ليستمتع بكونه مرهوب الجانب.

"أيها الطبيب" قالها بصوت خفيض وهو يقترب: "يقال إن أفضل الأنبياء هم الذين يقدمون أصدق التنبؤات."

لم يحرج الرجل جواباً. لأنه على الأقل يعرف المقام الذي هو فيه الآن. "إنها عبارة مأخوذة من مسرحية إيريبايادس التي أحبها. لكن ما يتوقع من نبي هو أكثر من ذلك، ألا توافقني؟"

كان الإسكندر في شك من أن يتمكن غلوسياس من الإجابة عن سؤاله. فقد كان الرجل وحشي النظرات، وهو في رعب من أمره.

ولا عجب إن هو أصابه الذعر. إذ أنه في يوم أمس الماطر، قامت الخيل بثني جذعَي نخلتين طويلتين إلى مستوى يقارب الأرض جداً، حيث تم ربط رقبتيهما معاً بحبل واحد موثوق تم تثبيته إلى أسفل جذع نخلة ثالثة متينة. والآن، قد تم إيثاق الطبيب في وسط شكل الحرف "V" الذي شكّله تقاطع الجذعين، بحيث ربط كل من ذراعيه إلى نخلة من تلكم النخلتين، ربطاً وثيقاً، وكان الإسكندر يرفع سيفاً.

"كان من واجبك أن تقدم التقدير الأكثر صدقاً،" قال من بين أسنان فكيه المنقبضتين، بينما عيناه تفيضان بالدمع. "ما الذي جعلك تعجز عن إنقاذ حياته؟ تحرك فكاً الرجل في تأتأة لا إرادية. "لقد حاولت ذلك".

"كيف ذا؟ وأنت لم تعطه جرعة الترياق."

اهتز رأس غلوسياس في زعر. "لقد حصل حادث طارئ قبل بضعة أيام أدى إلى إهراق معظم الترياق المخزون. ولقد أرسلت رسولاً لجلب المزيد منه لكنه لم يتمكن من العودة في الوقت المناسب... قبل وصول المرض إلى مداه الأخير."

"ألم يكن مطلوباً منك أن تحافظ على وجود مخزون كافٍ منه؟"

"لقد فعلت ذلك يا مليكي. إلا أن حادثاً طارئاً كان قد حصل" وهنا بدأ الرجل بالنشيج.

تجاهل الإسكندر كل هذا الاستعراض. "لقد سبق لنا وأن تعاهدنا معاً على عدم تكرار ما قد حصل في المرة الماضية."

وكان الإسكندر يعرف أن الطبيب لا بد من أن يتذكر ما كان قد حصل له ولصديقه فستيشيون معاً من الإصابة بالحمى. وكان مخزون الترياق يومئذٍ شحيحاً أيضاً، لكن المزيد منه ما لبث أن تم إحضاره فتم إنقاذ حياة كل منهما به.

تقطر الخوف من جبين غلوسياس. وتضرعت عيناه المروعتان في طلب الشفقة. لكن كل ما كان الإسكندر يستطيع رؤيته هو نظرة الموت في عيني خليله. فقد سبق لهما أن تتلمذا معاً على يد معلم واحد هو أرسطو، عندما كانا طفلين. وكان الإسكندر يومها نجل الملك، بينما كان فستيشيون وريثاً لأحد المحاربين. لقد ربط بينهما وثاق من الصداقة، والفضل في ذلك يعود إلى إعجابهما المشترك بهوميروس، وبالإلياذة. وكان فستيشيون يمثل دور باتروكلوس بالنسبة إلى الإسكندر الذي كان يحسب نفسه أخيل. ومع أنه كان فاسداً خبيثاً ومستبداً وليس بشديد الذكاء، إلا أن فستيشيون كان رغم ذلك محط إعجاب الإسكندر. وها هو الآن قد رحل.

"كيف سمحت لنفسك بتركه يموت؟"

ولم يكن ثمة أحد قط ساعته يسمع الإسكندر خلا غلوسياس. إذ أنه كان قد أمر جنده بالوقوف على مسافة تسمح لهم فقط بالمشاهدة دون السماع. لقد كان معظم المحاربين الإغريق الأصليين الذين عبروا معه إلى آسيا إما قد ماتوا، أو تقاعدوا. لذلك تم تطويع محاربين جدد من الفرس لكي يحاربوا معه بعد أن تمت له السيطرة على بلادهم، وها هم الآن يشكلون غالبية قوته العسكرية. لقد كانوا رجالاً شجعاناً دون استثناء.

"إنك طبيبي الخاص،" قال له هامساً. "لقد جعلت حياتي مرهونة في يديك. وكذلك جعلت حياة كل أحبائي المقربين مني. وها أنت الآن تخذلني". هنا تحولت رباطة الجأش إلى حزن عميق، وغالب الإسكندر رغبته الملحاحة في البكاء. "وتقول لي إن حادثاً عارضاً قد طرأ!"

ألقي الإسكندر الجانب المسطح من نصل سيفه فوق الحبال العالية.

"أرجوك يا مليكي وأتوسل إليك. لم تكن الغلطة غلطتي، ولا أنا أستحق هذا العقاب".

حذق في الرجل ملياً. "تقول إن الغلطة ليست غلطتك؟" هنا تحول حزن الإسكندر إلى غضب مفاجئ.

"كيف تسمح لنفسك بقول مثل هذا الكلام؟" رفع سيفه. "لقد كان من الواجب عليك أن تكون أكثر نفعاً."

"يا مليكي. إنك في حاجة إليّ. فأنا الرجل الوحيد الذي يعرف، عداك أنت، بسرّ هذا الترياق. وإذا حصلت يوماً حاجة جديدة إليه وكنت أنت غير قادرٍ على ذلك، فكيف سيكون لك أن تحصل عليه؟" كان الرجل يتكلم في لهجة سريعة. محاولاً جهده التماس كل وسيلة ينقذ بها حياته.

"يمكنني تعليم من هم سواك."

"لكن الأمر يحتاج إلى معرفة وخبرة."

"لقد كانت خبرتك غير ذات نفعٍ بالنسبة إلى فستيشيون. إذ لم تُفدْ معرفتك العظيمة في شيء." هنا تشكّلت الكلمات على لسان الإسكندر لكنه وجد نفسه عاجزاً عن النطق بها. أخيراً، استجمع شجاعته وقال كأنه يخاطب نفسه أكثر مما هو يخاطب ضحيته. "لقد مات."

لقد كان من المقرر أن تشهد أكباتانا في أواخر ذاك الخريف واحداً من أعظم مواسمها الاستعراضية، حيث كانت ستقام حفلة على شرف ديونيسوس يحييها الأبطال الرياضيون، والموسيقيون، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف ممثلٍ وفنان كانوا قد وصلوا حديثاً من اليونان من أجل الترفيه عن الجنود. وكان من المقرر أن يستمر اللهو والشراب مدة أسبوعين، لكن كل ذلك الصخب والعريضة قد توقف عندما سقط فستيشيون في حماة المرض.

"لقد نصحتُه بالامتناع عن الطعام،" قال غلوسياس. "لكنه تجاهل نصيحتي فتناول لحوم الطيور، وعافر الخمرة، مع أنني نهيتُه عنهم."

"وأيّن كنت أنت؟" هنا لم ينتظر إجابة عن سؤاله. "لقد كنت في المسرح. كنت منغمساً في مشاهدة العروض. بينما كان عزيزي فستيشيون يستلقي على فراش النزاع."

لكن الإسكندر ذاته كان في تلك الساعة أيضاً في المسرح يشهد السباق، وقد ضاعف الشعور بالذنب هنا من شدة غضبه.

"إنك يا مليكي تعرف قوة هذه الحمى. فهي تهاجم في سرعة وتكتسح الجسد. لا يمكن تناول الطعام. لا يُسمح بتناول الطعام معها. لقد بتنا نعرف ذلك منذ المرة الفائتة. فلو أنه امتنع عن الطعام لوَفَّرَ لنا ذلك، الوقت اللازم لوصول الترياق." "كان عليك أن تكون بقربه،" صاح به، وهنا أيقن أن جنده قد سمعوه. وهنا قال بما يشبه الهمس. "كان عليك أن تحرص على إبقاء الترياق تحت متناولك."

هنا لاحظ الإسكندر وجود اضطراب في صفوف قواته. فحاول استعادة رباطة جأشه. ماذا قال أرسطو؟ "إن الملوك لا يتكلمون سوى من خلال أفعالهم، وكان هذا هو السبب الذي حدا به إلى كسر التقاليد، وإعطاء الأمر بتحنيط جثمان فستيشيون، متبوعاً بذلك ما رواه هوميروس من أن أخيل كان قد أمر بتحنيط جسد صديقه باتروكلوس الذي خرَّ صريعاً، كما أنه أمر بجز كل أعراف الخيول وأذيالها. كما حرَّم العزف على أية آلة موسيقية، وأرسل بعثة في طلب عرَّاف آمون لطلب النصيح منه عن أفضل الطرق التي يحفظ بها ذكرى محبوبه هذا. ثم إنه من أجل تخفيف شدة حزنه أمر بالإغارة على القوقازيين مسلماً أمة بكاملها إلى أشفار السيوف. وقد كان فعله هذا رداً على تبخر ظل صديقه العزيز فستيشيون عن وجه الأرض.

لقد ركب الغضب.

وهو ما زال يركبه.

رفع سيفه في الهواء وأوقفه قريباً من وجه غلوسياس الملتحي. "إن الحمى قد انتابتني أنا أيضاً من جديد." قال هامساً.

"إنن يا مليكي لا بد لك من أن تحتاجني. فأنا أستطيع مساعدتك."

"تساعدني مثلما ساعدت فستيشيون؟"

كان لا يزال يستطيع أن يرى المحرقة التي أعدت منذ ثلاثة أيام في جنازة فستيشيون. كان علوها علو خمسة طوابق، وهي تقوم على قاعدة من مربع طول ضلعه فيرلون واحد (220 ياردة) تزينها مجسمات مذهبة للصقور، ومقدمات السفن،

والأسود، والثيران، والكائنات الخرافية. وقد جاءت وفود ومبعوثون من كافة أنحاء منطقة البحر المتوسط لتشهد اشتعالها.

كل هذا قد حصل بسبب قلة كفاءة هذا الرجل. رفع سيفه خلف رأس الطبيب. "ليس بي من حاجة أو رغبة لتلقي مساعدتك."

"لا، أرجوك لا تفعل." صرخ غلوسياس مستغيثاً.

قام الإسكندر باحتزاز عُقدِ الحبل المتينة بحد سيفه المرهف الصقيل. وكأنه كان يشفي غليله. كلما مرَّ السيف فوقها مرة ثم أقحم نروة سيفه في وسط العقدة فتقطعت ألياف الحبال محدثة طقطقة أشبه بقرقرة العظام المطحونة. وبضربة أخرى إضافية كان السيف قد أجهز على البقية الباقية من الألياف الموصولة. وبذلك تحررت كل من النخلتين من عقالها مندفعة نحو السماء، إحداهما في اتجاه اليمين والأخرى في اتجاه الشمال. وكان غلوسياس مربوطاً بينهما.

صرخ الرجل بينما قاوم جسده للحظة وجيزة انطلاقة النخلتين، ثم انخلعت ذراعه عن مفصليهما وانفجر صدره بشلال من اللون القرمزي. تناثرت سَعْفُ النخيل بما يشبه الماء المتساقط وأرسل كل من الجذعين أنيناً ناتجاً عن رحلة عودتهما إلى مكانيهما في الأعلى.

هوى جسد غلوسياس ليرتطم بالأديم الموجل، بينما بقيت ذراعه، وجزء من صدره، تتدلى من الأغصان. وساد صمت تام عندما عادت النخلتان تستويان في هينتهما من جديد. ولم يندُ صوت واحد عن أي جندي.

التفت الإسكندر صوب رجاله صارخاً "ألا لالاي".

هنا ردد رجاله نشيد الحرب المقدوني، كانت صرخاتهم تهدر عبر السهل الرطب مدوية ترجع أصداءها قلاع بابل. وقد ردت الجموع المحتشدة فوق جدران الحصون على الصرخة بمثلها. وانتظر الإسكندر حتى هدأت الأصوات ثم نادى بأعلى صوته، "ليس لكم أن تنسوه أبداً."

وكان الإسكندر يعرف أنهم سيحارون في معرفة أي الرجلين كان يقصد بقوله هذا. هل هو فستيشيون حقاً؟ أم هذه الروح المعذبة التي دفعت لتوها ثمناً غالياً لإخفاقها في إرضاء مليكها؟

لكن الأمر في الحالين كان سيّان.

ولم يعد الأمر ليهمّ الإسكندر في شيء.

لقد غرس سيفه في الأرض السبخة، وتراجع ليعلو حصانه. إذ أن ما كان قد قاله لطبيبهِ قبل إعدامه، إنما كان قولاً صحيحاً تماماً. فها هي الحمى قد عاودته من جديد.

وكان الإسكندر مرحّباً بها.

الجزء
الأول

الفصل الأول

كوبنهاغن / الدانمارك

السبت 18 أبريل / نيسان الجاري

الساعة 11:55 ليلاً

كانت الرائحة قد أيقظت كوتون مالون من غيبوبته. مادة ذات رائحة حادة حُرِيفة ولها نكهة الكبريت. وهي مضافة إلى شيء آخر ما. مادة حلوة ببقعة تعاف النفس رائحتها عيف الجثث النتنة.

فتح عينيه.

وجد نفسه يستلقي على الأرض على وجهه، كانت ذراعا مفروبتين، وكفاه تلتصقان بخشب الأرضية التي سرعان ما لاحظ أنها أرضية ببقعة.

تُرى ما الذي حصل معه؟

كان قد حضر اجتماع شهر أبريل / نيسان العائد للجمعية الدانماركية لتجار الكتب النادرة. وهي جمعية تقع على مبعدة بنايات قليلة عن مكتبته الواقعة قرب ملهى التيفولي. كان يحب تلك الاجتماعات الدورية الشهرية، ولم يكن هذا الاجتماع استثناءً عن المألوف. مشروبات قليلة، بعض الأصدقاء، كثير من الكلام المتداول حول الكتب. وكان قد وافق على مقابلة كاسيوبيا فيت في صباح اليوم التالي. لقد أثارت مكالمتها إياه بالأمس لترتيب موعد اللقاء، دهشته. إذ أنه لم يكن قد عَرَفَ عنها شيئاً منذ عيد الميلاد، عندما أمضت بضعة أيام في كوبنهاغن. وكان يقطع المسافة على دراجته الهوائية قافلاً إلى بيته، ومستمتعاً بهواء المساء الربيعي الدافئ عندما عنَّ له أن يعرِّج للكشف عن مكان اللقاء غير الاعتيادي، الذي كانت قد اقترحتَه

كاسيوبيا عليه. إنه متحف التراث اليوناني - الروماني. وكانت هذه عادة تمهيدية قد اعتاد القيام بها منذ زمان مهنته القديمة. فكاسيوبيا لم تكن لتقديم على عمل أي شيء بدافع الغريزة، لهذا، فإن القيام ببعض الترتيبات والتحريرات المسبقة لم يكن خياراً سيئاً.

تمكن من العثور على مكان اللقاء. مكان يقع في مواجهة قنال فرديريك شولمز. وقد لفتته باب مفتوح مواربة على مبنى أسود كالقار. باب كان يجب في الظروف العادية أن يكون مقفلاً ومعزّزاً بجهاز إنذار. قام بركن دراجته. وكان أقل ما ينبغي له أن يفعله هو أن يغلق الباب ثم يخبر البوليس فور عودته إلى بيته.

لكن آخر ما كان يستطيع تذكره هو أنه قد أمسك بمقبض الباب.

وها هو الآن في داخل المتحف.

ومن خلال كمية الضوء التي يسمح بدخولها شبّاكان زجاجيان كبيران، كان قد شاهد مساحة مزينة على الطراز الدانماركي المعتاد. وهو خليط أنيق من الفولاذ والخشب والزجاج والألمينيوم. وكان الجانب الأيمن من رأسه ينبض بالألم، وقد مدّ يده ليمسّد تورماً مؤلماً.

نفض الضباب الذي يغشي دماغه ونهض.

وكان قد سبق له مرة وأن قام بزيارة هذا المتحف إلا أنه لم يجد نفسه معجباً آنذاك بمجموعة التحف اليونانية والرومانية التي يحتويها. وكان في أرجاء كوبنهاغن ما يربو على مئة مجموعة خاصة من التحف التي تختلف في موضوعها باختلاف سكان أحياء المدينة.

نظر في هيئة ظلّه المنعكس في زجاج خزانة عرض. وقد عادت بصمات أصابعه من على الزجاج دبكة وقذرة الرائحة لمرّة أخرى، وكان يشتم الرائحة المثيرة للغثيان من جديد.

وقد لفتّه أن قميصه وسرواله كانا رطبين دبقين مثلما هو حال شعره ووجهه وذراعيه. فلا بد أن المادة التي تنتشر في أرجاء المتحف قد أصابه منها هو أيضاً ما أصابه من نصيب.

سار بخطواتٍ عاشرٍ نحو المدخل الخارجي محاولاً فتح الباب. ولدهشته وجد أن هذا الباب قد بات الآن محكم الإغلاق بقفلين معاً. وكان لا بد من استعمال مفتاح لفتح الباب حتى من الداخل. حدّق خلفه داخل المتحف فوجد أن السقف يرتفع إلى ثلاثين قدماً. وكان ثمة قفص للدرج الصاعد إلى الطابق الثاني مصنوع من الخشب المطلي بالكروم، وكانت نهاية الدرج غارقة في العتمة. أما الطابق الأرضي فيمتد بعيداً إلى الأسفل.

مدّ يده نحو مفتاح للكهرباء، لكن لم يجد له أداء، ووصل نحو المنضدة الحاملة للهاتف، فوجد أيضاً أن الهاتف لا حرارة فيه.

لكن ضجّة ما لبثت أن عكّرت الصمت المطبق. كان ثمة قرقرة وأنين أشبه بصوت تعشيق التروس تأتي من اتجاه الطابق العلوي.

وكانت خبرته التي تلقاها كموظف في شرطة المحاكم قد علمته أن يتوخى الهدوء والحذر، لكنها كانت تستحثه أيضاً على التثبت من حقيقة الأمر. لهذا، فإنه تسلّق الدرج خلسة.

كان كورنيش الدرج المطلي بالكروم دبقاً مثلما هو حال درجات السلم. وبعد تسلّقه خمس عشرة درجة وجد المزيد من خزائن العرض المصنوعة من الكروم والزجاج وهي موزّعة هنا وهناك في أرجاء الأرضية. وقد كانت المجسّمات الرخامية والبرونزية المنصوبة فوق قواعد تلوّح كأنها الأشباح الهائمة. لكن حركة استرعت انتباهه من على بعد عشرين قدماً. كان ثمة جسم يموّر فوق الأرض. وكان عرضه قدمين، وله زوايا مستديرة، أما لونه فقد كان باهتاً، وهو يبدو متشبهاً بالأرض بطريقة هي أشبه بتشبث حاصدة العشب الروبوتية التي رآها مرة تستعرض عملها. وعندما كانت خزانة عرض، أو تمثال، تعترض طريق تلك الآلة، فإنها كانت تتوقف، ثم تتراجع، ثم تندفع من جديد في اتجاه مغاير. وكان ثمة بزباز يمتد من أعلاها بين فينة وأخرى لتنطلق منه نفحة من الهباء.

وقف في موضع قريب من هذا الجسم، فتوقفت حركة الجهاز بكاملها، كما لو أن الآلة قد شعرت بوجوده. ثم استدار بزباز الآلة لمواجهته قبل أن تنطلق منه سحابة من الضباب الذي رطب بنطاله ترطيباً.

تُرى ما هو هذا الشيء؟

بدت الآلة وكأنها قد فقدت الاهتمام به فابتعدت عنه عميقاً في جوف العتمة، وكان المزيد من هذا الضباب النتن الرائحة ينبعث منها في الهواء بينما هي تتابع طريقها. حُدّق إلى الأسفل عبر قفص الدرج، نحو الطابق الأرضي، فوقع نظره على آلة شبيهة بالأولى، تجلس مركونة بالقرب من خزانة عرض.

لم يكن أيّ من هذه المشاهدات يبشر بالخير.

كان متلهّفاً للخروج. فالرائحة الكريهة كانت قد بدأت تستثير أحشائه.

توقفت الآلة عن تجوالها. فإذا به يسمع صوتاً جديداً.

منذ سنتين مرّتا، وقد كان ذلك قبل طلاقه من زوجته، وتقاعده من الخدمة مع الحكومة، وانتقاله المفاجيء إلى كوينهاغن، كان يومئذ يعيش في أتلانتا: فقد حدث له أن ابتاع مرة ببضع مئات من الدولارات، مدفأة مصنوعة من معدن الـ: "ستاينلس ستيل". وهو يتذكر أنه كان لتلك المدفأة زرّ أحمرّ يَضُحُّ عند الضغط عليه شرارة تصحبها شعلة غاز. لقد استرجع الآن في ذهنه ذلك الصوت الذي كان يحدثه انقذاح زناد تلك المدفأة بعد كل مرة يضغط بها على زرّها الأحمر.

وها هو الآن يسمع صوت انقذاح الزناد، ذاته. ثم التمعت الشرارات.

وانفجرت الأرضية بالحركة، بدت في بداية الأمر صفراء بلون قرص الشمس ثم ما لبثت أن تحوّلت إلى اللون البرتقالي، ثم استقرّ حالها على اللون الأزرق الباهت، حيث كانت الشعلات تندلع إلى الخارج ماضغة الخشب الصلب. كما كانت السنة اللهب في الوقت نفسه تشبُّ إلى الأعلى في محاذاة الجدران. أما الحرارة فقد ارتفعت بشكل سريع فرفع ذراعه لكي يتقي به لذعة النار عن وجهه. ثم انضمّ السقف إلى حفلة الحريق اللاهب حتى بات الطابق الثاني خلال خمس عشرة ثانية كتلة من النار.

وهنا انطلقت رشاشات إطفاء الحريق إلى العمل.

تمكن من التراجع جزئياً إلى قفص الدرج ثم انتظر انطفاء النار تحت دُفْق المياه.

لكنه لاحظ شيئاً ما.

لقد وجد أن الماء لم يؤثر سوى في ازدياد اشتعال النيران، وفي جعلها تتفاقم.

كما أن الماكينة التي بدأت هذه الكارثة قد تفككت فجأة لتتحول إلى لهب أبكم، وكانت السنة النار تندلع وتجري كالكرات في كل اتجاه في سير هو أشبه بتدافع أمواج بحر هائج تبحث عن الشاطئ.

كما أن كرة من النار قد اندفعت نحو السقف لتلقى ترحيباً وزخماً من رشاش الماء. وهكذا جعل بخار الماء الهواء كثيفاً خانقاً ليس بعد امتزاجه بالدخان فحسب، بل بعد امتزاجه بالكيماويات التي جعلت رأسه يدور. قفز الدرجات إلى الأسفل متخذاً لنفسه درجتين في كل قفزة. ثم ضربت موجة أخرى من اللهب الطابق العلوي ما لبثت أن تبعثها موجتان أخريان متلاحقتان فتحطم الزجاج، وسُمع صوت شيء ما ينسحق.

اندفع نحو مقدمة المبنى.

وإذا بالماكينة الأخرى التي كانت تلبث هاجعة، تنهض إلى العمل، بادئة بالتجول في أنحاء أرضية الطابق السفلي، مستديرة حول خزائن العرض. وهكذا، بات المزيد من رذاذ هذه الماكينة ينقذف في أرجاء المكان العابق اللاذع الهواء.

كان مستميتاً في رغبته بالخروج. لكن ما العمل والباب الأمامي لا يفتح مصراعاه سوى إلى الداخل وهما مصنوعان من خشب كثيف معزز بأطُر معدنية. ولم يكن ثمة سبيل لركله إلى الخارج وفتحه؟ لاحظ أن النار قد بدأت تنحدر نزولاً على السلم مستهلكة في طريقها كل عتبة من أعتاب الدرج، وكان نزولها نحوه أشبه بشيطان أرقم يتقدم لمصافحته. وحتى معدن الكروم كان يذوب نوباناً تحت غضبة اللهب.

باتت أنفاسه الآن مرهقة بسبب ضباب الكيماويات، والنضوب السريع للأوكسجين. لا بد من أن أحدهم سيبادر إلى طلب سيارات الإطفاء. لكن لن يكون في مقدرة أحد من رجال الإطفاء القيام بإنقاذه. سيما إذا لامست شرارة واحدة ثيابه المغموسة.

والآن وصل اللهب إلى أسفل سلم الدرج.

لقد صار على بعد عشرة أقدام من النيران فقط.

الفصل الثاني

البندقية، إيطاليا

الأحد 19 أبريل/نيسان

الساعة 12:15 ظهراً

نظر إنريكو فينسينتي نحو المتهم سائلاً إياه: "هل لديك ما تدلي به أمام هذا المجلس؟"

بدا الرجل القادم من فلورنسا غير مكترثٍ للسؤال. "ما رأيك أن تقوم أنت وعصبتك بتلفيق ما يطيب لكم من كلام؟"

وكان فينسينتي راغباً في متابعة السؤال. "يبدو لي أنك تعتقد أنه من الممكن لك أن تستخفّ بنا."

"أيها الرجل البدين ثمة أصدقاء لي." بدا الفلورنسي في الواقع فخوراً بهذه الحقيقة. "الكثير من الأصدقاء."

هنا أوضح له، "إن أصدقاءك لا يعنون لنا شيئاً أما خيانتك فهي مسألة أخرى."

وكان الفلورنسي قد ارتدى من الثياب ما يرقى إلى مستوى المناسبة. فها هو يضع عليه بذلة باهظة الثمن من طراز "زانيي"، وقميصاً من ماركة "شارففيه"، وربطة عنق من ماركة "برادا"، ومعها الحذاء الذي لا بد منه من ماركة "غوسي".

وكان فينسينتي يعلم أن مجموعة الثياب هذه قد يبلغ ثمنها ما ينوف على الدخل الذي لا يحصل عليه معظم الناس في مدة سنة كاملة.

"هل أقول لك شيئاً؟" قال الفلورنسي. "سوف أغادر هذا المكان وأنسى كل شيء عنه... كائناً ما يكون الأمر كله... أما أنتم أيها القوم فتعودون إلى فعل كل ما يحلو لكم أن تفعلوا."

لم يفه أحدٌ من الجالسين إلى جانب فينسينتي بكلمة. فلطالما كان فينسينتي قد حذرهم مسبقاً أن عليهم أن يتوقعوا كلاماً متغطرساً. وكان قد تم استئجار خدمات الفلورنسي هذا، للإشراف على عملٍ نظاميٍّ في آسيا الوسطى، مهمةٌ رأى المجلس أنها بالغة الأهمية. لكن لسوء الحظ فإن الفلورنسي قد عمد إلى تعديل المهمة على وجهٍ يناسب مطامعه الشخصية. لكن الخديعة ما لبثت أن تم اكتشاف أمرها وتم اتخاذ ما يجب اتخاذه من إجراءات مضادة للوقاية منها.

"هل تعتقد أن رفقاءك سوف يقفون إلى جانبك في نهاية الأمر؟" سأل فينسينتي الرجل.

"لست سانجاً إلى هذه الدرجة أيها الرجل السمين. هل أنت ساذجٌ حقاً؟ لقد كانوا هم الذين طلبوا مني أن أفعل ذلك." "ومرة أخرى تجاهل فينسينتي إشارة الرجل إلى بدانته. "لكن هذا هو غير الذي قالوه."

هؤلاء الرفقاء المشار إليهم، ليسوا سوى أفراد عصابة دُولِيَّة هدفها ارتكاب الجرائم. وقد كانت تلك العصابة قد قدمت خدمات برهنت على أنها مفيدة بالنسبة إلى هذا المجلس. ولقد كان الفلورنسي ذا منفعة تعاقدية، وقام المجلس بالتغاضي عن مخادعة العصابة له من أجل إقامة البيّنة على الرجل الكاذب المائل أمام الهيئة. وهو أمرٌ يؤدي إلى إقامة البيّنة على العصابة ذاتها أيضاً. وقد كان ما كان بالفعل. فالأجر الموعود به عن المهمة كان قد حُجب، وكذلك تمت استعادة مقدّم الاتعاب رغم كونه مبلغاً باهظاً. إذ أنه، وبخلاف الرجل الفلورنسي، فقد كانت العصابة تعلم حقّ العلم مع مَنْ هي تتعامل.

"وما الذي تعرفه عنّا؟" سأله فينسينتي.

هزّ الفلورنسي كتفيه هزّة اللامبالاة. "زمرةٌ من الأثرياء الراغبين بالتسلية." راقبت تلك التبجّحات في عين فينسينتي. ذلك لأن أربعة رجال كانوا يقفون

وراء الفلورنسي، وكل منهم رجلٌ مسلح. وكان هذا هو السبب الذي جعل الرجل العاق يخال نفسه آمناً. لقد كان شرطه الذي أصرَّ عليه لقبول المثل أمام المجلس: هو أن يحضر هؤلاء الرجال معه.

"منذ سبع مئة سنة،" قال فينسينتي، "كان ثمة مجلسٌ من عشرة رجالٍ يشرف على شؤون البندقية. ولقد كانوا رجالاً يفترض أنهم على درجة من النضج بحيث لا يميلون مع الهوى ولا يضعفون أمام الإغراء، وكانت مهمتهم تقضي بالحفاظ على السلامة العامة وإخماد المعارضة السياسية. وهذا ما كانوا يفعلونه بالتمام طيلة قرون. كانوا يتحرَّون الوقائع بطريقة سرية ثم ينطقون بالأحكام ويتولون الإشراف على تنفيذها، وكل ذلك باسم دولة البندقية."

"أتعتقد أن هذا الدرس في التاريخ قد يروق لي؟"

طوى فينسينتي يديه أمام كرشه. "بل يجدر بك أن تهتم لهذا الدرس."

"هذا المبنى المظلم يبعث على السامة. هل تعود ملكيته إليك؟"

في الحقيقة كانت الفيلاً قد خسرت سحرها الذي كانت عليه عندما كانت مرة ليست مسكناً عائلياً فحسب، بل مقراً للقياصرة، والأباطرة، والأرشيذوقات، والرؤوس التي طالما حملت التيجان، وكل هؤلاء كانوا يوماً تحت هذا السقف. وحتى نابوليون كان مرة قد نزل في إحدى غرف هذا البيت. لهذا فإنه قال بفخر: "إنه يعود لنا."

"إنك في حاجة إلى مهندس ديكور. هل يكون قد انتهى الحديث بيننا؟"

"لا، بل علي الانتهاء مما كنت أقوم بشرحه."

أشار الإيطالي بيديه إشارة البرم. "هلاً انتهيت بسرعة من ذلك. فلقد بات النعاس يغالبني."

"نحن أيضاً عبارة عن مجلس من عشرة رجال. تماماً مثل سلفنا الأصلي. لذلك فنحن نستخدم المستنطقين، ونشرف على تنفيذ أحكامنا." هنا، أوما بيده فتقدم الرجال الثلاثة من طرف الصالون القصي. "ومثل المجلس الأصلي السالف لنا، فإن قراراتنا هي أيضاً قطعية."

"لكنكم لستم حكومة."

"كلا. بل نحن شيء مختلف عنها تماماً."

ورغم كل ذلك بدا الفلورنسي لا مبالياً. "لقد قدمتُ إلى هنا في منتصف الليل لأن رفقايتي كانوا قد طلبوا مني أن أفعل ذلك لا بسبب من إعجابي بمجلسكم. وقد قمت بإحضار هؤلاء الرجال الأربعة معي من أجل أن يقوموا بحمايتي. لهذا فإن مستنطقيكم قد يجدون أن من الصعب عليهم تنفيذ أي شيء."

رفع فينسينتي نفسه في كرسیه. "أعتقد أن شيئاً ما يجب إيضاحه لك. لقد تم استئجارك لتنفيذ مهمة. لكنك قررت أن تحوّر تلك المهمة بما يتلاءم مع مآربك الخاصة."

"ما لم تكونوا مصرّين على الخروج جميعاً من هذا المكان في التوابيت، فإني أكتفي بالقول لكم إن عليكم تناسي الأمر كله من أساسه."

صار صبر فينسينتي نافداً. وقد كان بحق يكره هذا الجانب من واجباته الرسمية. لذلك فإنه أعطى الإشارة، فتقدّم الرجال الأربعة الذين كانوا قد قديموا بصحبة الرجل الفلورنسي المغفل وأطبقوا عليه.

وهكذا انقلبت نظرة الاعتداد إلى دهشة خالصة.

جرى تجريد الفلورنسي من سلاحه على يد أحد الرجال الأربعة بينما كان الثلاثة الباقون يشدون وثاقه. تقدم محقق إلى الأمام وفي يده لفافة من الشريط اللاصق المتين قام بلفها حول ذراعي الرجل المقاومين بعد ثنيهما إلى ما وراء ظهره. كما تمّ بعد ذلك تقييد رجليه وركبتيه معاً. وكذلك تمّ تكميم وجهه وإحكام إقفال فمه. ثم أرخى الرجال الثلاثة قبضتهم عنه وجرى تمرير جثة الفلورنسي الضخمة بالأرض.

"إن هذا المجلس قد حكم بأنك مذنب بجريمة خيانة عصبتنا." قال فينسينتي. ثم أعطى إشارة ثانية فانفتحت درفتا باب وجرى إدخال تابوت من الخشب المبالغ في طلائه على عجلات. وكان غطاء التابوت مرفوعاً. ذهب عينا الفلورنسي في فرق وحشي عندما بدا له مصيره المنتظر.

تقدّم فينسينتي إلى مسافة قريبة.

"منذ خمس مئة سنة كان يجري عزلُ الخائنين للدولة في خلايا مختومة شديدة الإحكام تقع في مكان فوق قصر الدوق. وقد كانت تلك الخلايا تبني من الخشب والرصاص، ولأنها كانت عرضة لعناصر الطبيعة فقد جرى إطلاق تسمية الأكفان عليها." توقف تاركاً الوقت الكافي لكلمته لكي تبقى معلقة في الهواء. "إنها أماكن رهيبة. ومعظم الذين دخلوا إليها ماتوا فيها. لقد تسلمت أموالنا فيما أنت تحاول في الوقت نفسه أن تحصل لنفسك على المزيد من المال." هز رأسه. "وهذا لا يمكن أن يكون. وبالمناسبة: فإن رفقاءك قد قرروا أن تكون أنت هو الثمن الذي يدفعونه لنا من أجل المحافظة على سلامهم معنا."

قاوم الفلورنسي قيوده بحيوية متجددة، لكن احتجاجاته بقيت ملجومة بالشريط اللاصق المطبق على فمه. قام أحد المحققين باقتياد الرجال الثلاثة الذين كانوا قد أتوا مع الفلورنسي إلى خارج الغرفة. لقد انتهت مهمتهم. أما المحققان الباقيان فقد قاما برفع الرجل المشاكس وبإلقائه في جوف التابوت.

حدّق فينسينتي نزولاً نحو التابوت فقراً بالضبط ما كانت تقوله عينا الفلورنسي. ما من شك أنه قد قام بخيانة العصابة لكنه بذلك كان يفعل ما قد طلبه منه فينسينتي بالذات، وليس أفراد العصابة. لقد كان فينسينتي هو الذي قام بتحويل المهمة وليس الفلورنسي الذي مثل أمام المجلس. ذلك لأن فينسينتي كان قد أسرّ إليه بأن عليه ألا يقلق أو يهتمّ للأمر. فالمسألة في مجملها لن تعدو كونها مسرحية الكلب والفرس. وليس من مشكلة في تمثيل هذه اللعبة. فالمسألة برمتها ستنتهي بالوصول إلى حل في ساعة واحدة من الزمان.

"أنا يقال لي الرجل البدين؟" سأل فينسينتي الرجل قبل أن يقفل عليه غطاء التابوت.

الفصل الثالث

كوبنهاغن

راقب مالون تتابع زحف النار نزولاً على الدرج إلى أن توقف تقدّمها عند الربع الأول من الدرج بون أن يبدو عليها إشارة تدلّ على الاستمرار في التقدم إلى أكثر من ذلك. وقف أمام أحد الشبابيك مفتشاً عن شيء ما، يمكن القذف به من خلال الزجاج المسطح. لكن الكرسيّ الوحيد الذي استطاع أن يلحبه كان شديد القرب من النار. وفي هذه الأثناء كانت الماكينة الثانية لا تزال تتابع تجوالها في أرجاء الطابق الأرضي متابعة نفث الضباب. كان متردداً في التحرك من مكانه، وكان القيام بنزع ثيابه عن جسده، خياراً قد خطر في باله، لكن ما جدوى ذلك وقد بات شعره وجلده مشبعين أيضاً بالمادة الكيماوية:

ثلاث نقرات قوية على لوح زجاج النافذة كانت قد أجفلته.
استدار فجأة نحو النافذة فإذا بوجه مألوف لديه يحقّق به من خارج الزجاج.
كان الوجه وجه كاسيوبيا فيت.

ترى ما الذي تفعله هنا؟ فضحت عيناه شعوراً بالدهشة. لكنه لم يضع أيّ وقتٍ فاتجه نحوها مباشرة صارخاً. "أريد الخروج من هنا."
أومأت له نحو الباب.
شك لها إصبعيه إشارة إلى أن الباب مقفل.
فأشارت إليه بالابتعاد عنه.

في هذا الوقت كانت شرارة قد انطلقت من الجانب الأسفل للآلة الجوّالة. انطلق

نحوها مباشرة موجهاً إليها ركلة بقصد إبعادها، هنا انقلبت الآلة فلاحظ وجود عجالات وأجهزة ميكانيكية في أسفلها.

سمع صوت ضربة ثم أخرى فأيقن أن كاسيوبيا تحاول أن تفعل شيئاً.

إنها تطلق النار على الزجاج.

ثم شاهد شيئاً لم يلحظه من قبل. ففوق خزائن العرض كان ثمة أكياس بلاستيكية مختومة مليئة بسائل صافٍ.

لقد انكسر الشباك الآن.

ورأى أن لا بد له من المجازفة.

غامر بالاقتراب من السينة الذهب، والنقطة أحد الكراسي التي كان قد لاحظ وجودها بقرب النار سابقاً. طوّح بالكرسي عبر الزجاج المحطم فتناثر الزجاج بالكامل، بينما شق الكرسي طريقه عبر الشباك إلى الشارع الواقع خلفه.

استطاعت الماكينة الجوّالة الآن أن تستعيد وضعها الأول فوق عجالاتها.

علقت إحدى الشرارات المنطلقة منها، مكوّنة شعلة زرقاء، ما لبثت أن امتدت لهباتها لتستهلك أرضية الطابق الأرضي متوسّعة في جميع الاتجاهات، بما فيها الاتجاه الذي يتجه نحوه مباشرة.

تراجع في اندفاع نحو الوراء، ثم قفز من الشباك ليسقط على الرصيف واقفاً على قدميه.

وكانت كاسيوبيا تقف على مبعدة ثلاثة خطوات منه.

شعر الآن باختلاف درجة الضغط الجوّي بعدما تحطم زجاج الشباك. كان لا يعرف سوى القليل عن عمل النيران. أما الآن فقد صار للنيران زخمٌ جديدٌ اكتسبته بفضل وصول الأوكسيجين الجديد إليها بعد تحطم النافذة. كذلك كان لاختلاف درجات الضغط الجوّي فعله الذي يفعله. وهو تأثير يسميه رجال المطافئ بظاهرة الاستيعار.

أما تلك الأكياس البلاستيكية التي تعلق خزائن العرض، فهو يعرف ما هي محتوياتها.

أمسك بيد كاسيوبيا بسرعة وجذبها بقوة عبر الشارع.

ما الذي تفعله بي؟

"لا بد لنا الآن من الغطس للاحتماء بالماء."

وهكذا تمكنا من القفز من فوق حافة الرصيف قبل ثوان، وقد كانت تدركهما كتلة النار التي اندفعت إلى خارج المتحف.

الفصل الرابع

سمرقند

اتحاد آسيا الوسطى

الساعة 5:45 صباحاً.

داعبت يد إيرينا زوفاستينا، رئيس الوزراء، عنق حصانها بينما هي تستعد لخوض غمار المباراة. كانت تحب هذه اللعبة، كما تحب ممارستها عند باكورة إطلالة النهار، بعيد بزوغ الفجر مباشرة، حيث يكون الحقل المعشب بليلاً مخضلاً بالندى. كما أنها كانت تعشق الخيول الرفيعة النسب الآتية من فرغانه، وهي تتصبّب عرقاً. لقد كانت هذه الخيول، ولا زالت، تحصد الجوائز الأولى منذ آلاف السنين. كما كانت تُصدّر إلى بلاد الصين لتُستوفى أثمانها المقابلة بالحرائر النفيسة. ولقد احتوت اصطبلات رئيس الوزراء ما يربو عدده على مئة فحلٍ مؤصّل كانت قد حرصت على اقتنائها ليس لغاياتٍ سياسية فحسب، بل لمتعة اقتنائها أيضاً.

"هل بات بقية الفرسان جاهزين؟" سألت مدبر خيلها.

"أجل يا دولة الرئيس. إنهم ينتظرونك في المضمّار." كانت تنتعل زوجاً من الأحذية العالية الساق، وترتدي سترة جلدية فوق قفطان طويل. وكان شعرها الأشقر الفضّي القصير متوجّجاً بقبعة جلدية مصنوعة من فرو نئب ما فتئتُ تعترّ بالقيام باصطياده شخصياً. "إذاً علينا ألا نجعلهم ينتظروننا طويلاً."

امتطت لجوادها.

لقد سبق لها ولجوادها أن ربّحا معاً لعبة "البوزكاشي". لعدة مراتٍ سلفت. والبوزكاشي لعبة قديمة كانت تجري منذ القديم عبر السُّهوب، ويمارسها فرسان

عاشوا أعمارهم فوق صهوات الجياد، وماتوا فوقها. حتى أن جنكيزخان نفسه كان يعشقها. لكن النساء لم يكن من المسموح لهنّ حتى بمشاهدة هذه اللعبة، فضلاً عن مزاولتها.

لكنها كسرت تلك القاعدة.

انتصب حصانها الرشيق القوائم، العريض الصدر، وهو يحسُّ بأناملها تداعب عنقه. "مهلاً مهلاً يا بوسيفيلُس." خاطبته قائلة.

لقد أطلقت على حصانها ذلك الاسم تيمناً بالحصان الذي حمل الإسكندر الكبير مرة عبر قارة آسيا، وخاض معه المعركة تلو الأخرى. والخيول الصالحة لممارسة لعبة البوزكاشي خيول نادرة الوجود وتمتاز عن سواها. فقبل أن يصبح الحصان جاهزاً للاشتراك في مباراة واحدة فإنه يلزمه أن يكون قد خضع لسنوات من التدريب الذي يجعله معتاداً على الاضطراب الذي يسود هذه اللعبة. وإلى جانب ضرورة تغذيته بالشوفان والشعير فقد كان ينبغي إضافة البيض والزبدة إلى وجبته اليومية. وفي نهاية الأمر إذا سُمِنَ الحيوان فقد كان يتم عادة لجمه وسرجه وإيقافه تحت أشعة الشمس لمدة قد تصل إلى عدة أسابيع في كل مرة ليس من أجل أن يذيب وزنه الزائد فحسب، بل من أجل تعويده على الصبر والاحتمال أيضاً. وحتى أنه يصبح أيضاً في حاجة إلى المزيد من التدريب عندما يصل الأمر إلى اجتياز مرحلة الربع الأخير من العدو. هذا وتُحْتُ الجياد على اكتساب قوّة الشكيمة لكنها دائماً تروّض وتؤدّب إلى أن يصبح الحصان وفارسه فريقاً واحداً متناغماً.

"هل أنت مستعدة؟" سألها سائس حصانها. وكان الرجل طاجيقياً مولوداً في الجبال الشرقية، وقد مضى عليه الآن في خدمتها زهاء عقدٍ واحدٍ من الزمان. وكان هو الشخص الوحيد الذي تسمح له بتولي مساعدتها للتجهّز من أجل المباراة.

طبّطبت بكفّها على صدرها. "أعتقد أنني في غاية الجهور." كانت سترتها الجلدية المخطّطة بالفرو، تأخذ شكل جسمها تماماً مثلما هو حال بنطالها الجلدي. وقد كان يناسبها جداً ألا يكون أي شيء من بنيتها المتينة ينتمي بالضبط إلى الأنوثة. فقد كانت أطراف جسمها العضلية مكتنزة بالعضلات القوية المنتفخة بسبب التدريب الروتينيّ الدقيق، والحمية الغذائية الصارمة. وكان وجهها الطافح، وملامحها

العريضة، تحمل مسحة من العرق المنغولي، مثلما كان حال عينيها العسليتين الغائرتين. ويعود فضل ذلك كله إلى أمها التي تتحدر جذور عائلتها من أقاصي الشمال. وقد جعلتها السنوات الطويلة من التدريب الذاتي الصارم سريعة الإصغاء والفهم، بطيئة الكلام والاستجابة. وكانت معيناً للطاقة والحيوية لا ينفك عن الفوران.

وكان كثير من الناس قد تنبأ بأن الاتحاد الآسيوي هو مشروع مستحيل، لكنها برهنت لهم خطأ ذلك الاعتقاد. فها هي الآن كيانات كازاخستان، وأوزبكستان، وقيرغيزستان، وكازاكال باكستان، وطاجيكستان، وتركمانستان، قد زالت ولم يعد لأيٍّ منها وجود مستقل. فمنذ خمس عشرة سنة حاولت هذه البلدان التي كانت أجزاء من الاتحاد السوفييتي السابق، أن تستقل كل بذاتها لمدة قصيرة من الزمن، ثم ما لبثت جميعاً أن ذابت في دولة واحدة هي: "اتحاد آسيا الوسطى". دولة تبلغ مساحة أراضيها تسعة ملايين كيلومتر مربع ونصف، ويبلغ تعداد سكانها ستون مليوناً. إنها امتداد من المناطق الشاسعة التي تناهز كلاً من أمريكا الشمالية وأوروبا من حيث الحجم والنطاق والموارد. لقد بات حلمها الآن واقعاً متحققاً.

"خذي الحذر يا دولة الرئيس. إنهم يمتنون النفس بالتفوق عليك."

ابتسمت له. "إذاً عليهم أن يكونوا جادين في اللعب."

وكان سكان الاتحاد يتخاطبون باللغة الروسية، مع أن كلاً من اللغات الدرّية، والقوزاقية، والطاجيكية، والتركمانية، والقيرغيزية، كانت مكرّسة كلغة رسمية بين اللغات الفدرالية للاتحاد. لكن اكتسوية بين عدة لغات سلافية فقد أبقى على اللغة الروسية "كلغة للتخاطب العابر للإثنيات."

انفتحت أبواب الاصطبل فمدّت نظرتها إلى الحقل المستوي الممتد أمامها إلى مسافة تزيد عن كيلومتر واحد. وفي اتجاه وسط هذا الحقل كان قد تجمع ثلاثة وعشرون فارساً بالقرب من حفرة غير ذات عمق. وفي داخل تلك الحفرة كان يوجد ما يسمى بال: "بُورُ". وهو عبارة عن جثة عنزة فصلت عنها الأطراف والرأس والأحشاء ثم نُقِعت بالماء القارس البرودة لمدة يوم واحد لتكتسب متانة تؤهلها لما هي عرضة لتحمله.

وكانت سارية عارية قد رُكِزت عند كل طرفٍ من أطراف الميدان.

واستمرّ ركوب الخيالة الباقين. إنهم "الشاوبينوز" اللاعبون من أندادها. وكلهم جاهز للمباراة.

ناولها سائس حصانها سوطاً. ومنذ قرونٍ خلت كانت مثل هذه الأسواط تصنع من سيور جلدية معقودة على كراتٍ من الرصاص. لقد صارت هذه الأسواط أكثر رقةً الآن، لكنها لا تزال تستخدم ليس لغرض حث الحصان فحسب، بل لغرض مهاجمة اللاعبين الآخرين أيضاً. وكان السوط الذي في يدها مزيّناً بمقبض عاجيٍّ جميل.

عدّلت من جلستها فوق سرج جوادها.

وكانت الشمس قد اشرقت لتوها فوق وسط الغابة الشرقية. وكان قصرها هو ذاته مرة محل إقامة الملوك الذين حكموا المنطقة حتى القرن التاسع عشر عندما حصل الغزو الروسي. كان القصر مؤلفاً من ثلاثين غرفة مزيّنة بالأثاث الفاخر الأوزبكستاني والبورسلان الشرقي. أمّا القسم الذي تحوّل الآن إلى إسطنبول للخيول فقد كان مرة مكاناً لإيواء حريم القصر. والشكر لله الآن على انقضاء تلك الأزمان. سحبت نفساً عميقاً إلى صدرها، وقد جاء هواؤه محملاً برائحة زكية ليوم جديد.

"عليك بأفضل اللعب"، قال لها السائس.

عبّرت له عن امتنانها لتشجيعه بهزةً من رأسها قبل أن تدخل أرض الملعب. لكنها لم تستطع الامتناع عن التعجب.

ما الذي تُراه يحدث الآن في الدانمارك؟

الفصل الخامس

كوبنهاغن.

وقف فيكتور توماس في الظلّ عبر القنال يرقب احتراق المتحف اليوناني - الروماني. واستدار نحو شريكه دون أن يقول شيئاً لأن الصمت كان أبلغ من الكلام.

مشكلة.

لقد كان رافائيل هو الذي هاجم الدخيل ثم قام بسحب الجسد المغمى عليه إلى داخل المتحف. وبطريقة ما، بعد دخولهما المكتوم، فإن الباب الخارجي قد بقي موارباً. ومن درابزون الطابق الثاني كان قد لمح خيال شخص يقترب من مدخل المبنى. وكان رافائيل الذي يعمل في الطابق الأرضي قد استجاب فوراً متخذاً لنفسه مكاناً في الداخل. صحيح أنه كان من الأحرى به أن ينتظر بكل بساطة انكشاف نوايا الدخيل، لكنه بدلاً عن ذلك قد قام باجتذاب الرجل إلى الداخل قبل أن يهوي على رأسه بأحد التماثيل.

"أما المرأة" قال رافائيل. "فقد كانت تنتظر وهي تحمل مسدساً في يدها. وهذا لا يمكن أن يكون إشارة حسن نية."

وقد وافق على أنه كان لها شعر فاحم طويل، وقوام رشيق وسترة رياضية ضيقة. وحالما شبت النار في المبنى خرجت من الممر لتقف عند القنال، ثم أخرجت مسدسها وقامت بإطلاق النار على زجاج النافذة.

أما الرجل فقد كان هو أيضاً جزءاً من المشكلة.

كان أشقر الشعر طويلاً وعضلي الجسم. وقد قام بقذف كرسي من خلال الزجاج ثم قفز إلى الخارج في لياقة مثيرة للعجب، كما لو أنه قد تدرب على هذه

القفزة من ذي قبل. وقد قام هذا الرجل على الفور بتشديد قبضته على المرأة قبل أن يغطسا معاً في مياه القنال.

وصلت فرقة الإطفاء في غضون دقائق. وذلك فور إخراج الرجل والمرأة من الماء، وبعد لفهما بالأدثرة. لقد قام فريق السلاحف هذا بأداء مهمته. كان رافائيل قد أطلق عليهما (على نفسه وعلى رفيقه) لقب فريق السلاحف لأنهما قد برهنا على هذا الشبه من وجود عديدة، ومنها قابليتهما لتبرئة نفسيهما. والفضل في ذلك يعود إلى عدم وجود أية بقايا تدل على الألتين المستخدمتين لأنهما مصنوعتان من مواد قابلة للاشتعال بحيث أنهما تبخرتا في جو الحرارة العالية الذي نتج عن الحريق المدمر الذي تسببتا به. صحيح أن المحقق لن يتردد في اعتبار الحريق مدبراً ومفتعلاً لكن سوى ذلك سيبقى يعوزه الدليل على الأسلوب وعلى آلية التنفيذ، لأن الجزم بذلك هو أمرٌ من المستحيل أن يُركن إليه.

ما خلا الجزم بأن الفاعل قد نجا.

"هل تراه سيكون مصدراً للتهديد؟" تساءل رافائيل.

استمر فيكتور في مراقبة رجال الإطفاء وهم يكافحون الحريق، فيما جلس الرجل والمرأة على الحافة الإسمنتية وهما لا يزالان يتلفعان بالأدثرة.

ولقد بدا عليهما أنهما متعارفان.

وهذا ما زاد في قلقه.

لهذا، فإنه أجاب عن تساؤل رافائيل بالإجابة الوحيدة التي وجد أنها ممكنة.

"لا شك في ذلك."



لقد تمكن مالون الآن من استجماع ذهنه. وها هي كاسيوبيا تتكؤم داخل بطانييتها بالقرب منه. أما المتحف فلم تبقى عليه النار من أثر سوى أنقاض الجدران التي يخلو داخلها من أي شيء. لقد التهمت النيران ذلك المبنى القديم في سرعة هائلة. واستمر رجال الإطفاء في العمل على السيطرة على الحريق مركزين اهتمامهم على عدم

مفاقمة الدمار. وحتى تلك اللحظة أمكن منع امتداد الأذى إلى الأبنية الملاصقة التي لم يصب أيُّ منها بأذى.

كانت رائحة نسائم المساء العابقة بالدخان والسخام، إلى جانب الرائحة الأخرى الحريفة، على حلاوة، التي كان قد اشتَمَّها لأول مرة عندما كان لا يزال محتجزاً في داخل المتحف. واستمر الدخان في التصاعد نحو السماء حاجباً النجوم اللامعة. وتقدم رجل قويُّ البنية عليه بذلة إطفائيٍّ قاتمة قذرة، من مالون وكاسيوبيا للمرة الثانية. لقد كان الرجل أحد قادة فريق الإطفاء. كما كان أحد أفراد شرطة المدينة قد سجَّل أقواله وأقوال كاسيوبيا.

"مثلما قلتَ عن رشاشات الماء المركزة في السقف،" قال قائد فريق الإطفاء في لغة دانماركية. "لقد بدا لنا أن مياه خراطيمنا لم يكن لها من أثرٍ سوى في التسبب في زيادة توهُّج هذا الحريق."

"وكيف تمكنتم في نهاية الأمر من إخماد النار؟" سأل مالون. "عندما فرغْتَ خزانائنا من السائل الذي كنا نستخدمه في مكافحة النار، عمدنا إلى إنزال خراطيمنا إلى مياه القنال لنضخَّ منها مباشرة. فإذا بمياه القنال تنجح في ذلك."

"هل يعود السبب إلى ملوحة هذه المياه؟" فقد كانت جميع قنوات المدينة مفتوحة على مياه البحر.

هزَّ رئيس الفريق رأسه بالموافقة. "نعم أوقفت النار وقامت بتبريدها."

لقد أراد أن يعرف. "هل عثرتم على أيِّ شيء داخل المبنى؟"

"لم نعثر على أيِّ من تلك الماكينات الصغيرة التي قد أتيت على ذكرها للبوليس. لكن المكان كان قد تعرَّض إلى حرارة شديدة كانت كافية حتى لإذابة التماثيل الرخامية." مرَّ قائد الفرقة يده على شعره البليل. "لقد كان الوقود شديد التأثير. وإننا قد نحتاج إلى ثيابك لأنها الطريقة الوحيدة التي قد تدلُّنا على تركيبة هذا الوقود."

"بل قد لا يكون ذلك مفيداً لكم،" أجابه. "فأنا أيضاً قد غطستُ في مياه القنال المالحة."

"ملاحظة نكية." قال رئيس الفرقة وهو يهز رأسه. "إن المحققين الذين سيعكفون على تحليل المواد المستخدمة في الحريق المدبر سيجدون هذه الملاحظة مثيرة للاهتمام."

وحالما انصرف عنهما الإطفائي بتثاقل، استدار مالون نحو كاسيوبيا، وشرع يستجوبها. "هل تريدين أن تقولي لي ما الذي يجري هنا؟"

"لم يكن من المفترض بك أن تكون موجوداً هنا قبل صباح يوم غد."

"هذا لا يشكل إجابة عن سؤالي."

كانت خصلات بليلة من شعرها الفاحم الغزير المتدلّية إلى كتفها تشكّل شبه إطار لوجهها الساحر. كانت مسلمة إسبانية تعيش في جنوبي فرنسا. وكانت امرأة نكية وثريّة ومزهوّة، فهي مهندسة وعالمة تاريخ. لكن حضورها إلى كوبنهاغن قبل يوم واحد من الموعد الذي ضربته له، كان لا بد من أن يعني شيئاً ما. كما أنها قد جاءت مسلّحة وعليها ملابس تصلح للقتال. بنطال جلدي أسود وسترة جلدية ضيقة. وقد حار في أمرها. هل تراها ستكون متعاونة معه أم أنها ستكون مشكلة له.

"لقد كان من حسن حظك أنني قد تواجدتُ هنا كي أنقذ جلدك،" قالت له. "لم يكن قادراً على التأكد مما إذا كانت جادة في قولها أم أنها كانت تختبره فقط. وكيف عرفت أن جلدي يحتاج إلى إنقاذ؟"

"إنها قصة طويلة يا كوتون."

"إن وقتي كله لك لكي تسمعيني إياها. فأنا رجل متقاعد."

"أما أنا فلا."

سمع النبرة الكاوية في كلامها فأحسّ بشيء ما. "لقد كنتِ على علم أن هذا المبنى سوف يحترق، أليس كذلك؟"

لم تحاول النظر إليه، بل تركت أنظارها معلّقة على القنال. "لقد كنت في الحقيقة أريده أن يحترق."

"هل تتكرمين عليّ بتفسير قولك هذا؟"

جلست في صمت وهي غارقة في أفكارها. "لقد أتيت إلى هنا في وقت سابق. وقد راقبتُ دخولَ رجلين خلسة إلى داخل المتحف. ولقد رأيتهما يمسكان بك. وكنت في حاجة إلى اقتفاء أثرهما، لكنني لم أتمكن من ذلك." توقفت قليلاً، "بسبب اضطراري إلى الانشغال بك."

"ومن يكونا؟"

"إنهما الرجلان اللذان تركا وراءهما تلكما الماكينتين."

كانت قد أصغت إلى إفادته التي رواها إلى رجال البوليس. لكنه كان طيلة الوقت يشعر بأنها تعرف الرواية كلها. "ما رأيك في أن نختصر التفاصيل التافهة وأن تقومي بإخباري مباشرة بحقيقة الذي يجري هنا. كدتُ أخسر حياتي بسبب ما تقومين به من عمل."

"كان عليكَ عدم الاهتمام بالأبواب المفتوحة أثناء الليل."

"يصعب على المرء كسر عاداته القديمة. قل لي: ما الذي يجري؟"

"لقد رأيتَ النيرانَ وأحسستَ بحرارتها. وهي من نوع غير اعتيادي. ألا توافقني الرأي؟"

استرجع في ذاكرته كيف أن النيران كانت تتحدّر على الدرج، ثم إذا بها تتوقف كما لو أنها تنتظر مستحثاً جديداً. "تستطيعين أن تقولِي ذلك".

في القرن السابع، عندما هاجم الأسطول الإسلامي القسطنطينية، كان ينبغي للمسلمين اجتياح المدينة بسهولة. فقد كانوا أفضل سلاحاً ولا تنقصهم كثافة العدد. لكن البيزنطيين كانوا قد أعدوا لهم مفاجأة. كانوا يطلقون عليها اسم النار المائعة أو النار المتوحشة. وهكذا، فإنهم أطلقوا تلك النار على سفن المسلمين مما أسفر عن تدميرها جميعاً وإغراق الأسطول المهاجم بكامله. "وكانت كاسيوبيا لا تزال مشيخة بأنظارها عنه." وقد استمر وجود هذا السلاح بأشكال مختلفة إلى زمن الحملات الصليبية حيث اكتسب في نهاية الأمر تسمية النار الإغريقية. وقد كانت تركيبة هذا السلاح الأصلية أمراً في غاية السرية إلى درجة أنها كانت تحفظ عند كل إمبراطور بيزنطي شخصياً. لقد حرصوا دائماً على حسن حماية هذا السر بطريقة جيدة. وعندما سقط الإمبراطور الأخير أخيراً، فإن سر التركيبة ضاع معه. "سحبت نفساً

عميقاً جداً بينما هي ما زالت مستمرة في التشبث ببطانيتها. "لكن السرُّ ما لبث أن اكتُشف من جديد."

"هل تريد أن تقولي لي أنني قد انتهيت لتوي من معاينة النار الإغريقية؟"
"ولكن مع بعض التحوير فيها. فهذا النوع المعدل لا يقوى على مقاومة المياه المالحة."

"إن لم لم تقدّمي هذه المعلومة إلى رجال الإطفاء فور وصولهم إلى موقع الحريق؟"

"لا أرغب في الاسترسال في إجابة عن الأسئلة إلى درجة تتخطى ما ينبغي عليّ الاكتفاء به."

لكنه كان يريد حقاً أن يعرف، "ما الذي يدعوك إلى ترك هذا المتحف يحترق؟ هل كان ثمة عواقب تبرّر ذلك؟"

حقّ من جديد إلى الكتلة المحترقة فوق وقع نظره على بقايا دراجته المتفحّمة. كما أحسّ أن كاسيوبيا ما زالت تخبّي أشياء أخرى بدليل استمرارها في تحاشي النظر إليه. ولم يكن منذ بدء معرفته بها، قد لحظ لديها أية إشارة تحمله على الارتياب بها أو على الاعتقاد أنها عصبية المزاج، أو مكتئبة، إذ أنها بدت له دائماً قويّة، شغوفة، أنيقة السلوك، حسيّفة الرأي.. أما في اللحظة الحاضرة، فإنها تبدو مبلّلة الفكر.

ظهرت سيارة عند النهاية البعيدة للشارع المغلق. وقد استطاع أن يتميّن سيارة السيدان البريطانية والقامة الحذاء للشخص الذي ترجّل من مقعدها الخلفي. إنه هنريك ثورفالدسن.

انتصبت كاسيوبيا واقفة. "لقد حضر بقصد التحدث إلينا."

"وكيف عرف أننا هنا؟"

"إن شيئاً ما، يحدث يا كوتون."

الفصل السادس

البندقية، الساعة 2:30 ليلاً

كان فينسينتي سعيداً لأنه أمكن تجنب الكارثة التي كان من الممكن للفلورنسي أن يحدثها. لقد ارتكب خطأ. وقد كان الوقت مداماً بينما هو يلعب لعبة خطيرة. لكن يبدو أن القدر قد أسعفه بأن منحه فرصة أخرى.

"هل الوضع في آسيا الوسطى تحت السيطرة؟" سأل أحد أعضاء المجلس العشرة. "هل أمكن تجميد ما كان ذلك الأحمق يحاول أن يقوم به؟"

بقي جميع الرجال والنساء الحاضرين للاجتماع متلكنين في القاعة، بينما كان الفلورنسي يصارع في داخل تابوته الذي يجري جرّه إلى الخارج على عجلات. لكن رصاصة تصوّب إلى رأسه بعد قليل، ستُسكت كل هذه المقاومة.

"نحن في وضع حسن"، أجابه. "لقد قمت بتدارك الأمر بنفسي. لكن رئيس الوزراء زوفاستينا سيدة تتقن فن الاستعراض. وإني أفترض أنها ستقوم باستخدام الأحداث استخداماً مشهيداً."

"لا يمكن الركون إلى هذه المرأة." قال آخر.

كان يعجب من فرط حماسة الاتحاد مع أن زوفاستينا تعتبر حليفهم، ولكنه مع ذلك، وافق الرجل. "الحكام الاستبداديون هم مشكلة دائمة." وقف وتقدم من خريطة معلقة إلى جدار. "ومع ذلك فلا عجب أن تكون قد تمكنت من تحقيق الكثير."

"لقد تمكنت من دمج ست دول آسيوية فاسدة في إطار اتحاد قد يكون دولة ناجحة بالفعل." أشار. "لقد تمكنت واقعياً من إعادة رسم خريطة العالم."



"ولكن كيف تمّ لها أن تفعل ذلك؟"

طرح أحدهم هذا السؤال. "من المؤكد أن ذلك لم يكن بالوسائل الدبلوماسية."

كان فينسينتي يعرف الحقائق السياسية لهذا الموضوع. فبعد سقوط دولة الاتحاد السوفييتي، عانت آسيا الوسطى من ويلات الصراع الإثني والحرب الأهلية، حيث إن كل أمة من أمم هذه الـ "ستانات" المختلفة الناشئة، باتت تكافح في سبيل كيان مستقل بها. ذلك أن ما دعي بـ: "اتحاد الدول المستقلة" الذي خلف دولة الاتحاد السوفييتي، كان في الواقع اتحاداً ليس له سوى وجود اسمي فقط. وكان الفساد والعجز أمرين طاغيين. وكانت إيرينا زوفاستينا تشرف على شؤون الإصلاحات المحلية تحت حكم غورباتشوف عميد البيروسترويك والغلاسنوست.

وقد كانت هي رأس حربة في حملة محاكمة الكثير من البيروقراط الفاسدين. وعليه، وفي نهاية المطاف، فإنها قامت بقيادة الحملة الهادفة إلى طرد الروس، معيدة إلى أذهان شعبها الغزو الكولونيالي الروسي لهم، قارعة ناقوس الخطر البيئي، ومشيرة إلى أن الآسيويين إنما يموتون بالآلوف نتيجة للتلوث الذي أحدثه الروس لهم. إلى أن تمكنت في النهاية من الوقوف أمام الجمعية الوطنية في كازاخستان وتمكنت من إعلان الجمهورية أمام النواب الحاضرين.

ولم تمضِ على ذلك سنة واحدة حتى جرى انتخابها رئيساً.

وقد رحب الغرب بها. إذ أنها بدت كأنها الإصلاحية الوحيدة التي تبرز في منطقة لم تعرف الإصلاح إلا نادراً. إنها منذ خمس عشرة سنة، أدهشت العالم بأسره عندما أعلنت ولادة اتحاد آسيا الوسطى.

ست أمم استحوالت الآن أمة واحدة.

ومع كل ذلك، فإن زميل فينسينتي كان على حق. لم يكن في الأمر لا أعجوبة إلهية، ولا لعبة بارعة. لهذا، فإنه أجاب عن تساؤل زميله بعرض الواقع الواضح. "لقد تمكنت من تحقيق ذلك لأنها قوية ونافذة."

"وبسبب حسن حظها بزوال منافسيها السياسيين."

"لطالما كانت هذه هي الطريق المؤدية إلى السلطة على الدوام،" قال له. "ليس لنا أن نعيب عليها ذلك. فكلنا يفعل الشيء نفسه." ثم حدّق في عضو آخر من أعضاء المجلس. "هل وصلتِ المبالغُ إلى مكانها؟"

أوما أمين الخزانة برأسه أن نعم. "3,6 بليون موزعة على حفنة من المصارف حول العالم. وجميعها ستسلك سلوكاً نظيفاً إلى سمرقند."

"أفترض أن الأعضاء التابعين لنا جاهزون؟"

"موجة جديدة من الاستثمارات سوف تبدأ حالاً. إن معظم الأعضاء يخططون لتوسعات استثمارية ضخمة. إنهم حريصون على التقيد بتوجيهاتنا حتى الآن."

كان الوقت مدهماً مثلما كان هو الحال مع مجلس العشرة الأصلي، فنصف أعضاء المجلس الحاليين ستنقضي مدة مناوبتهم في المجلس قريباً. فالأنظمة

الداخلية للعصبة تقضي أن يتم استبدال خمسة من أعضاء المجلس العشرة بسواهم كل سنتين. أما ولاية فينسينتي فسوف تنقضي في أقل من ثلاثين يوماً. وهي نعمة ومشكلة في آن معاً.

منذ ست مئة سنة كانت البندقية جمهورية أوليغارشية يحكمها التجار من خلال نظام سياسي معقد صُمم لمكافحة الاستبداد المطلق. وقد كانت الغرضيات والمكائد تعطل بعمليات تستند كثيراً إلى الحظ والفرص. ولم يكن ثمة شخص واحد يمسك في قبضته السلطة الأحادية. كانت الجماعات على الدوام هي التي تقدم النصح والقرارات والتنفيذ. وهي جماعات يجري تداول المواقع فيها في فترات زمنية منتظمة.

لكن الفساد بقي رغم ذلك يتابع زحفه في الخفاء. فالمكائد والأهداف الوضيعة ترعرعت، وحيكت شبكات وشبكات من المؤامرات. لكن الرجال كانوا يتمكنون على الدوام من تدبّر الأمور. وهذا هو حاله أيضاً.

ثلاثون يوماً.

إنها فسحة من الوقت أكثر من كافية.

"وماذا عن رئيس الوزراء زوفاستينا؟" سأل أحد أعضاء المجلس. قاطعاً عليه استرساله في أفكاره. "هل سوف تكون الأمور على ما يرام معها؟" "هذا هو"، قال، "ما يمكن اعتباره كافياً من حديث في هذا اليوم."

الفصل السابع

سمرقند

اتحاد آسيا الوسطى

الساعة 6:20 صباحاً.

لكزت زوفاستينا حصانها، فجلد الفرسان الباقون خيولهم أيضاً. تطايرت رقاع الوحل في الفضاء نحوها من الأرض التي فللّتها حوافر الخيول. عضّت على مقبض السوط بأسنانها، وأمسكت بعنان حصانها بكلتي يديها. ولم يكن ثمة أحدٌ حتى الآن قد هاجم رُمة العنزة الملقاة في غورٍ من الأرض.

"هيا الآن يا بوسيفيلُس"، تكلمت إلى حصانها. "لقد جاء الوقت لكي نريهم." لَوّت جسدها، فاندفع الحيوان في الاتجاه مباشرة.

كانت اللعبة غاية في البساطة: يلتقط الفارس تلك الرُمة ثم يكرُّ بها على حصانه وهو يحملها في يده إلى نهاية الحقل، حيث يدور من وراء السارية، ثم يلقي بها في مستديرة العدالة، المرسوم إطارها بذريعات الكس فوق الأعشاب. ولعلّ الأمر يبدو بسيطاً للوهلة الأولى. لكن المشكلة تأتي من أن قانون اللعبة يسمح لأيّ فارسٍ آخر أن يفعل تقريباً كل ما يحلو له ليتمكن من انتزاع الرُمة من زميله.

وإن يتلقى أحدهم دعوة للاشتراك في مباراة البوزكاشي معها كان يعتبر شرفاً كبيراً له. ولقد كانت هي تختار المشاركين بعناية شديدة. وكان اللاعبون في هذا اليوم خليطاً من حراسها الشخصيين، بالإضافة إلى تسعة من الضيوف المدعوين، وكان اللاعبون يشكلون فريقين يتألف كل منهما من إثني عشر لاعباً.

ولقد كانت هي المرأة الوحيدة بينهم.

وكان ذلك يروق لها.

لقد بدا أن بوسيفيلس يحسُّ بما هو متوقَّع منه. لذلك، فإنه أطبق على الرُّمة، فاندفع لاعب آخر بقوة نحو خاصرة حصانها اليمنى. لكن زوفاستينا استعادت السوط إلى يدها وجلدت به وجه اللاعب الآخر لاسعة إياه بالسيور الجلدية الرفيعة. إلا أنه أهمل هجومها عليه متابعاً حملته عليها بعد أن انضمَّ إليه ثلاثة آخرون من الخيالة، وكلُّهم يحاول اعتراضها.

لكن اثنين من أعضاء فريقها لحقا الآن بالركب، واشتبكا مع مهاجميها الثلاثة. وتشكلت زوبعة من الفرسان والخيول تدوُّم حول الرُّمة.

وكانت هي قد أوعزت إلى أفراد فريقها في وقت سابق، أنها تنوي أن تكون هي أوَّل من يدور حول السارية، وقد بدا عليهم أنهم يقومون بتنفيذ الدور المطلوب منهم بما يتناسب مع ما هي تقوم به.

فارسٌ رابعٌ من الفريق المعادي شق الطريق بحصانه إلى مسافة قريبة منها.

وعند ذلك صار العالم كله يدور حولها، إذ تشكلت حولها زوبعة دوَّارة من عشرين فارساً. وكانت لسعة من سوط أحد أخصامها قد وجدت الطريق إلى صدرها. لكن السترة الجلديَّة الثقيلة امتصَّت اللسعة. في العادة، إن توجيه ضربة لرئيس الوزراء هي جريمة جنائية كبيرة، لكن هذه القاعدة القانونية يجري رفعها أثناء لعبة البوزكاشي. كانت تريد من اللاعبين المشتركين معها أن يلعبوا دون تحفُّظ.

فارسٌ زلٌّ عن ظهر جواده وكبا إلى الأرض.

لم يأبه به أحد ولم يتوقف أي فارسٍ آخر لمساعدته. إذ أنه لم يكن مثل ذلك مسموحاً.

لقد كان تكسُّرُ عظام الأطراف، والإصابة بالجراح واللسعات، من الأمور الشائعة في هذه اللعبة. فلقد مات في الحقيقة خمسة رجال على أرض هذا الميدان خلال السنتين الماضيتين فقط. فالإصابات المميتة كانت غير مستبعدة الحدوث.

وحتى القانون الجنائي الاتحادي كان يستثني حوادث القتل في لعبة البوزشاكي من الملاحقة والتجريم.

وهنا هي الآن تدور حول الحفرة الضحلة العمق.

وكان فارس آخر قد وصل أيضاً إلى الرُمة لكنها ضربت على يده بالسوط. ثم أحكمت قبضتها على عنان الحصان مخففةً من سرعة بوسيفيلس مجبرة بقية الفرسان على الاستدارة حولها لتندفع مرة أخرى منتزعة الرُمة قبل أن يتمكن أي من الرجال من اللحاق بها.

وهنا هوى فارسان آخران فوق الأديم.

كانت كل نشقة هواء تستنشقها تأتي محملة بالوحل والعشب، فتضطر إلى بصق الرواسب. لكنها كانت منتشية برائحة عرق الخيول.

أعادت دس مقبض السوط في فمها. ثم انحنت إلى الأمام، يد تمسك بعنان الحصان، والأخرى تمتد لتنتزع الرُمة. وكانت الدماء تنز من مواضع احتراز رقبة العنزة، وأطرافها. جرّت رُمة العنزة الميتة، ورفعتها بشدة، ثم أشارت إلى بوسيفيلس كي يجنح نحو اليسار، وبذلك، فقد بات يحكم اللعبة الآن ثلاث قواعد فقط.

لا يجوز ربط الرُمة بالخيال. لا يجوز الضرب على يد حاملها. لا يجوز التسبب للخيول بالزلل.

حان الآن وقت الجري من وراء السارية. استحثت حصانها بوسيفيلس.

وهنا حمل عليها أعضاء الفريق الآخر.

لكن رفاقها في الفريق خفوا لنجدتها.

كانت رُمة العنزة ثقيلة قد يصل وزنها إلى ثلاثين كيلوغراماً. لكن ذراعيها القويين كانتا كفوءين لما هو أكثر من ذلك. وقد استمر الدم يتسرّب إلى يدها وإلى كُم سترتها.

ضربة تلقفتها على فقارها أعادتها إلى حدة الانتباه.

استدارت.

ووجدت في مواجهتها فارسين من الفريق الآخر. وازداد ازدحام الأخصام حولها.

كانت الحوافر تدق في التربة الطرية كأنها قصف الرعود. واشتعل أعضاء فريقها بصوت الخيل الصاهلة فخفوا لنجدتها. وجرى تبادل الضربات. لكنها تشبثت بالرُمة تشبُّث المستميت، وبات مرفقاها في غاية الألم.

أمَّا السارية فقد كانت على مبعدة خمسين متراً منها.

وكان الميدان يمتد إلى ما وراء القصر الصيفي فوق سهل معشب كان قد تحوّل في نهاية الأمر إلى غابة كثيفة. وكان السوفييت قد حوّلوا هذا المجمع إلى منتجع ترفيهي لنخبة الرفاق في الحزب الشيوعي. وهذا هو سبب الإبقاء على هذا المعلم، والمحافظة عليه. كانت هي قد غيّرت تصميم المكان. لكنها أبقت، عن حكمة، على بعض التعديلات التي أدخلها عليه الاحتلال الروسي.

انضم الآن مزيد من الفرسان إلى الوطيس الحامي بعد أن احتدم الصراع بين أعضاء الفريقين.

وكانت الأسواط تقرقع.

والرجال يثنون تحت وطأة الألم.

والشتائم والإهانات تتطاير في الهواء.

اندفعت إلى المقدمة، لكنها لم تفلح في التقدم كثيراً. وكان عليها أن تخفف من سرعة الحصان كي تستدير حول السارية وتبدأ رحلة العودة إلى مستديرة العدالة، وهذا من شأنه أن يعطي الجميع فرصة للانقضاض. ومع أن فريقها بقي يساندها بكفاءة، حتى هذه اللحظة، إلا أن قواعد اللعبة، في هذه المرحلة، باتت تسمح لأي كان أن يسلب الرُمة ويجري بها في سبيله.

لهذا قرّرت أن تجعل الجميع في شتاتٍ من أمرهم.

لكرت حصانها متجهة به نحو زاوية اليمين.

لم تكن ثمة قاعدة تحظرُ الدخول إلى أي منطقة. لذلك فقد كان بمقدور الفرسان أن يفعلوا ذلك، وقد كانوا يفعلون ذلك بالفعل. لذلك فإنها استدارت خارجة عن اتجاه سيرهم المندفع نحو الأمام، وبذلك فقد تكثفت غالبية الفرسان على يسارها. وقد أفسح هذا الموقع، لها المجال لكي تشطح في سيرها نحو أطراف الميدان حيث غُرست صفوف من الأشجار العالية لتكون حارسة له تقف عند حدوده. كان باستطاعتها أن تناور بالمرور بين صفوف الأشجار - فلطالما لجأت إلى هذا التكتيك من قبل - لكنها الآن فضّلت اختيار طريقٍ آخر.

وقبل أن يتمكن أيُّ فارسٍ من استجماع نفسه والتفاعل مع انحرافها المفاجيء، فإنها التوت يساراً وخاضت الميدان جيئةً وذهاباً شاطرة الكتلة الأساسية من الفرسان المنطلقين، مجبرة إياهم جميعاً على الإبطاء.

وكانت لحظة تردُّدهم هذه كافية لها كي تتمكن من الانسياب إلى الأمام وايلدوران حول السارية.

هنا جدُّ الجميع في إثرها.

حوّلت انتباهها إلى الانطلاق في اتجاه الأمام.

ثمة فارس كان في انتظارها على مبعدة خمسين متراً أسفل الميدان. كان كُتُّ اللحية أشعثها، وله وجهٌ صارمٌ. كان يجلس منتصباً فوق صهوة جواده وقد رأت زوفاستينا يده تغوص تحت رداؤه الجلدي، وهي تمسك بمسدس. وكان يميّط المسدس لصقاً جانبه وهو منتظرٌ لها.

"دعنا نريه يا بوسيفيلُس أننا لا نخشاه."

جمع الحصان إلى الأمام.

لكن الرجل المسلَّح بالمسدس لم يتزحزح عن مكانه. حدّجته زوفاستينا بنظرة متعالية، فما من أحد يستطيع إجبارها على الانحراف عن طريقها أو التراجع عنها.

رفع الرجل مسدسه إلى وضعية الرمي.

ولكن سرعان ما دوّت طلقة في أجواء الملعب.

وترنح الرجل الذي تحمل يده مسدساً ثم هوى بقامته إلى حضيض الأرض الموحلة. أما حصانه فقد أجفل بسبب المفاجأة شاردأ وهو عطل عن فارسه.

لكنها ما لبثت أن داست الجثة الملقاة على الأرض. وانغrustت حوافر حصانها بوسيفيلس في لحم الرجل الذي كان لا يزال ساخناً وتبعثرت الجثة خلف مسار حوافر الحصان.

وبقيت تستحث سيرها إلى أن باتت مستديرة العدالة واقعة تحت مرمى نظرها فمرت بقربها ورمت الرمّة في وسطها. عند ذلك جعلت حصانها بوسيفيلس يتوقف تماماً.

أما بقية الفرسان فقد تجمعوا حول جثة الرجل الميت.

وإطلاق النار على أحد اللاعبين كان أمراً مخالفاً تمام المخالفة لقواعد اللعبة. لكن الذي حصل هذه المرة لم يكن جزءاً من اللعبة ذاتها. بل لعله كان كذلك؟ سياق اللعبة فقط هو الذي اختلف. لقد كانت لعبة مع لاعبين مختلفين، ولها شروط مختلفة. لعبة وشروط لا يقوى على فهمها أي من الرجال الحاضرين هنا، ولا على معرفة أبعادها.

جذبت عنان الحصان، ورفعت جذعها فوق السرج، ملقية نظرة في اتجاه سطح قصرها. حيث كمن في أحد أبراج استحكاماته السوفييتية القديمة قناص ماهر كانت قد جعلت له مركزاً هناك. ولقد لوّح لها القناص ببندقيتهشارة النصر.

فما كان منها سوى أن رنت إليه التحية برفع هامة حصانها فوق قدميه الخلفيتين فقط. وقد صهل الحصان بدوره موافقاً على اصطياذ الرجل.

الفصل الثامن

كوبنهاغن

الساعة 3:10 فجراً

تبعث كاسيوبيا كلاً من مالون وهنريك ثورفالدسن إلى مكتبة مالون. كانت منهكة القوى. ومع كل هذا فإنها كانت تتوقع أن يكون أمامها ليلة طويلة. وكانت الأشهر المرهقة القليلة الماضية قد تركت آثارها عليها، أما الأسابيع الأخيرة، فهي الأقسى والأشد. ومع هذا، فإن نهاية هذه المسيرة المضنية لا تبدو أنها باتت تلوح في الأفق القريب.

أشعل مالون مصابيح الإنارة.

وكانت كاسيوبيا على علم بالذي حصل في الخريف الماضي - عندما ظهرت زوجة مالون السابقة... وحصل ما حصل من حريق ناتج عن تفجير - لكن الذين قاموا على أعمال الترميم بلغوا فيه غاية التوفيق، إذ أنها لاحظت أن الزخارف قد جعلت لتأخذ هيئة عتيقة رغم أنها حديثة. "أهنيء الذين قاموا بأعمال الترميم على نجاحهم."

هز ثورفالدسن رأسه استحساناً. "لقد أردت أن تبدو المكتبة كما كانت في سابق عهدها. فهذا المكان فيه من التاريخ ما لا يجوز محوه وتفجيره على يد متعصب مهووس."

"ألا ترغبين في التخفف من هذه الملابس المبللة؟" سألها مالون.

"ألا ينبغي لنا إيصال هنريك إلى منزله أولاً؟"

"أرى أنه يستمتع بالمشاهدة." قال مالون بنبرة هازئة.

"يبدو الأمر مغريباً فعلاً،" قال ثورفالدسن. "لكنني لست الليلة في المزاج."

كما أنها هي أيضاً لم تكن كذلك. "إنني في حالٍ طيبة. فالملابس الجلدية سريعة الجفاف. وهذا هو أحد الأسباب التي تدفعني إلى انتقائها عندما أكون في العمل."

"وما الذي كنتِ تعملينه هذه الليلة؟"

"هل أنت واثق من أنك تريد أن تعرف فعلاً؟ فمثلما درجت على القول دائماً، إنك بائع كتب، ولست شرطياً سرّياً. كونك رجل متقاعد من بين أسباب أخرى."

"لقد أرسلت لي رسالة بالبريد الإلكتروني تطلبين فيها مني موافقتك عند ذلك المتحف في الصباح. وبعد الذي سمعته منك عند موقع الحريق فإنني لا أرى أنه كان يمكن أن يكون ثمة وجود لذلك المتحف عندما يصبح عليه الصباح."

جلست على أحد كراسي المنتدى. "وهذا هو السبب الذي كان يوجب علينا اللقاء في ذلك المكان. هلاً أخبرته يا هنريك؟" لطالما أحببت مالون. فهو رجل أنيق ذكي وسيم يستحق الثقة وقد راق لها منذ لقائها الأول به في السنة الماضية في فرنسا. وهو محام ذو خبرة مميزة. عمل مدة اثنتي عشرة سنة لمصلحة وزارة العدل الأمريكية في دائرة محجوبة تدعى "ماجيلان بيليه" إلى أن تقاعد منذ سنتين ليشتري متجر الكتب هذا في كوبنهاغن من ثورفالدسن. كان رجلاً صريح العبارة ويمارجه طبع خشن في بعض الأحيان، فهو في ذلك مثلها تماماً. ولهذا فإنها لا تستطيع أن تلومه على تلك النقيصة. لقد أحببت وجهه المفعم بالحيوية، كما أحببت تلك الإلتماع الشقية في عينيه الخضراوين الذكيتين، وكذلك أحببت شعره المائل إلى الشيب، ومجمل مظهره العام الذي لا تبارحه الرصانة. كانت تعرف مبلغ سنوات عمره، فهو في منتصف عقده الرابع. لقد استشرفت ذلك، والفضل يعود لشبابها الذي كاد يجتاز ذروة ربيعته. أمّا هو فلا يزال في زهو سحره وجماله.

وكانت تحسده على ذلك.

إنه الزمن.

الزمن الذي لا يبدو كافياً لها ولا ممهلاً.

"يا كوتون." قال ثورفالدسن، "كان ثمة حرائق أخرى في طول أوروبا وعرضها خلال الأشهر الثلاثة الماضية. لقد بدأت في فرنسا، ثم في إسبانيا، ثم في بلجيكا، ثم في سويسرا، وهي حرائق تشبه هذا الحريق الذي شهدتماه لتوكما. ولقد تحقق البوليس في كل من تلك الحوادث أن الحريق كان فيها مفتعلاً، لكن التحقيق كان يبقى دائماً عاجزاً عن تحديد الفاعل. وقد بلغت شدة الاحتراق في بعض هذه الحوادث أن مبنين قد تحولوا إلى رماد وركام. لقد كانا في موقعين نائيين عن المدن. ولم يبدو أن ثمة من اكرث لهما. وكل من مواقع الحريق الأربعة كان يحدث في مبانٍ سكنية خاصة خالية من أهلها. ولقد كان هذا الحريق هو الأول الذي يستهدف مؤسسة تجارية."

"وكيف لك أن تجمع بين تلك الحوادث؟" سأل مالون.

"أنت تعرف عما هم يبحثون،" قالت له. "إنها ميداليات الفيل."

"أتدري؟" قال مالون، "هذا ما كان يجول في ذهني بالضبط. خمسة حرائق مفتعلة. وكلها في أوروبا. لا بد من أن يكون الأمر متعلقاً بميداليات الفيل. وإلا ماذا يمكن أن يكون الرابط المشترك؟"

"هذا صحيح،" قالت.

"شكراً للمعلومة، ولكن بربكم ماذا تعني عبارة: ميداليات الفيل؟"

"منذ ثلاثة وعشرين قرناً،" قال ثورفالدسن، "بعد أن تمت للإسكندر الكبير السيطرة على آسيا الصغرى وبلاد فارس فإنه كان قد وضع غزو بلاد الهند نصب عينيه. لكن جيشه كان قد تخلص عنه قبل أن يتمكن من وضع يده على الكثير من أراضي تلك البلاد. لقد خاض الإسكندر عدة معارك في الهند، وقد واجه للمرة الأولى سلاح الفيلة في ميدان المعركة. وداست الفيلة مقدمة الجيش المقدوني وخرّبت صفوفه. ورؤّع رجال الإسكندر لمرآها. وهكذا، تمّ سكّ تلك الميداليات لاحقاً تخليداً لتلك الذكرى. فالميدالية تصور الإسكندر وهو يواجه الفيلة."

"وتلك الميداليات،" تابعت قائلة، "قد تمّ سكّها بعد موت الإسكندر. وليس لدينا فكرة عن عددها. لكن في أيامنا الحاضرة، فإن ثمانٍ منها هي المعروفة فقط. أمّا الأربع

التي تم إحرازها فهي أولاً تلك التي تعلق بها حادث الحريق هذه الليلة، واثنان منها هي تحت ملكية أيدٍ خاصة، وواحدة معروضة في متحف سمرقند لتاريخ الثقافة".

"أتعنين عاصمة اتحاد آسيا الوسطى؟" سألها مالون، "وهي جزء من المنطقة التي اكتسحها الإسكندر."

تهالك ثورفالدسن على أحد الأرائك، وكان فقاره المنحرف يُبرز عنقه إلى الأمام جاعلاً ذقنه اللحيمة تستقر فوق صدره الأعجف. وهنا لاحظت كاسيوبيا أن صديقها القديم قد أنهكه الإعياء. كان يرتدي سترته الفضفاضة التقليدية فوق سروال من القنب فضفاض أيضاً. وهو زِيٌّ كان قد اعتاد على إدامة لبسه إخفاء لتشوهات شكل بنيته. لقد شعرت بالندامة لإشراكه في هذا الأمر. لكن الإصرار كان قد أتى من ناحيته هو. وكان الرجل صديقاً طيباً. وقد جاء الوقت الآن، لاختبار كم تُراه يكون مالون صديقاً جيداً بدوره. "ما الذي تعرفه عن حادثة وفاة الإسكندر العظيم؟"

"لقد قرأت عنها، فوجدتها محاكاة من الكثير من الخرافات التي تمازجها الحقائق المتناقضة."

"يا لِدِقَّةَ ذاكرتك!"

"لقد جاءت هذه الموهبة معي من بطن أمي."

ابتسمت له. "إن ما حدث في حزيران/يونيو من العام 323 ق. م. قد غير مصير العالم إلى حدٍ كبير."

أشار إليها ثورفالدسن بذراعه. "تابعي الكلام. قللي له كل ما يحتاج أن يعرفه."

وهكذا فعلت بالفعل.

في اليوم الأخير من شهر أيار/مايو كان الإسكندر قد حضر مأدبة أقامها أحد مرافقيه الموثوقين، في مكان يقع داخل أسوار مدينة بابل. وبعد أن كرع الإسكندر كأساً كبيرة مترعة بالخمرة المركزة الخالصة التي كان يشربها في نخب أصحابه، فإنه ما لبث أن ندت عنه صرخة مدوية كما لو أنه صُعِق بضربة قاتلة. ولقد جرى نقله على جناح السرعة إلى سريره حيث انتابته الحمى. لكنه استمرَّ يلعب النرد، ويرسم لقائته الخطط، ويشير بالتضحيات

العسكرية الصحيحة. وفي يومه الرابع بدأ يشكو من الإنهاك. وقد لاحظ بعض مرافقيه أنه باتت تعوزه الحيوية الطبيعية. لذلك فإنه اضطجع في مهجعه لعدة أيام أخرى. كان يرقد في غرفة الاستحمام طلباً للتبرّد. وبالرغم من حالته السقيمة، فإن الإسكندر أرسل تعليماته إلى كتائب مشاته من أجل التجهّز للزحف بعد أربعة أيام، كما أصدر تعليماته إلى أسطوله كي يستعد للإبحار بعد خمسة أيام. وكانت خطته بالاتجاه غرباً للاستيلاء على شبه جزيرة العرب على وشك أن يكشف النقاب عنها. وفي اليوم السادس من شهر حزيران/يونيو، ولأنه شعر بالوهن، فإنه سلّم خاتمه إلى قائده بيرديكاس من أجل ضمان حسن استمرار تسيير شؤون الحكومة والإدارة. وقد سبّب هذا الإجراء قلقاً. لقد خشي قادة جيشه أن توافيه المنية. وفي سعي منه لتهدئة مخاوفهم، فإنه قد سمح لأرتال جيشه بالمرور قرب سريريه. وكان يحيي كل من مرّ به بابتسامة منه. وبعدها مرّ الرجل الأخير بالقرب منه فإنه همس قائلاً "أين لكم أن تجدوا بعد موتي ملكاً آخر يستحق مثل هؤلاء الجنود؟" وقد أمر أن يؤخذ جثمانه بعد الوفاة ليُدفن في معبد أمون في مصر. لكنّ أحداً من رفقاته لم يكن يُرد الإصغاء إلى مثل هذا الكلام المشؤوم. أمّا حالته، فقد ازدادت سوءاً، وفي اليوم التاسع من شهر حزيران/يونيو، سأله مرافقوه: "لمن تريد أن تترك مملكتك؟" وقد روى القائد بطليموس أنه سمعه يقول: "للأنكى". أما القائد سلوقس فقد روى أنه سمعه يقول: "للعادل". أمّا بّيثون فقد روى: "للأقوى". وقد نشب جدل كبير حول القول الأرجح من بين هذه الأقوال الثلاثة. وفي الصباح المبكر لليوم التالي مات الإسكندر المقدوني الثالث وهو في الثالثة والثلاثين من عمره بعد أن أمضى اثنتي عشرة سنة وثمانية أشهر في سدة الحكم.

"هذا ولا يزال الجدل قائماً بين الناس إلى الآن حول هذه العبارات الثلاث الأخيرة." قالت.

"وما هو وجه الأهمية فيها؟" تساءل مالون.

"إنها كلّ ما ترك وراءه،" أجاب ثورفالدسن.

"لقد ترك مملكته دون وريث شرعي."

"وهل لذلك علاقة بميداليات الفيل؟"

"يا كوتون." قال ثورفالدسن. "ذاك المتحف الذي احترق الليلة كنت أنا قد اشتريته منذ ستة أشهر مع علمي أن أحدهم سوف يقوم يوماً ما بتدميره. ولقد كنت أنا وكاسيوبيا في انتظار حدوث ذلك."

قالت: "كان علينا أن نبقي متقدمين خطوة واحدة على أي شخص يسعى وراء الحصول على الميداليات."

"لكن يبدو أنهم هم الذين ربحوا. لقد استولوا على الشيء."

طرح ثورفالدسن نظرة في اتجاهها، ثم حدّق الرجل العجوز ناحية مالون وقال: "ليس ذلك الكلام دقيقاً تماماً."

الفصل التاسع

لم يشعر فيكتور بالاسترخاء إلا بعد أن أغلق باب الغرفة في الفندق وأقفل تماماً. كانا في وسط كوبنهاغن، بالقرب من "نايان" حيث تغصُّ المقاهي الواقعة على حافة الماء بالرواد المشاكسين. جلس هو إلى منضدة مشعلاً المصباح بينما اتخذ رافائيل لنفسه مكاناً بقرب النافذة المشرفة على الشارع من الطابق الرابع.

وكانت الميدالية الخامسة الآن في حيازته.

ولقد تكشفت الميداليات الأربع الأولى عن مجرد خيبات أمل. واحدة كانت مزيفة، أما الثلاث الباقيات فقد كانت في حالة رديئة جداً. منذ ستة أشهر كان لا يعرف سوى القليل عن ميداليات الفيل، أما الآن فقد بات يعتبر نفسه شديد الخبرة في مصادرها.

"سوف نكون على خير ما يرام"، قال مخاطباً رافائيل. "إهدأ الآن. فليس ثمة من يقتفي أثرنا."

"عليّ أن أبقى يقظاً مراقباً حتى أتأكد من صحة ذلك."

ولقد عرف أن رافائيل كان بذلك يحاول التعويض عن مبالغته في التفاعل عندما كانا في المتحف، لهذا فإنه قال له. "حسناً إفعل ما بدا لك."

"كان يجب أن يموت."

"بل من الأفضل أنه لم يمت. فعلى الأقل نحن نعرف الآن ماذا نواجه."

فتح سحاب حقيبة جلدية واستخرج منها مجهراً مكبراً وميزاناً رقمياً.

ألقى قطعة العملة فوق الطاولة. لقد وجداها معروضة في إحدى خزائن المتحف. وكانت تحمل ملاحظة صحيحة تقول: "ميدالية الفيل (الإسكندر الكبير) عشر دراخمتا تعود إلى حوالي القرن الثاني قبل الميلاد."

بدأ أولاً بقياس قطرها فوجد أنه خمسة وثلاثين ميليمتراً، وهو قياس قريب الدقة. نقر على الميزان الرقمي متحريراً عن وزنها 40,47 غراماً. الوزن إذن صحيح أيضاً.



ثم تناول عدسة مكبرة فاحصاً تحتها الصورة المعروضة على أحد وجهي القطعة المعدنية. صورة محارب في أبهة ملوكية. يعتمر قبعة يكسوها الريش. وله طوق حماية للعنق، وصفيحة تدرع الصدر، وعلى كتفيه عباءة فروسية تصل إلى مستوى ركبتيه.

بدأ مسروراً بذلك. كان ثمة نقيصة واضحة في القطع المزورة تتمثل في العباءة حيث تصل العباءة في القطع المزورة إلى مستوى الكاحلين. وكان الاتجار بالقطع النقدية اليونانية المزيفة قد ازدهر لقرون عدة، ومعها بات المزورون الأذكاء ماهرين في خداع المقبلين والمتشككين على السواء. وهو لحسن الحظ ليس من أي من الفئتين.

وكانت ميدالية الفيل الأولى قد ظهرت إلى العلن عندما أهديت إلى المتحف البريطاني في العام 1887. وقد أتت يومها من مكان ما، في وسط آسيا، أما الثانية فقد ظهرت في العام 1926 في إيران. وأما الثالثة فقد تم اكتشافها في العام 1959، وأما الرابعة ففي العام 1964. وفي العام 1973 تم العثور على أربع ميداليات إضافية قرب أنقاض مدينة بابل. بهذا يكون عدد هذه الميداليات الإجمالي ثمان. وكانت تلك الميداليات الثماني هي التي تطوف حول المتاحف وتتداولها المجموعات

الخاصة لجامعي التحف. ولم تكن تلك الميداليات باهظة الثمن بما يستحق التوقف عنده إذا أخذ في الاعتبار تنوع أشكال الفن الهيليني وتوفر آلاف قطع العملة المعدنية الأثرية، لكن ميداليات الفيل بقيت رغم ذلك شيء يستحق الجمع والاقتناء. عاد إلى انهماكه بفحص الميدالية.

كان المحارب الشاب، ذو الوجه الحليق يمسك بيساره سارية تنتهي بحربة محدّدة أشبه بورقة الشجر، أما يمينه فقد أحرزت صاعقة من الضوء. وفوقه تحوم آلهة النصر المجنّحة. أمّا إلى يساره فقد ترك القائم على سَك هذه الميدالية علامة شديدة الغرابة.

هل كانت تلك العلامة تمثل الحرفين: "B A"، أو الأحرف: "BAB"، فإن هذا أمرٌ بقي الجزم به مستعصياً على فيكتور. ولكن كل ميدالية أصلية في كل حال، كان ينبغي أن يظهر عليها الشعار الغريب التالي:



لقد بدت كل ملامح القطعة صحيحة، لا إضافات عليها ولا نواقص. قلب قطعة العملة وجهاً لظهر.

كانت حوافها بالغة التشويه. أمّا طلاؤها الذي هو بلون القصدير فقد عفا وبات ممسوحاً بشكل صقيل كما لو أن ذلك قد حدث بفعل مياه جارية مستمرة. وكان الزمن يلحس ببطء الحفر الدقيق الموجود على وجهي القطعة. والمدّهب فعلاً أن تكون النقوش على أيّ من الوجهين قد تمكنت من الصمود والبقاء.

"هل كل شيء هادئ؟" سأل رافائيل الذي كان لا يزال واقفاً قرب النافذة. "لا تخاطبني مخاطبة الراعي."

نظر إليه. "بل إن لي رغبة حقيقية في معرفة ذلك."

"لا يبدو لي أنني قد فهمت سؤالك على هذا الوجه."

التقط شعور زميله بالانهزامية. "كل ما في الأمر، هو أنك رأيت شخصاً ما، قادماً إلى باب المتحف. فقمّت بردة فعلٍ على ذلك. هذا هو كل شيء."

"لكنه كان تصرفاً أحمق، فالقتل يجتذب الكثير من الانتباه."

"لن يكون هناك جسدٌ للعثور عليه. عليك بالتوقف عن القلق حول ذلك. وبالإضافة إلى كل هذا، فإنني أستحسن أمر تركه هناك."

أعاد تركيز انتباهه على الميدالية. كان وجهها الآخر يُظهر صورة المحارب الذي هو الآن فارسٌ يلبس عدة، وثياب، الحرب ذاتها وهو يقوم بمهاجمة فيلٍ هارب. وكان ثمة رجلان يجلسان فوق ظهر الفيل أحدهما يلوح بسارية، والثاني يحاول انتزاع رمحٍ كان قد غرزه الفارس في صدره. وقد أجمع علماء المنمنمات على أن المحارب الملكي الذي يظهرُ نقشُ صورته على كلا الوجهين من قطعة العملة هذه، إنما هو الإسكندر. كما أجمعوا على أن هذه الميداليات قد سُكّت تخليداً لذكرى معركة جرت مع سلاح الفيلة.

أمّا الفحص الحقيقي الحاسم لمعرفة ما إذا كانت هذه القطعة أصلية حقاً، فإنه كان لا بدّ من أن يجري تحت المجهر.

أضاء مكشاف المجهر وأدخل قطعة العشر دراخمت في بؤرة الكشف.

كان لا بدّ للقطع الأصلية من أن تحتوي على شواذ غريب. أحرفٌ متناهية الدقة محجوبة في داخل النقش المحفور، وقد تمت إضافتها إلى القطع على يد القائمين على عملية السكّ مستعملين من أجل ذلك عدسات مكبرة بدائية. ويعتقد الخبراء أن تلك الكتابات كانت تشير إلى شيء يشبه ما نسميه اليوم بالعلامة المائية التي تظهر على ورق عملة البنكنوت الحديثة، ولعلها قد أضيفت من أجل زيادة التأكيد على أصالة تلك الميداليات. فالعدسات لم تكن أمراً شائعاً في تلك الأزمان الغابرة. وهكذا، فإن التحري عن تلك الأحرف كان شيئاً يدنو من المستحيل. وقد أمكن ملاحظة تلك الحروف عندما تمّ اكتشاف الميدالية الأولى منذ سنين خلت. لكن من بين القطع الأربع التي تمكنوا من سرقتها حتى الآن، فإن واحدة منها فقط كانت تحتوي على تلك العلامة الفارقة الخاصة. فلو كانت الميدالية الراهنة أصلية، فإنه لا بدّ له من أن يرى بين ملابس الفارس حرفين إغريقيين هما: "ZH".

قام بتركيز بؤرة عدسة الميكروسكوب فشاهد بالفعل وجود كتابات دقيقة جداً.
لكن الكتابات لم تكن أحرفاً.

بل هي أرقام.

إنها الرقم 36447755.

رفع بصره عن بؤرة النظر.

وكان رافائيل يراقبه. "ما الأمر؟"

لقد تعمقت معضلتها الآن. ففي وقت سابق كان قد استعمل هاتف غرفة
الفندق للقيام بعدد من المكالمات الهاتفية. والآن انصبَّ نظره على رقم جهاز الهاتف
المكتوب عند قاعدته. وكان ثمة أربع مجموعات من الأرقام، كل مجموعة مؤلفة من
خانتين، وهي تبدأ برقم 36.

لم تكن مجموعات الأرقام هي نفسها التي لاحظها تحت الميكروسكوب.

لكنه أدرك على الفور أن الأرقام المكتوبة على الميدالية التي من المفترض أن
تكون قديمة:

لم تكن سوى أحد أرقام الهاتف الدانماركي.

الفصل العاشر

البنديقي

الساعة السادسة والنصف صباحاً.

تمعن فينسينتي بشكله في المرأة، بينما كان خادمه يمسد له سترته ليسمح لبذلته التي هي من ماركة غوكسي بأن تنسدل على طول قامته الفارعة. وهكذا، أزيلت آثار النسالة عن نسيج بذلته الصوفي الأسود بواسطة فرشاة مصنوعة من وبر الجمل. ثم قام بتعديل وضع عقدة ربطة عنقه متأكداً من وقوعها في موقعها الصحيح، ناوله الخادم منديلاً خمري اللون وقام بتنسيق طياته الحريرية في داخل جيب سترته العلوي.

بدت بنيته التي تزن ثلاث مئة رطل في مظهر لافتي جيد في نطاق البذلة المخاطة خصيصاً لأجله. وكان خبير الأزياء الميلاني الذي استأثر باستئجار خدماته، قد نصحه بأن الألوان الداكنة لا يقتصر تأثيرها على إضفاء مظهر سلطوي عليه فحسب، بل إنها أيضاً تصرف النظر عن ضخامة بنيته. وهو أمر لم يكن عمله سهلاً. لقد كان كل ما يحيط به ضخماً وكبيراً. أوداج ضخمة، وجبهة بارزة مستديرة. وأنف نو أرنبية عالية. لكنه كان يحب الإقبال على الطعام الفاخر، وكانت الجمية تبدو له خطيئة منكرة.

أشار بيده فقام خادمه بتلميع حذائه ذي الشريط، وكان الحذاء من ماركة لورنزو بانفي. استرق نظرة أخيرة إلى شكله في المرأة، ثم ألقى نظرة على ساعة يده.

"سيدي،" قال الخادم. "لقد اتصلت بينما أنت تأخذ حمامك."

"هل اتصلت على الرقم السري؟"

هزّ الخادم رأسه بالإيجاب.

"وهل تركت رقمها؟"

مدّ الخادم يده إلى جيبه وأخرج قصاصة من الورق. كان قد نال قسطاً من النوم قبل انعقاد جلسة المجلس وبعدها. فالنوم، بخلاف الحمية، لم يكن يعتبره مضيعة للوقت. كان يعرف أن الناس ينتظرونه وكان يستمتع في التأخر عليهم. لكنه قرر إجراء اتصاله الهاتفي من الجوّ الخصوصي الذي توفره له غرفته.

تقدّم نحو جهاز الهاتف المركون إلى جانب سريره، وقام بطلب رقم عابر للحدود. ثلاث رنّات كان لها صرير منكر في أذنه قبل أن يجيبه صوت امرأة فبادرها إلى القول: "أرى أنك ما زلت على قيد الحياة يا دولة الرئيس."

"وإني لأشكرك لأنني وجدت أن معلوماتك كانت دقيقة."

"ما كنت لأزعجك بمجرد أوهام."

"لكنك حتى الآن لم تقل لي كيف تسنّى لك أن تعرف أن أحدهم ينوي اليوم القيام باغتيالتي."

كان منذ ثلاثة أيام قد مرّ إلى إيرينا زوفاستينا خطّة الرجل الفلورنسي. "إن العصبية تسهر على أعضائها، وأنت يا دولة الرئيس من أهم أعضاء هذه العصبية."

أرسلت ضحكة خافتة. "إنك تبالغ كثيراً يا أنريكو."

"هل ربحتي في لعبة البوزكاشي؟"

"طبعاً. مرتين في داخل الدائرة. لقد تركنا جثة القاتل ملقاة على أرض الملعب حتى داستها خيولنا إلى قطع متناثرة. أما الآن، فإن الكلاب والطيور تستمتع بما تبقى منها."

أجفل. لقد كانت هذه مشكلة آسيا الوسطى. فهي تريد لاهثة أن تكون جزءاً من القرن الحادي والعشرين مع أن ثقافتها مازالت مخندقة في القرن الخامس عشر.

وعلى العصبية أن تفعل كل ما تستطيع أن تفعله من أجل تغيير كل هذا الواقع. حتى وإن بدا الأمر أشبه بعزم حيوانٍ لاحمٍ على العيش على حمية نباتية.

"هل تعرف ملحمة الإلياذة؟" قالت له.

عرف أنه لا بدَّ له من مداعبتها والتجمل معها فقال: "أعرف."

"تقول الإلياذة:

"إرم أرواح الكثير

"من الأبطال الصناديد

"إلى سقرٍ

"ودعَّ أشلاءهم

"للآلهة

"وللطيور الجارحة."

ابتسم ابتسامة عريضة. "هل تعتبرين نفسك في مكان أخيل؟"

"بل إنني أرى فيه الكثير من الصفات المعجبة."

"ألم يكن رجلاً معتدّاً بنفسه؟ بل شديد الاعتداد حسبما أتذكر."

"لكنّه كان محارباً. محارباً على الدوام. قل لي يا أنريكو، ماذا عن خائنكم؟ هل صفّي الأمر معه؟"

"لسوف يستمتع ذلك الفلورنسي بقبرٍ جميلٍ هنا، في منطقة البحيرات. سنرسل إليه أزهاراً." قرر أن يستكشف ما إذا كانت في المزاج. "علينا الجلوس معاً."

"هل هذه هي الأجرة التي تقتضيها مني لقاء إنقاذ حياتي؟"

"إنها النهاية التي اقترحتها لصفقتنا، حسبما جرى النقاش الأصلي حولها بيننا منذ وقت طويل."

"سوف أكون جاهزة للإلتقاء مع المجلس بعد أيام قليلة. لكن عليّ الانتهاء من

حلّ بعض المسائل أولاً."

"إنني أكثر اهتماماً بمسألة متى نلتقي أنت وأنا."

قهقهت. "لا شك عندي في ذلك. وفي الحقيقة فإن هذا هو ما أشعر به أنا أيضاً، لكن ثمة شؤون لديّ يتوجب عليّ إنهاؤها"

"إن مدة ولايتي في المجلس سوف تنتهي قريباً. لذلك فسوف يكون هناك سواي ممن تتعاملين معهم. وقد لا يكونون متعاونين مثلي."

ضحكت. "أعجبتني كلمة متعاونين. إنني أرتاح للتعامل معك يا أنريكو. فكل منّا يفهم الآخر."

"علينا أن نلتقي."

"أجل قريباً. لكن أولاً لديك تلك المشكلة الأخرى التي سبق أن تحدثنا بشأنها. الأمريكيين."

نعم كان قد حصل ذلك. "لا تقلقي بهذا الشأن. فإنّ في نيتي التعامل مع هذا الأمر في هذا اليوم."

الفصل الحادي عشر

"ماذا تقصد بقولك: "ليس ذلك الكلام دقيقاً تماماً؟" وجّه مالون سؤاله إلى ثورفالدسن.

"لقد قمتُ باصطناع ميدالية فيلٍ زائفة. وهو أمرٌ من السهل جداً عمله. وفي حقيقة الحال، ثمة الكثير من الميداليات المزيفة في السوق."

"وما الذي دعاكَ إلى عمل ذلك؟"

"يا كوتون،" قالت له كاسيوبيا، "إن هذه الميداليات هي على درجة كبيرة من الأهمية."

"هذا أمرٌ لم يعد يحتاج إلى تحرُّر. إنما الشيء الذي لا أزال أجهله هو: بأيّ معنى؟ ولماذا هي مهمة؟"

"ماذا تعرف عن الذي حصل للإسكندر بعد وفاته؟" سأله ثورفالدسن. "أو بالأحرى، ما الذي حصل لجثمانه؟"

وكان قد أصابَ بعضُ القراءة عن هذا الموضوع. "أعرف الشيء اليسير."

"أشكُّ في أن تكون عارفاً بما نقوم به،" قالت كاسيوبيا التي وقفت بجانب أحد رفوف الكتب. "في الخريف الفائت، كنت قد تلقيت مكالمة من صديق يعمل في المتحف الثقافي في سمرقند. لقد عثرَ ذلك الصديق على شيء ما، يعتقد أنه يروقني الاطلاع عليه. وكان ذلك عبارة عن مخطوطٍ قديم."

"كم هو قديم؟"

"إنه يعود إلى القرن الأول أو الثاني بعد الميلاد. هل سبق لك وأن سمعتَ عن عملية التصوير بأشعة إكس المطيافية؟"
هزَّ رأسه نافياً.

"إنها تقنية تعتبر حديثة العهد نسبياً،" قال ثورفالدسن. "فخلال بدايات القرون الوسطى كان الرُّقُّ (جلد يستخدم كالورق) نادراً إلى درجة حدَّت بالرهبان إلى تطوير تقنية لتدوير الرُّق المستعمل، تقوم على كشطِ الحبر الأساسي لاستعمال الرُّق النظيف من جديد، ككتاب للصلاة. أمّا بالنسبة إلى عملية التصوير بأشعة إكس المطيافية فإنها تقوم على استعمال مُسارع جسيمات، ثم يُمطر الرُّق المستعمل بهذه الجسيمات. ولحسن الحظ فإن الحبر الذي كان يجري استعماله في تلك القرون البائدة كان يحتوي على كثير من مادة الحديد. فعندما ترشُّق أشعة إكس الحبر، فإن ذرَّاتٍ عميقة في الرُّق تتوهج، وهذه الصور قابلة للتسجيل. وهذا أمر هو غاية في العجب. وهو في حقيقة الحال أشبه برسالة فاكسٍ آتية من الماضي. فالكلمات التي ظنُّ يوماً أنها قد أمَّحت ثم كُتب فوقها بحبر جديد، لا تلبث أن تعود إلى الظهور من جديد بفضل بصماتها الجزيئية."

"يا كوتون،" قالت كاسيوبيا، "إن أولى حلقات معرفتنا عن الإسكندر إنما هي تقتصر على مصادرٍ أربعةٍ كان قد كتبها أربعة رجال من الذين عاشوا في القرون الخمسة التي تبعت وفاته. وهي: كتاب "إيفيميريدس" الذي أطلق عليه صفة المفكِّرة الملكية للإسكندر، وهو كتاب يُفترض أن ظهوره قد عاصر حياة الإسكندر، وهو في كل حال عبارة عن روايات لا يمكن الركون إليها لأن الغالب كثيراً ما يعيد كتابة التاريخ. ثم هناك كتاب "غراميات الإسكندر" الذي يستشهد به كثير من الباحثين بصفته مرجعاً رئيساً، رغم كونه عبارة عن رواية شديدة الجموح والإفراط ولا تمتُّ إلى الحقيقة سوى بالقليل. أما الكتابان الآخران فقد كتبهما كلٌّ من "أريان"، و"بلوتارخ". وكلا الرجلين مؤرِّخ زائع الصيت."

"لقد سبق لي أن قرأت كتاب 'غراميات الإسكندر'، وإنها لقصة رائعة."
"لكن هذا هو كل ما في الكتاب. فالإسكندر، مثله مثل آرثر، رجلٌ تحوَّلت قصة حياته الحقيقية إلى أسطورة رومانسية. وهو يُنظر إليه الآن كفاتحٍ عظيمٍ عديم الأذى."

نموذج من نماذج رجال الدولة. لكنه في الحقيقة كان قد أعمل المذابح في الناس على نطاق لم يسبق له مثيل. وقام بتدمير مصادر الثروة في البلدان التي أخضعها تدميراً كاملاً. كما أمر بقتل أصدقائه لمجرد الاشتباه بهم أو توهمهم منهم، كما أنه قاد معظم جند جيوشه إلى الموت المبكر. لقد كان مغامراً يقامر بحياته وبحياة المحيطين به في مهب الحظ. ولم يكن ثمة ما هو خارق للعادة في كل ما أحاط به.

"إنني لا أوافق على هذا الكلام." قال. "لقد كان الإسكندر قائداً عسكرياً فذاً. لقد كان هو أول من نهض لتوحيد العالم. لقد كانت فتوحاته تتسم بالحملة القاسية وايلدموية لكن السبب في ذلك يعود إلى حقيقة أن الحرب هي الحرب. وصحيح أن ثمة ميولاً كانت تساوره للتوسع والفتح. لكن العالم في زمانه كان يبدو وكأنه على أهبة انتظار فاتح كبير. لقد كان داهية في السياسة. إغريقي تحول في نهاية الأمر إلى فارسي. ومن كل ما قرأته عنه فإنني لم ألحظ لديه اعتماداً كبيراً على العصبية الوطنية الضيقة. أنا لا أستطيع تخطيطه بسبب ذلك. أما بعد وفاته، فإن قادة جيشه، وأصدقائه عمدوا إلى اقتسام مملكته في ما بينهم، وهذا الأمر قد ضمن سيطرة الثقافة الإغريقية على العالم لعدة قرون. هذا هو الواقع الذي حصل بالفعل. فالعصر الهيليني قد تمكن في نهاية الأمر من تغيير وجه الحضارة الغربية. وكل تلك الموجة كانت قد ابتدأت مع الإسكندر."

لاحظ أن كاسيوبيا لا توافق على هذا الرأي.

"إن ذلك هو الميراث الذي تُناقش تلك المخطوطة القديمة." قالت: "وهو ما حدث بالفعل بعد موت الإسكندر."

"نحن نعرف ما الذي حصل." قال لها. "لقد وقعت إمبراطوريته فريسة في يد جنرالات جيشه، وهم لم يتورعوا عن استعمال جثمانه في ما يشبه لعبة البحث والتخفي. وهناك سيل من الروايات المختلفة عن كيفية محاولاتهم الهادفة إلى اختطاف عربته الجنائزية. لقد أراد كل منهم الاستيلاء على الجثمان كرمز لقوته ونفوذه. ومن أجل ذلك، كان قد جرى تحنيط جثته. فقد كان من عادة الإغريق إحراق جثث موتاهم. لكن ليس الإسكندر. لقد كان ثمة حاجة إلى الإبقاء على جسده كحقيقة مستمرة."

"إن الأحداث التي حصلت في الفترة الواقعة بين وفاة الإسكندر في بابل وبين القيام في نهاية الأمر بإعادة جثمانه غرباً، هي في الحقيقة ما تهتم به المخطوطة." قالت كاسيوبيا. "لقد مرت سنة بعد وفاته. سنة كانت حاسمة بالنسبة إلى ميداليات الفيل."

صوت جرسٍ ناعمٍ كسر صمت الغرفة.

راقب مالون هنريك وهو يرفع سماعة الهاتف مجيئاً. لقد كان ذلك تصرفاً غير عاديٍّ منه. فهو يكره أجهزة الهاتف، ولا يستسيغ أن يعتمد أحدهم إلى إجابتها في حضوره.

رمق مالون كاسيوبيا سائلاً إياها. "هل هو اتصال مهم؟"

لكن تعابير وجهها بقيت عابسة. "لطالما كنا في انتظار هذا الاتصال."

"لَمْ أَنْتِ مبتهجة؟"

"قد لا تصدِّق هذا يا كوتون، لكنَّ لي أحاسيسي أيضاً."

عجِبَ لأمر هذا التعليق الكاوي. فأتناء زيارتها إلى كوبنهاغن خلال عطلة الميلاد، فإنهما كانا قد أمضيا معاً بعض الأمسيات الجميلة في بلدة كريستيان غايد، في منزل ثورفالدسن القائم على شاطئ البحر جنوبي كوبنهاغن. حتى أنه كان قد قدَّم لها هدية هي عبارة عن نسخة كتاب نادرة تعود إلى القرن السابع عشر عن الهندسة في القرون الوسطى، وكان مشروعها الفرنسي لإعادة بناء أحد القصور حجاراً فحجراً، والذي تُستخدم فيه الآلات ومواد البناء القديمة ذاتها التي تعود إلى سبع مئة سنة خلت، يسير سيراً حسناً مستمراً. حتى أنهما كانا قد توافقا على قيامه بزيارة للقصر في الربيع القادم.

انتهى ثورفالدسن الآن من مكالمته الهاتفية. "كان هذا هو اللص الذي سطا على المتحف."

"وكيف اهتدى إلى رقمك؟" سأله مالون.

"لقد جعلتُ رقم هاتفِي هذا محفوراً على الميدالية. لقد أردت أن أجعل الأمر له واضحاً تمام الوضوح أننا نقف له في الانتظار، وأنه إذا كان حقاً يريد الحصول على الميدالية فإن لا سبيل له سوى أن يشتريها."

"مع علمك أنه قد يعمد إلى قتلِكَ بدلاً عن ذلك."

"إننا نحيا في الأمل."

"وكيف تُراك تخطُّط لمنع حصول ذلك؟" سألَه مالون.

تقدَّمت كاسيوبيا إلى الأمام. وكان وجهها صارماً. "هنا يبدأ دورك."

الفصل الثاني عشر

أعاد فيكتور سماعة الهاتف إلى حمالتها، فيما كان رافائيل يقف إلى جانب النافذة وهو يستمع إلى الحديث الدائر على الهاتف.

"يريدنا أن نوافيه في ثلاث ساعات إلى منزل يقع شمالي البلدة على الطريق البحري السريع." إنه يحتفظ بميدالية الفيل. "لقد كانوا يحتسبون لقدمونا. ولا بد أن يكون ذلك قد جرى تدبيره منذ وقتٍ طويل، مما سمح لهم بتصنيع هذه الميدالية الزائفة. إنه عملٌ متقنٌ. فالمزيّف كان يعرف ما يفعل."

"هذا شيء لا يسعنا سوى الإفادة عنه." لم يوافق على ذلك الاقتراح. فلقد كانت رئيس الوزراء زوفاستينا قد أرسلته في هذه المهمة لأنه الرجل الأكثر ثقة عندها. ثلاثون رجلاً كانوا يقومون على حراستها الشخصية يوماً فيوماً. لقد كانوا عصبتها المقدسة. وقد جرى تصميم هذه العصابة على غرار أشرس وحدة يونانية محاربة كانت قد قاتلت بكل بسالة إلى أن أجهز عليها فيليب المقدوني وولده الإسكندر الكبير. كان قد سمع زوفاستينا تتحدث عن هذا الموضوع. لقد كان المقدونيون معجبين بشجاعة تلك العصابة المقدسة إلى درجة أنهم بنوا نُصباً من أجل تخليد أعضائها. نصبٌ لا يزال قائماً في اليونان. وعندما تسلمت زوفاستينا السلطة، فإنها أحيت ذلك المفهوم بكل حماسة. وكان فيكتور هو أول من اختارت تجنيده في هذه العصابة، ثم قام هو بدوره بالعثور على الأعضاء التسعة والعشرين الآخرين، بمن فيهم رافائيل الذي هو رجل إيطالي كان قد عثر عليه في بلغاريا، وكان الرجل يعمل آنذاك لمصلحة قوى الأمن التابعة للحكومة البلغارية.

"أليس علينا أن نكلّم سمرقند؟" كرر رافائيل السؤال.

حقّ طويلاً في وجه زميله. كان الرجل الأحدث سنّاً سريعاً، وله روح متوثبة. ولقد كان قد وقع موقعاً حسناً في عين فيكتور. ولعلّ هذا هو سبب احتماله لأخطاء هذا الرجل التي لا يستطيع قبول مثلها من سواه. أخطاء من نوع سحب ذلك الرجل إلى داخل المتحف. لكن ليكتشف أن ذلك لم يكن عملاً خاطئاً بعد كل شيء؟

"لا يسعنا إجراء هذا الاتصال"، أجابه بهدوء.

"إذا انكشف أمر هذا فقد تقوم زوفاستينا بقتلنا والتخلص منا."

"إذاً لا يسعنا أن ندعه ينكشف. لقد تصرفنا على نحو جيد حتى الآن."

كانا قد نفّذا أربع سرقاتٍ قبل الآن. كلها استهدفت مجموعات تحفٍ خاصة. وقد أسعفهم الحظ في أن كل أصحاب تلك المجموعات إما كأنهم كانوا قد تركوا أمتعتهم في خزائن غير شديدة الحصانة، وإما أنهم قد عرضوها بشكلٍ عارض. وكانا قد تسترا على كل من سرقاتهما السابقة بإشعال النيران في موضع السرقة. وقد طمست الحرائق على آثارهما على أحسن ما يكون.

أم لعلّ ذلك غير صحيح؟

فالرجل الذي كان يخاطبه للتوّ على الهاتف، لا بدّ من أن يكون قد اكتشف لعبتهما.

"علينا أن نقوم بتدبر هذا الأمر بأنفسنا." قال له.

"هل يراودك خوف من أنها ستلومني؟"

عقدة تشبّثت في حلقه. "في الحقيقة إنني أخشى أن تقوم بلومنا نحن الإثنين معاً."

"إنني قلقٌ ومتعبٌ يا فيكتور. فأنت تحمّلني ما هو فوق طاقتي."

رمى زميله بنظرةٍ شاجبةٍ حتى للذات. "كلانا قد أفسد هذه العملية." أشار بإصبعه نحو الميدالية. "لا يأتي من هذه الأشياء الملعونة سوى المتاعب."

"وما الذي يجعلها تهتم للحصول عليها؟"

هز رأسه. "هي ليست بالشخص الذي يُفصح عن نواياه. لكن من المؤكد أنها أشياء بالغة الأهمية."

"لقد كان قد تناهى إلى مسمعي شيء ما، بالصدفة."

رفع نظره نحو عينيْن مشتعلتين بالفضول. "وأين كنتَ قد سمعتَ ذلك الشيء؟"

"كان ذلك عندما جرى انتدابي إلى خدمتها الشخصية، قبيل مغادرتنا في الأسبوع الفائت."

كان الجميع يتناوبون على حراستها الشخصية اليومية. وكانت إحدى قواعد العمل شديدة الوضوح: لا يمكن إعادة التفوه بأي شيء يُسمع أو يقال. إلا إذا اقتضت السلامة الشخصية لرئيس الوزراء ذلك. لكن الأمر الآن مختلف. إنه في حاجة لكي يعرف. "قل لي ماذا سمعتَ؟"

"إنها تعدُّ خطة."

رفع الميدالية في يده. "وما هي علاقة ذلك بهذه الأشياء؟"

"لقد قالت إن لها علاقة بذلك. قالت ذلك لشخص ما، بواسطة الهاتف. إن ما نحن نقوم به من شأنه أن يمنع حصول مشكلة." توقف رافائيل. "إن طموحها لا يحده حد."

"لكنها قد أنجزت الكثير. لقد حققت ما لم يستطع أحد تحقيقه. لقد باتت الحياة راقية في آسيا الوسطى، في نهاية الأمر."

"لقد رأيت ذلك في عينيها، يا فيكتور. ليس شيء من كل ذلك يكفيها. إنها تطمع في المزيد."

لقد أخفى احتياجه الشخصي بنظرة حائرة.

قال رافائيل. "كنت أقرأ كتاباً عن سيرة الإسكندر كانت قد ذكرته لي. إنها تحب توجيه الآخرين إلى قراءة بعض الكتب. خاصة الكتب التي تتعلق بالإسكندر. هل تعرف قصة بوسيفيلس، حصان الإسكندر؟"

كان قد سمع زوفاستينا تتحدث عن تلك الرواية. عندما كان الإسكندر لا يزال

ولداً يافعاً اقتنى وإيلده حصاناً جميلاً يصعب ترويضه. لكن الإسكندر عيّر كلاً من وإيلده وسائسي الخيل الملكية قائلاً: إنه يستطيع أن يقوم بترويض ذلك الحصان. وكان فيليب في شك من ذلك الإدعاء، لكن بعد أن تعهد الإسكندر أن يدفع ثمن الحصان من نقوده الخاصة إذا فشل في ترويضه فإن الملك أذن له بأن يجرب ذلك. ولأن الإسكندر كان قد لاحظ أن الحصان يخشى خياله فإنه قد وجهه وجهة الشمس، حتى يصبح بذلك ظلّه خلفه، ثم تمكن بعد ذلك، من اعتلاء ظهر الحصان بعد القيام ببعض التودّد والملاطفة.

هنا باح رافائيل بما يعرفه.

"وهل تعرف ماذا قال فيليب للإسكندر بعد أن نجح في ترويض الحصان؟"
هزّ رأسه نافياً.

"لقد قال له: "عليك أن تبحث عن مملكة لك تتناسب مع حجمك. لأن مقدونيا ليست من الاتساع بما يكفي لك؛ وهذه هي مشكلة زوفاستينا أيضاً. يا فيكتور إن دولتها الاتحادية هي أكثر اتساعاً من أوروبا، ومع ذلك فإنها ليست كبيرة بما يكفيها. بل هي تتطلع إلى المزيد."

"إن هذا ليس هو الهم الذي علينا نحن الإثنين أن نقلق بشأنه."

"بل إن ما نقوم بعمله يقع بشكل أو بآخر، ضمن مخططاتها."

لم يقم بالتعليق على ذلك بشيء، مع أنه هو الآخر، كان شديد الاهتمام بالأمر. بدا أن رافائيل قد أحسّ بعدم ميله إلى الخوض في المزيد. "لقد أخبرت الرجل على الهاتف أننا سوف نحضر معنا مبلغ خمسين ألف يورو. مع أننا لا نحمل نقوداً." استحسن تغيير موضوع الحديث. "لن يكون لنا حاجة بها، وسنحصل على الميدالية دون أن نضطر لصرف أي نقود."

"إن ما نحتاج أن نفعله هو أن نمحو كل من يقوم بعمل ذلك من الوجود." كان رافائيل محقاً. فرئيس الوزراء زوفاستينا لا تستطيع أن تتساهل في أي خطأ. "إنني أوافقك." قال له. "إن علينا أن نتخلص منهم جميعاً."

الفصل الثالث عشر

سمرقند

اتحاد آسيا الوسطى

الساعة 11:30 قبل الظهر

كان الرجل الذي دخل إلى مكتب إيرينا زوفاستينا قصيراً رباعاً، ذا وجه مفلطح، ومحيط فكين يشي بالغلظة والعناد. وكان هو القائد الثالث رتبة في القوات الجوية لاتحاد آسيا الوسطى. لكنه كان أيضاً القائد السري لحزب سياسي ضئيل قد ارتفع نبض صوته في الآونة الأخيرة حتى صار له حجم يدعو إلى القلق. كان الرجل قوزاقياً يناهض سراً كل نفوذ سلافي. وهو يحب الكلام على الأيام الماضية المشرقة المجيدة قبل أن يأتي الروس الذين غيروا كل شيء.

حدّقت نحو المتمرد متعجبة كيف أن جمجمته الصلعاء، وعينيهِ العاقرتين، يمكن لها أن تساعد على التقرب من أي إنسان. ومع كل ذلك، فإن التقارير الواردة عنه تشير إلى أنه رجل ذكي فصيح. ويملك قدرة على الإقناع. كان قد تمّ إحضاره إلى القصر منذ يومين بعد أن انهار فجأة تحت وطأة فورة من الحمى العاتية. كانت الدماء تنزف من منخريه، وكان يعاني من نوبات سعال أنهكت قواه، وكان ثمة ألم نابض في وركيه كان يصفه أنه أشبه بضربات مطرقة. كان طبيبه قد شخص المرض بأنه التهاب فيروسي قد يكون مصحوباً بانصباب دموي في الصدر.

لكنّ الحالة لم تكن لتستجيب لأي من العلاجات التقليدية.

مع ذلك كله، فإنه قد بدا اليوم في حالة جيدة. كان حافي القدمين ويلبس واحداً من معاطف الحمام المصنوعة من الفرو الكستنائي، العائدة إلى القصر.

"تبدو بحالة طيبة يا أنقر. ويبدو أنك قد تحسنت كثيراً."

"لَمْ أُنَا موجود هنا؟" سأل بصوت لا يشي بأي شعور ولا يفصح عن أي استحسان.

أما في وقت سابق فقد كان يستجوب الموظفين الذين كانوا قد قاموا بالتلميح له عن بعض الإشارات العابرة إلى خيانتة، بناء على طلب منها. لكن اللافت أن شيئاً ينبئ عن الخوف لم يظهر على سيماء الرجل. أكثر من ذلك، أنه كان يظهر لها التحدي بإصراره على اجتناب مخاطبتها باللغة الروسية، بل كان يكلمها باللغة القوزاقية، وهكذا فإنها قررت مجاراته ومخاطبته باللغة القديمة. "لقد كنت مريضاً على حافة القبر. ولقد أمرت بإحضارك إلى هنا كي يتمكن أطبائي من الاعتناء بك."

"لست أتذكر شيئاً عن الأمس."

أشارت إليه بالجلوس وسكبت له الشاي من إبريق فضي. "لقد كنت في حالة بالغة الخطورة. ولقد انتابني قلق عليك. فقررت أن أساعدك."

حنق في وجهها بنظرة جليّة من الشك.

مدت له يدها بفنجان وصحيفة. "إنه فنجان من الشاي الأخضر المنكه بالتفاح، وقد قيل لي أنك تستسيغ هذا الشراب."

لم يقبل الفنجان منها. "ما الذي تريدينه مني يا رئيس الوزراء؟"

"إنك خائن لي ولهذا الاتحاد. وحزبك السياسي ما انفك يغري الناس بالعصيان المدني."

لم يُظهر لها أي اندهاش للأمر. "أنت لا تنفكين عن التكرار أن لنا الحق في الجهر بما نريد قوله."

"وهل أنت تصدّقني في ذلك؟"

وضعت الفنجان على الطاولة بعد أن قررت التوقف عن لعب دور المضيفة. "منذ ثلاثة أيام جرى تعريضك إلى متعضّ فيروسي - فيروس من النوع الذي يقتل المصاب به في فترة تتراوح من أربع وعشرين إلى ثمان وأربعين ساعة. ويأتي الموت من حمى متفشية تخلف انصباباً في الرئتين ووهناً في الأوعية الدموية يؤدي

إلى إصابات خطيرة بالنزف الداخلي. أما إصابتك فلم تتطور إلى هذه الدرجة من السوء، ولكن مع وصول هذا الوقت فإنها كان لا بد لها من أن تبلغ ذلك الطور.

"وكيف حصل لي الشفاء إذا؟"

"لقد قمت أنا بإيقاف تطوّر المرض."

"أنت؟"

"أردت أن ترى بنفسك ما الذي أستطيع أن أفعله بك." بقي صامتاً لبرهة، وكان في ما يبدو يمضغ هذه الحقيقة.

"إنك كولونيل في سلاحنا الجوي. رجل أقسم على افتداء هذا الاتحاد بحياته." "وإنني مستعدٌ لذلك."

"لكن يبدو أن لا مشكلة لديك في التحريض على الخيانة."

"أكرر سؤالك لك. ما الذي تريدينه مني؟" طارت الآن كلُّ نبرة مدنية من صوته.

"أريد أن تكون موالياً لي."

لم يقل شيئاً.

التقطت جهاز التحكم عن بُعد عن الطاولة. واستفاقت شاشة عرض مسطحة مثبتة عند الزاوية، على الحياة فجأة، وظهرت على وجهها صورة تجمع خمسة رجال يتحركون وسط جمع من الناس، وقد كانوا يتفقدون الأكشاك الواقعة تحت مظلات زاهية من الألوان المختالة بالنواتج الطازج.

هنا نهض ضيفها على قدميه.

"إن شريط الفيديو هذا كان قد أتانا من إحدى كاميرات المراقبة في سوق نافوي. إن هذه الكاميرات شديدة النفع في حفظ النظام ومكافحة الجريمة. لكنها فوق ذلك تسمح لنا بتتبع الأعداء." لقد لاحظت أنه قد استطاع التعرف على الأوجه. "هذا الكلام صحيح يا أنقر. إن أصدقاءك قد عقدوا العزم على مناهضة هذا الاتحاد. وإنني على دراية بجميع مخططاتكم."

كانت تعرف فلسفة حزبه تمام المعرفة. فقبل أن يستتب الأمر للشيوعيين، عندما كان أكثر القوزاق يعيشون في خيام جلدية، فإن النساء كنَّ يشكُنن قسماً جوهرياً من المجتمع وكنَّ يتبوأن ما يزيد على ثلث المناصب السياسية. لكن بين السوفييت والإسلام تحوّلت النساء إلى الهامش. أما الاستقلال في التسعينيات فلم يأت بالكساد الاقتصادي فقط، لكنه سمح أيضاً للنساء بالعودة إلى الواجهة الأمامية حيث بدأن بشكل مستمر حثيث باستعادة نفوذهن السياسي. ولقد حصّن الاتحاد تلك النهضة الجديدة.

"لست أعتقد أنك تحبذ العودة إلى الأيام القديمة يا أنقر" إلى الأيام التي كنا فيها نهيم في البوادي. وقد حكمت النساء ذلك المجتمع منذئذ. كلاً بل إن ما أنت تصبو إليه إنما هو الحصول على السلطة السياسية. وإذا استطعت أن تلهب مشاعر الناس بتلك الأفكار عن الماضي المجيد، فإنك ستجبر كل مرئود ذلك لمصلحتك الشخصية. فأنت تكاد تكون مكافئاً لي في السوء في هذا الأمر."

بصق عند قدميها. "إن هذا هو ما أعتقدُه عنك."

هزّت كتفيها هزة اللامبالاة. "ذلك لا يغير في الأمر شيئاً." أشارت نحو الشاشة. "كل واحد من هؤلاء الرجال سوف يتم نقلُ العدوى إليه قبل غروب شمس هذا اليوم تماماً مثلما جرى الأمر معك. ولن يُحسَّ أحدهم بشيء سوى بعد أن يصبح أنفه مزكوماً وتصبح حنجرته مؤلمة وتظهر عليه علامات الصداق، وعند ذلك يعتقد أنه مصاب بوعكة زكام. إنك تتذكر تلك الأعراض، أليس كذلك يا أنقر؟"

"إنك سيئة وشريرة بقدر ما اعتقدته عنك دائماً."

"لو كنت شريرة حقاً لكنت قد سمحتُ لك بأن تموت."

"ولمَ لمَ تفعلي ذلك؟"

سدّدت جهاز التحكم عن بُعد وقامت بتغيير القنال. هنا ظهرت خريطة.

"هذا هو ما استطعنا تحقيقه. دولة آسيوية موحّدة يجتمع حولها كل القادة."

"لكنك لم تسألني الناس رأيهم في ذلك."

"حقاً؟ لقد مرّت الآن خمس عشرة سنة على إنجازنا لهذه الحقيقة. وقد

تحسنت اقتصادات الدول السالفة لقيام هذا الاتحاد تحسناً مذهلاً. لقد قمنا ببناء المدارس والبيوت والطرق، وتحسنت الخدمات الطبية بشكل لافت. ولقد قمنا بتحديث بُنانا التحتية من كهرباء ومياه وتصريف مياه بشكل لم يسبق لنا أن شهدناه على أيام العهد السوفييتي، وهي كلها الآن تعمل. أما الاغتصاب الروسي لأراضينا ومواردنا فقد توقف الآن. والاستثمارات العالمية تتوارد إلينا بالبلايين. أما السياحة فهي في تصاعد مستمر. وقد تضاعف منسوب الناتج القومي عندنا بنسبة ألف في المئة. إن شعبنا الآن هو شعب سعيد يا أنقر.



"لا، ليس الجميع."

"ليس من الممكن جعل جميع الناس سعداء. كل ما يمكننا عمله هو أن نجعل أكثرية الشعب سعيدة. وهذه هي النظرية التي يدعو إليها الغرب في كل يوم."

"كم هو عدد الأشخاص الذين قمتَ بممارسة أساليب الضغط عليهم مثلما تفعلين معي؟"

"إن عددهم ليس كبيراً جداً. فمعظم الناس يلاحظون أن ما نقوم به إنما يحقق منافعهم، ونحن نقوم به نيابة عنهم. وها أنا أشرك أصدقائي معي في الثروة والسلطة. دعني أقول لك لو كان لدى أي واحد منكم رأياً أكثر جدارة بالاتباع فإنني على أتم الاستعداد للإصغاء إليه. لكن حتى الآن لم يتقدم مني أحد بما هو أفضل مما أقدمه أنا. أما القدر اليسير من المعارضة التي واجهتنا، بمن فيهم أنت، فقد كانت تهدف بكل بساطة إلى وصول المعارضين إلى السلطة ولا شيء سوى ذلك."

"كم هو من السهل عليك أن تكوني كريمة معنا فيما جرائيمك تلذعنا بسوط واحد لكي نستقيم في صفوفك."

"كان باستطاعتي أن أدعك تموت وأحلّ مشكلتي معك. لكن قتلك يا أنقر هو عمل أحمق. فإن هتلر وستالين، والباطرة الرومان، وقيصرة روسيا، وكل ملك من ملوك أوروبا قد ارتكبوا جميعاً الخطأ نفسه. لقد قاموا بتصفية الناس الذين كان بإمكانهم بالضبط أن يساندوا حكمهم عندما يكونون في حاجة حقيقية إلى المساندة." "ربما كان الحق معهم. فالإبقاء على حياة الأنداد المنافسين قد يكون أمراً خطراً."

بدت كأنها تتخلّى عن تحفظها قليلاً بينما هو يتخبط في مرارته، لذلك سألتها، "أتعرف أي شيء عن الإسكندر الكبير؟"

"أعرف أنه غارٍ آخر من غزاة الغرب."

"وقد استطاع في اثنتي عشرة سنة أن يقهرنا ويتغلب علينا، مسيطراً على بلاد فارس بكاملها وعلى آسيا الصغرى. وهي في مجملها أراضٍ لم تستطع الإمبراطورية الرومانية ضمّها إليها حتى بعد ألف سنة من الحروب. ثم كيف تُراه قد أسس حكمه؟ ليس على قاعدة الإكراه. فهو ما إن كان يضمّ مملكة معينة إلى ملكه حتى يسارع دائماً إلى السماح لحاكمها السابق بأن يبقى على حكمه لها. ولأنه استعمل تلك السياسة فقد تمكن من استنابات أصدقاء له وأعوان لا يترددون في إمداده بالمؤن والرجال عندما يجد نفسه في حاجة إلى ذلك. وقد مكنته تلك السياسة

من القيام بالمزيد من أعمال التوسع والفتح. ثم قام بإشراك غيره في الثروات. لقد كان الإسكندر ناجحاً لأنه عرف كيف يحسن استعمال السلطة.

كان من الصعب عليها معرفة مدى نجاحها في التأثير عليه. لكن القوزاقي قد شكّل لها مثلاً واحداً مقنعاً. فالأعداء يحيطون بها بالفعل من كل جانب. ومحاولة الاغتيال التي تعرضت لها أخيراً لا تزال طرية ومائلة في ذهنها. ولقد كانت تحاول دائماً أن تقوم بتصفية معارضيها أو بتجنيدهم إلى جانبها، لكن المناوئين باتوا مؤخراً ينبتون لها بشكل يومي. وحتى الإسكندر نفسه فإنه قد وقع ضحية لعصاب الخوف غير المبرر. ولا يسعها أبداً أن تسمح لنفسها بالوقوع في الخطأ نفسه.

"ما الذي تقوله يا أنقر؟ هل ترضى بالانضمام إلينا؟"

لاحظت كيف أنه قد بدا عليه التفكير العميق في طلبها. قد لا يكون الرجل أحبها، لكن التقارير كانت تتحدث أن هذا المحارب، بل الخبير الذي تدرب على أيدي السوفييت وحارب في صفوفهم في الكثير من الصراعات العنيفة، إنما كان يكره شيئاً ما، أكثر من كرهه لها بكثير.

ولقد حان الوقت لاكتشاف مدى صحة ذلك.

أشارت إلى الخريطة في اتجاه الباكستان، وأفغانستان وإيران. "إن هذه الدول هي مشكلتنا."

ولقد لاحظت أن هذا قد راق له.

"وما الذي تنوين عمله حيال هذه الدول؟" وجّه إليها سؤاله بكل اهتمام.

"سأضع حداً لوجودها."

الفصل الرابع عشر

كوبنهاغن

الساعة 8:30 صباحاً

حدثُ مالون نحو البيت. لقد كان هو وثورفالدسن وكاسيوبيا قد غادروا مكتبته منذ نصف ساعة خلّت متجهين بالسيارة شمالاً على الطريق المحاذي للشاطئ. وبعد مسيرة عشر دقائق إلى الجنوب في محاذاة أملاك ثورفالدسن البانخة انصرفوا عن الطريق الرئيسي في طريق فرعي، وأوقفوا سيارتهم بنهايته أمام مسكن متواضع مؤلف من طابق واحد، رابض وسط دغلٍ صعب المسالك من الأشجار الساحلية. كانت الأزهار الربيعية والطحالب البحرية تزحف على جدرانه، بينما خشب وطوب سقفه يغطيهما سطحٌ مائلٌ مُجملنٌ. وكانت المياه العكرة الداكنة تغطي الشاطئ الصخري الواقع إلى خمسين ياردة خلف المسكن.

"أبدو كما لو أنني أكاد أسأل عن صاحب هذا المكان."

"إنه مكان مهذّم." قال ثورفالدسن. "ولأنه يتاخم عقاري فقد قمت بشرائه في مقابل إتمام صفقة، لكن موقع حافة الماء شديد الروعة هنا."

وافقه مالون الرأي في أنه عقار من الدرجة الأولى. "ومن ذا الذي يفترض به أن يكون ساكناً هنا؟"

ضحكت كاسيوبيا. "إنه مالك المتحف. ومن سواه؟"

لاحظ أن مزاجه كان يميل إلى الخفة. أمّا مزاج رفيقيه فكان يبدو عند حافة الغضب. وكان هو قد عمد إلى تغيير ملابسه قبل مغادرتهم المدينة، وقد استعاد بندقيته الباريتا التي كان يستخدمها عندما كان في فرقة ماجيلان بيليه، من تحت

سريره. كان البوليس المحلي قد طلب منه في مناسبتين اثنتين تسليم سلاحه. لكن صديقه ثورفالدسن استعمل علاقاته مع رئيس الوزراء الدانماركي لوضع حد للمحاولتين معاً. وخلال السنة الماضية، ومع أنه متقاعد، فإنه كان قد وجد الكثير من المنافع لسلاحه الفردي هذا. وكان هذا مدعاة للتعب. إذ أن في أولى الأسباب التي دعت به إلى اعتزال الوظيفة مع الحكومة أنه راغب في التوقف عن حمل المسدس.

دلفوا إلى داخل المنزل. وكانت أشعة الشمس تنسكب من خلال النوافذ التي غلّفتها غلالة من الملح. وكانت داخلية البيت مزينة بخليط من الطرازين القديم والجديد. مزيج من لونين يروقان للعين معاً لا لسبب سوى لذاتهما. لاحظ حالة البيت. ثمة حاجة إلى الكثير من أعمال الصيانة.

جاست كاسيوبيا في المنزل.

جلس ثورفالدسن على أريكة مكسوة بقماش صوفي خشن تعلوه طبقة من الغبار. "كل ما كان موجوداً في المتحف في ليلة أمس لم يكن سوى نسخة عن موجودات هذا البيت. لقد أزلت القطع الأصلية عن مكانها بعد أن قمت بابتياح هذا المكان. لم يكن أيّ منها ذا قيمة غالية على وجه الخصوص. لكن لم يكن بوسعي السماح لفكرة ذهاب الدمار بها، أن تحدث."

"لا بد أنك قد تجشمت الكثير من المتاعب في سبيل ذلك." قال مالون.

عادت كاسيوبيا الآن من جولاتها الاستطلاعية. "ثمة الكثير مما يستحق انتظاره والرهان عليه."

كأنما هو كان بحاجة لسماع مثل هذا الكلام. "بينما نحن نجلس في انتظار شخص ما، آتٍ لقتلنا - ذلك الشخص الذي كنت تتحدث معه على الهاتف منذ ثلاث ساعات - هل تستطيع أن تفسر لي ما هو السبب الذي يجعلنا نمنحهم ذلك الوقت الطويل لإتمام استعداداتهم؟"

"إنني مدرك تماماً لما قد أقدمت عليه." قال ثورفالدسن.

"وما الذي يجعل تلك الميداليات على هذا الجانب كله من الأهمية؟"

"هل تعرف شيئاً عن فستيشيون؟" سأل ثورفالدسن.

وكان لديه طرفٌ من العلم. "لقد كان أقرب أصدقاء الإسكندر إليه. وربما كان خليفه أيضاً. وقد مات قبل بضعة أشهر من موت الإسكندر."

"إن الخطيطة المكتوبة بالآلة الكاتبة،" قالت كاسيوبيا. "التي تم العثور عليها في سمرقند تقع في الحقيقة في سياق السجل التاريخي مع بعض المعلومات التي تم الكشف عنها مؤخراً. فنحن الآن نعرف أن الإسكندر كان مرهقاً بالشعور بالذنب بسبب وفاة فستيشيون إلى درجة حدث به إلى إعطاء الأوامر بإعدام طبيبه الشخصي، وهو رجل يدعى غلوسياس. لقد جعل الرجل ينفلق إلى فلتقتين عن طريق ربط أطرافه إلى قُبَّتَي نخلتين كانتا قد أنيختا إلى مستوى الأرض."

"وما الذي جناه ذلك الطبيب كي يستحق تلك العقوبة؟"

"ذلك لأنه فشل في إنقاذ حياة فستيشيون." قال ثورفالدسن. "فحسبما يبدو الأمر، فإن الإسكندر كان يمتلك علاجاً. علاجٌ كان في مرة سابقة على الأقل قد كبح هذا النوع نفسه من الحرارة التي كانت قد قتلت فستيشيون. وتجري الإشارة إليه في المخطوطة بكل بساطة بتسمية «الترياق»، فحسب. لكن هناك أيضاً بعض التفاصيل الأخرى المثيرة للاهتمام."

أخرجت كاسيوبيا صفحة مطوية من جيبها "قم بقراءتها بنفسك."

لقد كان عاراً كبيراً على الملك أن يقوم بإعدام غلوسياس. لم يكن ثمة ما يلام عليه ذلك الطبيب. لقد كان فستيشيون قد أُنذر بوجوب الامتناع عن الطعام والشراب، ومع ذلك فإنه أكل وشرب معاً. فلو أنه امتثل لذلك فلربما كان يمكن كسبُ الوقت اللازم. صحيح أن غلوسياس لم يكن تحت يده شيء من ذلك الإكسير بعد أن كان الإناء الذي يحزره فيه قد تحطم قبل بضعة أيام من الحادثة، لكنه كان في انتظار وصول المزيد منه من الشرق. فقبل ذلك بسنوات، خلال مطاردة الإسكندر للسِّيْثيين، فإنه كان قد عانى من ألم سيئ في معدته. وفي مقابل حصولهم على هدنة منه فإن السِّيْثيين كانوا قد زوّدوه بذلك الترياق الذي كانوا قد اعتادوا على التداوي به منذ وقت طويل. ولم يعرف عن سرّ ذلك الترياق سوى الإسكندر، وفستيشيون، والطبيب غلوسياس. لكن غلوسياس كان مرة قد استخدم ذلك السائل المدهش لمعالجة مساعده. لقد كان عنق

الرجل منتفخاً بالأورام إلى درجة سيئة جعلته يكاد لا يقوى على الابتلاع لأن حبيبات التدرن كانت تسدُّ حلقه، وصارت السوائل تندلق إلى خارج فمه مع كل زفير. كما أن قروحاً باتت تغطي جسده. ولم يتبقَّ لديه أيُّ قوَّة في العضلات. فاستنشاق كل نشقة هواء بات يقتضي منه جهداً مضمناً. لكن غلوسياس أعطاه من هذا الترياق، ومع حلول اليوم التالي لذلك، فإن الرجل ما لبث أن استعاد عافيته. أخبر غلوسياس مساعده أنه كان قد استعمل هذا العلاج لمداواة الملك لمرات عدة، وقد استعمله مرة في حالة كاد الملك فيها أن يشرف على الموت، ولقد كان الملك يتمثل إلى الشفاء بعد كل استعمال لهذا العلاج. وهذا المساعد الذي بات مديناً لغلوسياس بحياته لم يكن في يده أن يفعل شيئاً لإنقاذه من غضبة الإسكندر. وقد كان يقف مراقباً من فوق أبراج بابل عندما مزقت النخلتان جسد منقذه إلى أجزاء. وبعد عودة الإسكندر من ساحة الإعدام، فإنه أمر بإحضار ذلك الطبيب المساعد إليه وسأله عما إذا كان يعرف شيئاً عن ذلك الإكسير. ولأنه كان قد شهد ذلك القتل الفظيع لغلوسياس، فإن الخوف الشديد دفعه إلى قول الحقيقة. وهنا طلب منه الملك ألا يخبر أحداً عن ذلك الشراب. وبعد عشرة أيام كان الإسكندر يضطجع على فراش الموت. كانت الحمى تنهش جسده وكانت قواه العضلية قد خارت بشكل شبه تام، مثلما كان قد حصل من قبل مع فستيشيون. وفي اليوم الأخير من حياته عندما كان رفاقه وكبار قاداته يتوسلون منه الإرشاد والنصح، فإن الإسكندر قد همس بأنه يريد الترياق. فاستجمع الطبيب المساعد شجاعته بعدما استنكر غلوسياس كي يخبر الإسكندر أن: لا. وهنا ارتسمت ابتسامة على فم الإسكندر. وسُرَّ الطبيب المساعد في مراقبة الإسكندر وهو يفارق الحياة رغم معرفته أنه كان بوسعه القيام بإنقاذ حياته.

"وكان مؤرخ البلاط،" قالت كاسيوبيا، "وهو رجل فقد بدوره شخصاً عزيزاً عليه عندما أمر الإسكندر بإعدام كاليستينز قبل أربع سنوات خلت. قد قام بتدوين هذه الرواية. وكاليستينز هذا هو ابن أخت أرسطوطاليس. وكان قد عمل كمؤرخ للبلاط حتى ربيع العام 327 ق. م. كان ذلك عندما تم إلقاء القبض عليه كمتهم بالاشتراك في مؤامرة لاغتيال الإسكندر. لكن بعد ذلك فإن

جنون العظمة والارتياب عند الإسكندر قد تصاعد إلى مستويات خطيرة. ولهذا فإنه أمر بإعدام كاليستينز. وقد قيل إن أرسطوطاليس لم يغفر للإسكندر هذا العمل بعد ذلك أبداً."

هزّ مالون رأسه بالموافقة. "ويروي البعض أن أرسطوطاليس كان هو من قام بإرسال السم الذي يُفترض أنه قد تسبب بقتل الإسكندر."

تهكّم ثورفالدسن على ذلك التعليق. "لم يمت الملك مسموماً فهذه المخطوطة تثبت ذلك. بل لقد مات الإسكندر بسبب إصابته بعدوى. قد تكون إصابة بالمalaria. لقد كان يخوض في المستنقعات قبل بضعة أسابيع من وفاته. لكن يبقى من الصعب تأكيد ذلك. وكان ذلك الشراب (الترياق) قد شفاه من قبل مثلما شفى الطبيب المساعد."

"هل أصابك شيء من تلك الأعراض؟" سأله كاسيوبيا "حرارة وتورم في العنق، ورغام، وتعب، وتقرّحات. إن ذلك يشبه إصابة فيروسية. مع ذلك، فإن ذلك السائل كان قد كفل الشفاء التام للطبيب المساعد،"

لم يكن شديد الإعجاب بما سمع. "إنكما لا تستطيعان أن تضعوا الكثير من الثقة في مخطوطة يعود عهدا إلى ما يزيد عن ألفي سنة. فأنتما لا تملكان دليلاً على صدقها وأصالتها."

"بل هي وثيقة أصلية." قالت كاسيوبيا.

لكنه انتظر لكي يسمع منها تبريراً لذلك القول.

"لقد كان صديقي خبيراً متخصصاً. والأسلوب الذي استخدمه للبحث عن المخطوطات إنما يرقى إلى مستوى الفن الرفيع الذي لا يُخدع بالأعمال المزورة. فنحن الآن نتحدث عن قراءة الكلمات في مستوى الفحص الجزيئي."

"يا كوتون،" قال ثورفالدسن. "لقد أدرك الإسكندر أن معركة ستدور للاستيلاء على جسده. فمن المعروف عنه أنه قد قال في أيامه الأخيرة قبل أن تدركه الوفاة، إن أصدقاءه البارزين سوف ينهمكون في مناورات جنائزية كبيرة بعد رحيله. وإنه لتعقيب مثير للعجب. لكنها عبارة قد بدأنا اليوم نفهمها."

وكان قد التقط شيئاً آخر من فم كاسيوبيا وأراد ان يعرف منها المزيد عنه.
 "قلت إن صديقك في المتحف كان خبيراً متخصصاً؟ هل تعنين أنه كان في الماضي
 ولم يعد موجوداً؟"

"بل إنه الآن رجلٌ ميت."

والآن أدرك مالون سرّاً تألمها. "هل كانت علاقتهما وثيقة؟"

لكن كاسيوبيا لم تشأ الإجابة.

"لقد كان بوسعك أن تخبريني بذلك،" قال لها.

"لا، بل لم يكن باستطاعتي أن أفعل ذلك."

كانت كلماتها لاذعة.

"يكفي أن أوجز لك،" قال ثورفالدسن، "إن كل هذه المكائد يدور مدارها حول
 تحديد مكان وجود جثمان الإسكندر."

"أتمنى لك حظاً سعيداً. فهذا الجثمان لم يكن لأحد أن يوفق في العثور عليه
 منذ خمسة عشر قرناً."

"وهذا هو الصيد الثمين." أجابته كاسيوبيا بلهجة باردة. "فقد نكون نحن
 نعلم مكان وجوده، بينما الرجل الآتي لقتلنا لا يعرف ذلك."

الفصل الخامس عشر

سمرقند

الساعة 12:20 بعد الظهر

أجالت زوفاستينا أنظارها في الوجوه التواقّة لطلاب الصف ثم سألتهم: "كم من أحدٍ منكم قد قرأ هوميروس؟"

ارتفعت أيدي قليلة فقط لتستجيب.

"لقد كنت مثلكم في صفوف الجامعة عندما قرأت ملحمة للمرة الأولى."

وكانت قد أتت إلى "المركز الشعبي للتعليم العالي" في واحدة من إطلاقاتها العامة الأسبوعية الكثيرة. وكانت تحرص على ترتيب خمس منها على الأقل، كل أسبوع. فهي عبارة عن مناسبات تتيحها لرجال الإعلام والصحافة، وكذلك للناس، لكي يشاهدوها ويسمعوها. وقد كان هذا المركز في سالف الوقت مجرد مؤسسة روسية شحيحة الموارد، وها هو اليوم قد استحال إلى مركز محترم للتعليم الأكاديمي. وكانت شديدة العناية بتلك الشؤون لأنها تعلم أن الإغريق كانوا محقين. فالدولة الأمية ليست بدولة في نهاية الأمر إطلاقاً.

وكانت تقرأ عليهم من نسخة من كتاب الإلياذة مفتوحة أمامها.

"إن جلد الجبان لا ينفكُ أبداً عن التبدّل. فهو لا يملك أن يتمالك نفسه، إنه لا يقوى على الجلوس في هدوء. لذلك فهو يقعي ويتململ، ناقلاً ثقل جسده من قدم إلى سواها، قلبه يتسارع في صدره، وهو ينبض بشدة بين الأضلاع، أما أسنان الجبان فتصطك في شدة، فهو في

خوف دائم من موتة مروعة. بينما يبقى جلد الجندي الشجاع أبعد ما يكون عن الشحوب. فهو متمالك نفسه. مشدودٌ هو، لكنه ليس في خوف كبير.

بدا الطلبة وكأنهم يستسيغون تلاوتها للشعر.

"إنها كلمات قالها هوميروس منذ ثمانية وعشرين قرناً، وها هي الآن لا تزال ذات معنى ووقع."

كانت الكاميرات والميكروفونات مصوّبة نحوها من قعر القاعة. ووجودها هنا كان قد أعادها بالذكرى إلى تسع وعشرين سنة مرت من عمرها. كان ذلك في كازاخستان الشمالية، في قاعة صفٍ أخرى. وكانت يومذاك، مع أستاذها.

"لا بأس عليك إن بكيت"، قال لها سيرجي.

كانت الكلمات قد حرّكت مشاعرهما، أكثر مما كانت تتصور أن ذلك قد يكون ممكناً. حدّقت يومها بذلك الأوكراني، الذي كان يملك إدراكه الخاص لهذا العالم.

"أنتِ ما زلتِ في التاسعة عشرة من عمرك"، قال لها. "ما زلت أتذكر عندما كنت قد قرأتُ أشعار هوميروس للمرة الأولى. لقد أثّرت فيّ أنا الآخر كثيراً."

"إن أخيل هو روحٌ معذّبة."

"كلنا أرواحٌ معذّبة يا إيرينا."

سُرّت يوم تلفّظ الأستاذ باسمها. وهذا الرجل يدرك أشياء لا تدركها هي. وقد توصل هو إلى فهم أشياء لا تزال هي تختبرها. ولطالما أرادت أن تعرف تلك الأشياء. "إنني لم أتعرف على أبي وأمي. ولم أعرف شيئاً عن عائلتي."

"ليس ذلك بالأمر الشديد الأهمية."

وقد أدهشها جوابه. "وكيف يمكنك أن تقول ذلك؟"

أشار إليها نحو الكتاب. "إن قدر الإنسان هو أن يعاني ويتألم ثم يموت. وإن ما مرَّ وانقضى ليس بذی بال."

وكانت تعجبُ لسنواتٍ مضت كيف أن الحياة حكمت عليها بحياة من الوحشة والتوحد. فالأصدقاء قليلون، والعلاقات غير موجودة، وكانت الحياة بالنسبة إليها سلسلة لا تنتهي من التحديات، كما من الرغبات والحرمان. تماماً مثل أخيل.

"يا إيرينا ستكتشفين يوماً لذة التحدي. فليست الحياة سوى امتحان تلو آخر. دائماً مثلما هو حال أخيل في سعيه نحو التفوق."

"وماذا عن الإخفاق؟"

هزُّ كتفيه. "حول عواقب عدم النجاح عليك أن تذكرني قول هوميروس. الظروف تحكم الناس، ولا يحكم الناس ظروفهم."

وفكرت في بيت آخر من ذلك الشعر يقول: "آية ضربات قاسية نتلقَى - وشكراً لإرادتنا الذاتية المتناقضة - كلما أظهرنا بعض العطف لهؤلاء البشر الفانين." هزُّ أستاذها رأسه موافقاً. "وعليك عدم نسيان ذلك."

"يا لها من قصة رائعة،" قالت مخاطبة الصف أمامها، "إنها قصة الإلياذة. قصة الحرب التي اشتعلت طيلة تسع سنواتٍ طويلة. ثم في السنة العاشرة قاد خلاف أخيل إلى وقف القتال. بطل إغريقي مليء بالفخر، مقاتل يعتبر أن الإنسانية تنبع من الشغف الكبير، بطل لا يقهر ولا يشكو ضعفاً سوى في كاحلي قدميه." وهنا لمحت ابتسامات على بعض الوجوه.

"كلُّ منا يشكو من نقاط ضعف،" قالت لهم.

"وما هي نقطة ضعفك أنت يا دولة الرئيس؟" سألها واحدٌ من الطلبة. طلبت منهم ألا يكونوا خجلين.

فطرَحُ الأسئلة أمرٌ جيد.

"ولم أنت تعلمني كل هذه الأشياء؟" كانت قد سألت سيرجي.

"أن تعرفي أصلك وميراثك هو أن تفهميه. هل تدركين أنك قد تكونين سليلة الإغريق؟"

نظرت إليه نظرة مرتبكة. "وكيف يكون ذلك ممكناً؟"

"منذ زمن قديم قبل الإسلام عندما استولى الإسكندر والإغريق على هذه الأراضي، فإن كثيرين من أفراد حملته قد بقيوا هنا حتى بعد مغادرته. لقد استقر أولئك في ودياننا واتخذوا لهم زوجات محليات. بل إن بعض كلماتنا وموسيقانا ورقصاتنا تعود إليهم."

ولم تكن قد أيقنت مرة بشيء من ذلك.

"إن نقطة ضعفي هي فرط عاطفتي نحو شعب هذا الاتحاد." قالت مجيبة عن سؤال السائل. "أنتم نقطة ضعفي."

صفق الطلبة استحساناً لجوابها.

فكرت من جديد بالإلياذة وايلدروس المستقاة منها. الانتصارات الحربية، أرجحية قيم الانتصارات والأمجاد العسكرية على الحياة العائلية، الشرف الشخصي، الثار، البسالة، زوال الحياة البشرية وأنيثتها. إن جلد الشجاع يبقى أبعد ما يكون عن الشحوب.

وهل سبق لها وأن شُحِبَ لونها منذ وقت قريب عندما واجهت محاولة اغتيالها؟

"تقولين إن السياسة تروق لك،" قال لها سيرجي، "إذاً عليك ألا تغفلي أبداً عن كلمات هوميروس. فآسيادنا الروس لا يعرفون شيئاً عن معنى الشرف. أمّا أسلافنا الإغريق فيعرفون عنه كل شيء، لا تكوني أبداً مثل الروس يا إيرينا لأن هوميروس كان على حق عندما قال: أن يخذل المرء أهله هو أعظم الخذلان على الإطلاق."

"كم واحد منكم يعرف شيئاً ما، عن الإسكندر الكبير؟" قالت مخاطبة صف

الطلبة.

لكن أيدي قليلة قد ارتفعت.

"هل دار في خلدكم أن البعض منكم قد يكون إغريقياً؟" هنا أخبرتهم بما كان أستاذها سيرجي قد أخبرها من قبل عن تلبُّث الإغريق في آسيا. "إن ميراث الإسكندر ما هو إلا جزء من تاريخنا. إنه ميراث الشجاعة والفروسية والتجَلُّد في

مواجهة المحن. لقد تمكن الإسكندر من الجمع بين الشرق والغرب للمرة الأولى. وقد طارت أسطورته إلى كل رقعة من رقاع هذه الدنيا. فالإنجيل يأتي على ذكره، وكذلك القرآن يذكره. والإغريق الأرثوذكس قد طوّبوه قديساً. واليهود اعتبروه بطلاً من أبطالهم. ويوجد نسخة عن الإسكندر في كل من الملاحم والأشعار والقصص البطولية لكل من الشعوب الألمانية والآيسلندية والإثيوبية. ولقد كُتبت عنه الأشعار والروايات الملحمية لعدة قرون. وإن قصة الإسكندر هي قصتنا نحن

وهي تستطيع أن تفهم بسهولة سبب شدة إعجاب الإسكندر بهوميروس. ولماذا قرّر أن يعيش بنفسه أحداث الإلياذة. ذلك أن الخلود لا تنال مرتبته سوى بتوسّل الأعمال البطولية. أمّا الرجال من أمثال أنريكو فينسينتي فليس لهم من سبيل لكي يفهموا معنى الشرف. فلقد كان أخيل على حق عندما أجرى هوميروس على لسانه:

إن الذئب والجملان لا تلتقي أفكارها معاً.

ولقد كان فينسينتي حملاً، أما هي فذئبة.

ولهذا، لن يكون بينهما لقاء.

لقد كانت تلك اللقاءات مع الطلبة جزيلة الفائدة على مستويات عديدة لم يكن أقلها سوى تذكيرها بما هي قادمة عليه. فمئذ ثلاثة وعشرين قرناً زحف الإسكندر الكبير بجيشه مسافة اثنين وثلاثين ألف كيلومتر، وتمكن من قهر العالم القديم المعروف آنذاك. ولقد أوجد الإسكندر لغة جديدة مشتركة، وشجع على التسامح الديني، ووجه طعنه للتفرقة العنصرية بين الشعوب. وأسس سبعين مدينة، وشق طرقاً تجارية جديدة، وبشّر بنهضة جديدة دامت قرنين ونصف القرن من الزمان. كما أنه ألهم بفكرة الشخصية البارزة القائدة الغالبة الفذة arete، وهي الفكرة الإغريقية المثالية عن التفوق والسيادة.

وقد جاء الآن دورها لتلعب الدور ذاته.

أنهت كلامها مع الصف وأذنت لنفسها بالخروج وحالما غادرت المبنى ناولها أحد حراسها قصاصة من الورق. فتحت الورقة وقرأت الرسالة التي تحتوي عليها. إنها رسالة بالبريد الإلكتروني كانت قد وصلت منذ نصف ساعة فقط. لاحظت

العنوان الملفّز لمصدر الرسالة، وقرأت الرسالة الشديدة الاقتضاب "احتاجك هنا مع الغروب".

كانت الرسالة مقلقة ومثيرة.

لكن لا مناص لها من الاستجابة.

"جهّزوا لي طوافة" أصدرت أوامرها.

الفصل السادس عشر

البندقية

الساعة 8:35 صباحاً

بنت البندقية بالنسبة إلى فينسينتي تحفةً من عمل فنان. فقد جمعت الكثير من الفخامة البيزنطية إلى جانب الملامح الإسلامية، والسحر الهندي والصيني. فهي مدينة نصف شرقية ونصف غربية، وهي توضع قدماً في قارة أوروبا وأخرى في قارة آسيا. وهي تحفة صنعتها يد البشر واستولدتها من مجموعة من الجزر التي استطاعت يوماً أن توحد أنفسها معاً في دولة واحدة هي الأعظم بين الأمم التي تعاطت التجارة. لقد امتلكت أسطولاً من أعظم أساطيل العالم، وأسست جمهورية يرقى تاريخها إلى اثني عشر قرناً من الزمان، وقد كان من شأن مبادئها البانخة أن جذبت حتى انتباه الآباء المؤسسين لدولة الولايات المتحدة الأمريكية. ولقد كانت تلك الدولة موضعاً للحسد، والشك، وحتى الرهبة. فهي دولة تتاجر مع الجميع دون تفرقة بين عدو وصديق. دولة تاجرة اعتادت كسب أموال الآخرين دون توقف عند أي قيود أو محاذير، فمبادئها مكرسة للربح، وللربح فقط. فهي لا تنظر حتى إلى الحروب إلا كمناسبات للتوظيف والاستثمارات الواعدة. لقد كان هذا هو شأن البندقية على امتداد القرون.

وكذلك كان شأنه هو، طيلة العقدين الماضيين.

وكان قد اشترى دارته الفخمة المسماة غراند كانال من أولى الأرباح التي جناها من شركته الصيدلانية الناشئة. من أجل أن تسكنه وتؤوي شركته فقط. وهي دارة قد بات سعرها الآن يربو على بضعة بلايين يورو. وها هي الآن تشكل المقر الرئيسي له ولأعماله.

ولقد أحبَّ البندقية على وجه خاص في أوقات الصباح الباكر عندما لا يكاد يُسمع سوى الأصوات البشرية. فنزهة صباحية سيراً على القدمين من قصره هذا على القنال إلى مطعمه المفضل القائم في ساحة "كامبو دي ليون" كانت تشكل الجهد الوحيد الذي يكلف نفسه عناء القيام به من أجل التريُّض. لكنها كانت روتيناً صباحياً لا يملك أن يحيد عنه. فالسير على القدمين، وركوب القارب كانا وسيلتي الانتقال الوحيدتين في المدينة، حيث أن العربات ممنوعة في البندقية.

أما في هذا الصباح، فإنه كان يمشي بهمة جديدة. فلطالما أقلقته مشكلة الفلورنسي. أما الآن، وقد تمَّ له حلُّ هذه المشكلة فإنه بات في وسعه تحويل انتباهه إلى الحواجز الأخيرة القليلة التي لا يزال عليه أن يقفز فوقها ويجتازها. فلم يكن ثمة شيء يشعره بالرضى أكثر من تحقق خطة محكمة التخطيط والأداء. لكن لسوء الحظ، إن قليلاً من المخططات هو الذي كان يسير على تلك الشاكلة.

خاصة عندما كان عنصر الخداع يبدو أمراً لا مندوحة عنه.

ولم يعد نسيم الصباح يحمل الآن تلك اللسعة الشتوية القارسة. فها هو الربيع قد عاد بكل وضوح إلى ربوع شمالي إيطاليا. فالهواء بات أكثر رقة، والسماء تزدان بلون قرنفلي ضارب إلى الصُّفرة بفعل بريق شمسٍ بازغة من فوق شرقي المحيط.

وكان قد نسج لنفسه طريقاً يومياً خلال الشوارع المتلوّية التي هي من الضيق بحيث يصعب خلالها السير في ظل مظلة مفتوحة. وكانت طريقه تعبر فوق العديد من الجسور التي تربط بين مناطق المدينة وتجمع بينها معاً. مرّاً بالقرب من مخازن الألبسة والقرطاسية والخمور والأحذية ومخزنين للمواد الغذائية زاخرين بالمنتجات وكلها كانت لا تزال مغلقة في تلك الساعة المبكرة من النهار.

أدرك نهاية الشارع، فدخل إلى الساحة.

وكان ينتصب برجٌ قديمٌ عند أحد أطرافها، برجٌ كان يوماً ما، كنيسة. أما الآن، فهو قد استحال مسرحاً. أما في الطرف الآخر فقد ارتفع برج أجراس كنيسة كارين. أما بينهما فقد امتدت البيوت والحوانيت التي تألقت بالقدم والاكتفاء بالنفس. ولم يكن قد أحبَّ مرةً على الأخص تلك المساحات المزروعة بالعشب المجزوز. فقد كانت توحى له بمظهرٍ جافٍ وقديمٍ ومُدُنِي. لم تكن تشبه الواجهات الواقعة على حواف

القنال حيث القصور تتناطح صفحة الماء بواجهاتها وكأنها جمعٌ من الناس الذين تشرئب أعناقهم لالتقاط نسمة هواء.

تأمل الساحة الفارغة فوجد أن كل ما فيها مرتب وأنيق. إنها على الوجه الذي يشتهيهِ ويرغبه.

كان رجلاً مسكوناً بحب المال، والسلطة، والمستقبل الواعد. فهو يعيش في واحدة من أعظم مدن العالم. أما نمط حياته فيتناسب مع أناقة الحاضر وأصالة الماضي. ولقد كان له أب تصعب الإحاطة بأوصافه، وقد غرس في نفسه محبة العلوم. فلطالما درّجته منذ نعومة أظفاره على أن يلاقي الحياة في أيّ حلّة أنت إليه. ولقد كانت نصيحة واقعة في محلها الصحيح. فخلاصة الحياة لم تكن سوى ردة فعلٍ يعقبها تكيف. فالمرء معها بين خروجٍ من ربةٍ تحدّ قديم، إلى ولوج مشكلة جديدة. ووجهُ الذكاء هنا: معرفة المرء لمكانه الصحيح بين هذين الحالين لكي يحسن التصرف بمقتضى كلٍّ منهما.

وها هو الآن قد خرج لتوّه من إحدى المتاعب.

وهو على وشك البحث عن تعبٍ جديد.

وخلال السنتين الماضيتين كان قد رأس "مجلس العشرة" الذي كان يقود "عُصبة البندقية". عُصبة مؤلفة من أربع مئة واثنين وثلاثين من الأعضاء المتكونين من نساء ورجال طالما جمع بينهم الشعور بأن النظم الحكومية المفرطة تلقي عبئاً محبطاً على كاهل طموحاتهم الشخصية، كما هو حال القيود القانونية على حرية التجارة، وكذلك طاقم رجال السياسة الذين يتناطحون عند المستويات الدنيا لهياكل الشركات المالية. أمّا حال أمريكا والاتحاد الأوروبي فلم يكن أفضل من هذا الواقع، لا بل هو أسوأ منه بكثير. ولطالما قام أعضاء العصبة بإنفاق البلايين في محاولاتهم الرامية إلى كبح المزيد من تقنين التنظيمات المعقّدة. ولكن ما إن تكن مجموعة من الساسة قد رُوّضت لتصبح مطيعة لهم حتى يأتي طاقم جديد سواها، لديه ميلٌ إلى بناء اسم له من طريق محاكمة الطاقم السالف المتعاون.

وإنها حلقة جهنمية محبطة لا نهاية لها.

من أجل هذا، فإن العصبة كانت قد قررت أن تجد لها مكاناً لا يكون للأعمال

التجارية فيه هم سوى التوسع والانتعاش دون أن يشغلها عن هذا الهم شغل أو أن يعيقها عنه معيق. مكان لا تزدهر فيه التجارة فحسب، بل يكون لها فيه أيضاً الحكم والفصل والقيادة. مكان يشبه مجتمع جمهورية البندقية كما كان في سالف عهده عندما كان يحكمه لقرون خلت رجال تحكم عقولهم عبقرية وكفاءة العقل التجاري الإغريقي، وخطرة وجلالة العقل الروماني. رجال يكونون ربابيين يملكون حس التاجر والمحارب والحاكم ورجل الدولة في وقت واحد. إنهم في سبيل تأسيس مدينة حكمة لا بد لها من أن تتعاضد لتصبح إمبراطورية. ومن وقت لآخر، كانت جمهورية البندقية قد شكّلت تحالفات مع دول مدينية أخرى. وكانت تلك الأحلاف تضمن البقاء، وتضمن العديد. وقد نجحت تلك السياسة كل النجاح على الدوام. أمّا سياستهم الجديدة لإعادة تجسيد الفكرة القديمة فإنها قد تكشّفت عن اعتناق تلك الفلسفة ذاتها. وكان هو قد شقي وجد السعي في سبيل جمع ثروته، وقد وجد نفسه يوافق على ملاحظة كانت قد ساقتها له إيرينا زوفاستينا تقول فيها: "لطالما أحب الإنسان كل ما شقي في سبيله."

أتم عبور الساحة العامة، واقترب من المقهى الذي كانت تفتح أبوابه عند السادسة من كل صباح لسبب بسيط هو القيام باستقباله. ففترة الصباح كانت هي فترة نهاره المميّزة. إذ يبدو أن عقله يكون أشدّ تفتحاً ونشاطاً في فترة ما قبل الظهر. دخل إلى المطعم وألقى التحية على صاحبه قائلاً: "هل لي أن أطلب منك خدمة يا إميليو؟ قل لضيوفي إنني سوف أرجع إليهم، إلى هنا بعد قليل. عليّ الانتهاء من عمل ما، أولاً، وهو لن يستغرق مني وقتاً طويلاً."

ابتسم له صاحب المطعم مشيراً برأسه إشارة الموافقة، ومؤكداً له أنه لن تكون ثمة مشكلة في ذلك.

تجاوز مديري شركته الذين كانوا ينتظرونه في قاعة طعام مجاورة، واتخذ طريقه من داخل المطبخ الذي كان يعبق بروائح السمك المشويّ والبيض المقلّي التي عبقت في منخريه. توقف لحظة ليتفحص المادة التي كانت تتقلّى فوق الموقد ثم ما لبث أن غادر المبنى من خلال باب خلفي ليجد نفسه في زقاق آخر خلفي من أزقة البندقية الضيقة التي لا حصر لها. وكان ذلك الزقاق مظلماً بسبب البنايات الإسمنتية العالية الكثيرة الارتشاح.

وكان ثمة ثلاثة مستجوبين يقفون في انتظاره على مبعدة أمتار. أوما لهم فتبعوه في قطارٍ أحادي. ولدى وصولهم إلى تقاطع طرقٍ: انصرفوا نحو اليمين متبعين زقاقاً آخر. وقد لاحظ رائحة كريهة مألوفة، نصفها أت من مياه المجاري، والنصف الآخر من عفونة الصخر ذلك الحجاب الذي يغطي البندقية. توقفوا عند المدخل الخلفي لبناية تحتوي على محلٍ لعرض الأزياء يشغل الطابق الأرضي منه بالإضافة إلى شققٍ في طبقاته الثلاث العلوية. وقد عرف أنهم قد باتوا الآن في مكان يقع هندسياً في الجانب الآخر للساحة، الجانب الذي يقابل المقهى.

وكان مفتش آخر يقف في انتظارهم عند الباب.

"هل هي هنا؟" سأل فينسينتي.

أوما الرجل بالإيجاب.

وبإشارة منه، دخل الرجال الثلاثة الآخرون إلى المبنى بينما بقي الرابع ينتظر. تبعهم فينسينتي بعد ذلك. وعند الطابق الثالث توقفوا أمام باب إحدى الشقق. تنحى هو في الممر قليلاً بينما شعر الرجال أسلحتهم واستعد أحدهم لخلع الباب. ثم أعطى إشارة البدء.

لامس نعل الحذاء خشب الباب الذي سرعان ما انخلع إلى الداخل.

اندفع الرجال جميعاً إلى داخل الشقة.

بعد ثوانٍ قليلة أعطى أحد الرجال إشارته التي دخل فينسينتي بعدها وأغلق الباب.

أمسك مفتشان بالمرأة. كانت نحيلة، خفيفة الشعر، وغير ذات جمال. امتدت يد لتكمم فمها وانغrustت ماسورة مسدس صاحب اليد في صدغها. كانت مرتعبة، ولكن هادئة. وكان سلوكها هذا متوقعاً لأنها محترفة.

"هل فاجأك وجودي هنا؟" سألها. "لقد كنت تتجسسين عليّ منذ مدة شهر تقريباً."

لكن نظرة عينيها لم تشب بأي جواب.

"لست رجلاً غيباً مع أن حكومتك لا بد أنها تظنني كذلك."

كان يعلم أن المرأة تعمل عميلة لصالح وزارة العدل الأمريكية. وهي عميلة في

وحدة عالمية خاصة تدعى «ماجيلان بيليه». وكانت عصابة البندقية قد تواجهت مع تلك الوحدة في مناسبة سابقة. كان ذلك قبل سنوات قليلة خلت عندما شرعت العصابة في نشاطاتها الإستثمارية في آسيا الوسطى. وهي مواجهة كانت في الواقع متوقعة. وقد بقيت أمريكا بعدها متشككة. إذ لا شيء قد أفصحت عنه تلكم التحريات. أما الآن، فيبدو أن الولايات المتحدة ما لبثت أن عادت إلى تسليط أنظارها على عصبته من جديد.

وكان قد تحرّى الأجهزة التي تجهزت بها العملية السرية: كاميرا ذات أداء بعيد المدى مركزة على سببة ذات ثلاث قوائم، وهاتف خلوي، ودفتر ملاحظات. لقد أيقن أن استجوابها سيكون أمراً لا طائل تحته. فهي لن تقول له سوى القليل من الأشياء التي هو يعرفها سلفاً. "لقد أفسدت عليّ إفطاري".

أوما، فقام أحد رجاله بمصادرة حاجياتها.

تقدم نحو النافذة، ونظر منها إلى المساحة المزروعة بالعشب، والتي كانت لا تزال خالية. فما يختار القيام بعمله في الخطوة التالية قد يقرر مصير مستقبله. فقد كان يحاول اللعب على الحبل من طرفيه في مقابل الوسط، وكان يعرف أن هذه لعبة خطيرة قد لا تستسيغها عصابة البندقية، ولا أيرينا زوفاستينا. كما أن الأمريكيين لن يستسيغوا هذه اللعبة على وجه أخص. لكنه كان قد خطط لتلك الخطوة الجريئة منذ وقت طويل.

فكما كان وايلده قد قال له غير مرة، "إن الحليم لا يستحق شيئاً".

أبقى نظرتة مثبتة على الشباك، ثم رفع ذراعه وقلب معصمه. سُمعت فرقة تشير إلى أن رقبة المرأة قد فُكَّت عن مكانها بطريقة نظيفة. كان لا يأبه كثيراً للقتل، أما مراقبة تنفيذه فقد كان أمراً آخر.

وقد عرف رجاله ماذا عليهم أن يفعلوا.

كانت سيارة تقف بالانتظار عند أسفل المبنى لتتنقل الجثمان عبر المدينة إلى مكان يوجد فيه كفن ينتظره منذ الليلة الفائتة. وكان في ذلك المكان مساحة كافية لكفن آخر.

الفصل السابع عشر

الدانمارك

تفرّس مالون في وجه الرجل الذي كان قد وصل للتوّ بمفرده وهو يقود سيارة أودي تحمل إشارة لاصقة فاقعة اللون على زجاجها الأمامي تشير إلى أنها سيارة سياحية مستأجرة. كان الرجل قصير البنية مفتول العضلات وله كتلة كثّة من الشّعْر العكش. وكان عليه ثياب فضفاضة وله كتفان وساعدان يشيان بأن الرجل معتاد على الأشغال الشاقة. ولعله كان في بداية العقد الرابع من عمره. أمّا ملامحه فتشير إلى أنه ذو علاقة بالعرق السلافي. يدل على ذلك منخراه الواسعان وعيناه الغائرتان.

تقدم الرجل إلى المصطبة الأمامية وقال: "لست أحمل سلاحاً، ولكن لا بأس عليكم من القيام بتفتيشي من أجل التأكد." أبقى مالون بندقيته مسدّدة. وكان قد انتعش لهذه العودة إلى التعامل مع المحترفين.

"لا بدّ أنك الرجل الآتي من المتحف."

"ولا بدّ أنك الرجل الذي أبقاني في داخله."

"لست أنا، لكنني كنت قد أيدت ذلك العمل."

"يا لها من أمانة يؤديها رجلٌ تصوّب بندقية إليه."

"إن البنادق لا ترعبني."

وكان مالون يصدّقه في ذلك. "إنني لا أرى أنك تصطحب أيّ نقود."

"لكنني لم أرَ الميدالية."

تنحى جانباً ممكناً الرجل من الدخول. "هل لك إسم؟" وقف الضيف في الممر مواجهاً إياه بنظرة قاسية. "فيكتور."



كانت كاسيوبيا تراقب ما يجري من بين الأشجار عندما دخل الرجل القادم من السيارة مع مالون إلى داخل البيت. أمّا مسألة أن يكون قد أتى بمفرده أم مصحوباً بسواه، فليس في الأمر مشكلة.

فهذه الدراما لا بد من أن تنتهي.

وكانت تأمل لمصلحة مالون أن تكون هي وثورفالدسن قد أحسنا حساب الأمور بشكل دقيق.



تنحى مالون جانباً بينما تولّى ثورفالدسن الحديث مع الرجل الذي يسمى فيكتور. بقي صامتاً يقظاً يتولى مراقبة ما يجري بتركيز شخص أمضى اثنتي عشرة سنة من حياته كعميل لدى شرطة وزارة العدل. فهو أيضاً كان قد اعتاد على مواجهة خصم مجهول، بسلاح الذكاء والحكمة، آملاً من الله أن لا يختل شيء من الحساب وأن يستطيع الخروج من هذه المواجهة بجسد مؤلف من قطعة واحدة.

"إنك ما لبثت تسرق تلك الميداليات من أرجاء القارة." قال له ثورفالدسن. "ما الذي يدعوك إلى فعل ذلك؟ رغم أن قيمتها ليست شديدة الأهمية."

"أنا لا أدري شيئاً عن قيمتها. أما أنت فتريد خمسين ألف يورو ثمناً للقطعة التي هي بين يديك. وهو مبلغ يزيد خمسة أضعاف عن ثمنها الذي تستحقه."

"والمدهش في الأمر هو أنك راغب في الدفع رغم ذلك. الأمر الذي يعني أنك لست من هواة جمع التحف. لمصلحة من تعمل إذاً؟"

"أعمل لمصلحة نفسي."

أصدر ثورفالدسن قهقهة ناعمة. "إنك ظريف، وقد راقني منك ذلك. وإنني لآنسُ لكنة أوروبية شرقية في نطقك للإنكليزية. لكنة تعود إلى يوغوسلافيا القديمة. هل أنت كرواتي؟"

بقي فيكتور صامتاً، وقد لاحظ مالون أن ضيفهما لم يمدّ يداً واحدة لتلاصق أياً من محتويات البيت.

"أفترض أنك ممتنع عن الإجابة عن سؤالي." قال ثورفالدسن، "كيف تريد أن تنجز الصفقة بيننا؟"

"أرغب في الدرجة الأولى بأن أقوم بالكشف على الميدالية، فإذا اقتنعت بها فسأقوم بإحضار النقود غداً. إذ لا يمكن إتمام ذلك في هذا اليوم فهو يوم أحد." "إن الأمر يعتمد على مكان وجود مصرفك،" قال ثورفالدسن.

"مصرفي مقفل اليوم." قال فيكتور قوله ذلك فيما نظرته تفصح أنه لن يقوم بالزيادة عليه.

"وأين تعلمت عن النار الإغريقية؟" سأل ثورفالدسن.

"يبدو أنك واسع المعرفة."

"إنني أمتلك متحفاً يونانياً - رومانياً."

أقشعر الشعر في عنق مالون. ذلك أن أشخاصاً مثل فيكتور الذي بدا متكئاً لا يتبرعون بالإفصاح عن شيء إلا إذا أيقنوا أن المستمعين إليهم لن يعيشوا طويلاً لكي يعيدوا قول ما سمعوا.

"أعرف أنك تسعى وراء ميداليات الفيل،" قال ثورفالدسن. "وأعرف أنك قد استوليت عليها جميعاً ما عدا ميداليتي وثلاثٍ آخر سواها. وأعتقد أن خدماتك مستأجرة، وأنت لا تدري السبب الذي يجعلها شديدة الأهمية. كما أنك غير مكترث لذلك الأمر، لأنك خادم مطيع."

"ومن تكون أنت أيضاً؟ إذ أنه من المؤكد أنك لست مالك المتحف الإغريقي - الروماني."

"على العكس، إنني المالك. وإنني أريد منك أن تدفع لي ثمن البضاعة التالفة. وهذا هو الثمن الباهظ."

مدَّ ثورفالدسن يده إلى جيبه وأخرج غلافاً بلاستيكيّاً شفافاً رماه في اتجاه فيكتور الذي عاجل إلى التقاطه بكلتي يديه. لاحظ مالون كيف أن ضيفهما قد أخرج الميدالية إلى صفحة كفه المفتوحة. كانت الميدالية بحجم قطعة عملة من فئة الخمسين سنتاً، كان لونها بلون القصدير ولها رموزٌ محفورة على كلّي وجهيها. أخرج فيكتور عدسة جواهريّ مكبرة من جيبه.

"هل أنت خبير؟" سأل مالون

"إنني أعرف في هذا الأمر إلى القدر الكافي."

"إنَّ المحفورات المجهرية موجودة فيها،" قال له ثورفالدسن إنها الأحرف اليونانية zh (زيتاً إيتاً) من المدهش أن يكون القدماء قد امتلكوا المقدرة على حفر تلك الأحرف."

لكن فيكتور تابع تفحصه للميدالية.

"هل اطمأن بالك؟" سأل مالون.



تمعّن فيكتور في الميدالية، ومع أنه لم يكن ليحمل ميزانه ولا ميكروسكوبه، إلّا أن القطعة بدت له أصلية.

بل في الحقيقة بدت له أنها أفضل من كل ما عداها حتى الآن.

لقد أتى خالياً من السلاح لأنه إنما أراد أن يعطي لهؤلاء الناس شعوراً خادعاً بأن الموقف واقع تحت سيطرتهم تماماً. فالدقة والنعومة هي من الأمور المطلوبة في مثل هذا الموقف. ومع ذلك فإن أمراً ما، كان يقلقه. وهو: أين تُرى قد ذهبت تلك المرأة؟

نظر إلى الأعلى سامحاً للعدسة المكبرة بالسقوط إلى يده اليمنى. "هل لي

بإلقاء نظرة أكثر دقة عليها، قرب الشباك؟ فإني أحتاج إلى قدر أكبر من النور."

"يمكنك ذلك دون أي شك"، قال الرجل الكبير.

"وما هو اسمك؟" سأل فيكتور.

"ما رأيك في اسم بطليموس؟"

ضحك فيكتور. "هنالك أكثر من بطليموس واحد. أي واحد منهم هو أنت؟"

"بطليموس الأول. جنرال الإسكندر الأكثر انتهازية. لقد طالب بحكم مصر كجائزة له بعد رحيل الإسكندر. إنه رجل لودعي. وقد احتفظت ذريته بحكم مصر لعدة قرون بعد ذلك."

هز رأسه. "ولكن في نهاية الأمر فقد تمكن الرومان من إيقاع الهزيمة بهم."

"مثل ما هو الحال مع متحف. لا شيء يدوم إلى الأبد."

تقدم فيكتور إلى مقربة الشباك المغبش الزجاج. وكان الرجل المسلح بمسدس يقف عند مدخل البيت. وكان هو لا يحتاج سوى إلى لحظات. إذ أنه حالما وضع جسده في مسد نور الشمس مستديراً بظهره نحوهما للحظة، فإنه قام بتنفيذ لعبته.



رأت كاسيوبيا رجلاً يخرج من بين الأشجار الواقعة إلى الجانب القصي من البيت. كان فتياً نحيفاً ورشيق الحركة. ومع أنها لم تتمكن في الليلة الماضية من رؤية وجه أي من الرجلين اللذين قاما بإشعال المتحف، إلا أنها استطاعت أن تميز المشية الرشيقة الفطنة للرجل، كذلك استطاعت أن تتميز أسلوبه الحذر.

إنه أحد اللصين.

تقدم الرجل نحو سيارة ثورفالدسن مباشرة.

عمل دقيق، وهي تشهد لهما بذلك. لكنه ليس شديد الحذر بما يكفي، خصوصاً وأنهما يدركان أن شخصاً ما، يتقدمهم في كل مرة ببضع خطوات على الأقل.

راقبت كيف أن الرجل أغمد سكيناً في كل من العجلتين الخلفيتين للسيارة ثم انسحب.



انتبه مالون إلى عملية التبديل وخِفة اليد، فلقد أسقط فيكتور العدسة المكبرة إلى يده اليمنى في الوقت الذي بقيت فيه الميدالية في يده اليسرى، لكن العدسة المكبرة أعيدت لكي تراها عينا فيكتور، وعادت عملية المعاينة تستأنف من جديد. لقد لاحظ أن الميدالية قد صارت الآن في اليد اليمنى، وأن سبابة إبهام اليد اليسرى قد كوّرتا الميدالية إلى كف تلك اليد.

لم تكن المناورة سيئة، سيما وأنها امتزجت في براعة، مع فعل التحرك نحو النافذة بحثاً عن كمية النور المناسبة. لقد كانت عملية مخادعة تامة.

التقت نظرة مالون مع نظرة ثورفالدسن، لكن الدانماركي أوما برأسه في سرعة، وكأنه يقول: أجل لقد لاحظت الشيء نفسه أيضاً. وكان فيكتور في تلك اللحظة يعاين الميدالية تحت العدسة المكبرة، فهزّ ثورفالدسن رأسه إشارة من يقول: دع الأمر يمر في حال سبيله.

"هل صرت مكتفياً؟" سأل مالون من جديد.

ألقي فيكتور العدسة المكبرة التي تصلح لجواهرّي، في يده اليسرى، ومنها إلى جيبه، هي والميدالية الصحيحة معاً. ثم عادت يده بقطعة العملة المزيفة التي استبدلها بالميدالية الصحيحة، معيداً إياها الآن لصاحبها، قائلاً: "بل إنها صحيحة."

"أستحق مبلغ خمسين ألف يورو؟" سأل ثورفالدسن.

أوما فيكتور برأسه أن نعم. "سأقوم بتحويل الثمن إليك. قل لي أين ترغب أن أقوم بتحويله."

"كلّمني غداً على الرقم نفسه الموجود على الميدالية، كما فعلت من قبل. وسوف نتفق على ترتيبات الصفقة."

"لكن أعدّ الميدالية إلى علبتها من جديد، لو سمحت." قال له مالون. مشى فيكتور نحو الطاولة. "يا لها من لعبة تقومان بلعبها معي."

"ليس الأمر لعباً." قال ثورفالدسن.

"وتقول خمسين ألف يورو؟"

"تماماً، ومثلما قلت لك. فلقد قمت بإحراق متحفي."

استطاع مالون أن يقرأ الشعور بالثقة بالنفس يلتمع في مقلتي فيكتور الحذرتين. لقد أدخل الرجل نفسه في موقف يجهل فيه خصمه كل الجهل، معتقداً بنفسه أنه يبرز خصمه ذكاءً. ولطالما كان مثل هذا السلوك خطيراً.

ومع هذا، فإن مالون كان هو الآخر قد ارتكب غلطة شنيعة.

فلقد تطوَّع في أمرٍ، معتمداً فيه فقط على ثقته بأن صديقيه يعرفان جيداً ما هي اللعبة الدائرة، وماذا يفعلان فيها.

الفصل الثامن عشر

مقاطعة زن يانغ، الصين

الساعة الثالثة عصراً

حدّقت زوفاستينا إلى خارج الطوّافة حالما خرجت من منطقة المجال الجوي للاتحاد لتدخل في المجال الجوي الصيني فوق أقصى حدود غربي الصين. وقد كانت تلك المنطقة في وقتٍ مضى تشكل باباً خلفياً محكم الإغلاق لدولة الاتحاد السوفييتي حيث كان يقوم على حراسة تلك الحدود أعداد كبيرة من الجنود. أما الآن، فقد باتت تلك الحدود مفتوحة دون أي قيد على حركة الانتقال والتجارة. لقد كانت الصين هي إحدى أولى الدول التي بادرت إلى الاعتراف الرسمي بدولة الاتحاد، وقد تمّ توقيع معاهدات بين الدولتين تكفل حرية الانتقال وانسياب البضائع عبر الحدود.

ومقاطعة زن يانغ تشكل ست عشرة في المئة من مجموع مساحة الصين. وهي في معظمها تتألف من جبالٍ وصحراء، لكنّها تختزن الكثير من الثروات الطبيعية. فهي مختلفةٌ تماماً عن بقية أنحاء البلاد، فهنا يوجد القليل من الشيوعية والكثير من الإسلام. وقد كانت تُدعى مرةً بتركستان الشرقية. ويمكن إرجاع شخصيتها إلى آسيا الوسطى أكثر ممّا يُمكن إرجاعها إلى المملكة الوسطى.

وقد كانت عُصبة البندقية شديدة الإسهام في تكوين علاقاتٍ وديةٍ مع الصين، وكان هذا سبباً إضافياً للخيار الذي اتخذته في الانضمام إلى هذه العُصبة. والتوسع الاقتصادي الغربي الكبير كان قد ابتدأ منذ خمس سنوات عندما شرّعت بكين بضخّ البلايين في أعمال البنى التحتية وإعادة التطوير عبر

كل أنحاء مقاطعة زِنْ يانغ. وقد حَظِيَ أعضاء العُصبة بالكثير من العقود في حقل البتروكيماويات، والتعدين، والأشغال الميكانيكية، وفي تحسين الطرقات وشقّها. وكان للعُصبة أصدقاء كثر في العاصمة الصينية، إذ أنه تبين أن للأموال كلمة مسموعة في العالم الشيوعي كما هو الحال معها في أي مكان آخر من العالم. ولقد استفادت هي من هذه العلاقات لتوظفها في الخدمة القصوى لمصالحها السياسية.

وكان طيرانهم من سمرقند قد استغرق ما يزيد عن ساعة من الزمن بقليل في الطوافِ العالية السُرعة. ولقد كانت قد قامت بمثل هذه الرحلة عدة مرات من قبل. كانت دائماً تحب أن تُحدّق من طائرتها إلى الأسفل لتلاحظ سطح الإقليم الوعر، فيما هي تتصور في خيالها القوافل القديمة التي كانت في ما مضى تشق طريقها شرقاً وغرباً على امتداد ذلك الطريق التجاري الذي كان يُطلق عليه يوماً اسم طريق الحرير، حيث كانت تجارة الشب، والمرجان، والحرائر، والزجاج، والذهب، والحديد، والثوم، والشاي - وحتى الأقزام، والصبيا، والجياد الشديدة المراس والشراسة بحيث أنه يُقال أنها كانت تتعرق دماً - هي كلها تجارة مزدهرة. والإسكندر الكبير لم يتوغل مرة في حملاته إلى مثل هذا العمق من الشرق، لكنّ ماركو بولو قد وُطِئ أرض ذلك الإقليم بكل تأكيد.

والى أمامها الآن، استطاعت أن ترى مدينة كَشَغَار. كانت المدينة تتربع عند تخوم صحراء تكليمان، وهي تقع على مسافة مئة وعشرين كيلومتراً إلى الشرق من حدود دولة الاتحاد. وهي تربض بين الظلال التي تطرحها جبال باميرز المكسوة بالثلج، وهي إحدى أعلى سلاسل الجبال وأكثرها جردية ووعورة في العالم. إنها واحة مرصعة، فهي أعظم عواصم منطقة غربي الصين. تأسست، مثل سمرقند، منذ أكثر من ألفي سنة. وقد كانت مرة مدينة تغص بالأسواق الغنية المفتوحة والبازارات المزدهمة، أما الآن فقد باتت عرضة للغبار كما للصرخات العالية الطبقة لنداءات المؤذنين الداعية إلى إقامة الصلاة، التي تنطلق من مآذن أربعة آلاف مسجد فيها. وفي فنادق تلك المدينة، ومستودعاتها، ومراكزها التجارية، ومعابدها، يعيش ما يزيد عن ثلاث مئة وخمسين ألف نسمة. ولقد ذهب الزمن بسور المدينة منذ عهد بعيد. وامتدّ طريق واسع سريع - وهو جزء آخر من خطة

التوسع الاقتصادي الكبير - ليزنر المدينة ويوجّه سيارات التاكسي الخضراء في كافة الاتجاهات.

وتحوّل مسار الطوافة شمالاً حيث بدأ حجم الأشكال على سطح الأرض يزداد ضخامة، ولم تعد الصحراء لثرى عند أقصى الشرق. وعبرة تكليمكان تعني بالحرف الواحد: "إذا دخلت فلن تخرج." وهو وصف ملائم لمكان تكون فيه الرياح أحياناً شديدة الحرارة بحيث أنها كافية - وقد فعلت ذلك - لقتل قوافل بكاملها خلال دقائق قليلة. وها قد لاح لها الآن المكان الذي تقصده.

لقد كان عبارة عن مبنى من الزجاج الأسود واقع وسط مرج مرصع بالصخور، وهو يقع عند تخوم الغابة التي تقع خلفه، ولا تبعد عنه سوى مسافة خمس مئة متر فقط. ولم يكن ثمة ما يميّز تلك البناء المؤلف من طبقتين، والذي تعرف أنه مملوك من شركة "فيلوجين فارماسيتيك"، وهي شركة تحمل جنسية من اللوكسمبورغ. ويقع مقرها الرئيسي في إيطاليا، أمّا أكبر المساهمين فيها، فهو مواطن أمريكي سابق يحمل اسماً إيطالياً صريحاً وهو أنريكو فينسينتي. وكانت في وقت سابق قد عقدت النية على التحري عن التاريخ الشخصي لذلك الرجل.

لقد كان أحد علماء الفيروسات، وقد استخدمه العراقيون في السبعينيات كجزء من مشروعهم البيولوجي لتصنيع الأسلحة الجرثومية، ذلك المشروع الذي أراد صدام حسين متابعته. وقد كان حسين لا يرى في معاهدة حظر انتشار الأسلحة الجرثومية المعقودة في العام 1972 - وهي معاهدة تمنع نصوصها الحرب الجرثومية في العالم أجمع - سوى فرصة إيجابية له. وقد عمل فينسينتي مع العراقيين إلى ما قبل اندلاع حرب الخليج الأولى بقليل، عندما قرّر حسين على وجه السرعة: إيقاف العمل في تلك الأبحاث. وقد جلب السلام مفتشي الأمم المتحدة، الأمر الذي فرض ما يشبه التخلي الدائم عن المشروع. وهكذا انتقل فينسينتي مبتدئاً العمل على تأسيس شركة دوائية ما لبثت أن تطورت أعمالها في سرعة قياسية خلال التسعينيات. وهي تعتبر الآن من أكبر الشركات من نوعها في أوروبا، وهي تمتلك مجموعة لافتة من براءات الاختراع، وكتلة ضخمة من المصالح والأسهم والشركات المتعددة الجنسية، وهو نجاح لافت يحققه عالم مرتزق غير مدعوم من جهة ما.

وهذا اللغز كان قد حيرها لمدة طويلة.

هبطت الحوامة فأسرعت هي إلى داخل المبنى.

كانت الجدران الزجاجية الخارجية ليست أكثر من مظهر خادع. فمثلاً تحتوي قوائم شاشة الكومبيوتر بعضها بعضاً، كان ثمة بناء آخر كامل يرتفع داخل الهيكل الزجاجي الخارجي. وكان ثمة ممرٌ أنيق رخاميٌّ صقيل يزور المبنى الداخلي وقد زُرعت على جانبيه نباتات داخلية عليقية. معربشة. أما الجدران الحجرية للمبنى الداخلي، فقد كانت تخرقه ثلاث بوابات لها أبواب مزدوجة. ولقد علمت أن ذلك الترتيب الفريد لذلك المبنى إنما هو طريقة لضمان أمنه بصورة هادئة. إذ لم يكن ثمة سياجات خارجية له تعلوها الأسلاك الشائكة ولم يكن ثمة حراس يحرسون المبنى في الخارج. كما كان خلواً من كاميرات المراقبة. وباختصار، لم يكن ثمة ما يثير انتباه أحدٍ بأن ذلك المبنى إنما يضمُّ أيَّ شيء ذا طبيعة خاصة.

عبرت الممرَّ الدائريَّ الخارجي واقتربت من أحد المداخل. وكان طريقها موصداً ببوابة معدنية. وقد وقف حارسٌ أمنيٌّ وراء نضدٍ من رخام. وكانت البوابة محكومة بماسح إلكتروني للأكف، لكنها لم يكن من المفترض بها أن تتوقف.

وعلى الجانب المقابل وقف رجل شيطاني في أواخر العقد الخامس من عمره، له شعر متضائل رماديٌّ، ووجه له ملامح فار. وكان يحيط عينيه بنظارتين محدبتين بإطارين سلكيين. أما نظراتهما فقد كانت خالية من كل تعبير. ولقد كان يرتدي معطف مختبر أسود تخالطه ألوان ذهبية، وكان المعطف غير مزوَّرٍ من مقدّمته. وعليه بطاقة أمنية كتب عليها: "غرانت ليندسي"

"أهلاً بك يا دولة رئيس الوزراء"، قال لها بالانكليزية.

أجابته على تحيته بنظرة كان المقصود بها أن تعلن له انزعاجها. فرسالته بالبريد الإلكتروني كانت تشير إلى الاستعجال. وهي مع شدة كرهها للاستدعاءات، قامت بإلغاء نشاطاتها المجدولة لفترة ما بعد الظهر وقيمت.

دخلا إلى المبنى الداخلي.

تشعّب الطريق بعد المدخل الرئيسي. استدار ليندسي يساراً ليقودها في متاهة من الممرات الخالية من النوافذ. وكان كل شيء نظيفاً بما يشبه نظافة المستشفيات.

وتفوح منه رائحة الكلورين. وكانت جميع الأبواب مجهزة بأقفال إلكترونية. وعند الباب الذي يحمل رقعة كتب عليها: "رئيس العلماء" قام ليندسي بفك البطاقة الأمنية عن عروته وأدخلها في الممر المخصص لها.

وكان الطراز الحديث يحكم المكتب الخالي من النوافذ. وكان ذلك يصدمها بشكل غريب في كل مرة تكرر فيها زيارة هذا المكان. فهي لم تلاحظ مرة وجود صور لأفراد عائلة، ولا صوراً لشهادات أكاديمية معلقة على الجدران. كما أنها لم تلاحظ وجود أي تذكارات كما لو أن هذا الإنسان ليس له حياة تختص به. وهو أمر قد لا يكون شديد البعد عن الحقيقة.

"أحتاج إلى أن أريك شيئاً". قال لها ليندسي.

كان يخاطبها مخاطبة الند للند. وهو أمر كانت تأنف منه. وكانت نبرة صوته أبداً واضحة وتشير إليها أنه يعيش في الصين وأنه ليس تابعاً لها.

داعبت أنامله بعض أزرار جهاز التحكم عن بُعد فبدأت كاميرا مثبتة في السقف بعرض صور لامرأة في منتصف عمرها تجثم على كرسي وتراقب التلفاز. وقد علمت أن غرفة المرأة تلك تقع في الطابق العلوي من المبنى، غرفة تقع في جناح للمرضى، وكان تفاعل المرأة يشي بأنها تبدو قد شاهدت تلك الصور التلفزيونية من قبل.

"في الأسبوع الفائت"، قال ليندسي. "كنت قد طلبت إحضار دزينة من نزلاء السجن. مثلما كنا قد فعلنا في السابق."

ولم تكن تدري أن تجربة إكلينيكية جديدة كانت قد جرت. "ولم لم تقم بإعلامي بذلك؟"

"لم أكن أعلم أن علي أن أقوم بإعلامك بذلك."

سمعت في إجابته ما لم يعلنه لها صراحة. "إن فينسينتي هو سيد هذا المكان. فالمختبر مختبره، وهؤلاء هم موظفوه، والمشروع مشروعه." وكانت قد كذبت على أنقر سابقاً، إذ لم تكن هي التي عملت على شفائه. بل أن فينسينتي هو الذي كان قد فعل ذلك. إذ أن تقنياً من منسوبي مختبره هو الذي أشرف على إعطاء العقار المضاد مع أنها كانت هي التي تحرز العنصر المسبب للمرض. لقد كان

فينسينتي يتحكم بالعلاجات الشافية. كلعبة توازن قوى وُلدت من رحم انعدام الثقة التي كانت قد أخذت مكانها منذ بداية علاقتهما في سعي منه للتأكد من أن قواهما التفاوضية ستبقى دوماً متوازنة.

سَدَّد ليندسي عين جهاز التحكم عن بُعد فتغيّرت صورة الشاشة بعد أن تحوّلت الكاميرا إلى غرف مرضى آخرين. وهي غرفُ ثمانٍ، يشغل كل منها رجلٌ وامرأة. وبخلاف الغرفة الأولى، فقد كان أولئك المرضى يضطجعون جميعاً في أوضاع كسولة - وكلٌ منهم موصولٌ إلى جهازٍ لتقطير المصل في الوريد. ولم يكن أيٌّ منهم يتحرّك.

أزال النظارتين عن عينيه. "لقد استعملتُ إثني عشر فقط بسبب أن هؤلاء كانوا هم الوحيدين الذين يمكن جلبُهم بسرعة. لقد احتجت إلى إجراء دراسة سريعة على العقار المضادّ للفيروس الجديد. وهو مثلما كنتُ قد أخبرتك عنه في الشهر الماضي، مخلوقٌ خبيث متناهي الصغر."

"وأيّن تمكنتَ من العثور عليه؟"

"عثرتُ عليه في نوعٍ من القوارض التي تعيش إلى الشرق من هذا المكان في مقاطعة هيلونجيانغ. لقد كنا قد سمعنا روايات عن وقوع الناس مرضى عقب اغتذائهم على تلك الأشياء. فالأمر المؤكد أنّ ثمة فيروساً بالغ التعقيد يعيش هنا سائحاً في دماء الجرذان. وبقليلٍ من التحفيز فإن هذا الفيروس الدنيء يفعل فعله. فهو يؤدي إلى الموت في أقلّ من يومٍ واحد." أشار إلى الشاشة وهو يقول: "وها هوذا البرهان على ذلك."

لقد كانت في الحقيقة قد سألته العثور على عاملٍ أشدّ فتكاً. شيء يكون أكثر شراسة من الأصناف الثمانية والعشرين التي تحرزها الآن.

"إن هؤلاء جميعاً يحيون فقط بسبب ما توفره لهم من نظام دعم الحياة. إنهم جميعاً قد ماتوا موتاً إكلينيكيّاً منذ عدة أيام. لكنني محتاجٌ إلى إجراء تشريح لهم من أجل التأكد من مدى نطاق قوة العدوى. وأردت أن أجعلك تشاهدينهم قبل أن أباشر في تشريحهم."

"وماذا عن العقار المضاد؟"

"جرعة واحدة ويأخذ هؤلاء الإثنا عشر جميعهم طريقهم نحو استعادة العافية من جديد. في الواقع أن العقار المضاد يحدث انقلاباً سريعاً في غضون ساعات. وقد أعطيتهم جميعاً عقاراً زائفاً لا ينفع ولا يضر باستثناء المرأة الأولى التي هي عنصر المعاييرة. وكما هو متوقع، فقد نوى الجميع بسرعة وماتوا." أعاد الصورة على الشاشة من جديد إلى المرأة الأولى. لكنها الآن خلّو من الفيروس. وهي في صحة تامة."

"وما هو وجه الحاجة لهذه التجربة؟"

"لقد أردت فيروساً جديداً. ولقد أردتُ أن أرى ما إذا كانت التعديلات عليه قد نجحت." رماها ليندسي بابتسامة. "ومثلما قلتُ لك من قبل، فإنني أردتُ اختبار مفعول العقار المضاد."

"ومتى يمكنني الحصول على هذا الفيروس الجديد؟"

"تستطيعين أن تأخذيهِ اليوم معكِ. ومن أجل هذا كنتُ قد طلبتُ منك الحضور."

لم تكن تحبُّ الاشتغال في نقل الفيروسات، لكنها الوحيدة التي كانت تعلم عن موقع هذا المختبر. وكانت قد أجرت صفقتها مع فينسينتي. لقد كانت صفقة شخصية اقتضرت على شخصيتيها فقط. إذ لا مجال لديها للثقة بأحد حول ثمار هذه الصفقة. كما أن طائرتها سوف لا يمكن اعتراضها من الصينيين.

"إذا قم بتجهيز الفيروس،" قالت له.

"كل الكمية مثلجة وموضّبة."

أشارت إلى الشاشة. "وماذا عن هذه؟"

هزّ كتفيه. "سوف نعيد تعريضها للعدوى من جديد. وستكون ميتة بحلول يوم غدٍ."

كانت لا تزال عند حافة أعصابها. فقيامها بدوس جثة الرجل الذي كان يفترض به أن يقوم باغتيالها تحت سنانك الخيل كان قد صرّف بعض غليلها، لكن ثمة أسئلة بقيت تدور في ذهنها حول محاولة الاغتيال. وكيف استطاع فينسينتي أن يعلم بها؟

إذ لعلَّ السبب يعود إلى أنه هو الذي قام بتدبيرها؟ إن الجزم في هذه المسألة صعب. لكنها كانت على وشك الوقوع في المصيدة دون حراسة كافية. وكان فينسينتي متقدماً عليها بخطوة كاملة. وهذا أمرٌ لم يُرق لها.

كما أنها لم تستسغ ليندسي.

أشارت إلى الشاشة. "جهزها هي أيضاً للمغادرة في الحال."

"وهل هذا طلب حكيم؟"

"إنه شأن من شؤوني."

ضحك. "تريدون أن تستمتعي بتعذيبها وقتلها؟"

"أترغب في الذهاب معنا لترى؟"

"كلا شكراً. كنت أحبُّ أن أشاهد ذلك هنا على الجانب الصيني من الحدود."

نهضت. "ولو كنت مكانك لبقيت هنا."

الفصل التاسع عشر

الدانمارك.

أبقى مالون على بندقيته جاهزة للاستعمال بينما كان ثورفالدسن ينهي عمله مع فيكتور.

"يمكننا إتمام عملية التبادل هنا من جديد،" قال ثورفالدسن. "غداً."

"ولا تبدو لي مثل رجل شديد الاهتمام بالمال،" قال فيكتور.

"في الحقيقة إنني أرغب في الحصول على ما أستطيع الحصول عليه منه."

كتم مالون ابتسامته. إذ كان صديقه الدانماركي في الحقيقة قد وهب الملايين من أوراق اليورو لشتى القضايا حول أنحاء العالم. وكان يعجب من نفسه متسائلاً ما إذا كان هو ذاته واحداً من تلك القضايا. حيث أن ثورفالدسن قد تعمّد منذ سنتين أن يسافر إلى أتلانتا ويقدم له فرصة لكي يقوم بتغيير مجرى حياته، في كوبنهاغن. وهي فرصة قد تلقفها ولم يشعر يوماً بالندم.

"ياخذني العجب،" قال فيكتور. "حول النوعية الجيدة لتقنية التزييف التي

نفذت. ترى من هو ذلك الحرفي؟"

"إنه شخص موهوب يملؤه الاعتزاز بصنعتة."

"أوصل له إعجابي."

"إن بعضاً من نقودك سوف يذهب إلى جيبي." توقف ثورفالدسن. "أما الآن،

فإن لديّ سؤالاً. هل ستتابع سعيك وراء الميداليات الثلاث الأخيرة، هنا في أوروبا؟"

"وما الذي تعتقده أنت؟"

"وماذا عن الثالثة، هل هي في سمرقند؟"

لم يجب فيكتور بأي جواب. لكن رسالة ثورفالدسن كانت قد وصلت وهي تقول: ألسنتُ عارفاً بكل خفايا عملك؟

تحرك فيكتور نحو الباب. "سوف أعود غداً."

بقي ثورفالدسن جالساً في مكانه بينما الرجل يغادر الغرفة. "إنني أتطلع إلى اتصالك." فُتح الباب الخارجي ثم جرى إغلاقه.

"يا كوتون،" قال ثورفالدسن مستخرجاً كيساً ورقياً من جيبه. "لدينا وقت قليل جداً. أنزل العلبة التي تحتوي على الميدالية في داخل هذا الكيس بمنتهى العناية."

فهم قصده. "البصمات؟ أمِن أجل هذا كنت قد أعطيته الميدالية؟"

"لقد رأيت كيف أنه لم يلامس شيئاً. لكن كان لا بدَّ له من الإمساك بالميدالية من أجل أن يتمكن من استبدالها بسواها."

قام مالون باستعمال ماسورة المسدس من أجل دفع الميدالية إلى داخل الكيس الورقي، وكان حريصاً على استقرارها في وضع مسطح. أغلق أعلى الكيس تاركاً مجرى للهواء. كان يعرف سرَّ ذلك. فخلافاً لما يجري عرضه في الأفلام التلفزيونية، فإن الورق، وليس البلاستيك، هو المادة الأفضل لعدم تشوُّه الدليل المستخرج من البصمات. لأن الورق يوفر فرصة أقل لتلطيخها.

وقف ثورفالدسن. "تعال الآن." لاحظ كيف أن صديقه يمشي مشية الأحبب خلال الغرفة، بينما رأسه بارز إلى الأمام. "علينا بأن نسرع."

لقد لاحظ أن ثورفالدسن كان يتحرك في اتجاه قاع البيت. "إلى أين أنت ذاهب؟"

"إننا في طريقنا إلى الخروج من هنا."

أسرع في إثر صديقه حيث غادرا من باب المطبخ الذي يُفضي إلى منصّة لها درابزين وهي تقع في مواجهة البحر. وعلى مبعدة خمسين ياردة كان ثمة رصيف يبرز عن خط الشاطئ الصخري حيث كان يرسو قاربٌ ذو محرك ناري في الانتظار. وكانت سماء الصباح قد اعتكرت وباتت الآن سحبٌ رمادية تزحف عند

مستوى منخفض. وكانت ريحٌ شمالية نشطة تشتت صوت تكسُّر أمواج المياه البنية المزبدة التي تدور على نفسها.
 "هل سنغادر هذا المكان؟" سأل ثورفالدسن الذي كان يسرع خطواته على المصطبة.

لكن الرجل الدانماركي تابع سيره في سرعة مدهشة لا يقوم بمثلها عادة شخص نو فقارٍ ملتوٍ.
 "أين هي كاسيوبيا؟" سأل مالون.
 "إنها في خطر." قال ثورفالدسن. "لكن هذا هو كل ما نستطيع عمله في هذا الموقف."



راقبت كاسيوبيا كيف أن الرجل الخارج من البيت ركب السيارة المستأجرة وأسرع بها على طول الطريق المحفوف من جانبيه بالأشجار والذي يتصل بالخط السريع. قامت بتشغيل شاشة الـ: أل. سي. دي. اليدوية المرتبطة راديوياً بكاميرتي فيديو كانت قد قامت بنصيبهما في الأسبوع الفائت. كانت واحدة منهما مركزة عند المدخل المتفرع من الخط السريع، أما الثانية فكانت تعتلي شجرة عالية تقع على بعد خمسين متراً من المنزل.

بدا على الشاشة الصغيرة أن السيارة قد توقفت.

نفّر الرجل الذي مزّق العجلات من مخبئه في الدغل. فتح السائق بابه وترجل من السيارة.

سارع الرجلان معاً إلى الرجوع بضع خطوات إلى الوراء في اتجاه البيت. فأيقنت على وجه التأكيد، ما هو الأمر الذي كانا ينتظران حدوثه.
 وهكذا فإنها أطفأت شاشة العرض وخرجت من مكنها بسرعة.



انتظر فيكتور كي يرى أنه كان مصيباً في ما قام به من عمل. لذلك فإنه ركن السيارة عند ثنية من ثنايا الطريق وأخذ يراقب المنزل من وراء جذع شجرة. "لن يستطيعوا الذهاب إلى أي مكان." قال رافائيل. "إن لديهم عجلتين مثقوبتين."

وكان فيكتور يعرف أن المرأة لا بد لها من أن تكون تراقبهما. "لم أسمح لنفسني بأن أنكشف أبداً." قال رافائيل. لقد تصرف طيلة الوقت وكأن أحدهم يراقبني، لكنني لم أشعر بوجود أية مراقبة. "وكان هذا هو ما قد أوصاه به فيكتور.

أخرج من جيبه الميدالية التي تمكن من سرقتها. "لقد كانت تعليمات رئيس الوزراء زوفاستينا واضحة: استولوا على الميداليات وأحضروها في حالة سليمة دون أي تشويه يلحق بها. وقد انتهيا الآن من الحصول على السادسة، ولم يتبق سوى ميداليتين.

"كيف كان سلوكهما معك؟" سأل رافائيل.

"كان سلوكاً محيراً."

وكان يعني ما يقول. وقد حاول الآن أن يتصور ما يمكن لهما أن يقوموا به من حركات. لكن الأمر لم يزدده سوى حيرة.

فالمرأة النحيلة ذاتها صاحبة الوثبات التي تشبه وثبات لبوة قد خرجت الآن من مكنها بين الأشجار. ولا بد لها من أن تكون قد شاهدت ما حل بعجلات السيارة، وها هي الآن تسرع لإعلام شريكها بما شاهدته. سر الآن لمعرفة أنه كان مصيباً في تصويره. لكن ما الذي دعاها إلى عدم التدخل لوقف ثقب العجلات؟ هل يكون الدور المسند إليها يقتصر فقط على الاكتفاء بالمراقبة؟

لاحظ أنها تحمل شيئاً ما، شيئاً صغيراً مستطيل الشكل. ولكم تمنى في تلك اللحظة لو أنه كان قد أحضر معه منظراً.

مد رافائيل يده إلى جيب سترته وأخرج منه جهاز التحكم بواسطة الراديو. لكن فيكتور ألقى يده بلطف على ذراع رافائيل، "انتظر ليس بعد."

توقفت المرأة وقامت بتفحص العجلات، ثم أسرع في اتجاه عتبة البيت.
"أعطيها مزيداً من الوقت."

فمنذ ثلاث ساعات، وعقب الإتفاق على ترتيب اللقاء، كانا قد قادا سيارتهما مباشرة إلى هذا المكان. وقد كشف لهما الاستطلاع الدقيق أن المنزل خالٍ تماماً، لهذا فقد قاما بزرع عبوات من النار الإغريقية تحت أساسات البيت وفي داخل العلية. وبدلاً من الاعتماد على واحدة من السلاحف لإشعال الخليط فإنهما ألصقا إلى أكياس المزيج عبوات ناسفة يمكن القيام بتفجيرها عن بُعد بواسطة الراديو.
اختفت المرأة في باطن البيت.

بدأ فيكتور يعدُّ إلى العشرة في سره. وبدأ يستعد لرفع يده عن ذراع رافائيل.

وقف مالون في وسط القارب، ووقف ثورفالدسن إلى جانبه.

"ماذا تعني بقولك إن كاسيوبيا في خطر؟"

"إن البيت مشحون بالنار الإغريقية. لقد قديما قبل مجيئنا وقاما بتحضير الأمر. والآن، وبعد أن صارت الميدالية في حيازته، فإن فيكتور لا ينوي أن يدعنا على قيد الحياة بعد انقضاء اجتماعه بنا."

"وهما الآن ينتظران للتأكد من أن كاسيوبيا قد انضمت إلينا في داخل البيت؟"

"هذا هو ما أقدره. لكننا سنرى بعد قليل ما إذا كان ذلك هو ما يدور في حساباتهم أيضاً."

سمحت كاسيوبيا للباب الأمامي أن ينغلق. ثم عبرت خلال البيت مندفعة بسرعة. كانت هذه ضربة حظ. فكل ما كانت تأمله هو أن يمنحها اللصان بضع ثوان فقط

حتى تستطيع الخروج قبل أن يعمدا إلى تفجير العبوة. كانت أعصابها تتنمل، وكان ذهنها يجري في سرعة فظيعة. وقد حلّ مكان غمّها فورة هائلة من الأدرينالين. وفي المتحف، كان مالون قد أحسّ بقلقها الذي يشي بمعرفتها أن شيئاً ما، على وشك الحدوث.

وكان خوفها في محله.

أما في هذه اللحظة، فليس في وسعها القلق بشأن أي شيء. ولطالما كانت قد بذلت ما يكفي من المشاعر على الأشياء التي لا قبل لها بتغييرها. أما الآن، فإن العثور على الباب الخلفي كان كل ما يهمها.

وها هي الآن قد خرجت إلى ضوء النهار البليد في ذلك اليوم.

وكان مالون وثورفالدسن ينتظرانها على ظهر القارب.

أما المنزل فقد بات يحجب عملية فرارهم التي لا يمكن مشاهدتها من على الطريق الممتدة عند مدخله. وكانت لا تزال تحتفظ بشاشة: أل. سي. دي.

وها هي الآن، لا يزال يفصلها ستون متراً عن حافة الماء.

فما كان منها سوى أن قفزت من فوق المصطبة الخشبية.



كان مالون قد لاحظ فرار كاسيوبيا إلى خارج المنزل واندفاعها في خطّ مباشر نحوهما.

لقد صارت على بعد خمسين متراً.

بل ثلاثين.

حصل انفجار نافث خفيف وإذا بالبيت يشتعل فجأة. فمئذ ثانية واحدة كان لا يزال في مكانه سليماً، أما في اللحظة التالية لها فقد باتت ألسنة النيران تندلع من نوافذه. فهي تخرج من الأسفل وتمتد إلى الأعلى نحو سقفه مثلما يتلاعب الساحر بالأوراق في ألعاب الخفة، حسبما جال في ذهنه. لم يحصل انفجارات. بل احتراق

فوري. احتراق كليّ كامل، وبغياب الماء المالح لم يكن إطفأؤه أمراً ممكناً.

وجدت كاسيوبيا رصيف المرسى وقفزت إلى داخل القارب.

"لقد نجوت خلال ثوانٍ"، قال لها.

"أخفضا رأسيكما"، قالت لهما بإلحاح.

تألبوا في قعر القارب وراقبها وهي تعدّل جهاز استقبال لصور الفيديو. وظهرت على الشاشة صورة سيارة.

ركب فيها شخصان. وقد استطاع التعرف على فيكتور بينهما. انطلقت السيارة إلى البعيد. ثم ما لبثت أن اختفت عن الشاشة تلاعبت بالمفتاح فظهرت صورة أخرى للسيارة ذاتها وهي تستدير للانطلاق على الطريق السريع.

بدا ثورفالدسن مسروراً. "يبدو أن خدعتنا قد نجحت."

"ألا تعتقدان أنه كان عليكم إخباري بما يجري؟" سألهما مالون:

رمته كاسيوبيا بابتسامة مكررة. "وكيف كان لك أن تستمتع بهذه الدعابة؟"

"لكنه استولى على الميدالية."

"وهذا ما أردنا أن يفعله بالضبط"، قال ثورفالدسن.

بدأ البيت يستهلك نفسه، وارتفعت أعمدة الدخان نحو السماء. أشعلت كاسيوبيا المحرك الناري في المؤخرة وقامت بتوجيه القارب إلى عمق المياه. وكانت أملاك ثورفالدسن المحاذية لشاطئ البحر على مبعده ميل واحد أو سوى ذلك إلى جهة الشمال.

"لقد رتبّ الأمر لكي يحضر القارب بُعيد وصولنا بقليل." قال ثورفالدسن بينما قبض على ذراع مالون واقتاده نحو مقدمة القارب. وكان رُشاش الماء المالح يشكّل غلالة من الضباب أمام المقدمة. "إنني مقدّر لك وجودك هنا معنا. لقد كنا على وشك أن نستجدي منك المساعدة في هذا اليوم. بعد أن يكون المتحف قد لقي مصيره. ومن أجل هذا كانت كاسيوبيا قد طلبت منك أن تلتقي بها. فهي محتاجة إلى مساعدتك، لكنني في شك من أنها ستفعل ذلك الآن."

أراد أن يزيد في استيضاح الأمر، لكنه عرف الآن أن الوقت قد فات. ولم يعد ثمة شك في الجواب. "لقد حصلت الآن على المساعدة التي كانت تبتغيها." صمت قليلاً. "بل لقد حصلتما عليها أنتما الإثنين معاً."

شد ثورفالدسن على ذراعه علامة الشكر والعرفان. فيما أبقت كاسيوبيا انتباهها منصبةً إلى الأمام. مبحرة بالقارب بين الأمواج العالية.

"وكم هو خطبها كبير؟" سأل.

كان هدير المحرك وأنين الرياح قد طمسا سؤاله بحيث لم يتمكن من سماعه سوى ثورفالدسن.

"خطب مؤلم بما فيه الكفاية. لكننا الآن لم نعد نعدم الأمل."

الفصل العشرون

الساعة 3:30 عصراً

جلست زوفاستينا محزّمة بحزام الأمان في مقعدها في الحجرة الخلفية من الطوّافة. وهي في العادة تسافر بأسلوب أكثر رفاهية. أمّا اليوم فقد كان الإسراع هو أكثر ما يهمها، لذلك قامت باستعمال طوافة عسكرية. وكان واحدٌ من عصبتها المقدّسة هو ملاح الرحلة. إذ أن نصف عناصر حمايتها الشخصية، بمن فيهم فيكتور، كانوا طيارين مجازين. جلست قبالة المرأة الأسيرة القادمة من المختبر، وكان حارسٌ آخر من حراسها يجلس إلى جانب الأخيرة التي جُلِبَت إلى الطوافة مقيدة اليدين. ولكن زوفاستينا أمرت بفك القيود من يديها.

"ما اسمك؟" سألت المرأة.

"وهل اسمي يهمك فعلاً؟"

كانتا تتكلمان من خلال سماعات الرأس باللغة القوزاقية التي تعرف زوفاستينا أن لا أحد يعرفها من الأجانب.

"كيف تشعرين؟"

ترددت المرأة قبل أن تجيب، كما لو أنها تستشير نفسها ما إذا كان عليها أن تكذب. "إنني أشعر بأنني أفضل مما وجدتُ عليه نفسي منذ سنوات."

"إنني سعيدة بذلك، فهدفنا هو تحسين حياة كافة المواطنين. وربما بعد أن تكوني قد خرجت من السجن، فلسوف تشعرين بتقدير أكبر لمجتمعنا الجديد."

نظرة احتقار ارتسمت على وجه المرأة الأنقر. لم يكن في ملامح المرأة أيُّ

جاذبية تغري وقد تساءلت زوفاستينا كم تراها تحتاج هذه المرأة إلى هزائم إلى أن يتم تجريدها من كل احترام للنفس.

"لا أعتقد أنني ساكون جزءاً من مجتمعكم الجديد يا معالي رئيس الوزراء. فإن محكوميتي طويلة جداً."

"لقد قيل لي أنك كنت متورطة في تهريب الكوكايين. ولو كان السوفييت لا يزالون هنا فإنه كان من الممكن لك أن تواجهي عقوبة الإعدام."

"تعنين الروس؟" ضحكت. "لقد كانوا هم الذين اشتروا مني المخدرات."

ولم تدهشها الإجابة. "يا لتبدل أساليب مجتمعنا الجديد."

"ما الذي حدث للآخرين الذين كانوا قد أتوا معي؟"

قررت أن تكون صريحة معها. "لقد ماتوا."

مع أن مما لا شك فيه أن تلك المرأة بدت معتادة على مواجهة المصاعب، فإنها لاحظت شعورها بالضيق. وهذا شيء يمكن تفهمه حقاً فهي تجلس على متن الطائرة في مقابل رئيس وزراء اتحاد آسيا الوسطى. بعد أن كان قد تم انتزاعها من سجنها وتعريضها لاختبار طبي مجهول كانت هي الناجية الوحيدة منه. "سأحرص على تقصير مدة عقوبتك. فمع أنك قد لا تحبذيننا، فإن الاتحاد يقدر لك مساعدتك."

"وهل من المطلوب مني أن أكون شاكراً لكم؟"

"لقد تطوعت."

"لست أتذكر أن أحداً قد ذكر أمامي مرة أن ثمة خياراً لي في الأمر."

نظرت إلى خارج شبك الطوافة حيث قمم جبال باميرز العالية التي تقف كسلسلة لخط الحدود مع جار صديق. والتقطت نظرة المرأة الساهمة. "ألا ترغبين في أن تكوني جزءاً مما هو على وشك الحدوث؟"

"بل أحب أن أكون حرة."

شيء خطر في ذهنها يعود إلى أيامها في الجامعة. وشيء كان قد قاله لها

سيرجي منذ زمن طويل: "بينما ينصبُّ الغضب على الأفراد، فإن الحق قد يفضلُ الاتجاه نحو الطبقات. وقد يكون مرور الزمن كفيلاً بإزالة الغضب، إلا أنه يبقى عاجزاً عن محو الحق." وهكذا، فإنها بادرت لسؤال المرأة. "ما الذي يدعوك إلى الحق؟"

تفرّست المرأة فيها بوجه غامض. "كنت أرجو أن أكون في عداد زملائي الذين ماتوا."

"لماذا؟"

"لأن سجونكم أماكن لثيمة، لا يخرج منها من الناس سوى القليل." "هكذا يجب أن تكون السجون وذلك من أجل ردع أيّ كان من السماح لنفسه بدخولها."

"لكنّ كثيرين ليس أمامهم خيار." صممت المرأة قليلاً. "خلافاً لما هو حالك يا دولة الرئيس."

نواتيء الجبال باتت الآن تبدو أشدّ ضخامة من نافذة الطوافة. "منذ قرون مضت، زحف الإغريق شرقاً فغيّروا وجه العالم. هل تعرفين ذلك؟ لقد قهروا آسيا. ثم قلبوا حضارتنا. والآن فإن الآسيويين على وشك الزحف غرباً لعمل الشيء نفسه. ألا ترغبين في الانضمام لجعل هذا الأمر ممكناً؟"

"ليست بي أية رغبة تحدوني إلى الاهتمام بمشاريعك."

"إن اسمي إيرينا - إيرين باللغة اليونانية - ومعناها السلام. وهذا هو هدفنا."

"وهل قتلُ الأسرى يجلب سلامكم هذا؟"

هذه المرأة لا تلقي بالاً لأقدار الناس. وحياة زوفاستينا بكاملها بدت لها بمثابة القدر المرسوم. فحتى الآن فإنها نجحت في تكوين نظام سياسي جديد تماماً مثلما كان الإسكندر قد فعل من قبل. درس آخر من دروس سيرجي ارتفع صوته الآن في الذاكرة: "تذكّري يا إيرينا ما قاله آريا للإسكندر. لقد كان على الدوام خصيم نفسه؛ وفي السنوات الأخيرة فقط أمكن لها فهم تلك العلة." حدّقت في المرأة التي جازفت بتدمير مستقبل حياتها الخاصة طمعاً ببضعة آلاف من الروبلات.

"هل سبق لك وأن سمعت عن ميناندر؟"

"لم لا تخبريني عنه؟"

"كان كاتب مسرحيات إغريقي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد. وكان يكتب المسرحيات الكوميدية."

"إنني أفضل التراجيديا."

صارت الآن متعبة من هذه الإنهزامية. ليس كل امرئ يمكن تغييره. فهذه المرأة لا تشبه الكولونيل أنقر الذي سبق له أن رأى الاحتمالات التي عرضتها أمامه فانقلب إلى تأييدها طوعاً وبات مهتدياً. ورجلٌ من أمثاله سيكون ذا نفع في المستقبل. أما هذه الروح التافهة فهي لا تمثل لها شيئاً سوى الفشل.

"لقد كتب ميناندر مرةً شيئاً أعتقد أنه شديد الصحة: إذا شئتُ أن تحيا حياتك بكاملها حراً من الألم، فعليك إما أن تكون إلهاً أو جثة."

تقدّمت وفكت حزام الأمان عن وسط المرأة، فتح الحارس الجالس إلى جانب المرأة باب الكابينة. بدت المرأة للحظة من الزمن مصعوقة لدخول الهواء القارس وهدير المحرك وقد اندفعا إلى الداخل.

"إنني إله"، قالت زوفاستينا. "أما أنتِ فجثة."

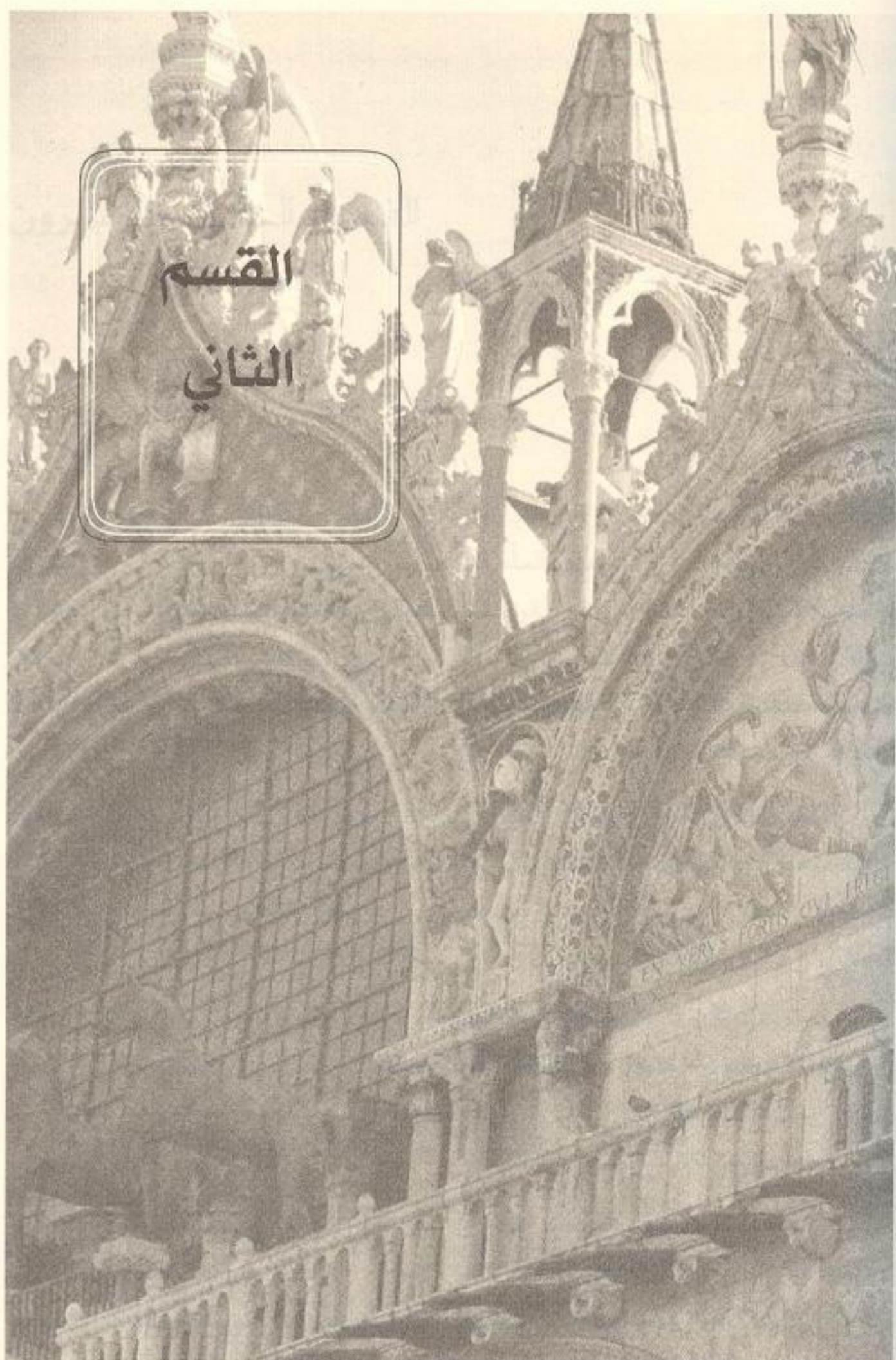
نزع الحارس السماعة عن رأس السجينة التي يبدو أنها أيقنت الآن ما هو المصير الذي ينتظرها فبدأت بالمقاومة.

لكن الحارس ما لبث أن قذفها إلى خارج الباب.

راقبت زوفاستينا الجسد الذي يتقلب في الهواء الصافي المتبلر ليختفي بعد ذلك بين زوائب الجبال في الأسفل.

أغلق الحارس الباب من جديد ووضع الاقفال. وتابعت الطوافة طيرانها غرباً في طريق عودتها إلى سمرقند.

للمرة الأولى منذ صباح ذلك اليوم، شعرت زوفاستينا بشيء من الاكتفاء فكل شيء الآن قد بدا في مكانه.



الفصل الحادي والعشرون

أمستردام، هولندا

7:30 مساءً

ترجّلت ستيفاني من العربة في عجلٍ، وردّت قلنسوة معطفها إلى ما فوق رأسها. كانت مطرة ربيعية غزيرة جعلت الماء المنسكب يسبح بين ثنايا الرصيف المرصوف بالحجر لتجري في سيلٍ يندفع بقوة نحو مجاري المدينة. أما السبب، فهو عاصفة سيئة كانت قد ضربت منطقة بحر الشمال. وها هي ذي الآن تتقدم في خفاء خلف السحب الداكنة. لكن حبال المطر التي لا تنقطع كانت مع ذلك جليّة للنظر تحت الأشعة الخجولة لمصابيح الشارع.

شقت طريقها بين حبال المطر حاشية يديها العاريتين في جيبي معطفها. عبّرت جسر مشاة مقنطر. دخلت إلى حي الـ: رمبرندتبليين، فلاحظت أن طقس تلك الأمسية الماطرة لم تثنِ الحشد عن حضور عروض التلصّص، ونوادي اصطياد الجنس، ونوادي المثليين، وحفلات التعرّي والإغراء.

قدماً في أعماق تلك المنطقة الحمراء، مرت أمام بيوت الدعارة، التي كانت واجهاتها الزجاجية تكشف عن العديد من البغايا اللواتي يعدن بالمتعة وكلّ توابعها. وخلف إحدى تلك الواجهات كانت امرأة آسيوية ترتدي ثوب بغي ضيق قد جلست على مقعدٍ منجّد تقلّب صفحات مجلة.

وكانت ستيفاني قد أحيطت علماً أن تلك الليلة لم تكن في عداد إحدى الأوقات خطيرة للقيام بزيارة تلك المنطقة الشهيرة بسوء السمعة. فهذه لم تكن مثل فترة الصباح حيث تكون الاستماتة في التهافت على المخدرات على أشدها، كما تختلف

عن الفترة المبكرة من بعد الظهر حيث يكون القوادون في انتظار ترتيب شؤون المساء. فهاتان الفترتان كانتا الأشد تعريضاً للنفس إلى الخطر. إلا أنها كانت قد أُنذرت أيضاً أن الطرف الشمالي الواقع خلف نيوماركت كانت تحبل على الدوام بشعور كامنٍ بالخطر. لهذا فإنها كانت على أتم الحذر عندما قامت بعبور الخط الخفي ودخلت. وكانت عيناها تتربعان كل ما هو أمامها وخلفها وكأنها قطة تتصيد. وكان سيرها يتجه في خط مباشر نحو المقهى الواقع في أقصى الشارع.

كان مقهى جان هوفال يحتل الطابق الأرضي من مبنى تجاري ذي ثلاث طبقات. وهو مقهى مطلي باللون البني، ويعتبر واحداً من المئات من أمثاله من المقاهي الموزعة في منطقة رمبرندتبليين. دفعت الباب الأمامي الذي انفتح أمامها ليجعلها تحسُّ على الفور بوجود روائح اشتعال حشيشة الكيف، وغياب أي يافطة تحذر من التدخين وتعاطي المخدرات.

كان المقهى محتشداً، وكان هوائه الخانق مشبعاً بضباب أدخنة الهلوسة التي ترتفع حبالاً إلى الأعلى. وكانت روائح السمك المقلي والكستناء المحمص تمتزج مع الدخان السام بحيث شعرت بحرق في عينيها. أماطت القلنسوة عن رأسها ونفضت عن معطفها نقاط المطر فوق بلاط الأرضية الذي كان مبتلاً من الأساس.

ثم وقع نظرها على كلوس داير. رجل في منتصف العقد الثالث من عمره، أشقر الشعر، شاحب الوجه مجوئ. كان شكله يطابق الوصف الذي تلقتته عنه تمام المطابقة.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تقوم فيها بتذكير نفسها عن سبب وجودها هنا في هذا المكان. فهي هنا لكي تقوم برء جميل ما. لقد كانت كاسيوبيا فيت قد طلبت منها الاتصال بهذا الرجل. وحيث أنها كانت مدينة لصديقتها هذه بخدمة واحدة على أقل تقدير، فلقد كان من الصعب عليها أن ترفض لها هذا الطلب. وقبل قيامها بهذا الاتصال كانت قد قامت ببعض التحريات وعلمت أن الرجل هولندي المولد، ألماني الثقافة، ويشغل كيميائياً لمصلحة أحد أصحاب الصناعات البلاستيكية المحلية. أما هوايته الطاغية فقد كانت جمع قطع العملة المعدنية - إذ يفترض به أن يكون قد جمع مجموعة جديدة بالاهتمام - إلا أن قطعة واحدة من بين تلك المجموعة كانت هي التي أثارت اهتمام صديقتها المسلمة.

وقف الرجل الدانماركي بمفرده إلى جانب طاولة تعلو حتى الصدر يحتسي كوباً من الجعة البنية اللون، ويتناول السمك المقلي. وكان ثمة دخينة ملفوفة لفاً يدوياً تحترق فوق منفضة للسجائر. وكان ثمة عمود ضباب أخضر ثخين يتلوى فوقها صعوداً، ولم يكن الدخان دخان تبغ.

"إنني ستيفاني نيل"، قالت له بلغة انكليزية. "إنني المرأة التي اتصلت بك."
"لقد قلت إنك مهتمة بالشراء."

التقطت النبرة المقتضبة في صوته التي تكاد تقول: "قولي ماذا تريد مني، وانفعي لي نقودي وسأنتقل في سبيلي" كما أنها لاحظت أيضاً عينيه المقرزتين كالزجاج إلى درجة لا يمكن إسعافه معها. حتى أنها قد بدأت بحركة مقلقة. "مثلاً قلت لك على الهاتف. أريد ميدالية الفيل."

بلع جرعة من الجعة. "ولماذا؟ إنها ليست بذات شأن. إن لدي الكثير من القطع ما عداها وهي تفوقها قيمة. وأسعاري جيدة."

"إنني متأكدة مما تقوله، لكنني أريد تلك الميدالية بالذات، فلقد قلت لي إنها معروضة للبيع."

"لقد قلت لك إن الأمر يتوقف على المبلغ الذي تقبلين دفعه."
"هل أستطيع رؤيتها؟"

مدّ يده إلى جيبه. تناولتها منه وتمعن في الميدالية المحفوظة في غلاف بلاستيكي مستطيل. كانت صورة محارب على أحد وجهيها. أما حجمها فيقارب حجم قطعة عملة معدنية من فئة الخمسين سنتاً. أما الصور فتكاد تزول معالمها.

"إنك لا تعرفين شيئاً عن ماهية القطعة أليس كذلك؟" سألها كلوس.

قررت أن تكون صادقة معه. "إنني أقوم بشرائها لمصلحة شخص سواي."
"أريد ستة آلاف يورو ثمناً لها."

وكانت كاسيوبيا قد أخبرتها بأن تدفع أي سعر يطلب كمقابل لها. فالمبلغ لا

يهمُّ بالغاً ما بلغ. لكن بعد تحديقها في القطعة الموضّبة عَجِبَتْ كيف يكون لقطعة ليس لها ميزة خاصة أن تساوي مثل هذا المبلغ.

"هنالك قطعٌ ثمانٍ معروفة فقط من هذه الميداليات." قال لها. "ومبلغ ستة آلاف يورو، سعراً لهذه القطعة، يعتبر صفقة رابحة لك."

"تقول يوجد منها ثمانٍ فقط؟ إذن لماذا تبيعها؟"

التقط عِقب اللفافة المشتعلة، أخذاً منها مِجّة عميقة احتبسها قليلاً ثم قام بنفثها في دخنة كثيفة. "إنني في حاجة إلى تلك النقود." عادت عيناه الزيتيتان إلى التحديق في الأسفل باتجاه كأس الجعة.

"هل أمورك المادية سيئة إلى هذه الدرجة؟" سألته.

"يبدو عليك كأنك تهتمين لأمرى."

أطبق رجلان حول كلّوس. كان أحدهما أشقر والآخر أسمر وكان وجهاهما وسحنة كل منهما خليطاً هجيناً من الملامح العربية والآسيوية. واستمرَّ هطول المطر في الخارج. لكنَّ معطفي الرجلين كانا في حالة جافة. أمسك الأشقر ذراع كلّوس ضاغطاً شفرة سكين قرب معدته. أما الأسمر فلف ذراعه حولها بما يشبه العناق الهادف إلى التحبب ثم وجه رأس سكين آخر إلى مقربة من أضلاعها، ضاغطاً على معطفها.

"الميدالية." قال الأشقر. مشيراً برأسه. "على الطاولة."

قرّرت ألا تخاصمه وفعلت ما طُلب منها بهدوء.

"سوف نغادر الآن." قال الأسمر واضعاً قطعة العملة في جيبه. بينما رائحة أنفاسه عابقة بالجعة. "عليكما البقاء في مكانكما."

لم يكن لديها أي رغبة في تحديهما، فهي تعرف أن عليها أن تأخذ الأسلحة الموجهة إليها، مأخذ الجد.

اتخذ الرجلان طريقهما إلى الباب الخارجي، وغادرا المقهى.

"لقد سلبا قطعة العملة مني"، قال كلّوس رافعاً صوته. "سوف أجري وراءهما."

لم تكن لتستطيع تقدير ما إذا كان الحمق هو الذي يتكلم الآن، أم أنها المخدرات. "ما رأيك في أن تترك أمرهما لي؟"

رفع صوبها نظرة تقويم يخالطها الريب.

"أؤكد لك." قالت له. "لقد جئت متحسبة."

الفصل الثاني والعشرون

كوبنهاغن

الساعة 7:45 مساءً

انتهى مالون من تناول وجبة عشائه. كان يجلس داخل مطعم نوردين المؤلف من طبقتين ويقع في قلب "هوجبروبلاندز" ازدادت رداءة الطقس في المساء مع مطرة نيسانية غزيرة ضربت الساحة التي كانت تخلو من الناس. وكان هو يجلس في الطابق العلوي، في مكان مشرف جاف قرب شباك مفتوح يستمتع بمشاهدة المطر. "إنني أقدر لك مساعدتك لنا في هذا اليوم." قال له ثورفالدسن من مقعده المقابل على الجانب الآخر من الطاولة.

"ألم أكن على وشك الموت بالتفجير مرّتين؟ ولكن لم يكن الأصدقاء أصدقاء؟"

انتهى من احتساء طبق شوربا الطماطم. كانت وجبة هذا المطعم من ألد ما سبق له أن تناول من طعام. كان مليئاً بالأسئلة، لكنه أيقن أن الإجابات عنها، كما هو الحال دائماً مع ثورفالدسن، لن تعطى له سوى على جرعات محدودة. "هناك في المنزل كنت أنت وكاسيوبيا تحدثانني عن جثمان الإسكندر. ولقد ذكرتما أنكما تعرفان مكانه. كيف يكون ذلك ممكناً؟"

"لقد استطعنا أن نتعلم الكثير عن هذا الموضوع."

"هل تحصل لكما ذلك بواسطة صديق كاسيوبيا في متحف سمرقند؟"

"بل إنه أكثر من صديق لها يا كوتون."

كان قد خَمَّن هذا التخمين. "ومن هو؟"
 "يدعى إيلي لوند. لقد شَبَّ هنا في كوبنهاغن. لقد كان تَرباً وصديقاً لولدي كاي."

أحسَّ مالون بنبرة التعاسة عندما أتى ثورفالدسن على ذكر ولده الميت. كما أنه أحسَّ بخفقة في أحشائه لدى تذكره لذلك اليوم منذ سنتين مرَّتا في مكسيكو سيتي، عندما قُتل ذلك الشاب. وقد كان مالون هناك في ذلك اليوم من ضمن مهمة له مع مجموعة ماجيلان بيليه، وقد تمكَّن من إرداء مطلق النار على الشاب، ولكن بعد أن كانت رصاصة قد أصابته يومذاك أيضاً. وما أدراك ما خسارة الولد. فهو لا يستطيع أن يتخيل مرة فكرة أن يرى أن ابنه غاري البالغ الخامسة عشرة من عمره قد مات.

"بينما كان كاي يرغب في وظيفة حكومية، فإن إيلي أحب التاريخ. لقد نال درجة الدكتوراه، وصار خبيراً في الآثار الإغريقية، حيث عمل في عددٍ من المتاحف الأوروبية قبل أن ينتهي به المطاف في سمرقند. فالمتحف الثقافي هناك يحتوي على مجموعة رائعة. ودولة اتحاد آسيا الوسطى كانت تعرض مكافآت جمة لتشجيع العلم والفن."

"وكيف التقته كاسيوبيا؟"

"كنت قد عرَّفت أحدهما على الآخر منذ ثلاث سنوات. وقد اعتقدتُ يومها أن تلك المعرفة يمكن أن تكون لخيرهما معاً."

"وهل وقعت في حبه؟"

هزَّ ثورفالدسن كتفيه. "ليس من السهل على المرء أن يجزم بشأنها. فقليلاً ما تقوم هذه المرأة بالإفصاح عن مشاعرها."

لكنَّ مشاعرها كانت قد أفصحت عن نفسها في وقتٍ سابق. فلقد كان شعورها بالحزن لاحتراق المتحف بادياً بوضوح. وكذلك عندما بدت عليها تلك النظرة الساهمة البعيدة إلى القنال. وكذلك تحاشيها أن تلاقي عيناه عينيها. لم يكن ثمة ما يقال. لكن كان ثمة ما يُحسُّ.

وعندما قاما بإرساء القارب في كريستيان غايد، فإن مالون كان قد اقتضى

أجوبة، لكن ثورفالدسن ما لبث أن وعده بأن كل أسئلته ستلقى إجاباتها على طاولة العشاء. وهكذا، فقد تم إرجاعه بالسيارة إلى كوبنهاغن من جديد، حيث نال قسطاً من النوم، ثم عمل في مكتبته طيلة البقية الباقية من نهاره. وفي مناسبتين اثنتين وجد نفسه ينحو نحو قسم كتب التاريخ حيث انتقى بعض المؤلفات القليلة من بين الكتب التي تتحدث عن الإسكندر، وعن بلاد اليونان. لكن معظم تفكيره بقي منشغلاً في مقولة ثورفالدسن: "إن كاسيوبيا قد تكون في حاجة إليك".

وها هو الآن قد بدأ يفهم.

وفي خارج الشباك، عبر الشارع، وقع نظره على كاسيوبيا وهي تغادر باب مكتبته مندفعة تحت المطر، وكان ثمة شيء ما، ملفوف في كيس بلاستيكي تتأبطه تحت إبطها. فمنذ نصف ساعة كان قد أعطاها مفتاح مكتبته كي تتمكن من دخولها لاستعمال حاسوبه وهاتفه.

"إن العثور على جثة الإسكندر،" قال ثورفالدسن "يتوقف على إيلي وعلى صفحات المخطوطة التي استطاع أن يكشف عنها. ولقد كان إيلي في بداية الأمر قد طلب من كاسيوبيا القيام باقتفاء مكان وجود ميداليات الفيل، لكن عندما بدأنا بتتبع تلك الميداليات، اكتشفنا أن أحداً سوانا كان قد شرع في ذلك قبلنا."

"وكيف يربط إيلي بين الميداليات وبين المخطوطة؟"

"لقد قام بفحص الميدالية الموجودة في سمرقند ووجد الحرفين الميكروسكوبيين "ZH" اللذين لهما علاقة بالمخطوطة. وبعد موت إيلي أرادت كاسيوبيا أن تعرف ما الذي كان يجري."

"وهكذا، فإنها استنجت بك."

هز ثورفالدسن برأسه موافقاً. "ولم أستطع ردّ طلبها."

ابتسم متسائلاً في سره كم هو عدد الأصدقاء الذين يكونون على استعداد لشراء متحفٍ بكامله، ثم القيام بصنع نسخة زائفة عن كل من معروضاته من أجل السماح لها بالذهاب طعماً للنيران بعد ذلك!

اختفت كاسيوبيا الآن عن أنظاره بعد أن دخلت تحت عتبة النافذة. ثم سُمع

باب المقهى في الأسفل يفتح ثم ينغلق. ثم وقَعَ خطواتٍ صاعدة على السلم المعدني المؤدي إلى الطابق العلوي.

"لقد بقيت في ثيابك المبللة لمدة طويلة هذا اليوم." قال لها مالون عندما وصلت إلى الطبقة العليا.

كان شعرها ملفوفاً على هيئة ذيل حصان، وكان بنطالها الجينز، وقميصها، مبللن بالمطر. "كم يصعب على الفتاة أن تبقى دائماً جميلة."

"ليس هذا الحكم حكماً صحيحاً بالضرورة."

أَلَت نحوه بنظرة. "قد أكون أكثر جمالاً هذه الليلة."

"وستكون لي لحظاتي."

أخرجت حاسوبه المحمول من الكيس البلاستيكي وقالت لـ: ثورفالدسن "لقد قمتُ بتحميل كل شيء."

"لو كنت أعرف أنك ستخرجينه معك تحت المطر." قال لها مالون. "لكنك أصررت على تأمين تدفعينه لي سلفاً."

"لا بدّ لك من رؤية هذه الصور."

"لقد أخبرته عن إيلي." قال لها ثورفالدسن.

كانت قاعة الطعام خفيفة الأنوار ومهجورة. وقد اعتاد مالون أن يتناول طعامه في هذا المكان ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع، وعلى الطاولة نفسها دائماً وفي الساعة ذاتها أيضاً لقد كان يستسيغ خلوته بنفسه.

نظرت كاسيوبيا إليه وجهاً لوجه.

"إنني حزين من أجلك." قالها وكان يعني ما يقول.

"إنني أقدر شعورك نحوي."

"وإنني شاكرٌ لك لإنقاذ حياتي،"

"لا بدّ أنك كنت ستجد طريقة للخروج. لقد اقتصر دوري على تسريع الأمر."

استذكر الورطة التي كان فيها، فوجد نفسه غير أكيد من صحة استنتاجها. أراد أن يسأل المزيد من الأسئلة حول إيلي لوند، قلقاً لمعرفة كم قد استطاع أن ينجح في الكشف عن سردياتها العاطفية. فهو سرداب يشبه سردابه الذي يحتوي على الكثير من الأقفال وأجهزة إطلاق الإنذار. لكنه بقي صامتاً - مثلما يحصل دائماً عندما تكون المشاعر جياشة.

داست كاسيوبيا على المفتاح المشغل لجهاز الكمبيوتر واستحضرت عدة صورٍ إلى وجه الشاشة. وكانت عبارة عن كلمات شبحية باهتة متناثرة ومتناثرة في عدة مواقع، وكلها كلمات إغريقية.

"بعد أسبوع من وفاة الإسكندر في العام 323 ق. م." قالت كاسيوبيا. "وصل خبراء التحنيط المصريون إلى بابل. ومع أن الطقس كان صيفياً وشديد الحرارة كجهنم، إلا أنهم وجدوا أن الجثمان لا يزال سليماً من أيّ فساد، كما أن بشرته، ومظهره العام كانا يشبهان حالة الأحياء. وقد جرى تفسير ذلك كإشارة من الآلهة إلى عظمة الإسكندر."

وكان قد قرأ عن ذلك من قبل. "إنها إشارة ذات دلالة. إذ من المحتمل أنه كان لا يزال حياً في غيبوبة ما قبل الموت."

"هذا ما يُجمع عليه الرأي الحديث. لكن تلك الحالة الطبية لم تكن بعد معروفة حينذاك. وهكذا، باشر المحنطون عملهم وقاموا بتحنيط الجسد."

هز رأسه. "شيء مُعجِب أن يُقتل أكبر فاتحي زمانه على يد المحنطين."

ابتسمت كاسيوبيا في موافقة. "والتحنيط في العادة يستغرق سبعة أيام. والفكرة من وراء ذلك، تجفيف الجسد إلى درجة تتعدى إمكانية تعفنه لاحقاً. لكنهم في حالة الإسكندر قاموا باستعمال أسلوب مختلف. فلقد قاموا بنقعه في العسل الأبيض."

كان يعرف عن العسل، وهي مادة لا تعرف الفساد. فمرور الزمن قد يبُلُر تركيبته الأساسية لكنه لا يفسدها، وهي فوق ذلك يمكن إعادة تلك التركيبة بواسطة التسخين.

"إن العسل،" قالت. "كان من شأنه أن يحفظ جسد الإسكندر من باطنه

وخارجه إلى درجة أفضل من التحنيط. وأخيراً تم لف الجسد بغلاف من الذهب وسُجِّي في تابوت ذهبي وهو يلبس الطيالس والتاج، وقد أحيط بالمزيد من العسل. وهكذا أبقى الجسد على هذه الحالة في بابل لمدة سنة واحدة. وفي هذه الأثناء كان يجري بناء عربة مرصعة بالجواهر. وعند ذلك تحرك موكب الجنازة من مدينة بابل.

"وهو الوقت الذي بدأت فيه المناورات الجنائزية." قال لها.

هزت كاسيوبيا رأسها موافقة. "وبطريقة أو بأخرى، كان بيرديكاس، أحد جنرالات الإسكندر، قد دعا إلى مؤتمر طارئ ضم رفقاء الإسكندر، في اليوم الذي أعقب وفاته. وكانت روكسان، زوجة الإسكندر الآسيوية، حاملاً في شهرها السادس. وقد أراد بيرديكاس انتظار ولادة المولود قبل تقرير ما ينبغي تقريره. فإذا كان المولود نكراً، فإنه لا بد من أن يكون هو الوريث الشرعي، لكن آخرين كانوا قد عارضوا هذه الفكرة. فهم لم يستسيغوا فكرة أن يكون لهم عاهل نصف بربري، وكانوا يفضلون تنصيب أخ الإسكندر غير الشقيق، فيليب، ملكاً عليهم، مع أن فيليب هذا كان معروفاً بجميع المقاييس أنه مصاب بعاهة عقلية."

هنا استرجع مالون في ذاكرته بعض التفاصيل التي كان قد سبق له أن قرأ عنها. وقد نشب الخلاف في واقع الأمر، حول السرير الذي يسجى عليه جثمان الإسكندر. لذلك فإن بيرديكاس ما لبث أن دعا إلى جمعية عامة لوجهاء المقدونيين، وفي رغبة منه لحفظ السلام، أمر بتسجية الجثمان في وسط باحة الاجتماع ولقد صوّتت الجمعية لمصلحة صرف النظر عن الحملة التي كان من المقرر مباشرتها للاستيلاء على شبه الجزيرة العربية. كما صادقت الجمعية على فكرة اقتسام المملكة. وهكذا، آلت الحاكميات إلى رفقاء الإسكندر. لكن أعمال التمرد سرعان ما اندلعت عندما برزت الخلافات بين جنرالات الإسكندر أنفسهم. وفي نهاية الصيف وضعت روكسان مولودها وكان ولداً نكراً، وقد عُمد الصبي الوليد تحت اسم الإسكندر الرابع. وفي سعي لحفظ السلام بين الجميع، فقد تمّ التوصل إلى صيغة مشتركة اعتُبر بموجبها كل من الطفل الوليد، والأخ غير الشقيق للإسكندر بمثابة ملك مع أن كلا من رفقاء الإسكندر بقي مستمراً في حكم الإقليم الذي استأثر به من المملكة، دون أي اعتبار أو علاقة لسواه.

"وماذا كان من ذلك الاتفاق؟" تساءل مالون. "فبعد ست سنوات على التوصل

إليه، دبّرت أوليمبيا، وايلدة الإسكندر الكبير، اغتيال فيليب، أخ ولدها غير الشقيق، لأنها كانت تكره فيليب هذا منذ ولادته، خاصة وأن زوجها فيليب المقدوني كان قد طلقها ليتزوج وايلدة هذا الطفل بدلاً عنها. ثم بعد سنوات قليلة على تلك الحادثة، فإن الإسكندر الرابع ووايلدته قد سُجنا معاً. وهكذا، لم يتمكن أي من العاهلين أن يحكم أبداً.

"وفي نهاية المطاف، تمّ اغتيال شقيقة الإسكندر الكبير أيضاً." قال ثورفالدسن. "وبذلك، اضمحلت سلالة الإسكندر بكاملها. ولم يعد ثمة وجود لوريث واحد شرعي، وهكذا، تفسخت أكبر إمبراطورية موجودة في العالم في ذلك الزمان." "ولكن ما هي علاقة كل تلك الأحداث بميداليات الفيل؟ وما هي تأثيراتها المحتملة على حياتنا الجارية؟"

"كان إيلي يعتقد أن لها تأثيرات شديدة." قالت له.

أيقن أن ثمة المزيد وراء الأكمة. "وماذا تعتقدين أنت؟"

بقيت صامتة لبرهة، كما لو أنها غير واثقة مما ستقوله، لكنها رغم ذلك تخشى انكشاف ترددها.

"لا بأس عليك الآن،" قال لها. "يمكنك الاحتفاظ بما لديك إلى أن تصبحي جاهزة لقوله."

ثم خطرت له خاطرة أخرى فاتجه بالقول إلى ثورفالدسن، "وماذا عن الميداليتين الباقيتين هنا في أوروبا؟ فلقد سمعتك تسأل فيكتور عنهما. فإنه من المحتمل أن يكون الوصول إليهما هو هدفه التالي المباشر."

"لقد سبقناه إلى هناك."

"هل تمكّن شخص ما من الحصول عليهما؟"

نظر ثورفالدسن إلى ساعة يده. "واحدة منهما على الأقل. أمل أن يكون قد حصل ذلك مع حلول هذا الوقت."

الفصل الثالث والعشرون

أمستردام

خرجت ستيفاني من المقهى من جديد تحت المطر. وحالما رفعت قُبْعَة معطفها فوق رأسها من جديد، فإنها تلمّست الميكروفون المخبوء تحت سترتها.

"رجلان غادرا هذا المكان للتوّ. وفي حوزتهما ما أنا في طلبه."

"إنهما يتقدماننا بخمسين متراً، وهما متجهان نحو الجسر." كان هذا هو الجواب الذي جاءها.

"أوقفوهما."

ثم أسرع في وسط الظلام.

كانت ستيفاني قد أحضرت معها عميلين من الشرطة السرية، وقد قامت باستعارتهما من الفرقة المكلفة بحفظ أمن رئيس الجمهورية داني دانيالز عندما يكون في إحدى رحلاته خارج الولايات المتحدة. فمُنذ شهرٍ مضى كان الرئيس قد طلب منها مرافقته إلى مؤتمر القمة الاقتصادية الأوروبية السنوي. وكان قادة الدول قد تجمّعوا على بعد أربعين كيلومتراً إلى الجنوب من أمستردام. وكان الرئيس دانيال هذه الليلة يحضر حفل عشاء رسمي، وهكذا، فإنه كان آمناً في داخل قصر هُوج. لذلك فإنها استطاعت أن تستأثر لنفسها بمرافقين يساعدانها. وكان ذلك على سبيل الحيلة فقط، وقد قامت بوعدها كلٌّ منهما بدعوة إلى عشاء تدعوه إليه بعد ذلك، في الوقت الذي يشاؤه.

"هل كان معهما سلاح؟" سألتها أحدهما عبر سماعة أذنها.

"كانا يحملان سكينين في المقهى." قالت.

"أما هنا فهما يشهران مسدسين."

تصلب فقارها. الأمور تتدهور نحو الأسوأ. "أين هما الآن؟"

"إنهما فوق جسر عبور المشاة."

سمعت صوت عيارات نارية فأخرجت رشيش الباريثا الذي تتسلح به فرقة ماجيلان بيليه، وكان مخبوءاً تحت سترتها.

ازداد عدد الطلقات.

استدارت من وراء منعطف.

كان الناس يتبعثرون. وكان الأسمر والأشقر يتمترس كل منهما خلف سياج حديدي يعلو الجسر بعلو الصدر، وهو سياج واقع فوق كل من جانبي القنال. وكانا يطلقان النيران في اتجاه رجلي الشرطة السريّة.

تناثرت شظايا الزجاج عندما وجدت مقذوفة طريقها نحو إحدى الكرخانات.

وتعالت صرخة امرأة.

هرع المزيد من الناس المذعورين في اتجاه ستيفاني. فخفضت سلاحها وأخفته وراءها. "لنعمل على احتواء هذا الأمر." قالت في الميكروفون.

"قولي لهما ذلك." أجابها أحد المرافقين.

وكانت عندما وافقت في الأسبوع الفائت على أداء هذه الخدمة لصديقتها كاسيوبيا، لم تتوقع من ورائه ضرراً، لكن حدساً كان قد جاءها بالأمس بوجوب المجيء وهي مستعدة لأمرٍ قد يطرأ. ولقد تعزز ذلك الشعور عندها عندما تذكرت قول كاسيوبيا بأنها هي وهنريك ثورفالدسن يقدّران لها استجابتها للطلب. فهي تعلم أن أي أمر يتعلق بثورفالدسن كان يتكشف عن خطر.

طلقات أخرى أتت من اتجاه الجسر.

"لن نتمكن من الإفلات منّا." صاحت بهما.

استدار الأشقر مصوباً مسدسه نحوها.

غطست في فجوة غائرة. رصاصة أزت بعد ارتطامها بالطوب على مبعدة أقدام قليلة منها. عانقت الدرج ورفعت نفسها إلى الأعلى من جديد. وهنا تدفقت عليها سيول المطر من كل مجرى حتى انتفعت ملابسها.

فأطلقت رصاصتين.

كان الرجلان الآن يقعان وسط المثلث القاتل، دون سبيل لهما إلى الهرب.

غير الأسمر مكانه، محاولاً جعل نفسه أقل عرضة للنيران. لكن أحد العميلين أصابه في صدره. ترنح الرجل إلى أن أصابه عيار آخر جعله يتأرجح عند سياج الجسر، فينطوي جسده فوق ظهر السياج وينقلب مضرّجاً برشاش الماء وسط مجرى القنال.

شيء رائع. لقد صار عندها الآن مشكلة جثث.

اندفع الأشقر نحو حافة الصيوان محاولاً التقاط نظرة لرفيقه. بدا كما لو أنه يتحفّز للقفز إلى الماء، لكن مزيداً من العيارات سمّره في مكانه. رفع الأشقر قامته واندفع إلى الأمام مطلقاً النار في اتجاه الطرف المقابل له من الجسر بشكل عشوائي. ردّ على ناره العميل السري المواجه له، بينما اندفع العميل الآخر الموجود في ناحيته نحو الأمام فأرداه بثلاث طلقات أنته من وراء ظهره.

باتت الآن أصوات صفارات سيارات النجدة مسموعة.

قفزت من مكنها وجنّحت نحو الجسر. كان الأشقر يستلقي فوق حجارة القنطرة فيما كان المطر يغسل الدم الذي ينسكب من جسده. لوّحت بذراعها طالبة من رفيقها الاقتراب.

فاندفع الرجلان معاً.

كان جسد الأسمر عائماً على وجهه فوق صفحة المياه.

ظهرت الأضواء الحمراء/الزرقاء على مبعدة خمسين ياردة وهي لا تزال تتجه مباشرة نحو الجسر. ولم تكن تلك الأنوار سوى أنوار عائدة لثلاث من سيارات البوليس.

أشارت نحو أحد العميلين. "أريدك أن تقفز إلى الماء وأن تحصل على الميدالية من جيب الرجل. إنها موضوعة في علبة بلاستيكية وعليها صورة فيل. وحالما تتمكن من الحصول على الميدالية عليك أن تسبح وتبتعد عن هذا المكان وأن لا تسمح لأحد بأن يقبض عليك."

أعاد الرجل سلاحه إلى غمده وقفز من فوق الصيوان. وقد استحسنّت سرعة الامتثال المعمول بها لدى رجال الشرطة السريّة. لا مجال للأسئلة بل تنفيذ دائم على الفور فحسب.

توقفت سيارات الشرطة توقفاً مفاجئاً. نفضت عن وجهها حبّات المطر، ناظرة نحو العميل الآخر. "أخرج فوراً من هذا المكان، وأمن لي دعماً دبلوماسياً." "وأين سوف تكونين؟"

التمعت في ذهنها صورة الحدث الذي حدث في الصيف الماضي عندما كانت برفقة مالون. "ساكون رهن التوقيف."

الفصل الرابع والعشرون

كوبنهاغن

كانت كاسيوبيا ترتشف كأسها فيما هي تراقب مالون وهو يهضم ما كانت هي وثورفالدسن يفضيان به إليه من كلام.

"دعني يا كوتون"، قالت له. "أشرح لك عن الرابطة التي أوقدت لدينا هذا الاهتمام لقد كنّا قد ذكرنا لك سابقاً شيئاً ما، عن أشعة إكس المطيافية. وكان أحدُ البَحّاثَة من منسوبي المتحف الثقافي في سمرقند قد نبغ في هذه التقنية. لكن إيلي كان هو الذي طلع بفكرة فحص النصوص البيزنطية العائدة للعصور الوسطى. وعند ذلك فإنه كان مكتشف الكتابة التي يمكن قراءتها على المستوى المجهرى."

"فالرُقُّ المعاد استعماله كان يدعى الطُرس." قال ثورفالدسن. "وهو عمل إبداعيّ تماماً في واقع الأمر. فبعد أن يكون الرهبان قد كشطوا الحبر الأصلي، وقبل أن يعيدوا الكتابة من جديد فوق الرُقوق التي جرى تنظيفها، فإنهم كانوا يعمدون إلى قطع الصفحات وإعادة تشكيل اتجاهها لتنضيدها في الشكل الذي نُطلق عليه اليوم اسم الكتاب."

"طبعاً"، قالت. "إن معظم الرقوق القديمة كانت لا بدُّ لها من أن تصاب بالتلف بسبب عملية التعديل والتشويه هذه، ذلك أن الإبقاء على ترتيب الرقوق الأصلي كان أمراً نادراً. ومع كل هذا، فإن إيلي كان قد وجد أن الكثير منها قد بقي في حالة سليمة نسبياً. وكان قد اكتشف في أحد الرقوق بعض النظريات الضائعة لأرخميدس. وهو اكتشاف يعتبر عظيم الشأن إذا أخذنا في الاعتبار أن لا شيء من مؤلفات أرخميدس قد وصل إلينا في أيامنا الحاضرة." حدّقت نحوه. "وفي رِقٍّ آخر كان إيلي قد وجد سرّاً تركيبة النار الإغريقية."

"ومن هي الجهة التي قام بإبلاغ خبر اكتشافه الجديد إليها؟"

"إنها إيرينا زوفاستينا." قال ثورفالدسن. "رئيس وزراء اتحاد آسيا الوسطى. وقد طلبت منه زوفاستينا آنذاك، إبقاء هذه الاكتشافات طيّ الكتمان، أقله على المدى القصير. وحيث أنها هي التي كانت تدفع أجوره. فقد كان يصعب عليه رد طلبها. كما أنها قامت بتشجيعه على تحليل المزيد من مخطوطات المتحف."

"وقد قدر إيلي،" قالت. "الحاجة إلى السرية. فتلك التقنيات كانت جديدة، وكانوا مع ذلك، بحاجة إلى التأكد من أن ما قد عثروا عليه من كتابات، إنما يعود إلى نصوص أصلية موثوقة. لذلك فهو لم ير أي مشكلة في الانتظار. وفي الحقيقة فإنه أراد الانتهاء من فحص أكبر قدر يستطيع فحصه من هذه المخطوطات، قبل أن يبدأ الكلام عن عمله هذا في العلن."

"لكنه مع ذلك قد أخبرك أنت،" قال لها مالون.

"لقد كان مبتهجاً. ولقد أراد أن يشاركه شخص ما، شعوره هذا. ثم إنه كان يثق بأنني لن أفضي لأحد بشيء مما قاله لي."

"منذ أربعة أشهر،" قالت. "عثر إيلي في إحدى الطروس على شيء ما، هو غير عادي تماماً. إنه تاريخ هيرونيموس عن كارديا. وهيرونيموس هذا، هو الجنرال الذي كان يعمل أيضاً كسكرتير شخصي للإسكندر. ولم ينج من كتابات أومينيس سوى النزر اليسير المجزء، لكنها كانت كتابات معروفة بشدة صدقيتها. وقد اكتشف إيلي رواية كاملة لحادثة وقعت أيام الإسكندر، كان قد رواها شاهد موثوق." أنصت ثورفالدسن. "وإنها لحكاية تستحق التوقف عندها يا كوتون. ولقد قرأت أنت بعضاً منها في وقت سابق، وهي تحكي عن موت الإسكندر، وعن الترياق."

كانت كاسيوبيا تقدر أن مالون لا بد من أن يكون في حيرة من أمره. ففي بعض الأحيان كان يذكرها بـ إيلي، إذ أن كلا الرجلين كانا يستعملان الطرافة لتغليظ الحقيقة. فقد يقوم الواحد منهما على التحايل على موضوع ما، أو تدوير وجهة نظر ما، أو - ولعل هذا أشد ما يزعجها منهما - بجانب التورط في الأمور. لكن في الوقت الذي كان فيه مالون يفيض بالثقة الجثمانية، ويأخذ المبادرة للتحكم بما يحيط به، فإن إيلي كان محكوماً بالمشاعر الرقيقة والذكاء العميق الخلق، فأني نقيض كانت

تشكل شخصيتها لشخصيته. فهي الإسبانية المسلمة السمراء البشرة، الفاحمة الشعر، وهو البروتستانتى الإسكنديناوى الحنطى البشرة. لكنها كانت دائماً تستعذب البقاء بقربه.

وقد كان إيلي هو الرجل الأول عندها، لمدة طويلة.

"كوتون"، قالت له، "بعد سنة تقريباً، من وفاة الإسكندر في شتاء عام 321 ق. م، انطلق موكب جنازته في نهاية الأمر من مدينة بابل. وكان القائد بيرديكاس قد قرّر أن يدفنه في مقدونيا. وقد كان ذلك القرار منافياً لأمنية الإسكندر التي أفصح عنها بينما هو على فراش النزاع في أن يتم دفنه في أرض مصر. لكن بطليموس الذي هو قائد آخر من قواده: قد طالب بالاحتفاظ بمصر كحصّة له من إمبراطورية الإسكندر. وقد كان هو يحكمها قبل ذلك بالفعل كممثل للإسكندر. وكان بيرديكاس يتولى الوصاية على العرش، وعلى الطفل الذي هو الإسكندر الرابع. وحسب الدستور المقدوني، فإنه كان من واجبات الحاكم الجديد أن يسهر على دفن سلفه دفناً لائقاً."

"وهذا يعني"، قاطعها مالون. "لو أن بيرديكاس سمح لبطليموس أن يتولى دفن الإسكندر الكبير في مصر، فإنه يكون بذلك قد قوى حجة بطليموس في المطالبة بعرش الإسكندر."

هزّت رأسها بالموافقة. "أضف إلى ذلك، أن ثمة نبوءة كانت شائعة آنذاك، تقول إنه لو توقف دفن ملوك مقدونيا في ترابها، فإن السلالة الملكية سوف تنقرض. وهو ما حصل بالفعل - فالإسكندر الكبير لم يجر دفنه في أرض مقدونيا، وقد انقرضت السلالة المقدونية الملكية بعد ذلك."

"كنت قد قرأت عن تلك الأحداث"، قال مالون. "إذ أن بطليموس قام باعتراض طريق الجنازة في الأرض التي تدعى اليوم شمالي سورية واختطف الجثمان إلى مصر. وقد حاول بيرديكاس مرتين أن يشن هجوماً على مصر عبر نهر النيل. لكن ضباطه كانوا قد تألبوا عليه في نهاية الأمر وقاموا بطعنه حتى الموت."

"ثم قام بطليموس باجتراح عمل غير متوقّع"، قال ثورفالدسن. "إذ أنه رفض القبول بأن يكون هو الوصي على عرش الإسكندر عندما عُرضت عليه تلك الوصاية من قادة الجيش. لقد كانت أمامه فرصة لأن يكون ملكاً على الإمبراطورية بأكملها،

لكنه رفض ذلك العرض، وحصر اهتمامه بمصر دون سواها. وهو أمرٌ غريب. إلا يبدو لك كذلك؟"

"ربما أنه لم يكن يرغب في أن يكون ملكاً. فمما كنت قد قرأته كان هناك الكثير من الغش والسخرية بحيث أن ما من ملكٍ يستطيع أن يعيش طويلاً. فالاغتيال كان بكل بساطة جزءاً من الحياة السياسية."

"لكن ربما أيضاً أن بطليموس كان يدري بشيء لم يدرك به أحد سواه." وقد وجدت أن مالون كان ينتظر منها إيضاحاً لهذا القول، فأكملت. "وهو أن الجسد المدفون في مصر لم يكن عائداً للإسكندر."

ابتسم ابتسامة عريضة. "كنت قد قرأت عن هذه القصص، فبعد اختطافه للجثمان زيف بطليموس جثماناً بديلاً عن جثمان الإسكندر وأبدله بجثة الإسكندر، ثم هيأ الفرصة أمام بيرديكاس وسواه لكي يقوموا بانتزاعها منه. لكن هذه مجرد روايات وليس ثمة من دليل على صحة أيٍّ منها."

هزت رأسها نافية. "إنني أتحدث عن شيء آخر مختلف عن ذلك بالمرة. فالمخطوطة التي اكتشفها إليّ تخبرنا بالضبط عما حدث في هذا الأمر. فالجثمان الذي سارت به جنازة الدفن شرقاً في العام 321 ق. م. لم يكن في الواقع هو الجثمان الحقيقي للإسكندر. ذلك أن تبديلاً في الجثث كان قد حصل في بابل خلال السنة التي سبقت تلك السنة. أما الإسكندر فإنه كان قد ارتاح جسده في ذلك الوقت في مكان لا يعرف سره سوى حفنة صغيرة من الناس. وقد حافظت تلك الجماعة على هذا السر تمام المحافظة. حتى أنه، لمدة ثلاثة وعشرين قرناً، لم يدرك أحدٌ بمكان وجود ذلك القبر."

مرَّ يومان منذ قام الإسكندر بإعدام غلوسياس. أمّا ما كان قد تبقى من جسد ذلك الطبيب، فقد بقي متروكاً خارج أسوار مدينة بابل. بعضه كان على التراب، وبعضه الآخر كان متدلياً من الأشجار. وكانت الكواسر والضواري ما تزال تلتهم اللحم عن العظام. أمّا غضب الملك فلما يهدأ بعد. فقد كان غضوباً متشككاً وكثيباً. وقد استدعي إيمينيس إلى حضرة الملك حيث أبلغ الإسكندر سكرتيه الخاص بأنه (أي الإسكندر) سوف يموت قريباً. اهتز كيان إيمينيس لما سمع، ذلك لأنه

كان لا يستطيع أن يتخيل استمرار الدنيا بدون وجود الإسكندر. لكن الملك قال له إن الآلهة قد نفذ صبرها وإن بقاءه بين الأحياء قد بات على حافة نهايته. أصغى إيمينيس إلى كلام مليكه، لكنه لم يضع ثقة كبيرة بصحة تلك النبوءة. ولقد كان الإسكندر يساوره اعتقاد قديم بأنه ليس في الحقيقة مولوداً من صلب وايلده فيليب، لكنه بدلاً من ذلك فإنه تجسّد آدميٍّ فإنّ للإله زيوس. وهذا إدعاء وهميٌّ بطبيعة الحال. لكن بعد الفتوحات الباهرة التي أصابها الإسكندر، فإن الكثيرين باتوا يؤيدونه في ادعائه هذا. وقد تكلم الإسكندر على روكسان وعلى الجنين الذي تحمله في أحشائها. فلو كان ذلك المولود ذكراً فسيكون له حق كبير في المطالبة بالعرش، لكن الإسكندر كان يقدر السخط الذي سوف يكتفه الإغريق لملك لهم يكون نصف أجنبيٍّ عن دمهم. لذلك فإنه أخبر إيمينيس أن رفقاءه سوف يتناحرون على مملكته وأنه لا يريد أن تكون له علاقة بذلك الصراع. "دع كل واحد منهم يقتضي مصيره بنفسه"، قال له. أمّا مصيره هو فقد تقرّر. ولهذا، فإنه أخبر إيمينيس أنه يريد أن يتمّ دفنه إلى جانب جثة صديقه فستيشيون. مثلما كان قد فعل أخيل عندما طلب أن يمزج رماد رفاة برماد رفاة خليفه. لقد أراد الإسكندر أن يحصل له الشيء نفسه. "سوف أبذل كل جهدي لجعل رماذك يمازج رماده"، قال إيمينيس. لكن الإسكندر هزّ رأسه معترضاً. "لا، بل قم بدفننا معاً." وحيث أنه قبل ذلك ببضعة أيام فقط كان إيمينيس قد شهد المحرقة الكبيرة لجثمان فستيشيون تشتعل، فقد سأل الإسكندر كيف يمكن لطلبك هذا أن يكون ممكن التحقيق. ولقد أخبره الإسكندر عندئذٍ أن الجسد الذي تمّ إحراقه في مدينة بابل لم يكن هو في الحقيقة جسد فستيشيون. إذ أنه كان قد أمر بتحنيط جسد فستيشيون في الخريف الفائت بحيث أنه يمكن نقله إلى مكان يجد فيه الراحة إلى الأبد. وقد أراد الإسكندر المصير ذاته لنفسه. "قوموا بتحنيط جسدي." قال له. "ثم خذوني إلى حيث أستطيع أنا أيضاً أن أضطجع في هواء نقي." وقد أرغم إيمينيس على أن يقطع له عهداً على نفسه بأن يقوم على تحقيق تلك الأمنية له سراً، وألاً يشرك في ذلك السر سوى شخصين فقط كان الملك قد سمّاهما له.

التفت مالون إلى الأعلى رافعاً أنظاره عن شاشة الحاسوب المحمول. وكانت الأمطار في الخارج قد ازدادت غزارة. "والى أين أخذوه؟"

"لقد صارت المسألة بعد ذلك أكثر التباساً،" قالت كاسيوبيا. "لقد أرجع إليّ تاريخ تلك المخطوطة إلى أربعين سنة تقريباً بعد وفاة الإسكندر." مدّت يدها إلى الحاسوب المحمول وقامت بتصفّح صفحات الشاشة. "اقرأ هذه أيضاً من تاريخ هيرونيμος عن كارديا."

كم هو من الحيف أن يكون أعظم الملوك، الإسكندر المقدوني، محكوماً عليه بالبقاء إلى الأبد في قبر مجهول. رغم أنه هو نفسه كان قد طلب مكاناً هادئاً يستريح فيه جسده. مكان كان هو قد خطط له، يا له من قدرٍ صامتٍ لا يبدو متناسباً. لقد صحّت نبوءة الإسكندر حول أصحابه. فلقد تصارع جنرالاته في ما بينهم حتى قام البعض منهم ليس بقتل البعض الآخر فحسب، بل بقتل كل من قد يقف عائقاً أمام مطالباته بالحكم أو يشكل تهديداً لها. وقد يكون بطليموس هو القائد الوحيد الأوفر حظاً بينهم. فلقد قام بحكم مصر مدة ثمانٍ وثلاثين سنة. وفي السنة الأخيرة من أيام حكمه، كان قد سمع عن جهودٍ التي أقوم بها لكتابة هذا التاريخ فاستدعاني إلى قصره، حيث كنت في مكتبة الإسكندرية. وكان قد عرف عن صداقتي مع إيمينيس وقام بقراءة كل ما كنت قد أنجزته من ذلك التاريخ حتى ذلك الوقت، باهتمام. ثم أكد لي أن الجثمان المدفون في ممفيس لم يكن في الحقيقة هو جثمان الإسكندر. وقد أوضح بطليموس لي دون أيّ التباس أنه كان على علم بذلك منذ اللحظة الأولى التي وضع فيها يده على الجثمان الذي كان منقولاً في موكب الجنازة. وأنه بعد سنواتٍ من ذلك قد صار شديد الرغبة في الاطلاع على الحقيقة حتى أنه أرسل رجالاً مكلفين باستكشاف الحقيقة له. وقد تمّ إحضار إيمينيس إلى مصر حيث أخبر بطليموس أن البقايا الأصلية للإسكندر إنما هي مخبوءة في مكان لا يدري به سواه. وفي ذلك الوقت، كان موقع القبر المزعوم الذي بناه بطليموس للإسكندر في ممفيس قد أضحى مزاراً. "لقد قاتلنا أنت وأنا معاً إلى جانبه وكان كل منا يشتهي الموت من أجله،" قال بطليموس مخاطباً إيمينيس. "إلا أنه لا يجوز أن يبقى القبر مجهولاً إلى الأبد."

وحيث أن إيمينيس قد استغرقه الندم وعذاب الضمير، وحيال شعوره بإخلاص كلمات بطليموس، فإنه قام بالإفصاح له عن مكان القبر وهو مكان قائم في الجبال التي كان يقوم فيها الإسكثيون بتعليم الإسكندر علوم الحياة، ثم أن إيمينيس توفي بعد ذلك بوقت قصير. وقد استعاد بطليموس من ذاكرته أن الإسكندر، وبعد سؤاله لمن يريد أن يترك مملكته، قد قال "أتركها للأزكى". وبناء عليه فإن بطليموس كان قد أفضى إليّ بتلك الأبيات الملغزة:

وأنت أيها المغامرُ في سبيل رجوع صداي المخلد،

إسمع كلماتي مهما كنتَ متنائياً أصمَّ الأذان.

أبجر إلى العاصمة التي بناها وايلد الإسكندر،

إلى حيث يقف الرهبان حراساً.

لامِسُ قُدسِ أقداسِ الوهم المذهب.

وقم بشطر طائر الفينيق إلى شطرين.

إن الحياة سترشدك إلى مقاسات قبوري

لكن عليك أن تجانب الحذر

فثمة فرصة لديك للنجاح واحدة

تسلق المعازل التي أوجدها الله

وعندما تتناهى إلى سطح عليتها

حدّق بناظريك نحو العين السمراء

ولا تخشِ الاهتداء إلى الملاذ البعيد.



ثم أن بطليموس سلّمني بعد ذلك ميدالية فضية يظهر عليها الإسكندر وهو يقاتل الأفيال. وقد قال لي أنه تخليداً لذكرى تلك المعارك فإنه كان قد أمر بسك تلك القطع من العملة. كما أنه طلب إليّ أن أعود إليه عندما أكون قد توصلت إلى حلّ اللغز أعلاه. لكن لم يمض شهر واحد حتى كان بطليموس قد فارق الدنيا.

الفصل الخامس والعشرون

سمرقند

اتحاد آسيا الوسطى

الساعة 11:50 ليلاً

طرقت زوفاستينا بلطفٍ على بابٍ أبيضٍ لمّاع. فتحت لها سيدة أنيقة الهندام في نهاية العقد الخامس من عمرها ولها شعرٌ باهت اللون أسودٌ قد اشتعل فيه المشيب. ومثل عادتها، لم تنتظر زوفاستينا دعوة إلى الدخول.

"هل هي صاحبة؟"

هزّت المرأة برأسها إيماءة الإيجاب فتقدمت زوفاستينا إلى داخل القاعة.

كان المنزل يحتلُّ رقعة من الأرض قائمة في منطقة حرجية واقعة في الضواحي الشرقية للمدينة. خلف امتداد المباني المنخفضة والمساجد الزاهية الألوان. وهي منطقة كان قد نبت فيها العمران الجديد، أما منطقة التلال فقد كانت مرة مركومة بأبراج المراقبة العسكرية العائدة للعهد السوفييتي البائد. وكانت بحبوحة الاتحاد قد طالت كلاً من الطبقتين المتوسطة والعليا. ومن كان لديه من إمكانياتٍ كان قد بدأ يزدهي بتلك الطفرة وينعم بها. وكان قد تمّ بناء هذا البيت منذ عقْدٍ من الزمن مضى، أما ملكيته فتعود إلى زوفاستينا مع أنها لا تعيش فيه بالفعل. بل كانت قد قدمته إلى صاحببتها.

لاحظت بأنظارها داخلية البيت الفاخرة. كان ثمة نضدٌ خشبي مبالغٍ في حفره من طراز لويس الخامس عشر، وقد عُرضت فيه مجموعة من تماثيل البورسلان البيضاء التي كان رئيس فرنسا قد أهداها إليها. وكان ثمة سقف مزخرف يعلو غرفة

المعيشة المجاورة. أما أرضيته فمغطاة بالخشب المطعم الذي تحميه سجادة أوكرانية. هدية أخرى، كانت عبارة عن مرآة ألمانية امتدت على طول جدران الغرفة الطويلة فيما زينت ستائر التفتا الشبابيك الثلاثة العالية في الجدران الثلاثة الباقية.

وكانت في كل مرة تطأ فيها تلك القاعة المبلطة بالرخام، لا ينفك ذهنها يعود بها إلى ست سنوات مضت عندما اقتربت بعد ظهر ذات يوم من هذا الباب المغلق ذاته. أمّا في داخل غرفة النوم فإنها شاهدت كارين وبرفقتها رجل ضيق الصدر ذو شعر أجعد وأذرع قوية. إنها لا تزال تستطيع أن تسمع تأوهاتهما. وكانت يومذاك قد وقفت دقيقة طويلة تراقبهما إلى أن انفصلا عن بعضهما بعضاً.

"إيرينا،" قالت كارين بهدوء. "هذا هو ميشيل." وكانت كارين قد نزلت عن السرير وأرجعت إلى الورا شعرها المتماوج الطويل. كان كل إنش من بشرتها التامة يلتصق بلون القرفة. شفتان رقيقتان مكورتان بشكل هازيء، وأنف مائل عن منخرين دقيقين، أما الوجنتان فمليستان كالخزف الصيني. وكانت زوفاستينا قد بدأت تساورها الشكوك من قبل في إخلاص صاحبها لها. لكن أن تراها بأمر عينها تقوم بخيانتها، فإن هذه مسألة أخرى مختلفة تماماً.

"أنتما محظوظان لأنني لم أقتلكما."

بدت كارين غير مبالية. "انظري إليه، إنه يهتم لما أشعر به، وهو يعطي دون سؤال. أما أنت فتأخذين مني فقط. هذا هو كل ما تحسنين عمله. تعطين الأوامر وتتوقعين أن تجدي أنها مطاعة."

"لم أنكر مرة أنك اشتكيت."

"أن أصبح خليلتك لم يكن شيئاً بدون ثمن كبير. لقد تخليت عن أشياء أغلى من المال بكثير."

نظرة من زوفاستينا ذهبت دون إرادة منها نحو ميشيل.

"لقد راق لك، أليس كذلك؟" قالت كارين.

لم تجبها. لكنها أمرتها بدلاً عن ذلك قائلة: "أريدك أن تغادري هذا البيت مع حلول الظلام."

تقدمت كارين إلى الأمام، وكانت تسبقها رائحة طيبة لعطر ثمين. "أحقاً أنتِ ترغبين بطردي؟" مدت يدها نحو ساق زوفاستينا. "لربما كنتِ ترغبين في نزع هذه الملابس عنكِ والإشتراك معنا."

أرسلت صفعه من ظهر يدها إلى وجه خليلتها. لم يكن ذلك ليحدث للمرة الأولى. لكنه كان هو المرة الأولى التي يحصل فيها هذا الأمر عن غضب. قطرات من الدم ساحت من شفة كارين المرضوضة، وكانت نظرات حاقدة تنصبُّ عليها. "أخرجي من هنا قبل حلول الظلام، وإلا فإنني أعيدُ أنك لن يصبح عليك صباح آخر."

إنها ست سنواتٍ مضت. وهو وقت طويل.

أو أنه على الأقل قد بدا طويلاً.

أدارت مقبض الباب ودخلت.

بقيت غرفة النوم مزخرفة بالأثاث الفرنسي الأنيق البسطة. موقدٌ من الرخام والبرونز المذهب يحميه تمثالان لأسدين فرعونيين، كانت تزين أحد الجدران. أمّا جهاز التنفس الاصطناعي فقد بدا شيئاً في غير موضعه إلى جانب السرير المظلل بالناموسية، وكانت قارورة الأوكسيجين إلى الجانب الآخر منه، وقد تدلّى كيسٌ من المصل من دعامة من الستاينلس ستيل، وكان ثمة أنابيب شفافة تتسلل في اتجاه أحد الذراعين.

وكانت كارين تضطجع مدعومة بالوسائد في منتصف السرير الكبير. فيما شرّاشف من الحرير المرجاني تغطيتها حتى وسطها. وكان لونها أشبه بلون الرماد البني. أمّا غشاء عينيها فكان أشبه بالورق المشمّع. وأما شعرها الذي كان يوماً ما، شعراً أشقر طويلاً، فقد تدلّى متشابكاً أشعثاً مثل غمام خفيف. أما عيناها اللتان كانتا تلتمعان بلون أزرق برّاق فقد باتتا الآن تحدّقان إلى الخارج من خلال محجرين غائرين كما لو أنهما مخلوقان منبوذان في مغارتين. أمّا الخدين الأسيلين فقد تبدّلا إلى

هيئة معروقة شاحبة بدلت أنفها ذي الأرنبه إلى أنفٍ نسريٍّ معقوف. وكان قميص نوم حريرية يزين جسدها المعروق الأعجف كما يتدلى العلم المعلق فوق سارية.

"ما الذي تريدينه مني هذه الليلة؟" دمدمت كارين. وكان صوتها هشاً ومختنقاً. وكانت الأنابيب المثبتة إلى أنفها تغذيها بالأكسجين مع كل نفس تتنفسه. "هل جئتِ لتتأكدي من موتي؟"

كان نهر درينا يتابع جريه في مكان ليس ببعيد عن ذلك السرير ذي الأعمدة الأربعة. وكانت رائحة الغرفة قوية. رائحة تثير الغثيان لمزيج من مواد التعقيم والمرض والتحلُّل.

"ليس لديك ما تقولينه؟" استطاعت كارين أن تخرج صوتاً أبخ.

حدقت في المرأة. بخلاف منهجها، لم يكن ثمة كثير من التخطيط للأمر قد حصل في علاقتها معها. كانت كارين في بداية الأمر إحدى الموظفات لديها، ثم أصبحت سكرتيرتها الشخصية. ثم محظيتها. خمس سنوات مرت عليهما معاً ثم مرّت خمسٌ أخريات وهما مفترقتان، حتى جاءت السنة الفائتة فعادت كارين بشكلٍ غير متوقع مريضة إلى سمرقند.

"لقد أتيت في الحقيقة لأتفقد حالك."

"لا يا إيرينا، بل لقد أتيت لتعرفي متى سأموت."

لقد أرادت أن تفصح لها أن هذا هو آخر ما تتمناه. لكن أفكارها عن كارين وهي تخونها مع ميشيل منعته من الاعتراف بحقيقة مشاعرهما نحوها. وبدلاً من ذلك، سألتها: "هل كان ذلك يستحق هذه النتيجة؟"

لقد عرفت زوفاستينا أن سنواتٍ من العلاقات الغرامية دون احتياطات، بينما كانت كارين تنتقل من رجل إلى رجل ومن امرأة إلى امرأة، آخذة المجازفات، قد أوصلتها في النهاية إلى هذه النتيجة. فلا بد أن أحدهم قد مرّر إليها يوماً فيروس نقص المناعة المكتسب. وبعدها صارت وحيدة وخائفة ومفلسة عانت كارين في السنة الماضية مبتلعة كرامتها، إلى المكان الوحيد الذي اعتقدت أنه قد يؤمن لها بعض الراحة.

"هل من أجل هذا تتأبرين على القدوم؟" سألتها كارين. "لتذكريني أنني قد كنت مخطئة؟"

"أجل، لقد كنت مخطئة."

"إن مرارتك سوف تستنزفك تماماً."

"عبارة تأتي من إنسانة قد استنزفتها مرارتها."

"مهلاً يا إيرينا. فأنت لست تدرين عن الزمن الذي انتقلت إليّ فيه العدوى. فلربما سأشترك معك في هذا العذاب."

"لقد قمت بفحص نفسي."

"ومن هو ذلك الطبيب الذي كان من الجنون ليقبل بعمل ذلك؟" سعلت شوّهت كلمات كارين. "هل هو لا يزال حياً لكي يخبر بما يعلم؟"

"إنك لم تجيبي عن سؤالي. هل كان الأمر يستحق ذلك؟"

تغصن الوجه المنسحب بابتسامة. "لن تستطيعي بعد اليوم توجيه الأوامر إليّ."

"لقد عدت إليّ لتطلبني مني المساعدة. وها أنا أقدم لك المساعدة."

"إنني مجرد سجيّة."

"تستطيعين الرحيل متى شئت. توقفت قليلاً. لماذا لا تستطيعين المشاركة مع سواك في الحقيقة؟"

"وما هي الحقيقة التي تتكلمين عليها يا إيرينا؟ أهى أنك امرأة سحاقية. وزوجك العزيز يعرف هذه الحقيقة. إذ لا بدّ له من أن يعرف، فأنت لا تأتين على نكره أبداً."

"لقد مات."

"حادث سيارة مقنع. كم من المرات كنت قد لعبت ورقة العواطف تلك مع الناس؟"

إن هذه المرأة تعرف الكثير عن شؤونها. وهو سبب يجذبها إليها وينفّرهما منها. ثم أن إحساسهما بالحرارة والعشيرة كان جزءاً من العلاقة التي جمعت بينهما. هنا كان المكان الذي استطاعت أن تشعر فيه يوماً بذاتها الحقيقية. "كان يعرف ما يتضمنه الأمر عندما وافق على الزواج مني. لكنه كان طموحاً مثلك. لقد أراد الحصول على الأطماع والمزايا، وها أنا قد اعطيتهما له."

"كم هي صعبة حياة من يعيش ليكذب."

"لكنك تفعلين هذا."

هزّت كارين رأسها معترضة. "لا يا إيرينا. بل إنني أعرف نفسي." بدت الكلمات كأنها تستنزف قواها فأنصتت لتسحب أنفاساً قليلة عميقة قبل أن تقول: "لَمْ لا تقومين بقتلي؟"

بعض أنفاس كارين القديمة كانت قد تسالت عبر نبرتها القارسة. إن الإقدام على قتل هذه المرأة لم يكن يوماً خياراً يمكن طرحه للتفكير. أما إنقاذ حياتها... فإنه قد يكون هو الهدف. لقد بخلَ القدر على أخيل بفرصة تمكّنه من إنقاذ باتروكليس. كما أن مثل هذا الإخفاق، قد كلّف الإسكندر الكبير حبه عندما مات فستيشيون. أما هي فلا يسعها أن تقع ضحية للأخطاء ذاتها.

"هل تعتقدين جادة أنّ أيّ شخص يستحق هذا؟" شقت كارين قميص نومها. فانفجر القميص عن أزرارٍ لؤلؤية متناثرة فوق الشراشف. "انظري إلى صدري يا إيرينا"

وكان من الصعب عليها رؤية ما رآته. فم منذ عودة كارين كانت إيرينا قد درست عن مرض الإيدز فعرفت أن هذا المرض يؤثر في الناس بطرق مختلفة. بعضهم يعاني من أمراض باطنية. من العمى، إلى التهاب غشاء القولون، إلى الإسهال الحاد الذي يهدد الحياة، إلى التهاب الدماغ، إلى السل، لكن الأسوأ من كل ذلك هو مرض ذات الرئة. أما البعض الآخر فيجري نخسهم من الخارج كأن يمتلئ جلداهم بغرّين كابوزي، أو أن يجتاحهم العقبول الجلدي، أو أن ينهكهم الهزال الشديد حيث يلتصق الجلد في نهاية الأمر بالعظام لا محالة. أما كارين فيبدو أنها قد نالت خليطاً من كل هذه الإصابات جميعاً.

"هل تذكرين كم أنني كنتُ جميلة؟ بشرتي الناعمة؟ لقد كنتُ تتعبدين جسدي."

وكانت هي تتذكر ذلك. "غطّي نفسك."

"ألا تتحملين رؤية ما ترين؟"

لم تجبها بشيء.

"تتبرزين حتى تؤلمك مقعدتك يا إيرينا، ولا تستطيعين النوم، ولا تنفك معدتك في عقدة دائمة، وإني أنتظر في كل يوم ما هو الالتهاب الجديد الذي سيفرّخ في جسدي. إنه جحيم لا يطاق."

كان قد سبق لها وإن دفعت تلك المرأة من باب الطوافة لتلقى حتفها، كما أنها سبق لها وأن أمرت بتصفية عددٍ لا يحصى من أخصامها السياسيين. وقد تمكنت من تأسيس دولة اتحادية من خلال حملة خفية من التصفيات التي جرى تنفيذها بواسطة الاغتيالات البيولوجية التي ذهبت بأرواح الألوفا. ولم يكن موت كل هؤلاء قد عنى شيئاً بالنسبة إلى إيرينا. أمّا أن تموت كارين، فذلك شيء مختلف تماماً. وكان هذا هو السبب الذي جعلها تسمح لها بالبقاء. كما أنه كان السبب الذي جعلها تزودها بالأبوية الضرورية لإبقائها على قيد الحياة. ولقد كانت قد كذبت على الطلبة عندما سُئلت عن نقطة ضعفها. فنقطة ضعفها هنا، وربما تكون هذه هي نقطة ضعفها الوحيدة.

ابتسمت كارين ابتسامة ضعيفة. "كلما جئت مرة أقرأها في عينيك. إنك تهتمين لأمرى." التقطت كارين ذراعها بيد معروقة. "تستطيعين مساعدتي، أليس كذلك؟ تلك الجرائم التي تلاعبت بها منذ سنوات. كان لا بدّ لك من أن تتعلمي منها شيئاً ما. لا أريد أن أموت يا إيرينا."

جاهدت لتبقي مسافة عاطفية فاصلة بينهما. أخيل والإسكندر كانا قد سقط كلاهما لأنه فشل في أن يفعل ذلك. "سوف أصلي للآلهة من أجلك."

بدأت كارين بالضحك، ضحكة من حنجرتها ممزوجة بغرغرة البلغم. ضحكة قد أدهشتها وتسببت لها بالألم معاً.

وبقيت كارين تضحك.

هربت من غرفة النوم مسرعة نحو الباب الخارجي للمنزل.

إن تلك الزيارات ليست سوى أخطاء. لن يكون هناك المزيد من هذه الزيارات. ليس الآن على الأقل. هناك الكثير مما هو على وشك الحدوث.

وكان آخر شيء سمعته قبل مغادرتها الصوت المؤلم لكارين وهي تشرق بلعابها.

www.rewity.com
RAYAHEEN

الفصل السادس والعشرون

البنديقية

الساعة 8:45 مساء

دفع فينسينتي أجرة قارب التاكسي ثم ترجل إلى الرصيف واتخذ طريقه نحو سان سيلفا الذي هو واحد من فنادق الدرجة الأولى في البنديقية. ليس في هذا الفندق تقديمات خاصة في أيام عطل نهاية الأسبوع، ولا حسومات خاصة. وهو يتألف من خمسة وأربعين جناحاً خاصاً لا غير من الأجنحة الفاخرة المشرفة على الغراند كانال، وهو يقوم في مبنى كان يوماً مسكناً لأحد الدوقات. أمّا بهوّه الفسيح فكان يعكس فساد العالم القديم وانحلاله. أعمدة رومانية، رخام معرّق، ومتحف للأكسسوارات المتعلقة بالحياة المتميزة. أما أرجاؤه المحيطة فتعجّ بحركة الناس والنشاطات والصخب.

وكان بيتر أوكوئيّه يجلس في انتظاره في مختلى هادىء. لم يكن أوكوئيّه عسكرياً متقاعدًا ولا عميلاً سابقاً للشرطة السرية. لقد كان مجرد رجل ذي موهبة في جمع المعلومات، مضافة إلى ضمير يكاد يكون منعدم الوجود.

صحيح أن من عادة شركة فيلوجين فارماسيتيك أن تنفق الملايين سنوياً على عدد كبير من رجال جماعاتها الأمنية الخاصة بها. وذلك من أجل ضمان وحماية أسرارها المهنية وحقوق براءاتها وعلاماتها المسجلة. لكن أوكوئيّه كان يرتبط مباشرة بـ: فينسينتي. فهو عينه وأذنه الشخصية التي تعطيه ميزة القدرة على تنفيذ كل ما يلزمه من إجراءات تحمي مصالحه، وهي ميزة بانخة الأهمية.

وكان فينسينتي سعيداً برجله هذا.

فمنذ خمس سنوات كان أوكونييه هو الرجل الذي عمل على وضع حدٍّ لتمرُّد نشأ في صفوف جسم كبير من حَمَلَة أسهم شركة فيلوجين بسبب قرار فينسينتي بمدِّ نشاطات الشركة بشكل أكثر عمقاً في وسط آسيا. أمّا منذ ثلاث سنوات عندما حاولت شركة أدوية أمريكية منافسة عملاقة أن تدخل في مساعٍ للاستيلاء العدائي عن طريق الشراء على نصيب من أسهم شركته، فإن أوكونييه قام بحملة لترويع أعداد كافية من حاملي الأسهم لمنعهم من أيِّ محاولة للتفريط بأسهمهم عن طريق الاستجابة لعروض شراء لتلك الأسهم بالجملة. أمّا في وقت قريب مضى، عندما واجه فينسينتي تحدّياتٍ لنفوذه في مجلس الإدارة، فإن أوكونييه قام بالبحث عن المعلومات القذرة عن الأنداد وقام بتزويده بها. وكان في تلك المعلومات ما تبين أنه لم يكن كافياً لتهديد عددٍ كافٍ من أعضاء المجلس وابتزاز ما يكفي من أصواتهم للاحتفاظ بمنصبه كمدير عام تنفيذي فحسب بل لنيل ما يكفي من هذه الأصوات لجعله رئيساً منتخباً لمجلس الإدارة أيضاً.

جلس فينسينتي على أريكة جلديّة مذهّبة الأذرع الخشبية. وبعد أن ألقى نظرة سريعة على الساعة الحائطية المعلقة على الجدار الرخامي وراء نُصْد موظف الاستقبال، فقد أيقن أن عليه أن يكون قد وصل إلى المطعم بحلول الساعة التاسعة والرّبع. وحالما انتهى من الجلوس في وضعٍ مريح قام أوكونييه بتسليمه بعض الأوراق المدبّسة قائلاً له: "هذا هو كل ما اجتمع لدينا حتى الآن."

تصفّح بسرعة النسخ المطبوعة المنقولة عن المكالمات الهاتفية والحوارات الشخصية المباشرة، وكلها مستقاة من وسائل استراق سمعٍ إلكترونية تتجسس على إيرينا زوفاستينا. وعندما انتهى من ذلك سأله. "هل هي تسعى وراء ميداليات الفيل تلك؟"

"مراقبتنا الدائمة لها،" قال أوكونييه. "كانت كافية لنا لمعرفة أنها قد أرسلت بعضاً من حُرّاسها الشخصيين للبحث عن تلك الميداليات، ومنهم رئيس هؤلاء الحراس فيكتور توماس الذي يتولى قيادة إحدى فرق البحث بنفسه. بينما ذهب فريق آخر إلى أمستردام. وهم يقومون بإحراق المباني في مختلف أنحاء أوروبا تغطية على سرقاتهم."

وكان فينسينتي يعرف كل شيء عن عصبة حماية زوفاستينا المقدسة. كما

يعرف أن أكثر ما يثير هوسها هو الأشياء المتعلقة ببلاد الإغريق. "وهل تمكنوا من الحصول على الميداليات؟"

"لقد تمكنوا حتى الآن من الحصول على أربع منها على الأقل. ولقد ذهبوا في السعي وراء اثنتين منها يوم أمس. لكنني حتى الآن لم أعرف المحصلة."

لقد كان في حيص بيص من أمره. "نحن بحاجة إلى معرفة ما تقوم بعمله." "إنني جاهدٌ على ذلك. وقد تمكنتُ من رشوة عددٍ قليلٍ من موظفي قصرها. لكن لسوء الحظ فإن الوسائط الإلكترونية لا تعمل سوى عندما تكون هي مقيمة. إنها في حركة دائمة. وكانت قد طارت إلى المختبر الموجود في الصين في وقت سابق." وكان قد عرف سابقاً بحصول تلك الزيارة، عن طريق كبير علمائه، غرانت ليندسي.

"كان عليك أن تشهد سلوكها أثناء عملية محاولة اغتيالها." قال أوكونييه. "لقد حملت بحصانها في اتجاه القاتل المفترض مباشرة، متحدية إياه أن يطلق النار. ولقد كنا نراقب ذلك بواسطة كاميرا طويلة المدى. بالطبع كان لديها رام ماهر قد ركّزته على سطح قصرها ليكون جاهزاً لاصطياد الرجل. لكن مع كل ذلك الاحتراز، فإن الحملَ عليه مباشرة يبقى عملاً مغامراً. أمتأكد أنت أنها لا تمتلك جوزتين بين ساقيهما؟"

ضحك فينسينتي. "لست راغباً في التأكد."

"تلك المرأة مجنونة."

ومن أجل هذا كان فينسينتي قد بدّل رأيه مع الفلورنسي. كان مجلس العشرة قد أمر بإجماع أعضائه باتخاذ بعض الإجراءات الاستقصائية الأولية التي مؤداها أنه قد يكون ثمة حاجة لتصفية زوفاستينا، وقد تم الاتصال بالفلورنسي لتكليفه بالأعمال التمهيدية الاستكشافية. إلا أن فينسينتي قرر منذ البداية أن يستعمل خدمات الفلورنسي إلى آخر مدى ممكن في لحظة قرارٍ منه متعجّل، ذلك لأن قيامه بإنجاز ما كان قد خطّط له بصورة شخصية يقتضي منه إزاحة زوفاستينا. وهكذا، فإنه وعد الفلورنسي برشوة كبيرة جداً إذا استطاع أن يدبر أمر قتلها.

لكن فكرة أخرى أفضل من الأولى ما لبثت أن تفتت في ذهنه.

فلو أنه قام بالكشف عن خطة الاغتيال المدبرة، لعل من شأن ذلك أن يُهدم أية مخاوف تختزنها زوفاستينا بشأن مدى الثقة التي يجب أن تضعها في العصابة. الأمر الذي سيوفر له وقتاً إضافياً لتدبير ما هو أفضل من خطة الاغتيال. خطة كان يحبك بها عقله طيلة الأسابيع القليلة الماضية. خطة أفضل. أكثر دهاء. وأخف عاقبة.

"لقد قامت بزيارة جديدة إلى البيت"، قال له أوكونييه. "إذ أنها انسلت منذ وقت قليل إلى خارج قصرها بمفردها في سيارة. وقد سجلت كاميرات معلقة على الأشجار تلك الزيارة التي استمرت نصف ساعة."

"أتعرف كيف هي الحالة الصحية الحاضرة لمحظيتها السابقة؟"

"إنها لا تزال على حالها. لقد استمعنا إلى حديثهما معاً بواسطة شاشة مراقبة ذات قطع مكافئ منصوبة في منزل مجاور. إنهما طاقم غريب يجري بينهما الحب والكره في آن معاً."

لقد وجد الأمر لافتاً للاهتمام أن تكون تلك المرأة التي استطاعت أن تحكم بيد من حديد، وبسلطة لا يقيدُها قيد، تختزن في الوقت نفسه مثل هذا الشغف. كانت قد تزوجت لسنواتٍ قليلة من رجل يحتل مركزاً متوسطاً في السلك الدبلوماسي للحكومة الكازاخستانية السالفة. وبالطبع كان ذلك مجرد زواج لتأمين المظهر الخارجي. طريقة للتستر على ميولها الجنسية المشبوهة. ومع كل هذا، فإن التقارير التي اجتمعت له تفيد عن علاقة ودية بين زوجة وزوجها. ولقد مات الزوج في حادث سير مفاجئ منذ سبع عشرة سنة. بعد أن أصبحت هي رئيساً لكازاخستان. وقبل نجاحها في دمج الاتحاد بعامين. ثم بعد ذلك ببضع سنوات ظهرت كارين وايلد التي حافظت على العلاقة الشخصية المتبادلة الوحيدة مع زوفاستينا لمدة طويلة. إلا أن تلك العلاقة قد وصلت أيضاً إلى نهاية سيئة. ومع ذلك، فإن كارين قد عادت إلى الظهور من جديد في حياة زوفاستينا التي بادرت على الفور إلى إيوائها وتوفير العلاجات المضادة اللازمة لها للعلاج من مرض نقص المناعة المكتسبة الذي أصابها، وهي تقوم بتأمين العلاجات اللازمة لها، بواسطة فينسينتي نفسه.

"هل نبادر إلى التنفيذ؟" سأل.

هزُّ أوكونييه رأسه بالموافقة. "تريثُ أكثر من هذا القدر وقد ترى أن الألوان قد فات." "

"إذا، رتب الأمر. فإنني ساكون في الاتحاد مع عطلة نهاية الأسبوع." "

"لكن الأمر قد يصبح معقداً."

"حتى وإن يكن. لكن لا تترك أيَّ بصمات. لا تترك أيَّ إشارة يمكن أن تقود إليّ."

الفصل السابع والعشرون

أمستردام

الساعة 9:20 مساءً

كانت ستيفاني قد خبرت الحياة من قبل، في داخل سجن دانماركي عندما تمَّ اعتقالها واعتقال مالون في الصيف الماضي. وها هي الآن تزور زنزانة في سجن دانماركي آخر. ليس هناك كبير فرق بينهما. ومن حسن حظها أنها بقيت صامتة عندما وصل رجال البوليس إلى الجسر، وعثروا على جثة الرجل الميت. وقد تمكن كلٌّ من عميلي الشرطة السرية من الهرب، وكان كل أملها أن يكون العميل الذي قفز إلى الماء قد تمكن من استرجاع الميدالية. ومع هذا، فإن شكوكها قد تأكدت الآن. فكاسيوبيا وثورفالدسن كانا منخرطين في ما هو أبعد من أن يكون مجرد عملية جمعٍ للقطع النقدية.

فُتح باب غرفة التوقيف، ودخل منه رجلٌ نحيف في بداية العقد السادس من عمره. كان له وجه صارم مستطيل وشعر كثٌ فضي. ولم يكن الرجل سوى إيوين دايفيس المستشار المعاون لرئيس الجمهورية لشؤون الأمن القومي. وكان هو الشخص الذي حلَّ محلَّ لاري دالي، ويا له من تغيير. فقد كان دايفيس قد استُقدم من الولايات المتحدة وهو رجل نو تاريخ مهني ويحمل شهادتي دكتوراه واحدة في التاريخ الأمريكي، والثانية في العلاقات الدولية، هذا إلى جانب قدرات تنظيمية ومواهب دبلوماسية فطرية. وكان يستخدم أسلوباً كيّساً ثعلبياً شبيهاً بأسلوب الرئيس دانيالز نفسه، ذلك الأسلوب الذي طالما لم يقدره الناس حق قدره. وكان ثلاثة وزراء خارجية قد استعانوا بالرجل من أجل تقويم شؤون وزاراتهم المعتلة تقويماً حاسماً. أما الآن فإنه يعمل مع البيت الأبيض على مساعدة الإدارة على تصريف

شؤون السنوات الثلاث الأخيرة من فترة الولاية الرئاسية الثانية.

"كنت أتناول العشاء مع الرئيس في ال: هُوج، يا له من مكان، وكنا نستمتع بمسائنا. فالطعام كان رائعاً، وإني بالمناسبة لا أحسب نفسي شخصاً نيقاً في خبرته في تذوق الأطعمة. وقد أحضروا لي ملاحظة مكتوب عليها: أين أنت موجودة فقلت في نفسي: لا بد من أن يكون ثمة تفسير منطقي لوجود ستيفاني نيل في معتقل هولندي بعد أن وُجد معها سلاح ناري بالقرب من جثة رجلٍ ملقاة تحت المطر." فتحت فمها لتفوه بالكلام لكنه كان قد رفع لها يده إشارة السكون.

"إن الأمور تتحسن."

جلست هادئة في ثيابها المبللة.

"وفيما كنتُ أفكر أنه لا يمكنني في الواقع أن أترك في هذا المكان، لأنني متأكد إلى درجة منطقية بأنني لا أريد أن أعرف لماذا أنت هنا في أمستردام، لكن الرئيس شخصياً قد انتحى بي جانباً وطلب مني القدوم إليك. إذ يبدو أن عميلين سريين آخرين هما أيضاً متورطان لكن أياً منهما ليس تحت الاعتقال. وقد كان أحدهما منتقع الثياب بالماء بسبب قيامه بالسباحة في القنال من أجل استعادة هذا الشيء.

التقطت ما كان قد رماه نحوها فرأت الميدالية من جديد. الميدالية التي عليها نقش الفيل. وهي محررة في دريئة بلاستيكية.

"كما أن الرئيس قد أجرى اتصالاته مع الجهات الهولندية اللازمة، وها أنت الآن ستكونين حرة طليقة."

وقفت من فورها. "ولكن قبل أن تغادري، أريد أن أعرف عن هذين القتيلين."

"وحيث أنني عارف بأنك ستقولين هذا. فإنني قد وجدت أن كلاهما يحمل جواز سفر تابع لاتحاد آسيا الوسطى. وبعد البحث، تبين أنهما تابعان لقوة الحراسة الشخصية التابعة لدولة رئيس الوزراء إيرينا زوفاستينا."

وقد استطاعت أن تقرأ شيئاً ما، في عينيه. فقراءة وجه دايفيس هذا، هي أسهل من قراءة وجه سلفه دالي. "ألا يصدّمك هذا؟"

"ثمة أشياء قليلة أخرى تهمني أكثر." صار صوته الآن خفيضاً بما يشبه الهمس. "لدينا مشكلة يا ستيفاني، ولحسن الحظ، أو لسوءه - وهذا يعتمد على وجهة نظرك - فإنك جزء من هذا الأمر."

لحقت دايفيس إلى جناح الرئيس في الفندق. كان الرئيس داني دانيالز مضطجعا على كنبه وهو يلف جسمه ببرنس حمّام، ويريح قدميه على طاولة مذهّبة ذات غطاء من زجاج. كان رجلاً فارغ الطول وله فروة كبيرة من الشعر الأشقر فوق رأسه. أمّا صوته فمدوّ، وأما أسلوبه فباعث على الهدوء وامتصاص الغضب. ومع أنها كانت قد عملت له مدة خمس سنوات من قبل، فإنها لم تلتق به سوى مرة واحدة في الخريف الماضي لمناسبة الفضيحة التي رافقت مسألة المكتبة المفقودة في الإسكندرية. وقد قام يومها بصرفها من العمل ثم بإعادة استخدامها. وكان دانيالز يحمل في إحدى يديه كأساً من شراب ما، ويحمل في يده الثانية جهازاً للتحكم الإلكتروني عن بعد.

"ليس هناك من شيء واحد يستحق المشاهدة على هذا التلفاز سوى ما هو مترجم، أو مقدّم بلغة لا أحسنها، كما أنني لا أطيق متابعة محطتي الـ: بي بي سي. والـ: سي. أن. أن. أكثر من هذا القدر. فهما لا تنفكان عن تكرار الخبر ذاته مرة تلو الأخرى." أطفأ دانيالز الشاشة وأخذ جرعة من شرابه، ثم قال لها: "سمعت أنك قد كان لك وظيفة أخرى خلال الليلة الماضية."

التقطت ذلك البريق في عينيه. "يبدو أنها طريقي إلى النجاح."

أشار لها بالجلوس فجلست. وقف دايفيس متنحياً جانباً.

"لديّ لك المزيد من الأنباء السيئة." قال لها دانيالز. "عميلتك في البندقية مفقودة. لم يسمع أحد شيئاً منها منذ اثنتي عشرة ساعة. وجيرانها في المبنى الذي تتمركز فيه أقادوا أنهم قد شعروا باضطراب عند صبيحة هذا اليوم. أربعة رجال. وعملية خلع باب بالطبع، وما من أحد استطاع أن يرى رسمياً أي شيء. إيطاليون نمونجيون." رفع إحدى زراعيه في انفعال. "إنني أرجوكم بحق السماء ألا تورطوني." صمت الرئيس قليلاً وقد امتقع وجهه. "لا شيء من كل هذا يبشر بالخير."

كانت ستيفاني قد استعارت خدمات ناومي جونز لصالح البيت الأبيض الذي احتاج إلى بعض الاستطلاعات الميدانية عن رجلٍ مثير للاهتمام يدعى أنريكو فينسينتي، وهو ممول عالمي تربطه علاقات بتنظيم يدعى عصبة البندقية. وكانت هي تعرف تلك الجماعة التي هي واحدة من عدد لا يحصى من الكارتلات المالية المنتشرة في أنحاء العالم. وكانت ناومي قد عملت من قبل مع ستيفاني لعدة سنوات. وقد كانت هي العملية التي قامت باستجواب لاري دالي. وكانت قد تركت فرقة "بيليه" في السنة الماضية لتعود وتلتحق بها من جديد. وقد سُرَّت ستيفاني بذلك. كانت ناومي عميلة جيدة، وكان من المفترض أن تكون المهمة الاستطلاعية التي كُلِّفَتْ بها، مهمة قليلة الخطر. فهي تقتصر على مجرد تسجيل اللقاءات والتحيات. وكانت ستيفاني قد وصلت إلى درجة أن تطلب منها تمضية يومين في إيطاليا بعد الانتهاء من مهمتها.

وها هي الآن قد تكون ميتة.

"عندما طلبتُ استعارتها كان جماعتكم قد قالوا لي إن هذه المهمة تقتصر على جمع بعض المعلومات."

لم يُجبها أحدٌ. وبقيت نظرتها متنقلة بين الرجلين.

أشار دانيالز. "أين هي الميدالية؟"

قامت بتسليمها إليه.

"أتريدون أن تخبريني شيئاً عنها؟"

شعرت بالتكدر. إن ما كانت تريده هو حمام ساخن، وقسطٌ من النوم. لكنها أيقنت أن ذلك ليس متاحاً لها الآن. كانت تكره أن تكون في موقف المستجوب. لكنها الآن أمام رئيس الولايات المتحدة، وهو قد قام بإنقاذها. لهذا، فإنها شرحت له أمر كاسيوبيا وثورفالدسن، ومسألة ردّ الجميل. وقد أصغى الرئيس بانتباه غير عادي، ثم قال: "أخبرها يا إدون."

"كم هو مبلغ ما تعرفينه عن رئيس الوزراء زوفاستينا؟"

"أعرف ما يكفيني لأجزم أنها ليست صديقة لنا."

استعاد ذهنها المنهك كل ما له علاقة من تاريخ زوفاستينا بالحديث الجاري. فوجدت أن رئيس الوزراء قد ولدت لوايلدين من أفراد الطبقة العاملة في شمالي كازاخستان، وقد قضى وائلدها وهو يحارب ضد النازيين في جيش ستالين. ثم ما لبثت هزة أرضية أن قتلت أمها وما تبقى من أقاربها المباشرين بعد انقضاء الحرب مباشرة. وهكذا ترعرعت زوفاستينا في دار للأيتام إلى أن قام أحد أقارب وائلدها غير المباشرين بضمها إليه. وقد صارت في نهاية الأمر باحثة اقتصادية ثم انضمت إلى صفوف الحزب الشيوعي عندما كانت في العقد الثالث من عمرها حيث شقت طريقها إلى رئاسة اللجنة المحلية لممثلي العمال. ثم تمكنت من تأمين مقعد لنفسها في اللجنة المركزية لكازاخستان ثم شقت طريقها بسرعة إلى مجلس السوفييت الأعلى. وقد بدأت تركيز نشاطها على مسائل تحسين الأراضي والإصلاحات الاقتصادية إلى أن أصبحت من منتقدي موسكو. وبعد الاستقلال عن روسيا كانت هي أحد أعضاء الحزب الذين رشحوا أنفسهم لمنصب رئاسة البلاد. وبعد أن فشل المرشحان الرئيسيان في أن يحصل أي منهما على الأكثرية اللازمة بموجب الدستور الوطني فإنهما أعلنوا معاً غير مؤهلين لمتابعة المنافسة في جولة الاقتراع الثانية التي ما لبثت أن ربحتها زوفاستينا.

"لقد علمت منذ وقتٍ طويل،" قال دانيالز. "أن المرء إذا احتاج أن يخبر جماعة بأنه صديق لهم، فإن هذا يعني أن تلك الصداقة تعاني من مشكلة كبيرة. وإن هذه المرأة تحسب أننا حفنة من البلهاء. وإنني أرى أننا في غير حاجة إلى أصدقاء من أمثالها."

"لكن ما زال عليك أن تخطب ودّها."

استمتع دانيالز برشفة أخرى من كأسه. "هذا صحيح بكل أسف."

"إن دولة مثل اتحاد آسيا الوسطى لا يمكن أن تُحمل على محل الاستخفاف." أوضح دايفيس. "إنها بلدٌ مسكونٌ بشعبٍ صلب العزيمة، وله ذاكرة طويلة قوية. شعبٌ يملك ثمانية وعشرين مليون رجلٍ وامرأة يمكن أن يكونوا جاهزين تحت السلاح. وهناك ما يقارب المليون ونصف المليون من الشباب الصالح للخدمة العسكرية الإلزامية، سن الذين يمكن تجنيدهم كل سنة. وهذه قوة محاربة لا يمكن إغفال شأنها. ويقوم الاتحاد في الوقت الحاضر

بإنفاق واحد فاصلة إثنين بليون دولار سنوياً على قضايا الدفاع. ولكن هذا رقم لا يقارن مع ما نضخه نحن هناك من الدولارات لأنه رقم يربو على ضعفي المبلغ المذكور.

"إلا أن الأمر المغيظ فعلاً فهو أن الناس يحبونها،" تابع دانيالز كلامه. "فمستوى المعيشة في بلادها قد تحسّن بدرجة تضاعفت ألف مرة. أما من قبل فقد كانت نسبة أربع وستين في المئة من شعبها تعيش في مستوى خط الفقر. وهذه النسبة قد انخفضت الآن إلى ما هو دون الخمس عشرة في المئة. وهذا تقدّم يضارع ما نحققه نحن في بلادنا. وهي تستثمر وتوظف الأموال في جميع المجالات. فمن توليد الطاقة بقوة المياه، إلى القطن، إلى الذهب. وهي مثقلة بالحبوكة وفائض الإنتاج. وتقع دولة الاتحاد في موقع جيو اقتصادي ممتاز. فهي تقع بين روسيا والصين والهند، وسط هذه الدول الثلاث مباشرة. وهي سيدة ذكية أيضاً، وتترعب فوق أضخم خزان لمصادر النفط والغاز الطبيعي في العالم. ثروة كان الروس هم الذين يتحكمون بها في ما مضى، تمام التحكم. ولا يزال الروس مستائين حتى الآن من هذا الاستقلال. لهذا، فإنها عقدت صفقة معهم تباع إليهم بموجبها الغاز الطبيعي بأسعار هي دون أسعار السوق، وهذا ما يجعل الروس دائماً مطأطئي الرؤوس خلفها."

لقد لفت انتباهها إمام دانيال الجيد بشؤون هذه المنطقة.

"ثم،" أكمل الرئيس قائلاً: "منذ بضع سنوات كانت قد أبرمت مع الروس اتفاقية إيجارة طويلة الأجل لقطعة أرض يقوم عليها ما يسمى؛ "بايكونير كوزموس دروم" (قاعدة تتعلق بنشاطات الفضاء الخارجي). وهذا الميناء الروسي لرحلات الفضاء الخارجي يقع في وسط إقليم كازاخستان القديمة ويحتل مساحة ستة آلاف ميل مربع، وتتمتع روسيا الآن بحق الاستعمال الحصري لهذه المساحة حتى العام 2050. وفي المقابل، بالطبع، فإنها قد حصلت على موافقة الروس على شطب بعض الديون الخارجية. وبعد ذلك، فإنها أذهلت الصينيين وأسكتتهم بإقدامها على تسوية نزاع حدودي معهم يعود تاريخه إلى قرون عديدة خلت. هذا نجاح لا يشكو شاكياً بالقياس إلى باحثة اقتصادية عاشت وترعرعت في دارٍ للأيتام."

"وهل لدينا الآن مشاكل عالقة مع زوفاستينا؟" سألت. ومرة جديدة لم يجب أي من الرجلين عن سؤالها. لذلك فإنها غيّرت مجرى أسئلتها. "وما هو دخل أنريكو فينسينتي بكل هذا؟"

"ثمة علاقة تربط بين فينسينتي وبين زوفاستينا،" قال دانيالز. "وهذه العلاقة تقوم من خلال عصابة البندقية. فكلاهما عضو في هذه الجماعة التي تضم ما يزيد عن أربع مئة من الأعضاء. وهي تمثل مبالغ هائلة من الأموال النقدية، ومن الطموح. لكن العصابة ليست مهتمة بتغيير شكل العالم. فكل ما يهتمها في الواقع، هو أن تترك لشأنها. فأعضاء العصابة يكرهون القوانين الحكومية المقيّدة، من أمثال الرسوم، والقوانين الضريبية، كما يكرهونني أنا، ويكرهون كل شيء من شأنه أن يجبرهم على الانتظام والتزام حدودهم. وإن لهم نفوذهم وأدواتهم في عدد كبير من الدول."

رأت أن دانيالز قد تمكّن من قراءة السؤال الذي ارتسم في ذهنها.

هزّ الرئيس برأسه هزة النفي. "كلا ليس عندنا. كما أن الأمر يختلف عما حصل في المرة الماضية. لقد قمنا بالاستقصاء فلم نجد شيئاً. إن اتحاد وسط آسيا هو هدف العصابة الرئيسي."

هنا أوقف دايفيس. "إن كل تلك الستانات كانت مرهقة بالديون الخارجية الثقيلة الناتجة عن السيطرة السوفييتية السابقة من جهة وعن جهودها التي بذلتها للحصول على الاستقلال من جهة أخرى. لكن زوفاستينا قد نجحت في إعادة النظر في تلك الالتزامات المرهقة مع مختلف الدول الدائنة وصارت أجزاء ضخمة من تلك الديون في حكم المشطوبة. لكن تدفقاً جديداً من الرساميل الجديدة لا بدّ من أن يكون له تأثيره المسعف. فما من شيء يعيق التقدّم أكثر من الديون الطويلة الأجل." أنصت قليلاً. "هنالك ثمانية فاصلة ستة من بلايين الدولارات المودعة في مجموعة متفرقة من المصارف المنتشرة حول أرجاء العالم، وقد تمّ تتبّع هذه المبالغ إلى أعضاء عصابة البندقية."

"إنه مبلغ كبير جاهز للرهان في لعبة رهان ضخمة." قال دانيالز.

أيقنت أهمية الأمر، لعلمها أن الرؤساء ليس من شأنهم إطلاق إشارات الإنذار

استناداً على شكوكٍ ضعيفة. "وهل هذه المقامرة على وشك الظهور إلى العلن؟" هزّ دانيالز برأسه أن نعم. "حتى الآن، قامت الشركات المالية المنتظمة تحت قانون اتحاد آسيا الوسطى بامتلاك، أو الإستيلاء على، ما يقارب ثمانين شركة حول العالم، منها شركات دوائية، ومنها شركات عاملة في قطاع تقنية المعلومات، أو صناعة السيارات والشاحنات، أو الاتصالات عن بعد، وهذه جميعاً أمثلة ليس إلّا. وفوق ذلك، فإنهم تمكّنوا من امتلاك أكبر شركة منتجة لأكياس الشاي في العالم. إن غولدمان ساش يتنبأ أنه إذا ما استمر الحال على هذا المنوال فإن الاتحاد قد يصبح ثالث أو رابع أقوى الدول الاقتصادية في العالم، أي أنه سيأتي بعدنا وبعد الصين والهند."

"هذا شيء مخيف،" عقّب دايفيس. "وخصوصاً لأنه أمرٌ يحدث بهدوء تام، أو بأقل قدرٍ ممكنٍ من الضجيج. في العادة ترغب الشركات أن تلعب اللعبة الدعائية الإعلامية مع كل توسّعٍ لها. أمّا هنا فالأمر مختلف، وكل شيء يحدث تحت الغطاء." أشار دانيالز بذراعه. "إن زوفاستينا في حاجة إلى تدفّقٍ مستمرٍ للرساميل من أجل الإبقاء على عجلات حكومتها تدور. نحن لدينا ضرائب. بينما هي لديها العصبة. والاتحاد غنيّ بالقطن والذهب واليورانيوم والفضة والنحاس والرصاص والزنك."

"بل والافيون أيضاً." أكملت كلامه.

"إن زوفاستينا،" قال دايفس. "قد لعبت دوراً مساعداً في مكافحة هذه المشكلة. فالاتحاد هو الآن الدولة ذات الترتيب الثالث في العالم أجمع في مكافحة المخدرات والمستحضرات الأفيونية. لقد تمكّنت من إقفال تلك المنطقة في وجه تجارة تهريب الأفيون. وهذا ما يجعل الأوروبيين مرتاحين إليها. فلا يستطيع المرء أن ينتقدها أمام أحد عبر منطقة المحيط الأطلسي. ولكن هي تقوم بالطبع بمبادلة النفط الرخيص الأثمن، وكذلك الغاز، في مقابل كمياتٍ كبيرة من تلك الموادّ المخدّرة أيضاً."

"هل أنتما على يقين،" قالت. "إن ناومي قد تكون قُتِلَت، بسببٍ من كلّ ذلك؟" كان مجرد التفكير في ذلك كافياً لقلب معدتها. فأن تخسر عميلاً من العملاء العاملين

معها هو أسوأ ما يمكنها تصوُّره. ولحسنِ الحظ فإنه قلَّما كان يحدث ذلك. أمَّا عندما يحصل مثل ذلك الأمر فقد كان دائماً عليها أن تكافح ضد خليط مقلِّقٍ من النعمة والتروِّي.

"إننا على إدراكٍ لمثلِ هذا الاحتمال." قال دايفس. "وهو إن حصل، فلن يمرَّ دون عقاب."

"لقد كانت شديدة القرب من كوتون مالون. إذ أنهما عملاً معاً في مجموعة بيليه في عدة مناسبات. إنهما يشكلان فريقاً متجانساً جيداً. ولسوف يكون مالون في غاية الاستياء."

"وهذا سببٌ آخر من أسباب استدعائكِ إلى هنا." قال الرئيس. "فمنذ ساعاتٍ قليلة مضت، علّق كوتون في وسط حادث حريقٍ حصل في المتحف الإغريقي الروماني في كوبنهاغن. والمكان مملوكٌ من هنريك ثورفالدسن، وقد قامت كاسيوبيا فيت بمساعدته للنجاة من النيران."

"يبدو أنكما على معرفة بأخر تطورات الأمور."

"إن ذلك هو جزء من واجباتي الوظيفية. مع أنني صرت أكثر ضيقاً بهذا الجزء يوماً بعد يوم." لَوَّح دانيالز بالميدالية. "وقد كانت واحدة من الميداليات في داخل ذلك المتحف."

تذكرت الآن ما كان كلُّوس دايرٌ قد قال لها. "ثمانٍ فقط."

أشار دايفيس بإصبع طويلة نحو قطعة العملة. "وهي معروفة باسم ميدالية الفيل."

"أهي شديدة الأهمية؟" سألته.

"هكذا يبدو الأمر." قال دانيالز. "لكننا في حاجة إليك لكي نعرف المزيد عن ذلك."

الفصل الثامن والعشرون

كوبنهاغن

الأحد 20 أبريل/نيسان

الساعة 12:40 بعد منتصف الليل.

التقط مالون بطّانية وأتجه نحو الأريكة الموجودة في غرفة أخرى. فبعد الحريق الذي حصل في الخريف الماضي، وخلال عملية إعادة البناء والترميم، كان قد ألغى بعضاً من جدران الشقة، كما أنه أعاد النظر في موضع البعض الآخر، مصحّحاً بذلك شكل تقسيم المكان بحيث أن الطابق الرابع من مكتبته بات الآن مكاناً أشدّ ملائمةً له من الناحية العملية لكي يستعمله كمكان للسكن.

"لقد أحببتُ أثاث بيتك"، قالت له كاسيوبيا. "إنه مناسب لك." وكان قد أثر الابتعاد عن البساطة الدانماركية فأوصى على كل المفروشات من لندن. كنبّة، وبعض الكراسي والطاولات والمصابيح. أثاث فيه الكثير من الخشب والجلد، وكذلك الكثير من الدفء والراحة. وقد لاحظ أنه قليلٌ ما يتغيّر شيء في هذا الأثاث، ما لم يجد أحدٌ الكتب طريقه إلى الأعلى آتياً من الطابق الأرضي، أو أن تصل صورةٌ فوتوغرافية جديدة لولده غاري بواسطة البريد الإلكتروني فتجري إضافتها إلى المجموعة المتنامية. كان قد اقترح على كاسيوبيا أن ترقد عنده في المدينة بدلاً من أن تعود إلى كريستيان غايد بالسيارة برفقة ثورفالدسن فلم تعارض اقتراحه. وإنّ كان قد انتبه أثناء العشاء من خلال إيضاحاتهما المختلفة له فأيقن أن لدى كاسيوبيا إصبعاً في كل ما يجري من أحداث لا تكف عن ربطها برهاناتها الشخصية في كل ما يجري.

وهو شيء لم يكن ليبشر بالخير.

لقد كان هو بالذات موجوداً هناك في ما مضى، عندما كان ولده غاري مهدداً. جلست عند حافة سريريه. وكانت المصابيح ذات الأعمدة الرشيقة الأنيقة تسكب أنواراً ناعمة ضئيلة فوق الجدران المطلية بلون الخردل. "يقول هنريك إنني قد أكون في حاجة إلى مساعدتك."

"وأنت، ألا توافقيه؟"

"لكنني لست واثقة من موافقتك أنت."

"هل سبق لك أن وقعت في غرام إيلي؟"

دهش لنفسه كيف أقلت منه هذا السؤال. أمّا هي فقد أبطأت الجواب. "من الصعب أن أجزم في ذلك."

لم تشفه الإجابة. "لا بد أنه كان يحتل مكانة خاصة عندك."

"كان إيلي رجلاً خارقاً للعادة. فهو شخصية نكية، أنيقة، حيوية، مرحة. وعندما اكتشف تلك النصوص المفقودة، كان لك أن تتخيله، لتعتقد أنه قد قام باكتشاف قارة جديدة للتو."

"كم بقيتما على صلة متبادلة؟"

"كنا نلتقي من وقت لآخر طيلة ثلاث سنوات."

خبأت عينيها متحاشية النظر إليه من جديد. تماماً مثلما كان عليه حالها بينما كان المتحف يشتعل. لقد كانا شبيهين. كلاهما يحرص على كتم مشاعره - لكن لكل واحدٍ منهما حدوداً في قدرته على المداراة. لقد كان لا يزال يعاني من شعوره اليقيني أن ولده غاري لم يكن من صلبه. بل لقد كان هذا الابن ثمرة علاقة غير مشروعة قد أقامتها زوجته السابقة منذ وقت بعيد. وكانت صورة للولد تجلس فوق إحدى المناضد قرب السرير فوق نظره عليها. وكان قد قرأ قراره أن لا قيمة لأمر الجينات في هذه المسألة. فالولد كان لا يزال ولده وقد توصل مع وإيلدة هذا الولد إلى وفاقٍ معينٍ يحفظ السلام بينهما. ومع هذا، فإن كاسيوبيا بدت كأنها هي الأخرى في صراعٍ مع شياطينها الخاصة. ولقد بدت فظاظه الطبع غير ممسوكة. "ما الذي تحاولين القيام به؟"

تصلبت شرايين رقبتها، وتخشب يداها. "أن أحيا حياتي."

"تحيينها من أجل إيلي أم من أجلك أنت؟"

"وما هو الفرق عندك؟"

لقد كانت على حق في جزء مما قالتة. يجب أن لا يكون لديه فرق في كل حال. فهذه الحرب التي تخوضها، حربها هي، وليست حربيه. لكنه كان قد انجذب نحو هذه المرأة مع أنه من الجلي أنها مهتمة بشخص سواه. وهكذا، فإنه طرد العواطف من ذهنه وسألها: "عمّ تكشفت بصمات فيكتور؟ إذ أنه لم يقم أي منكما بذكر شيء ذلك على العشاء."

"إنه يعمل لمصلحة رئيس الوزراء إيرينا زوفاستينا. فهو يرأس فريق حرسها الشخصي."

"هل كان أي منكما سيخبرني بذلك لو لم أبادر أنا إلى السؤال؟"

هزت كتفيها في عدم اكتراث. "كنا سنخبرك في نهاية الأمر إن شئت أن تعرف." كتم غيظه بعد أن أيقن أنها ترمي إلى توبيخه. "أعتقد أن اتحاد آسيا الوسطى متورط مباشرة في العملية؟" "إن ميدالية الفيل الموجودة في متحف سمرقند الثقافي بقيت أبداً دون مساس يلحق بها." إنه أمر لاف.

"كان إيلي قد اكتشف أول دليل ملموس على مكان وجود قبر الإسكندر المختفي منذ قرون عديدة. وإني أعلم أنه كان قد مرر تلك المعلومة إلى إيرينا زوفاستينا لأنه كان قد أخبرني عن ردة فعلها. إنها مولعة بالتاريخ الإغريقي وبالتاريخ الهيليني. وعندما اكتشف إيلي أحجية بطليموس حول مكان وجود قبر الإسكندر. فإن زوفاستينا قد طار بها الوله والفتون." أنصتت كاسيوبيا قليلاً. لكنه مات بعد أقل من أسبوع واحد من قيامه بإخبارها بذلك." "أعتقد أن مات قتلاً؟"

"لقد احترق منزله إلى الأرض. ولم يبق كثير من البيت ولا من إيلي."

إن الخانات الفارغة تشير إلى علاقة للنار الإغريقية. "وماذا حل بالمخطوطات التي قام باكتشافها؟"

"لقد قمنا ببعض التقصّيات التي كلفنا بها نفراً من الأكاديميين. فتبيّن أنّ أحداً من مسؤولي المتحف لا يعرف شيئاً عنها."

"والآن، يتعرّض المزيد من الأبنية لحوادث إحراق بعد أن يُسرق المزيد من تلك الميداليات."

"نعم، شيء من هذا القبيل."

"وماذا نحن فاعلون حيال ذلك؟"

"لم أقرّر بعد ما إذا كنت في حاجة إلى مساعدتك."

"بل قرّرت."

تفحصته بنظرة شك. "ما هو مبلغ ما تعرفه عن التاريخ الموثق حول قبر الإسكندر؟"

"أعرف أن بطليموس كان قد دفنه بادية ذي بدء في ممفس في مصر، وكان ذلك بعد سنة تقريباً من وفاة الإسكندر. ثم قام ابن بطليموس بنقل الجثمان شمالاً إلى مدينة الإسكندرية."

"هذا صحيح، لقد حصل ذلك بين السنة 283 ق. م. وهي السنة التي توفي خلالها بطليموس، وبين السنة 274 ق. م حيث كان قد تمّ الانتهاء من تشييد ضريح ضخم في حيّ جديد من المدينة، عند تقاطع جأنتين رئيسيتين في محاذاة القصر الملكي. وقد انتهت الأمور إلى إطلاق تسمية: "صوما" على ذلك الضريح، وهي كلمة يونانية تعني "الجسد". وقد كان ذلك الضريح أضخم ضريح في العالم، في أضخم مدينة في الدنيا، في ذلك الزمان."

"لقد كان بطليموس رجلاً نكياً." قال لها. "لقد انتظر حتى وفاة جميع ذرية الإسكندر قبل أن يعلن نفسه فرعوناً. ولقد كان ورثته أنكباء أيضاً. فقد غيّرُوا وجه مصر ليجعلوها مملكة إغريقية. في الوقت الذي أساء فيه رفاق الإسكندر الآخرون التصرف في حكم المقاطعات التي حكموها من مملكته، أو فقدوا سيطرتهم عليها. أمّا

البطالسة فقد استدام حكمهم لمصر مدة ثلاثة قرون. وقد استعملوا ذلك الضريح استعمالاً سياسياً في مصلحتهم."

أومات موافقة إياه. "إنها رواية مدهشة في الحقيقة. إذ أن ضريح الإسكندر قد صار بعد ذلك محجة للناس. ذلك أن قيصر، وأوكتافيوس، وأدريان، وكاليغولا، ودرزينة أخرى من سواهم من الأباطرة قد قديموا للوقوف وقفة إجلال أمام الضريح. ولا بد أنه كان مكاناً مدهشاً. مومياء مغلقة بالذهب، على رأسها تاج ذهبي، مسجاة في ناووس من ذهب، ومحاطة بالعسل الذهبي. ولقد بقي الإسكندر لقرن ونصف قرن من الزمان دون أن يزعجه أحد إلى أن احتاج بطليموس التاسع إلى المال، فأمر بنزع الذهب عن الجثة نزاعاً كاملاً ثم قام بصهر الكفن الذهبي مستبدلاً به تابوتاً من زجاج. وقد بقيت الصوما في الحقيقة صامدة مدة ستة قرون من الزمن. إذ أن ثمة سجل مدون عنها يشير إلى أنها كانت لا تزال موجودة في العام 931 م."

وكان هو يعرف تنمة تلك الحكاية. فقد اختفى مبنى الضريح كما اختفى معه كل ما تبقى من بقايا الإسكندر الكبير. وقد بقي الناس طيلة ستة قرون يفتشون عنه. لكن الفاتح الأكبر بين فاتحي العالم القديم، والرجل الذي كان يجري تبجيله كإله حي، قد تبخر واختفى أثره."

"وهل تعرفين أنت أين هو الجثمان الآن؟" سألها.
"لقد اعتقد إيلي أنه بات يعرف ذلك المكان." بدت كلماتها هنا بعيدة، كما لو أنها تتوجه بها إلى شبح.

"وهل تعتقدين أنه كان مصيباً في اعتقاده؟"
هزت كتفها هزة اللأمتأكد. "نحن عازمون على وجوب الذهاب للتأكد."
"إلى أين؟"

أخيراً نظرت إليه بعينين متعبتين. "إلى البندقية. لكن علينا قبل القيام بذلك أن نحصل على الميدالية الأخيرة. الميدالية التي لا بد من أن يكون فيكتور قد اتجه للاستيلاء عليها في هذا الوقت بالذات."

"وأين هي؟"
"من اللافت أنها موجودة في البندقية أيضاً."

الفصل التاسع والعشرون

سمرقند

الساعة 3:50 بعد منتصف الليل.

ابتسمت زوفاستينا للسفير البابوي. كان رجلاً وسيماً وله شعرٌ أحمرٌ قد وخطه الشيب. وعينان فضوليتان حادتا النظر. لم يكن الرجل سوى المونسينيور الأمريكي كولين فيشنير وهو جزء من البطانة الفاتيكانية التي يقودها البابا الزنجي الأول منذ قرون عديدة. وكان هذا السفير قد قديم في زيارتين سابقتين ليستطلع ما إذا كان الاتحاد يمكن أن يسمح بوجود كاثوليكي، لكنها (زوفاستينا) قامت بزجره وإفشاله في كلتا المحاولتين. ومع أن الإسلام كان هو الديانة السائدة في الاتحاد؛ إلا أن الشعب البدوي المترحل الذي سكن منطقة وسط آسيا منذ عصور خلت، كان دائماً يضع قوانينه وعاداته قبل كل شيء آخر، حتى وإن كان ذلك على حساب الشريعة الإسلامية ذاتها. فالعزلة الجغرافية التي عاشها ذلك الشعب قد أنجبت لديه إحساساً بالاستقلال المجتمعي، المستقل حتى عن الإيمان بالله. ولهذا، فإنها كانت في شك من أن يلاقي الكاثوليكين حتى أي حد أدنى من الترحيب. لكن مع كل ذلك، فإنها ما زالت في حاجة إلى شيء ما، من هذا المبعوث. وها هوذا الوقت قد حان لعقد صفقة معه.

"تبدو لي أنك لست رجلاً من الذين تنشط قواهم أثناء الليل، أليس كذلك؟" سأله بعدما لاحظت التعب البادي على ملامح المونسينيور، والتي لم يبذل سوى القليل من الجهود لإخفائها.

"أليس هذا هو الوقت المخصص بحكم العادة للنوم؟"

"ولكن لن يكون في مصلحتك ولا في مصلحتي أن يرانا أحد نلتقي معاً في رابعة النهار. فكنيستك غير ذات شعبية هنا."

"وهو شيء نريد تغييره."

هزت كتفيها هزة اللامبالاة. "سوف تكون بذلك تطلب من الناس التخلي عن أشياء احتفظوا بها منذ قرونٍ بسبب اعتبارها إنها غالية عليهم. فحتى الدين الإسلامي بقواعده الآمرة ومفاهيمه الأخلاقية ما كان مرة قادراً على عملٍ ذلك. ستجد هنا أن استعمالات الدين لغايات تنظيمية وسياسية، تروق للناس أكثر من فوائده الروحانية."

"إن قداسة البابا لا يريد أن يغير الاتحاد. إن ما يطلبه فقط هو السماح للكنيسة بحرية تتبّع أحوال أولئك الذين يرغبون بممارسة اعتقادنا."

ابتسمت له ابتسامة عريضة. "هل سبق لك وأن قمت بزيارة أحد المواقع المقدسة عندنا؟"

هز رأسه نافياً.

"إنني أشجعك كي تفعل ذلك. فلسوف ترى هناك ما يروق لك من الأشياء الطريفة. فالرجال يقومون بلثم وتمسيد الأشياء المقدسة، بل بالطواف حولها. والنساء يزحفن تحت الحجارة المقدسة تعريزاً لخصوبة أرحامهن. كما أن عليك ألا تتغاضى عن الأشجار التي تستجيب للأمانى، ولا عن القضبان المنغولية التي تحمل جُزراً من شعر الخيول، المغروسة فوق القبور، ولا عن التمائم والتعاويد التي هي شائعة الاستعمال. فالناس يضعون ثقتهم وإيمانهم في أشياء لا تمتُّ بصلة إلى معتقدك المسيحي."

"لكن هنالك عدد متنامٍ من الكاثوليك والمعمدانيين واللوثريين وحتى القليل من البوذيين ممن هم بين أبناء شعبك. يبدو أن البعض من هؤلاء يرغبون في ممارسة شعائر إيمانهم بطريقة مختلفة. أليس هؤلاء المواطنون يستحقون الرعاية نفسها؟

سبب آخر، قدرت في النهاية، يدعوها إلى استضافة هذا المبعوث، هو أن حزب الصحوة الإسلامية، مع أنه حزب محظور منذ عدة سنوات، قد نما في ظل السرية والكتمان، خاصة في وادي فرغانة الواقع في أوزباكستان القديمة. وقد قامت سرّاً

بتعريض كبار مسببي القلق لها في صفوفهم إلى الإصابة بجراثيم مميتة قتلت قادة هذه الحزب. إلا أن الحزب بدا عصياً على الزوال. فلعلّ إفساح المجال أمام المزيد من التنافس الديني الآن، خاصة من مؤسسة كبيرة من أمثال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أمرٌ لا بأس به لأنه لا بد له من أن يرغب الإسلاميين على تركيز نعمتهم على عدوٍ جديد ربما كانوا يعتبرونه أشدَّ تهديداً لهم منها. لهذا، فإنها قالت: "لقد قررتُ أن أمنح الكنيسة منفذاً إلى الاتحاد."

"إنني سعيد بسماع ذلك."

"ولكن بشرط."

هنا فقد الوجه الباسم للقسّ بريقه.

"إنه ليس بذلك الشرط المعجز." قالت له. "في الواقع، ليس لي سوى طلب واحد بسيط. غداً مساءً يجب فتح مقبرة القديس مرقس القائمة في كاتدرائيته في البندقية."

غزت نظرة حائرة عيني المبعوث.

"بالطبع، لا بد أنه قد وصل إلى علمك قصة القديس مرقس، وكيف تحصّل له الأمر حتى صار دفيناً في البندقية؟"

أوما المونسينيور بالموافقة. "في الواقع إن لي صديقاً يعمل في تلك الكاتدرائية، وقد كنت قد بحثت معه أمر تلك القصة."

وكانت هي تعرف القصة. فالقديس مرقس، وهو أحد تلامذة المسيح الإثني عشر، وقد رُسّمه بطرس أسقفاً على الإسكندرية لكنه قُتل على أيدي وثنيي المدينة في العام 67 م. وعندما حاول هؤلاء القيام بإحراق جسده فإن عاصفة ضربت النار. الأمر الذي سمح للمسيحيين بانتزاع الجثة من المحرقة. وهكذا، تم تحنيط جثة القديس مرقس ودفنها بعد ذلك سرّاً حيث بقيت حتى القرن الرابع الهجري. وبعد أن سيطر المسيحيون على مدينة الإسكندرية، فقد تمّ بناء ضريح كبير له صار من القداسة إلى درجة جعل بطاركة الإسكندرية المرسمين حديثاً تجرى مراسم تقليدهم عند ذلك الضريح. وقد استمرّ ذلك المزار باقياً بعد وصول الإسلام وكذلك بعد وصول الغزو الفارسي والعربي، في القرن السابع بعد الميلاد.

أمّا في العام 828 م فإن مجموعة من تجار البندقية ما لبثت أن أقدمت على سرقة الجثمان.

لقد كانت البندقية في حاجة إلى شهادة رمزية على كل من استقلالها السياسي والنيولوجي. فإذا كانت روما تحتضن جثمان القديس بطرس، فإنه لا بدّ للبندقية من أن تحتضن جثمان القديس مرقس. وفي الوقت عينه فإن رجال الدين من كهنة الإسكندرية كانوا في قلق عظيم على آثار المدينة، المقدسة. والحكم الإسلامي بدأ يصبح عدائياً لهم أكثر فأكثر وقد بدأت الكنائس والمزارات تتعرض لأعمال عبث وسرقة. وهكذا، وبتواطؤ من حراس الضريح فإن جثمان القديس مرقس قد تمّ استلّاله سرّاً من القبر وتهريبه إلى الخارج.

لقد راقبت تلك التفاصيل لزوفاستينا.

هكذا تمّ إبدال جثمان القديس كلود القريب من المكان بجثمان القديس مرقس وذلك من أجل التستر على تلك السرقة. وحيث أنه كان من المفترض أن رائحة السوائل المستخدمة في التحنيط كانت قوية ونفاذة، فإنه ومن أجل ثني السلطات من القيام بأعمال التفتيش الذي من عاداتها أن تجريه على حمولات السفن المبحرة فإن طبقات من أوراق الملفوف ولحم الخنزير قد وضعت فوق الجثمان. وقد نجحت تلك الحيلة تمام النجاح. حيث فرّ المفتشون المسلمون في هلع واشمئزاز من وجود لحم الخنزير. ثم جرى لفّ الجسد بعد ذلك بقمّاش القنب ثم رُفع بعد ذلك إلى مركب شرعي يفترض أنه عائد إلى إيطاليا. وقد تكفّلت زيارة لشبح القديس مرقس بحماية القارب من الغرق بعد أن تعرّض المركب لعاصفة في البحر.

"وفي الحادي والثلاثين من شهر يناير/كانون الثاني من العام 828م تمّ تقديم جثمان القديس مرقس إلى دوق البندقية." قالت له. "وقد قام الدوق بإيواء الذخائر المقدسة في قصره، لكنها ما لبثت أن اختفت في نهاية الأمر، لكي تظهر من جديد في العام 1094م عندما تمّ الانتهاء من بناء كاتدرائية القديس مرقس الجديدة، وتكريسها على اسمه. وقد بقيت بقايا القديس مرقس منذ ذلك الوقت في سرداب واقع تحت تلك الكنيسة، لكنها نُقلت إلى الطابق العلويّ منها في القرن التاسع عشر لتستقر تحت المذبح العالي حيث هي موجودة في هذه الأيام. هنالك الكثير من الثغرات في تاريخ ذلك الجثمان. ألا توافقني الرأي؟"

"هذه هي الحال دائماً مع الآثار وايلدمن."

"أربع مئة سنة في الإسكندرية، ثم من جديد حوالي ثلاث مئة سنة في البندقية، كان جثمان القديس مرقس مفقوداً خلالها."

هزّ السفير البابوي بكتفيه. "إنه الإيمان يا دولة رئيس الوزراء."

"الإسكندرانيون بقيوا مستائين من تلك السرقة على الدوام." قالت. "خاصة الطريقة التي بقيت فيها البندقية لمدة قرون تمجّد هذا العمل مسبغة على اللصوص الذين قاموا بها صفة رسل يقومون بمهمة مقدّسة. كفانا الآن فأنت وأنا نعرف أن المسألة برمتها كانت عملاً سياسياً. لقد كان بحّارة البندقية يسرقون كل ما يقع تحت أيديهم من جميع أنحاء العالم. لقد كانوا قمامين نهّابين على نطاق واسع. ولربما كان جثمان القديس مرقس هو أقيم ما قاموا بنهبه من أسلاب. فالمدينة بكاملها ما تزال حتى اليوم تدور حول ذلك الجثمان."

"إذاً ما الذي يدعوهم لفتح القبر؟"

"إن قساوسة ووجهاء الأقباط، بالإضافة إلى الكنائس الأثيوبية، يريدون استرجاع رفات القديس. وفي العام 1968 قام بابا كنيستكم بول السادس بإعطاء بطريك الإسكندرية قليلاً من الذخائر من أجل إسكاتهم. لكن تلك الذخائر أتت من الفاتيكان وليس من البندقية. لذلك فإن ذلك التدبير لم يفلح. إنهم يريدون استرجاع الجثمان وقد ناقشوا ذلك الأمر طويلاً مع روما."

"لقد عملتُ كسكرتير بابوي للبابا كليمنت الخامس عشر، ولي علمُ بترك النقاشات."

لقد كانت قد ساورتها شكوكٌ طويلة أن هذا الرجل ليس مجرد مبعوث بابوي. إذ يبدو أن البابا الجديد يختار مبعوثيه بعناية شديدة. "إن أنت على علم بأن الكنيسة لن توافق على تسليم ذلك الجثمان. لكن بطريك البندقية قد وافق بعد أخذ الإذن من روما على إجراء مساومة - وهذا جزء من تسوية يجريها البابا الزنجي مع العالم. جزء من الرفات الموجود في المقبرة تجري إعادته. وبذلك الطريقة يبقى الطرفان مكتفيين. لكن هذه مسألة دقيقة الحساسية، خاصة بالنسبة إلى أهل البندقية. أيجوز أن يجري إزعاج عظام قديسهم؟! هزّت رأسها. "من أجل ذلك سوف يجري

فتح المقبرة في الليلة التالية وبشكلٍ سرّي. وسوف تجري إزالة بعض البقايا. ثم يعاد إغلاق النافوس ولا يتذاكى أحدٌ قبل أن يجري الإعلام بوصول الهدية بعد بضعة أيام.

"إن لديك معلومات بقيقة."

"إنه موضوع يثير اهتمامي. لأن الجثة الموجودة في تلك المقبرة هي ليست جثة القديس مرقس أبداً."

"إذاً هي جثة من تكون؟"

"دعنا نقول إنها جثة الإسكندر الكبير التي كانت قد اختفت من الإسكندرية في القرن الرابع في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهر فيه جثمان القديس مرقس من جديد. لقد كان القديس مرقس يُزار في جسده الأصلي في ضريح الإسكندر (الصوما) التي كان يجري توقيرها على أساس أنها ضريح الإسكندر. مثلما كان عليه الحال مع الإسكندر في القرون الستة التي سبقت ذلك. إن علمائي كانوا قد محصوا مختلف النصوص القديمة. نصوص لم يرها العالم بأسره مرة من قبل."

"إذاً أنت تعتقدين أن الجثمان الموجود في كاتدرائية البندقية يعود في الواقع إلى الإسكندر الكبير؟"

"أنا لا أقول شيئاً. إن تحليل الحمض النووي هو وحده الذي يستطيع أن يقرّر العرق. لقد وُلد القديس مرقس في ليبيا لوايلدين عربيين. أما الإسكندر فقد كان إغريقياً. ولا بد من أن يكون ثمة فروقات كروموزومية بارزة. كما أنني علمت أن هنالك دراسات نظائر للأسنان، ودراسات للتصوير الشعاعي الطبقي، ودراسات لعمر الكربون تستطيع أن ترشدنا إلى الكثير. فالإسكندر توفي في العام 322 ق. م. أما القديس مرقس فقد توفي في القرن الأول الميلادي، وهنا أيضاً لا بد من وجود فروقات علمية بين الجثتين."

"هل تنوين تشويه الجثمان أو انتهاك حرمة؟"

"ليس إلى درجة أكثر مما تخططون أنتم لذلك. قل لي: ما الذي هم ذاهبون إلى اقتطاعه منه؟"

فكّر الأمريكي في عبارتها. يبدو أنها شعرت مبكراً أنه قد عاد إلى سمرقند هذه المرة وهو يحمل تفويضاً وصلاحيات تفوق ما كان يحمله في السابق. وقد جاء الوقت للتأكد من صحة ذلك. "إن كل ما أحتاج إليه، هو مجرد دقائق قليلة أختلي خلالها بنفسني مع التابوت المكشوف. فإذا قمت بإزالة أي شيء عن مكانه، فإن الأمر لن يلاحظ أبداً. وفي مقابل ذلك فإن الكنيسة يمكن لها التحرك بكل حرية في جميع أرجاء الاتحاد، وأن تراقب كيف يجري تعامل كثير من المسيحيين مع رسالتها. أما مسألة القيام بتشديد أي بناء، فيجب أن يقترن أولاً بموافقة حكومية مسبقة. وسبب هذا التدبير عائد إلى ضرورة حمايتكم بقدر ما هو عائد إلينا. فإذا لم تعالج مسألة بناء الكنائس بروية وعناية، فلا بد لها من أن تستثير الكثير من القلاقل والعنف."

"وهل تنوين السفر إلى البندقية بنفسك؟"

أومأت له بالإيجاب. "أرغب في زيارة صامتة غير لافتة للنظر يقوم بترتيبها لي حبركم الأعظم. وقد نمي إلي أن الكنيسة تملك علاقات كثيرة وثيقة مع الحكومة الإيطالية."

"أنت تدركين ذلك، ففي أحسن الحالات، يا دولة رئيس الوزراء، فإن أي شيء يمكن لك أن تجديه هناك سوف يكون أشبه بالأكفان التي تتحدث عنها خرافات مدينتي تورين أو ماريان، إن المسألة كلها هي مسألة اعتقادات."

لكنها عرفت أنه قد يكون ثمة شيء ما، حاسم أيضاً. ما الذي كتبه بطليموس في أحجيتة؟

'لامس قدس أقداس الوهم المذهب'

"مجرد دقائق قليلة أكون فيها وحدي. هذا هو كل أطلبه."

بقي المبعوث البابوي صامتاً.

انتظرتة.

"سوف أرسل تعليماتي إلى البطريرك في البندقية لكي يمنحك الوقت الذي تطلبينه."

لقد كان حدسها في مكانه. فهو لم يعد هذه المرة صِفَرَ اليدين. "هل هذه سلطات كبيرة بالقياس إلى مجرد مبعوث."

"بعد منتصف ليل الأربعاء بنصف ساعة سوف نقوم بإعلام السلطات الإيطالية أنك قادمة لأداء مهمة شخصية بدعوة من الكنيسة."

أومات موافقة.

"سوف أرتب الأمور لك لدخول الكاتدرائية من خلال مدخل بورتادي فيوري المؤدي إلى الردهة القريبة. وفي تلك الساعة سوف يكون القليل من الناس في الساحة العامة. هل ستكونين بمفردك؟"

كانت قد تعبت من ذلك الكاهن الفضولي. "إذا كان مثل ذلك الأمر يهتمكم جداً فمن الأفضل لك أن تنسى كل ما قلناه."

لاحظت أن المونسينيور قد التقط شعورها بالانزعاج.

"يا دولة رئيس الوزراء بإمكانك أن تحضري معك كل من تشائين إحضاره. إن الحبر الأعظم يتمنى لك بكل بساطة أن تكوني منسحرة."

الفصل الثلاثون

هامبورغ - ألمانيا

الساعة 1:15 بعد منتصف الليل

جلس فيكتور في حانة الفندق، بينما كان رافائيل في الغرفة في الطابق الأعلى. لقد كان نائماً فقد قابوا سيارتهم جنوباً من كوبنهاغن خلال الدانمارك إلى شمالي ألمانيا. وكان هذا المكان في مدينة هامبورغ هو المكان المتفق عليه للقاء مرتب سلفاً مع عضوين من العصابة المقدسة كانا قد أرسلوا إلى أمستردام لاستعادة الميدالية السادسة. وكان من المفترض بهما أن يصلا إلى هذا المكان في وقت ما، خلال هذه الليلة. كان هو ورافائيل قد توليا أمر بقية السرقات. لكن استحقاقاً زمنياً نهائياً كان يوشك بالحلول. ومن أجل ذلك، فإن زوفاستينا قد أنزلت فريقاً ثانياً إلى الحلبة.

كان يعالج كأساً من الشراب، ويستمتع بالهدوء. وكان ثمة القليل من الزبائن الموجودين في المقصورات المقتصدة الإضاءة.

لقد كان أداء زوفاستينا يزداد مضاءً في أجواء الشدة. فلطالما ألفت إبقاء الناس مشدودين عند حافة أعصابهم. فهي مقتصدة في المدح معتادة على الانتقاد. فمن موظفي قصرها، إلى أفراد العصابة المقدسة القائمة على حراستها الشخصية، إلى أعضاء مجلس وزرائها، لم يكن أحد يرغب في أن يخيب أملها. لكنه كان قد سمع ما يُحكى من وراء ظهرها. ومن اللافت أن تكون امرأة مثلها ماهرة في الإمساك بالسلطة، إلى هذه الدرجة من الغفلة عن النعمة التي يجريها الاستثناء. فالولاء الضحل ليس سوى وهم خطير. ولقد كان رافائيل على حق. لأن ثمة شيئاً ما على وشك الحدوث. وكرئيس للعصابة المقدسة، كان فيكتور قد رافق زوفاستينا مراراً إلى المختبر القائم في الجبال شرقي سمرقند. وهذا المختبر القائم على الجانب المقابل

من الحدود مع الصين كان مجهزاً بطاقم من الموظفين التابعين لها. وفي ذلك المكان، كانت زوفاستينا تخزن ترسانتها من الجراثيم. كان قد شهد العناصر البشرية التي جعلت موضعاً لإجراء الاختبارات، وقد كانوا يُطلبون من سجونهم ويتعرضون للموت الشنيع. كما قد سبق له أيضاً أن وقف خارج غرف المؤتمرات بينما تكون هي عاكفة على حياكة الدسائس مع جنرالاتها. وكان الاتحاد يملك جيشاً برياً لافتاً، وقوى جوية لا يستهان بها، وإمكانيات محدودة في سلاح الصواريخ القصيرة المدى، وجلّها قد جرى تمويله وتوفيره من الغرب لغايات دفاعية، حيث أن إيران والصين وأفغانستان كلها دول تقع على حدود الاتحاد.

ومع أنه لم يخبر رافائيل بالأمر، فإنه كان يدري بما هو جارٍ الإعداد له. لقد سمعها تتحدث عن الفوضى في أفغانستان، حيث لا تزال طالبان تتشبث بأمل استرجاع نفوذها الضائع. كما سمعها تتحدث عن إيران التي لا ينفك رئيسها الراديكالي عن تكرار إطلاق التهديدات، وعن الباكستان المكان الذي يصدر العنف بعينين مغمضتين.

هذه الدول الثلاث هي التي سوف تكون هدفها الأول المباشر.

ولا بد من أن يموت الملايين.

أجفلة رجّة أحسّ بها في جيبه.

استخرج هاتفه الخلوي ونظر في شاشته قبل أن يجيب. وكانت معدته تنكمش في عقدة حسب جاري عاداتها.

"فيكتور"، قالت زوفاستينا. "سعيدة لأنني وجدتك. إن لدينا مشكلة."

أصغى إليها وهي تخبره عن حادثة أمستردام التي قتل فيها إثنان من العصابة المقدسة بينما كانا يحاولان الاستيلاء على إحدى الميداليات. "لقد قام الأمريكيون بإجراء تحريات رسمية. وهم يريدون أن يعرفوا لماذا كان رجال حرسى يقومون بإطلاق النار على رجال أمنهم السريين، وهو سؤال لا غبار عليه."

لقد تمنى لو يستطيع أن يقول لها أن سبب ذلك هو خوفهما من الفشل في إرضائها. الأمر الذي جعل تهورهما يتغلب على قدرتهما على تقييم الموقف بطريقة أكثر حكمة. لكنه كان أعقل من أن يتهور بقول ذلك لها فاكتفى بالقول. "كنت أفضل

لو أنك قد تركت تولي تلك المهمة لي شخصياً."

"حسناً، يا فيكتور، فإني الليلة أعترف لك بهذه المسألة. لقد كنت معارضاً لتلكيف فريق ثانٍ، لكنني عطّلتُ اقتراحك."

كان أعقل من أن يطلب منها مثل هذا الاعتراف. إنما الأمر الذي لا يصدّق هو أن تقوم هي بالتطوُّع به من نفسها. "لكن يا دولة الرئيس ألا تحتاجين إلى أن تعرفي ما هو السبب الذي يدعو الأمريكيين إلى التواجد في ذلك المكان."

"لقد خطر ذلك التساؤل في بالي."

"قد يكون سبب ذلك هو أننا قد بتنا مكشوفين."

"أشكُّ في أنهم يأنهون لما نفعله. إن ما يثير قلقي أكثر هو أصدقائنا في عصابة البندقية. خاصة، ذلك الرجل السمين."

"هل لا يزال الأمريكيون هناك؟"

"هذا احتمالٌ قد يكون قائماً."

"وماذا يقولون؟"

"لقد رفض ممثلهم الإفصاح عن أية تفاصيل."

"يا دولة الرئيس،" قال لها بصوتٍ خفيض. "هل عرفنا أخيراً خلف أيِّ هدفٍ نحن نسعى في حقيقة الأمر؟"

"لقد كنت منكبّة على ذلك الأمر. ولقد كان تقديمي بطيئاً. لكنني الآن أعرف أن المفتاح إلى حلٍّ لغز بطليموس يكمن في العثور على الجثمان الذي كان مرة مدفوناً في الإسكندرية. وإنني مقتنعة الآن أن هدفنا ينبغي أن يكون هو بقايا القديس مرقس المدفونة في كاتدرائية القديس مرقس في البندقية."

ولم يكن قد سمع عن شيء من هذا القبيل من قبل.

"ومن أجل هذا، فإني آتية إلى البندقية هذه الليلة."

وكان هذا أشدَّ مدعاة للصدمة. "وهل هذا قرار حكيم؟"

"إنه أمرٌ ضروري. وإنني أريدك أن تكون معي في الكاتدرائية عليك أن تحصل على الميدالية الأخرى وأن تكون موجوداً في الكنيسة عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل."

كان يعرف الإجابة الصحيحة المتوقعة. "سأعمل على ذلك يا دولة الرئيس." "إنك لم تقل لي بعد يا فكتور. هل حصلتما على الميدالية الأخرى من الدانمارك؟"

"نعم، لقد حصلنا عليها."

"علينا الآن أن نكمل عملنا بدون الميدالية العائدة إلى هولندا."

لاحظ أنها لم تكن غاضبة، رغم فشل العملية. وهذا أمرٌ يخالف عاداتها. "يا فكتور لقد طلبت جعل ميدالية البندقية أن تكون هي الأخيرة التي نسعى في طلبها، لسبب عندي."

الآن عرف سبب كلامها عن الكاتدرائية وعن جثة القديس مرقس، لكنه كان ما يزال مشغول البال بأمر الأمريكيين. ومن حسن الحظ أنه قد تمكن من احتواء الموقف في الدانمارك. فأعضاء جماعة الثلاثة الذين حاولوا التفوق عليه، قد باتوا الآن أمواتاً. وما من موجب لإخبار زوفاستينا بذلك.

تابعت قولها. "وهناك إمدادات موجودة في انتظارك في البندقية. لهذا ليس عليك أن تذهب بالسيارة. بل قم بالسفر جواً. وهاك هو المكان." أعطته عنوان مستودع مع الرقم السري لفتح قفله الإلكتروني. "إنَّ ما حدث في أمستردام ليس بذئبي بال. أمّا ما سيحدث في البندقية فذلك هو الأمر المهم. وإنني أريد الحصول على الميدالية الأخيرة تلك."

الفصل الحادي والثلاثون

قصر الهوج

الساعة 1:10 بعد منتصف الليل

أصغت ستيفاني في اهتمام كبير، فيما استمر إدوين دايفيس، والرئيس دانيالز يشرحان لها ماذا يجري.

"ما الذي تعرفينه عن العدوى التي تنتقل إلى الإنسان من الفقاريات؟" سألها دايفيس.

"إنها مرض يمكن له أن ينتقل من الحيوانات إلى الناس."

"إن له تعريفاً أكثر دقة." قال دانيالز. "فهو المرض الذي يوجد عادة بشكل غير مؤذٍ في الحيوانات، لكنه قد يعدي البشر مسبباً لهم عواقب كارثية. من أمثال الجمرة الخبيثة، والطاعون الدبلي، والكلب، وإنفلونزا الطيور، وحتى الدودة الشريطية الشائعة، وهي جميعها من الأمثلة المعروفة أكثر من سواها."

"لم أكن أعرف أنك ضليع في علم الأحياء."

ضحك دانيالز. "لست في شيء من إتقان هذا العلم. لكنني أعرف الكثير من الناس الذين يتقنونه. أخبرها يا إدوين."

"هنالك ما يقارب الألف وخمسمائة مرض من هذا النوع قد تم اكتشافها من قبل علماء الباثولوجيا المتخصصين في هذه الفئة من الأمراض." ونصف تلك الأمراض يكمن في هدوء في الحيوانات، متعيشاً على جسد الحيوان المضيف، وهو لا يعدي أبداً. لكنه عندما ينتقل إلى حيوان آخر من الحيوانات التي لا يملك الكائن

الممرض إزاءها أية فطرة نمطيّة، فإن هذا الكائن يصبح شرساً. وهذا بالضبط هو ما ابتداءً به مرض الطاعون. لقد كانت الفئران تستضيف ذلك المرض، وكانت البراغيث تقتات من دم الفئران ثم ما لبثت البراغيث أن نقلت العدوى إلى البشر، حيث سرى المرض بشكلٍ عنيف العدوى".

"والى أن،" قال دانيالز. "تمكناً من تطوير مناعةٍ ضد هذا المرض اللعين. ولسوء الحظ، فإنه في غضون عقودٍ قليلة من القرن الرابع عشر فإن هذا المرض كان قد أودى بحياة ثلث سكان أوروبا."

"وفي العام 1918، فإن وباء الإنفلونزا الإسبانية كان في عداد هذه الفئة من الأمراض، أليس كذلك؟" سألت هي.

هزّ دايفيس رأسه بالإيجاب. "لقد قفز ذلك المرض من الطيور إلى البشر، ثم حصل له تحولٌ بحيث صار يمكنه الانتقال من بشري إلى بشري. وصارت تلك خاصية له منذ ذلك الحين. وقد عانى عشرون بالمئة من سكان العالم من هذا المرض في الواقع. وقد مات بسببه حوالي خمسة بالمئة من مجموع سكان العالم بأسره. منهم خمسة وعشرون مليوناً من الضحايا الذين ماتوا في الأشهر الست الأولى. وإذا وضعنا هذا الرقم بعين الاعتبار، فإننا نلاحظ أن مرض الإيدز قد قتل خمسة وعشرين مليوناً من البشر طيلة الخمس والعشرين سنة الأولى من انتشاره."

"كما أن تلك الإحصاءات العائدة إلى العام 1918 ليست إحصاءات شاملة" أضاف دانيالز. "فقد عانت منه بلاد الصين وبقية أنحاء آسيا بشكلٍ مرعبٍ دون أن يكون ثمة إحصاء للوفيات. وبعض المؤرخين يعتقدون أن عدد الوفيات بسبب ذلك المرض قد ناهز مئة مليون وفاة في سائر أنحاء العالم."

"فالمرض المنتقل من الحيوان قد يكون سلاحاً بيولوجياً تاماً." قال دايفيس. "وكلُّ ما عليك عمله أن تجدي واحداً منها، سواء أكان ذلك فيروساً، أم بكتيريا، أم حيواناً وحيد الخلية، أم طفيلياً. تقومين أولاً بعزله، فيصبح قادراً على إحداث العدوى عند الطلب. وإذا كنت على شيء من الحذق، فإن بإمكانك تخليق نسختين من مسبب العدوى. نسخة صالحة للانتقال من الحيوان إلى الإنسان، وكل ما عليك هو نقلها إلى الضحية مباشرة. والنسخة الثانية تصبح صالحة بعد أن يكون قد أُجريَ فيها تحولٌ يسمح لها بالانتقال من بشرٍ إلى بشر. وفيما يمكن استعمال النسخة الأولى لهجمات

محدودة على أهداف بشرية محدّدة، وهنا يكون خطر انتشار المرض إلى ما يتعدى الشخص المستهدف به محدوداً. فإن النسخة الثانية تعتبر سلاحاً من أسلحة الدمار الشامل.

إذ أنه يكفي نقل العدوى إلى قلة قليلة من الناس وبعد ذلك لن يقف الموت عند حدّ محدود.

أيقنت أن ما قاله إدوين دايفيس حقيقيّ تماماً.

"ومع أن وقف هذه الأشياء أمر ممكن." قال دانيالز. "إلا أن الأمر يحتاج إلى وقتٍ لعزل المصابين، ودراسة المرض، وتطوير الوسائل المضادة له. ولحسن الحظ، فإنّ معظم تلك الأمراض المعروفة لدينا تتوفر لها علاجات مضادّة. حتى أنّ البعض منها قد أوجد لها لقاحات تمنع تسببها بالعدوى الواسعة النطاق. لكن مثل هذه الإجراءات تحتاج إلى وقت لتطويرها. وفي هذه الأثناء يكون قد مات خلقٌ كثير."

ولكن ستيفاني كانت تعجبُ إلى أين يا ترى يرمي كل هذا الكلام. "وما الذي يجعل هذا الحديث كله مهماً الآن؟"

مدّ دايفيس يده وتناول ملفاً عن زجاج الطاولة، مرونّاً بالقرب من قدمي دانيالز العاريتين. "منذ تسع سنوات كان قد تم سرقة زوج من طيور الأوز الشديدة المرض من حديقة حيوان خاصة في بلجيكا. وفي الفترة نفسها تقريباً كان قد تمّ أيضاً سرقة بعض القوارض المريضة وأصناف من الحلزون النادر من حدائق حيوان في أستراليا وإسبانيا. وفي العادة لا تعتبر مثل تلك الحوادث حوادث ذات أهمية لافتة. لكننا شرعنا في البحث فتبين لنا أنها كانت قد حصلت حوالي أربعين مرة في العالم. ولم تتوقف تلك الحوادث إلا في السنة الماضية حيث تمّ إلقاء القبض على اللصوص في جنوبي إفريقيا. كنا قد غطينا اعتقالنا لهم بالادعاء بحصول وفيات غير صحيحة. وقد تعاون الرجال مع التحقيق. فبعد أن أيقنوا أن تمضية مسجونية في سجن في جنوبي إفريقيا قد تمتد لبضع سنوات لم يكن خياراً جيداً. عندها فقط عرفنا أن أيرينا زوفاستينا هي التي كانت تقف خلف جميع تلك السرقات."

"ومن الذي أشرف على تلك التحقيقات؟" سألتها.

"لقد تولّاها باينتر كراو من مجموعة سيغما." قال دانيالز. "هذه المسألة

تتضمن الكثير من العلوم، وهذا هو حقل اختصاصهم. لكن هذه المهمة قد جرى تحويلها الآن إلى مجال صلاحياتك."

لم تعجبها نكهة ذلك كثيراً. "لكن من المؤكد أن باينتر لن يستطيع الاستمرار في وضع يده على الملف أليس كذلك؟" فالأمر هذا بات كله من الآن فصاعداً: في عهدتك. وعليك أن تردّي الجميل لي لأنني قد استنقذتك من أيدي الهولنديين." كان الرئيس ما يزال ممسكاً بميدالية الفيل، فسأله. "وما دخلُ هذه الميدالية بكل ما يجري؟"

"إن زوفاستينا تقوم بجمع هذه الأشياء منذ مدة." قال دانيالز. "وهنا تكمن المشكلة الحقيقية. إننا نعرف أنها قد تمكنت من جمع مخزون ضخم من تلك المتعضيات المسببة للأمراض القابلة للانتقال من الحيوان إلى الإنسان. ويبلغ عددها عشرون أو سوى ذلك، حسب استقصاءاتنا الأخيرة. وبالمناسبة، لقد كانت ذكية لأنها قد حصلت على نسخ متنوعة من مسببات كل مرض. مثلما قال لك إدوين، نسخة معدة للهجمات المحدودة، وأخرى معدة للانتقال من بشرٍ إلى بشر. وهي تقوم الآن على تشغيل مختبر بيولوجي قرب عاصمتها سمرقند. لكن اللافت أن أنريكو فينسينتي يملك هو الآخر مختبراً آخر في الصين عبر الحدود معها مباشرة. وهو مختبر يحلو لزوفاستينا أن تقوم بزيارته من وقت لآخر."

"من أجل هذا كنتما قد طلبتما إجراء تحريات ميدانية عن فينسينتي؟"

أوما دايفيس بالإيجاب. "من المفيد أن يعرف المرء عن عدوّه."

"لقد دأبت الـ سي. آي. أيه. على استخدام عناصر تستقي وتسرب المعلومات في داخل الاتحاد." قال دانيالز وهو يهزُّ رأسه. "كان العمل شاقاً ومختلطاً، لكننا قد تمكناً رغم ذلك من إحراز بعض التقدم في هذا الأمر."

ومع كل ذلك فإنها استشعرت أمراً ما. "هل لديكم مصدر؟"

"إذا شئت أن تسميه كذلك." قال الرئيس. "إن لديّ شكوكي الخاصة التي تقول لي إن زوفاستينا تشكّل مشكلة لنا على عدة مستويات."

لقد فهمت مدى مشكلة الرئيس في منطقة من العالم ليس لأمريكا فيها سوى

القليل من الأصدقاء. وكانت زوفاستينا قد أعلنت نفسها بكل صراحة كأحد أصدقاء أمريكا. وقد قامت بتقديم بعض المساعدات في العديد من المرات، على شكل تقديم معلومات استخبارية ثانوية. وكانت تلك المعلومات قد ساهمت في قمع بعض النشاطات الإرهابية في كل من أفغانستان والعراق. وبدافع من الضرورة، كانت الولايات المتحدة قد قامت بتزويد زوفاستينا بالأموال وايلدعم العسكري والتجهيزات المعقدة، وكان ذلك الإجراء تصرفاً ينطوي على مجازفة.

"هل سبق لك وأن سمعت بحكاية الرجل الذي كان يقود سيارته على الطريق السريع، فرأى ثعباناً يستلقي في وسط الطريق؟"

ضحكت ضحكة واسعة. لا بد أنها واحدة أخرى من قصص دانيالز الطريفة.

"أوقف الرجل سيارته فرأى أن الثعبان يشكو من إصابة. وهكذا فإنه حمله معه إلى بيته وقام بتمريضه والاعتناء به إلى أن استعاد عافيته. عند ذلك فتح الرجل للثعبان باب منزله الخارجي كي يسمح له بالخروج. لكن الثعبان ما إن زحف على الأرض حتى بادر إلى لدغ الرجل في ساقه. وقبيل أن يسري السم في جسد الرجل ويجعله يغيب عن الوعي، فإنه نادى على الثعبان معاتباً، لطالما قمت بإيوائك وإطعامك، وتمريضك، ومداواة جروحك، وها أنت ترد لي الجميل بهذه الطريقة؟" هنا توقف الثعبان ليقول للرجل: "لكنك عندما أقدمت على مساعدتي فقد كنت تعرف تمام المعرفة أنك تساعد ثعباناً."

التقطت رسالة الرئيس.

"إن زوفاستينا." قال الرئيس. "تحضر للقيام بشيء ما. وهذا الشيء يضم أنريكو فينسينتي. وأنا لا أحب الأسلحة البيولوجية. فالعالم بأسره كان قد حرم استعمال الأسلحة الجرثومية منذ ثلاثين عاماً. هذا النوع من الأسلحة إنما هو أسوأها. فهي تخطط للقيام بعمل رهيب. أما تلك العصبية، عصبية البندقية التي تشترك هي وفينسينتي في عضويتها، فهي ضالعة تماماً في مساعدتها على ذلك الأمر. ولحسن الحظ أنها لم تضرب ضربتها بعد، لكننا على يقين أنها قد صارت على وشك الشروع في ذلك. والمجانين من حكام الدول المجاورة لها، من الذين يصرون على أن ما يحكمونه هي دول فعلاً، إنما هم غافلون عما يجري تدبيره لهم.

إنهم يشغلون أنفسهم بالقلق بشأننا وبشأن إسرائيل. وهي تستفيد من بلاهتهم تلك لمصلحتها الخاصة. وهي تعتقد أنني رجلٌ غبيٌّ أيضاً. وقد جاء الوقت الذي عليها فيه أن تعرف أننا لها بالمرصاد."

"لطالما كنا نفضل البقاء في الظل إلى مدة أطول من ذلك بقليل." قال ديفيس. "لكن قيام إثنين من عملائنا السريين بقتل إثنين من رجال حرسها الخاص هو أمر يشكل إنذاراً لها دون شك."

"وماذا تريدان مني أن أفعل؟"

تثاءب دانيالز، وقامت هي بكبت تثاؤبتها. أشار إليها الرئيس بيده. "تثاءبي ولا تخجلي. لقد صرنا في منتصف الليل، لا تهتمي لأمر وجودي. تثاوبي ما شئت، كما يمكنك أخذ قسطٍ من النوم على الطائرة."

"والى أين أنا ذاهبة؟"

"ستطيرين إلى البندقية. فإذا لم يكن هذا النبي يرضى بالمجيء إلى الجبل فإننا سوف ننقل الجبل إليه بعون الله."

الفصل الثاني والثلاثون

البندقية

الساعة 8:50 صباحاً

دخل فينسينتي إلى صالون قصره وجَهَّز نفسه. فهو في العادة لا يأبه كثيراً لمثل هذه المناسبات من العرض. بعد كل شيء، فإن فيلوجين فارماسيتيك لديها قسم كبير مختصُ بشؤون التسويق والمبيعات. وهو يضم مئات من الموظفين. لكن العرض الذي هو على وشك أن يقدم هذه المرة ينطوي على قدر متميز من الخصوصية، شيء يقتضي حضوره هو شخصياً وليس أي شخص سواه. لذلك، فإنه كان قد رتب الأمر لتنفيذ هذا العرض بطريقة خاصة في بيته.

كان قد لاحظ أن وكالة التسويق والإعلان الخارجية لم يبدُ أنها قد استغلت الفرصة. إذ أنها اكتفت بإرسال أربعة ممثلين عنها فقط، ثلاث نساء ورجلاً واحداً. ترأسهم موظفة رفيعة المستوى برتبة نائب رئيس. من أجل القيام بمهمة عرض ما لديها، عليه.

"إسمي داماريس كوريغان"، قالت نائب الرئيس مقدمة نفسها في لغة إنكليزية، ومقدمة بقية زملائها بعد ذلك. لقد كانت امرأة جذابة في بداية العقد الخامس من عمرها. تلبس بذلة زرقاء داكنة مخططة باللون الطباشيري.

وعند مكان جانبي، كان بخار القهوة يتصاعد من راووق فضي. مشى إلى القرنة وسكب لنفسه فنجاناً.

"لا يسعنا سوى أن نتعجب"، قالت كوريغان، "هل هناك من شيء ما، على وشك الحدوث؟"

حلّ أضرار سترته وأراح نفسه على كرسيّ منجّد. "ماذا تقصدين؟"

"عندما قمتم باستئجار خدماتنا منذ ستة أشهر، كنتم قد أردتم أن نقدم لكم اقتراحاتنا حول تسويق علاج ممكن لمرض فيروس نقص المناعة المكتسب. وقد دار في خلدنا يومها أن شركة فيلوجين قد تكون على قاب قوسين من قفزة ما. أمّا الآن، وها أنت تريد الاطلاع منّا على ما صار متوافراً لدينا، فإنه ليأخذنا الاعتقاد أن الفتح الجديد المنتظر قد صار أمراً ممكناً."

هنا نفسه في سرّه لأنه قد احتاط للأمر. "أعتقد أنك قد نطقت بالعبارة العمَلانية في هذه المسألة عندما قلت، «قد صار أمراً ممكناً». بالطبع، فإن ما نأمل به هو أن نكون أول من يوفّق إلى الوصول إلى اكتشاف العلاج - إذ نحن ننفق الملايين على أبحاثنا - لكن لو كان ثمة فتح جديد على وشك الحصول، وأنتم لا تدرون متى قد يحصل ذلك، فإنني لا أريد أن أجد نفسي في موقع الإنتظار لعدة أشهر للانتهاء من عملية دراسة لبرنامج التسويق." صمت قليلاً. "لا، إننا في الحقيقة لم نبلغ هذه الدرجة بعد. لكن القليل من حسن الاستعداد ليس فكرة سيئة."

أيدت ضيفته هذا الإيضاح بإيماءة من رأسها. ثم تقدمت نحو سبية عليها أوراق العرض. ألقي نظرة على إحدى المرأتين الجالستين بقربه. امرأة جذابة سمراء لا تتعدى بداية عقدها الثالث، أو هي لم تتجاوز منتصفه، تلبس تنورة صوفية ضيقة تأخذ شكل جسمها. تساءل ما إذا كانت تلك المرأة مديرة حسابات أم أنها مجرد ديكور يزين الفريق.

"لقد قمت ببعض القراءات المفيدة خلال الأسابيع القليلة الماضية"، قالت كوريغان. "فمرض فيروس نقص المناعة المكتسب يبدو أنه فيروس له شخصية منقسمة على نفسها، والأمر يعود تبعاً لما يكون هو جزء الكرة الأرضية التي يقوم صاحب الدراسة بالتركيز عليه."

"هناك حقيقة وراء تلك الملاحظة." قال لها. "هنا، وفي أماكن مثل أمريكا الشمالية، نلاحظ أن المرض يقبل الاحتواء إلى درجة معقولة. فهو لم يعد سبباً مباشراً يقود إلى الوفاة. فالناس يتعايشون معه بكل بساطة. والأدوية المكافحة لأعراض المرض قد نجحت في تخفيض معدل نسبة الوفيات بما يزيد عن النصف."

أما في أفريقيا وآسيا فالأمر مختلف تماماً. في جميع أنحاء العالم كان مجموع الوفيات الحاصلة عن مرض فيروس نقص المناعة المكتسب هو ثلاثة ملايين شخص.

"وهذا هو أول ما قمنا بعمله." قالت. "لقد قمنا بتحديد سوقنا المحتملة." قلبت الصفحة العليا الفارغة إلى ما وراء الوسادة المثبتة إلى أعلى السببة كاشفة النقاب عن جدول بياني.

"إن هذه الأرقام آخر ما سُجِّل من إصابات بمرض فيروس نقص المناعة المكتسب حول العالم أجمع."

المنطقة	عدد الإصابات
أمريكا الشمالية	1.0011.000
أوروبا الغربية	988.000
أستراليا والباسيفيك	22.000
أمريكا اللاتينية	1.599.000
المناطق الواقعة خلف الصحارى الأفريقية	20.778.000
منطقة البحر الكاريبي	536.000
أوروبا الشرقية	2.000
منطقة جنوبي شرقي البحر المتوسط	893.000
شمال شرق آسيا	11.277.000
المجموع	37.112.000

"ما هو مصدر هذه الأرقام؟" سألها فينسينتي.

"إنها أرقام منظمة الصحة العالمية. وهذه الأرقام تمثل كامل السوق المتوفر الحالي لاقتضاء أي علاج." قلبت كوريغان الصفحة الآن. "أما هذا الجدول، فإنه يعطينا نظرة أكثر دقة عن السوق المتوفرة. فكما تستطيعون أن تلاحظوا، فإن الأرقام توضح أن ربع الإصابات بهذا الفيروس على وجه التقريب في العالم أجمع إنما تسبب بظهور متلازمة مرض نقص المناعة المكتسب. إذ لدينا ما مجموعه تسعة ملايين شخص من المصابين بإصابة أيدز متكاملة.

المنطقة	عدد المصابين
أمريكا الشمالية	555.000
أوروبا الغربية	320.500
أستراليا والباسيفيك	14.000
أمريكا اللاتينية	573.500
منطقة ما خلف الصحارى الأفريقية	6.300.000
منطقة البحر الكاريبي	160.500
أوروبا الشرقية	10.800
جنوب شرق المتوسط	15.000
شمالي آسيا	17.600
جنوب شرق آسيا	1.340.000
المجموع	9.306.900

انتقلت كوريغان إلى الصفحة التالية. "هذا الجدول يرينا الاحتمالات القادمة بعد خمس سنوات من الآن. ومرة أخرى أنكركم أن هذه الأرقام آتية من منظمة الصحة العالمية."

المنطقة	الإصابات المقدرة
أمريكا الشمالية	8.150.000
أوروبا الغربية	2.331.000
أمريكا اللاتينية	8.554.000
منطقة ما خلف الصحارى الأفريقية	33.609.000
منطقة البحر الكاريبي	6.962.000
أوروبا الشرقية	20.000
جنوبي شرقي المتوسط	3.532.000
شمالي شرقي آسيا	486.000
جنوبي شرقي آسيا	45,059,000
المجموع	108,748,000

"من المدهش أننا قد نواجه إصابة مئة وعشرة ملايين شخص بفيروس نقص المناعة المكتسب في جميع أنحاء العالم. وانطلاقاً من الإحصائيات الواقعية الحالية فإن نصف هؤلاء المصابين سوف يتطور المرض لديه في نهاية المطاف إلى الإصابة

بالإيدز. وإن حوالي أربعين بالمئة من هذه الخمسين بالمئة سوف يموت خلال سنتين من الإصابة. بالطبع إن الأكثرية الساحقة من هذه الإصابات سوف تتركز في قارتي أفريقيا وآسيا. "هزت كوريغان رأسها. "وإنه لسوق كبير للدواء ألا توافقون معي؟"

هضم فينسينتي الأرقام هضماً متأنياً. لو انطلقنا من رقم سبعين مليون حالة إصابة بالفيروس. فإن مبلغاً أقله خمسة آلاف يورو سيكون لازماً في كل سنة لعلاج كل حالة. فإن أي عقارٍ معالج سوف يُنتج مبلغ ثلاث مئة وخمسين بليون يورو. صحيح أنه متى تمّ شفاء جمهور المصابين الإبتدائي، فلا بد للسوق من أن ينخفض. فما العمل؟ ستكون الأرباح قد تحققت. مبلغ يفوق قدرة أيّ بشري على الإنفاق على امتداد الحياة. أما بعد ذلك فمن المؤكد أن إصابات جديدة سوف تظهر، وسيُنتج عنها مبيعات جديدة. أرباحٌ لن تتوقف فقط على الأرباح الأولى، بل سيكون ثمة شلال من الأرباح الأخرى المستمرة لا يتوقف.

"أما دراستنا التالية فقد تضمنت نظرة إلى المنافسة. الذي استطعنا أن نتعلمه من منظمة الصحة العالمية، أن هناك ما يقارب ستة عشر عقاراً هي الآن قيد الاستعمال عالمياً لمعالجة أعراض المرض. وهناك ما يقارب الاثني عشر لاعباً في هذه اللعبة. وقد بلغت مبيعات أدوية شركتكم الخاصة ما يزيد عن بليون دولار في السنة المنصرمة."

إن شركة فيلوجين تمتلك براءة اختراع ستة عقاقير قد برهنت فعاليتها في وقف انتشار الفيروس، عندما يتم مزجها مع بعض العقاقير الأخرى. مع أن العلاج قد يتطلب تعاطي حوالي خمسين حبة في اليوم. فهذا الأسلوب في العلاج الذي أطلق عليه اسم "علاج الكوكتيل" كان العلاج الوحيد الذي أظهر نفعاً. وهذا ليس بعلاج شافٍ تماماً. فطوفان هذه العلاجات لم يؤدّ بكل بساطة سوى إلى إرباك الفيروس. ولم يكن الأمر سوى مسألة وقتٍ تقتضيه الطبيعة للتفوق على جهود علماء البكتريولوجيا. وقد ظهرت حتى الآن إرهابات فيروسات لهذا المرض مقاومة للدواء في كل من آسيا والصين.

وقد ألقينا نظرة فاحصة على العلاجات المركبة من كوكتيل متنوع. "قالت كوريغان. "برنامج علاج مركب من ثلاثة أدوية تبلغ تكلفته ما معدله عشرون ألف

يورو في السنة. لكن هذا النوع من العلاج هو أساساً لا يتعدى أن يكون ترفاً غربياً. فهو غير موفور لا في أفريقيا، ولا في آسيا. إن فيلوجين تقدم بعض الهبات على شكل مبيعات لهذا الدواء بتكلفة مخفضة إلى قليل من الحكومات التي تعاني شعوبها من إصابات. لكن مسألة معالجة هؤلاء المرضى جميعاً بالطريقة نفسها لا بد من أن يكلف البلايين من أوراق اليورو في السنة. وهي مبالغ لا تقوى أي حكومة إفريقية على القيام بدفعها.

لقد كان فريق التسويق الخاص به قد أخبره قبلاً بالأشياء نفسها. فمعالجة المرض لم تكن خياراً متاحاً للعالم الثالث المنكوب. إذ أن انتشار المرض كان الخيار المنتج الوحيد في مواجهة هذه الأزمة. وقد كان استعمال الكبابيت الواقية هو الوسيلة الأولى التي وقع عليها الخيار. وكانت إحدى الشركات المتفرعة عن فيلوجين تجد نفسها عاجزة عن تلبية احتياجات السوق بالسرعة الكافية. فقد تصاعدت المبيعات إلى ما يزيد عن ألف في المئة خلال العقدين الماضيين. وكذلك تصاعدت الأرباح معها. لكن في الأوقات الأخيرة كان قد هبط معدل استعمال الكبوت الواقية باستمرار. لقد بات الناس أكثر استسلاماً.

كانت كوريغان تقول: "وفقاً لنشراتها الإعلامية الخاصة فإن شركة كيلوود لافارج المنافسة لكم قد قامت بإنفاق ما يزيد عن مئة مليون يورو على أبحاث مكافحة الإيدز في السنة الماضية وحدها. أما أنتم فلم تنفقوا سوى ثلث هذا المبلغ."

نظر نظرة متكلفة نحو المرأة. "إن المنافسة مع شركة كيلوود لافارج هي أشبه بصيد الحيتان بالقصبة والبكرة. فهي أكبر مجمّع لشركات الدواء في العالم. ومن الصعب أن تقارني بين الشركات وفق مبدأ دولار مقابل دولار، عندما يكون الفريق الآخر يجني ما يزيد على مئة بليون يورو سنوياً من الدخل الإجمالي."

بقي يرتشف قهوته بينما قامت كوريغان بقلب الصفحة الأخيرة إلى صفحة فارغة تليها.

"وإذا أردنا الانتقال من كل ذلك، فلنلق نظرة على الأفكار المتعلقة بالعقاقير المنتجة. وتسمية اسم عقار واحد كفيل بالعلاج هو أمر مستصعب بالطبع. في الوقت الحاضر، فإن تسميات العقاقير الستة عشر المختصة بمعالجة الأعراض، المتوفرة

في السوق حالياً تختلف. فهناك أشياء من أمثال: باكتريم، ديفلوكان، اينزون، بنتام، فيدكن، سيرزيغان، هيفيد، ريتروفير. وبسبب الانتشار العالمي الواسع الذي لا بد أن يتمتع به كل عقار، فقد فُكرنا بأن تسمية بسيطة عالمية من أمثال أي. زد. تبي قد يكون هو الخيار الأنسب من وجهة النظر التسويقية. ما كنا قد أعلمنا به، فإن فيلوجين تملك الآن ثمانية علاجات محتملة للمرض تحت التطوير. " انتقلت كوريغان الآن إلى الجدول الذي يتعلق بمفاهيم التغليف. "ليس لدينا سبيل إلى أن نعرف منذ الآن ما إذا كان أيُّ عقارٍ سوف يكون صلباً أم سائلاً، وهل سيجري تعاطيه عن طريق الفم أو عن طريق الحقن بالإبر. ولهذا فقد قمنا بابتكارات مختلفة للعبوات، محافظين على الألوان في نطاق شعاركم الأسود المذهب. "

أنعم النظر في التصاميم المقترحة.

أشارت إلى السببية. "لقد تركنا فسحة فارغة لكتابة الاسم كيما يتم إنزاله بأحرف ذات لون ذهبي. وما زلنا حتى الآن نعمل على ذلك. وإن الأمر المهم في هذا البرنامج: هو أنه حتى وإن لم يكن من الممكن ترجمة الإسم إلى لغة معينة، فإن العبوة سوف تكون مميزة بحد ذاتها بما هو كافٍ لتوفير التعرف على العقار بطريقة تلقائية مباشرة. "

كان بالغ السرور. لكنه وجد من الأفضل له أن يخفي ابتسامته. "إنني أملك اسماً محتملاً. كنت أديره أحياناً في رأسي. "

بدأت كوريغان شديدة الاهتمام.

وقف، مشى نحو السببية، فتح قلم ماركة، وكتب ZH. لاحظ وجود نظرة حائرة على جميع الوجوه. إنها اختصار لعبارة: "زيتاً هيتاً"، وهي عبارة أغريقية قديمة تعني الحياة. أومأت كوريغان برأسها بالإيجاب. "إنني أستسيغ هذه التسمية. "

وقد وافقها هو أيضاً.

الفصل الثالث والثلاثون

جزيرة فوزروشيدينيا

اتحاد آسيا الوسطى

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل

كانت زوفاستينا منتشية بالحجم الذي وصل الحشد إليه. إذ كان موظفوها قد ضمنوا لها حضور خمسة آلاف شخص، ولكن بدلاً عن ذلك فإن سكرتيرتها التي ترافقها في أسفارها قد أخبرتها، بينما هم يحلقون في رحلتهم بطائرة الهليكوبتر فوق شمالي غربي سمرقند، أن أكثر من عشرين ألفاً سوف يكونون بانتظارها. لقد قيل لها إن في ذلك مزيداً من التأكيد على تعظيم شعبيتها. والآن وبعد كل هذا الهرج والمرج المرحّب بها، وهو أمر إذا أضفنا إليه شدة تركيز بؤر الكاميرات التلفزيونية على المنصة، فإنها لم يكن بوسعها سوى أن تكون منشرفة سعيدة.

"انظروا حولكم." قالت في المذيع. "انظروا إلى ما نستطيع حقاً تحقيقه عندما تعمل عقولنا وقلوبنا معاً في وحدة واحدة." لبثت لحظة تاركة المجال لكلماتها لتأخذ تأثيرها ومداها ثم أشارت بيدها جانباً. "ها هي كانتوبك تولد من جديد."

كان الجمع شديد الاحتشاد كأنه عشٌّ من النمل. وكان الجميع يهتفون لها استحساناً، بحماسة كانت قد اعتادت الاستماع إلى مثلها.

وجزيرة فوزروشيدينيا، تقع في المنطقة الوسطى من بحر الآرال، وهي قفرٌ بعيد كان في وقت مضى يأوي جماعة تصنيع الأسلحة الحربية الميكروبيولوجية التابعة للاتحاد السوفييتي. كما كانت تمثل نموذجاً مأساوياً عن الاستغلال الذي تعرّضت له آسيا على يد أسيادها السالفين. هنالك كان يجري تفريخ أبواغ مرض

الجمرة الخبيثة، وعُصيات مرض الطاعون، كما يجري تخزينها. وبعد سقوط الحكومة السوفييتية في العام 1991، فإن موظفي مختبر الأسلحة الجرثومية فروا من الجزيرة مخلفين وراءهم الأوعية التي تحتوي على الأبواغ القاتلة. تلك الأوعية التي ما لبثت مع مرور الأيام أن باتت تعاني من التشققات التي ترشح بما في داخلها. وقد تضاعفت الكارثة البيئية المحتملة مع مشكلة تراجع مياه بحر الآرال. فهذه البحيرة الرائعة كانت لا تنفك تتغذى بمياه نهر آمو داريا الغزيرة الذي كان يوماً نهرًا مشتركاً بين كازاخستان وأذربيجان. لكن عندما قام السوفييت بتحويل اتجاه نهر داريا، محولين مجراه بواسطة قنال اصطناعي يبلغ طوله 1200 كلم، وقد كانت مياه هذا القنال تستعمل في ري القطن اللازم للمحالج السوفييتية: فإن ذلك البحر المغلق الذي كان في يوم من الأيام أحد أكبر خزانات المياه الحلوة في العالم، قد بدأ بالانكماش والتناقص لتحل محله صحراء غير قادرة على توفير أسباب الحياة. لكنها قد غيّرت كل هذا، فقد ذهب القنال الآن، وتمت استعادة النهر.

بدا أن معظم نظرائها يملكون ميلاً إلى تقليد من سبقهم من الذين كانوا يخضعونهم. إلا أن دماغها لم تصبه الفودكا بالتلف، ولا بالضمور. فلقد كانت دائماً تضع عينها على الجائزة. وقد عرفت دائماً كيف تنتزع السلطة، وكيف تحتفظ بها معاً.

"مثنا طن من أبواغ الجمرة الخبيثة الشيوعية قد جرى إتلافها في هذا المكان." قالت مخاطبة الحشد. "كلُ جزيئة من سمومهم قد أُلقت الآن. ولقد جعلنا السوفييت يدفعون نفقات إتلافها."

زارت الجماهير بهتافات الاستحسان.

"ثم دعوني أخبركم شيئاً. عندما صرنا أحراراً من قبضة موسكو الخانقة، كان لدى الروس من الوقاحة ما يكفي للقول إننا مدينون لهم بمبالغ نقدية." رفعت ذراعها في الهواء. "هل تستطيعون أن تتصوّروا ذلك؟ لقد قاموا باغتصاب أراضينا، وأفسدوا بحرنا، وسمّموا تربتنا بجراثيمهم، فهل نكون بعد ذلك مدينين لهم بأي مال؟" رأت ألوف الرؤوس تهتز نفياً. "هذا هو بالضبط ما قلته لهم أيضاً. لقد قلت لهم كلاً."

مرّت بناظريها فوق امتداد الجماهير المتطلّعة إليها، وكلُّ واحد من أفرادها

واقف تحت حماوة شمس منتصف النهار المشرقة.

"وهكذا، فإننا جعلنا السوفييت يدفعون ثمن تنظيف قانوراتهم. كما قمنا بإغلاق قناتهم التي كانت تمتص الحياة من بحرنا القديم." ولم تستعمل في خطابها ضمير المفرد المتكلم مرة، لم تقل مرة "أنا" بل دائماً؟ كانت تقول "نحن".

"إنني متأكدة أن الكثيرين منكم يتذكرون مثلي تلك النمر، وايلديبة البرية، والطيور المائية التي كانت تعيش في دلتا نهر آمو داريا. تذكرون ملايين الأسماك التي كان يزخر بها بحر الآرال. فعلمائنا يعرفون أن مئة وثمانية وسبعين نوعاً من الأسماك كانت تعيش هنا. أما الآن فلم يتبق من تلك الأصناف سوى ثمانية وثلاثين صنفاً فقط. هذا هو التقدم السوفييتي." هزت رأسها. "هذه هي فضائل الشيوعية." ابتسمت ابتسامة متكلفة. "إنهم مجرمون. لقد كانوا مجرمين فعلاً. هم مجرمون سافرون عاديون."

"لقد كان قنالهم مشروعاً فاشلاً. ليس على المستوى البيئي فقط، ولكن على المستوى البنيوي أيضاً. فالتسرب، وطوفان الضفاف، كانت من بين الشكاوي الشائعة. لقد كان ذلك المشروع نموذجاً عن السوفييت أنفسهم في قلة اكتراثهم للكفاءة والجودة. كان القنال يسرب من المياه المهدورة أكثر مما كان ينقل منها. وجزيرة فوزروشيدينيا قد تحولت في نهاية الأمر إلى شبه جزيرة إذ أنها صارت متصلة بالشاطئ البري، وقد تعاظم الخوف من أن تقوم الحيوانات اللبونة البرية، وكذلك الزواحف، بنقل السموم القاتلة إلى الجزيرة. لكن هذا الخوف لم يعد قائماً. لقد صارت الأرض نظيفة. هكذا أعلنها فريق تفتيش تابع لهيئة الأمم المتحدة. وقد نوه هذا الفريق بجهودنا ووصفها بأنها رائعة."

رفعت قبضة يدها في الهواء. "ولقد قلنا لهؤلاء المجرمين السوفييت: إننا إن استطعنا، فسنقوم بمحاكمة كل واحد منكم وبإيداعه في سجوننا."

زأر الناس بالمزيد من هتافات الاستحسان.

"وهذه البلدة، بلدة كانتوبك التي نقف على هذا المكان من أرضها، المكان الذي هو ساحتها الرئيسية، فإن هذه الساحة ذاتها قد نهضت من جديد من الركام

والرماد. فلقد كان السوفييت قد حوّلوها إلى أنقاض. أما الآن، فإن مواطني الأحرار سوف يعيشون هنا في سلام ووثام على أرض ولدت أيضاً ولادة جديدة. وبحر الآرال نفسه يستعيد الآن منسوب مياهه الذي يزداد ارتفاعاً مع كل سنة. والأرض التي صحرها الإنسان عادت لتصبح من جديد غوراً للبحر. وهذا هو مجرد مثل على ما يمكننا تحقيقه. مياهنا وأرضنا." وترددت قليلاً. "وتراثنا."

وانفجرت الجماهير بالهتاف.

عبّرت نظراتها فوق الوجوه وهي مشبعة بتوقع أن تكون رسالتها قد تعمّت حسبما يبدو. كانت تحب أن تتواجد في وسط الناس. أناسٌ قد أحبوا هم أيضاً. فاكْتساب السلطة كان شيئاً، أما القدرة على إمساكها والاحتفاظ بها فقد كانا شيئين آخرين آخر.

أما هي فقد صمّمت على الاحتفاظ بالسلطة.

"يا إخوتي المواطنين. يجب أن تعرفوا أن في استطاعتنا أن نقوم بتحقيق كل شيء إذا عقدنا العزم عليه. هل تذكرون كم هم الناس في مختلف أرجاء الكرة الأرضية من الذين صرّحوا أننا لن نستطيع أن نتحد؟ وكم هو عدد الناس الذين تنبأوا أننا لسنا مؤهلين لكي نحكم أنفسنا بأنفسنا؟ لقد قمنا بإجراء انتخابات عامة مرتين. انتخابات حرة مفتوحة، خاضها العديد من المرشحين. ولا يستطيع أحد أن يدّعي أن أيّاً من هاتين المناسبتين قد كانت غير عادلة ونزيهة." أنصتت قليلاً. "إن لدينا دستوراً يكفل الحقوق الإنسانية، إلى جانب الحريات الشخصية السياسية والفكرية."

كانت تستمتع بلحظتها تلك. فإعادة افتتاح جزيرة فوزروشيدينيا كان بكل تأكيد حدثاً يقتضي حضورها شخصياً. وقد كان تلفزيون الاتحاد، إلى جانب ثلاث محطات تلفزيونية مستقلة أخرى، كانت قد رخصت بها لأعضاء من عصابة البندقية، تتعاون جميعها على نقل كلمتها إلى كل أرجاء الوطن. وكان أولئك المالكون الجدد لمحطات التلفزيون الأهلية قد وعدوها بشكل خاص وشخصي أن يراقبوا جميع المواد الإعلامية التي يقومون بإنتاجها، كل ذلك كجزء من الامتيازات التي تقدمها العصابة لأعضائها. كانت سعيدة لحضورهم. فمن الصعب أن يجادلها أحد في أنها

تباشر رقابة على الصحافة عندما تشير الدلائل كلها من الخارج إلى أنها لم تقم بأي شيء من هذا القبيل.

أعادت إجابة النظر في البلدة التي أعيد بناؤها، وكانت مبانيها المشادة من الصخر والطوب قد صممت على طراز قرن من الزمان مضى. فبلدة كانتوبك سوف يعاد تأهيلها بالسكان. وقد أفادت تقارير وزارة الداخلية لديها أن عشرة آلاف مواطن تقدموا بطلبات قروض للبناء على أرض تلك الجزيرة. وهذا دليل جديد على ثقة الناس بها، حيث أنهم كانوا راغبين في العيش في أرض كانت منذ عشرين سنة خلت أرضاً خلاء جرداء لا تصلح لعيش مخلوق.

"إن الاستقرار هو الأساس لكل شيء." زار صوتها.

وكانت هذه العبارة هي شعارها المفضل الذي ما انفكت تردده في الخمس عشرة سنة الماضية.

"إننا اليوم نعمد هذه الجزيرة باسم شعب اتحاد آسيا الوسطى. وليعش اتحادنا إلى الأبد."

نزلت عن المنصة بينما كان الجمهور يلتهب هتافاً.

ثلاثة من رجال حرسها الشخصي ضربوا نطاقاً حولها ورافقوها من المنصة إلى حيث كانت طوافتها في انتظارها. كما كانت طائرة أخرى تنتظر في مكان آخر لكي تقوم بالطيران بها غرباً إلى مدينة البندقية حيث هناك ثمة إجابات تنتظرها عن العديد من الأسئلة.

الفصل الرابع والثلاثون

البندقية، إيطاليا

الساعة 2:15 بعد الظهر

وقف مالون إلى جانب كاسيوبيا بينما كانت هي تتولى قيادة القارب المزوّد بمحرك. وكانا قد طارا من كوبنهاغن في رحلة مباشرة حيث هبطا في مطار ماركوبولو منذ ساعة. وكان قد قام بزيارة البندقية عدة مرات في أوقات سابقة، إبان سنوات خدمته مع فرقة ماجيلان بيليه. فهي منطقة مألوفة لديه، شاسعة ومنعزلة لكنّ قلبها بقي مزدحماً، وكانت رقعة وسط المدينة تقع على ميلين طويلاً وميل واحد عرضاً - وقد نجح وسط البلد هذا أيما نجاحٍ لعدة قرون في جذب الدنيا إلى حافته البحرية.

وكان جؤجؤ القارب متجهاً إلى الشمال الشرقي مبتعداً عن وسط المدينة، متقدماً بهما بمحاذاة منطقة صناعة الزجاج في مورانو مباشرة نحو تورسييلو التي هي واحدة من بقع اليابسة التي تنتشر في بحيرة البندقية.

كانا قد استأجرا هذا القارب من محلة بالقرب من المطار. وهو عبارة عن مركب أملس خشبي له كابينتين مقفلتين في طرفيه. وكان جسم المركب يقشّد بجزئه السفلي وجه الماء في جذبٍ عبر الموج المتلاطم شاقاً المياه الخضراء خلفه في خط يشبه رغوة الكلس.

وحول مائدة الإفطار، كانت كاسيوبيا قد أخبرته عن ميدالية الفيل الأخيرة. وكانت قد قامت هي وثورفالدسن برسم بيانٍ للسرقات التي حصلت عبر أوروبا فلاحظا أن قطعتي العملة في كل من البندقية وسمرقند قد بقيتا دون أن تمتد يد إليهما. ولهذا فقد صارا متيقنين لأسباب منطقية مبررة من أن ميدالية كوبنهاغن

سوف تكون هي الميدالية التي سيأتي عليها الدور في المرة القادمة. وبعد أن تمت السرقة الخامسة من جامع تحفٍ خاص في فرنسا منذ ثلاثة أسابيع، فقد لبثت هي وثورفالدسن ينتظران السرقة التالية في توقُّعٍ واصطبار.

"لقد تركوا ميدالية البندقية حتى النهاية لسبب يدعوهم إلى ذلك." قالت كاسيوبيا له فوق صوت المحرِّك. عندما مرَّ بالقرب منهما أحد باصات الماء العاملة في المدينة، وكان يتجه وجهة معاكسة لهما. "وأعتقد أنك ترغب في معرفة ذلك السبب."

"لم تخطر ببالي هذه الفكرة."

"كان إيلي يعتقد أن الإسكندر الكبير قد يكون مدفوناً في داخل ضريح القديس مرقس."

فكرة تدعو إلى الاهتمام. هل من ظواهر جنون أخرى؟

"إنها قصة طويلة،" قالت له. "لكنه قد يكون محقاً فيها. فالجثمان المدفون في كاتدرائية القديس مرقس يفترض أن يكون عبارة عن مومياء عمرها ألفا سنة. لقد تمَّ تحنيط القديس مرقس في الإسكندرية بعد وفاته في القرن الأول الميلادي. أما جثة الإسكندر فهي أقدم منها وكانت قد حُطَّت أيضاً قبل ذلك بثلاث مئة سنة. ذلك أن جثمان الإسكندر كان قد جرى تحنيطه في القرن الرابع قبل الميلاد. وعندما اختفى جثمان الإسكندر من الضريح. فإن بقايا القديس مرقس ظهرت فجأة في الإسكندرية."

"هل أفترض أن لديك من البرهان ما هو أكثر مما قلته حتى الآن؟"

"إن إيرينا زوفاستينا مهووسة بالإسكندر الكبير. وكان إيلي قد أخبرني كل شيء عن هذا الأمر. فهي تمتلك مجموعة خاصة عن الفن الإغريقي. ولديها مكتبة زاخرة عن هذا الموضوع. كما أنها تعدُّ نفسها خبيرة في شؤون هوميروس وملحمته الإلياذة. وها هي الآن ترسل رجال حرسها الخاص لاقتناص الميداليات دون أن يتركوا خلفهم أي دليل. أما قطعة العملة الموجودة في متحف سمرقند فهي باقية دون أن تُمس. "هزَّت رأسها. "لقد انتظروا أن تكون هذه السرقة هي العملية الأخيرة في السلسلة، بحيث يكونون قريبين من قبر القديس مرقس."

"لقد سبق لي أن دخلت إلى تلك الكاتدرائية،" قال لها. "وإن نعش هذا القديس

مدفون تحت المذبح الرئيسي. وهو مذبح يزن الأطنان. ويحتاج الأمر إلى رافعات هيدروليكية لזחزحته كما يحتاج الأمر إلى وقت وجهد قبل التمكن من الدخول إلى داخل الضريح. وهذا أمر مستحيل إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه الكاتدرائية تعتبر هي الموقع السياحي الأول في المدينة وهي تكاد لا تخلو من السياح.

"لست أدري كيف تخطط زوفاستينا لعمل ذلك. لكنني مقتنعة أنها سوف تقوم بمحاولة الدخول إلى ذلك الضريح."

لكنهم، جال في ذهنه، لا بدّ لهم حسبما يبدو، من الحصول أولاً على الميدالية السابعة.

تراجع عن دفّة القارب ثلاث خطوات إلى الكابينة الخارجية المزينة بالستائر المضمومة والمقاعد المقصّبة المطرّزة، والخشب الماهو غاني الملمّع، وهي زينة تهدف إلى تحسين فرصة الإقبال على استئجار القارب. وكان قد اشترى كتاباً دليلاً سياحياً إلى مدينة البندقية من المطار، وقرر أن يتعلم ما يستطيع تعلّمه عن تورسيلو.

كان الرومان أول من سكن تلك الجزيرة الصغيرة في القرن الخامس أو السادس الميلادي. وفي القرن الثامن هرب سكان البندقية المروّعين من وجه الغزو اللومباردي، وغزو قبائل الفرنج حيث أعادوا احتلالها. ومع حلول القرن السادس عشر كان عشرون ألف شخص يعيشون في هذه المستعمرة المزدهرة، بين الكنائس، والإديرة، والقصور، والأسواق، عدا محطة شحن بحريّ شديدة الحركة. وقد كان التجار الذين قاموا بسرقة جثمان القديس مرقس من مدينة الإسكندرية في العام 828 ميلادية من مواطني تورسيلو. وقد أشار إليها هذا الكتاب السياحي إلى أنها المكان الذي التقى فيه الرومانيون البيزنطيين للمرة الأولى. فهي تقع في الحدّ الفاصل. وفي شرقيّها تقع كل من غرفتي البرلمان. أمّا في غربيّها فتقع المنطقة المسماة "تاج محل". لكن الحمى الوبائية، والمalaria، والشقوق التي تعتور قنالاتها سببت لها بعض التدهور. ذلك أن أكثر سكانها نشاطاً كانوا قد هجروها نحو وسط البندقية. لذلك فقد انهارت بيوت التجار، وصارت معظم القصور نسياً منسياً. إلا أنه في نهاية الأمر ما لبث أن جال فيها بناؤون قادمون من جزر أخرى، وجلّهم يبحث في خرائبها عن طنّف منحوت. وبذلك بدا كل شيء من هذه الانقراض يختفي شيئاً

فشيئاً. وقد قام مارشاند بالاستئثار بالأراضي المرتفعة. أما الآن، فيعيش في المدينة أقل من ستين شخصاً، في حفنة قليلة من البيوت فقط.

حدّقت إلى النوافذ الأمامية فلمحت برجاً وحيداً مشاداً بالطابوق الأحمر - كان برجاً قديماً، شامخاً ومنفرداً، يضرب في قبة السماء. وكانت صورة فوتوغرافية في كتيب الدليل السياحي تطابق المنظر الخارجي لهذا البرج. وكان هو قد قرأ وتعلّم أن برج الناقوس الواقف إلى جانب خرائب تورسيللو مازال يجلب لها الشهرة. أما كاتدرائية القديسة ماريّا أسونتا التي بنيت في القرن السابع الميلادي، فتعتبر أقدم دار للعبادة في البندقية. وكانت تتربع بقربها وفقاً لكتيب الدليل السياحي، قاعدة كنيسة لها شكل صليب إغريقي وقد تمّ بناؤها بعد بناء الكاتدرائية بستة قرون وتدعى كنيسة القديسة فوسكا.

خف ضجيج المحرك عندما خفت كاسيوبيا الضغط على دواسة الوقود. واستقرّ القارب في الماء. عاد إليها حيث هي تقف في مؤخرة القارب إلى جانب الدفة، وقد لاحظ أمامه وجود أشرطة من الشاطئ الرملي ملوّنة بلون المغرة الصفراء وتغطيها القصبيات والأسلّ والسرو نو العُقد. وقد تباطأ سير القارب حتى بات يزحف زحفاً، كان ذلك عندما دخلا في قنالٍ موصلٍ وكان أحد جانبيه محفوفاً بالحقول الشديدة خصوبة النبت، فيما كان جانبه الآخر محاذياً لزقاقٍ معبّد. وإلى يسارها كان ثمة واحد من الباصات المائية العاملة في المدينة يقوم بمهمة النقاط الركاب لنقلهم إلى محطة المواصلات الشعبية الوحيدة فيها.

"تورسيللو"، قالت: "دعنا نأمل في الوصول إلى هنا أولاً."



نزل فيكتور من القارب البخاري فيما لحق به رافائيل. وكان الباص المائي قد أتى بهما من سان ماركو إلى تورسيللو في صوته الصخّاب عبر بحيرة البندقية. وكان قد اختار استعمال واسطة نقل عامة لأنه اعتبرها الطريقة الأقل إثارة للشبهات بينما هما يقومان باستطلاع أوليٍّ لهدفهما في تلك الليلة.

قاما بالحقاق برهط من السُّيَّاح المتقلدين للكاميرات، والمتخذين طريقهم نحو

كنيستى الجزيرة الشهيرتين. وكان ثمة شارع أشبه بطريق مشاة جانبي يحاذي قنالاً راكداً. ولقد مرَّ الطريق قرب حشدٍ منخفض من الأبنية الحجرية التي تضمُّ بضع مطاعم وبعض أكشاكٍ لبيع احتياجات السُّيَّاح. كما كان يضمُّ نزلاً صغيراً. لقد كان قد سبق له أن درس سطح الجزيرة ومواقعها. وعرف أن تورسيللو لم تكن سوى شريط ضيق من اليابسة التي تؤمِّن الوجود لمزارع الأرضي شوكي، كما لبعض المساكن الفاخرة. وكان وجود كنيستين قديمتين، ومطعم: هي كلُّ ما تستطيع أن تدَّعيه هذه المدينة من أجل الشهرة.

كانا قد طارا من هامبورغ، مع توقف في ميونيخ. وبعد الإنتهاء من مهمتهما هنا سوف يتجهان إلى دولة الاتحاد فإلى بيت كل منهما، لأن غزوتهما إلى أوروبا تكون قد اكتملت. ووفقاً لأوامر رئيس الوزراء فإنه كان على فيكتور أن يحصل على الميدالية السابعة قبل منتصف هذه الليلة، كما أنه ينبغي عليه أن يكون موجوداً في الكاتدرائية في سان ماركو عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

فقدوم زوفاستينا إلى البندقية كان أمراً بالغاً في كونه فوق اعتيادي. وما تتوقعه من هذا القدوم، لا بد أن يكون قد ابتداً. لكن عملية السرقة هذه يجب أن تكون سهلة التنفيذ على الأقل.



حدَّق مالون إلى الأسفل متأملاً فخامة بناء برج الناقوس في هذه الجزيرة. كتلة من الطوب والرخام التي تتلاصق معاً بطريقة عبقرية عن طريق استعمال الأعمدة والقناطر. برج بارتفاع مئة وخمسين قدماً، أشبه بطلسم في الصحراء، أما الطريق إلى أعلى البرج وهو عبارة عن مستويات مائلة تدور وتلف حول حيطانه الخارجية، فقد نكرته بالبرج المستدير في كوبنهاغن. قاما بدفع مبلغ الستة يوروات الذي هو رسم الدخول، وشرعا في التسلق أملاً بدراسة الجزيرة من أعلى نقطة فيها.

وقف بقرب جدار بعلو صدره وحدَّق إلى البعيد من خلال القناطر المفتوحة ملاحظاً كيف أن الماء واليابسة يطارد بعضهما بعضاً في عناق شديد. وكانت طيور

مالك الحزين تحلق في السماء صُعداً منطلقاً من سبخة معشبة. أمّا بساتين الفاكهة وحقول الأرضي شوكي فقد لاحت له من البعيد في صمتٍ رصين. وبدأ المشهد الداكن أشبه بمنظر مدينة أشباح تنتسب إلى الغرب الأمريكي.

وفي الأسفل، وقفت الكاتدرائية، دون أن يكون حولها من الرونق ما يدعو إلى الشعور بالدفع والترحاب. فتصميمها الذي هو أشبه بأهراء حبوب، يعطي انطباعاً بأن إنشاءها لم يكتمل بعد. ولا عجب، فقد كان مالون قد قرأ في كتيب الدليل أن بناء هذه الكنيسة كان قد تمّ على عجل على يد رجالٍ كانوا يعتقدون أن العالم لن تتعدى نهايته العام 2000.

"إنها حكاية رمزية كبيرة." قال لكاسيوبيا. "كاتدرائية بيزنطية بالقرب من كنيسة إغريقية. شرق وغرب جنبا إلى جنب. تماماً مثلما هو حال مدينة البندقية." وأمام الكنيستين امتدت ساحة نما فيها العشب وتكاثر الهشيم. وهي ساحة كانت في يومٍ مضى قلب المدينة ومركز النشاط فيها.

أما الآن فهي ليست أكثر من حقلٍ قرويٍّ معشب أخضر. وقد امتدت الممرات المغبرة إلى خارج الميدان، وكان ممران من بين تلك الممرات، يقودان إلى قنالٍ آخر يلتفُّ أكثر فأكثر نحو البيوت الزراعية البعيدة. وعلى حدود الساحة وقف مبنيان حجريان آخزان، وكلاهما صغير لا تتعدى مساحته أربعين في عشرين قدماً، وهو متعدد الأدوار ويعلوه سطح مجملن. وقد شكّل هذان المبنيان معاً المتحف المسمى ميوزيو دي تورسييللو. ويقول كتيب الدليل السياحي أن كلا المبنيين كانا في الماضي في عداد مساكن أثرياء التجار، لكنهما الآن باتا مملوكين من الحكومة.

أشارت كاسيوبيا إلى المبنى القائم لناحية الشمال. "إن الميدالية موجودة هناك في الطابق الثاني. ليس هذا البناء يعد من المتاحف في شيء، فهو لا يحتوي سوى على قطع من حطام الموزاييك، وتيجان الأعمدة، وبضع لوحات، وبعض الكتب، وبعض قطع العملة من إغريقية ورومانية، بالإضافة إلى بعض التحف المصرية."

استدار إلى مواجهتها بينما استمرت هي في التحديق في فضاء الجزيرة. فإلى

الجنوب بدا لها خط الكفاف المحيط بوسط البندقية الذي تناطح أبراجه السماء الملبدة بغيوم كناء تنذر بقرب وصول عاصفة قادمة. "ما الذي نقوم بعمله في هذا المكان؟"

لم تسارع إلى إجابة سؤاله، تقدّم نحوها، ولامس ذراعها بيده. اختلجت تحت وقع الملامسة لكنها لم تبد مقاومة له. ترغرت عيناها فعجب ما إذا كان منظر تورسيلو الكئيب قد حرك لديها ذكريات وأشجان كامنة كانت تودُّ الإبقاء عليها طوي النسيان.

"لقد عفا الزمن على هذا المكان." تمتت قائلة.

كانا وحدهما في أعلى البرج، ولم يكن يُسمع في ذلك الصمت الكسول سوى بعض خفق للنعال على الممرّ الصاعد تخالطه أصوات بقية السياح وضحكاتهم بينما هم يتسلقون إلى الأعلى.

"كما عفا على إيلي،" قال لها.

عجب ما إذا كان انفجار إخلاصها وصراحتها يعبر عن شيء ما من ثقة متناهية عندها في شخصه. "ليس ثمة شيء تستطيعين القيام به."

"ليس هذا هو ما أقوله أنا."

لم تعجبه رنة كلماتها. "ما الذي يجول في ذهنك إذا؟"

لم تجبه عن سؤاله، ولم يشأ هو الإلحاح في طلب الجواب، واستمر يحدق معها عبر أسطح الكنيسة. وكان ثمة أكشاك قليلة تباع فيها القلادات الرخيصة، والحليّ الزجاجية، والتذكارات. وهي جميعها تحاذي زقاقاً قصيراً يمتد بين القرية وبين الساحة المعشبة. وكان رهط من الزوّار يتخذ له طريقاً في اتجاه الكنيستين. وبين أعضاء الرهط لمح مالون وجهاً بدا له أنه وجه مألوف لديه.

إنه فيكتور.

"أستطيع أنا أيضاً أن أتميّزه." قالت كاسيوبيا.

وصل رهط السياح إلى الأعلى في غرفة الجرس.

"إن الرجل الذي يقف إلى جانبه هو الشخص الذي قام بطعن العجلات." قالت له.

راقبا كيف أن الرجلين قد اتجها مباشرة نحو المتحف.

"علينا أن ننزل من هنا." قال لها. "فقد يخطر في بالهما إلقاء نظرة شاملة من الأرض المرتفعة أيضاً. تذكرني أنهما يعتقدان أننا في عداد الأموات." "أموات مثل هذا المكان برمته." تمتعت.

الفصل الخامس والثلاثون

البندقية

الساعة 3:20 عصراً.

قفزت ستيفاني من التاكسي المائي واتخذت طريقها خلال تلك المأربة (أرض تشبه جحور أرانب أو ما شابهها) الضيقة المسالك، المسدودة نهاية الشوارع. وكانت قد سألت عن الاتجاهات لدى وجودها في الفندق. وها هي ذي تحاول التقيّد بإرشادات الطريق قدر استطاعتها. لكن أنى لها ذلك والبندقية متاهة كبيرة. كانت تسير الآن في عمق منطقة دوروسويرو وهي تتبّع شارعاً ضيقاً تحفّ به التجارة من جانبيه فإذا به يغصُّ بها.

والى الأمام. وقع نظرها على الفيلاً. مبنى متناظر الأرجاء بشكل شديد الدقة، وله رونق يحيط به فيعصى على الإحاطة، ولعلّ مصدر جماله يأتي من التقابل الممتع للنظر بين الحيطان المبنية من طابوق القرميد الأحمر المعروقة بنبات معرّش له لون الزمرد، وهي مؤطرة بزخارف من حجر الرخام.

دخلت عبر البوابة المصنوعة من حديد مليّف، معلنة عن وجودها بطريقة على الباب الخارجي. فتحت الباب امرأة كبيرة لها وجه بهيجّ تلبس أثواب الخدم.

"لقد جئت لمقابلة السيد فينسينتي"، قالت ستيفاني: "قولي له إنني أحمل إليه سلاماً من الرئيس داني دانيالز."

زانتها المرأة بنظرة فضولية، فتساءلت في نفسها عما إذا كان الإتيان على ذكر رئيس الولايات المتحدة قد لامس وتراً. وزيادة في التأكيد فإنها ناولت مدبرة المنزل قطعة مطوية من الورق. "أعطه هذه البطاقة من فضلك."

تردّت المرأة قليلاً ثم أغلقت الباب.

وبقيت ستيفاني في الانتظار.

بعد ذلك بدقيقتين انفتح الباب من جديد.

بل انفتح إلى مداه الأوسع هذه المرة.

ولقد تمت دعوتها إلى الدخول.

"طريقة ساحرة لتقديم نفسك"، قال لها فينسينتي. جلسا في قاعة مستطيلة الشكل يظللها سقف مذهب وكانت أناقة القاعة بارزة تحت النور الضئيل الآتي من خلف البرانق التي لا شك أنها قد أحاطت بالآثاث منذ قرون عديدة. تناهى إلى أنفها شميم رائحة رطبة، خيل إليها أنها رائحة صوف حررة، يخالطها عبقُ ورنيش له عطر الليمون.

رفع مضيفها البطاقة. "لقد أرسلني إليك رئيس الولايات المتحدة؛ يا لها من عبارة." بدا سعيداً بأهميته التي يبدو أنها باتت لا تخفى.

"إنك شخصية لافتة يا سيد فينسينتي. فلقد وُلدتَ كمواطن أمريكي في شمالي مدينة نيويورك تحت اسم أوغست روتمان." هزت رأسها. "وها أنت الآن تدعى أنريكو فينسينتي؟ لقد غيّرتَ اسمك، وهذا يثير فضولي. فما هو سبب ذلك؟" هرّ كتفيه هرّة اللامبالاة. "الأمر كله يتعلق بانطباع في الذهن."

"لكن يبدو لي أن السبب قد يتعدى ذلك." تردت قليلاً. "هل للأمر علاقة بتبدل هويتك القاريّة؟"

"في الحقيقة كان اختياري لهذا الاسم ولید الكثير من التأمل. فكلمة "أنريكو" أتت من اسم أنريكو دونالدو، الدوق التاسع والثلاثون للبندقية؛ ففي أواخر القرن الثاني عشر، كان هذا الدوق قد قاد الحملة الصليبية الرابعة التي قهرت القسطنطينية وأنهت حكم الإمبراطورية البيزنطية. رجلٌ لا ككل الرجال، رجلٌ أسطورة، تستطيعين أن تقولي."

"أمّا كلمة فينسينتي فقد أتت من اسم رجل آخر من رجال البندقية الذين عاشوا في القرن الثاني عشر. إنه راهب بنديكتي متحدر من النبلاء.

وعندما انقطع دابر جميع أفراد أسرته في بحر إيجه، فإنه تقدم بطلب، نال الموافقة عليه، للإنز له بالتحلل من نذر نفسه لحياة الرهينة. فتزوج وأنجب خمسة فروع لنسبه ولنسب عائلته من خلال ذريته. لقد كان رجلاً أريباً واسع الحيلة فأكبرت فيه مرونته.

"وهكذا، فإنك أصبحت أنريكو فنسينتي أحد أرسطراطيي البندقية."

أوما برأسه إيجاباً. "يبدو ذلك رائعاً، أليس كذلك؟"

"أتريدني أن أستمّر في سرد ما أعرفه عنك؟"

أشار بأن: تابعي.

"إنك رجل في الستين من عمره، تحمل إجازة في العلوم من جامعة نورث كارولينا، كما تحمل إجازة أخرى في علوم الأحياء من جامعة ديوك. كما تحمل درجة دكتوراه من جامعة إيست أنجليا، ومن مؤسسة جون إنز في إنكلترا. وقد تمّ استخدامك من هناك عن طريق شركة صيدلانية باكستانية مرتبطة بالحكومة العراقية. ولقد عملت مع العراقيين في وقت مبكر من ابتداء برنامجهم الأولي لإنتاج الأسلحة البيولوجية، كان ذلك بُعيد وصول صدام إلى السلطة في العام 1979. وكان موقع البرنامج في منطقة سلمان باك إلى الشمال من بغداد، وكان يقوم على تشغيله مركز الأبحاث التقنية الذي كان يشرف على أبحاثهم الجرثومية. ومع أن دولة العراق كانت قد وقّعت على معاهدة حظر انتشار الأسلحة البيولوجية في العام 1972 فإن صدام امتنع عن إبرامها. ولقد بقيت تعمل مع العراقيين حتى العام 1990 قبيل أن تبدأ حرب الخليج الأولى بإطلاق قاذوراتها في السلة العراقية. وذلك عندما أقفل العراقيون كل شيء وقمت أنت بالنجاة بنفسك."

"كل ذلك صحيح يا آنسة نيل، أم أنك لا تمنعين إن ناديتك باسم ستيفاني؟"

"لك أن تنادينني بالإسم الذي يروق لك."

"حسناً يا ستيفاني، ما الذي يجعلني أقع في هذه الدرجة من اهتمام رئيس الولايات المتحدة؟"

"لم أكمل بعد كلامي."

أشار إليها من جديد أن استمرّي.

"من الجمرة الخبيثة، إلى البوتولينيوم، إلى الكوليرا، إلى الطاعون، إلى الرئيسين، إلى السالمونيلا، وحتى إلى الجدري - كنت أنت وزملاؤك قد اشتغلتم بإنتاج هذه الجراثيم."

"ألم يتأكد لجماعتك في واشنطن بعد أن كل ذلك لم يكن سوى روايات خيالية؟"

"ربما كان هذا القول صحيحاً في العام 2003 عندما قام بوش بغزو العراق، لكن من المؤكد تماماً أنّ الحال لم يكن كذلك في التسعينيات. لقد كان ذلك حقيقة واقعة بالفعل. ولقد أعجبتني على وجه الخصوص فكرة جدري الإبل Camal pox. لقد ظننتم أن هذا هو السلاح المثالي الأكثر أماناً وقابلية للتحكم فيه في المختبرات، من الجدري العادي. لكنه سلاح إثني فعّال مع كل ذلك. حيث أن العراقيين لديهم على وجه العموم، مناعة ضد هذا المرض بفضل كل تلك الجمال التي اقتنوها خلال القرون. لكن الأمر يختلف بالنسبة للغربيين والإسرائيليين، بل هو مسألة مختلفة كلياً فهو مرض حيواني/بشري قاتل تماماً."

"هذا مجرد مزيد من الروايات الخيالية،" قال فينسينتي. وقد ساءلت نفسها: كم من مرة تُراه قد جاهر بهذه الكذبة ذاتها، وبهذه اللهجة المؤكدة.

"هنالك الكثير من الوثائق والصور وشهود العيان مما يكفي لجعل تلك القصة الرئيسية قصة ثابتة،" قالت له. "ومن أجل ذلك، فإنك كنت قد اختفيت عن العراق بعد العام 1990."

"كوني واقعية يا ستيفاني، لم يكن من أحد يعتقد في الثمانينيات أن الأسلحة البيولوجية يمكنها أن تصلح حتى لأن تكون أسلحة دمار شامل. ولم تكن واشنطن لتعير ذلك أيّ اهتمام. لكن صدّام كان على الأقلّ قد رأى فيها احتمالاً لأن تكون سلاحاً."

"لكننا صرنا ندري عنها أكثر من ذي قبل. إنها تشكل تهديداً حقيقياً. وفي الحقيقة، فإن الكثيرين يعتقدون أن الحرب البيولوجية الأولى لن تكون حرباً متبادلة جائحة. بل ستأخذ شكل قيام دولة فاجرة بالإعتداء على جيرانها. ولن يكون هناك

مراعاة لأي مبادئ دولية أخلاقية قد تمّ التراضي في يوم من الأيام حولها. بل سيكون هناك مجرد كراهية محلية وقتل أعمى. شيء يشبه ذلك الذي حصل إبان الحرب العراقية - الإيرانية في الثمانينيات حيث كانت بعض جراثيمك قد تمّ استخدامها هناك بالفعل ضد البشر."

"إنها نظرية طريفة، ولكن أليست هذه هي مشكلة رئيسكم؟ لماذا إذاً عليّ أن أهتمّ للأمر؟"

قرّرت الآن أن تغيّر التكتيك. "إن شركتك، التي هي فيلوجين فارماسيتيك تعتبر حكاية نجاح لافتة للانتباه. فأنت تملك شخصياً مئتين وأربعة ملايين سهماً من مجموع أسهمها وهو ما يمثل إثنتين وأربعين في المئة من رأسمال هذه الشركة، فأنت بذلك تكون أكبر مساهم شخصي فيها. كما أنك تملك كتلة مختلطة لافتة للنظر. وموجودات عينية تساوي قيمتها العشرة بلايين يورو. وهي تشتمل على شركات ثانوية مملوكة بالكامل تختص بصناعة مواد التجميل، ومستحضرات الزينة، والصابون، والأغذية المجمّدة، وسلسلة مخازن أوروبية. ولقد كنت قد اشتريت تلك الشركة منذ خمس عشرة سنة مقابل لا شيء تقريباً."

"إنني متأكد أن دراساتكم قد أظهرت لكم أن تلك الشركة كانت على حافة الإفلاس في ذلك الوقت."

"بل إن هذا هو ما يستدعي الإجابة - كيف استطعت أن تشتري الشركة وأن تنقذها من الإفلاس معاً؟"

"ألم تسمعي من قبل بالاككتابات الشعبية؟ لقد قام الناس باستثمار انخاراتهم."

"هذا ليس هو الواقع. فلقد قمت أنت بتقديم معظم الرأسمال الإبتدائي لها. وكان ذلك المبلغ حوالي الأربعين مليون دولار حسب تقديراتنا. وهو «تحويلة» لا بأس بها كنت قد قمت بجمعها من العمل مع حكومة فاجرة."

"لقد كان العراقيون كرماء معي، وكان لديهم برنامج طبابة جيد وبرنامج تقاعد ممتاز."

"إن الكثيرين من علماء المايكروبيولوجيا الذين عادوا، وأنت واحد منهم."
هنا كان قد بدأ يلتقط تصاعد الجِدة، في لهجتها فقام بمقاطعتها قائلاً: "هل هنالك من هدفٍ محدّدٍ لهذه الزيارة؟"

"إنك رجل أعمال مدهش. ومن جميع النواحي فأنت مغامر ممتاز. لكن شركتك قد بالغت في التوسّع، وباتت خدمة ديونك ترهق كل مصدرٍ لثروتك، ومع كل ذلك فإنك تستمر في التوسع."

يبدو أن إدوين ديفيس قد زوّدها من المعلومات بما هو كافٍ.

"هل يتطلّع الرئيس دانيالز إلى الدخول في بعض التوظيفات؟ ماذا بقي له من فترة رئاسته، أليست هي مجرد ثلاث سنوات؟ قل لي له إنني أستطيع أن أجد له مقعداً في مجلس إدارة شركتي."

مدّت يدها إلى جيبها وتقدمت نحوه بميدالية فيلٍ منضّدة. التقط القطعة بسرعة مذهلة.

"هل تعرف ما هذه؟"

تفحص قطعة العشر درخمت. "تبدو أشبه برجلٍ يحارب فيلاً. ثم رجلٌ يقف حاملاً رمحاً. لكنني أخشى أن القطع النقدية ليست شيئاً من بين نقاط معرفتي، القوية."
"أجل، فالجراثيم هي موضوع اختصاصك."

ثمّنها بنظرة إدانة وتجريم.

"عندما قام مفتشو أسلحة الدمار الشامل التابعين لهيئة الأمم المتحدة باستجوابك بعد حرب الخليج الأولى عن برنامج العراق للأسلحة البيولوجية، فإنك لم تذكر لهم أن شيئاً من هذه الجراثيم كان قد تمّ تطويره. لقد قلتَ فقط أنه قد جرى الكثير من أعمال البحث، لكن المشروع برُمته كان يعاني من نقصٍ في التمويل كما كان يعاني من سوء الإدارة."

"كل تلك السموم التي تكلمت عنها؟ إنها كميات هائلة يصعب إحرازها وتخزينها. ثم هي مربكة وتبدو السيطرة عليها شبه مستحيلة. إنها ليست بأسلحة تصلح عملياً للاستخدام. ولقد كنتُ على صواب في ما قلته."

"لكن رجالاً أنكياء من أمثالك يستطيعون تذليل مثل تلك الصعوبات."

"لستُ إلى هذه الدرجة من الذكاء."

"هذا ما كنتُ أنا أعتقده فيك. لكن آخرين لا يوافقونني الرأي."

"كان عليك ألا تصغي إلى أقوالهم."

تجاهلت رده عليها. "ضمن ثلاث سنوات من مغادرتك العراق، كانت شركة فيلوجين قد نهضت وازدهرت. وكنت أنت قد صرت عضواً في عصابة البندقية." راقبت لترى ما إذا كانت كلماتها قد استثارت أية ردّة فعل منه. "إن تلك العضوية لا تُنال دون ثمن. وهو ثمن باهظ القيمة، كما قيل لي."

"لست أعتقد أن التقاء الرجال والنساء للاستمتاع بصحبة بعضهم للبعض الآخر هو عمل يحرّمه القانون."

"لكنكم لستم نادياً مثل نوادي الروتاري."

"بل إن لدينا أهدافنا، أعضاء نخبويون، يكرّسون نواتهم لرسالتنا. إن هذا يشبه أيّ نارٍ مكرّس لخدمة معيّنة كنت قد سمعتُ عنه."

"لكنك حتى الآن لم تجب عن سؤالِي." أشارت تدلّهُ بإصبعها. "هل سبق لك أن رأيت واحدة من قطع العملة هذه قبل الآن؟"

رمى القطعة نحوها من جديد. "أبداً."

حاولت أن تستقرئ هذا الرجل البارز الحجم الذي كان صوته يضارع وجهه في المخادعة. فمن بين كل شيء كانت قد أعلمت به عنه، هو أنه عالم فيروسات وسطيّ المواهب، وليس يملك سوى مستوى عادي من التحصيل العلمي، وأن لديه موهبة في التجارة والأخذ والعطاء. وأنه قد يكون أيضاً مسؤولاً عن وفاة ناومي جونز.

وقد جاء الوقت لمعرفة ذلك.

"إنك لا ترقى إلى مستوى نصف ما تعتقده عن نفسك من ذكاء."

أرجع فينسينتي خصلة شعرٍ شاذة من فروة رأسه الخفيفة إلى الوراء. "لقد أصبح كلامك لا يطاق."

"إذا كانت قد قتلت فعليك أن تعتبر نفسك ميتاً كذلك." "ما لانتهازي؟"

راقبته من جديد لتستقرىء ردّة فعله وبدا لها أنه يزن مقدار الحد الأدنى من الحقيقة التي يستطيع المجاهرة به أمامها في مقابل كذبة قد لا تستطيع تحملها.

"هل انتهينا؟" سألتها. وهو لا يزال يحافظ على قسط وافر من التأدّب.

وقفت. "بل في الحقيقة أننا قد ابتدأنا. "رفعت الميدالية. "إن على وجه قطعة العملة هذه، وبين ثنايا عباءة المحارب التي تظهرها، ثمة أحرف متناهية الصغر. ومن المدهش أن يكون شعب قديم قادراً على الحفر بهذه الدقة. لكنني فحصتُ عن الأمر مع خبراء فعرفتُ أنهم إنما استطاعوا ذلك. لقد كانت الأحرف أشبه بالعلامات المائية. إنها احتياطات أمنية وإن هذه القطعة تحمل حرفين هما: Z H (زيتاً هيتاً) فهل يعني ذلك شيئاً بالنسبة إليك؟"

"كلا إنها لا تعني لي أي شيء."

لكنها استطاعت أن تلتقط لحظة عندما ومضت عيناه بالاهتمام. أم أن ذلك كان فعل دهشة؟ لعل الأمر كله استدّام ما يقل عن جزئيء واحدٍ من أصل مليون من الثانية من فعل الصدمة.

لقد قمتُ باستشارة بعض الخبراء في اللغة الإغريقية القديمة فقالوا لك أن ZH تعني "الحياة". وهذا أمرٌ مثيرٌ للاهتمام، ألا توافقني؟ خاصة وأن يجشم شخص ما، نفسه عناء احتقار نينك الحرفين الدقيقين اللذين يحملان مثل هذه الرسالة، في الوقت الذي كان فيه ثمة أشخاص قليلون جداً من الذين يستطيعون حتى قراءتها. فالعدسات المجهرية كانت عملياً من الأمور المجهولة في تلك الأيام."

هزّ كتفيه إشارة إلى عدم الاهتمام. "إن مثل هذه الأمور لا تعنيني."



انتظر فينسينتي خمس دقائق كاملة بعد أن تمّ إغلاق باب قصره الخارجي. جلس في الصالون مفسحاً المجال أمام الهدوء كي يهدئ ما قد أصابه من قلق واضطراب. ولم يكن ثمة ما يعكر عليه صفو الهدوء العميق سوى نقرات مناقيد طيور الكناري،

وحفيف أجنحتها الحبيسة في الأقفاص. لقد كان قصره هذا مرة، مسكناً لذواقٍ أدبيٍّ فجعل من هذا القصر منذ قرون خلت، مركزاً رئيساً للقاءات الجمعية الأدبية للبندقية. ثمة مالك آخر للقصر، استغل ميزة وجوده على حافة القنال لكي يستضيف فيه العديد من الاحتفالات الجنائزية وخدمات دفن الموتى مستعملاً القاعة التي كانا يجلسان الآن فيها كغرفة عمليات مخصصة لتشريح الجثث وحفظها مؤقتاً. أما بعد ذلك، فقد اختار المهرَّبون هذا القصر كسوقٍ للبضائع المهرَّبة، محيطين أسواره عن سابق نية بالشائعات والخرافات المشؤومة، في محاولة لإبعاد الفضوليين عن حقيقة نشاطهم.

وقد كان هو يشتهي عودة تلك الأيام.

ها هي ستيفاني نيل، العاملة في جهاز التحري التابع لوزارة العدل الأمريكية. والتي من المفترض أنها منتدبة شخصياً من رئيس الولايات المتحدة، تقلقه وتقض مضجعه.

ولم تكن معدته تؤلمه الآن في حقيقة الأمر، لا بسبب ما قد يكون الأمريكيون يعرفون عن ماضيه، فهذه المعلومات عن ماضيه ستصبح لا محلَّ لها بعد وقت قريب؛ كذلك لا بسبب ما قد حصل لعملية الأمريكيين التي كانوا قد أرسلوها كي تتجسس عليه، فهي الأخرى قد باتت الآن ميتة ودفينة في قبر لن يتم العثور عليه أبداً. بل إن معدته باتت تؤلمه في الواقع بسبب هذين الحرفين المحفورين على وجه قطعة العملة بخط متناهي الصغر وهما:

ZH

زيتاً هيتاً

الحياة

"تستطيع الدخول الآن." نادى بصوتٍ عالٍ.

دلف بيتر أوكونييه إلى داخل القاعة، بعد أن كان قد استرق السمع إلى الحديث الذي جرى كاملاً، من خلال أحد الأبواب المؤدية إلى ردهة ملاصقة. كما أن هرةً من بين الكثير من الهررة التي يأويها قصر فينسينتي تسللت إلى القاعة هي أيضاً.

"ماذا تعتقد؟" سأل فينسينتي.

"إنها مبعوثة تنتقي كلماتها بكل عناية ودقة."

"إن الميدالية التي عرضتها عليّ تشبه بالضبط تلك الميداليات التي تسعى زوفاستينا وراءها. فهي تطابق الأوصاف التي كنت قد قرأتُ عنها بالأمس في المادة الكتابية التي كنت قد زودتني بها في الفندق."

لكنه مع ذلك كان لا يزال يجهل السر الذي يجعل هذه القطع المعدنية من العملة، على هذا الجانب من الأهمية.

"ثمة تطور جديد في الأحداث. إن زوفاستينا قادمة اليوم إلى البندقية."

"هل هي قادمة في زيارة حكومية؟ إنني لم أسمع شيئاً عن ذلك."

"لا، إنها ليست زيارة رسمية. فهي ستأتي وتغادر في هذه الليلة بالذات. ستأتي في طائرة خاصة، وهي تلقى ترتيبات خاصة جداً كان الفاتيكان قد قام بترتيبها مع الجمارك الإيطالية. هذا ما أبلغه إليّ أحد مصادري في اتصال هاتفي."

لقد أيقن الآن أن ثمة شيئاً ما، يحدث على وجه مؤكد، وأن زوفاستينا تتقدم عليه في ذلك بعدة خطوات. "إننا في حاجة لمعرفة متى تأتي وإلى أين تذهب."

"لقد اتخذتُ كل ترتيباتي سلفاً من أجل ذلك. وسوف نكون جاهزين لها."

ولقد آن الأوان له ليضرب ضربته، هو الآخر. "هل نحن جاهزون لعملية سمرقند؟"

"كل شيء جاهز في انتظار إشارتك."

قرر أن يستغل فرصة غياب عدوّته. ليس من الحكمة الآن انتظار حلول عطلة نهاية الأسبوع. "جهّز لي طائرتي. سوف نظير في غضون ساعة واحدة. لكن عليك أن تتخذ الاحتياطات الأكيدة لتمكيننا من معرفة كل ما تفعله رئيس الوزراء هنا في غيابنا."

أوما أوكونييه برأسه إيجاباً علامة استيعابة للأوامر.

والآن ذهب ذهنه إلى أمرٍ يقلقه حقّ القلق. "شيء أريده منك. أريد إرسال رسالة إلى واشنطن. رسالة سيفهمونها هناك تماماً. تدبّر أمر قتل ستيفاني، واحصل على الميدالية التي في حوزتها."

الفصل السادس والثلاثون

الساعة 5:50 مساء

استمتع مالون بطبق المعكرونة الممزوجة باللحم والجبنه. وكان فيكتور وجماعته قد غادروا الجزيرة منذ ساعة خلت بعد صرف حوالي عشرين دقيقة في داخل المتحف، والانتهاه من استجلاء جوار الكاتدرائية، خاصة تلك الحديقة التي تفصل بين الكنيسة في تورسيللو وبين الجزيرة الشعثاء التي تليها. وكان هو وكاسيوبيا قد راقبا كل ذلك من عدة نقاط. ولم يبدُ أن فيكتور قد لاحظ شيئاً لأن تركيزه كان منصّباً بكل تأكيد، على المهمة التي هي بانتظاره. وقد بدا مستمتعاً مرتاحاً لاعتقاده أنه مجهول لا يلتفت انتباه أحد.

وبعد أن غادر فيكتور وشريكه في الجرم مستقلين حافلة مائية، تراجع مع كاسيوبيا إلى وسط القرية. وقد أرشدهما أحد باعة التذكارات المتجولين إلى أن المطعم المسمى لوكندة سيبرياني الموجود في تلك الناحية منذ بضعة عقود من السنين، هو واحد من بين أشهر مطاعم البندقية، حيث أن الناس يقودون قواربهم إليه في كل مساء للاستمتاع بأجوائه السائدة. وفي داخل ذلك المطعم، وبين أسقفه الخشبية، وطينه المشوي، ونقوشه الدقيقة، ثمة قاعة للصور الفوتوغرافية بينها صور لـ: همنغواي، وبيكاسو، وديانا، وشارل ديغول، والملكة إليزابيث، وتشرشل وعدد لا يحصى من الممثلين والممثلات والعازفين والعازفات. وكل من هذه الصور يحمل توقيعاً شخصياً لصاحبه تحت عبارة شكر.

كانا يجلسان في حديقة المطعم تحت تعريشة لها أزهار جميلة نكيّة الرائحة. وفي ظلال الكنيستين وأبراجهما، كانت تقع تلك الواحة الوادعة التي تحيط بها أشجار الرمان المزهرة. وكان عليه أن يعترف أن الطعام رائع. فحتى كاسيوبيا بدت جائعة. إذ

لم يكن أيٌّ منهما قد نال شيئاً من الطعام منذ أن تناولا إفطارهما معاً في كوبنهاغن.
"سوف يعود بعد حلول الظلام." قالت له بهدوء.

"وستكون هناك نارٌ جديدة؟"

"يبدو أن هذا هو أسلوبهم المعتاد، مع أن هذا التدبير ليس بضروري فلا أحد من المفترض به أن يفتقد وجود قطعة العملة هذه."

كانا بعد مغادرة فيكتور قد دخلا إلى المتحف. فتبين أن كاسيوبيا كانت دقيقة في وصفها له. فلم يكن فيه ذلك الكم الكبير من المعروضات. قطع متناثرة، بقايا أعمدة، تيجان أعمدة، قطع موزاييك، وعدد قليل من اللوحات. وفي الطابق الثاني، كان ثمة خزانتان عتيقتان سقفهما من زجاج، عُرضت فيهما قطع الفخار المكسرة وبعض الحلّي وأواني البيوت القديمة، وكلها آثار من المفترض أن يكون قد عُثر عليها في جوار تورسيللو، أمّا ميدالية الفيل فقد كانت معروضة في إحدى الخزانتين بين مجموعة متنوعة من قطع العملة الأخرى. وقد لاحظ مالون أن المبنى كان خالياً من أجهزة الإنذار أو الاحتياطات الأمنية، وأن القيمة عليه هي سيدة تعمل بمفردها، ترتدي ثوباً أبيض، ولا تكاد تهتم سوى بمنع الزوار من التقاط الصور.

"سوف أقتل ابن العاهرة هذا،" تمتعت كاسيوبيا.

لم يدهشة هذا التصريح. فلطالما كان قد استشعر غضبها الشديد منذ كانا يرتقيان معاً برج الناقوس. "هل تعتقدين أن إيرينا زوفاستينا هي التي دبّرت قتل إيلي؟"

توقفت عن مضغ الطعام.

"هل لديك من برهانٍ سوى الحقيقة الثابتة أن منزله قد احترق ودمر إلى الأرض؟"

"إنها هي التي فعلت تلك الفعلة. أعرف هذا."

"في الحقيقة إنك لا تعرفين شيئاً."

جلست دون أن تخالجها حركة. أمّا خلف الحديقة، فإن دغشة الظلام كانت قد بدأت تسيطر على المكان. "إنني أعرف ما هو كافٍ."

"يا كاسيوبيا إنك تقفزين إلى الاستنتاجات. إني أوافق معك أن حادث الحريق مشبوه. لكن لو كانت هي التي فعلته، فإن ما تحتاجين معرفته: هو السبب الذي يدفعها إلى فعل ذلك."

"عندما كان ولدك غاري مهدداً، ما الذي فعلته؟"

"لقد استرجعته إليّ سالمًا."

عرف أنها قد أيقنت أنه على صواب. فالقاعدة الأولى في كل مهمة. هي ألا ترفع أنظارك عن الهدف. "لست بحاجة إلى نصيحتك."

"إن ما يلزمك هو أن تتوقفي وتفكري."

"يا كوتون، هنالك من الأحداث التي تدور هنا، ما هو أبعد مما يخطر لك في بال."

"هذا شيء مروّع."

"دعني وشأني، في وهمي وروعِي."

"لا يمكنني أن أفعل ذلك."

نبهه ارتجاج في جيب سرواله. أخرج الهاتف الخليوي ولاحظ الرقم الظاهر على الشاشة ثم قال لها. "إنه هنريك." ثم أجاب.

"يا كوتون. لقد اتصل الرئيس دانيالز على التّو." قال المتحدث.

"لا شك عندي أنّ هذا مثير للاهتمام."

"لقد ذهبت ستيفاني إلى البندقية. لقد أرسلت إلى هناك لتقابل رجلاً يدعى أنريكو فينسينتي. إن الرئيس قلق لأنه فقد الإتصال بها."

"وما الذي دعاه إلى مكالمتك أنت؟"

"لقد كان يبحث عنك، مع أنني شعرت أنه كان عارفاً بوجودك هناك."

"هذا أمرٌ لا يصعب التحقق منه بفضل تقنية المسح الإلكتروني لجوازات السفر في المطارات. شرط أن تعرف على أي بلد تقوم بتركيز بحثك."

"يبدو أنه قد اهتدى إلى البلد الصحيح."

"ولم تم إرسال ستيفاني إلى هنا؟"

"لقد قال إن فينسينتي هذا، له علاقة بإيرينا زوفاستينا. وإنني أعرف عن فينسينتي. إنه مشكلة كبيرة. كما أن دانيالز قد أخبرني أيضاً أن عميلة أخرى قد ضاع أثرها منذ أكثر من يوم واحد. ويُعتقد أنها قد قُتلت. لقد قال إنك على معرفة بها. إنها امرأة تدعى ناومي جونز."

أغلق عينيه. كان هو وناومي جونز قد التحقا بفرقة ماجيلان بيليه معاً، كما أنهما عملاً معاً كفريق واحد في عدة مهمات. إنها عميلة جيدة، وصديقة جيدة. كانت هذه هي مشكلة خدمته في مهنته السابقة - فقلماً كان يجري تسريح أي من رفاقه - إما أن تعتزل، أو أن تتقاعد أو أن تموت. ولقد كان سبق له أن حضر العديد من جنازات الرفاق.

"وهل أن فينسينتي متورط في ذلك؟" سألته.

"دانيالز يظن ذلك."

"أخبرني عن ستيفاني."

"إنها تنزل في فندق مونتي كارلو. وهو يقع في مبنى قائم إلى الشمال، خلف الكاتدرائية، في سان ماركو، على حافة قنال كال ديغلي سباشييري."

"ولم لم يستخدم واحداً من جماعتهم الخاصة؟"

"قال إن ناومي جونز كانت هي عنصرهم الموجود في ذلك الموقع. ولا يوجد لهم أي عنصر آخر هناك. ولقد كان الرئيس يأمل مني أن أتمكن من الاتصال بك لسؤالك عما إذا كان في وسعك أن تتأكد من مصير ستيفاني، يمكنك هذا؟"

"سوف أتولى القيام بهذا الأمر."

"وكيف تجري الأمور هناك؟"

حلق عبر المائدة نحو كاسيوبيا. "ليست على ما يرام."

"أخبر كاسيوبيا أن الطرد البريدي الذي أوصت عليه سوف يصل إليها في وقت قريب."

أقفل خط الهاتف، وتوجّه إليها بالسؤال. "هل كنت قد تكلمت مع هنريك؟"

أومأت برأسها علامة الموافقة. "كنت قد كلمته منذ ثلاث ساعات. بعد أن وقعت أنظارنا على أصدقائنا السارقين."

كانا قد انفصلا، وقام كل واحدٍ منهما بتفقد أحد المتحفين كلٌّ على حدة. "إن ستيفاني موجودة في البندقية، وهي قد تكون تحت الخطر." قال لها. "إن عليّ الذهاب وتفقّد أحوالها."

"أستطيع الإمساك بزمام الأمور هنا بمفردي." لكنه كان يشكُّ في ذلك.

"سوف ينتظران حتى قدوم الظلام قبل أن يعودا،" قالت له. "ولقد طلبتُ إخلاء هذه الجزيرة من الناس ليلاً عدا الناس الذين يأتون لتناول العشاء هنا. إن وقت الإقفال هو عند التاسعة مساءً. وإن آخر حافلة مائية تغادر عند الساعة العاشرة ليلاً. ومع حلول تلك الساعة يكون الجميع قد غادروا."

وصل نادلٌ وسلّم إليها صندوقاً فضياً ملفوفاً بشريطٍ أحمر إلى جانب حقيبة طويلة مصنوعة من القماش وربما يبلغ طولها ثلاثة أقدام. وهي مربوطة بعقدة مزركشة تزيّنها. وشرح النادل لها أن تاكسي ماء قد حضرت لتسليم هاتين الهديتين منذ بضع لحظات. وقد نفحه مالون بقطعتي يورو بقشيشاً له.

فضّت كاسيوبيا الغلاف عن الصندوق. استرقت نظرة إلى داخله، ثم مرّته إلى مالون. وكان في داخله مسدسان أوتوماتيكيان مع مخازن احتياطية.

أشار إلى الحقيبة. "وماذا عن تلك؟"

"إنها مفاجأة لصديقنا السارقين."

لم يكن يحب التضمين.

"أنت تقوم بالاهتمام بأمر ستيفاني." قالت له. "أما أنا فلقد آن الأوان لي كي أجعل السيد فيكتور يرى شبحاً."

الفصل السابع والثلاثون

الساعة 9:40 ليلاً.

أخيراً، وجد مالون فندق مونتي كارلو في المكان الذي كان قد وصفه له ثورفالدسن تماماً. كان الفندق مخبوءاً إلى جانب شارع هو أشبه بدھليز تحفٌ بجانبه المحال والمقاهي المزدهمة، وذلك على مسافة مئة قدم إلى الشمال من الكاتدرائية. تحايل لشق طريقه بين الجمع الكثيف من المشاة إلى مدخل له واجهة زجاجية، دخل إلى البهو حيث يوجد رجلٌ شرق أوسطيٌ يلبس قميصاً أبيض، وعليها ربطة عنق فوق سراويل سوداء، وهو ينتظر خلف نُصْد الاستقبال.

"مرحباً،" قال مالون. "أتتكم الإنكليزية؟"

ابتسم الرجل. "بالطبع."

"جنّت أسأل عن ستيفاني نيل، هي أمريكية تنزل عندكم."

أشرق وجه الرجل فوراً بالتذكر، فتابع سؤاله له. "في أيّ غرفة هي؟"

مدّ الرجل يده إلى حمالة المفاتيح خلفه. "مئتان وعشرة."

اتجه مالون نحو بيت درجٍ رخامي.

"لكنها ليست في غرفتها."

استدار راجعاً.

"لقد خرجت إلى الساحة منذ بضع دقائق. طلباً للحصول على شيء من

البوظة، لقد رمت لي بمفتاح غرفتها منذ لحظات." رفع الخادم قطعة ثقيلة من

النحاس وقد حُفر عليها الرقم 210.

كم هو الأمر مختلف حقاً في أوروبا لكي يحصل المرء على معلومة. فمثل هذه المعلومة كانت لا بد من أن يكلفه الوصول إليها في أمريكا حوالي مئة دولار على الأقل. ولكن مع كل هذا، فإن لا شيء يبدو أنه واقع في الموقع الصحيح. فثورفالدسن يقول إن واشنطن فقدت الاتصال مع ستيفاني. لكن من الواضح أنها قد كانت منذ لحظة في فندقها. وهي لا بد أن تكون، مثل جميع أفراد فرقة ماجيلان بيليه، تحمل هاتفاً دولياً.

ومع كل ذلك، إنها تقوم بمغادرة الفندق بصورة عرضية بحثاً عن شيء من البوظة؟

"هل لديك أي فكرة عن مكانها؟"

"كنت قد دلتها على السوق المقنطر الواقع أمام الكاتدرائية. حيث تباع لذائذ وطيبات جيدة هناك."

إنه يستسيغ البوظة أيضاً. إذا لم لا؟

ليذهب ويشاركها تذوق البوظة.



اتخذت كاسيوبيا لنفسها استحكاماً في مكان قريب حيث يصبُ قنال الإتصال في مياه البحيرة. وهو مكان ليس بعيداً في كل حال، عن محطة النقل العام في تورسيللو. فإذا صدق حدسها، فإن فيكتور وكتيبته سيعودون إلى هنا في وقت ما ضمن ساعتين من الآن.

وكانت العتمة قد لفت الجزيرة.

ولم يبقَ محلٌّ فاتحاً أبوابه سوى المطعم الذي تناولت فيه طعامها مع مالون، لكنها كانت تعلم أنه هو الآخر لا بد له من أن يقفل أبوابه بعد نصف ساعة. وكانت قد استطلعت أيضاً كلاً من الكنيستين والمتحف. وكلاهما قد أقفل أبوابه وغادره موظفوه مستقلين حافلة الماء الأخيرة التي غادرت منذ ساعة مضت.

ومن خلال الضباب الكثيف الذي يكتنف البحيرة، لحظت وجود قوارب تروح

جيئة وذهاباً وفي كل اتجاه. وكانت حركة القوارب كما هي تعلم لا بد من أن تقتصر على مكان وجود القنوات التي تعمل بمثابة شوارع رئيسة من المياه الضحلة. أما ما كانت على وشك عمله فهو تجاوز خط أخلاقي لم يسبق لها أن تجاوزته من قبل. فصحيح أنه كان قد سبق لها وقتلت، لكن كل ذلك كان يحدث دائماً بدافع الاضطرار. أما اليوم فإن الأمر مختلف. كان الدم يجري بارداً في عروقها. وهو أمر قد أخافها من نفسها.

لكنها مدينة إلى إيلي.

فهو لم يبرح أفكارها يوماً.

وإن نسيّت فكيف تنسى ذاك الوقت الذي صرفته معه في الجبال.

كانت قد حدقت فوق كتلة الصخور المتحدرة إلى التلال الشديدة الانحدار. مسيلات مياه، وممرات ضيقة، ومهاوٍ. ولقد عرفت أن جبال الباميرز هي مكان للعواصف العنيفة والهزات الأرضية والضباب الدائم والنسور المحلقة. إنها جبال معزولة وموحشة. ولم يكن هنالك من صوت سوى العواء الوحشي ليخترق حجاب الصمت.

"أنت تحبين هذه الأجواء، أليس كذلك؟" سألها إيلي.

"بل إنني أحبك أنت."

ابتسم لها. لقد كان في أواخر العقد الثالث من عمره. كتفاه عريضان، وله وجه طافح مستدير، وعينان شقيتان. كان إيلي من بين أحد الرجال القليلين الذين صادفتهم فجعلوها تشعر بعدم الاتزان العقلي، وقد أحببت تلك الشعور. ولقد علمها إيلي الكثير.

"إن القدوم إلى هنا هو أحد مباحج عملي." قال لها إيلي.

لقد أخبرها عن معتزله الكائن في الجبال، إلى الشمال من سمرقند، في المنطقة القريبة من الحدود الصينية. لكن هذه كانت هي زيارتها الأولى إلى هذا المكان. وكانت الكابينة المؤلفة من ثلاث غرف قد بنيت من الخشب الصلب، وجثمت كالعش بين الغابات الواقعة على مقربة من الطريق السريع الرئيسي في مكان يرتفع حوالي ألفي متر

فوق سطح البحر. فبعد قطع مسافة قصيرة مشياً على الأقدام، إذ بهما في هذا المجثم الواقع فوق ذلك المنظر الجبلي المشهدي.

"هل هذه الكابينة ملك لك؟" كانت قد سأله.

هز رأسه نافياً. "إنها تعود إلى أرملة صاحب الدكان في القرية. كانت قد عرضتها عليّ في السنة الماضية عندما قدمت في زيارة إلى هنا. فالنقود التي أدفعها لها إيجاراً لهذه الكابينة تساعدني على تأمين أود حياتها، أما أنا فأستمتع بكل هذا."

أحببت أسلوبه الهادئ. فهو لم يرفع صوته قط. ولم يتفوه بكلمة واحدة نابية. مجرد رجل بسيط يعشق الماضي.

"هل وجدت ما تبحث عنه؟"

أشار إلى الأرض الصخرية وترابها الأرجواني. "أفي هذه الأرض؟"

هزت رأسها. "بل في آسيا كلها."

بدا كأنه يتملى سؤالها في شوق. وقد تركته يتلذذ باسترساله في أفكاره وسرّحت نظرها بعيداً بينما كانت رقاع الثلج تتنزل على إحدى خواصر الجبل البعيدة.

"أعتقد أنني قد وجدته"، قال لها أخيراً.

تضاحكت لهذه الإجابة المؤكدة. "وما الذي تُراك قد قمت بإنجازه؟"

"لقد التقيتُك."

لم يكن اهتمام الرجال بها ليأخذ بلبها. فالرجال يدأرونها طيلة الوقت. أما الأمر مع إليّ فقد كان يختلف تماماً. "هل من شيء سوى ذلك؟" قالت له.

"لقد تعلمتُ أن الماضي لا يرحل ولا يموت."

"هلاً أوضحت لي؟"

توقّف العواء فباتت ثرثرة المياه الضعيفة لنهير بعيد مسموعة.

"ليس الآن"، قال لها.

لفت نراعيها حوله، وغمرته إليها وقالت: "تُفضي به إليّ متى صرت جاهزاً لذلك."

اغرورقت عيناها لذكرى إيلي. إيلي الذي كان مميزاً وعزيزاً من عدة وجوه. ولقد جاء موته صدمة عنيفة لها أشبه بالصدمة التي شهدتها ساعة جاءها نعي وايلدها. أو عندما أعلمت أن وايلدها قد أصيبت بسرطانٍ لم يكن أحدٌ يدري أنه يكمن في جسدها. ألمٌ أليم وحرقات قلبٍ كثيرة.

لاحظت وجود زوج من الأنوار الصفراء المتجهة صوبها، لقد كان القارب يشق طريقه مباشرة نحو تورسيللو. وكانت اثنتان من تاكسي المياه قد قديمتا وعادتا تنقلان الزبائن من وإلى المطعم.

وحسبت أن تكون هذه واحدة أخرى.

لقد كانت تعني ما أفضت به إلى مالون. إن إيلي قد مات قتلاً. ولم تكُ تمتلك دليلاً واحداً على ذلك. اللهم سوى إلهامها. لكن هذا الشعور لم يخطئ مرةً معها. وليبارك الله قلب ثورفالدسن فإنه كان يحسُّ أنها في حاجة إلى حلٍّ لما هي تعاني منه. ومن أجل هذا فإنه قد أرسل إليها دون نقاشٍ حقيبة القماش التي تحتضنها الآن في عناقٍ شديد، والمسدس الذي دسّته في حزامها. كانت تكره إيرينا زوفاستينا كما تكره فيكتور، وكل شخصٍ آخر من الذين دفعوا بها إلى هذا الموقف الذي هي فيه في هذه اللحظة.

أبطأ القارب في سيره، وخفّ ضجيج محركه.

كان قارباً أشبه بالقارب الذي استأجرته هي ومالون. كان خط اتجاهه يتجه نحو مدخل القنال مباشرة، وقد أخذ يقترب أكثر فأكثر بلون ضوءه الكهرماني الأصفر المثبت فوق دفته. لكنها لم تلمح سائناً غريب الوجه عنها. بل إنها لمحت وجه فيكتور.

لقد أتى مبكراً.

وهذا أمر لا بأس به.

فلطالما أرادت أن تصفّي هذا الحساب معه في غياب مالون.



سارت ستيفاني في يُسرٍ عبر ساحة سان ماركو. وكانت الزَّيْنُ المذهَّبة للكاتدرائية تشعُّ خلال الظلام. أمَّا الكراسي والمناضد فتمتد داخل حنايا القناطر وخارجها عبر الرصيف الشهير في صفوفٍ متناظرة. إلا أن مجموعتين منها قد تناثرت في ترتيبٍ مبهجٍ ليس بذي نسقٍ. أمَّا الزحمة المعتادة لتلك الساحة بالسَّوَّاح، والأدلاء، والباعة المتجولين، والمتسولين، وطالبي العون: فقد بدت منكششة الآن بسبب رداءة الطقس.

مرّت بالقرب من المنصّة البرونزية المشهورة التي تحمل ساريات الأعلام، وبالقرب من برج النواقيس السامق اللافت، وقد تمَّ إقفال أبوابه لهذه الليلة. تناهت إلى أنفها رائحة السمك والتوابل والثوم. رقعَ رصينة من الضوء فرشت أرض الساحة بمسحةٍ ذهبية اللون. أمَّا الحمام التي كانت تكتسح الساحة أثناء النهار فقد أخذت هي الأخرى إلى أوكانها. لا شك لو أن المناسبة كانت مناسبة أخرى إذاً لكان لا بدَّ لها من أن تستشعر الرومانسية في هذه الساحة.

ولكن لا، ليس الآن، وهي على أتمَّ أهبتها وحذرها.

إنها جاهزة.



فتَّش مالون بين وجوه الجموع عن وجه ستيفاني، بينما كانت الأجراس العالية في أعلى برج النواقيس تعلن حلول الساعة العاشرة ليلاً. وهبَّت نسمة من نسائم الجنوب فدوّمت في الهواء الذي يخنقه الضباب. كان سعيداً بسترته التي حجب تحتها أحد المسدسين اللذين كان ثورفالدسن قد أرسلهما إلى كاسيوبيا.

وكانت الكاتدرائية المشعَّة الأنوار تحتلُّ طرفاً من هذه الساحة القديمة، بينما يحتلُّ المتحف طرفها الآخر. وكل شيء بات ناضجاً رصيناً بفعل مجد السنين. أمَّا

الزوار المشرقون بالحيوية فكانوا لا ينفكون عن الرواح والمجيء تحت الأماكن المقنطرة الطويلة. وكان بعضهم يدقق في واجهات المحال بحثاً عن تحفة يشتريها. أما مقاهي الرصيف، والحانات، وأكشاك بيع البوظة، وهي جميعها تحتمي من الطقس تحت القناطر، فقد كانت جميعها تغص بالحركة والنشاط.

مسح الساحة بعينه، فإذا بها تمتد ما يقارب الست مئة قدم بعرض ثلاث مئة أخرى. وهي محددة من جهات ثلاث بصف من المباني المستمرة المتلاصقة التي بنت وكأنها عبارة عن قصر رخامي واحد عملاق. وعبر الساحة المبللة بالماء، وبين المظلات المتهداية، لمح وجه ستيفاني وقد كانت تمشي في عزم ونشاط في اتجاه السقيفة المقنطرة الجنوبية.

وقف تحت السقيفة الشمالية التي كانت تمتد إلى يمينه بما يشبه ما لا نهاية له من البعد عن الكاتدرائية. حيث أنه كان أقرب إلى الطرف الذي يقع فيه المتحف.

ومن بين الجموع، رجل ما، استرعى انتباهه!

كان الرجل يقف وحيداً، ويلبس معطفاً زيتياً، ويده مدسوستان في داخل جيبي معطفه. كانت هنالك سيماء معينة حول طريقة الرجل في الوقوف والتحديق نحو السقيفة المقنطرة، وفي كيفية تركّز انتباهه إلى البعيد. كل هذا استلفت انتباه مالون. قرّر أن يستفيد من واقع كونه غير معروف، فاتجه مباشرة نحو الرجل المشبوه. كان لا ينفك يلقي عيناً على ستيفاني وأخرى على الرجل ذي المعطف الزيتي. ولم يحتج الأمر منه سوى إلى لحظات لكي يقرر أن الرجل كان مهتماً بها بكل تأكيد.

ثم أنه استشعر خطراً جديداً متمثلاً في وجود رجل آخر يرتدي ممطراً أغبر وهو يقف عند الطرف البعيد من السقيفة المقنطرة. وكان كل انتباه الرجل الآخر أيضاً متجهاً نحو الساحة العامة.

فكلا الرجلين شاخصاً إليها.

تابع مالون تقدّمه مصفياً إلى الأصوات، والضحكات، وروائح العطور، وطققة الكعوب. انضم الرجلان معاً ثم تباعدا، استدارا يساراً وهما مسرعان، نحو السقيفة المقنطرة الجنوبية التي دخلتها ستيفاني في ذلك الحين.

انحرف مالون يساراً إلى الخارج داخلاً في الضباب مهولاً عبر الساحة.
تقدم الرجلان على نحوٍ موازٍ له وكانت خيالاتهما تلتصق لدى مرورهما تحت
قوس كل قنطرة. وكان اللحن الرفيع المنطلق من أوركسترا تعزف في إحدى المقاهي
يغلف كل ما عداه من الأصوات.

خفف مالون سرعته واتخذ له طريقاً بين متاهة الطاولات التي كانت خالية من
الرواد بفضل رداءة الطقس. وتحت سقيفة مقنطرة أخرى محجوبة، كانت ستيفاني
تقف أمام صندوق زجاجي تنظر إلى ما يحتويه من البوطة.

استدار الرجلان من وراء الزاوية على مبعدة مئة قدم عنهما.

خطا إلى جانبها وقال. "بوطة الشوكولا طيبة جداً."

غزت المفاجأة وجهها. "كوتون ما الذي -"

"لا وقت لهذا. لدينا من يتبعنا. إنهما خلفي آتيان من هذا الاتجاه."

رأها تتلفت خلف كتفه.

استدار.

شُهرت المسدسات.

أزاح ستيفاني بعيداً عن النضد وهربا معاً على امتداد السوق المسقوف
عائدين في اتجاه الميدان.

قبض على مسدسه وتهيأ لنشوب معركة.

لكنهما باتا الآن في الفخ. فمسافة حقل كرة قدم من الميدان كانت تمتد الآن
خلفهما. وليس ثمة مكان لهما للاحتباء.

"يا كوتون،" قالت ستيفاني. "إنني أملك الموقف تحت سيطرتي."

حدّق نحوها، آملاً من السماء أن تكون محقّة في ما تدّعيه.



تقدم فيكتور إنشاً لإنشاً بقاربه عبر القنال الضيق ماراً تحت جسرٍ مقنطرٍ متهالكٍ. ولم يكن في نيته أن يربط القارب في نهاية القنال قرب المطعم، لكنه كان يريد فقط أن يتأكد من أن القرية قد خلت تماماً من رؤاها في تلك الساعة من الليل. كان سعيداً بسبب هذا الطقس الدُّبِق، لقد كان ذلك نموذجاً عن عاصفة إيطالية تهبُّ من البحر فيأتي معها المطر متقطعاً، مطرٌ يزعج الحركة أكثر مما يعيقها، لكن في ذلك ما يكفي له ولشريكه للاحتماء به.

أبقى رافائيل عينه على الضفاف المعتمدة. كان المدُّ العالي قد أتى منذ ساعتين، الأمر الذي سيجعل نقطة رسوئهما النهائية أكثر قرباً وتقدماً من هدفهما. وكان قد حدّد ذلك الموقع في وقت سابق. مكانٌ ملاصق للكاتدرائية حيث القنال العكشُ يقطع لنفسه ممراً عريضاً عبر عرض الجزيرة. فضفة إسمنتية قرب الكاتدرائية ستكون نقطة ممتازة للرسو.

والى الأمام وقع نظره على القرية.

وها هي هادئة وغارقة في الظلام.

وليس ثمة قوارب فيها.

لقد جاء لتوُّهما من المستودع الذي وجَّهتهما إليه زوفاستينا. يا لها من امرأة تعرف كيف تحافظ على كلمتها، إن رئيس الوزراء كانت قد خططت لهما مهمتهما مسبقاً. فالنار الإغريقية والمسدسات كانت كلها في انتظارهما في المستودع. وكان يعجب ما إذا كان إشعال المتحف ضرورياً هذه المرة. لكن زوفاستينا كانت قد جعلت الأمر له واضحاً: يجب أن لا يبقى أي أثر.

"يبدو الجو ملائماً." قال رافائيل.

وقد وافق معه على ذلك.

وهكذا، فإنه فكَّ تعشيقه دواسة الخانق، وقام بعكس حركة اشتغال المحرك.



ابتسمت كاسيوبيا، بعد أن وجدت أنها كانت محقّة في ظنّها. لقد قاما عن قصد

باستجلاء القنال الآخر الذي يجري قرب الكاتدرائية تمهيداً لاعتماده وجهة لسيرهما.

لاحظت كيف أن خط الكفاف العائد لجسم القارب قد استدار بزاوية مئة وثمانين درجة مغادراً القنال. تراجعت إلى الوراء ثم بحثت عن المسدس الذي أرسله ثورفالدسن إليها وقامت بتلقيه رصاصة في بيت النار. ثم أمسكت بمسدسها وبكيسها القماشي وتراجعت عن مكنها جاعلة نظرها لا يحيد عن وجه الماء.

وجد فيكتور وشريكه مياه البحيرة.

دارت المحركات.

انحرف القارب يميناً بادئاً إبحاره حول الجزيرة.

وهنا هرولت كاسيوبيا خلال العتمة النديّة في اتجاه الكنيستين، متوقفة لمرة واحدة خلال قطعها للمسافة كلها.

الفصل الثامن والثلاثون

كانت ستيفاني مبلبة الفكر حول سرّ حضور مالون لنجدتها. إذ أنه لم يكن يمكنه العثور على مكان وجودها سوى بطريقة واحدة. ومع هذا، فإن الوقت لا يسمح لها الآن بالتوقف عند مثل هذه الأشياء.

"نفذ الآن"، قالت متكلمة عبر الميكروفون الصغير الذي تخفيه في ياقة سترتها.

ثلاث طلقات دوت عبر الميدان فسقط أحد الرجلين المسلحين متكوماً على الرصيف. أمّا هي ومالون فقد جثما على بلاط الساحة المبلل، بينما لاز الرجل الآخر بالاختباء. تفاعل مالون حسبما يختزنه من خبرة قديمة منذ أيام عمله كعميل سرّي. فتقلب ظهراً لبطن، حتى نقل نفسه من الميدان إلى السقيفة. أطلق عيارين اثنين في محاولة منه لإجبار الرجل الآخر على الفرار إلى الأرض المكشوفة.

تبعثر الناس في روع بعدما سيطر الرعب على ساحة سان ماركو.

قفز مالون على قدميه ولاذّ خلف الجانب الرطب من إحدى القناطر. فيما وقف المهاجم على مبعدة خمسين قدماً منه، وقد بات محتجراً بين نار مالون، وبين نار القناص الذي كانت ستيفاني قد ركزت مكانه في أعلى البناء إلى الجهة الشمالية.

"هل تكثرين لإعلامي بما يحدث هنا؟" سألها مالون دون أن يرفع أنظاره عن الرجل.

"هل سبق لك وأن سمعتَ بإلقاء الطعم؟"

"أجل وقد وقع ابن العاهرة ذاك في الشرك."

"لقد قمتُ بتركيز بعض الرجال هنا في هذا الميدان."

جازف بإلقاء نظرة حوله لكنه لم يرَ شيئاً. "هل هم أشباح؟"

نظرت هي أيضاً حولها. فلم ترَ أحداً يتقدم نحوها. بل أن الجميع كانوا يهربون في اتجاه الكاتدرائية. غضبٌ كانت قد شهدت غير مرة من قبل، احتقن في داخلها.

"سوف يكون البوليس هنا في أي لحظة الآن." قال لها، أيقنت أن ذلك قد يصبح مشكلة. فقواعدها المتبعة في ماجيلان بيليه تقضي بعدم تشجيع العملاء على استخدام خدمات المحليين، فهم في العادة إمّا ألا يكونوا شديدي النفع، أو أن يكونوا شديدي العدوانية، وكانت قد رأت الدليل على صحة ذلك من قبل، في أمستردام.

"إنه يتحرك." قال لها مالون وهو يندفع إلى الأمام.

لحقت به وهي تقول في الميكروفون. "ابتعدوا عن هذا المكان."

وكان مالون يجري في اتجاه مخرج يقود من السقيفة المقنطرة إلى خارج الميدان ليتصل من جديد بالشوارع المعتمدة الضيقة للبندقية. وعند طرف هذا المخرج كان ثمة جسر مشاة معقود فوق أحد التُّرع.

وقد لمحت مالون يندفع فوق جسر المشاة.



وبقي مالون يجري، وكانت المحالُّ المقفلة تحاذي، وتحدُّ، جانبي الزقاق فتجعله ضيقاً، إلى نحو لا يُصنَّق. وإلى الأمام، انحرف الطريق نحو اليمين على شكل زاوية قائمة واستدار قلّة من عابري السبيل عبر الزاوية. خَفَّف سيره، وقام بإخفاء المسدس تحت سترته تاركاً إصبعه لصيقة بالزناد.

توقف عند المنعطف التالي ملتصقاً بواجهة زجاجية ملتزمة مبلّلة لمحلٍ تجاري. أخذ بضع نشقات ثقيلة من الهواء الحار وحدّق بحذرٍ حول الزاوية.

رصاصة أزت بقربه ثم ارتدت لترتطم بحجر.

انضمت إليه ستيفاني.

"أليس هذا عملاً جنونياً؟" سألته.

"لست أدري، فهذه الحفلة حفلتكِ أنتِ."

جازف بالتفاتة جديدة.

لا شيء.

غادر مكانه مندفعاً إلى الأمام مسافة ثلاثين قدماً أخرى إلى حيث انعطف الشارع من جديد، نظرةً حول الزاوية جعلته يرى المزيد من المحالّ المقفلة والظلال العميقة. والضباب المظلم الذي من شأنه أن يخفي معالم كل شيء.

اقتربت ستيفاني وهي ترفع مسدساً.

"ألسنتِ أنتِ العملية السرية الصغيرة الميدانية هنا؟" قال لها. "وها أنتِ تحملين السلاح هذه المرة؟"

"يبدو أنني كنت في حاجة كبيرة لاستعمال السلاح في المرة الأخيرة."

وهذا ما كان حاله هو أيضاً، لكنها على حق. "هذا عمل جنوني، سوف نُقتل قريباً أو يتم اعتقالنا إذا استمرينا على هذا المنوال. ما الذي تقومين بعمله هنا؟" "هذا هو السؤال الذي كنتُ سأسألك إياه. أنا هنا لأنني أقوم بأداء وظيفتي، بينما أنت تاجر كتب. ما الذي يدعو داني دانيالز لكي يرسلكِ إلى هنا؟"

"لقد قال إنهم فقدوا الإتصال معك."

"لم يجرب أحدُ الإتصال بي أبداً."

"إذاً يبدو أن رئيسنا يريد إقحامني في ما أنتِ تقومين به لكن لم يكن يجد أن من المناسب أن يطلب ذلك مني بصورة مباشرة."

صار من الممكن لهما سماع الصرخات الآتية من ورائهما من ناحية الميدان.

لكن مالون كان لديه اهتمام أكبر من هذا كله في تورسيلو.

"لديّ قاربٌ مربوطٌ وراء سان ماركو مباشرة عند الأرض المحاذية لرصيف

الميناء." أشار إلى اليمين في اتجاه شارع آخر هو أشبه بالزقاق. "سوف نكون قادرين على الوصول إلى هناك إذا اتجهنا في هذا الطريق."

وإلى أين نحن ذاهبان؟" سألته ستيفاني.

"لمساعدة شخص ما، هو أحوج منك إلى المساعدة."



أسكت فيكتور المحرك سامحاً للقارب أن يمَسَّ حجارة رصيف المرسى في رفقٍ. منظرٌ هجينٌ من البلاط الصخرية الرمادية، والأرض الخضراء المعشبة والموحلة معاً، ومسحة من الألوان الزرقاء الباهتة استقبلتهما وأحاطت بهما.

وكانت الصورة الظليّة الحديدية للكاتدرائية تمتد ثلاثين متراً إلى الأمام، إلى ما يجاوز حفنة متناطحة من الظلال المقزومة التي تحدّد شكل حديقة، وبستان فاكهة. خرج رافائيل من كابينة القارب الخلفية وهو يحمل حقيبتَي كتفٍ وقال، "ثماني حزم وسلحفاة واحدة، يجب أن تكون كافية. فإذا أشعلنا الطابق الأرضي فإن ما تبقى من المبنى سوف يحترق أيضاً بكل سهولة."

لقد بات رافائيل يفهم جيداً مقدار الجرعة الكافية من هذه الوصفة القديمة، حتى أن فيكتور بات يطمئن إلى خبرة زميله هذه. لذلك فإنه قد اكتفى بمراقبته بينما هو ينزل الحقائق عن ظهره بتؤدة. ثم خطا إلى داخل الكابينة رافعاً إحدى السلاحف الروبوتية.

"إنه مشحونٌ وجاهز."

"لماذا تتحدث عن هذا الشيء بصيغة التذكير؟"

"لست أدري، يبدو لي أن صيغة المذكر تناسبه أكثر."

ابتسم فيكتور. "صرنا نحتاج إلى استراحة."

"إجازة لبضعة أيام ستكون أمراً لا بأس به، فلربما تمنحنا رئيس الوزراء مثل

هذه الإجازة على سبيل المكافأة."

ضحك. "رئيس الوزراء لا تؤمن بالمكافآت."

قوّم رافائيل سيور الأربطة العائدة للعبوتين. "لعل إجازة لأيام قليلة في جُزر المالديف ستكون أمراً رائعاً. استلقاء على رمال الشاطئ. واستمتاع بالمياه الدافئة." "توقف عن الاسترسال في أحلامك، فلن يحدث شيء من هذا." رفع رافائيل إلى كتفيه واحدة من الحقائق الثقيلة. "ما من عيب في أن يحلم الإنسان، خصوصاً عندما يكون في مثل هذا المكان تحت المطر." التقط السلحفاة بينما رفع رافائيل الحقيبة الثانية. "دخولٌ فخروجٌ في خِفةٍ وسرعة. مفهوم؟"

أوما شريكه برأسه إيجاباً. "سوف تكون رحلة خاطفة سهلة." وقد وافق فيكتور معه.



وقفت على الشرفة الأمامية للكاتدرائية مستفيدة من ظلها، كما من ظلال ستة أعمدة أخرى شاهقة كدريئة لها وغطاء. وقد تطور الضباب الآن إلى رذاذ، لكن لحسن الحظ، فإن تلك الليلة الدّبكة كانت مع كل ذلك دافئة. وكان النسيم المستمر لا ينفك يثير زبد الماء فيطغى صوته على الأصوات التي كانت تحتاج كاسيوبيا إلى الإصغاء إليها في استماتة. أصوات مثل صوت محرك زورق يأتي مباشرة من وراء الحديقة التي تقع إلى يمينها مثلاً. صوت تتوقع اقترابه مع حلول هذا الوقت.

ممران مفروشان بالحصى امتدّا إلى الأمام. واحد في اتجاه الرصيف البحري الحجري الذي لا بد من أن يختاره فيكتور لإرساء قاربه، أما الثاني فيتجه نحو مياه البحيرة نفسها. وكم حريّ بها أن تتحلّى الآن بالصبر، من أجل تمكينهما من الدخول إلى المتحف، ثم اتخاذ طريقهما إلى الطابق العلويّ منه.

وعند ذلك لا يبقى عليها سوى أن تعطيها جرعة من دوائهما الذي جلباه معهما.

الفصل التاسع والثلاثون

وقفت ستيفاني إلى جانب مالون حالما هو تحرك بالقارب بعيداً عن المصطبة الإسمنتية. وكانت قوارب البوليس قد بدأت بالوصول ليجري ربطها إلى أوتاد الربط المحيطة برصيف الميناء حيث كانت ساحة سان ماركو تنتهي عند حافة البحيرة. وكانت أضواء كشافات قوارب الطوارئ ترسل ومضاتها في لحم العتمة.

"كل صخب جهنم سيُفُلت من عقاله هناك،" قال لها مالون.

"كان على دانيالز أن يفكر في كل ذلك قبل أن يمدَّ إصبعه."

تتبع مالون إشارات حدود القنال المضاعة في محاذاة الشاطئ. ومرَّ بهما المزيد من قوارب الشرطة القادمة، وكانت أبواق الإنذار بالخطر تلعلع. تلمست هاتفها الدولي الجوّال. طلبت رقماً، ثم اقتربت إلى مسافة لصيقة بمالون وضغطت على مفتاح المجهر (السبيكر).

"إدوين." قالت. "إنك محظوظ لأنك لست تحت متناول يدي وإلاً لكنت قد ركلتُ عجيزتك."

"أستعملين من أجلي؟" سألها دايفيس.

"كنتُ قد ركّزتُ ثلاثة رجال حول الميدان. فلماذا لم أجد واحداً منهم عندما جاءت حاجتي إليهم؟"

"لقد أرسلنا إليك مالون. ولقد قيل لي إنه يساوي هؤلاء الرجال الثلاثة معاً."

"كائناً من تكون." قال مالون فوق الجهاز، "فإن المناققة كثيراً ما تعمل عملها

في الظروف العادية. لكنني الآن إلى جانبها. هل قمتَ بسحب رجال إسنادها؟"

"لقد أبقينا لها القناص المتمركز على السطح. هذا بالإضافة إليك أنت. وهذا يكفيها."

"الآن قد قررت حقاً أن أركل عجيزتك." قالت له.

"ما رأيك الآن في أن ننتهي مما نحن فيه، ثم يكون لك بعد ذلك فرصة ركل عجيزتي."

"ماذا يجري هنا بحق الشيطان؟" قالت له، وقد ارتفع صوتها، "ولماذا يتواجد كوتون معي؟"

"إنني الآن محتاج لمعرفة ما الذي حدث."

امتصت غضبها وقدمت له تقريراً موجزاً، ثم قالت: "يجري الكثير من الهرج والمرج في الميدان في هذه اللحظة. وهذا يثير الكثير من استنفات الأنظار." "هذا ليس أمراً سيئاً بالضرورة،" قال دايفس.

كانت الفكرة الأساسية هي اختبار ما إذا كان فينسينتي سيتحرك. لقد كان ثمة رجال يرابطون حول فندقها كل ذلك المساء. وعندما غادرت الفندق فإنهم اتجهوا على الفور إلى الطابق العلوي وكان هدفهم حسبما يبدو، العثور على الميدالية. وقد عجبت لسبب تغيير الخطة - بما في ذلك إقحام مالون - لكنها فضلت الإمساك عن هذا السؤال فقالت فوق الهاتف. "إنك حتى الآن لم تقل لي ما هو سبب وجود كوتون هنا؟"

أدار مالون الدفة يساراً عندما بات عليهما الإستدارة مع الشاطئ. وكانت إبرة بوصلة المركب تشير نحو الشمال الشرقي، ثم ضاعف من قوة المحركات. "ما الذي تفعلانه في هذه اللحظة بالذات؟" سألهما دايفس.

"إننا نتجه صوب مشكلة أخرى،" قال مالون. "إن عليك أن تجيبها عن سؤالها."

"إننا نريد أن تكون ساحة سان ماركو في زعرٍ ولغطٍ هذه الليلة."

انتظرت لتسمع المزيد من الإيضاح.

"لقد علمنا أن إيرينا زوفاستينا في طريقها إلى البندقية. وسوف تحط طائرتها في المدينة خلال الساعتين القادمتين. وهذه حادثة أقل ما يقال فيها أنها غير اعتيادية. رئيس دولة تقوم بزيارة غير معلن عنها لدولة أخرى دون سبب واضح مبرر. إننا نحتاج إلى معرفة ما الذي تنوي القيام بعمله هناك."

"ولم لا تسألونها؟" قال مالون.

"هل أنت جاهز دائماً لبذل نصائح من هذه الشاكلة؟"

"إنها إحدى أفضل مواهبني."

"يا سيد مالون." قال دايفيس. "إننا نعرف عن حريق كوبنهاغن، وعن الميداليات. حتى أن ستيفاني تحرز واحدة منها معها. هل تستطيع أن تختصر هذه النوافل معي وأن تنصرف مباشرة إلى مساعدتنا؟"

"وهل الأمور على هذه الدرجة من السوء؟" قالت ستيفاني.

"أجل، ليست الأمور طيبة." قال دايفيس.

لقد رأت أن تعاون مالون معها لم يكن مرة موضع شك. "والى أين سوف تتجه زوفاستينا؟"

"هدفها هو الكاتدرائية، وتصل إليها عند الواحدة ليلاً."

"يبدو أن معلوماتكم جيدة."

"مصدر معلومات لا يخطئ. وعليّ أن أقول إنه شديد الدقة والموثوقية."

بقي خط الهاتف صامتاً للحظة.

"لم أكن طائشاً ولا غافلاً عن كل هذا،" قال دايفيس في النهاية. "لكن صدّقاني لم يكن لدينا خيارات أخرى."



خطا فيكتور إلى تراب القرية على الأرض المعشبة الواقعة أمام الكاتدرائية وأختها الكنيسة الأخرى، وبدأ يتأمل متحف ميوزيو دي تورسييللو. ألقى بحمولة كتفه على

كتلة من الرخام المنحوت على شكل مخلب بارز. ولقد كان قد سمع سابقاً أن هذه الكتلة تدعى سيديا داتيلاً (كرسي عطيل). إذ أنه من المفترض أن عطيلاً الهوني قد جلس مرة على هذا الطنف الحجري، لكنه كان يشك في صدق تلك الرواية.

تأمل في هدفهما النهائي. كان المتحف عبارة عن مبنى جاثم ثنائي الأدوار مستطيل تذهب أبعاده ربما عشرين في عشرة أمتار. وله طاقم من النوافذ المزبوجة الزجاج في كلا طابقيه عند طرف كل جدار وهي محصنة بقضبان من الحديد المجدول. وقد ارتقى من إحدى زوايا المتحف برجٌ للناقوس يناطح الفضاء، وكانت الساحة المحيطة به مغروسة بالأشجار. وقد عرضت في أرجائها بين العشب المجزوز بقايا الأعمدة الرخامية والحجارة المنحوتة.

وكانت بوابة خشبية من درفتين واقعة في وسط الطابق الأرضي من المتحف، لتشكّل المدخلَ الأوحد إلى المتحف. وايلدرفتان تفتحان إلى الخارج، ويقفلهما عارضة سميكة سوداء من الخشب الصلب تمتد عبر وسطهما ويقوم على تثبيتها في مكانها لصقُ الدرفتين، قوسان حديديان. فيما يقوم مغلاقٌ من كل ناحية بتثبيت العارضة في مكانها.

أشار إلى الدرفتين وقال "أحرقهما".

أخرج رافائيل قارورةً بلاستيكيةً من حقيبة كتفه وتبع شريكه إلى البوابة حيث قام بنضح القفلين بمحلول النار الإغريقية. ثم تراجع إلى الوراء حيث قام فيكتور بإخراج قاذبة شررٍ أعملها على كلٍّ من القفلين اللذين التهب كل منهما بشعلة زرقاء وضوءاً.

إنها مادة مذهشة. فحتى المعادن لا تصمد لنارها الغضوب. وحتى وإن كانت الحرارة غير كافية لإذابة المعدن، فإنها كفيلة بإضعاف مقاومته إلى درجة كافية. راقب فيكتور اللهبين لمدة دقيقتين تقريباً قبل أن تستهلك كلٌّ من الشعلتين نفسها.



بقيت كاسيوبيا متربصة في يقظتها على بعد ثلاثين متراً فيما كانت نقطتا الضوء الأزرق الكثيف تشتعلان اشتعال نجمتين بعيدتين ثم ما لبثتا أن انطفأتا. وبهجمتين على المزلاج الخشبي تمكّن اللسان من تحريره عن موضعه وقاما بفتح البوابة الرئيسة للمتحف.

ثم قاما بنقل أمتعتهما إلى الداخل.

لاحظت أنهما قد جلبا معهما واحدة من هذه الزواحف الميكانيكية، الأمر الذي يعني أن متحف ميوزيو دي تورسيو سيتحول بعد قليل إلى رماد.

قام أحد الرجلين بإغلاق درفتي البوابة الرئيسة.

عانت الساحة من جديد إلى عتمتها الموحشة الرطبة المندرة بالشر. ولم يبق ما يبذل الصمت المطبق سوى وقع قطرات المطر على وجه بعض الحفائر الصغيرة الناقعة بالماء. وقفت عند مصطبة الكاتدرائية وهي تفكر في ما هي على وشك القيام بعمله. ثم أنها لاحظت أن العارضة الخشبية التي تقفل درفتي البوابة قد تركت ملقاة في الخارج.



تسلق فيكتور سلماً لولبياً يؤدي إلى الطابق الثاني من المتحف. وكانت عيناه قد ألفتا الظلمة الدامسة. فهو الآن يستطيع تمييز ما يكفي من الظلال ليتبين طريق قدميه بين معروضات الطابق الأرضي المتفرقة، وكذلك بين معروضات الطابق العلوي التي تشابهها تفرقاً، وحيث كان هناك ثلاث خزائن كبيرة مغطاة بالألواح الزجاجية تنتظره. وفي الخزانة الوسطى كان قد لاحظ من قبل وجود ميدالية الفيل التي هي هدف مغامرته.

وكان رافائيل في الطابق الأرضي يقوم بتوزيع عبوات سائل النار الإغريقية. فقد جلب حزمتين من هذه العبوات ضماناً للحصول على طاقة تدمير قصوى. أما فيكتور فكان قد حمل حزمتين أخريين عليهما علامة فارقة تشير إلى أنهما مخصصتان للاستعمال في الطابق العلوي. وبضربة سريعة من حديدية تشبه العتلة

تحطم زجاج الخزانة وتطايرت شظاياها ومن بين شظايا الزجاج، استخرج الميدالية بكل عناية. ثم دس إحدى العبوات الثلاث التي تتسع لثلاثة أرباع الغالون، داخل الخزانة. أما العبوة الثانية، فقد ألقاها على الأرض.

قام بدس الميدالية في جيبه.

كان من الصعب عليه التأكد من كون هذه الميدالية أصلية أم زائفة، لكن من النظرة العرضية البعيدة التي كان قد ألقاها إليها أثناء زيارته التجسسية السابقة، فإنها بدت له أصلية بالتأكيد.

ألقى نظرة إلى ساعة يده، فوجد أن الوقت يشير إلى العاشرة وأربعين دقيقة ليلاً. إنهما لا يزالان مبكران على بقية برنامج ليلتهما. فهناك ما هو أكثر من الوقت اللازم لموافاة رئيس الوزراء. ولربما خطر على بال زوفاستينا أن تقوم بمكافأتهما هذه المرة بمنحهما فعلاً إجازة من الخدمة لبضعة أيام.

تحدّر على الدّرج راجعاً إلى الطابق الأرضي.

وكانا قد لاحظا سابقاً أن أرضية كل من الطابقين إنما كانت من الخشب. وهذا يعني أنه حالما تبدأ النار في الطابق الأسفل بالاستعار فستصبح المسألة كلها مسألة دقائق قبل أن تنضمّ العبوات الموجودة في الطابق العلويّ إلى كوكتيل السعير.

ومن خلال الظلمة، استطاع أن يرى رافائيل وهو ينحني فوق السلحفاة الروبوتية. سمع نقرة مفتاح، فبدأت الآلة بعد ذلك بالتجوّل. توقفت الماكينة عند الطرف الأقصى من القاعة ثم ابتدأت تنضح الجدار الجانبيّ نافثة سائل النار الإغريقية الذي يمتاز برائحته الخاصة النفاذة.

"لقد صار كل شيء جاهزاً." قال رافائيل.

تابعت السلحفاة عملها، غير أبهة بما قد يحصل لها بعد وقت قليل من تخلّع وانفجار. فهي مجرد ماكينة. لا شعور لها. ولا تعرف عذاب الضمير. وهذا بالضبط ما كان يعتقد أن إيرينا زوفاستينا تتوقع منه من تصرف.

دفع رافائيل درفتي الباب الخارجي.

لكن الباب لم ينفتح.

أعطى شريكه الباب دفعة أخرى.

لكن شيئاً جديداً لم يحصل.

تقدم فيكتور وألقى براحتي كفيه على الباب دافعاً بثقله كله في معاكسة الخشب. إن درفتي الباب موصدتان من الخارج. اجتاحتها فورة من الغضب فاندفع كالكبش ينطح الباب بكتفه وقد وضع خلفه ثقل هامته بأجمعها. لكن ألواح الخشب الكثيفة المثبتة في وضعها العمودي بفضل مخالعتها الحديدية رفضت أن تتزحزح. ألقى نظرة خاطفة في اتجاه الظلمة.

عندما كان يستكشف المبنى في وقت سابق، فإنه كان قد لاحظ وجود شبكة من قضبان الحديد المتصالب عند النوافذ. وكان قد قرر عدم اعتبارها عائقاً ما دام أنهما ينويان الدخول والخروج من الباب الرئيسي. ولذلك فإن تحصين النوافذ بقضبان الحديد لم يكن أمراً يقلق البال.

حقّ نحو رافائيل. ومع أنه لم يستطع رؤية وجه شريكه، إلا أنه عرف بالضبط ما كان يجول في خاطر هذا الأخير.

إنهما الآن عالقان.

القسم
الثالث

الفصل الأربعون

الثلاثاء، 21 أبريل/نيسان

سمرقند

الساعة 1:40 بعد منتصف الليل.

نزل فينسينتي في عناية وحذر على سلّم طائرته الخاصة النفاثة. لقد استغرقت منه الرحلة من البندقية في الغرب إلى اتحاد آسيا الوسطى في الشرق، قرابة الست ساعات. لكنه كان قد قام بمثل هذه الرحلة عدة مرات في الماضي، وكان قد تعلّم كيف يستمتع برفاهية السفر في طائرة نفاثة، وكيف يريح نفسه خلال فترات الطيران الطويلة. وقد لحق به بيتر أوكوئييه في الظلمة الساكنة الدافئة.

"إنني أحب البندقية"، قال فينسينتي. "لكنني عندما أستقر، فسأستمتع بحياتي هنا في النهاية. وإنني لن آسف لكل ذلك المطر."

وكانت سيارة تنتظر عند مهبط الطائرات فاتجه نحوها ممّداً قدميه المتصلبتين، وعضلاته المتعبة. خرج سائق، وفتح له الباب الخلفي. صعد فينسينتي إلى الداخل بينما جلس أوكوئييه في المقعد الأمامي المجانب لمقعد السائق. وكان ثمة حاجز من الزجاج البلاستيكي الشفاف يؤكّد خصوصية المقصورة الخلفية للسيارة.

وفي المقعد الخلفي كان قد جلس منذ البداية رجل أسود الشعر، زيتوني البشرة، وله عينان تُفصّحان دائماً، حتى وهما تحدّقان في النّد، بأن الحياة لا تبدو في ناظريهما سوى لعبة هزلية. وكان له جُمّة قصيرة خشنة كثيفة المنبت

تحيط بوجه مربع وعنقٍ دقيق. إلا أن ملامح الشباب والفتوة كانت تظهر على محياه حتى في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فإذا به سريع الخاطر، حاضر الانتباه.

وكان كميل كاريموفيتش رافين يشغل وظيفة وزير الخارجية في دولة اتحاد آسيا الوسطى. وهو رجل لم يكد يتعدى الأربعين من عمره، وله القليل، أو لا شيء، من المؤهلات العلمية. وكان يعتبر على وجه العموم أنه كلب الحزن المدلل لدى رئيس الوزراء. فهو يفعل ما تطلبه منه على التمام والكمال. ومع كل ذلك، ومنذ بضع سنوات، فإن فينسينتي كان قد لاحظ في وزير الخارجية شيئاً آخر مختلفاً عن ذلك.

"أهلاً بعودتك"، قال له كميل. "لم نرك منذ بضعة أشهر."

"لدي الكثير من المشاغل يا صديقي. إن العصابة تستهلك معظم أوقاتي."

"إنني أتعاطى مع أعضاء عصبتيك هنا. فكثيرون منهم بدأوا في اختيار مواقع لمساكنهم الشخصية عندنا."

لقد كانت إحدى الترتيبات التي جرت مع زوفاستينا تقضي بأن يعيد أعضاء العصابة النظر في مواقع سكنهم ليستقروا في دولة الاتحاد. وهي خطوة جيدة تقع في مصلحة الطرفين. فكتلتهم التجارية النخبوية الجديدة سوف تحررهم من أعباء بعض الضرائب. لكن تدفق رساميلهم إلى شرايين الاقتصاد على شكل بضائع وخدمات وتوظيفات مباشرة سوف تعوّض على الاتحاد أكثر من أيّ ضرائب يمكن فرضها. وحتى إن الأفضل من كل ذلك هو أن طبقة راقية كاملة سوف تنشأ بسرعة دونما حاجة إلى تأثير التقطّر الذي تهوى الديموقراطيات الغربية يوماً أن تفرضه، حيث - وبشكل غير عادلٍ، كما يحلو لفينسينتي دائماً أن يكرر - تدفع الأقلية لمصلحة الأكثرية.

لهذا، فقد جرى تشجيع أعضاء العصابة على ابتياع بقاعٍ من الأرض في دولة الاتحاد. وهذا ما فعله الكثيرون منهم، بمن فيهم هو، وكان الشراء يجري من أراضي الحكومة، والفضل في ذلك يعود إلى السوفييت الذين جعلوا معظم الأراضي ملكاً للدولة. وقد ورثتها دولة الاتحاد. ولقد كان فينسينتي في الحقيقة جزءاً من اللجنة التي ناقشت هذه الجزئية من صفقة العصابة مع زوفاستينا. كما أنه كان واحداً من

أوائل الذين بادروا إلى الشراء. فهو يمتلك الآن قطعة أرض مساحتها مئتا فدان، بين جبال ووديان، في المنطقة التي كانت يوماً تسمى طاجيكستان.

"كم هو عدد الذين أبرموا صفقات شرائهم؟" سأل.

"مئة وعشرة أعضاء حتى الآن. كثير من الأنواع المختلفة من حيث اختيار المواقع، لكن منطقة سمرقند وما حولها تبقى دائماً المنطقة التي تنال معظم الإقبال." "قرب مركز القوة. فهذه البلدة، بالإضافة إلى طشقند، ستصبح قريباً واحدة من مراكز المال في العالم."

غادرت السيارة أرض المطار وبدأت رحلة الأربعة كيلومترات إلى قلب البلد. تطوير آخر سيباشر به لاحقاً، هو إنشاء مطار جديد. وكان ثلاثة من أعضاء العصابة قد انتهوا للتو من رسم المخططات لإنشاء هذا المرفق العام الجديد بمواصفات عصرية.

"ما الذي يجيء بك الآن؟" سألته كميل. "لم يكن يبدو على السيد أوكونييه أي دلائل أبداً على قدومك العاجل عندما تكلمت إليه في وقت سابق قريب."

"إننا نشكر لك ما زودتنا به من معلومات حول رحلة زوفاستينا. هل لديك أي فكرة عن سبب زهابها إلى البندقية؟"

"لم تترك أية كلمة. بل اكتفت بالقول أنها ستعود في وقت قريب."

"إذاً هي في البندقية تفعل ما لا أحد يدري ماذا."

"وإن هي اكتشفت أنك قد جئت إلى هنا لتحبك المؤامرات." قال كميل، "فإننا جميعاً سننصيح في عداد الأموات. تذكر أن جرائمها الصغيرة لا يمكن الوقاية منها."

وكان وزير الخارجية هذا واحداً من الطبقة السياسية الجديدة النابذة مع ظهور دولة الاتحاد. ومع أن زوفاستينا كانت هي السياسية الأولى التي تبوأ منصب رئيس الوزراء، فإنها لن تكون الأخيرة.

"إنني أستطيع تدبر أمر جرائمها."

ابتسامةً ارتسمت على الوجه الآسيوي. "هل تستطيع أن تقتلها وأن تطوي أمرها؟"

لقد استحسن ذلك الطموح الساذج. "سيكون ذلك جنوناً."

"إذاً ما الذي يدور في ذهنك؟"

"شيء أفضل من ذلك بكثير."

"وهل ستقوم العصابة بالوقوف إلى جانبك؟"

"إن مجلس العشرة يجيز كل ما أقوم بعمله."

ضحك كميل. "ليس كل شيء يا صديقي. إنني أعرف أكثر من هذا. مثل محاولة الاعتداء الأخيرة على حياتها مثلاً. لقد كنت أنت وراء المحاولة. أستطيع أن أحذر ذلك. لكنك ما لبثت أن ساومت على ذلك القاتل وتخلصت منه. وإلا كيف كان لها أن تستعد له؟" أنصت قليلاً. "أتساءل عما إذا كنت ستقوم بالمساومة عليّ أنا أيضاً في يومٍ ما."

"هل ترغب في أن تكون خليفة لها؟"

"أفضل البقاء حياً أكثر مما أرغب في خلافتها."

نظر إلى خارج النافذة نحو الأسقف المسطحة والقباب الزرقاء والمآذن النحيلة. فسمرقندُ تقع في مدرجٍ من عمل الطبيعة. إذ تحيط بها الجبال من كل اتجاه. أخفى الظلام سحابة الضباب وايلدخان التي لا تتزاح أبداً من فوق تلك الأرض الدهريّة. وعلى مسافةٍ، بدت أنوار أحد المصانع تطرح هالة غائمة. فما كان مرة يمؤن الاتحاد السوفييتي بالبضائع المصنّعة، قد بات الآن يقذف بالسلع التي يتمخض عنها الناتج القومي الإجمالي. وقد قامت العصابة حتى الآن بتوظيف البلايين في مشاريع التحديث. كما أن هنالك المزيد من البلايين الأخرى التي ستليها. وهكذا، فإنه أراد أن يعرف من صديقه. "إلى أي مدى أنت راغبٌ في أن تصير رئيساً للوزراء؟"

"الامر كله يعتمد على المعطيات. هل تستطيع عصبتمكم أن تجعل هذا الأمر ممكناً؟"

"إن جراثيمها لا ترعبني. ويجب ألا ترعبك أنت أيضاً."

"آه، يا صديقي البدين. لقد رأيت الكثيرين من الأعداء يموتون فجأة. إنه لأمرٌ مدهش ألا يكون أحدٌ قد لاحظ ذلك. لكن أمراضها تعمل عملها بشكل جيد مجرد نزلة بردٍ تسوء بسرعة."

ومع أن بيروقراطيي الاتحاد، بمن فيهم زوفاستينا، يدينون كل شيء سوفيييتي، إلا أنهم تعلموا جيداً من أسلافهم الفاسدين. ومن أجل ذلك فإن فينسينتي كان دائم الحذر مقتصداً في انتقاء كلماته لكنه كان كريماً في وعوده. "لا شيء يمكن تحقيقه دون مجازفة."

هز رافين كتفيه. "صحيح. لكن المجازفة قد تكون شديدة التكلفة أحياناً."

ألقي فينسينتي نظرة بعيدة نحو سمرقند. يا له من مكان قديم، يعود تاريخه إلى القرن الخامس قبل المسيح. إنها مدينة الظلال، حديقة الأرواح، جوهرة الإسلام، عاصمة الدنيا، كانت مقرُّ الكرسي الرسولي المسيحي قبل أن يفتحها المسلمون وقبل أن يسيطر عليها الروس. وبفضل الوجود الروسي، فإن مدينة طشقند التي تبعد مئتي كيلومتر إلى الشمال الشرقي، قد نمت أكثر بكثير. وباتت أكثر منها ازدهاراً. لكن سمرقند بقيت دائماً روح المنطقة بكاملها.

حلق نحو كميل رافين. "إنني شخصياً على وشك القيام بخطوة خطيرة. إن فترة ولايتي كرئيس لمجلس العشرة قد شارفت على نهايتها. وإذا كان لنا أن نقوم بهذا الأمر فإن علينا القيام به الآن. لقد جاء الوقت بالنسبة إليك وكما يقولون في المكان الذي جئت الآن منه، عليك أن تبيض ببيضتك أو أن تخرج من القن. فهل أنت معي في المؤامرة أم أنت خارجها؟"

"أشك في أنني سأحيا لأرى يوم غدٍ إذا قلت لك إنني خارجها. لهذا، أقول لك: إنني معك."

"أنا مسرور لأننا يفهم بعضنا بعضاً."

"وما هو الأمر الذي أنت على وشك العزم على القيام به؟" سأل وزير الخارجية.

أعاد التحديق نحو المئذنة. وعلى واحدٍ من مئات المساجد التي تسود المشهد الطبيعي العام، كان قد كُتب بأحرف عربية مزخرفة مضاءة، يبلغ علوُّ الواحد منها

متراً واحداً على الأقل: "الله الصمد." ذلك أنه مع كل تاريخها المعقد المستفيض، فإن سمرقند لا تزال تطرح مهابة مؤسساتية لطيفة تستمدّها من ثقافتها التي فقدت الصلة بالخيال منذ أمدٍ بعيد. ولقد بدت زوفاستينا مصممة على تغيير ذلك الاعتلال. فخيالها كان كبيراً وصافياً. ولقد كان هو قد كذب عندما أخبر ستيفاني نيل أن التاريخ لم يكن ضمن نقاط اهتمامه القوية. أما في الحقيقة فإن التاريخ كان هدفه. لكنه أمل في ألا يرتكب خطيئة في بعث الحياة في جسد الماضي.

لكن لم يعد الأمر مهماً الآن. فقد بات الرجوع إلى الوراء أمراً قد فات أوانه. وهكذا، فإنه نظر نظرة طويلة إلى شريكه في المؤامرة وأجاب عن السؤال قائلاً بكل أمانة:

"أن أقوم بتغيير العالم."

الفصل الحادي والأربعون

تورسيلو

تسارعت الأفكار في ذهن فيكتور، وكانت السلحفاة مازالت تتابع هجومها المبرمج على الطابق الأرضي تاركة وراءها أثراً دبقاً من محلول النار الإغريقية. فكر من جديد في محاولة خلع الباب الرئيسي بالتعاون مع رافائيل، لكنه عرف أن سماكة الخشب، والعارضة التي تسنده من الخارج، سيجعلان كل جهد لفتحه جهداً عقيماً أخرق.

وبدا له أن النوافذ ربما تكون هي المنفذ الوحيد إلى الخارج.

"أحضِرْ لي واحدة من العبوات." قال لرافائيل بينما عيناه تجولان في أنحاء القاعة حتى قرر أن هدفه سيكون النافذة الواقعة إلى اليسار.

استعاد رافائيل واحداً من الأكياس البلاستيكية الصافية من الأرض.

إن النار الإغريقية لا بد لها من أن تضعف الحديد القديم، المجدول عند الدرابيس التي تجعل قضبانها مثبتة إلى الجدار الخارجي، إضعافاً كافياً لخلعها عن مكانها. استل واحداً من المسدسات التي كانا قد حصلا عليها من المستودع وكان على وشك إطلاق النار على ألواح الزجاج عندما تناثر الزجاج من شبك الجانب البعيد من القاعة.

لقد قام شخص ما بإطلاق النار على ذلك الشباك من خارج القاعة.

خفض رأسه طلباً للاحتماء، مثلما فعل رافائيل أيضاً. وذلك في انتظار معرفة ماذا سيحدث بعد ذلك. وتابعت السلحفاة زحفها الرتيب. فهي تتوقف كلما اعترض طريقها عائق لتستدير وتنطلق من جديد. ولم تكن لديه أدنى فكرة عن عدد

الأشخاص الذين يتربصون بهما في الخارج، وما إذا كان هو ورافائيل آمنين من شرّ يأتيهما من الشبابيك الثلاثة الأخرى.

شعر بحراجة الخطر الذي بات يحدق بهما. شيء واحد كان واضحاً له. ينبغي إيقاف السلحفاة عن عملها. لعلّ ذلك يشتري لهما وقتاً قصيراً إضافياً.

لكنهما حتى الآن.

لا يديران شيئاً.



أغمدت كاسيوبيا ماسورة المسدس في وسطها والتقطت القوس المصنوع من الزجاج الليفي بعد أن كانت قد أخرجته من كيس القماش. وكان ثورفالدسن لم يتوقف عن السؤال عن سبب احتياجها إلى قوسٍ وأسهم عالية التسارع. كما أنها لم تكن تدري في الحقيقة ما هو المدى الذي سيكون فيه هذا السلاح نافعاً.

أمّا الآن، فالأمر يبدو أنه سوف يكون نافعاً على وجه التأكيد.

كانت تقف على بعد ثلاثين متراً عن المتحف محتمية من المطر تحت شرفة الكاتدرائية. وبينما هي في طريقها من الطرف الآخر من الجزيرة، فإنها كانت قد توقفت في القرية واستولت على أحد قناديل الزيت التي تنير الأرض المحاذية لرصيف الميناء قرب المطعم. كانت قد لاحظت وجود تلك القناديل في وقت سابق عندما وصلت إلى المطعم للمرة الأولى برفقة مالون. وكان ذلك هو سبب آخر دعاها إلى طلب القوس والأسهم من ثورفالدسن. ثم إنها وجدت بعض خرق القماش في غلب مهملات قرب مكان أحد الباعة بينما كان اللسان منهمكين في مهمتهما في داخل المتحف. وهكذا، فإنها أعدت أربعة أسهم بعد أن قامت بلفّ قطع من القماش حول الرؤوس المعدنية لكلّ منها، وغمستها جميعاً في زيت المصباح.

أمّا عيدان الثقاب فقد كانت قد حصلت عليها أيضاً أثناء عشائها مع مالون - وكانت عبارة عن بضع نفاتر كبريت استخرجتها من صينية في حجرة التواليت. أشعلت الخرق المغموسة بالكبروسين على إثنين من الأسهم ثم نصبت بعناية

سهمها الأول الملتهب فوق قوسها. وكان هدفها متجهاً نحو شبك الطابق الأسفل الذي كانت قد قامت بتحطيم زجاجه قبل قليل، برصاص مسدسها. فإذا كان فيكتور يريد ناراً فإن هذا هو بالضبط ما سيحصل عليه.

وكانت قد تعلمت فنَّ رشق النبال عندما كانت لا تزال طفلة. ولم يسبق لها مرة أن استعملت هذه الهواية للقنص، فهي لا تستسيغ فكرة القنص. لكنها كانت تنعم بانتظام بالتدرب على إصابة الأهداف في ملكيتها العقارية في فرنسا. وكانت رامية ماهرة خاصة من المسافات. وهكذا، فإن مسافة ثلاثين متراً عن الشباك لم تكن مسافة تشكل عندها أية مشكلة. وحتى قضبان الحديد نفسها يجب ألا تكون عائقاً. فمساحات الهواء لا تقاس بمساحة الحديد.

مدّت القوس إلى مداه.

"هذه من أجل إيلي." همست لنفسها.



رأى فيكتور شعلة من النار تندفع بسرعة البرق من خلال النافذة المحكمة وتصطدم بلوح زجاجي يقع في خلفية أحد صناديق العرض في الطابق الأرضي. وكائناً ما كانت القذيفة التي حملت الشعلة، فإنها قد اخترقت الزجاج فتحطم وانهار إلى الأرضية الخشبية جالبا شعلة النار معه. وكانت السلحفاة قد مرّت من قبل في ذلك المكان من المتحف. وقد تأكد ذلك من ضجة انطلقت عندما ببت الحياة في النار الإغريقية.

وهكذا انقلب اللون الأصفر البرتقالي في لحظة إلى لون أزرق حارق وبدأت الأرضية تستهلك نفسها.

ولكن ما العمل بالعبوات.

رأى أن رافائيل قد أيقن الخطر ذاته، كان هنالك أربع من تلك العبوات ملقاة في أماكن متفرقة على الأرض واشتتان فوق خزائن العرض. وكانت واحدة من هذه العبوات قد أعلنت عن وجودها على شكل شلال من اللهب المنتشرة.

غطس فيكتور تحت إحدى خزائن العرض الباقية ملتصقاً بالاحتماء من الحرارة.
"ارجع إلى هنا." صرخ على رافائيل.

تراجع شريكه نحوه. وكانت نصف مساحة الطابق الأرضي تشتعل في هذه اللحظة فالأرض والجدران والأسقف والأثاث كانت كلها كتلة من النار. أما المكان الذي اتخذ لنفسه فيه ملاذاً، فقد كان لم يلتقط النيران بعد. والفضل في ذلك يعود إلى نقص وصول المادة الحارقة إليه. لكنه كان يعرف أن ذلك لن يستمر سوى إلى لحظات قليلة ثمينة. وكان سلم الدرج الذي يؤدي إلى الطابق العلوي واقعاً إلى يمينه والطريق إليه لا تزال سالكة. لكن الطابق العلوي لن يقدم سوى القليل من الحماية على اعتبار أن النار سوف تخترقه في وقت قريب من الأسفل.

اقترب منه رافائيل. "هل ترى أين هي السلحفاة؟"

أيقن الآن خطورة المشكلة. لقد كانت تلك الآلة حساسة للحرارة، وهي مبرمجة لكي تنفجر عندما تصل الحرارة إلى درجة مقررة المستوى سلفاً. "على أي درجة حرارة هي مبرمجة؟"

"إنها مبرمجة على درجة حرارة منخفضة، فلقد كنت أرغب في جعل هذا الطابق يشتعل بسرعة."

فتشت عيناه بين شعلات النار. ثم وقع نظره على السلحفاة وكانت ما تزال تسير في سعيها عبر الأرضية الملتهبة. وكانت كل زفرة تنفثها من خطمها تضج ضجيج تنين ينفث اللهب. تحطم المزيد من الزجاج من الجانب المقابل من القاعة. وكان من الصعب معرفة ما إذا كانت النيران أم الرصاص هي المجرم الجاني. توجهت السلحفاة الآن في خط مباشر نحوها خارجة من النيران وواجهت لنفسها مكاناً من القاعة لم تقم بتجوالها فيه بعد. وقف رافائيل، وقبل أن يتمكن فيكتور من إيقاف اندفاعه، فإنه كان قد هجم على الماكينة. وكان إيقافها هو السبيل الوحيد لإيقاف برنامجها.

سهم ملتهب آخر شق صدر رافائيل.
والتقطت ثيابه النيران.

وقف فيكتور على قدميه وكان على وشك الاندفاع لنجدة شريكه عندما وجد أن نافث الماكينة قد انقبض وأن الماكينة قد أوقفت تقدمها. وقد عرف في تلك اللحظة ماذا عليه أن ينتظر.

انحنى متجهاً نحو الدرج مندفعاً إلى الأمام خلال الباب المفتوح وفاراً إلى الأعلى فوق الدرجات المعدنية.

كان يشق طريقه العائر على يديه وركبتيه في هرب يائس. لكن السلحفاة اشتعلت.



لم تكن كاسيوبيا قد خططت لإرداء أي من اللصين بنبالها، لكن الرجل قد تصادف ظهوره مع اللحظة التي انطلق فيها السهم. وقد رأت كيف أن السهم قد اصطدم ب صدره وكيف أن ملابسه اشتعلت. ثم التهمت كرة كبيرة من النار كل ما هو داخل المتحف. كانت الحرارة تندفع من خلال الشباك المفتوح متسببة بتفجير ما تبقى من الألواح الزجاجية. وهنا قفزت كاسيوبيا إلى الأرض المبللة.

كانت النيران تلحس جلدة الظلام من خلال النوافذ المحطمة. غادرت مكانها قرب شرفة الكاتدرائية، واتخذت لنفسها موقعاً في مقابل برج ناقوس المتحف. كان رجل واحد من الرجلين قد مات على الأقل. وكان من الصعب عليها أن تعرف أيهما الذي قد أصابه السهم، لكن الأمر لا أهمية له أصلاً. نهضت على قدميها وانتقلت إلى مقدمة المبنى مراقبة كيف أن السجن الذي صنعه يحترق.

وكان في يدها سهم ثالث أخيراً مشتعل جاهز للانطلاق.

الفصل الثاني والأربعون

البندقية

وقفت زوفاستينا إلى جانب المبعوث البابوي. بعد أن حطت بها الطائرة منذ ساعة مضت. وكان المونسينيور ميشنير ينتظر وصولها عند مهبط الطائرات. انتقلت هي والمونسينيور وإثنان من حراسها الشخصيين من المطار إلى وسط البلد بواسطة تاكسي مياه خاصة. ولم يكن بوسعهم أن يستعملوا المدخل الشمالي للكاتدرائية، الواقع إلى جانب ساحة بيازيتادي لودينسيني كما كان مقرراً من قبل. ذلك أن مساحة كبيرة من ساحة سان ماركو كان قد عزلها البوليس وسد المنافذ إليها. بسبب حصول نوع من حوادث إطلاق النار، كما كان المونسينيور قد أخبرها. وهكذا انصرفوا إلى الأسفل مستعملين شارعاً جانبياً يمر من خلف الكاتدرائية حيث دخلوا الكنيسة من خلال مكاتب المطرانية.

وكان المبعوث الرسولي يبدو في قيافة مختلفة عما بدا عليه بالأمس. فلقد استبدل أثوابه السوداء وطوق عنقه الكهنوتي بثيابٍ شاعرية. ويبدو أن المونسينيور كان يحاول أن يبرّ بوعده لها في جعل هذه الزيارة سرية.

وها هي الآن تقف في داخل الكنيسة الرحبة الأعماق، التي تتلألاً أسقفها وجدرانها بالفسيفساء المذهبة. ومن الواضح أنها كانت اختلاقاً بيزنطياً كما لو أن الكنيسة قد بنيت في القسطنطينية بدلاً من إيطاليا. خمسُ قبابٍ نصف كروية كانت تنتصب قناطرها في الأعلى، وهي قباب كلٍّ من بنتيوكوست، والقديس جون، والقديس ليونارد، وقبة الأنبياء، أما القبة الأخيرة وقد كانت تقف تحتها فهي قبة عيد الصعود. والفضل يعود إلى وهج الضوء الدافئ القادم من مصابيح متقدمة موضوعة

في مواضع استراتيجية. لقد وافقت في سرّها على أن هذه الكنيسة تستحق شهرة الكاتدرائية الذهبية التي هي معروفة بها.

"يا له من مكان،" قال المونسنيور. "أليس كذلك؟"

"إنه مثال على ما يستطيع أن يفعله الدين عندما تمارجه التجارة. فتجار البندقية أشهر جامعي القمامة في العالم. وهنا يقع أكبر دليل على أسلابهم."

"هل أنت دائماً ساخرة إلى هذا الحد؟"

"لقد علّمني السوفييت أن هذا العالم هو مكان عسير المجتد."

"وهل قدّمت مرة صلوات الشكران إلى آلهتك؟"

ضحكت. لا بد أن هذا الأمريكي كان قد درى عنها. فلم يسبق له مرة في جميع محادثاتها السابقة أن تطرق إلى مسألة اعتقاداتها. "إن آلهتي أمينة معي بقدر ما هو إلهك أمين معك."

"نأمل أن تعيدي النظر في إيمانك الوثني."

انتصبت غاضبة بسبب الوصمة التي نُسبت إليها. فالكلمة نفسها تنطوي بشكل ما على أن الإيمان بتعدد الآلهة هو إيمان أدنى من الإيمان بآله واحد. أما هي فلم تنظر إلى الأمر بهذه الطريقة. فخلال حقبات التاريخ كان الكثير من الثقافات في العالم قد توافق معها، وهو أمرٌ جعلته واضحاً. "إن معتقداتي قد خدمتني على خير ما يرام."

"لم أكن أقصد إعطاء انطباع بأن معتقداتك خاطئة. الأمر كله يتعلق بأننا قد نكون قادرين على توفير بعض الإمكانيات الجديدة لك."

بعد مرور هذه الليلة، لن يكون لديها حاجة كبيرة إلى الكنيسة الكاثوليكية. فهي ستسمح لها بقدر محدود من الاتصالات مع الاتحاد بما يكفي فقط لجعل المتطرفين الإسلاميين يفقدون صوابهم. ولكنها لن تسمح أبداً لأي هيئة حتى وإن كانت قابلة لمساعدتها على صيانة كل ما يحيط بها الآن، من أن يكون لها أقدام ثابتة في منطقة نفوذها أبداً.

أشارت نحو المذبح العالي الواقع خلف شاشة متعددة الألوان تمثل المسيح مصلوباً. وقد بدت هذه الشاشة بشكل مثير للشك، وكأنها مجرد فاصل أيقوني. كان

بوسعها أن تسمع حركة تجري خلفها من الجانب البعيد الذي هو الأكثر إضاءة فيها. "إنهم يتخذون الاستعدادات لفتح الضريح. لقد قررنا أن نعيد يداً أو ذراعاً أو أي قسم آخر ذي أهمية من الذخائر يكون اجتزاؤه من الجثمان سهلاً." لم تستطع مغالبة نفسها عن التعليق. "ألا ترى وجه السخافة في هذا الإجراء؟"

هزّ ميشنير كتفيه هزة اللامبالاة. "إذا كان هذا الإجراء من شأنه إرضاء المصريين، فما الضرر من القيام به؟" "وأين تذهبون بحرمة الموتى؟ هذا المبدأ الذي لا يكفُ دينكم عن التركيز حوله. ومع هذا يبدو أنكم لا تجدون حرجاً في إقلاق راحة إنسان في ضريحه، عن طريق القيام بإزالة أجزاء من بقاياها وتقديمها للآخرين." "إنه شيء مؤسف لكنه ضروري."

عافت نفسها هذه البراءة التافهة في إجابته. "هذا هو الشيء الذي يعجبني في كنيستكم. إنها المرونة عند الحاجة."

حدّقت نحو صحن الكنيسة المقفر، وكانت معظم المصليات، والهيكل، والمحاريب مطروحة في أحضان الظلال العميقة. وكان حارساها يقفان على مسافة بضعة أقدام منها فقط. تمعّنت في الأرضية الرخامية التي كل بقعة منها بالغة التأق، تماماً مثل فسيفساء الجدران. فقد كان هنالك الكثير من الأشكال الهندسية الغنية الألوان، ومن صور الحيوان ورسوم الأزهار على خلفية من التموّجات التي لا تخفى فكرتها على النظر، وقد جعلت هكذا عن عمدٍ كما يقول البعض لكي تحاكي البحر. لكنّ الأصحّ أنّ هذا الإدعاء لا يستند إلى أساس قويّ.

فكّرت في كلمات بطليموس: وأنت أيها المغامر في سبيل رجع صداي المخلّد، إسمع كلماتي مهما كنت متنائياً أصمّ الأذان.

أبحر إلى العاصمة التي بناها وإيلد الإسكندر، إلى حيث يقف الرهبان حُرّاساً.

ومع أن بطليموس قد آمن بنفسه أنه نكي، دون أي شك، فإن الزمن مع ذلك قد استطاع حل ذلك الجزء من أحجيته. وكان نيكثانيبو قد حكم مصر كفرعون، خلال فترة من حياة الإسكندر الكبير. فترة كان خلالها الإسكندر لا يزال حدثاً صغيراً. ثم أن نيكثانيبو هذا، قد سيق مرة إلى المنفى بعد غزوة فارسية لمصر. لكن المصريين بقي يحدوهم في ذلك الوقت اعتقاد راسخ أن نيكثانيبو لا بد له من أن يعود يوماً ليقوم بطرد الفرس عن بلادهم. وبعد عشر سنوات من هزيمته تقريباً، فإن تلك الفكرة قد برهنت عن صدقيتها بشكل أو بآخر. كان ذلك عندما وصل الإسكندر فاستسلم الفارسيون على الفور مغادرين. ومن أجل إعلاء شأن محررهم، ورغبة في جعل قدومه من أجل خلاصهم أمراً طعماً، فإن المصريين قاموا بنسج الروايات التي تروي كيف أن نيكثانيبو في بواكير حكمه قد سافر مرة إلى مقدونية متخفياً في هيئة ساحر، وكيف أنه قد قام هناك بمضاجعة أوليمبياس، وابنة الإسكندر. وهي رواية تسمح بجعل نيكثانيبو، وليس فيليب، هو الوايلد الطبيعي للإسكندر. وهذه القصة هي من قبيل الهراء المطلق، لكنها كانت سائدة بما يكفي لكي تتخذ طريقها بعد ذلك بخمسة قرون من الزمان إلى نسيج الأسطورة التي حيكت حول حياة الإسكندر التي تعرف أن كثيرين من المؤرخين قد استشهدوا بها بشكل خاطئ على أساس أنها مرجع موثوق. وخلال فترة حكمه كآخر فراعنة مصر، فإن التاريخ يشير إلى أن نيكثانيبو قد أسس ممفس لكي تكون عاصمة له، الأمر الذي يكشف معنى البيت الذي يقول في أحجية بطليموس:

أبحر إلى العاصمة التي بناها وايلد الإسكندر

أما القسم الثاني:

إلى حيث يقف الرهبان حراساً.

فإنها تعزز ذلك الإستنتاج.

وفي ضريح نيكثانيبو، في ممفس، تقف مجموعة من أحد عشر تمثالاً كلسياً على شكل نصف دائرة، لكي تمثل حكماء الإغريق وشعراءهم. من هوميروس الذي كان الإسكندر يقدسه، وقد كان تمثاله هو التمثال المركزي؛ إلى أفلاطون، الذي قام بتعليم أرسطوطاليس؛ إلى أرسطوطاليس نفسه، الذي قام بتعليم الإسكندر؛ يضاف إليهم تماثيل لمشاهير الإغريق من الذين يحتلون مكانة بارزة في نفس الإسكندر.

ولم يتبقَّ من تلك التماثيل سوى بعض حطام، لكنها تكفي للدلالة على أن تلك التماثيل قد وُجِدَت يوماً.

وقد قام بطليموس بدفن الجثمان الذي خُيِّل إليه أنه جثمان الإسكندر في مقبرة نيكثانيو. وقد بقي الجثمان مستقراً هناك إلى ما بعد وفاة بطليموس، عندما قام ابنه بنقل الجثمان شمالاً إلى مدينة الإسكندرية.

أبحر إلى العاصمة التي بناها وايلد الإسكندر، إلى حيث يقف الرهبان حُرَّاساً.

وهذا يعني: اتجه جنوباً نحو ممفيس حيث تقع مقبرة نيكثانيو. ثم فكرت في البيت الذي يلي ذلك من الأحجية.

لامس قدسَ أقداسك الوهم المذهَّب.
فابتسمت.

الفصل الثالث والأربعون

تورسييلو

أَتَّخَذَ فيكتور لنفسه وضع الانبطاح فوق سَلَمِ الدرج رافعاً ذراعاً يقي بها وجهه من الحرارة الطاغية التي كانت تندفع إلى الأعلى من خلال الباب المؤدي إليه من الطابق الأرضي. أما السلحفاة فكانت قد تفاعلت مع ارتفاع درجة الحرارة فتفككت بطريقة آلية، مؤدية الوظيفة التي صُمِّمت من أجل القيام بها. ولا يمكن أن يكون رافائيل قد نجا. فالحرارة الابتدائية التي تنبعث من النار الإغريقية هي من الشدة بما يكفي لتليين المعادن وإحراق الحجر. أما الحرارة الثانوية المتولدة عنها فقد كانت حتى أشدَّ ضراوة من ذلك. واللحم البشري لم يكن ليقف أمامها بشيء، مثلما يجب أن يكون قد حصل لذاك الرجل في كوبنهاغن. إذاً إن رافائيل لن يلبث أن يصبح رماداً بعيد قليل.

عاد.

اضطربت النار على مبعدة عشرة أقدام منه.

صارت الحرارة لا تطاق.

سارع من جديد إلى الأعلى.

وكان البناء القديم قد تمَّ تشييده عندما ضوعف سطح الطابق الأرضي لكي يخدم كأرضية للطابق العلوي. فالسقف في الأسفل كان الآن يشتعل بكامله. وكان أحد الأسباب التي استدعت تجهيز السلحفاة لكي تنفجر هو من أجل جعل قوة دفع التدمير تتجه نحو الخارج. وكانت التشققات والتصدُّعات الآتية من أخشاب أرضية الطابق الثاني تؤكد تعرض تلك الأرضية للتدمير السريع. أما ثقل خزائن العرض

الثلاث بالإضافة إلى سواها من المعروضات الثقيلة الكبيرة الحجم فلم تكن أيضاً لتساعد على صمود تلك الأرضية. ومع أن الطابق العلوي لم يكن بعد قد اشتعل، إلا أنه (فيكتور) أيقن أن العبور فوق أرضيته قد يكون عملاً جنونياً. ولحسن الحظ، فإن بيت الدرج الذي يقف فيه إنما كان قد بني من الحجر الصلد.

وكان ثمة شبك مزدوج الألواح في وسط الحائط على بعد بضعة أقدام منه. وهذا الشبك يواجه الساحة. قرر أن يأخذ المجازفة فمشى إليه مشية القط معانقاً الجدار حيث ألقى من خلال الزجاج نظرة إلى الأسفل.



رأت كاسيوييا وجهه من زجاج النافذة. فرمت القوس من يدها على الفور والتقطت مسدسها مطلقاً منه عيارين.



قفز فيكتور من فوره متراجعاً إلى بيت الدرج، بينما تناثر زجاج الشباك. التقط مسدسه وتهياً للرد على النيران بالمثل. لقد رأى بما يكفي ليعرف أن مهاجمته هي امرأة، كان ذلك واضحاً من شكل إطار جسدها. وقد كانت ترفع قوساً نشأباً، لكنها ما لبثت أن استبدلت به بسرعة سلاحاً آخر هو عبارة عن مسدس.

وقبل أن يتمكن من الاستفادة من موقعه في نقطة مرتفعة، كان ثمة سهم مشتعل جديد يمر من خلال شبكة الحديد المجدول في النافذة التي باتت مفتوحة، لكي ينغرس في كسوة الحائط الذي يقابله من القاعة. ولحسن الحظ، فإن لا سلحفاة كانت قد أشبعت ذلك الطابق بمحلول النار الإغريقية. إذ لم يكن فيه من هذه المادة سوى العبوتين اللتين كان قد تركهما هو فيه سابقاً. واحدة على الأرضية والثانية في وسط خزانة العرض المثقوبة السقف الزجاجي. وكانت هاتان العبوتان تمثلان مشكلة محتملة.

وقد بات عليه الآن أن يفعل شيئاً حياًل ذلك.

وهكذا، فإنه اقتبس الفكرة من مهاجمته وقام بإطلاق النار على الشباك المزدوج الذي يقع في الحائط الخلفي للمبنى.



سمعت كاسيوبيا أصواتاً آتية من جهة اليسار حيث يقع المطعم والفندق. إذ من المؤكد أن الطلقات قد اجتذبت انتباه نزلاء الفندق. لاحظت وجود أشباح سوداء لأشخاص يتجهون قدماً في الممر القادم من القرية فتخلّت عن مكانها في الساحة بسرعة متراجعة نحو شرفة الكاتدرائية. وكانت قد أطلقت آخر سهم ملتهب أملاً منها في أن يشتعل الطابق العلوي من المتحف أيضاً. وتحت ضوء وهج النار، كانت قد تبينت وجه فيكتور من وراء زجاج النافذة.

ظهر الناس الآن، وكان رجلٌ يحمل هاتفاً خلوياً يلصقه إلى أذنه. لم يكن ثمة رجال شرطة يتمركزون في الجزيرة، الأمر الذي سيعطيها (كاسيوبيا) بعض الوقت. وقد كانت واثقة أن فيكتور لن يقدم على الاستغاثة بأيٍّ من المتفرجين لأن ذلك سيستدعي الكثير من الأسئلة حول جثة زميله في الطابق الأرضي. وهكذا، فإنها قررت المغادرة.



حدّق فيكتور عبْر ألواح الخشب التي تغطي الأرضية نحو عبوة النار الأغريقية، الملقاة فوقها فقرر أن هجوماً سريعاً عليها هو الخيار الأسلم قبل أن تلتهب. وهكذا، تقدم نحوها بخطوات سنّورية فالتقطها وأكمل طريقه بها في اتجاه الشباك الذي كان قد أطلق عليه النار للتوّ.

وقد تحمّلت الألواح الخشبية للأرضية ثقل جسده. ألقي بكيس العبوة في الخارج من خلال فتحة شبكة الحديد المجدول التي تتخذ لها شكل الحرف "C".

تأوّمت الأرضية عند نقطة الوسط في القاعة.

تذكرُ الجسور الأفقية الممتدة تحت ذلك السقف، لكنه عرف أيضاً أن مقاومتها لا بد من أن تضعف ثانية بعد أخرى. تقدّم خطواتٍ قليلة أخرى نحو السهم العالق في الجدار واستطاع انتزاعه، وكانت لفائف الخرق الملتفة حوله لا تزال تحترق. اندفع عبر سلّم الدرج ثم قذف بالسهم قذفة من تحت إبطه أوقعت به في إطار الشباك المفتوح ليستقر على مبعدة إنشآت قليلة فقط من كيس العبوة الحارقة. ولقد عرف أن الأمر كله لن يستغرق سوى دقائق قليلة قبل أن يذوب الكيس الذي يغلف العبوة. التمس ملاذاً له من هبة النار المرتقبة، داخل بيت الدرج.

هبة صاحبها صوت انفجاري، ثم ثارت زوبعة أخرى من النار.

نظر حول باب الدرج فرأى أن الحديد المجدول يحترق. ولحسن الحظ، فإن معظم زخم النار كان قد اتجه نحو الخارج. إلا أن إطار النافذة لم ينضم إلى الحريق الهائل.

انهار الطابق العلوي مبتلعاً معه خزانة العرض بما تحتويه من عبوة أخرى، في اتجاه الطابق الأرضي. وهكذا، فإن العبوة الأخيرة الباقية اشتعلت الآن محدثة غيمة من الحرارة الطافية نحو الأعلى. وعليه، فإن متحف الميوزيو دي تورسييلو لن يصمد بعد الآن كثيراً. قبل أن ينهار بكامله.

قفز إلى الشباك المفتوح.

قبض على حافة الطنف الذي يجري على طول الجانب الأعلى من إطار الشباك وفتش عن مكان يتمسك به. كان بدنه المكثود يؤلمه وهو يدفع به إلى الخارج، فيما كانت قدماه ترتطمان أحياناً بقضبان الحديد المشتعلة.

ولم يتحرك شيء من القضبان.

رفع نقه مرة جديدة ساحباً خلفها جسده، مستدعياً طاقة الأدرينالين لديه، مغالباً أمره في كل غارة جديدة بعد أن باتت الحرارة تكاد تخنق عليه أنفاسه.

وهنا بدأ حديد النافذة ينخلع.

رفسات أخرى وتحرّرت إحدى زوايا شبكة الحديد منخلعة عن مكان تثبيتها في الجدار الخارجي.

دفعتان أخريان طارت بعدهما شبكة الحديد بكاملها إلى الخارج. وسقط المزيد من أرضية الطابق العلوي.

خزانة عرض أخرى وبعض تيجان الأعمدة سقطت هي الأخرى إلى أرضية الطبقة السفلى ملتهبة في معمعان النار كأنها مجرد حزمة من القش. حذق إلى خارج الشباك.

كان الارتفاع حوالي ثلاثة أمتار. وكانت ألسن اللهب تندلع إلى الخارج من خلال نوافذ الطابق الأرضي. وقد قفز إلى الأرض.



أبقى مالون دفة القارب متجهة نحو الشمال الشرقي. ضاعف السرعة بالقدر الذي سمحت له به المياه المزبدة من الإسراع، في طريقه نحو تورسييلو. لمح وهجاً منبعثاً من الأفق، وكان للوهج وميض ذو انتظام. إنه حريق.

عباب من الأدخنة كان يتعالى نحو السماء، فيما الهواء الرطب يبده إلى خصل رمادية. كانا قد قطعا عشر دقائق كاملة من رحلتها التي تستغرق خمس عشرة دقيقة.

"يبدو أننا قد تأخرنا." قال مخاطباً ستيفاني.



بقي فيكتور كامناً في المنطقة الواقعة خلف المتحف. كان يستطيع سماع الأصوات والصيحات الآتية من وراء السياج الذي يفصل الساحة عن الحديقة والبستان الواقعين بين مكان وجوده وبين القنال، الذي يرسو فيه قاربه. شق لنفسه طريقاً عبر السياج ودخل إلى الحديقة.

ومن حسن حظه أن مرور أيام قليلة فقط على ابتداء موسم الربيع كان يعني عدم وجود الكثير من النبت المرتفع بعد. لذلك فإنه تمكّن من اتخاذ طريق مباشر له نحو الرصيف الإسمنتي. ومن هناك قفز إلى قاربه.

فكّ حبال القارب وباعدَ به عن الرصيف فلم يلحظ أن أحداً قد لحق به. وانساب القارب في المياه التي تتخذ لها مجرى يشبه مجرى النهر. وقد قاده التيار بالقرب من المكان الذي تتربع عليه الكنيسة والمتحف رجوعاً إلى الشمال حيث تقع بوابة البحيرة. انتظر إلى أن صار بعيداً إلى مسافة كافية خلف حافة الرصيف قبل أن يقوم بتشغيل المحرك. كما أنه أبقى زخم المحرك منخفضاً واستدار بمقدمة القارب ببطء ماخراً الماء دون أن يشعل الأنوار.

وكان الشاطئ يقع إلى مبعدة خمسين متراً من كلي الجانبين على الأقل. وهما في غالبتيهما عبارة عن ضفاف ترابية موحلة ضحلة كثيفة القصب. استفتى ساعة يده فإذا بها تشير إلى الحادية عشرة والثلاث قبل منتصف الليل.

حتى إذا بلغ ثغر القنال، قام بتنشيط المحركات، وناور متخذاً طريقه إلى اللجج المتلاطمة. أخيراً أشعل أنوار القارب واتخذ طريقه حول تورسيلو نحو القنال الرئيسي الذي يجب أن يقوده إلى البندقية وساحة سان ماركو.

سمع جلبة فانتبه ملتفتاً إلى الوراء

خرج من الكابينة الخلفية للقارب شبح امرأة

وكان في يدها مسدس.

الفصل الرابع والأربعون

سمرقند

الساعة 2:30 بعد منتصف الليل

جرّ فينسينتي كرسيه إلى قرب المائدة بينما كان النادل يرتب له الطعام أمامه. معظم فنادق المدينة كانت أشبه بالأضرحة المغمّة التي يجري القليل من الخدمات فيها. وقد لا يجري أبداً. أمّا الإنتركونتيننتال فقد كان شيئاً مختلفاً فهو يقدم خدمات في مستوى خدمات الفنادق الأوروبية المصنّفة بدرجة الخمس أنجم، خدمات درجت المؤسسة على الإعلان عنها، وعلى تسويقها بصفتها ضيافة آسيوية. فبعد رحلته الجوية الطويلة من إيطاليا كان قد عضّه الجوع، ولهذا، فإنه طلب إحضار وجبة من الطعام إلى غرفته تكفي له ولضيف عنده.

"قل لـ: أورماند." قال للنادل، "إنني لم أستسغ أن يمتدّ الوقت إلى نصف ساعة قبل أن يحضر لي هذه الأطباق الابتدائية، خاصة وإنني قد اتصلت بالفندق قبل حضوري. بل أقول لك: دع أورماند يأتي هو ذاته إلى هنا بعد انتهاء اجتماعنا وسأقول له هذا الكلام بنفسي."

أوما النادل برأسه موافقاً وتراجع من حيث أتى.

أفرد آرثر بينوا الذي يجلس قبالة إلى المائدة منديل القماش فوق حضنه. "هل كان من اللازم لك أن تقسو عليه إلى هذا الحد؟"

"إن هذا الفندق ملك لك فلم لم تقم أنت بنخس مؤخرته بنفسك؟"

"لأنني لم أر في الأمر ما يغيظني. لقد قاموا بتحضير الطعام بأسرع ما يستطيعون ذلك."

ولم يكن يكثرث لكل هذا. فالكثير من الأمور المقرفة تجري حوله. وهو في كل حال في مزاج نكد. أمّا أوكونيّه فكان قد سار قدماً ليتأكد أن جميع الأمور قد باتت جاهزة. كان قد قرر تناول وجبة طعام، ونيل قسطٍ من الراحة، إلى جانب إنجاز بعض الأعمال حول المائدة التي يتناول عليها وجبة الليل هذه.

التقط بينوا شوكة. "أفترض أن دعوتك لي لمشاركتك وجبة الطعام لم تكن لمجرد رغبتك في الاستمتاع بصحبتني. لمَ لا نختصر المسافة ندخل في الموضوع مباشرة يا أنريكو. ما الذي تريده مني؟"

بدأ يتناول طعامه. "أريد بعض المال يا آرثر. أو دعني أقول: إن فيلوجين فاروماسيتيك تحتاج إلى بعض المال."

أرجع بينوا الشوكة إلى مكانها، ورشف شيئاً من كأسه. "قبل أن تصبح معدتي مضطربة. هل لك أن تقول لي كم تحتاج؟"

"بليون يورو، وربما بليون ونصف."

"وهل هذا هو كل شيء؟"

ابتسم للهجة بينوا الساخرة. فالأخير كان قد جمع ثروته في المصارف التي لا يزال يسيطر عليها عبر أوروبا وآسيا. وقد كان بليونيراً يملك أضعاف ما يملكه سواه من الأعضاء، كما أنه عضوٌ قديم في عُصبة البندقية. أما اقتناؤه للفنادق فلم يكن سوى هواية تستهويه. وقد قام مؤخراً ببناء الإنترنتيننتال هنا لتأمين الخدمة الفندقية اللازمة لتدفّق أعضاء العصابة وسواهم من المسافرين المرفّهين. وكان هو أيضاً من بين الأعضاء الذين سبقوا سواهم إلى تركيز مقارّ سكنهم في الاتحاد. وخلال مرور السنين كان بينوا قد قام مراراً بتمويل ارتقاء نجم شركة فيلوجين القياسي.

"أفترض أنك تريد قرضاً بمعدل فائدة يقع تحت معدل الفائدة الرائجة دولياً."

"ليس أقلّ من ذلك." حشى حمولة شوكة من لحم الحجل المحشّي في فمه مستمتعاً بالنكهة اللاذعة المميزة.

"تحت المعدل بكم؟"

ابتسم بينوا لهذا التعنيف الذي يتلقاه. "ليس هناك من قوانين تجارية داخلية بيني وبينك. تذكر أننا نحن من يكتب تلك القوانين. إذا قل لي ما الذي تقوم بالتخطيط له."

"لا هذا ما لن أفعله." وبقي عند رفضه في انتظار أن يرى ما إذا كان الطمع كالعادة، سيتغلب على التفكير المتروكي.

"متى ستحتاج إلى البليون، أو البليون ونصف البليون؟"

أرسل جرعة من كأسه خلف مضغة كبيرة من الطعام. "بعد سنتين يوماً على الأقل."

بدا بينوا وكأنه يفكر في أمر هذا الطلب. "وما هي المدة التي تطلبها لتسديد القرض؟" هذا بالطبع، على افتراض أنه ممكن.

"أربعة وعشرون شهراً."

"بليون دولار، مع الفائدة، في مدة سنتين؟"

لم يقل شيئاً بل استمر في المضغ، جاعلاً النبوءة تنتزل بشكل شحيح. "مثلما قلت لك، إن شركتك تواجه ديوناً ثقيلة، وهذا القرض لن يحظى باستحسان لجاني المولجة بإجازة القروض."

أخيراً صرّح بما يشتهي الرجل أن يسمع: "لسوف تخلفني في مجلس العشرة."

بدت المفاجأة على وجه بينوا. "وكيف يكون لك أن تعرف ذلك؟ أنه انتقاء عشوائي من بين الأعضاء."

"سيأتي عليك يومٌ تتعلم فيه يا آرثر، أنه ليس ثمة شيء يأتي عشوائياً. لقد قاربت ولايتي على الانتهاء. أما مدة ولايتك لسنتين فسوف تبدأ قريباً."

كان يعرف أن بينوا مستميت في سبيل الوصول إلى مجلس العشرة. وهو كان في حاجة لوجود أصدقاء له هناك. أصدقاء يكونون مدينين له. وحتى الآن، هناك خمسة من أصل الأعضاء العشرة الحاليين، وهم خمسة لن يخرجوا الآن

بالمداورة، في عداد أصدقائه، وها هو الآن قد اشترى لنفسه عضواً صديقاً قديماً آخر.

"حسناً"، قال بينوا. "لكنني أحتاج لبضعة أيام كي أقوم بتوزيع المجازفة بين عددٍ من مصارفي."

ضحك متابعاً تناول طعامه. "قم بذلك العمل. لكن ثق بي يا آرثر. ولا تنس أن تكلم وسيطك."

الفصل الخامس والأربعون

استفتت زوفاستينا ساعة يدها التي هي من ماركة لويس فيتون، وقد كانت قد حصلت عليها كهدية من وزير خارجية السويد خلال زيارة رسمية قامت بها منذ بضع سنوات. لقد كان رجلاً أسراً. رجلٌ كان قد قام بمداعبتها فعلاً. وقد رُتت له اهتمامه بها بالمثل رغم أنها قد وجدت في هذا الدبلوماسي قليلاً مما يثيرها. وكان قد حصل لها الشيء نفسه مع المبعوث البابوي كولين ميشنير، الذي بدا أنه يستمتع في إثارتها. ففي الدقائق القليلة الماضية كانت تجولت هي والمونسينيور في صحن الكنيسة منتظرين - كما افترضت - اكتمال التحضيرات المتعلقة بالمنبح.

"ما الذي يجعلك تعمل مع البابا؟" سألته. "لقد كنت مرة السكرتير البابوي للبابا السابق، وها أنت الآن مجرد مبعوث."

"إن الحبر الأعظم يحب استدعائي في بعض المهمات الخاصة."

"مثلي أنا؟"

أوما بالإيجاب. "إنك خاصة جداً."

"وما هو سبب ذلك؟"

"لأنك رئيسة دولة. لم يكن أيضاً؟"

هذا الرجل هو أيضاً رجل جيد مثل ذلك الدبلوماسي السويدي، الذي كان مثل ساعته الفرنسية، سريع الأفكار والكلمات. لكنه مقتصدٌ في الإجابات. أشارت إلى واحدٍ من الأعمدة الضخمة، وكانت قاعدته مغلّفة بمقعٍ صخريٍّ يستدير حولها، لكن

المقعد كان محاطاً بحبل يمنع الجلوس عليه. "ما هي تلك اللطخات السود؟" لطخات كانت قد لاحظت وجودها على جميع الأعمدة.

"لقد قمت بطرح هذا السؤال أنا أيضاً من قبلك." أشار المونسينيور. "مرّت قرون والمؤمنون يجلسون على هذه المقاعد مسندين رؤوسهم إلى رخام الأعمدة. لذلك فإن آثار الشعر وايلدُهن قد تسرّبت إلى الحجر، تخيلي كم هو عدد الملايين من الرؤوس التي يستلزمها الأمر لإحداث ذلك الأثر."

حسّنت الغرب على تلك الفوارق والمعالم التاريخية المميّزة. فلسوء الحظ، فإنّ بلدها قد تعرّض لأصناف البلاء على يد الغزاة الذين عمل كل واحد منهم مبلغ جهده لتدمير آثار سلفه. فلقد أتى الفرس أولاً، ثم الإغريق، ثم المغول، ثم الأتراك، وأخيراً والأسوأ من الجميع: هم الروس - لقد بقي بناء هنا وبناء هناك، ولكن لم يبق شيء يقارن "بالصرح الذهبي".

كانا يقفان إلى يسار المذبح العالي خارج الفاصل الأيقوني، وكان حارساها يقفان ضمن مجال الصوت. أشار ميشنير إلى الأرض الفسيفسائية. "أترين ذلك الحجر الذي له شكل يشبه شكل القلب؟"

نظرت إلى حيث أشار إليها، فوجدت الحجر الصغير، وغير الجدير بالاهتمام، يحاول الاندماج مع الإشارات الغزيرة التي تحيط به.

"لم ينتبه أحدٌ إلى سرّ ذلك الحجر لمدة طويلة. ثم، ومنذ خمسين سنة، وخلال عملية لتجديد الأرضية تمّ رفع الحجر عن مكانه فوجدوا تحته علبة صغيرة تحتوي على قلب بشري متجعّد. قلب يعود إلى الدوق فرانسيسكو إيريز الذي كان قد توفي عام 1646. ولقد قيل لي إن جسده يرقد في كنيسة سان مارتينيو، لكنه أوصى بأن يدفن قُدسُ أقداسِه (innermost) على مقربة من قبر قديس البندقية وشفيعها." هنا أشار ميشنير إلى المذبح العالي "القديس مرقس".

"وهل أنت تعرف ما هو الكائن الذي تسميه قدس الأقداس؟"

"أليس هو القلب البشري؟ ومن ذا الذي يجهل ذلك؟ لقد نظر الأقدمون إلى القلب البشري بوصفه مقرّ الحكمة، والذكاء، وجوهر الإنسان."

وكان هذا هو بالضبط سبب تعليلها لاستعمال بطليموس لذلك الوصف:

لامِسُ قدس أقداس الوهم المذهب.

"دعيني أريك شيئاً آخر،" قال ميشنير.

عبرا أمام لوحة العرض، الضافية، المتعلقة بتمثيل عملية صلب المسيح، المليئة بالمربعات، ومتوازيات الأضلاع، وسواها من الأشكال الرباعية الأضلاع، المشكّلة من الرخام الملون. وخلف هذا الفاصل كان الرجال جاثين على رُكَبِهِم يعملون تحت المذبح حيث يوجد ناووس حجري غارق في الضوء. وكانت شعرية حديدية تحمي مقدمة الناووس بطول مترين وارتفاع متر واحد، هناك قد أزيلت.

لقد لاحظ ميشنير أن اهتمامها قد توقف. "وفي العام 1835، فإن صفحة المذبح قد تمّ تجويفها فتمّ إيجاد مكان بارز لإيواء القديس. وهناك هو الآن يرقد. وهذه الليلة ستكون هي المرة الأولى التي يفتح فيها الضريح منذ ذلك الوقت." استفتى المبعوث البابوي ساعة يده. "عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً، سيكونون جاهزين من أجلنا. أي بعد برهة وجيزة."

استمرت في متابعتها للرجل المقلق. وإلى الجانب الآخر من الكاتدرائية، قرب جناح جنوبيّ قليل الإضاءة، هناك توقف ميشنير أمام عمود آخر من الأعمدة الرخامية العالية.

"لقد دُمّرت هذه الكاتدرائية بفعل حريق في العام 976،" قال لها. "ثم أعيد بناؤها وتكريسها في العام 1094. ومثلما كنت قد ذكرت لي أثناء وجودي في سمرقند، فإنه خلال هذه المئة وثمانية عشرة سنة فإن مكان وجود جثة القديس مرقس كان أمراً من الأمور المنسيّة. ثم أثناء وجود حملة واسعة لتكريس الكاتدرائية الجديدة في السادس والعشرين من شهر يونيو/حزيران من العام 1094، فإن ضجة تحطّم جاءت من هذا العمود. فرقعة صخر، اهتزاز. ثم ظهرت يدٌ منه بادية الأمر، ثم نراع، ثم جسد قديسيّ كامل. وقد تحلّق الكهنة والناس حول هذا العمود، وحتى الدوق نفسه كان معهم. وسرى اعتقاد واسع أنه، ومع عودة ظهور القديس مرقس، فإن أحوال العالم قد استقامت من جديد."

كانت مستمتعة بالحكاية أكثر مما هي معجبة بها. "لقد سمعتُ هذه الحكاية من قبل. من المدهش كيف أن هذا الجسد قد ظهر فجأة فقط عندما احتاج الدوق والكنيسة الجديدة إلى دعم سياسي ومالي من أهالي البندقية. عند ذلك ظهر شفيعهم

القديس في أعجوبة. يا له من مشهد لا بد له من أن يكون مشهداً مسرحياً. إنني أتخيل الدوق، أو وزيراً ذكياً سواه، قد قام بالإشراف على إخراج هذه المسرحية. إنه عمل سياسي عبقرى مثير. إذ لا يزال الكلام عليه جارياً بعد حدوثه بتسع مئة سنة.

هزّ ميشنير رأسه في تفكُّه. "يا لقلّة الإيمان."

"إنني أركّز اهتمامي على ما هو حقيقي."

أشار بإصبعه. "مثل اعتقادك بأن الإسكندر الكبير يرقد في هذا الضريح؟" قلّة إيمانه أزعجتها. "وكيف لك أن تعلم أنه لا يرقد هنا؟ فالكنيسة لا تملك أية فكرة عن هوية الجسد الذي قام تجاراً من البندقية بسرقة من الإسكندرية منذ أكثر من ألف سنة."

"إذا أخبريني يا دولة رئيس الوزراء ما الذي يجعلك شديدة التأكد؟"

نظرت نحو العمود الرخامي الذي يدعم السقف الكبير فوقهما ولم تستطع أن تقاوم معانقة جوانبه، متعجبة ما إذا كانت الرواية عن خروج جسد قديسيّ منه كان أمراً صحيحاً.

لطالما أحبّت شبيهات هذه القصة.

وهكذا، فإنها روت على مسمع المبعوث البابوي قصة شبيهة من عندها:

واجه إيمينيس مهمة جبارة هائلة. فبصفته سكرتيراً شخصياً للإسكندر، كان من الواجبات المؤتمن عليها هو عمل كل ما من شأنه لكي يتأكد من أن جسد الملك قد جرى دفنه بالقرب من جسد فستيشيون، ولقد مرّت أشهرٌ ثلاثة منذ وفاة الملك، وجسده المحنّط لا يزال مسجّى في القصر. وكان معظم رفقاء الإسكندر قد غادروا بابل منذ وقت متفرقين لكي يشدّدوا قبضتهم كلٌّ على الجزء الذي يضع يده عليه من المملكة. لكن رجلاً كان جسده في حجم جسد الإسكندر، كما كان له شكله وعمره، كان يسكن خارج المدينة في قرية ليست بشديدة البعد. لقد قام إيمينيس بتسميم الرجل المزيف، كما قام أحد أخصائيي

التحنيط بتحنيط جثته. بعد ذلك، غادر الرجل المصري المدينة. لكن أحد شريكى إيمينيس فى هذه المؤامرة ما لبث أن لحق بالرجل وقتله. وقد حصل التبدل بين الجثتين خلال هبوب عاصفة صيفية أمطرت المدينة بمطرة شديدة الغزارة. وبعدما تم لف الجسد بالغشاء الذهبى واللبس الأثواب الذهبية، ووضع التاج على رأسه، فإن أحداً لم يعد يستطيع أن يمايز بين الجثتين. ولقد أبقي إيمينيس جسد الإسكندر مخبوءاً لعدة أشهر بعد أن كانت الجنازة الملكية قد غادرت بابل متجهة نحو اليونان وهي تحمل الجثمان المزيف. وقد استسلمت المدينة بعد ذلك إلى سبات لم تخرج منه أبداً. وقد تمكن إيمينيس ومساعداه من مغادرة المدينة دون حوادث آخذين معهم جثمان الإسكندر شمالاً، ومتمكنين من إنجاز وصية الملك عندما كان على فراش موته.

عندها قال ميشنير: "إذا، أعتقد أن لا يمكن أن يكون الجسد المدفون هنا غير عائد سوى للإسكندر بعد كل هذا؟"

"إنني لا أتذكر أنني كنت قد أكدت لك أنني مستعدة لكي أشرح لك البرهان على كل ما أقوله."

ابتسم. "كلا لم تفعل ذلك يا دولة رئيس الوزراء. ودعيني أقول لك إنني قد استمتعتُ بسماع روايتك."

"إنها مسلية تماماً مثل روايتك الخرافية عن العمود."

أوما برأسه موافقاً. "لعل الروايتين تتساويان معاً في مصداقيتهما."

لكنها لم تكن لتوافقه الرأي. فروايتها قد أتت من مخطوطة جزيئية تم اكتشافها بواسطة نور أشعة إكس المطيافية، بعد أن كانت قد تخلّفت لبضعة قرون قبل أن تقع عليها عين بشري. والتكنولوجيا الحديثة هي وحدها التي استطاعت الكشف عن هذه المخطوطات. فالمسألة هنا ليست مسألة خرافة. فالإسكندر الكبير لم يدفن أبداً في مصر. بل جرى أخذ جسده إلى مكان ما، مختلف. وقد تمكن بطليموس فرعون مصر الإغريقي الأول من اكتشاف هذه الحقيقة في نهاية الأمر، وكذلك مكان القبر. وهو قبر قد تقودها المومياة المدفونة في هذا الضريح الذي يقع على مبعدة عشرة أمتار منها الآن، إلى مكان وجوده.

الفصل السادس والأربعون

راقب فيكتور كيف أن المرأة قد تسلقت الدرجات إلى منتصف ظهر القارب محتفظة بمسدسها مصوباً نحوه.

"كيف وجدت النار، هل أعجبتك؟" سألته.

عدّل دواًسة مخنق المحرك إلى وضع اللاتعشيق، وتحرك نحوها. "أيتها اللعينة الغبية، سوف أريك."

رفعت المسدس. "هياً تقدم، أرني ماذا ستفعل."

كانت العينان اللتان حدقتا فيه مليئتين بالكراهية. "إنك تقتلين بسهولة." وكذلك هو حالك.

"ومن الذي تعتقدين أنني قتلته؟"

"قد تكون أنت هو القاتل. وقد يكون شخصاً سواك من عصبتكم المقدسة. فمئذ ثلاثة أشهر، وفي مدينة سمرقند احترق منزل إيلي لوند إلى الأرض بفضل ناركم الإغريقية."

تذكر تلك المهمة. عملية كان قد نفّذها بنفسه بطلب من زوفاستينا. "لا بد أنك أنت المرأة من كوبنهاغن. لقد رأيته عند المتحف، ثم في المنزل." عندما حاولت قتلنا.

"يبدو أنك وزميلك قد فرضتما تلك المنازلة."

"ما الذي تعرفه عن مقتل إيلي؟ فأنت رئيس عصابة زوفاستينا المقدسة."

"وكيف لك أن تعرفي ذلك؟" ثم خطر في باله. "لا بد أن الأمر يتعلق بقطعة العملة التي قمتُ بتفحصها في ذلك المنزل. لقد استخرجتم بصمة إصبعي." "شابٌ ذكي."

بدا وكأنَّ ذهنها يتخبط في ذكرى عقدة مؤلمة، لذلك فإنَّه قرر أن يدغدغ أتونها العاطفي. "لقد مات إيلي مقتولاً." "وهل أنت هو الذي فعل هذا؟"

لاحظ وجود قوسٍ للرماية وكنانةٍ للسهام مقفلة يتدليان من كتفها. لقد برهنت سابقاً على مبلغ برودة ضربات قلبها عندما قامت بإقفال بوابة المتحف من الخارج، وعندما استعلمت سهامها لإشعال المبنى. لذلك قرَّر ألاَّ يبالغ في استفزازها. "لقد كنتُ موجوداً هناك."

"وما الذي جعل زوفاستينا تقرِّر قتله؟"

تمايل القارب في الأمواج اللامرئية، وقد استطاع أن يشعر كيف أنه ينجرف بهما مع الرياح. والضوء الوحيد الموجود كان يقتصر على الوهج الضعيف الآتي من لوحة القيادة.

"إنتِ، وأصدقائك، وإيلي، تتورطون بأشياء لا علاقة لكم بها."

"دعني أقول أنك الشخص الذي يجب أن تكون له علاقة. لقد جنَّتُ لكي أقتلكما معاً. واحدٌ قُتِل، والآخر سيأتي عليه الدور."

"وبماذا يفيدك ذلك؟"

"إنها متعة رؤيتك وأنت تموت."

رفعت مسدسها.

وأطلقت النار.



وضع مالون حركة المحرك في وضع اللاتعشيق. "هل تسمعين ذلك؟"

كانت ستيفاني أيضاً متيقظة. "يبدو أن الصوت يشبه صوت طلقة مسدس تأتي من مكان ما، بالقرب منا." "لنأخذ تلك ربة لهنمققت شمة ريتا كلمة مدّ عنقه خلف زجاج مقدمة القارب فوجد أن النار المشتعلة في تورسيلو على بُعد ميل واحد منهما، قد بدأت تستعر من جديد. كان الضباب قد ارتفع، فالطقس يأتي هنا على ما يبدو في موجات متعاقبة سريعة. وقد صارت الرؤيا الآن معقولة نسبياً. لكن الأنوار كانت تعبر المسالك المائية في كل اتجاه. أصاخ بسمعه لالتقاط أي صوت. لا شيء. زاد من قوة اشتغال المحركات.



كانت كاسيوبيا قد سددت نحو الحاجز الإنشائي رسالة رصاصتها على بعد إنشاتٍ من رجل فيكتور. "إن إلي لي لم يؤذ في حياته أي مخلوق. ما الذي دعاك إلى القيام بقتله؟" أبقت المسدس مسدداً نحوه. "قل لي. لماذا؟" سألت سؤالها كلمة منفصلة تلو كلمة، من خلال أسنانٍ كظيفة. سؤال فيه من الإلتماس أكثر مما فيه من الغضب. "زوفاستينا امرأة لديها رسالة. وقد تدخل رجلك إلي في مجال مهمتها." "لقد كان مجرد عالمٍ تاريخ، فكيف كان يمكن له أن يشكّل تهديداً لرسالتها؟" كرهت نفسها بسبب الإشارة إليه بكلمة "كان". قفزت المياه ضاربةً مقدمة المركب المنخفضة، واستمرت الرياح في صفق القارب.

"قد يأخذك العجب من السهولة التي تقتل هذه المرأة بها الناس." مداراته الإجابة عن سؤالها لم يجزه سوى بمضاعفة سخطها. "قم بالاهتمام بتلك الدفة اللعينة." راقبته من الجانب المقابل من مقدمة القارب. "تحرك بنا إلى الأمام ببطء وهدوء."

"إلى أين؟"

"إلى سان ماركو."

استدار وعشّق تروس المحرك، ثم دوّم القارب فجأة بقسوة إلى اليسار، جاعلاً ظهر القارب يدور تحت قدميها. وفي لحظة تفاجئها، وبينما كانت محاولتها لاستعادة توازنها قد تغلبت على رغبتها في إطلاق النار، فإنه اندفع نحوها.



أيقن فيكتور أن عليه أن يقتل هذه المرأة. فهي تمثل الخيبة بالنسبة إليه، بل تُمثّلها على مستويات عديدة. ويكفي القول إنها لو اكتُشفت فإن زوفاستينا ستفقد كل ثقتها به.

وهذا كلّهُ هو عدا عما قد حصل لرفيقه رافائيل.

أمسكت يده اليسرى أعلى ظهر باب الكابينة واستعمل اللوحة الخشبية ليؤرجح جسده بعيداً عن الدفّة المائلة رافساً بنعليه في اتجاه ذراعي المرأة. لكنها انحرفت عنه مسقطه نفسها إلى الأمام.

وكانت مسافة مقصورة القيادة لا تزيد عن مترين مربعين. وفيها ثمة فتحتان، واحدة لكل جهة، تؤدي كل منهما إلى الخروج إلى خارج القارب. بقيت المحرّكات تنوّ بينما القاربُ الخالي من رُبان، يقاوم الأمواج. وكان رشاش الماء يصفع الزجاج الأمامي لكابينة القيادة. أما المرأة فكانت لا تزال تحمل المسدس، لكنها تجد أيضاً صعوبة في صراعها لاسترجاع توازنها.

وجّه إليها لكمة أصابتها في فكها بعقب كفه المفتوح. انفتل عنقها إلى الورا فارطم رأسها بشيء ما، واستغلّ لحظة اضطرابها لكي يدوّم دفة القارب مرة أخرى ويزيد السرعة. لقد كان مشغول البال بالمياه الضحلة، والنباتات المتشابكة. وقد بدت تورسيلو إلى يساره، وكان المتحف المشتعل ينير ظلمة الليل، صار القارب يدوّم الآن في المياه الوعرة، وأمسكت كاسيوبيا رأسها بيديها.

قرّر أن يترك للطبيعة أمر تدبّر أمر هذه المرأة.

فركلها ركلة ذهب بها إلى البحر.

الفصل السابع والأربعون

عبرت زوفاستينا عبر الفاصل الأيقوني إلى الجزء المخصص للكهنة. وحدّقت نحو جلال مظلة الكاتدرائية، التي تظلّل الضريح. أربعة أعمدة من المرمر، وكل منها مزين بزينات متقنة، ترفع فوقها قطعة ضخمة من الرخام الأخضر الحشيشي، وقد جوّفت إلى قباب ممتعة للنظر. وفي الخلفية، وفي إطار مظلة الضريح، تلالآت الـ: بَلا دورو الشهيرة. وهي واجهة غنيّة بالذهب والحجارة الكريمة، ومادة الميناء (مادة زجاجية يطلّى بها).

وتحت المذبح، تأملت الجزئين المميّزين من الناوس الحجري. فالجزء الأعلى المشوّه كان بلاطة حجرية، بينما الجزء الأسفل فمنحوتٌ نحتاً ناعماً ومجوّفاً، ويأخذ شكل مستطيل حُفرت عليه الأحرف اللاتينية التالية: CORPVS DIVI MARCI EVANGELISTAE وكانت معرفتها باللغة اللاتينية كافية لها لترجمة تقريبية: "جسد القديس المبارك مرقس". وكان ثمة حلقتين حديديتين ثقيلتين تنفذان من أعلى غطاء التابوت. ويبدو أن هذه هي الوسيلة التي كان قد أمكن بواسطتها رفع الغطاء الحجري الكبير فوق التابوت وإغلاقه بواسطته. أمّا الآن، فثمة أربعة قضبان حديدية متينة تنفذ من داخل الحلقات الحديدية، وكل منها مثبت بإحكام إلى رافعة هيدروليكية.

"هذه مهمة تنطوي على تحدٍّ حقيقي"، قال ميشنير. "إذ ليس ثمة الكثير من المجال تحت المذبح. وبالنطبع، وبمساعدة المعدات الثقيلة، استطعنا الدخول في سهولة إلى الداخل. لكننا لا نملك الوقت الكافي ولا الجوّ الخصوصي، لكي نقوم بذلك."

لاحظت أن الرجال يقومون بإعداد الرافعات. "هل هم كهنة؟" أوما برأسه

بالإيجاب. "كهنة من المعيّنين هنا. إننا نعتقد أنه من الأفضل أن نحصر هذا الأمر في ما بيننا."

"إنّ ما تريدن قوله بسؤالك في الحقيقة هو: "هل أن الرفات كان قد جرى تحنيطها." هزّ ميشنير كتفيه هزّة الذي لا يدري. "لقد مرّ الآن أكثر من مئة وسبعين سنة منذ أن فُتح هذا الضريح للمرة الأخيرة، ولا أحد في الحقيقة يعرف ماذا يوجد في داخل التابوت."

امتعضت من شدة اعتداده بنفسه. لقد كان بطليموس قد استغلّ قيام إيمينيس بتبديل الجثث، واستغلّ ما كان العالم يعتقد بأنه جثمان الإسكندر إلى أقصى الاستغلال السياسي. ولم يكن لها من سبيل لمعرفة ما إذا كان ما هي على وشك مشاهدته سوف يزودها بأيّ إجابات، لكن قيامها باستجلاء الأمر يبقى مهمة لا بدّ منها.

أشار ميشنير لأحد الكهنة. فبدأ العمل على تشغيل الرافعات الهيدروليكية. امتدت الحلقات الحديدية المثبتة في أعلى الغطاء الحجريّ امتداداً عمودياً، بعد ذلك، بدأ الغطاء الثقيل يرتفع في بطءٍ شديدٍ لا يتجاوز ميليمتراً واحداً في كل دفعة تدفعها الروافع.

"ماكينات جبّارة"، قال ميشنير. "إنها آلات صغيرة لكنها تستطيع اقتلاع منزلٍ من مكانه."

ارتفع الغطاء الآن مسافة سنتيمترين اثنين في اتجاه السقف، لكن جوف الناوس كان لا يزال محجوباً. حدّقت في مكانٍ فوق قبة الضريح إلى صورة من الفسيفساء المذهّب واقعة في نتوء يأخذ شكل نصف قبة شديدة الإضاءة.

أوقف الرجال الأربعة عملهم على الرافعات.

صار غطاء التابوت معلّقاً في الفضاء على علوّ أربعة سنتيمترات فوقه.

لم يعد لدينا مجال لرفعه أكثر من هذا القدر.

أشار ميشنير إليها وإلى نفسه بالتراجع في اتجاه الفاصل الأيقوني بعيداً عن المذبح، حيث أسرّ إليها. "إنّ الحبر الأعظم يحاول أن يلبي لك طلبك على أمل

أن تقومي أنتِ بدورك بمبادلته بالمثل. لكن لنكن واقعيين. فإنك لن توفي له بوعودك."

"لست معتادة على تقبُّل الإهانات."

"إننا نريد المزيد."

أيقنت الآن، لقد انتظر إلى أن تمَّ رفعُ الغطاء. كرهت نفسها في هذه اللحظة. ولكن كرامة عين كارين والإسكندر الكبير، وما قد تجده في هذا الناوس مما قد يدلُّها على شيءٍ ما، تجده في مكان ما، فإنَّ لا خيار آخر لديها سوى المضيِّ في ما هي فيه.

"وماذا تريدون؟"

مدَّ يده إلى ما تحت سترته وأخرج حزمة مطوية من الورق. "لقد قمنا بإعداد اتفاقية بين الاتحاد والكنيسة. تتضمن تأكيداً خطياً على أننا سوف نعطي حق الدخول. وبناء على طلبك الذي أعربت عنه بالأمس، فقد احتفظنا للاتحاد بالحق في إعطاء الموافقة المسبقة قبل القيام ببناء أيِّ كنيسة."

فتحت الأوراق فرأت أن النصَّ قد أُعدَّ حتى باللغة القوزاقية.

"لقد اعتقدنا أنه من الأسهل صياغة النص بلغتكم."

"بل لقد اعتقدتم أن نشره بلغتنا سوف يكون من الأسهل عليكم. وسيكون توقيعي في أسفله هو دليلكم عليه. ولن يكون بوسعي أن أنكر مدعاكم بعد ذلك."

ألقت نظرة على الاتفاقية. أورد النص جهوداً مفصَّلة للتعاون المشترك بين الكنيسة الرومانية وبين اتحاد آسيا الوسطى من أجل "التعاون لتشجيع وتطوير حرية ممارسة الشعائر الدينية من خلال الإجازة اللامحدودة للعمل التبشيري." وتابعت المقاطع بعد ذلك لكي تؤكد أنَّ أعمال العنف ضد الكنيسة لن يجري التسامح بها وأن المعتدين سيعاقبون. كما وردت أحكام أخرى تضمن أن تأشيرات الدخول سوف تمنح بكل حرية إلى موظفي الكنيسة، وأنَّه لا يمكن التساهل مع أيِّ أعمال انتقامية قد يتعرض لها المهتدون.

حدقت مجدداً في الناموس الذي بقي الجزء الأسفل منه مبهماً. ولكن حتى من مسافة عشرة أمتارٍ فقد استطاعت أن ترى أن لا شيء بداخله.

"إنك شخص جيد لكي تعمل في فريقتي." قالت له.

"لكنني أحبُّ خدمتي في الكنيسة."

التفتت إلى ساعة يدها - 12.20 بعد منتصف الليل. سوف يكون فيكتور قد وصل. فهو لم يتأخر عن موعدٍ له معها مرة. والأمر يعتمد على الظروف. حدقت إلى البعيد في صحن الكنيسة، ثم أعادت النظر إلى الأجزاء العليا من الجناح الغربي حيث لم يكن سوى الأسقف الذهبية المنارة. هناك الكثير من الأماكن المظلمة للاختباء. عجبت عندما ستجِلُّ الساعة الواحدة ليلاً وتعطى لها فرصة الثلاثين دقيقة لتنفرد خلالها بنفسها مع الضريح، فهل هي ستكون فعلاً بعيدة عن المراقبة في ذلك الوقت.

"إذا كان التوقيع على الاتفاقية يشكل مشكلة،" قال ميشنير، "فإننا نستطيع صرف النظر عن موضوعنا برمته."

كانت هذه هي الكلمات التي استعملتها معه بالأمس عندما وضعت أمام المحكّ.

لقد استدرّت هي بنفسها مناوخته المخادعة.

"هل لديك قلم؟"

الفصل الثامن والأربعون

لاحظ مالون زوجاً من الأضواء الحمراء المشتعلة، على بعد ربع ميلٍ منهما، كانا يتضاءلان وينوسان في انحراف عبر المياه السوداء كما لو أنهما ينطلقان من على مركب ليس فيه ربان.

"أترين ذلك هناك؟" سأل ستيفاني مشيراً بيده.

وقفت على الجانب الآخر من مقدمة القارب. "إنه خلف خط القنال المرسّم."

وكان هو يعتقد الشيء نفسه، ترك القارب يمخر طريقه إلى الأمام. فقد صارا الآن أكثر قرباً من الماكينة المتهداية، ربما على بعد بضعة مئات من الياردات عنها. ولم يعد هنالك من سؤال، فالقارب التائه هو من قياس قاربهما ونوعه، إلا أنه يكاد يدرك المياه الضحلة. ثم ومن الوهج الباهت المنبعث من مقدمته رأى شخصاً ما، يرتمي في وسط المياه.

شبح شخص آخر ظهر فوق القارب وانطلقت ثلاث طلقات في عتمة الليل.

"كوتون." قالت ستيفاني.

"لقد سمعتُ ما سمعتُ."

أدار الدفة يساراً واتجه نحو مصدر الضوء مباشرة. بدا أن القارب التائه قد قفز الآن إلى الحركة فانطلق بعيداً. قطع طريقه في مياه تنبت فيها الأعشاب، مرسلاً أمواجاً طويلة، ومنتجهاً إلى الماكينة الأخرى الأقل سرعة. اندفع رُشاش المياه إلى داخل مقدمة القارب. وكان مالون لا يزال على مبعده خمسين قدماً. وها هو القارب الآخر يمر بهما الآن، وقد بدا الشكل الشبحي لربانه وهو بقرب الدفة. وكان ثمة مسدس في نهاية ذراعه الممدودة.

"انبطحي أرضاً،" صاح على ستيفاني.

ويبدو أنها قد توجّست الخطر هي أيضاً فقفزت إلى أرضية المركب الرطبة. لاذ بقربها بينما أرت رصاصتان بالقرب منهما وقد تسببت واحدة منهما بتحطيم زجاج الكابينة الخلفية.

قفز على قدميه واستعاد السيطرة على الدفة. فيما القارب الآخر يسرع منطلقاً في اتجاه البندقية. أراد أن يلاحق القارب الجاني، لكنه الآن فكّر في مصير الشخص الذي سقط في الماء.

"أوجدني لي كشافاً كهربائياً،" قال لها مبطئاً من سرعة القارب، ومناوراً به في اتجاه البقعة التي كانا قد حدّدا فيها موقع القارب الآخر قبل أن يهرب.

سارعت ستيفاني إلى الكابينة الأمامية، وسمعتها تبحث بين الأدوات عن ضوء كشاف، ثم ما لبثت أن برزت وهي تحمله في يدها.

أعاد التروس إلى وضع اللاتعشيق.

مسّت ستيفاني وجه المياه بعمود ضوء مصباحها الكشاف. سمع أبواق إنذار آتية من البعيد ولاحظ وجود ثلاثة زوارق عليها أنوار الطوارئ الكاشفة وهي تدور حول شاطئ إحدى الجزر متجهة نحو تورسييلو.

إنها ليلة منهكة بالنسبة إلى البوليس الإيطالي.

"هل ترين شيئاً؟" سألها. "إن شخصاً ما قد سقط في الماء."

وكان عليه أن يكون حذراً كي لا يمرّ فوق جسد من قد يكون في وسط المياه. لكن الحيلة صعبة وسط هذه العتمة الحالكة.

"هناك،" صاحت ستيفاني.

اندفع لقربها فلمح جسداً يغالب الماء. ولم يعوزه سوى ثانية واحدة حتى عرف أن هذا الشخص لم يكن سوى كاسيوبيا. وقبل أن يستجمع أمره لأخذ المبادرة كانت ستيفاني قد طرححت الضوء الكاشف من يدها ثم ألقت بنفسها في الماء.

اندفع مجدداً نحو الدفة وأجرى المناورة اللازمة. عاد إلى الجانب الآخر من ظهر القارب في الوقت الذي كانت فيه كاسيوبيا وستيفاني تخوضان في نقطة قريبة. مدّ يده والتقط كاسيوبيا جاذباً إياها إلى خارج الماء.

ألقي بها جسداً منهكاً على ظهر القارب. لكن وعيها لم يفارقها.

قوسٌ موتورٌ، وكنانة سهام، كانت محزومة إلى كتفها. كان منظر سلاحها هذا بحدّ ذاته يروي قصة بحالها، هكذا خُيِّلَ إليه. حرك كاسيوبيا إلى أحد جانبيها. "أخرجي كل ما ابتلعتِه من الماء."

بدت كأنها تتجاهله. نقر بكفه على ظهرها. "اسعُلي." بدأت تستفرغ الماء، وتتقيأ المزيد منه مع كل نفس تخرجه. لكنها كانت تأخذ بعض الأنفاس على الأقل.

عادت ستيفاني من مياه البحيرة. "إنها مصابة بالنوار، لكن الرصاصات لم تصبها بأذى." "لا عجب، فلقد أُطلقت النار عليها في عتمة الليل، من على دفة قارب متمايلة."

بقي يضرب فقارها بكفه في رفق. وكان المزيد من المياه يخرج من رثتيها. بدت وكأنها تشرف على التحسّن.

"هل أنت بخير؟" سألها.

بدا أنها قد استعادت القدرة على تركيز بصرها. ولقد عرف من شكل نظرتها أن رأسها لا بد من أن يكون قد ارتطم بجسم ما.

"كوتون؟" سأله.

"أعتقد أن لا جدوى من سؤالك عن سبب تقلدك لقوس وكنانة؟"
حكّت رأسها. "ابن الـ..."

"من هو؟" سألتها ستيفاني.

"ستيفاني؟ ما الذي تفعلينه هنا؟" مدت كاسيوبيا يدها ملامسة ثياب ستيفاني المبلّلة. "هل أنتِ هو الشخص الذي سحبني من الماء؟"
"إنني مدينة لك بمثلها."

ولم يكن مالون يعلم سوى ببعض ما حصل في الخريف الماضي في واشنطن عندما كان تحت الحصار في سنאי، لكن هاتين المرأتين بدا أنهما صديقتان منذ وقت مضى. لكنه أراد في الوقت الحاضر أن يكون محيطاً بالأمور. "كم هو عدد الذين ماتوا في داخل متحف ميوزيو دي تورسييلو؟"

تجاهلت كاسيوبيا سؤاله وعادت إلى الوراء مفتشة عن شيء ما. ثم برزت يدها من جديد وهي تحمل مسدس غلوك. نفضت المياه عنه وجففت ماسورته. إن أفضل ما في هذه المسدسات التي عرفها من قبل، أنها تكاد تكون غير قابلة للتأثر بالماء أبداً.

نهضت على قدميها. "علينا أن نذهب."

"هل الذي كان معك في القارب هو فيكتور؟" سألتها والحنق بارٍ الآن في صوته. لكن كاسيوبيا كانت قد استعادت قواها الذهنية، وقد رأى الآن الغضب في عينيها يلتهب من جديد. "قلتُ لك من قبل أن هذه المسألة لا تعنيك. فهذه المعركة ليست معركتك."

"نعم، صحيح. تجري هنا جميع أنواع الحوادث الغريبة بحيث لا يعرف المرء شيئاً من شيءٍ معها."

"إنني أعرف أن المجرمين في آسيا قد قتلوا إيلي بأوامر من زوفاستينا."

"ومن يكون إيلي؟" سألتها ستيفاني.

"هي قصة طويلة." قال لها، "قصة تُسبّب لنا الكثير من المشاكل في اللحظة الحاضرة."

استمرت كاسيوبيا تنفض الغمام من ذهنها، والماء من مسدسها. "علينا أن نتحرك."

"هل قمتِ بقتل أحد؟" سألها.

"لقد قمتُ بشيٍ أحدهما شيئاً."

"ستندمين على عملك هذا في ما بعد."

"شكراً لنصائحك. دعونا نذهب."

قرّر أن يعيقها عن عزمها. وها هو يجرب، "والى أين كان فيكتور متجهاً؟"

أقالت القوس عن كتفها.

"هل أن هنريك هو الذي أرسل لك ذلك؟" سألها متذكراً الكيس القماشي الذي

كان قد وصل إليها في المطعم.

"مثلما قلت لك من قبل يا كوتون. هذا الأمر ليس من شأنك." تقدمت

ستيفاني إلى الأمام. "يا كاسيوبيا أنا لا أعرف نصف الذي يجري هنا، لكنني أعرف

ما يكفي لكي أرى أنك لا تفكرين. ومثلما قلت لي مرة في الخريف الماضي، استعجلي

عقلك. دعينا نساعدك. ما الذي حصل؟"

"أنت أيضاً يا ستيفاني عليك بالتنحّي عن هذا الأمر. لطالما انتظرتُ هذين

الرجلين منذ أشهر. وأخيراً، وفي هذه الليلة بالذات. وقع بصري عليهما. ولقد نلتُ من

أحدهما، وعليّ أن أنال من الآخر. ثم، نعم إنه فيكتور هو الذي كان معي في المركب.

وقد كان أيضاً حاضراً عندما مات إيلي. لقد قاما بحرقه حتى الموت. لماذا؟" كان

صوتها يرتفع باطّراد. "أريد أن أعرف لماذا قاما بقتله؟"

"إذاً، دعينا نتحرّى،" قال لها مالون.

كانت كاسيوبيا تتمشّي بخطوات عاثرة. ففي هذه اللحظة كانت مقيدة الحركة،

فهي لا تستطيع الذهاب إلى أيّ مكان، وقد كانت على ما يبدو ذكية أيضاً بما يكفي

لكي تعرف أن أيّاً منهما لن يتركها لشأنها. أراحت راحتي كفيها على درابزون حافة

القارب واستجمعت أنفاسها. أخيراً قالت لهما. "حسناً. حسناً. الحقُّ معكما."

وقد ساءل نفسه عما إذا كانت تسعى وبذلك إلى مجرد تهدئة خاطريهما

فحسب.

وقفت كاسيوبيا في صمت. "إن هذه المسألة هي مسألة شخصية. شخصية إلى درجة تفوق كل تصوّراتكما." تردّدت قليلاً. "إنها مسألة تتعدّى إليّ أيضاً."

كانت هذه هي المرة الثانية التي تذهب فيها في تلميحاتها إلى هذا الحد. "ما رأيك في أن تقولي لنا ماذا يوجد وراء الأكمة؟"

"وماذا إذا لم أكن أريد أن أقول لكما؟"

كان مستميتاً لمساعدتها، ولكن الجدل معها لا فائدة منه ترجى. وهكذا، فإنه ألقى نظرة إلى ستيفاني، التي عرفت مغزى ما كانت عيناه تطلبان منها.

وقد أومأت هي برأسها مستجيبة.

تقدّم إلى دفة القيادة وأشعل المحركات، مرّ قريبهم المزيد من قوارب البوليس المتجهة نحو تورسيللو. لكنه وجّه الدفة نحو البندقية ونحو الضوء البعيد الآتي من قارب فيكتور. "لا تقلقا بشأن وجود جثة" قالت كاسيوبيا. "لن يبقى أي أثر من ذلك الجسد في ذلك المتحف."

ولقد أراد أن يعرف شيئاً آخر. "هل من خبر عن ناومي يا ستيفاني؟"

"لا شيء منذ نهار أمس. ومن أجل هذا الأمر كنت قد أتيت."

"ومن هي ناومي؟" سألت كاسيوبيا.

"هذا الشأن شأني." قال لها.

ولم تشأ كاسيوبيا أن تتحداه. وبدلاً عن ذلك، فإنها اكتفت بالقول. "إلى أين

نحن ذاهبون؟"

نظر إلى ساعة يده. أشارت الأرقام المضيئة إلى الساعة 12.45 بعد منتصف

الليل. "مثلما قلت لك، إن أشياء كثيرة تحدث هنا. ونحن نعرف بالضبط إلى أين

يتّجه فيكتور."

الفصل التاسع والأربعين

سمرقند

الساعة 4:30 فجراً

سرت قشعريرة في فقار فينسينتي. صحيح أنه كان قد أمر بقتل بعض الناس. وكان آخر ذلك يوم أمس. لكن هذا الأمر كان مختلفاً. فلقد كان على وشك الإقدام على عملٍ بالغ الجرأة، عملٍ لن يجعله أثرى ثرياً على وجه الأرض فحسب، بل سوف يؤمّن له مكاناً في التاريخ أيضاً.

وكان بزوغ الفجر على قاب ساعة من الزمن أو أكثر بقليل. جلس في المقعد الخلفي من سيارته، بينما اقترب أوكوئييه ومعه عنصران آخران من بيت تحجبه غابة صغيرة من أشجار الكستناء المزهرة ويحيط به سياج حديدي مرتفع. وكل شيء هنا هو من أملاك إيرينا زوفاستينا.

اقترب أوكوئييه من السيارة فأنزل فينسينتي زجاج النافذة.

"صار الحارسان ميتين. وقد أخرجناهما دون أية مشكلة."

"هل هنالك احتياطات أمنية أخرى؟"

"بل هذا هو كل شيء. فإن زوفاستينا قد تركت هذا المكان في قبضة رخوة."

هذا لأنها اعتقدت أن لا أحد يأبه لهذا المكان. "هل نحن جاهزون؟"

"لا يوجد في داخل البيت سوى تلك المرأة التي تتولى العناية بها."

"إذا لنرَ درجة تعاونهما معنا."

دخل فينسينتي من الباب الأمامي. وقام الرجلان اللذان تمَّ استخدامهما هذه الليلة باحتجاز ممرضة كارين وايلد. وهي امرأة أكبر من كارين، ولها وجه قاسي الملامح، تلبس روب استحمام وزوج مشايات. ولقد اكتسحت نظرة مرتعبة ملامح وجهها الآسيوية.

"لحدِّ علمي،" قال لها. "أنكِ تقومين بالاعتناء بالسيدة وايلد." أومأت المرأة إيجاباً.

"كما أعرف أنك ممتعة من الأسلوب الذي تعاملها رئيسة الوزراء به."

"إنها رهيبة معها."

سُرَّ لأن معلوماتهم الاستخباراتية كانت دقيقة. "كما أعرف أن كارين تعاني. وأن علَّتْها تتفاقم."

"كما أن رئيسة الوزراء لا تدعها ترتاح."

أعطى إشارته فأرعى الرجلان قبضتهما عن المرأة. اقترب منها وقال: "لقد جئتُ إلى هنا لأخفف من معاناتها. لكنني أحتاج إلى تعاونك معي."

حملت نظرتها علامات شك. "وأين هما الحارسان؟"

"لقد ماتا. انتظري هنا ريثما أدخل وأراها." أعطى إشارته. "أهي في عمق

القاعة؟"

أومأت بالإيجاب من جديد.



أشعل نور مصباحٍ محاذٍ للسريّر، وحدّق نحو المنظر المحزن للمرأة التي تنام على وجهها تحت لحافٍ ذي لون زهرّي خافت.

تنفّست كارين بمساعدة أوكسيجين القوارير الذي يأتيها عبر جهاز تنفّس صناعي. وكان كيس من المصل يغذي أحد ذراعيها. أزال الإبرة المغروسة تحت

الجلد وأعاد غرسها في أحد منافذ الأنبوب المغذي وتركها تتدلى.

فتحت المرأة عينيها.

"عليك أن تستيقظي." قال لها.

رمشت عيناها بضع مرات، محاولة أن تستوعب ما الذي يحصل لها. ثم جذبت جذعها إلى الأعلى عن الوسادة. "من أنت؟"

"أعرف إن الدواء لم يكن متوفراً لك في المرة الأخيرة، لكنني جئت كصديق."

"وهل أعرفك أنا؟"

هز رأسه نافياً. "ليس من سبب يدعو لأن تكوني قد عرفتني قبل الآن. لكنني أعرفك. أخبريني كيف تجدين حياة الحب مع زوفاستينا؟"

وكان هذا بالطبع سؤالاً غريباً من غريب قادم في منتصف الليل. لكنها اكتفت بهز كتفيها. "وما الذي يجعل ذلك مهماً بالنسبة إليك؟"

"لقد حصل وأن تعاطيتُ معها منذ سنوات. ولم يحدث لي مرة أن شعرتُ بلحظة تعاطفٍ واحدة، منها، ولا معها، فكيف هو الحال معكِ؟"

"إنه سؤال كنتُ قد طرحتهُ على نفسي غير مرة."

رمق بعينه ديكور الغرفة. إنه أثاث أنيق وغالي الثمن، مثل ديكور بقية مرافق البيت. "إنك تعيشين حياة مترفة."

"مع أن هذه الرفاهية قليلاً ما تعزّيني."

"ومع كل هذا، فإنك عندما صرتِ مريضةً، وبعد أن عرفت أنك تحملين فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب، الإيجابي فإنك قد عدتِ إليها. وكانت عودتك بعد بضع سنوات من الابتعاد."

"إنك تعرف الكثير عن شؤوني."

"أن تقرري العودة إليها يعني أنك تكنين شيئاً ما، نحوها."

أراحت نفسها من جديد على وسادتها. "إذا قاربنا المسألة من بعض الجوانب،

فإنها مجنونة."

أصغى إلى كلامها بكل انتباه.

"لأنها تتخذ سيرة لنفسها على أساس أنها أخيل، كما تعتبرني بمثابة باتروكليس. والأسوأ من هذا كله، هو عندما تتصور نفسها الإسكندر وتعتبرني فستيشيون. ولقد اضطررت إلى الاستماع إلى هذه القصص عدة مرات. هل تعرف شيئاً عن الإلياذة؟"

هز رأسه نافياً.

"لقد شعر أخيل بنفسه أنه كان مسؤولاً عن مصرع باتروكليس. ذلك أنه كان قد سمح لخدينه المذكور بأن يقود رجاله إلى المعركة. ولأن الإسكندر كان أيضاً يحسب نفسه أخيراً، فإنه شعر بالذنب لوفاة فستيشيون."

"تعرفين درسك في الأدب والتاريخ."

"إنني لا أعرف شيئاً منهما. لكنني اكتفيت فقط بالإصغاء إلى ترهاتهما."

"وبأي معنى هي مجنونة؟"

"هي تريد إنقاذ حياتي، ومع كل ذلك فهي لا تستطيع أن تسمح لنفسها بالاعتراف بذلك بكلام واضح. فهي تأتي وتحقق بي، وتقاصصني، وحتى تهاجمني، ولكنها مع كل ذلك تحاول إنقاذ حياتي. لقد أيقنت أنها تصبح ضعيفة عندما يتعلق الأمر بي. لهذا، فإنني عدت إلى المكان الذي أعرف أنني سألقى فيه رعاية."

"ومع هذا، فمن الواضح أنك تكرهينها."

"إنني أؤكد لك، وكائناتاً من تكون، أن شخصاً في مكاني ليس له مجال واسع للاختيار."

"إنك تتكلمين دون تحفظ مع رجل غريب."

"ليس عندي ما أخفيه أو أخشاه. فحياتي توشك على نهايتها."

"هل يئست من الحياة؟"

"تسألني كما لو أنني أستطيع أن أختار."

بدا أن الروح المعذبة المضطجعة أمامه تقوم بالتفكير ملياً في سؤاله المطروح. كان يرى الكلمات وهي تتشكّل في ذهنها. فلطالما كان قد لمس قوّة الإصرار على الحياة عند آخرين سواها من الذين يواجهون مثلها عواقب بالغة القسوة، قبل ذلك، فوجدهم يتشبثون بالحياة رغم أملهم القليل، أو لا أملهم بها، خصوصاً عندما يقف كل من العلم وايلدين عاجزين عن تقديم أيّ شيء لهم.

الأعجوبة وحدها يمكن أن تنقذهم.

وهكذا، وعندما استجرت جرعة من النّفس، وفاهت بالجواب، فإنها لم تخيّب أمله في تلقّي الإجابة التي يتوقعها.

"أن أعيش."

بدا أن الروح المعذبة المضطجعة أمامه تقوم بالتفكير ملياً في سؤاله المطروح. كان يرى الكلمات وهي تتشكّل في ذهنها. فلطالما كان قد لمس قوّة الإصرار على الحياة عند آخرين سواها من الذين يواجهون مثلها عواقب بالغة القسوة، قبل ذلك، فوجدهم يتشبثون بالحياة رغم أملهم القليل، أو لا أملهم بها، خصوصاً عندما يقف كل من العلم وايلدين عاجزين عن تقديم أيّ شيء لهم.

وهكذا، وعندما استجرت جرعة من النّفس، وفاهت بالجواب، فإنها لم تخيّب أمله في تلقّي الإجابة التي يتوقعها.

الفصل الخمسون

البندقية

هرع فيكتور في محاذاة الواجهة الغربية للكاتدرائية، الشديدة الإضاءة. وفي مكان عالٍ، وقف القديس مرقس نفسه حارساً في الليل البهيم فوق ظهر أسدٍ ذهبيٍّ له جناحان منبسطان. وكان الطريق إلى قلب الميدان الممتد إلى يساره مغلقاً أمام المرور. في الوقت الذي كان فيه وفرةٌ وافرةٌ من رجال البوليس يحومون فوق الرصيف الواسع. تجمّع حشدٌ من الناس، وقد تناهى إلى مسمعه من نثف الكلام الذي يجري اللغط به، أن إطلاقاً للنار كان قد حصل. دار حول طرف الجمع متجهاً نحو مدخل الكنيسة الشمالي، وهو المدخل الذي كانت زوفاستينا قد طلبت إليه الدخول من خلاله.

لم يشعر بالوهن عندما ظهرت له المرأة التي تحمل قوساً للرماية. فقد كان من المفترض بها أن تكون قد ماتت في الدانمارك. وما دام أنها لم تمت، فلا بد أن يكون زميلاها، وكل واحدٍ منهما مشكلة، لا يزال هو الآخر حياً أيضاً. ويبدو أن الأمور تحبل بنتائج خارجة عن السيطرة. لقد كان يجدر به أن يترث كي يتأكد أنها قد غرقت تماماً في مياه البحيرة، لكن زوفاستينا كانت في انتظاره وهو لا يستطيع التأخر عنها.

وبقي تصوُّره لمشهد رافائيل وهو يموت، لا يبارحه.

أمّا زوفاستينا فلن يضيرها من الأمر كله شيء سوى ألا يكون موته قد أثار ضدها أيّاً من الشكوك. ولكن أنى لذلك أن يحدث؟ إذ لن يبقى هنالك من أثر لجسده يمكن العثور عليه. فلن يبقى منه سوى فتات عظام وبقايا رماد.

تماماً مثلما حصل يوم احترق منزل إيلي لوند:
 "أأنتَ عازم على قتلي؟" سأل إيلي المتطفل الذي يحمل
 مسدساً. "ما الذي جنيته؟ وكيف لي أن أكون قد شكلتُ تهديداً لأحد؟"
 بقي فيكتور متخفياً خلف مجال النظر، في غرفة مجاورة وهو
 ينصت للحديث.

"لمَ لا تجيبني عن سؤالي؟" سأل إيلي بنبرة عالية.
 "لست هنا لأتحدث معك،" قال له الرجل.
 "إذاً أنت هنا لمجرد إطلاق النار عليّ."
 "إنني أفعل ما أُمرتُ به."
 "أليس لديك فكرة عن سبب ذلك؟"
 "ليس يهمني السبب."

ثم ملأ الصمت الغرفة.
 "كنت أتمنى لو أُتيحت لي الفرصة لعمل المزيد من الأشياء،"
 قال إيلي في النهاية. وكانت نبرة صوته حزينة، وملیئة بالإذعان،
 والهدوء المثير للعجب. "لقد كنتُ أعتقد دائماً أن علّتي هي التي سوف
 تتكفل بقتلي."

"وهل أنت مصابٌ بالعدوى؟" سأل الرجل الغريب وكان يخالط
 صوته مسحةً من الشك. "إنك لا تبدو لي مريضاً."
 "ليس من سبب يدعو لكي أبدو مريضاً. لكن المرض مع كل ذلك
 يسكنني."

وهنا سمع فيكتور الصوت المميز لتحرك الرصاصة إلى بيت
 النار.



ناولت زوفاستينا الاتفاقية، الموقعة الآن، من جديد إلى يد المونسنيور. "أما الآن، فعليك أن تدعني وحدي لمدة الثلاثين دقيقة التي أنت مدين لي بها."

أشار المبعوث البابوي لجميع الكهنة بالانصراف من ذلك الجناح "لسوف تندم يوماً لأنك مارستَ ضغطاً عليّ"، جعلت له الأمر واضحاً.

"قد تجد أن منازلة الحبر الأعظم وعرة المسالك."

"كم هو عديد الجيوش التي يملكها ذلك البابا الذي تتسلح به؟"

"لقد مرّ قبلك كثيرون ممّن سألوا هذا السؤال. لكن الجيوش لم تكن ضرورية لتركيع الشيوعية على ركبتها. فجون بُول الثاني قد استطاع أن يفعل كل ذلك بنفسه."

"وهل باباك هذا، يضارعه فطنة؟"

"أغضبيه وستكتشفين الأمر بنفسك."

انصرف ميشنير ماراً عبر الفاصل الأيقوني إلى صحن الكنيسة، مختفياً في اتجاه المدخل الرئيسي للكاتدرائية. "سوف أرجع بعد نصف ساعة." ناداها من خلال الظلمة.

شاهدت فيكتور يتقدم نحوها في الضوء الكليل، مرّاً بالقرب من ميشنير الذي حياه بإيماءة من رأسه. أما حارساها الآخران، فقد وقفا منتحيين جانباً.

دخل فيكتور إلى القسم المخصّص للكهنة. كانت ثيابه مبلّلة وقذرة، وكان وجهه ملطّخاً بالسُّخام.

كل ما أرادت أن تعرفه هو: "هل حصلت علىها؟"

ناولها ميدالية الفيل.

"ماذا تعتقد بشأنها؟" سأله.

"تبدو لي أنها أصلية، لكنني لم أملك فرصة للتدقيق فيها."

دسّت الميدالية في جيبها. "هذا أمرٌ نقوم به لاحقاً."

وكان الناوس المفتوح ينتظرها على مبعدة عشرة أمتار.

وهذه هي المسألة الأكبر أهمية في الوقت الحاضر.



كان مالون هو آخر من ترجل من القارب إلى رصيف الميناء الإسمنتي. وها هم قد عادوا إلى وسط المدينة في سان ماركو، حيث ينتهي ذلك الميدان الشهير عند حافة البحيرة. كانت الأمواج تخفي الأعمدة القائمة وتخاشن الزوارق المربوطة إلى الرصيف. وكان لا يزال في المكان كثرة من رجال البوليس، وجمع وافر من المتفرجين الذين تكاثروا أكثر مما كانوا قبل ساعة من الآن.

أشارت ستيفاني في اتجاه كاسيوبيا التي كانت تشق طريقها بمنكبها خلال طابور مزدحم من البائعين المتجولين، متجهة نحو الكاتدرائية. فيما لا يزال القوس والكنانة معلقين إلى كتفها. "إن بوشانتاس يحتاج إلى رسن."

"سيد مالون."

وفي ما بين الجموع صادف رجلاً في أربعينياته مرتدياً سروالاً قطنياً كاكياً وقميصاً مديد الكمين، وسترة قطنية، وهو يسير متجهاً نحوهم. ويبدو أن كاسيوبيا كانت قد سمعت التحية أيضاً حيث أنها أوقفت تقدّمها واتجهت إلى المكان الذي وقف فيه مالون وستيفاني.

"إنني المونسينيور كولين ميشنير." قال الرجل وهو يقترب منهم.

"لا تبدو عليك هيئة الكاهن."

"لا، ليس في هذه الليلة. لكنني كنت قد أعلمت بأن أتوقع قدومكم، وعليّ أن أقول إن الوصف الذي أعطي لي قد جاء مطابقاً تماماً. رجلٌ طويلٌ خفيف الشعر ومعه امرأة أكبر منه سناً تلازمه."

"عفوك،" قالت ستيفاني.

ضحك المونسينيور. "كما أنني كنت قد أخبرتك أنك شديدة الحساسية تجاه عمرك."

"ومن ذا الذي قال لك ذلك؟" أراد مالون أن يعلم.

"إدوين دايفيس،" قالت ستيفاني. "لقد ذكر الرئيس أمامي أن لديه مصدراً للمعلومات موثقاً جداً. هل هو أنت كما أفترض؟"

"لقد عرفت إدوين منذ وقتٍ طويل."

أشارت كاسيوبيا نحو الكنيسة. "هل دخل إلى هذه الكاتدرائية رجلٌ آخر قصير، عضليٌّ ويرتدي ثياب جينز؟"

أوماً القديس بالإيجاب. "إنه هناك. مع رئيس الوزراء زوفاستينا. واسمه فيكتور توماس، وهو رئيس مجموعة حرسها الشخصي."

"يبدو أنك جيد الإطلاع،" قال مالون.

"أودُّ القول إن إدوين هو الشخص صاحب المعرفة. لكن لم يستطع أن يعلمني عن شيء واحد. كيف حصلت على هذا الاسم؟ كوتون."

"إنها قصةٌ طويلة. أمّا الآن، فإنَّ ما نحتاج إليه هو الدخول إلى الكنيسة وإنني على ثقة أنك تعلم لماذا."

دعاه ميشنير بإشارة من جديد فتنحيا جانباً خلف أكشاك الشارع بعيداً عن تدفق سير المشاة. "بالأمس عثرنا على بعض المعلومات عن رئيس الوزراء زوفاستينا، وقد قمنا بتمريرها إلى واشنطن. إنها ترغب بإلقاء نظرة إلى داخل ضريح القديس مرقس، وهكذا فإنَّ الحبر الأعظم فكَّر في أن أمريكا قد ترغب في إلقاء نظرة على الضريح في الوقت نفسه."

"هل نستطيع الدخول؟" سألته كاسيوبيا.

"إنكِ سيدهُ عجولة. ألا تلاحظين ذلك؟" قال ميشنير.

"إنني فقط أريد الدخول."

"ولكنكِ تتقلدين قوساً وكنانة."

"لا أستطيع أن أخدعك حول ذلك."

تجاهل ميشنير ملاحظتها الطريفة واتجه نحو مالون. "هل سيخرج هذا الأمر عن حدود السيطرة؟"

"ليس أكثر مما قد خرج في السابق."

أشار ميشنير نحو الميدان. "مثل مسألة الرجل الذي قُتل هنا من قبل؟"
 "كما أن هناك متحفٌ يحترق في تورسييللو، أضاف مالون بينما كان الهاتف
 الجوّال يتذبذب في جيبه.

أخرج الهاتف وفحص الرقم المتصل - إنه هنريك مرة جديدة - وأجاب. "إن
 إرسالك لها بقوسٍ وكنانة لم يكن رأياً مصيباً."

"لم يكن لديّ خيارٌ،" قال ثورفالدسن عبر الهاتف. "يجب أن أتكلم معها. هل
 هي موجودة معك؟"

"أجل.. أجل."

ناول الهاتف إلى كاسيوبيا ومشى بعيداً عنها.



ألصقت كاسيوبيا الهاتف إلى أذنها مرتجفة.

"أصغِ إليّ"، قال ثورفالدسن في أذنها. "هناك أشياء عليك أن تعرفيها."



"إنّ هذه بلبلة عمياء،" قال مالون لـ: ستيفاني.

"وهي تزداد عمى في كل لحظة."

لاحظ كاسيوبيا التي تدير ظهرها لهما، وتلصق الهاتف بأذنها.

"إنها مضطربةٌ التصرف،" قال ذلك بصراحة.

"وهي حالةٌ، أعتقد أننا قد مررنا بها جميعاً."

ابتسم لتيقّنه حقيقة هذا القول.

أنهت كاسيوبيا مكالمتها وعادت إليهما، مرجعةً الهاتف إليه.

"هل حصلتِ على أوامركِ بالهجوم؟" سألها.

"شيءٌ من هذا القبيل."

استدار نحو ميشنير. "أنت ترى ما هو الأمر الذي أعمل عليه، لهذا فإنني أمل أن تكون قادراً على إخباري شيئاً يكون له جدوى."

"إن زوفاستينا وفكتور هما الآن في جناح الكهنة في الكاتدرائية."

"معلومة نافعة بالنسبة إليّ."

"لكنني في حاجةٍ إلى التحدث إليك على انفراد،" قال ميشنير لـ: ستيفاني.

"إنها معلومات طلب إيوين مني تمريرها إليك."

"إنني أفضل الذهاب معهما."

"لكنه قال لي إن الوضع دقيق جداً."

"إفعلي ما قد تُطلب منك." قال لها مالون. "وسنقوم نحن بتدبير الأمور في داخل الكاتدرائية."



اقتربت زوفاستينا من طاولة المذبح وانحنى.

وكان أحد الكهنة قد ترك وراءه مصباحاً كشافاً على الأرض.

أشارت إلى فكتور لكي يركع على ركبتيه إلى جانبها. "أرسل الحارسين الآخرين بعيداً إلى عمق الكنيسة. قل لهما أن يطوفاً فيها، خصوصاً في الطابق العلوي. أريد التأكد أنه ليس ثمة أحدٌ يقوم بمراقبة عملنا."

أرسل فكتور الحارسين حسبما طُلب منه، وعاد إليها.

رفعت الضوء الكشاف، وهي تحبس أنفاسها، وقامت بتسليط الضوء إلى داخل الناووس الحجري. كانت تتخيل تلك اللحظة منذ أن قام إيلي لوند بإخبارها عن إمكانية وجود هذا الاحتمال. هل يكون جسدٌ شبيه الإسكندر المزيّف هنا؟ أيمن أن

يكون بطليموس قد ترك مفتاحاً لحل اللغز، من شأنه الدلالة على المكان الذي يرقد فيه الإسكندر الكبير. إن ذلك المكان هو مكان قصي في الجبال، حيث قام السيثيون بتعليم الإسكندر دروساً عن الحياة. حياة تأخذ لها شكل شراب ترياق. استذكرت ما كان قد كتبه مؤرخ قصر الإسكندر في واحدة من المخطوطات التي اكتشفها إيلي.

لقد كان عنق الرجل منتفخاً بالأورام إلى درجة سيئة جعلته يكاد لا يقوى على الإبتلاع لأن حبيبات التدرن كانت تسد حلقه، وصارت السوائل تندلق إلى خارج فمه مع كل زفير. كما أن قروحاً باتت تغطي جسده. ولم يتبق لديه أي قوة في العضلات. فاستنشاق كل نشقة هواء بات يقتضي منه جهداً مضنياً.

ومع كل ذلك، فإن الترياق قد تسبب بشفاء الرجل في مدة يوم واحد. وقد اعتقد العلماء في مختبرها البيولوجي أن الأعراض كانت أعراضاً ناتجة عن فيروس. أيا كان من الممكن أن الطبيعة قد خلقت الكثير من عوامل الفتك، كما قامت أيضاً بتفريخ طريقة لوقف فتكها؟

لكنها لم تجد رفاتاً محنطة في داخل الكفن.

وبدلاً عن ذلك، فإنها وجدت صندوقاً خشبياً بمسافة نصف متر مربع، غني بالتنميق والزخرفة، وله عروتان نحاسيتان. اعتصرت الخيبة معدتها. لكنها أخفت ذلك الشعور على الفور، وأصدرت أمرها: "أزله عن مكانه."

مد فيكتور يده تحت الغطاء الحجري المتدلي ورفع الصندوق ووضع على الطنف الرخامي.

ما الذي كانت تتوقعه؟ فإن أي جثة محنطة لا بد من أن يكون عمرها ما لا يقل عن ألفي سنة. وصحيح أن أخصائيي التحنيط المصريين كانوا يتقنون عملهم، ويعرفون ماذا يفعلون، وأن الأجساد المحنطة التي يرقى زمان تحنيطها إلى مثل هذه المدة، إنما سلمت من الفساد وبقيت في حالة سليمة. لكن مثل هذه المومياءات كانت قد بقيت في داخل أضرحتها دون أن يزعجها أحد عن مكانها لمدة قرون، وليس كي يجري انتزاعها كيفما اتفق الأمر، من لحودها ليتم شحنها من قارة لأخرى، ثم لكي تختفي لمئات السنين في كل مرة. لقد كان إيلي لوند مقتنعاً أن التجار الآتين من

البندقية قد غادروا الإسكندرية في العام 828 ليس مع جسد القديس مرقس، ولكن مع رفات شخص آخر، ولربما كانت تلك الرفات هي نفسها الرفات التي تم دفنها في مقبرة السوما لمدة ست مئة سنة، حيث كانت تُبجل وتُقدّس من الجميع على أساس أنها جسد الإسكندر الكبير.

"إفتح الصندوق."

أزال فيكتور المشابك، وحرّر القفل. كان داخل الصندوق مبطناً بالمخمل الأحمر الباهت، وكان المزيد من القماش الرثّ يقع متهاكاً في وسطه. أزال القماش فشاهدت بعض الأسنان، وعظمة كتف، وعظمة فخذٍ وجزءاً من جمجمة، وبعض الرماد.

أغلقت عينيها.

"وما الذي كنت تتوقعين العثور عليه؟" ناداها صوتٌ جديد.

الفصل الحادي والخمسون

سمرقند

فكر فينسينتي في إجابة كارين وايلد عن سؤاله، ثم سألها من جديد. "ماذا أنتِ مستعدة أن تفعلي من أجل أن تملكي الحياة؟"

"هنالك القليل مما أستطيع أن أفعله. انظرُ إلى حالتي. كما أنني لا أعرف حتى اسمك."

لقد صرفت هذه المرأة حياتها في المناورات والأحابيل، وهي حتى في حالتها الراهنة، مازالت قادرة على القيام بذلك.

"أنريكو فينسينتي."

"إيطالي؟ لا يبدو لي أنك كذلك."

"لكنَّ الإسم أعجبي."

ضحكت. "لديَّ شعورٌ يا أنريكو فينسينتي أنك أنت وأنا نتشابه كثيراً."

وافق على قولها. فهو رجلٌ يحمل إسمين، وكثير من الاهتمامات، لكنَّ له طموح واحد. "ما الذي تعرفينه عن فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب؟"

"أعرف عنه فقط أنه سوف يقتلني."

"وهل تعرفين أنه كان موجوداً منذ ملايين السنين؟ وهو أمرٌ لا يُصدق إذا أخذنا في الاعتبار أن هذا الفيروس ليس حتى مخلوقاً حياً. إنه مجرد حمض نووي رايبوزي - RNA - وهو محاطٌ بغشاء بروتيني يحميه."

"هل أنت عالمٌ أو ما شابه ذلك؟"

"نعم، في الحقيقة إني عالم. أتدريين أن فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب ليس له نسيجٌ خلويٌّ؟ وهو لا يقوى على إنتاج أية ذرة من الطاقة. لكن خاصية التعضية الحيوية الوحيدة التي يظهرها، إنما هي في قدرته على التكاثُر. لكن حتى هذه الخاصية تحتاج إلى مادة جينية تأتيه من مضيف."

"مثلي أنا؟"

"أخشى أن هذا الأمر صحيح. هنالك ألف نوع من الفيروسات التي نعرف عنها تقريباً. ومع كل هذا، فإن فيروساتٍ جديدةً يتم اكتشافها كل يوم. نصف تلك الفيروسات تقريباً يعيش في النباتات، أما الباقي فيعيش في الحيوانات. وفيروس نقص المناعة البشرية المكتسب، هو فيروسٌ يعيش في الحيوان أصلاً، لكنه فيروسٌ متميزٌ إلى درجة مذهشة."

رأى النظرة المتحيرة تبدو على وجهها النحيل. "ألا تريدين أن تعرفي ما هو الشيء الذي يفتك بك؟"

"وهل معرفتي به من شأنها أن تقدّم أو تؤخّر؟"

"في الحقيقة إنها قد تؤثر إلى درجة كبيرة."

"إذاً يا صديقي الجديد الذي أتى إلى هنا لسببٍ من الذي يدري به... تابع الحديث من فضلك."

أعجبه أسلوبها. "إن فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب هو فيروس ذو ميزة خاصة لأنه يستطيع أن يحلّ محلّ التركيب الخلويّ الجيني وأن يستبدل نفسه به. ومن أجل هذا، فإنه يطلق عليه تسمية الفيروس الإرتجاعي. فهو يلتصق بالخلية ويحوّلها إلى نسخة عنه. إنه لصّ يسلب الخلايا الأخرى شخصيتها." أنصت قليلاً، تاركاً التعبير المجازي يتسرّب في ذهنها. "إنّ ألفي خلية من خلايا فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب، الملتصقة معاً، نادراً ما تمكّن رؤيتها بالعين المجردة. وهو فيروسٌ شديدٌ، فائقُ المرونة إلى درجة تكاد تجعله غير قابلٍ للتدمير، لكنه مع ذلك يحتاج إلى خليطٍ دقيقٍ جداً من البروتين، والأملاح، والسكريات، وأهمُّ من كل ذلك، أنه يحتاج إلى نسبةٍ من التفاعل الحامضيّ القلويّ دقيقة جداً من أجل أن يقدر على

الحياة. كثيرٌ من هذا العنصر، أو قليل من سواه" - وهنا أعطى إشارة بأصابع يده -
"فإنه يموت."

"وهل أفترض أن نوري يأتي هنا؟"

"نعم، صحيح، بل دورُ اللبونات الدافئة الدماء كلها. فأجسامها شديدة الملاءمة لاستضافة فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب. فمن أنسجة الدماغ، إلى السائل المحيط بالمشيمة والحبل الشوكي، إلى نخاع العظام، إلى حليب الثدي، إلى خلايا العنق، إلى السائل المنوي، إلى الأغشية المخاطية، إلى الإفرازات المهبلية، كل هذه الخلايا والسوائل صالحة لاستضافة هذا الفيروس. ومع كل هذا، فإن الدم والسائل الليمفاوي هما ملاذهُ المفضل. مثلما هو حالُّكِ يا سيّدة وايلد." - أشار بإصبعه -
"فالفيروس، بكل بساطة، لا يريد سوى أن يعيش."

نظر إلى الساعة الموجودة على المنضدة القائمة إلى جانب السرير. وكان أوكونية والرجلان الآخران يقفون على أهبة الحراسة في الخارج. لقد اختار أن يقدم هذا الحديث لها في هذا المكان بالذات، بسبب أن لا أحد يزعجها هنا. فلقد كان كميل رافين قد أخبره سابقاً أن حراس هذا البيت يتبدلون كل أسبوع. ولا يستسيغ أيُّ من عناصر العصابة المقدسة أن يؤدي خدمته في هذا المكان. وهكذا، وما لم تكن الفترة هي فترة خدمة العنصر، فإنه قلماً يعطى هذا المكان ذرة من الاهتمام. فهو بالنسبة إليهم مجرد واحد فقط من الاهتمامات التي تستحوذ على عقل زوفاستينا.

"هنا هو الشيء اللافت للاهتمام." قال لها. "فإن فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب يجب ألا يكون قادراً على العيش في جسدك. إذ أن هنالك الكثير من الخلايا المقاومة للالتهاب تطوف في دمك. لكن الفيروس قد طور مقدرة على شكل من أشكال حرب العصابات، فهو يلعب لعبة البحث والتخفي مع خلايا دمك. ولقد تعلّم الفيروس كيف يخفي نفسه في مكانٍ لن يُبحث عنه فيه."

ترك الصمت معلّقاً للحظة، ثم قال: "العقد الليمفاوية. إنها عُجيرات متفرقة في أنحاء الجسد، ولا يتعدى حجم الواحدة منها حجم حبة البسلة. وهذه العقد تعمل عادة عمل المصافي التي تعلق بها الأجسام الطفيلية بحيث تتمكن خلايا الدم البيضاء من القضاء عليها. ولهذا، فإن هذه العقد الليمفاوية تعتبر بمثابة عرين الأسد

في جهاز المرء المناعي، وهو المكان الأخير الذي يجب على الفيروس الارتجاعي أن يلجأ إليه للاختباء. لكن هذه العقد قد برهنت على أنها الملاذ المثالي للفيروس. وهي حقيقة مثيرة للدهشة جداً. ولقد تعلم فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب أمر مضاعفة غلافه البروتيني الذي ينتجه الجهاز المناعي في العادة في داخل العقد الليمفاوية. وهكذا، يصبح الفيروس متخفياً تحت أنف الجهاز المناعي ذاته. وهو يعيش في صبرٍ محوَّلاً خلايا العقد الليمفاوية من أعداءٍ له يحاربون العدوى إلى نسخٍ مطابقة عن الفيروس نفسه. ويبقى الفيروس يعمل على هذا المنوال لعدة سنوات إلى أن تتورَّم العقد الليمفاوية ثم تنحلُّ فيصبح مجرى الدم مليئاً بفيروسات نقص المناعة البشرية المكتسب. وهذا ما يفسر سبب الوقت الطويل الذي يمرُّ بين وقت التقاط العدوى الحقيقية، وبين اكتشاف وجود هذا الفيروس في دم المريض.

أضاء ذهنه بالتفكير التحليلي للعالم الذي كان، طيلة سنواتٍ خلت. أمّا الآن، فهو مقاولٌ على مستوى الكوكب، ومضارب تجاري متلاعب، أشبه بـ: كارين وايلد، وهو على وشك القيام بأكبر مضارباته جميعاً.

"ولكن هل تعرفين الأمر الذي هو أكثر غرابة وعجبا؟" سألها. "إنَّ كلَّ نسخة مطابقة عن الخلية للفيروس لها شخصية منفردة. ولهذا، فإنه عندما تنهار العقد الليمفاوية، فإنه بدلاً من أن يكون ثمة غازٍ واحد للجسم، يصبح لدينا البلايين من الغزاة المختلفين. جيش من سلالات هذا الفيروس الارتجاعي المختلفة كل عن الآخر، وكلُّ تلك الفيروسات تجري نون أن تلقى لجماً. وهنا يتفاعل جهازك المناعي مثلاً يفترض فيه أن يتفاعل. لكنه يصبح مجبراً على إنتاج خلايا بيضاء مختلفة تصلح لمصارعة كلِّ سلالة. وهذا أمرٌ مستحيلٌ. ولكي تصبح الأمور أكثر تعقيداً، فإن جميع سلالات الفيروس الارتجاعي الغازية تصبح قادرة على تدمير أيِّ من خلايا الدم البيضاء. وتصبح الاحتمالات متمثلة بمعادلة بليون مقابل واحد. وبذلك تصبح النتائج محتومة. وها أنتِ برهانٌ حيٌّ على ما أقول."

"من المؤكَّد أنك لم تأتِ إلى هنا لمجرد إلقاء محاضرة علمية."

"بل جنئتُ لكي أرى ما إذا كنتِ ترغبين في البقاء على قيد الحياة."

"لكنَّ ذلك مستحيل ما لم تكن أنتِ ملاك من الله."

"ولكنك الآن، تعرفين أن فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب، لا يستطيع قتل أيٍّ أحدٍ، لكنه يجردك من أيِّ دفاعٍ أو مناعةٍ، حتى إذا دَخَلَ فيروسٌ آخر، أو بكتيريا، أو فطريات، أو طفيليات إلى مجرى دمك بحثاً عن ملاذٍ. فإنه لن يكون لديك الكثير من خلايا الدم البيضاء القادرة على تنظيف مجاري الدم. وهكذا، يصبح السؤال الوحيد هو: أيُّ عدوى ستكون هي سبب وفاتك؟"

"وما رأيك في أن تغرب عن وجهي وتدعني أموت في سلام؟"

لقد كانت كارين وايلد امرأة مرّة اللسان بالفعل. لكن قيامه بالتحدث إليها قد أثار أحلامه من كُمونها. تخيل نفسه يقوم بالتحدث إلى الصحافة ورجال الإعلام، والجميع منصتٌ إلى أي كلمة يفوه بها. تخيل نفسه يصبح بين ليلة وضحاها مرجعاً عالمياً ذا شهرة واحترام. تخيل صفقات الكتب التي قد يُبرمها، وحقوق أفلام السينما، والإطلاقات التلفزيونية الخاصة، وايلدعوات لتقديم المحاضرات، والجوائز، ومنها بالتأكيد جائزة ألبرت لاسكار، والميدالية الوطنية للعلوم والتكنولوجيا. وحتى ربما جائزة نوبل. ولمَ لا؟

لكن كل ذلك معلق على القرار الذي هو على وشك اتّخاذهِ.

نظر إلى الأسفل نحو غلالة الكائن البشري المضطجعة أمامه على السرير، والتي لا يبدو فيها عضوٌ حيٌّ سوى عينيها.

مدَّ يده نحو مدخل أنبوب التغذية النافر من تحت جلدِ يدها.

"ما هذا؟" سألتَه بعد أن لاحظت السائل الشفّاف في داخل حقنةٍ في يده.

لكنه لم يجب عن سؤالها.

"ما الذي تفعله؟"

ضغطَ على مكبس الحقنة مفرغاً محتوياتها في أنبوب التغذية الوريدي.

حاولت أن ترفع نفسها لكنَّ جهدها ذهب عبثاً. ترامت من جديد على سريرها وقد صار بؤبؤا عينيها وحشين. راقبها إلى أن ثقلت أجفانها، ثم تباطأت أنفاسُها. ثم صارت رخوةً مترهلةً. ثم أغلقت عينيها.

ولم تفتحهما.

الفصل الثاني والخمسون

البنديقية

نهضت زوفاستينا ووقفت في مواجهة المتطفل. كان رجلاً قصير القامة، أعوج الجذع، أشعث الشعر والحاجبين ويتكلم بصوت جعله تقدّم العمر هشاً. فلم تكن ملامحه العجفاء، ووجنتاه المهزولتان، ويداه المعروقتان سوى شهادة قام بتوقيعها الزمن.

"من أنت؟" سألته.

"هنريك ثورفالدسن."

كانت تعرف الاسم. رجل من أغنى أغنياء أوروبا. وهو من الدانمارك. ولكن ما الذي جاء به إلى هنا؟

تفاعل فيكتور مع الزائر مباشرة، بأن سدّد نحوه سلاحاً، لكنها وصلت إليه ووضعت له حداً فيما عيناها تقولان، لنرّ ماذا يريد.

"إنني قد سمعتُ عنك."

"وأنا أيضاً أعرف عنك، فلقد نشأت من البيروقراطية السوفييتية لتصبحي موحّدة لجماعة من الأمم. وهو إنجاز لا يستهان به."

لم تكن في مزاج جاهز للإطراء والمجاملات. "ما الذي تقوم بعمله هنا؟" تحرّك الرجل العجوز بخطواتٍ ثقيلة صوب الصندوق الخشبي. "هل تعتقدين حقاً أن الإسكندر الكبير هو في هذا الصندوق؟"

لا بد أن هذا الرجل يعرف ما يعرفه عن العمل الذي يشغلها.

"وأنت أيها المغامر في سبيل رجوع صداي المخلد،

"إسمع كلماتي مهما كنت متنائياً أصم الأذان.

"أبحرْ إلى العاصمة التي بناها وايلد الإسكندر،

"إلى حيث يقف الرهبان حرّاساً.

"لامسْ قدس أقداس الوهم المذهب.

"وقمْ بشطر طائر الفينيق إلى شطرين.

"إن الحياة سترشدك إلى مقاسات قبوري.

"لكن عليك أن تجانب الحذر.

"فثمة فرصة لديك للنجاح واحدة."

جاهدت لتخفي صدمتها بعد الاستماع إلى الاستشهاد الذي فاه به

ثورفالدسن.

هذا الرجل يعرف حقاً الشاغل الذي يشغلها.

"أعتقد أنكَ العارفة الوحيدة؟" سألها. "إلى أي مدى تُراه قد ذهب بكِ

الغرور؟"

انتزعت المسدس من يد فيكتور وقامت بتصويب ماسورته نحو ثورفالدسن.

"إلى المدى الذي يكفيني لكي أطلق النار عليك."



استبدَّ القلق بمالون. فقد كان هو وكاسيوبيا في مكان يعلو خمسين قدماً عن

ثورفالدسن ويبعد مجال ثلاثة أرباع ملعب كرة قدم عن المكان الذي وقف فيه الرجل

يتحدى زوفاستينا في مشهدٍ من فيكتور. وكان ميشنير قد أدخلهما إلى الكاتدرائية

عبر الردهة الغربية، ثم قادهما إلى بيت درج عنيف السلالم. وفي أعلاه كانت

الجدران والقناطر والقباب تحاكي طراز البناء في الطابق الأسفل، ولكن بدلاً من

واجهت الرخام المدهش، والموزاييك اللامع، فإن المتحف ومتجر الهدايا الواقعين في الطابق العلوي كانت مغلفة فقط بجدرانٍ من الآجر.

"ماذا يفعل هنا بحق جهنم؟" تذرّ مالون. "لقد كلّمك في الخارج منذ قليل."

وكان هو وإياها يتكوّمان وراء درابزين حجري، يقع خلفه منظر بانورامي للقباب المقنطرة الشامخة، وكل واحدة منها ترتكز على أعمدة رخامية ضخمة. وكانت أسقف الفسيفساء تلتصق تحت وهج الأضواء المنيرة. أما الأرض الرخامية والمصليّات غير المضاءة، فقد كانت تطرح ظلالاً مختلفة من اللونين الأسود والرمادي. أمّا منطقة الخدمة الكهنوتية، في الطرف القصي، حيث كان يقف ثورفالدسن، فكانت تبدو أشبه بخشبة شديدة الإضاءة في قاعة مسرح معتم كبير.

"ألن تقومي بالإجابة عن سؤالي؟"

بقيت كاسيوبيا صامتة.

"أنتما الإثنان على وشك أن تُفقداني صوابي."

"كنت قد قلت لك أن تبقى بعيداً."

"إن هنريك قد يضع نفسه في موقف يفوق طاقته."

"إنها لن تذهب إلى حدّ إطلاق النار عليه، على الأقلّ قبل أن تعرف سبب وجوده هنا."

"وما هو سبب وجوده هنا؟"

مزيد من الصمت.

كانا يحتاجان إلى أن يبدّلا موقعهما. "ما رأيك في أن ننقل إلى هناك؟" أشار إلى شرفة أخرى في جناح نحو الشمال تشرف على منطقة الخدمة الكهنوتية. "هذا المتحف يمتدّ في استدارة في ذلك الاتجاه، وهناك نصبح على مسافة أقرب ونستطيع أن نسمع."

أشارت إليه يميناً. "إنني سأذهب في ذلك الاتجاه فمن المؤكد أن هناك فتحة

تؤدي إلى الشرفة العليا الجنوبية من هنا. وبذلك نصبح أنت وأنا محيطان بالمكان من جانبه.



جرى قلب فيكتور في صدره. لقد نبتت له هذه المرأة قبل الآن مرة، وها هو المالك المفترض للمتحف ينبت هو الآخر. ومن المؤكد إناً أن الرجل الآخر لا يزال حياً. وقد لا يكون بعيداً عن هذا المكان. ومع ذلك، فإنه لاحظ أن ثورفالدسن لا يعيره بالاً. وما من دلالة تشير إلى أنه قد عرفه.



حدقت زوفاستينا إلى ثورفالدسن فيما لا يزال مسدسها مصوباً نحوه. "إنني أعرف أنك وثنية"، قال لها الدانماركي بهدوء. "ولكن هل ستقومين فعلاً بإطلاق النار عليّ هنا على مذبح كنيسة مسيحية؟" "كيف عرفت عن أحجية بطليموس؟"

"إيلي أخبرني."

أخفضت مسدسها ونظرت نظرة تثمين إلى الرجل الذي تطفل عليها. "كيف تعرفت عليه؟"

"كان وثيق الصلة بابني. منذ أن كانا طفلين صغيرين."

"وما الذي يأتي بك إلى هنا؟"

"ما وجه الأهمية لإيجاد ضريح الإسكندر الكبير؟"

"وهل من سبب يدعوني كي أقوم بشرح هذا الأمر لك؟"

"لنر إذا كان بإمكانني أن أعطيك سبباً يدعوك إلى ذلك. في الوقت الحاضر، إنك تملكين مصادر عدوى تعود إلى ثلاثين مرضاً حيوانياً فقارياً معدياً يمكن نقل عدواه

إلى الإنسان. وقد كنت قد جنيتها من مجموعة من الحيوانات المجلوبة، وقد جلبت الكثير منها بواسطة القيام بسرقتها من حدائق الحيوان العامة، ومن مجموعات الحيوان الخاصة. وأنت الآن تملكين مختبرين للأسلحة البيولوجية على الأقل، واقعين تحت تصرفك، أحدهما تقوم حكومتك على تشغيله، أما الثاني فتشرف على تشغيله فيلوجين فارماسيتيك وهي شركة يديرها رجل يدعى أنريكو فينسينتي. كما أن كلاكما عضو في عصبة البندقية. هل يدرك كلامي هذا نصيباً من الأثر عندك؟"

"إنك لا تزال تلتقط أنفاسك. ألا ترى ذلك؟"

ابتسم ثورفالدسن باكتفاء واضح. "وهذا أمرٌ أشكرُ عليه. كما أن لديك قوة عسكرية جبارة. قوة مشاة تقارب المليون جندي، مئة وثلاثون طائرة مقاتلة نفّاثة، العديد من طائرات النقل والإمداد النفّاثة. قواعد عسكرية كافية، شبكة إتصالات ممتازة، وكل شيء قد يحتاج إليه حاكم مطلق طامح."

لم يعجبها أن يكون فيكتور يصغي إلى هذا الكلام، لكنها باتت مستميتة لسماع المزيد منه. لذلك فإنها استدارت نحوه وقالت: "جِدْ لي ماذا يفعل الحارسان الآخريان الآن، واعمل جهدك لكي نبقي وحدنا."



الحارسان الآخريان؟

سمع مالون تلك الكلمات بينما هو يتخذ لنفسه مكاناً وراء تصويينة حجرية أخرى. وهذه التصويينة تعلو المكان الذي تقف فيه زوفاستينا وثورفالدسن بما لا يزيد عن مئة وخمسين قدماً. أما كاسيوبيا فقد كانت على بعد خمسين ياردة عبر صحن الكنيسة في الجناح الجنوبي الذي له الارتفاع نفسه.

لم يكن يستطيع رؤية كاسيوبيا، لكنه أمل أن تكون قد سمعت كلام زوفاستينا.



انتظرت زوفاستينا إلى أن غادرهما فيكتور. ثم حملت في وجه ثورفالدسن. "هل

لديك مشكلة في أن أكون راغبة في حماية بلدي؟"
 "إحذر من شراك الحرب، فهي سرعان ما تجتثُ حصونك المنيعة عن
 جذورها."
 "هذا ما قاله ساربيدون لهكتور في الإلياذة. لقد درستني جيداً. لكن دعني
 أقدم لك استشهاده من عندي:

'ولست أعتقد أنك ستجد أن الشجاعة تنقصنا ما دام لنا عرق ينبض.'
 "إنك لا تخططين من أجل حماية أي شيء. بل أنت تستعدين للقيام بهجوم.
 فالأسلحة الجرثومية هي أسلحة هجومية. فدول إيران وأفغانستان، والباكستان،
 والهند، كان قد حكمها جميعاً شخص واحد ولمرة واحدة فقط في التاريخ، إنه
 الإسكندر الكبير. وهو لم يستطع الحفاظ على وحدة هذه البلدان سوى إلى عدد
 محدود من السنوات فحسب. ومنذ ذلك الحين حاول الفاتحون تكرار المحاولة لكنهم
 فشلوا. وحتى الأمريكيون حاولوا ذلك مع العراق. أمّا أنت يا دولة الرئيس فتنوين
 التفوق عليهم جميعاً."
 لا بد أن لديها ثغرة أمنية تسرب المعلومات. ولا بد لها من حل هذه المشكلة
 فور رجوعها إلى بلدها.

"إنك تريد أن تفعل ما فعله الإسكندر، ولكن في الاتجاه المعاكس. ففي
 هذه المرة لن يقوم الغرب بالسيطرة على الشرق. بل إن الشرق هو الذي سيكون
 الفاتح الغالب. وأنت الآن تخططين للاستيلاء على أراضي الدول المجاورة لك. بل
 أنت في الواقع تعتقدين أن الغرب سوف يسمح لك بذلك معتقداً أنك صديقة له.
 لكنك لا تخططين للوقوف عند ذلك الحد، أليس كذلك؟ فأنت تريدين أيضاً الاستيلاء
 على الشرق الأوسط، وشبه الجزيرة العربية أيضاً. وأنت تملكين النفط، فكازاخستان
 القديمة غنية بالبتترول. لكنك تقومين ببيع معظمه إلى روسيا وأوروبا بأسعار
 رخيصة. وهكذا، فإنك تبحثين عن مصدر جديد. عن مصدر يكون من شأنه أن
 يعطيك سيطرة عالمية هي حتى أكثر من ذلك. وأسلحتك الجرثومية قد تجعل ذلك
 الأمر لك ممكناً. فأنت تستطيعين إبادة أمة بكاملها في بضعة أيام. جاعلة إياها
 تركع أمامك. وما من دولة بين تلك الدول المرشحة لكي تكون ضحية لك تمتلك في
 الواقع أية خبرة في الحرب. وعندما تنفذ ترسانتك من الجراثيم، فسوف تكون هذه

الدول عاجزة عن الدفاع عن نفسها." كانت لا تزال ترفع المسدس. "لسوف يرحّب الغرب بهذا التغيير."

"إننا نفضّل الشياطين التي نعرفها. وبخلاف كل الاعتقادات السياسية المختلفة الشائعة بين دول العرب، فإن الغرب ليس عدوهم في الحقيقة."

مدّ إصبع اتهام نحوها.

"لكنك أنتِ عدوّتهم."



أصغى مالون بكلّ عناية. فتورفالدسن لم يكن أحمق غيباً، لهذا فإنه لا بد من أن يكون له سبب يدعوّه إلى الوقوف من زوفاستينا موقف التحدي. ووجود هذا الدانماركي هنا هو بحدّ ذاته أمر غير عادي. فأخر رحلة كان قد قام بها الرجل، إنما كانت إلى النمسا في الخريف الفائت. ومع ذلك، فهذا هو الآن هنا في قلب هذه الكاتدرائية الإيطالية، في منتصف هذه الليلة، يدسّ العصيّ في دواليب إمبراطورة مسلّحة.

كما أن مالون قد راقب كيف أن فيكتور قد انسحب من جناح الخدمة الكهنوتية متجهاً نحو بهو الكنيسة الجنوبي، وهو مكان يقع تحت الموقع الذي تكمن فيه الآن كاسيوبيا. أمّا شاغل مالون المباشر فقد كان الممر إلى بيت الدرج المفتوح الواقع على بعد عشرين قدماً من مكانه، والذي يقود نزولاً إلى صحن الكاتدرائية. وإذا كان هناك من بوابة على هذا الجانب في الجناح الشمالي، فلا بد من أن يكون هناك بوابة مماثلة له في الجناح الجنوبي، حيث أن بنائي القرون الوسطى، إن لم يكونوا قد أحبوا أيّ شيء آخر في فن العمارة، فإنهم على الأقل، قد أحبوا التناظر.

وكان محاطاً بالمزيد من الجدران الصخرية غير الملبّسة إلى جانب السجاجيد الفنيّة، والستائر واللوحات، ومعظمه معروض في خزائن زجاجية أو على طاولات.

الفصل الثالث والخمسون

تبعَت ستيفاني المونسنيور ميشنير عبر مكاتب المطرانية، إلى داخل حجرة يصعب وصفها، حيث وجدت أن إدوين دايفيس يجلس فيها خلف لوحة مؤطرة تمثل صورة البابا.

"ألا زلتِ عند عزمكِ على ركلِ عجيزتي؟" سألها دايفيس، وكانت مرهقةً إلى درجة تفقدها الطاقة على الخصام. "ما الذي تفعله هنا؟" "أحاول وقف نشوب حرب."

لم تكن تريد أن تصغي إليه. "أتعرف أن متاعب قد تحدث الآن في جوف هذه الكنيسة؟"

"وهذا هو سبب عدم وجودك في ذلك المكان."

أُتاهَا اليقين الآن. "إن كاسيوبيا ومالون شخصان يمكن التبرؤ منهما."

"إنه شيء من هذا القبيل. فلا أحد يمكن أن يتصور ما قد تفعله زوفاستينا. لكنني لا أريد أن يكون رئيس فرقة ماجيلان بيليه، الذي هو أنتِ، متورطاً في ما قد يحدث."

أدارت ظهرها إليه لتغادره.

"لو كنتُ مكانكِ لبقيتُ هنا." قال لها دايفيس.

"إبلغ لسانك يا إدوين."

اعترض ميشنير طريقها عند الباب. "وهل أنت أيضاً جزء من حفلة الجنون هذه؟"

"فمثلما قلت لك في الخارج، لقد وقعنا على شيء فقمنا بتمريره إلى جهة نعتقد أن الأمر يعنيها. إن إيرينا زوفاستينا هي امرأة تشكّل تهديداً للعالم بأسره." "إنها تخطط لشئ حرب." قال دايفيس. "حرب يموت فيها الملايين، وهي على قاب قوسين من مباشرة إشعالها."

"ومن أجل هذا، فإنها تضيع الوقت وتقبل المغامرة بالسفر إلى البندقية لتلقي نظرة على جثة عمرها ألفا سنة؟ ما الذي تقوم هذه المرأة بفعله هنا؟" "ربما جاءت لتزداد غيظاً." قال ميشنير.

رأت غمزة شقية في عينه. "وهل أنت قد دبّرت لها هذا المقلب؟"

هزّ الكاهن رأسه نافياً. "هي التي أوقعت نفسها بنفسها فيه."

"لكن شخصاً ما، قد تُطلق النار عليه هناك. فكاسيوبيا بشكلٍ ما، هي خارج عقالٍ أيّ ضابطٍ من عقلها. ثم ألا تعتقد أن أي إطلاق للنار من شأنه أن يجذب انتباه كل هذا الجمع من رجال البوليس الموجودين في الميدان الخارجي؟"

"إنّ سماكة جدران الكاتدرائية قد تبلغ عدة أقدام." قال ميشنير. "فهي كاتمة للصوت تماماً. ولذلك لن يكون من سببٍ لتدخل أحدٍ من خارج الكنيسة."

"يا ستيفاني،" قال لها دايفيس. "لسنا واثقين ما هو السبب الذي يحمل زوفاستينا على المغامرة بالمجيء إلى هذا المكان. لكنه لا بدّ من أن يكون سبباً مهماً. ولقد ارتأينا تمكينها من عملٍ ما هي عازمة عليه."

"فهمتُ قصدك. نخرجها من صندوق رملها إلى صندوق رملنا. لكن لا يحق لك مع ذلك، أن تضع مالون وكاسيوبيا في ساحة مجازفة."

"دعي هذا الكلام عنك. فلست أنا من فعل ذلك. فقد كانت كاسيوبيا متورطة في هذه العملية هي وثورفالدسن من قبل - وهي بالمناسبة قد قامت بتوريطك. وقد تسأليني عن مالون؟ إنه أيضاً ولدٌ بالغ شاطر ويستطيع أن يعمل كل ما يحلو له. وهو موجود هنا لأنه يرغب في أن يكون موجوداً هنا."

"إنك تبحث عن معلومات. آملاً باصطياد شيء ما."
 "ومستعملاً ذلك الطعام الوحيد المتوفر لدينا فهي من أرادت إلقاء نظرة إلى
 داخل التابوت."

حارت ستيفاني في أمرها. "يبدو أنكم على علم بمجمل مخططاتها. فما الذي
 تنتظرونه إذا؟ هاجموها. دمروا منشأتها. ضيقوا الحصار عليها. مارسوا عليها
 الضغوط السياسية."

"ليس الأمر بهذه البساطة. فمعلوماتنا سطحية وناقصة. وليس في أيدينا أدلة
 ملموسة. وبالتأكيد ليس في أيدينا معلومة لا تستطيع هي القيام بإنكارها بكل
 بساطة. ثم أنه لا يمكنك ضرب مواقع الأسلحة الجرثومية بالقنابل. ولسوء الحظ فإننا
 لا نعرف مواضع تلك المنشآت جميعاً. ومن أجل ذلك، فإننا في حاجة إلى مالون
 وسواه لكي يقوموا بتصويب أهدافنا."

"إدوين، إنك لا تعرف كوتون حق المعرفة. فهو لا يحب أن يتلاعب به أحد."
 "لكننا نعرف حق المعرفة أن ناومي جونز قد ماتت."

كان قد أخفى عنها هذه المعلومة في انتظار اللحظة المناسبة. وقد نزلت تلك
 الكلمات نزول القذائف في أحشائها.

"لقد حشروا جسدها مع جسد رجل آخر في تابوت واحد. والرجل هو
 إرهابيٌّ مأجورٌ تافه الشأن من فلورنسا. لقد كسروا عنقها وأطلقوا رصاصة على
 رأسها."

"هل هو تدبير فينسينتي؟" سألته.

أوما دايفيس برأسه إيجاباً. "والأخير هو الآن جادٌ في مساعيه. فلقد غادر منذ
 وقتٍ قريب إلى اتحاد آسيا الوسطى. غادر في زيارة مفاجئة."

أدركت أنه أوسع إحاطة بالأمور منها.

"لقد خطف لتوه امرأة كانت زوفاستينا قد أخذت على عاتقها أمر الاعتناء بها.
 لأنها امرأة كانت تربطها بها مرة علاقات رومانسية حميمة."

"وهل زوفاستينا امرأة سحاقية؟"

"ألن تكون إذاعة هذه المعلومة عنها صدمةً لمجلس الشعب في دولتها؟ لقد كانت على علاقة حميمة مع تلك المرأة منذ وقتٍ طويل. لكن عشيقتها هذه هي على فراش الموت بسبب إصابتها بمرض الإيدز. ويبدو أن فينسينتي يجد حاجة إلى استعمال هذه المرأة."

"ولا بدّ من أن لديكم أسبابكم للسماح لفينسينتي بالمضي في عملٍ ما هو يقوم بعمله. صحيح؟"

"إنّ له غاياته الخاصة أيضاً. غايات تتعدى مجرد إمداد زوفاستينا بالجراثيم ومضاداتها. كما أنها تتعدى أيضاً مجرد إيجاد جنة ضرائبية لأعضاء عصابة البندقية ولنشاطاتهم المالية والتجارية. لكننا في حاجة إلى معرفة دافعه الحقيقي هذا."

أرادت أن تغادر.

لكن كاهناً آخر ظهر في الباب ليقول: "لقد سمعنا على التوّ صوت عيارٍ نارِيّ من داخل الكاتدرائية."



غطس مالون خلف إحدى خزانات العرضِ حالما أطلق الحارس النار. وكان قد حاول الاختباء قبل أن يبرز له الرجل في باب أعلى سلّم الدرج. لكن من الجليّ أن أيّ حركة يأتي بها كانت ستكفي لاستدعاء هجوم عليه.

صدر عن المقنوفة صوتٌ مكتومٌ بعدما ارتطمت بإحدى المناضد التي عُرضت عليها أقمشة تعود إلى القرون الوسطى. تسبّب الخشب المدهون بالموبيليا بانحراف مسار الرصاصة معطياً مالون البرهة الكافية له لكي يهرع بسرعة إلى مسافة أكثر عمقاً في جوف الظلال. دوى رجّع العيار الناريّ في أجواء الكنيسة دويّاً كان من المؤكّد أنه استرعى انتباه الجميع.

زحف في عجلة فوق الأرضية الدفيفة بالخشب الصلب الصقيل متخذاً لنفسه

ملاً خلف صفٍ طويل من الألواح المضاءة التي عُرضت عليها بعض اللوحات، وبعض صفحاتٍ من المخطوطات.

وكان مسدسُه جاهزاً.

لكنه كان يحتاج إلى المزيد من استدراج خصمه.

وهو أمرٌ لا يبدو أنه يشكّل مشكلة له.

فها هي خطوات الرجل تقترب منه.



سمعت زوفاستينا صوتَ الطلقة الآتي من جناح الكنيسة العلويّ. لمحت حركةً إلى يمينها، وخلف الصيوان الحجريّ رأت رأس أحد حراسها.

"لم آت إليك وحيداً"، قال لها ثورفالدسن.

أبقت مسدسها مصوباً نحو الرجل الدانماركي.

"إن ساحة سان ماركو مزروعةٌ برجال البوليس. وسيكون من العسير عليك مغادرة هذا المكان، وأنتِ رئيس دولة موجودة على أرض دولة أخرى أجنبية. فهل أنتِ فعلاً راغبة في إطلاق النار عليّ؟" سكت قليلاً. "ماذا كان الإسكندر سيفعل لو كان يقف موقفك هذا؟"

لم تكن تعرف ما إذا كان هذا الرجل جاداً في سؤاله، أم أنه يحاول أن يتعامل عليها فقط. لكنها كانت تعرف الإجابة عن سؤاله بشكل مؤكّد. "كان سيطلق النار عليك."

تقلقل ثورفالدسن في مكانه، مقترباً من يسارها. "لا أوافقك الرأي. فلقد كان الإسكندر رجلاً بارعاً التكتيك نكّي التدبير. تذكرني عقدة غورديوم على سبيل المثال."

نادت، "ما الذي يجري في الأعلى؟"

لكن حارسها لم يجب نداءها.

"في قرية غورديوم،" قال لها ثورفالدسن. "كان ثمة عقدة مربوطة إلى عربة من العربات. وقد عجز الجميع عن حل تلك العقدة، وهي تحدّ قام الإسكندر بحله بكل بساطة، بأن قطع الحبل بحدّ سيفه ثم قام بحلّ العقدة. إنه حلّ بسيط لعقدة مستحكمة."

"إنك شخص مهذار."

"لم يكن الإسكندر ليسمح بالتشويش أن يخالط تفكيره."

"فيكتور،" نادت.

"بالطبع،" قال ثورفالدسن، "ثمة العديد من الروايات التي حيكت حول حادثة تلك العقدة. فبعضهم يقول إن الإسكندر قد سحب قضيباً مرتبطاً بالنير المشدود إلى العربة، ووجد نهايتي الحبل، وقام بحلّ العقدة وهكذا، من الذي يدري؟"
باتت برمة بمماحكات هذا الرجل.

أكانت رئيس دولة أم لم تكن.

فإنها قد قامت بالضغط على الزناد.

الفصل الرابع والخمسون

سمرقند

تذكر فينسينتي العلامات الأولى للعلّة. فقد بدأ المرض في مبتداه بكلّ عوارض نزلة البرد، ثم اعتقد أنها إصابة بالأنفلونزا، لكن الأعراض الكاملة لإصابة فيروسية قد صارت واضحة بشكل كامل. إنه التلوّث بالعدوى.

"هل أنني سأموت؟" ناداه شارلي إيستون بصوت مستغيث من داخل الكوة التي تأوي سريره. "اللعة. إنني أريد أن أعرف. قلّ لي." جفّ جبهة إيستون الناقعة بالعرق مستعملاً خرقة رطبة، شأنه في ذلك شأن ما قام به خلال الساعة الماضية، وقال له، "عليك بملازمة الهدوء."

"لا تمالئني. فلقد انتهى أمري. أليس كذلك؟"

كانا قد عملا معاً جنباً لجنب منذ ثلاث سنين، ولم يكن التلطي عن الحقيقة لينفع. "ليس بوسعي عمل أيّ شيء لك."

"تبا، إنني أعرف ذلك. لكن عليك أن تطلب مساعدة من أحد."

"أنت تعرف أنني لا أستطيع."

فقد كان الموقع النائي للمحطة، قد اختاره العراقيون والسوفييت بعناية فائقة. فالسرّية هي الضرورة التي تأتي في الدرجة الأولى. لكن ثمن هذه السرية كان يغدو قاتلاً عندما يحصل خطأ ما. وكان هذا ما قد حصل بالفعل.

هزّ إيستون السرير برجليه ويديه المقيدة إليه. "إقطع هذه الأحزمة اللعينة التي تقيدني بها، دعني أخرج من هذا المكان." كان قد قام بربط الأحقق عالماً أن خياراتهما محدودة. "لا يحق لنا بمغادرة هذا المكان."

"اللعة عليك وعلى هذه القوانين. أقول لك إقطع هذه الأربطة." ثم تجمّد إيستون، وصار تنفّسه مجهّداً. ثم استسلم للحمى، وتراخى في غيبة عن الوعي. وفي النهاية.

استدار فينسينتي من حول السرير والتقط دفتر مذكرات كان قد بدأ التسجيل فيه منذ ثلاثة أسابيع. وكانت الصفحة الأولى منه معنونة بإسم زميله هذا. أمّا في الصفحات التي تلت، فقد كان يدوّن ملاحظاته حول التبدّل المستمر في لون بشرة المريض، من طبيعي، إلى مائل إلى الصفرة، إلى ما يشبه لون الرماد بحيث أن الرجل يبدو الآن ميتاً. كما كان ثمة تناقص لا يصدّق في الوزن. إذ تكلمت الملاحظات عن خسارة أربعين رطلاً. عشرة منها في فترة واحدة لم تمتد سوى يومين. وقد بات الطعام الداخل إلى المعدة يتناقص حتى صار يقتصر على جرعة عرضية من الماء الدافئ، ورشقات قليلة من الشراب. وكان هنالك الحمى.

سيلّ هائر من الحمى المستديمة الثابتة عند درجة مئة وثلاث، حتى أنها كانت تعلو إلى ما هو أكثر من هذا الرقم أحياناً، ورطوبة الجسم تتبخّر بسرعة لا تعادلها كمية السوائل الداخلة إليه. وكان الجسد يتبخّر بالمعنى الحرفي للكلمة تحت ناظريه. كان قد استعمل الحيوانات في أبحاثه منذ سنوات عديدة. فبغداد لا تنفك عن إمدادها الذي لا ينقطع من القروود الرشيقة الحركة، والسعادين الأفريقية، والقروود الخضراء، والحيوانات القارضة، والزواحف. لكن في هذه الحالة، وللمرة الأولى، فإن تأثيراً على البشر كان قد أمكن قياسه وملاحظته بدقة.

حدّق إلى الأسفل نحو شريكه. كان صدر إيستون يتحرّك بالمزيد من الأنفاس المجهدة، وكان البلغم يتغرغر في الحنجرة، والعرق يتفصّد فوق سطح الجلد كأنه المطر، قام بتدوين كل ملاحظاته هذه على دفتر الملاحظات اليومية، ثم وضع القلم في جيبه.

وقف ناهضاً من جانب السرير محاولاً بعث الإحساس في رجليه المرتخيتين كأنهما قد صُنعتا من المطاط. ثم تحرك في ثقّل إلى جوف ليل قارس، متسائلاً كم ستقوى أنسجة جسد إيستون المدمّرة على الاستمرار في التحمّل؟

وهذا تساؤل كان يقوده إلى سؤال آخر. كيف يمكنه أن يتصرّف بجسد رفيقه عند وفاته؟

لم يكن ثمة وجود لبروتوكول يحدّد كيفية التعامل مع مثل هذا الأمر الطارئ. وهكذا، فإن عليه أن يرتجل واحداً. ومن حسن الحظ، فإن الذين قاموا بتشديد هذه المنشأة كانوا قد جهزوها عن فطنة بمحرقة وظيفتها التخلص من رُمة الحيوان بعد الانتهاء من إجراء الاختبارات عليها. لكنّ جعل الفرن يعمل على شيء كبير بحجم جثة إنسان بالغ كان لا بدّ له من عبقرية خاصة.

"إنني أرى الملائكة، إنهم حولي جميعاً." كان إيستون يصرخ من سريره في الداخل.

مشى فينسينتي إلى الداخل من جديد.

كان إيستون الآن قد غدا فاقداً للنظر. ولم يكن متأكداً هل هي الحمى أم التهاب ثانويّ هو الذي سبّب تدمير شبكية العين.

"إن الله موجود هنا، فأنا أراه."

"طبعاً يا شارلي إنني متأكد أنك تراه."

جسّ أنباض المريض فوجد أن الدم ينقذف قزفاً خلال الشريان السُّبّاتي. أصغى إلى نبضات القلب فوجد أنه يضرب كضربات الطبل. فحص ضغط الدم فوجد أنه عند حافة المستوى المتدني. أمّا حرارة الجسم فكانت مستقرة عند درجة مئة وثلاثة.

جرّ كرسيه إلى الأمام قريباً من سرير المريض وراقب الموت
يمتدّ في جسمه. أتت النهاية بعد ذلك بعشرين دقيقة وقد بدت اللحظات
الأخيرة لا عنيفة ولا مؤلمة. مجرد جرّة أخيرة من الأنفاس. شهيق
طويل عميق لم يعقبه زفير.

دوّن التاريخ والساعة في دفتر الملاحظات، ثم استخرج عيّنة
من الدم، وأخرى من الأنسجة. ثم لفّ البطانية الرقيقة والمفارش
الوسخة حول الجسد وحمل الكومة الكريهة الرائحة بمجملها إلى
خارج المبنى حيث وضعها تحت سقيفة مجاورة. وكان ثمة مشروط
موجود هناك له شفرة تشبه شفار الزجاج المكسور، كما كان
يوجد أيضاً منشار جراحة. وضع في كفيه قفازين من المطاط
السميك وقام باحتزاز الساقين عن الجذع بالمنشار. وكان اللحم
المهزول ليناً ورخياً في تمزّقه، كما كان العظم هشاً، أمّا ما يتخلله
من أنسجة عضلية فقد كانت أشبه بأنسجة فروج مسلوق. قام بعد
ذلك بفصل الذراعين، وحشى الأطراف الأربعة في داخل المحرقة،
وكان يراقب دون أيّ عاطفة حركة اللهبات وهي تلتهم تلك
الأطراف. أما كتلة الرأس والجذع فلم يعد دخولها من الباب
الحديدي للمحرقة يشكل مشكلة. ثم قام بقطع البطانية الملونة
بالدماء إلى أربعة أجزاء وقام بحشوها بسرعة في النار متبعاً إياها
بالمفارش والقفازين.

أقفل باب المحرقة وتراجع إلى الخارج.

لقد انتهى أمر هذه المسألة في النهاية.

جلس على الأرض الصخرية وحدّق نحو الظلمة. وعلى خلفية
كحليّة مشكّلة من الجبال والسماء التي هي أشدّ قتامة منها،
ارتفعت المدخنة القرميدية العائدة للمحرقة، لتضرب علوّاً في
السماء. وكان الدخان الخارج منها يحمل معه رائحة اللحم البشري
المنتنة.

ثم اضطجع على ظهره واستقبل النوم.

تذكر فينسينتي تلك النوم التي نامها منذ ما يربو على خمس وعشرين سنة. كما تذكر العراق. يا لها من ليلة جهنمية باتها وهو متعوس، وحران، ووحيد، في بقعة من الأرض معزولة. وماذا استطاعت اللجنة المبتعثة من قبل هيئة الأمم المتحدة بعد حرب الخليج الأولى أن تستنتج؟ هذا مع العلم أن وسائل تلك اللجنة كانت عتيقة الطراز تماماً بالقياس مع مهمتها، ولكن، وضمن الجو المحموم في ذلك الوقت، فإنها كانت تعتبر آية في الرقي. وصحيح أن أولئك المفتشين لم يكونوا هناك. لكن هو قد كان. لقد كان شاباً، وكان نحيفاً، ولقد كان له رأس غني بالشعر وايلدماغ. عالم فيروسات بارع. وقد تم في نهاية الأمر اصطحابه واصطحاب إيستون في حراسة عسكرية إلى مختبر بعيد في طاجيكستان، لكي يعمل بالاشتراك مع السوفييت الذين كانوا يسيطرون على المنطقة، في محطة مخبوءة في سفح من سفوح تلال الباميرز.

وكم وكم قد بحثوا عن أنواع من الفيروسات والبكتيريا؟ وكذلك عن المتعضيات الطبيعية التي يمكن استعمالها كأسلحة بيولوجية. أسلحة يمكنها محو العدو مع الاحتفاظ بسلامة البنى التحتية لثقافته. ومع هذا السلاح ليس من حاجة لرجم السكان بالقنابل ولا لإهدار الرصاص والقذائف عليهم. ولا للمجازفة بالتلوث النووي، ولا للمخاطرة بحياة الجنود المهاجمين. فالمتعضي الجرثومي يمكنه أن يقوم بجميع الأعباء الشاقة. علم الأحياء البسيط يمكنه أن يكون هو العامل الحفاز لإلحاق هزيمة مؤكدة بالعدو.

ومعيار العمل لأي شيء يمكنهم إيجاده كان بسيطاً: سريع المفعول، بيولوجي الهوية، قابل للإحتواء، والأهم من كل ذلك: أن يكون قابلاً للعلاج. فالمئات من تلك الأنواع قد استبعدت عن الاستعمال لسبب بسيط هو عدم إمكانية وجود وسيلة عملية لوقف مفعولها. فما هو النفع من إصابة العدو بالعدوى إذا لم تكن قادراً على وقاية شعبك منها؟ فالمعايير الأربعة هذه يجب أن تراعى جميعاً إلى حد الكفاية قبل أن يتم وضع العينة على الجدول. وكان هنالك حوالي عشرين صنفاً قد اختيرت بعد استكمالها لكافة المعايير.

وهو لم يكن يصدق مرة واحدة ما كانت تورده الصحافة بعد إبرام معاهدة حظر الأسلحة السامة في العام 1972، من الزعم أن الولايات المتحدة قد تخلت عن

صناعة الأسلحة الجرثومية وأنها قد قامت بتدمير كل ترسانتها من هذه الأسلحة. فالعسكريون لا يقدمون عادة على التخلي عن عشرات السنوات من البحث، لسبب بسيط فقط: هو أن قلة من السياسيين قد قرروا بمفردهم أن هذا هو ما ينبغي عمله. فهو يعتقد أن القليل من هذه المتعضيات، على الأقل، لا بد من أن يكون مخزوناً في مخازن مبردة في مؤسسة عسكرية يصعب وصفها ومعرفة مكانها.

وقد وجد هو شخصياً ستة من هذه الكائنات الممرضة التي تفي بالشروط الأربعة المذكورة.

لكن العينة رقم 65-G قد فشلت في استيفاء أي من هذه الشروط.

وكان أول ما اكتشفها خلال العام 1979، في مجاري دماء القردة الخضراء التي كانت قد سُحنت إليه لتجرى الاختبارات عليها. وكانت العلوم التقليدية لم تتوصل بعد إلى ملاحظة ذلك الفيروس أبداً. ولكن بفضل خبرته الفريدة كعالم فيروسات، وبفضل التجهيزات الخاصة التي وفرها له العراقيون، فإنه قد تمكن من اكتشافه. لقد كان شيئاً غريب الهيئة، له شكل كروي مليء بالحمض النووي الرايبوزي (RNA)، وبالخمائر. فإذا عرّضته إلى الهواء تبخر. أما في الماء فإن غشاء خليته ينهار. وبدلاً من ذلك فإن هذه الفيروسات بدا أنها تتوق إلى البلازما الحارة. كما بدا أنها تسود جميع أفراد فصيلة القرود الخضر التي وقعت بين يديه. ومع ذلك، فإن أيّاً من هذه الحيوانات لم يبدو أنه كان متأثراً بأية إصابة أو مرض.

لكن شارلي إيستون قد بدا مسألة مختلفة تماماً. فقد تعرض الأخرق المعتوه قبل سنتين لعضة من أحد تلك القردة، لكنه لم يخبر أحداً بذلك سوى قبل ثلاثة أشهر من وفاته. وكان ذلك عندما ظهرت عليه أعراض المرض الأولى. وقد أثبت فحص عينة من دمه على أن فيروس 65-G يتجول في جسده. وقد قام هو في نهاية الأمر باستغلال إصابة إيستون لدراسة تأثيرات الفيروس على البشر، لكي يستنتج أن هذا المتعضي لا يصلح لأن يكون سلاحاً بيولوجياً كفوءاً. فهو شديد الخروج عن إمكانية التوقع حوله، وهو متقطع، وهو بطيء النمو بحيث لا يمكن استعماله كسلاح هجومي فعال.

هز رأسه.

عجيبٌ كم كان مبلغ جهله.

لقد نجا بحياته بأعجوبة.

عاد إلى غرفته في الإنتركونتيننتال، وكان الفجر ينتشر ببطءٍ فوق سمرقند. ورغم حاجته إلى نيل قسطٍ من الراحة، إلا أنه كان لا يزال يشعر بنشاطٍ إثر لقائه مع كارين وايلد.

فكّر من جديد بالمعالج العجوز.

هل كان ذلك في العام 1980؟ أم 1981؟

ففي جبال الباميرز، وقبل أسبوعين تقريباً من وفاة إيستون. وكان قد قام بزيارة تلك القرية جملة مراتٍ من قبل. ولا بد أن ذلك الرجل العجوز قد مات الآن. فحتى في تلك الأيام كان الرجل طاعناً في السن.

ولكن مع ذلك:

توقّل الرجل العجوز الحافي القدمين على صفحة المنحدر البنيّة اللون برشاقة هرة، كان يمشي على باطن قدمين ناعمتين. وكان فينسينتي يتبع الرجل. ورغم أنه ينتعل زوج أحذية سميكة إلا أن كاحلي رجله، وأصابع قدميه، كانت جميعاً تؤلمه. لم يكن ثمة بقعة أرضٍ واحدة مسطحة هناك. وقد برزت الصخور من باطن الأرض في كل مكان كأنها عقبات الطرق، الكاسرة للسرعة. كما أن بها من النواتئ المسننة ما هو قاطع ولا يلين. أما القرية فتقع خلف المرتفع بمسافة ميلٍ واحدٍ. وهي تعلو ما يقارب الألف متر عن مستوى سطح البحر. وكانت رحلتها الجارية ستقودهما ربما إلى مرتفعات أعلى.

وكان الرجل مداوياً شعبياً، فهو مزيج من طبيب صحة عامة، وكاهن، وعراف، ومشتغل بالسحر. وهو لا يعرف سوى القليل من اللغة الإنكليزية، لكنه يستطيع أن يتكلم الصينية والتركية بدرجة مقبولة. أما قامته فقصيرة بما يقارب قصر قامة قزم، وله ملامح أوروبية ولحية منغولية مفروقة، كان يرتدي عباءة مخاطة بخيوط الذهب، وغطاء للرأس فاتح اللون. وهناك في القرية، كان فينسينتي قد راقب الرجل وهو

يقوم على علاج أهلها بتحويجة مؤلفة من الجذور والنباتات تقدّم بدقّة يحكمها نكاء تولّد من قرونٍ على قاعدة التجربة والخطأ.

"إلى أين نحن ذاهبان؟" سأله أخيراً.

"إننا ذاهبان للإجابة عن سؤالك. وكذلك لإيقاف الحمّى التي تنتاب صديقك."

حوله كان ثمة مدرّج من القمم البيضاء، شرفة من المرتفعات التي لم تطأها قدم. وكانت الغيوم الرعدية تتبخر من القمم الأكثر علوّاً. وكان ثمة خطوط من الألوان الفضيّة والحمراء الخريفية، كما أن غياض الجوز الكثيفة قد أضافت ألواناً على ذلك المشهد الذي لولاها لبدا محنطاً. وثمة خريز ماء مندفع كان يمكن سماعه في مكانٍ ما، بعيد.

وصلا إلى ملاذ، فتبع الرجل العجوز من خلال عرقٍ بنفسجيّ في أحد الصخور. وكان قد عرف من قراءاته أن تلك الجبال المحيطة بهما كانت لا تزال حيّة في طور التكوّن، إذ أنها ما زالت ترتفع حوالي الإنشين ونصف الإنش في كل سنة صوب السماء.

خرجا من هناك إلى مجتلدٍ له شكلٌ بيضاوي تسوّره المزيد من الصخور. ولم يكن يصيب الكثير من النور في داخله. وهكذا، فإنه بحث عن مصباحه الكهربائي الكشاف الذي كان الرجل العجوز قد شجعه على إحضاره معه.

كان ثمة بركتان تخالجان أرض ذلك المجتلد الصخرية. وكان قطر كل بركة يبلغ حوالي العشرة أقدام، وكانت إحداهما تفور برغوة الطاقة الحرارية. سلط الضوء إلى مسافة قريبة ولاحظ لونهما المتباينين. ففي الحين الذي كانت فيه البركة الفوّارة حمراء بنيّة، فإن زميلتها الهادئة كانت بحراً من الزبد الأخضر.

"إن الحمّى التي وصفتها لي ليست بالشيء الجديد،" قال الرجل العجوز. "فأجيال كثيرة عندنا تعرف أنها تنتقل من الحيوانات."

وقد كان سبب من أسباب بعثته إلى هناك، هو أن يتعلم المزيد عن ثيران الثّيب الضخمة، وعن الدّبة الكبيرة التي تقطن تلك المنطقة.

"وكيف لكم أن تعرفوا ذلك؟"

"إننا نراقب. لكن هذه الحيوانات لا تنقل تلك الحمى إلا في بعض الأحيان. فإذا كان صديقك قد التقط الحمى، فإن ذلك العلاج سوف يساعد في شفائه." أشار إلى البركة الخضراء التي كان لا يشوب صفحتها الهائلة سوى نسق من النباتات الطافية. بدت تلك النباتات أشبه بالزنايق المائية، سوى أنها كانت أكثر كثافة. وقد بدت الزهرة الوسطى تناضل خلال الظل الظليل لالتقاط بقع قليلة من الضوء الثمين. "إن هذه الأوراق سوف تنقذه. لكن عليه أن يقوم بمضغها." مسّ الماء مساً رقيقاً، ووصل بإصبعين مبللين إلى فمه. لم يكن ثمة طعم للماء. وكان هو نصف متوقع لوجود طعم الكربونات الموجود في ينابيع أخرى في المنطقة.

ركع الرجل واغترف غرفة من الماء بكفه ثم أدارها إلى فمه وابتلعها. "إنها مياه جيدة." قال مبتسماً.

شرب منها هو أيضاً. كانت دافئة كفنجان شاي، كما أنها طازجة. وهكذا فإنه رشف المزيد منها.

"هذه الأوراق سوف تشفيه."

أراد أن يعرف. "هل هذا النبات شائع معروف؟"

أوما الرجل العجوز بالإيجاب.

"وما هو سبب شهرته؟"

"لست أدري. لعلها إرادة إلهية."

شك في تلك الإجابة. "وهل هي معروفة في قرى أخرى؟ هل يعرف سرها معالجون آخرون؟"

"إنني الشخص الوحيد الذي يقوم باستعمالها."

انحنى وقام بسحب أحد قرون النبات العائمة نحوه، مدققاً في تركيبته البيولوجية، فوجد أنه من فصيلة النباتات الوعائية. ولها أوراق ترسيّة الشكل، وسويقات مليئة بجهاز وعائي معقد. وقد أحاطت ثمانى

زلمات لبية كثيفة بقاعدته وشكلت له منصّة عائمة. أمّا الأنسجة الغلافية فقد كانت خضراء داكنة اللون. وكانت جدران خلايا الأوراق مليئة بالغلوكوز. وثمة ساق قصير يبرز من المركز، ولربما له وظيفة تتعلق بالتخلّق الضوئي، بسبب المساحة المحدودة. أمّا بتلات الزهرة الطرية البيضاء فقد كانت مرتبة في سوارٍ ملتفٍّ ولم تكن لتفوح منها أية رائحة.

ألقي نظرة إلى الأسفل فشاهد جذوراً بنية خيطية ممتدة في الماء بحثاً عن الغذاء وكانت جميع المظاهر تدل على أن هذا النبات نبات نو قابلية كبيرة للتكيف.

"وكيف عرفت أنه ينفع في العلاج؟"

"أبي كان قد أخبرني بذلك."

رفع النبتة من الماء واحتضن العسلوج. تسرّبت المياه الدافئة من بين أصابعه.

"ينبغي مضغ الأوراق وابتلاع عصيرها."

جَزَعَ منه جُزْعَةً وأدارها إلى فمه. نظر نحو الرجل العجوز. عياناً حادثاً النظر كانت تحدّقان إليه في المقابل في هدوء وثقة. حشى الورقة في فمه وبدأ يلوّكها فإذا بطعمها مرّاً، حادّ المرورة كطعم حجر الشبّ، وكريه المذاق مثل طعم التبغ.

استخرج العصير من الورقة وابتلعه وهو على وشك التقيؤ.

الفصل الخامس والخمسون

البندقية

كان أول ما لفت انتباه كاسيوبيا عبر صحن الكنيسة، في الجناح الشمالي منها وجود شخص ما، يُطلق النار على مالون. وخلف السَّيَّاح الذي يصلُّ علوه إلى مستوى خصرها، رأت رأس أحد الحراس وصدره. لكنها لم ترَ مالون. ثم شاهدت كيف أن زوفاستينا قد أطلقت النار من مسدسها حيث انحرفت الرصاصة فوق سطح بلاط الأرضية على بعد إنشآت قليلة من ثورفالدسن. لكن الدانماركي بقي ثابتاً في مكانه محتفظاً برباطة جأشه.

حركة عن يمينها استلقت انتباهها أيضاً. إذ ظهر رجل في قنطرة سفرة الدَّرج يحمل في يده مسدساً. وقع نظره عليها فشر سلاحه. لكنه لم يجد فرصة لإطلاق النار عليها.

إذ أنها عاجلته بطلقة إلى صدره.

وقع مرمياً على ظهره وذراعه ترفرفان كجناحي طائر. أجهزت عليه برصاصة إضافية عرفت إلى أين تصوبها. وعبر صحن الكنيسة، على مبعده أربعين متراً رأت الحارس الآخر يتوغَّل قُدماً في مواضع العرض بمتحف الكنيسة. أنزلت القوس عن كتفها وبحثت عن سهم، لكنها اتخذت لها مكاناً بعيداً عن الصُّوان بحيث لا تعطي زوفاستينا فرصة لاصطيادها.

كانت شديدة القلق قبل أن يتبدَّى لها الخصم المهاجم، إذ كان فيكتور قد توارى عن أنظارها في جناح الكنيسة الأسفل. ترى أين اختفى؟

أدخلت وتر القوس في ثلثة السهم وشدت قبضتها على مقبضه وسحبت الوتر.

ظهر الحارس لطرفة عين داخل وخارج الضوء الخافت في الجناح المقابل.



انتظر مالون. وكان مسدسه جاهزاً. كل ما كان يحتاج إليه هو أن يقترب غريمه بضع خطوات في اتجاهه ليصبح قريباً منه. وكان قد تمكن من التراجع إلى الدكة القصوى من أحد أجنحة العرض مستعيناً بالظلال توخياً للاحتماء والتخفي. أما خطواته فخفيفة مختلصة فوق الأرضية الخشبية. كما استعان على تغطية انتقاله بإطلاق ثلاثة عيارات في اتجاه صحن الكنيسة. وكان من المستحيل تحديد مصدر إطلاقها نظراً لأن الأصداء العديدة المترجعة قد طمست أي قدرة على تحديد اتجاهات الصوت المتكسرة. ولقد كان هو صادقاً فعلاً في عدم عزمه على إصابة الحارس.

فباعة الكتب، عموماً، لا يقومون بقتل الآخرين.

لكنه كان في شك من أمره حول مدى حرية اختياره في أن لا يضطر إلى القيام بالقتل في النهاية.

سحب نفساً عميقاً وقام بنقلته.



حدقت زوفاستينا في هنريك ثورفالدسن بينما لعل المزيد من الطلقات في الأعلى - فلقد ظهر أن دقائقها الثلاثين التي أرادت الإنفراد بنفسها في الكنيسة قد تحولت إلى جوقة لها ضجة ورجة.

أشار ثورفالدسن ناحية الصندوق الخشبي الملقى على الأرض. "ليس هذا هو ما كنت تتوقعينه، صحيح؟"

قررت أن تكون صادقة في الإجابة عن سؤاله. "كان الأمر يستحق المحاولة."
 "إن أحجية بطليموس قد لا تكون سوى ضرب من الخداع والخزعبلات،
 فلطالما بحث الناس عن رفات الإسكندر الكبير مدة خمسة عشر قرناً من الزمان دون
 جدوى."

"وهل كان أي من الناس يعتقد في الحقيقة أن رفات القديس مرقس موجودة
 في هذا الصندوق؟"

هز كتفيه هزة المستنكر. "جمع هائل من أهالي البندقية يعتقد صحة ذلك
 بكل تأكيد."

أرادت الانصراف. ولذلك، فإنها نادت: "فيكتور."

"هل من خطبٍ يا دولة الرئيس؟" جاءها السؤال من صوتٍ جديد.
 إنه ميشنير.

خطا الكاهن نحو جناح الخدمة الكهنوتية المضاء.
 صوّبت مسدسها نحوه. "لقد خدعتني."



زحف مالون يساراً بينما بقي الحارس متلطيماً بالصَّوان ويَتَّجه يميناً. خطا بجانب
 تمثال أسدٍ خشبيٍّ ملاصقٍ لعرشٍ لجلوسٍ فوق، ثم كَوَّم نفسه خلف دَكَّةٍ لعرضِ
 السَّجَّاد تفصل بينه وبين مطارده في علوٍّ يصل إلى مستوى خصره.

تابع فراره إلى الأمام قاصداً الانعطاف قبل أن يجد خصمه فرصة للتفاعل.
 أدرك طرفَ المعرض، فاستدار حوله وتنهياً لنقلته التالية.

ثَقَب سهمٌ صدر الرجل الحارس ساحباً منه أنفاسه. شاهد النظرة المصدومة
 تجتاح وجه الرجل المصاب بينما التقطت كَفُّ السهم المنغرس في صدره. لكن
 الحياة سرعان ما طَلَّت جسده حالما انهار إلى الأرض.

التفت مالون برأسه ناحية اليسار.

كانت كاسيوبيا تقف عبر صحن الكنيسة تحمل قوساً في يدها بينما وجهها جامد لا أثر فيه لأيّة مشاعر. وخلفها، في موضع عالٍ من الجدار الخارجي الذي يقف خلفها، لاح شبّاك معتم. تحت ذلك الشبّاك، برز فيكتور متخفياً في الظلال، وهو يتّجه نحو كاسيوبيا، حاملاً بيده مسدساً مصوباً في ارتفاع الكتف.



ببت زوفاستينا غاضبة. "كنت تعرف أنّ لا شيء يوجد في هذا الضريح." قالت متوجهة بالكلام إلى ميشنير.

"وكيف لي أن أدري بذلك؟ فهذا القبر لم يُفتح منذ مئة وسبعين سنة." "تستطيع أن تقول لجماعتك أنّ كنيستكم لن يكون لها موطىء قدم في الاتحاد، باتفاقية أو بدونها."

"سوف أقوم بإبلاغهم هذه الرسالة."

استدارت نحو ثورفالدسن. "وأنت لم تقل لي ما هو سبب اهتمامك بكلّ هذه المسألة؟"

"غاييتي هي إيقافك."

"لكن ذلك أمرٌ عسيرٌ عليك."

"لست أدري. لكن عليك أن تغادري هذه الكاتدرائية في نهاية الأمر، ودونك ودون المطار رحلة طويلة في القارب."

أيقنت الآن أنهم قد ربّوا لها المصيدة ترتيباً بارعاً. أو بكلام آخر، قد سمحوا لها باختيار هذا الفخ بنفسها فمدينة البندقية محاطة بالمياه من كل صوب. ولا يوجد فيها سيارات، ولا حافلات، ولا قطارات. بل يوجد فيها فقط الكثير من القوارب البطيئة الحركة. فمغادرة هذا المكان قد تتكشف عن مشكلة كبيرة إذ يحتاج الانتقال إلى المطار إلى رحلة في الماء تستغرق ساعة من الزمن.

وكانت النظرات الواثقة التي يرسلها الرجلان نحوها من على بعد خمسة أمتار منها لا تطمئنها ولا تبعث في نفسها الثقة.



اقترب فيكتور من المرأة التي تحمل سهماً، إنها قاتلة زميله رافائيل، وهي المرأة نفسها التي كانت قد أردت منذ قليل أحد مرؤوسيه الحراس في الجناح المقابل، بنبلة راشته بها من قوسها. إنها تستدرج الموت إليها، لكنه أدرك أن الإقدام على قتلها هو عملٌ أخرق. فلقد كان قد أصغى إلى زوفاستينا فعرف من كلامها أن الأمور لا تسير معها سيراً حسناً. ولكي يتمكن الآن من المغادرة فإنهما في حاجة إلى ضمانه. لهذا فإنه قام بضغط فوهة مسدسه في مؤخرة عنق المرأة التي هي أمامه.

ولم تحاول هي أن تتحرك.

"كان يجب أن أطلق النار عليك" قذف عبارته قذفاً.

"وأي تعزية سيكون لك جرأ ذلك؟"

"تعزية فيها ما يكفي لمعادلة الحساب بيننا."

"أما أنا فأقول: إن الحساب متعادلاً الآن. لقد أخذتُ حياة شريكك مقابل حياة إيلي."

قاومَ غضباً متصاعداً لديه. لكنه أجبرَ ذهنه على التفكير. ثم خطرت فكرة له طريفة، من شأنها أن تُرجع الموقف برمته إلى وضعٍ واقعٍ تحت السيطرة. "تحركي نحو الصّوان ببطء."

تقدمت ثلاث خطواتٍ إلى الأمام.

"دولة الرئيس،" نادى من وراء الدرابزين.

نظر من وراء كتف أسيرته فرأى زوفاستينا تتطلع إلى الأعلى فيما لا يزال مسدسها مصوباً في اتجاه الرجلين الواقفين في مواجهتها.

"هذه المرأة"، قال لها. "سوف تكون وسيلة لخروجنا من هذا المكان. إنها رهينة."

"فكرة جيدة يا فيكتور."

"إنها لا تعرف مدى المشاكل التي قد تسببت بها لها. أتراها تدري؟" قالت له أسيرته في صوت خفيض.

"لكنك ستموتين قبل أن تفتحي فمك لتتفوهي بأول كلمة."

"لا ينشغلن بالك في ذلك. فإنني لن أقول لها شيئاً."



رأى مالون الورطة التي تقع كاسيوبيا فيها. قفز إلى الدرايزين موجهاً مسدسه عبر صحن الكنيسة.

"إرم المسدس من يدك"، ناداه فيكتور.

لكنه تجاهل هذه العبارة الأمرة.

"أرى أن تجيبه إلى طلبه"، قالت زوفاستينا من الأسفل. وكان مسدسها لا يزال موجهاً صوب ميشنير وثورفادلسن. "والا فإنني سأطلق النار على هذين الرجلين."

"رئيس وزراء اتحاد آسيا الوسطى ترتكب جريمة قتل في إيطاليا؟ إنني أشك في أن ذلك قد يحصل."

"صحيح"، قالت زوفاستينا. "لكن فيكتور يستطيع أن يقتل تلك المرأة بكل سهولة. وهو أمر لا يسبب لي أية مشكلة."

"إرمه"، قالت له كاسيوبيا.

أيقن أن الإذعان لهذا الطلب هو ضرب من حماقة. لذلك فإنه أثر الانسحاب إلى عمق العتمة والبقاء كمصدر تهديد لهما.

"يا كوتون،" قال ثورفالدسن أيضاً من الأسفل. "قم بعمل ما طلبته كاسيوبيا منك."

كان لا بدّ له من الوثوق في أن ما طلبه منه صديقه يجب أن يعني أنهما عارفان بما هما يفعلانه. أليكون ذلك خطأ؟ ربما. لكنه كان قد أقدم على الكثير من التصرفات الغبية قبل ذلك. جعل المسدس يسقط من يده فوق الدرايزون.



"أنزلها إلى هنا،" نادت زوفاستينا على فيكتور. "أمّا أنت،" قالت متوجهة بكلامها إلى الرجل الذي أسقط مسدسه للتو. "تعال إلى هنا أيضاً."

لكنه لم يتحرك من مكانه.

"أرجوك يا كوتون،" قال له ثورفالدسن. "افعل ما تطلبه منك." بعد تردّد قليل، غادر الرجل مكانه من قرب درايزون الدرج.

"هل يأخذ أوامره منك؟" سألته.

"لا أحد يأخذ مني أيّة أوامر."

دخل فيكتور ورهينته إلى باحة الخدمة الكهنوتية. أمّا الرجل الآخر الذي استجاب إلى كلام ثورفالدسن، فقد تبعهما بعد لحظة.

"من أنت؟" سألته. "لقد ناداك ثورفالدسن باسم كوتون."

"إسمي مالون."

"وأنت ما اسمك؟" قالت محدّقة نحو المرأة التي تتقلد قوساً وكنانة.

"إنني صديقة لإيلي لوند."

تُرى ما الذي كان يجري؟ هذا ما أرادت معرفته. وهكذا، فإنها فكّرت في سرعة، وأشارت إلى أسيرة فيكتور. "تلك المرأة ستأتي معي رهينة لتسهيل مروري الآمن."

"يا دولة الرئيس،" قال فيكتور. "أعتقد أنه من الأفضل إبقائها معي حيث أستطيع الاستمرار في احتجازها هنا إلى أن تكوني قد خرجت من البلاد."

هزت رأسها بالنفي وأشارت إلى ثورفالدسن. "خذ هذا الرجل معك إلى مكان ما، آمن. وعندما أصير في الفضاء سأتصل بك لتطلق سراحه. فإذا حصل أي مشاكل فقم بقتله واتخذ الحيلة لكي لا يتمكن أحد من العثور على جثته."

"يا دولة الرئيس،" قال لها ميشنير، "بما أنني سبب كل هذه الورطة، ما رأيك في أن أكون أنا الرهينة بدلاً عنه، وأن نترك هذا الرجل خارج كل هذه اللعبة؟" "وما رأيك في أن تأخذيني معك كرهينة بدلاً عنها؟" سألها مالون. "فإنني لم أذهب إلى اتحاد آسيا الوسطى من قبل."

تبصرت في الرجل الأمريكي الواصل الطويل. لعله عميل سرّي. لكنها كانت أشدّ رغبة بمعرفة المزيد عن علاقة هذه المرأة مع إيلي لوند. فإن أي شخص يكون قد عرف إيلي لوند معرفة وثيقة بما يكفي للتضحية بحياته من أجل الثأر له يستحق إجراء المزيد من التحريات حوله. لكن في ما يختص بميشنير، فإن أقصى ما تأمله بخصوصه هو أن تعطى الفرصة لفكتور لكي يقضي على هذا الكذوب التافه. "حسنًا أيها الكاهن المحترم، أنت تبقى مع فيكتور. أمّا بالنسبة إليك يا سيد مالون، فلربما نلتقي في مرة أخرى."

الفصل السادس والخمسون

سمرقند

كان فينسينتي صاحباً.

لكنه اضطجع متمدداً على المقعد الجلدي لطائرة الهليكوبتر التي تطير به شمالاً مغادرة المدينة.

تذبذب الهاتف الجوال في حوضه.

قرأ بيانات شاشة الهاتف. إنه غرانت ليندسي، كبير العلماء في مختبر الصين. حشى سماعة الهاتف في أذنه وضغط على الزر المناسب.

"لقد انتهينا هنا،" قال له الموظف لديه. "لقد تسلمت زوفاستينا كل المواد العضوية. وتم تغيير استعمال المختبر وصار خالياً بكامله."

فمع علمه بما كانت تخطط له زوفاستينا، فإنه لم يكن يريد أن تداهم الصين أو أية دولة غربية مؤسسته تلك لتقوم بربط نشاطها بأي عملٍ أو أحداث تحدث في خارجها. وكان في المشروع ثمانية علماء يعملون فيه فقط وذلك تحت قيادة ليندسي. أما الآن، فإن أي أثر يدل على كل ما كانوا يقومون به من عملٍ قد أزيل.

"إدفع أجورهم جميعاً، وسرّح كلاً منهم في حال سبيله، ولسوف يقوم أوكونييه بزيارتهم ودفع تعويضات لإنهاء خدماتهم." سمع الصمت الآتي من طرف الهاتف الآخر. "لا تقلق من غرانت. أحضر كل بيانات الحاسوب، ووافني مباشرة إلى منزلي عبر الحدود. وسوف ننتظر ونرى ماذا ستفعل رئيس الوزراء في واقع الأمر بترسانتها قبل أن نقوم بأي تحرّك."

"سوف أغادر على الفور."

كان هذا هو الجواب الذي يريد أن يسمعه. "سوف أراك قبل أن يكون هذا النهار قد انقضى. إن لدينا الكثير مما ينبغي لنا أن نعمله. تابع حركتك." أغلق المكالمة واستلقى إلى ظهره في مقعده.

عاد بالذاكرة من جديد إلى ذاك الرجل القزم العجوز الذي كان لقيه في جبال باميرز. في ذلك الوقت كانت طاجيكستان لا تزال منطقة بدائية معادية. والقليل فقط من البحوث الطبية هو الذي كان قد جرى هناك من قبل. كما لم يزرها سوى القليل من الغرباء عنها. وهذا هو السبب الذي جعل العراقيين يعتقدون أن هذه المنطقة هي مكان واعد للبحث عن أمراض الحيوان غير المكتشفة من قبل، والتي يمكن نقل عدواها إلى الإنسان.

بركتان في أعالي الجبال.

واحدة خضراء، والأخرى بنية اللون.

وذلك النبات الذي كان قد سبق له وأن مضغ أوراقه.

استعاد في ذاكرته ذاك الماء. ماء دافئ صافٍ. لكنه عندما قام بتوجيه ضوء مصباحه في منطقة ضحلة منه، فإنه الآن يتذكر منظرًا أكثر من ذلك كله غرابة. حرفان موجودان في القعر. واحد في كل منهما.

"E" و "T".

حرفان، كلٌ منهما منحوت على حجرٍ مقدورٍ من الصخر وكلاهما ملقى في القعر.

فكر في الميدالية التي تعمّدت ستيفاني نيل، عرضها عليه. واحدة من مجموعة ميدالياتٍ تحرصُ زوفاستينا على امتلاكها.

فكر في الحرفين المجهرين المفترض وجودهما على وجه الميدالية Z H.

هل هي مجرد مصادفة؟ إنه يشك أن يكون ذلك كذلك. وهو يعرف معنى هذين الحرفين، حيث أنه التمس استشارة علماء قالوا له إنهما كانا يمثلان في

اللغة الإغريقية القديمة فكرة الحياة. استرجعَ الفكرة التي خطرت له بأن إطلاقه تلك العلامة المميزة على أيِّ عقارٍ قد ينتجه لعلاج فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب، باعتبارها فكرة نكية. أما الآن، فما هو لم يعد متأكداً من ذلك مثلما كان حاله من ذي قبل. شعر كأن عالمه ينهار، وأن السريّة التي كان ينعمُ بها قد تبخّرت الآن بسرعة. فما هم الأمريكيون يجرون وراءه، وكذلك زوفاستينا تسعى في أثره. وحتى عصابة البندقية ذاتها قد تتحوّل هي الأخرى إلى مطارده.

لكنه الآن قد رمى زهره وانقضى الأمر.

ولم يعد ثمة مجال للنكوص على عقبه.



بقيت نظرات مالون تتنقّل بين ثورفالدسن وكاسيوبيا. ولم يبدُ على أيٍّ من صديقيه أيّ دلالة على الاضطراب لما هم فيه من مأزق. فلو تمّ له التعاون مع كاسيوبيا لأمكنهما قتلُ كلٍّ من زوفاستينا وفيكاتور. وقد حاول الإفصاح عن هذه النية بلغة الأعين، إلّا أنّ أياً منهما لم يبدُ أنه يريد الإصغاء إليه.

"إنَّ حَبْرَكَ الأعظم لا يخيفني،" قالت زوفاستينا للمونسينيور.

"ليس في نيتنا القيام بإخافة أحد،"

"إنك منافقٌ أشير."

لكن ميشنير لم يفه بكلمة واحدة.

"أليس لديك ما تقوله؟" سأله.

"سوف أصلي من أجلك يا دولة الرئيس."

بصقت بين قدميه. "لستُ بحاجة إلى صلواتك أيها القسّ." أشارت نحو كاسيوبيا. "لقد حان الوقت للذهاب. دعي عنك هذا القوس وهذه النبال. فلن تكون لديك حاجة إليها."

رمت كاسيوبيا قوسها ونبالها إلى الأرض.

"هذا هو مسدسها،" قال فيكتور مسلماً السلاح إلى زوفاستينا.

"بعدما أصبح بعيداً في الجو، ساكلمك. فإذا لم تسمع مكالمة مني في غضون ثلاث ساعات. قم بقتل هذا القس. ثم يا فيكتور، صمتت قليلاً. "أبذل كل جهد لتجعله يتعذب قبل موته."

غادر فيكتور وميشنير جناح الخدمة الكهنوتية، ومشيا في عمق صحن الكنيسة المظلم.

"هلاً مشينا؟" قالت زوفاستينا لكاسيوبيا. "أفترض أنك ستتصرفين تصرف الفتاة العاقلة المهدبة؟"

"تسأليني كما لو أن لي خياراً آخر."

"سوف يقدّر لك الكاهن حُسن سلوكك."

غادرتا جناح الخدمة الكهنوتية.

استدار مالون نحو ثورفالدسن. "أهكذا نتركهم يغادرون دون أن نقوم بأية استجابة؟"

"بل سيكون ثمة استجابة." قالت ستيفاني بعدما دخلت إلى المكان في صحبة رجل آخر، قادمين من عتمة الجناح الجنوبي. قامت بتقديم الرجل النحيف تحت اسم إدوين دايفيس المستشار المساعد لرئيس الولايات المتحدة لشؤون الأمن القومي. كان صوتها هو الصوت ذاته الذي سمعه من سماعة الهاتف قبل ذلك. كل شيء في سيماء الرجل كان أنيقاً ومضبوطاً. من البنطال الواسع المكوّي، والقميص القطنية المنشأة، إلى حذائه الجلدي الضيق اللامع. تجاهل مالون وجود دايفيس سائلاً ستيفاني، "ولم سيكون ثمة استجابة؟"

تبرّع ثورفالدسن بالإجابة. "لم نكن متأكدين ما الذي سيحدث. لقد كنا نحاول فحسب أن نجعل الأمور تجري في مجرى معين."

"وهل أردت جعل كاسيوبيا تذهب رهينة؟"

هزّ ثورفالدسن رأسه نافياً. "لم أكن أريد ذلك. لكن يبدو أن كاسيوبيا هي التي أرادت ذلك. لقد استطعت أن أقرأ تلك الرغبة في عينيها، وهكذا، فإنني أيقنُ مرادها، وسهّلت الأمر لها. ومن أجل ذلك فإنني كنتُ قد طلبتُ منك إلقاء سلاحك."
تقدّم منه ثورفالدسن. "يا كوتون، منذ ثلاث سنوات كنتُ قد قمتُ بتعريف إيلي على كاسيوبيا."

"وما هي علاقة ذلك بأيّ أمر؟"

"عندما كان إيلي شاباً صغيراً، فإنه تعاطى المخدرات عن خفةٍ وطيش. ولم يكن بجانب الحذر في استعمال الإبر. ولسوء الحظ، فإن ذلك قد أدّى به إلى التقاط العدوى بفيروس نقص المناعة البشرية المكتسب. وقد استطاع التعايش مع المرض بشكلٍ جيد. متداوياً بمختلف كوكتيلات الأدوية. لكن الاحتمالات لم تكن لتجري في صالحه. إذ أن معظم الذين يتلقون تلك العدوى ينتهي بهم الأمر أخيراً بالإصابة بمرض الإيدز، ويموتون فيه. لكنه كان محظوظاً."
انتظر المزيد من الشرح.

"وإن كاسيوبيا تشاركه المرض نفسه أيضاً."

"هل تراه يصدّق أذنيه؟"

"حادثة نقل دماءٍ حصلت لها منذ عشر سنوات. إنها تتداوى الآن بالعلاجات التي تعمل على التحكم في أعراض المرض، وهي تتعايش مع مرضها وتحسن إدارته أيضاً بشكلٍ جيد."

أصابه ذلك النبأ بالصدمة. لكن كثيراً من ملاحظاتها قد بدأ الآن يصبح له معنى. "وكيف يُعقل أن يكون ذلك ممكناً؟ فهي تبدو نشيطة وقوية."
"خذُ علاجاتك بانتظام في كلِّ يوم، وتستطيع أن تبقى قوياً، شريطة أن يتعاون الفيروس معك."

حدّق نحو ستيفاني. "وهل كنتِ أنتِ عالمة بذلك؟"

"أخبرني إدوين بذلك قبل مجيئي إلى هنا. لقد كان هو وهنريك ينتظران قدومنا. ومن أجل ذلك كان ميشنير قد انتحى بي جانباً."

"إذاً ماذا يكون من أمري وأمر كاسيوبيا؟ هل نحن بيدقان يمكن التضحية بهما والتبرؤ منهما؟" وجّه السؤال إلى دايفيس.

"إنه شيء من هذا القبيل. فلم يكن لدينا أية فكرة عن التصرف الذي كان يمكن لزوفاستينا أن تقوم به."

"هكذا إذاً يا ابن العاهرة." هجم مالون نحو دايفيس.

"كوتون،" صاح به ثورفالدسن، "أنا الذي كان قد وافق على ذلك. وعليك بصب غضبك عليّ دون سواي."

أحجم ووقف محدقاً في صديقه. "وما الذي يعطيك مثل ذلك الحق؟"

"عندما غادرت أنت وكاسيوبيا كوبنهاغن، فإن الرئيس دانيالز اتصل بي. وقد قام بإخباري عمّا حصل في أمستردام ثم استعلمني عمّا نحن عارفون به. فقامت بإخباره. فاقترح بأن وجودي هنا قد يكون نافعاً."

"وجودك المقرون بوجودي؟ أمن أجل هذا قمت بالكذب عليّ قائلاً إن ستيفاني في خطر؟"

رمى ثورفالدسن نظرة في اتجاه دايفيس. "في الحقيقة إنني مرتبك قليلاً حول هذا الأمر أيضاً. لقد أخبرتك بما كنت قد أخبرت به فقط. ويبدو أن الرئيس قد أرادنا أن نكون جميعاً معنيين بهذا الأمر."

نظر إلى دايفيس. "لا تروق لي طريقتكم في إدارة الأمور."

"شأنك وما تراه. لكن يبقى عليّ أن أعمل ما ينبغي لي أن أعمله."

"يا كوتون،" قال ثورفالدسن. "لم يكن هنالك سوى القليل من الوقت للتروّي في هذا الأمر. لقد كنت أرتجل الأمور ارتجالاً إلى أن حدثت بالشكل الذي حدثت به."

"أعتقد هذا؟"

"لكن لم يدخل في روعي أن تُقدّم زوفاستينا على أيّ عمل طائش هنا في هذه الكاتدرائية. فهي لا تستطيع ذلك. لكنها انطلقت في تصرفاتها خارج كل عقل."

وهذا هو السبب الذي دعاني إلى الموافقة على مواجهتها. وبالطبع، فإن مسألة كاسيوبيا كانت مسألة أخرى. لقد قامت بقتل شخصين."

"كما كانت قد قتلت شخصاً آخر في تورسيلو." أراد أن يقول لكنه حذر نفسه من الخروج عن التركيز. "وما هو الداعي لكل ذلك؟"

"إن السبب في جزء منه،" قالت ستيفاني. "يعود لإيقاف زوفاستينا. فهي تخطط لخوض حربٍ قذرة، وهي تملك الموارد التي تسمح لها بجعلها حرباً باهظة الخسائر."

"لقد قامت هي بالاتصال بالكنيسة فقامت الكنيسة بإحاطتنا علماً بما يجري." قال دايغيس. "ولهذا، فإننا موجودون هنا."

"كان بإمكانكم إحاطتنا علماً بكل هذه الأشياء،" قال لدايغيس.

"كلا، يا سيد مالون. لم يكن بوسعنا القيام بذلك. لقد قرأتُ سجلَ خدمتك. لقد كنتَ عميلاً ممتازاً. ولديك لائحة طويلة من المهام الناجحة، ومن التنويهات. ولم يخطر ببالي مرة أن تكون غافلاً. فأنت دون الجميع عليك أن تكون عارفاً كيف تدار هذه اللعبة."

"لعلّ هذا يكفي،" قال له. "فأنا لا أرغب في المزيد من المضي في هذه اللعبة."

تمشّى قليلاً معطياً نفسه فرصة لتبريد أعصابه. ثم اقترب من الصندوق الخشبي الموضوع على الأرض. "هل جازفت زوفاستينا كلّ هذه المجازفة لمجرد النظر إلى هذه العظام؟"

"ذلك هو الجزء الآخر لكلّ هذا." قال ثورفالدسن. "إنه الجزء الأكثر تعقيداً من سواه. لقد كنتَ قد قرأتَ بعض الصفحات العائدة إلى المخطوطة التي عثر عليها إيلي حول الإسكندر الكبير وترياقه. وكان إيلي يعتقد، ربما عن حماقة وطيش، أنه، استناداً إلى الأعراض التي تمّ وصفها، فإن الترياق قد يكون له بعض التأثير على هذه الكائنات الفيروسية الممرضة."

"مثل فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب؟" سأل.

أوما ثورفالدسن برأسه إيجاباً. "نحن نعلم أن ثمة مواد موجودة في الطبيعة - من لحاء شجر، إلى نباتات مورقة، إلى جذور - يمكنها محاربة البكتيريا والفيروسات وربما حتى السرطانات. وكان يأمل في أن يكون ذلك الترياق واحداً من هذه الأشياء."

عاد بذاكرته إلى الخطيئة: "وحيث أن إيمينيس قد استغرقه الندم وعذاب الضمير، وحيال شعوره بإخلاص كلمات بطليموس، فإنه قام بالإفصاح له عن مكان القبر، وهو مكان قائم في الجبال التي كان السيثيون يقومون فيها بتعليم الإسكندر علوم الحياة." "لقد كان السيثيون هم الذين أرشدوا الإسكندر إلى الترياق. وقد قال إيمينيس أن الإسكندر قد جرى دفنه حيث كان السيثيون قد قاموا بتعليمه علوم الحياة."

هنا خطر له خاطر. فقال لـ: ستيفاني، "لديك واحدة من الميداليات" أليس كذلك؟

قامت ستيفاني بمناولته الميدالية. "إنها الميدالية القادمة من أمستردام. لقد استطعنا استرجاعها بعد أن حاول رجال زوفاستينا الإستيلاء عليها. ولقد قيل لنا إنها أصلية."

رفع قطعة العشر درخمت إلى الأعلى قريباً من النور.

"في طيات عباءة المحارب ثمة حرفان صغيران ZH" قالت ستيفاني. "وهما يرمزان في اللغة الإغريقية القديمة إلى الحياة."

المزيد من تاريخ كارديا الذي كتبه هيرونيموس. "ثم أن بطليموس سلمني بعد ذلك ميدالية فضية يظهر عليها الإسكندر وهو يقاتل الأفيال. وقد قال لي أنه تخليداً لذكرى تلك المعارك فإنه كان قد أمر بسك تلك القطع من العملة. كما أنه طلب إلي أن أعود إليه عندما أكون قد توصلت إلى حل اللغز أعلاه. لكن لم يمض شهر واحد حتى كان بطليموس قد فارق الدنيا."

لقد أيقن الآن. "إن الميداليات والأحجية تذهب جميعها مذهباً واحداً."

"لا مرأى في ذلك." أجاب ثورفالدسن. "لكن السؤال هو: كيف؟"

لم يكن جاهزاً لشرح كيف. "إنَّ أحداً منكما لم يُجب عن سُؤالي. لماذا سمحتم لهما بمغادرة هذا المكان؟"

"يبدو بوضوح أن كاسيوبيا أرادت الذهاب." قال ثورفالدسن، "ففي ما بينها وبينني كنا قد تداولنا بمعلومات عن إيلي كافية لإيقاع زوفاستينا في الحيرة."

"هل من أجل ذلك كنت قد كلمتها من الخارج عبر الهاتف؟" أوما ثورفالدسن إيجاباً. "كانت تحتاج إلى معلومات. ولم يكن لدي فكرة عما هي مقدمة عليه. وعليك أن تعرف يا كوتون أن كاسيوبيا تريد أن تعرف ما الذي حصل مع إيلي، والإجابات على أسئلتها هذه موجودة في آسيا."

هذا الاستحواذ كان قد أقلق مالون. لماذا؟ لم يكن هو نفسه أكيداً. لكن تأثيره عليها كان بادياً. مثلما كان يؤثر عليه أيضاً ألمها وعلتها. وهو شيء يصعب تتبُّعه، إنها جرعة كبيرة من المشاعر لرجل جاهد بقوة في سبيل تجاهلها. "وما الذي سوف تقوم بعمله عندما تصل إلى الاتحاد؟"

هز ثورفالدسن بكتفيه هزة الأعارف. "ليس لدي أي فكرة. زوفاستينا تعرف أنني متنبه لجميع مخططاتها الإجمالية. لقد جعلت ذلك واضحاً لها. وهي تعرف أن كاسيوبيا وثيقة الصلات معي. لذلك فهي ستستعمل هذه الفرصة التي منحناها إياها لكي تحاول أن تستخلص من كاسيوبيا ما تستطيع استخلاصه." "قبل أن تقوم بقتلها."

"يا مالون،" قالت ستيفاني. "هذه مجازفة قبلت بها كاسيوبيا بكامل حريتها. إذ لم يطلب أحد منها أن تذهب مع زوفاستينا."

ثار المزيد من الغم في رأسه. "كلا. بل نحن من سمح لها بالذهاب معها. هل ذلك الكاهن ضالع في الأمر؟"

"إنَّ لديه مهمة عليه أن يقوم بأدائها" قال دايفيس. "ومن أجل ذلك فإنه كان قد تطوَّع بالذهاب."

"لكن هنالك ما هو المزيد حول هذا." قال ثورفالدسن. "فما كشف عنه إيلي

من أحجية بطليموس هو حقيقي. ونحن الآن بتنا نملك كل القطع التي تؤهلنا إلى الوصول إلى حل ذلك اللغز."

أشار إلى الصندوق. "ليس هنالك شيء في هذا الصندوق وصلنا إلى طريق مسدود."

هز ثورفالدسن رأسه نافياً. "ليس هذا بصحيح. إن هذه العظام قد رقدت، في السرداب، تحت المكان الذي نقف عليه لعدة قرون قبل أن يتم نقلها إلى هذا الضريح." أشار ثورفالدسن إلى النافوس المفتوح. "وعندما جرى نقلها للمرة الأولى في العام 1835، فإنه كان قد وُجد معها شيء آخر. وتلك حقيقة لا يعرفها سوى قلائل." أشار ثورفالدسن نحو الجناح الجنوبي المعتم. "ذلك الشيء محرز في الخزينة منذ زمن طويل."

"وقد أردتم أن تذهب زوفاستينا دون أن تلقي نظرة؟"

"شيء من هذا القبيل." رفع الدانماركي مفتاحاً. "إنه بطاقة عبورنا لكي نشهد ونرى."

"أتدرك أن كاسيوبيا قد تكون اتخذت لنفسها قسمة لا تقوى على مضغها؟"

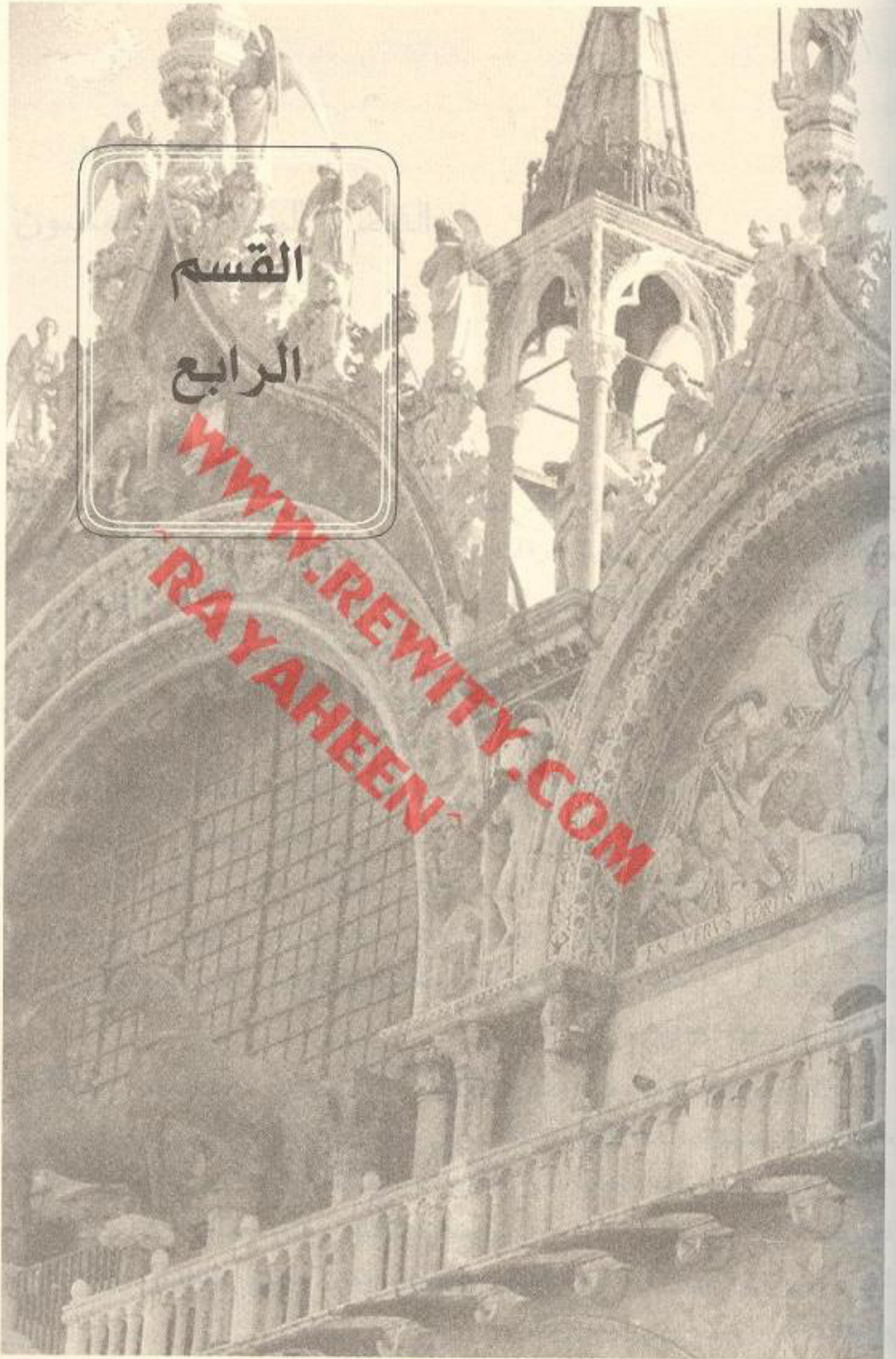
هز ثورفالدسن برأسه مراراً. "أدرك ذلك تمام الإدراك."

كان عليه أن يفكر، لذلك فإنه حدّق في الجناح الجنوبي وسأل: "أتعرفون ماذا علينا أن نفعل بما قد نجده هناك؟"

هز ثورفالدسن برأسه نافياً. "ليس أنا، لكن عندنا شخص ما، قد يعرف." صار محتاراً.

"إن هنريك يعتقد،" قالت ستيفاني. "ويبدو أن إيوين يشاركه الاعتقاد بأن:—"

"إنه إيلي،" قال ثورفالدسن. "إننا نعتقد أنه لا يزال حياً."



الفصل السابع والخمسون

اتحاد آسيا الوسطى

الساعة 6:50 صباحاً

ترجل فينسينتي من الطوافة، لقد استغرقت رحلته الجوية من سمرقند حوالي ساعة من الزمن. فرغم وجود طرقات برية سريعة جديدة تتجه شرقاً حتى وادي فرغانه، فإن ملكيته العقارية تقع في ما وراء ذلك إلى الجنوب، في طاجيكستان القديمة. إلا أن السفر جواً، في كل حال، يبقى هو الطريقة الأكثر سرعة وأماناً لقد قام باختيار الأرض التي اشتراها بكل دقة وعناية. فهي في الجبال العالية التي يكلها الغمام. ولم تثر صفقة الشراء أي تساؤل حتى عند زوفاستينا ذاتها. لقد اكتفى بتبرير ذلك الخيار فقط بأنه قد تعب من الأرض المسطحة الموحلة في البندقية. ولهذا، فإنه قام بشراء مئتي فدان من جبال ووديان منطقة باميرز الصخرية المليئة بالغابات. هذا سيكون عالمه. مكان لا يمكن أن يُسمع فيه أو أن يُرى، هنا سيكون محاطاً بالخدم، في مرتفعات مسيطرة على المناظر الطبيعية التي كانت يوماً قفراً موحشاً، لكنها باتت الآن مشذبة ومنزوعة الأشواك، وتحمل لمسة إيطالية بيزنطية وصينية.

كان قد أطلق على أرضه اسم "العليّة". وقد لاحظ في رحلته هذه من الجو أن مدخلها الرئيسي قد بات الآن متوجاً بقوسٍ حجريٍّ محكم الصُّنع يحمل فوقه هذا الاسم شعاراً. كما أنه لاحظ الآن المزيد من السُّقالات المنصوبة حول المنزل، فالشكل الخارجي يتنامى بسرعة في اتجاه اتخاذ هيئته النهائية. لقد جرى بناء المنزل على وتيرة وثيدة لكنها مستديمة. ولسوف يكون سعيداً عندما تنهض الجدران جميعاً وقد انتهى العمل فيها كلياً.

تعدّى مجال شفرات مروحة الطوافة ماراً خلال الحديقة. كان قد أعلم أنها سوف تزهر فوق منحدر جبليّ بحيث أن ملكيته العقارية سوف تتلألاً بمسحة من مزايا الريف الإنكليزي.

وكان بيتر أوكونيّه يقبع في انتظاره فوق الحجارة غير المستوية العائدة للباحة الخلفيّة.

"هل كل شيء على ما يرام؟" توجه بالسؤال إلى مستخدمه.

أوماً أوكونيّه إيجاباً. "لا مشاكل هنا."

تلبّث قليلاً في الخارج، ملتقطاً أنفاسه. كانت الغيوم الرعدية تتحرك فوق القمم الشرقية النائية في اتجاه الصين، وكذا الغربان تجوب الوادي. لقد قام بتحديد واجهة البناء بكل عناية في سعي منه لاكتساب أكبر قدر ممكن من الإطلالة المشرفة على المناظر. شيء مختلف جداً عما هو عليه الحال في البندقية. لن يكون هنا روائح مستنقعات عفنة مزعجة، بل كثير من الهواء النقيّ الصافي. لقد قيل له أن ذلك الربيع الآسيوي قد كان على غير عادته دافئاً وجافاً. وقد كان هو سعيداً بتأخر وصول موسم البرد.

"ما هي الأخبار عن زوفاستينا؟" سألها.

"إنها الآن تغادر إيطاليا، بينما نحن نتحدث، وبرفقتها امرأة أخرى، امرأة سمراء، جذابة عرّفت عن نفسها لرجال الجمارك تحت اسم كاسيوبيا فيت."

انتظر المزيد من المعلومات لعلمه أن أوكونيّه عميقٌ في معلوماته ودقيق.

"فيت هذه تعيش في جنوبي فرنسا. وهي في الوقت الحاضر تقوم بتمويل عملية ترميمٍ لقصرٍ إقطاعيّ عائدٍ إلى القرون الوسطى. إنه مشروع كبير. عالي التكلفة. وقد كان وايلدها يملك عدة مؤسساتٍ إسبانية صناعية. كتلّ اقتصادية مختلطة كبيرة. وقد آلت جميع تلك الشركة إليها."

"وماذا عنها؟ عن شخصها؟"

"إنها مسلمة، لكنها غير ورعة. رفيعة الثقافة، تحمل شهادة جامعية في الهندسة وأخرى في التاريخ. عزباء. في الثامنة والثلاثين من عمرها. هذا كلُّ ما

استطعتُ جمعه من معلوماتٍ عنها بموجب إشعارٍ عاجلٍ وجيز. أتريد أن نتحرى المزيد عنها؟"

هزَّ رأسه نافياً. "ليس الآن، لكن هل لديك أيُّ طرفٍ علمٍ عما تقوم بعمله مع زوفاستينا؟"

"إن جماعتي لا يعرفون. لكن زوفاستينا كانت قد غادرت الكاتدرائية برفقتها وذهبتا مباشرة إلى المطار."

"وهل هي في طريق عودتها إلى هنا؟"

أوما أوكونييه برأسه إيجاباً. "سوف تصل بعد حوالي أربعٍ إلى خمس ساعات."

لقد أنس أن ثمة المزيد.

"أما رجالنا الذين كانوا وراء نيل، فقد قُتل أحدهم برصاصة قناصٍ مرابط على أحد الأسطح. أما الثاني فقد هرب. ويبدو أن نيل هذه، كانت مستعدة لنا."

لم يعجبه نفسُ هذه الرواية. لكن على هذه المشكلة أن تنتظر الآن. لقد قام بقفزته عن حافة الجبل وانقضى الأمر وصارت إعادة التسلُّق الآن، أمراً مستصعباً. دخل إلى منزله.

كان قد أنهى أعمال الزخرفة منذ عامٍ مضى. صارفاً الملايين على أعمال الطلاء. وأغطية الجدران. والأثاث المورنشي، وسوى ذلك من الأشياء التي هي آية في الفن. لكنه كان قد أصرَّ على أن لا تكون الأناقة والفخامة تتمان على حساب الراحة. لهذا، فإنه قد ضمَّن المشروع مسرحاً، وصالونات مريحة دافئة وحميمية، وغرف منامة خاصة، وحمّامات، وحديقة.

ولسوء الحظ، فإنه سيكون قادراً على تمضية أسابيع قليلة ثمينة هنا فقط. وقد أقام لمنزله هذا موظفين محليين قام أوكونييه على اختيارهم شخصياً. ولكن، ومع كل هذا، فإن "العلية" سوف تصبح قريباً ملاذه الشخصي. مكانٌ يعيش فيه معيشةً عالية المستوى، ويمارس فيه التفكير الصُّرف. وقد تهيأ لهذا الاحتمال

بتركيب أجهزة إنذار معقدة، وكذلك معدات اتصال تعتبر آخر صيحة في طراز علم الاتصالات وفنّه. كما أنه أقام شبكة ممرات معقدة خفية.

مرّ خلال غرف الطابق الأرضي التي يفضي بعضها إلى البعض الآخر في طراز فرنسي بدت معه كل زاوية باردة وظليلة مثل رابعة نهار ربيعي. وكان ثمة ردهة بديعة باهرة تؤدي في رخامها المعرق إلى بيت درج لولبي يرتقي إلى الطابق الثاني.

ارتقى الدرج.

لوحة جصية تمثل تقدم العلوم العقلية بدت فوقه. فهذا القسم من البيت ينكره بأحسن ما في البندقية. مع أن الشبابيك التي تتوسطها الأعمدة الحجرية تشكّل هنا براويز للوحات الطبيعية بدل الإطلال على القنال الكبير كما هو حال فيلته في البندقية. ولقد كانت وجهته هي الباب الموصد الواقع إلى اليسار خلف أعلى الدرج، وهو يؤدي إلى إحدى قاعات الضيفان الفسيحة.

دخل في سرعة

وكانت كارين وايلد تستلقي هادئة على السرير.

وكان أوكونيّه قد أحضرها، وأحضر ممرضتها معها، من سمرقند على متن طوافة أخرى. وكان نراعها الأيمن قد رُبط من جديد إلى كيسٍ للتغذية الإصطناعية. مشى إلى قربها والتقط حقنة من الحقن الموضوعة على طاولة من الستاينلس ستيل. زرق محتويات الحقنة في أحد المخارج. وبعد ذلك بثوانٍ قليلة جعل الدواء المنبّه عيني المريضة تنفتحان. ففي سمرقند كان قد حقنها بمادة جعلتها تغيب عن الوعي. أمّا الآن فهو يريد أن تصحو.

"إستيقظي الآن"، قال لها. "هيا."

رمشت بجفניה ورأت أن بؤبؤي عينيها يحدّقان.

ثم ما لبثت أن أقفلت عينيها من جديد.

التقط إبريقاً من الماء البارد من على منضدة بجانب السرير وبلّل به وجهها.

أجفلت صاحبة وهي تنفض الماء عن عينيها.

"يا ابن العاهرة." "انفجرت في وجهه رافعة جذعها إلى الأعلى.

"كنتُ قد قلتُ لكِ انهضي."

لم تكن مقيدة. إذ لا حاجة لذلك. مرّت بنظرها على ما يحيط بها. "أين أنا الآن؟"

"هل أعجبك المكان؟ إنه لا يقلُّ أناقة عن المكان الذي طالما كنتِ معتادةً عليه."

لاحظت كيف أن أشعة الشمس تنساب من خلال الشبابيك كما من خلال الأبواب المفتوحة إلى السطوح. "منذ متى وأنا خارج مكان إقامتي؟"
"منذ مدة لا بأس بها. فلقد طلع الآن عليك الصباح."

عاد إليها الشعور بالثَّيِّه عن المكان، عندما فهمت الحقيقة. "ما الذي يجري حولي؟"

"لقد أردتُ أن أقرأ لكِ شيئاً ما، هلاً سايرتِ رغبتِي في الاستماع إليه؟"

"وهل لي من خيارٍ آخر؟"

يبدو أن تفكيرها قد عاد إليها.

"ليس في الحقيقة. لكنني أعتقد أنها جديرة بقتل هذا الوقت."

بدأ يقرأ لها:

لقد كنت في شكٍّ من أمري حول التجربة الإكلينيكية رقم W12-23 منذ بدايتها. ففي مبتدأ الأمر كان فينسينتي قد عيَّنني وعيَّن نفسه فقط للإشراف عليها. لقد كان ذلك أمراً غريباً بحدِّ ذاته، لأن فينسينتي قلماً يشغل نفسه بصورة شخصية في مثل هذه الأمور، خصوصاً في تجربة لا تتناول سوى إثني عشر شخصاً مشاركاً. وقد كان هذا سبباً إضافياً جعلني أصبح مرتاباً. لقد كانت معظم تجاربنا التي أنجزتها تتناول ما لا يقل عن مئة شخص. وفي مناسبة واحدة على الأقل، فإن العدد قد ارتفع إلى ألف مشارك. فعينات مأخوذة من إثني عشر مريضاً لا يمكنها في الأحوال العادية أن تكشف شيئاً عن فعالية أيِّ مادة،

خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار كل المعايير الهامة للسُّمِّيَّة، فالخطر يكمن في أن الاستنتاجات قد تكون بكلِّ بساطة قد جاءت وليدة الصدف العابرة.

وعندما قمتُ بالتعبير عن مخاوفي تلك إلى فينسينتي، فإنه أوضح لي أن اختبار السُّمِّيَّة ليس هو هدف هذه التجربة. وهذا أمرٌ بدا لي أيضاً غريباً. سألتُ فينسينتي عن العامل المتعضّي الذي قمنا بإجراء التجربة عليه، فقال إنه عبارة عن عامل قد قام هو بتطويره بصورة شخصية، وإنه يأخذ الفضول لمعرفة ما إذا كانت نتائج اختبارهِ يمكن مطابقتها بنتائج أخرى يجري اختبارها على الإنسان. وكنتُ على علم بأن فينسينتي يقوم بالعمل على مشاريع يمكن اعتبارها مشاريع مصنّفة داخلياً (والتعبير يعني أن أشخاصاً محدّدين فقط من الداخل يمكنهم الاطّلاع على بيانات التجربة). ولكن في الماضي درجت العادة على أن أكون أنا دائماً من هذه النخبة المختارة التي يكون لها حق الإطّلاع. أما في هذه التجربة بالذات، فإن فينسينتي قد أوضح لي بصراحة أنه سوف يكون هو الوحيد المخوّل بإختبار المادة المعروفة باسم زيتاً هيتاً.

وباستعمال المعايير المحددة التي وضعها لي فينسينتي، فإنني قمت بتأمين دزينة من المتطوّعين من مختلف العيادات الصحية في سائر أرجاء البلاد. ولم تكن هذه مهمة سهلة حيث أن فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب هو موضوع لا يوافق العراقيون على بحثه في العلن، كما أن المرض نادرٌ الوجود. ولكن في نهاية الأمر، وبعد القيام بعرض النقود، فقد تمَّ إيجاد العناصر التي يمكن إجراء الاختبار عليها. ثلاثة منهم كانوا في بدايات العدوى بفيروس نقص المناعة البشرية المكتسب، وقد جاؤوا بمعدل لعدد الكريات البيض المصابة بالفيروس يقارب الألف أو يزيد قليلاً. ولم تظهر على أيٍّ من هؤلاء المرضى أية أعراض خارجية لمرض الإيدز. بينما خمسة مرضى آخرون كان قد تطور الفيروس معهم إلى حدٍّ الإصابة بمرض الإيدز. وقد كانت أوعيتهم الدموية تعجُّ بالفيروس، كما كان معدّل لويحاتهم البيضاء منخفضاً. أمّا الأربعة الباقون فقد كانوا في طريقهم نحو الوفاة.

فمعدلات اللويحات البيضاء عندهم كانت أقل من مئتين. كما كانوا يعانون من مجموعة متنوعة من الإلتهابات الثانوية، التي كانت علاماتها بارزة. وكانت نهاية حياة كل منهم لا تتعدى كونها مسألة وقت.

وكنت أسافر مرة في كل يوم إلى العيادة في بغداد، وأتولى تقديم جرعات تُحقن بالوريد عند معدلات يحددها لي فينسينتي. وفي الوقت نفسه، فإنني كنت استخرج عينات من الدم، ومن خلايا الأنسجة. ومنذ الحقنة الأولى فقد أظهر المرضى الإثني عشر جميعاً تحسناً ملحوظاً. فخلايا الدم البيضاء ارتفعت أعدادها ارتفاعاً دراماتيكياً. مع إعادة بروز دور جهاز المناعة. أما الإلتهابات الثانوية فإنها قد تبددت بسبب أن أجسامهم قد بدأت تقوم بصدّ الأمراض الفيروسية. أمّا بعض إصابات الغارغارينا الكابوزية السرطانية التي قد تفشت في خمسة من الإثني عشر، واستفحل أمرها، فقد باتت تتعدى أية إمكانية للعلاج. أمّا الإلتهابات التي يستطيع جهاز المناعة التعامل معها بفعالية، فقد بدأت تتناقص مع بداية اليوم التالي لمباشرة العلاج.

ومع قدوم اليوم الثالث كان جهاز المناعة قد برز من جديد في أجسام المرضى الإثني عشر جميعاً. وعادت خلايا الدم البيضاء إلى التجدد، وارتفعت معدلات أعدادها. كما أن الشهية للطعام قد عادت. أما أوزان الأجسام فقد عادت أيضاً إلى التحسن. وقد انخفض مقدار فيروسات نقص المناعة البشرية المكتسب إلى ما يقارب الصفر. فإذا استمرّ العمل في إعطاء الحقن، فإنه لم يعد هنالك من شك في أن الجميع مقبلون على الشفاء، أقله من إصابتي فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب، ومن الإيدز. لكن الحقن قد تمّ إيقافها. ففي اليوم الرابع، بعدما بات فينسينتي مقتنعاً بأن المادة قد عملت عملها، فإنه قام بتغيير حقنة الدواء واستبدل بها محلولاً مالحاً. فتدهورت حالة المرضى الإثني عشر بسرعة، وانخفض معدل كريات الدم لديهم، كما أن فيروس نقص المناعة البشري المكتسب قد استعاد سيطرته. أمّا ما هي المادة التي تمّ استخدامها في هذا الاختبار، فهو أمر يبقى لغزاً مجهولاً. بعض الاختبارات الكيميائية القليلة التي كنت قد أجريتها على المادة أظهرت فقط أنه مزيج قلويّ أساسه الماء - وعندما قمت بسحب من

الفضول الخالص أكثر مما هو لأي سبب سواه، بفحص عينة من المحلول فحصاً مجهرياً فإنني قد ذهلت لإكتشافي وجود متعضيات حية تسبح فيه. (انتهى النص)

لاحظ أن كارين وايلد كانت تصغي إليه بانتباه. "هذا هو تقريرُ كان قد كتبه يوماً شخصٌ يعمل تحت إشرافي. لقد أراد أن يرسله إلى رؤسائي. وبالطبع، فإنه لم يتمكن من فعل ذلك. لقد دفعتُ نقوداً كي أتدبر أمرَ قتله. ففي العراق، خلال ثمانينيات القرن الماضي، عندما كان صدام في الحكم، فإن تدبير مثل هذه الأعمال كان أمراً يعتبر من الأمور السهلة."

"ولم أقدمت على تدبير قتله؟"

"لأنه كان فضولياً. ويجلب الكثير من الانتباه لشيء لا يعنيه."

"إنَّ هذا ليس هو الجواب. لماذا كنت في حاجة إلى التخلص منه؟"

رفع حقنة مليئة بسائل شفاف.

"هل هي تحتوي على المزيد من عقاقيرك المنومة؟"

"كلا بل هي في الحقيقة تحتوي على أكبر تمنياتك. على الرغبة التي كنت قد صرحت لي عنها في سمرقند بأنها هي الشيء الذي تفضليته على كل شيء سواه."

أنصت قليلاً.

"الحياة والعيش."

الفصل الثامن والخمسون

البندقية

الساعة 2:55 بعد منتصف الليل

هزّ مالون رأسه. "أقول إن إيلي لوند لا يزال حياً؟"

"إننا لا ندري"، قال إدوين دايفيس. "لكن شكوكاً تنتابنا في أن زوفاستينا تتلقى دروساً من شخصٍ ما. وبالأمر كذا قد عرفنا أن إيلي لوند كان هو مصدر معلوماتها الأول. فقد أخبرنا هنريك عنه وعن الظروف التي أحاطت بموته، وهي ظروف تبعث على الشك بكل تأكيد."

"وما الذي يجعل كاسيوبيا تعتقد أنه ميت؟"

"لأنه لا بدّ لها من أن تعتقد هكذا." قال ثورفالدسن. "لم يكن هناك من وسيلة لإثبات العكس. لكن لا شك عندي أن جزءاً من عقلها يشك في كون موته أمراً حقيقياً."

"إن هنريك يعتقد، وأنا أوافقه على ذلك." قالت ستيفاني، "أن زوفاستينا ستحاول، وسوف تستعمل، العلاقة التي ربطت بين إيلي وبين كاسيوبيا لمصلحتها الذاتية. وكلّ ما قد حصل هنا لا بدّ من أنه كان صدمة لها. وإن جنون العظمة ووسواس الإرتياب هما من نقاط ضعفها في حياتها المهنية. وكاسيوبيا تستطيع أن تستغلّ هذا الضعف لمصلحتها."

"إن هذه المرأة تخطط لخوض حرب. لذلك فإنها لن تقلق كثيراً لأمر كاسيوبيا. لقد كانت في حاجة إليها من أجل الوصول إلى المطار. أمّا بعد ذلك فهي

لن تعني لها شيئاً أكثر من كونها مجرد متاع. لقد كان ذهابها معها عملاً جنونياً.
 "يا كوتون،" قالت ستيفاني. "هناك المزيد."

انتظر مصغياً.

"إن ناومي قد ماتت."

أرسل أنامله في فروة رأسه. "لقد سئمتُ وتعبت من تلقّي أنباء موت
 أصدقائي."

"إنني أريد النيل من أنريكو فينسينتي." قالت له.

وقد شعر أنه هو كذلك يريد النيل منه.

بدأ يفكر كأنه عميلٌ سرّيٌ ميداني من جديد. وها هو يحارب رغبته الجامحة
 في الانتقام السريع. "لقد قلتُ أن ثمة شيئاً ما، في الخزانة. حسناً. دعوني أراه."



راقبت زوفاستينا المرأة الجالسة قبالتها في الكابينة الفخمة للطائرة النفاثة. إنها
 شخصية شجاعة، لا شك في ذلك. وهي مثلها في ذلك مثل تلك المرأة التي كانت
 قادمة من مختبر الصين، لها أيضاً جمالٌ يعرف الخوف. ولكن مع ذلك، فهي تختلف
 عن تلك الروح الضعيفة، وهي تعرف في الوقت نفسه كيف تسيطر على خوفها.

لم تكونا قد تكلمتا بعد، منذ مغادرتهما للكاتدرائية، وقد استعملتِ الوقت من
 أجل أن تزيّن رهيئتها. لم تكن بعد واثقة مما إذا كان حضور هذه المرأة معها هو
 مجرد صدفة أم أنه أمرٌ مدبر، لقد حدثت أمور كثيرة بسرعة كبيرة.

والعظام.

لقد كانت متأكدة أن ثمة شيئاً ما، كان لا بدّ له من أن يوجد هناك. وإنه لشيء
 يستحق المجازفة بالسفر من أجله بكل تأكيد. كلُّ شيء كان يشير إلى احتمال نجاح
 الرحلة. لكن أكثر من ألفي سنة كانت قد انقضت. وثورفالدسن قد يكون على حق.
 ماذا تراه يكون قد بقي في الواقع؟

"ما هو سبب وجودك في الكاتدرائية؟" سألتها.

"هل أحضرتني معك رغبة في اللغو؟"

"بل أحضرتك لكي أعرف ما لديك من معلومات."

إن هذه المرأة تذكرها كثيراً بكارين. ثقة عالية بالنفس، شخصية شديدة التطلب، تعلن ذاتها كبطاقة تعريف على الصدر. هذا إلى جانب مساحة خاصة من يقظة حذرة من شأنها أن تجعلها (زوفاستينا) في حالة من التأثر الشخصي وفقدان التوازن معاً.

"إن ثيابك وشعرك وهيئتك كلها تُظهرُك كما لو أنك كنت تسبحين."

"إن حارسك كان قد دفع بي إلى مياه البحيرة."

كانت هذه معلومة جديدة لها. "تقولين حارسي؟"

"إنه فيكتور. ألم يخبرك بذلك؟ لقد قتلتُ زميله في المتحف في تورسيلو. وكنتُ أريد قتله هو أيضاً."

"هذا قد يدلُّ على حصول مواجهة أو منافسة بينكما."

"لا أظن ذلك." جاء الصوت مريراً وبارداً وأنوفاً.

"هل عرفتِ إلي لي لوند يوماً؟"

لم تجب فيت عن هذا السؤال.

"أعتقدين أنني قد قتلته؟"

"أعلم أنك قد فعلت ذلك. فإنه كان قد أخبرك عن أحجية بطليموس. كما أنه قد

أخبرك عن الإسكندر، وقال لك كيف أن الجسد الذي كان مدفوناً في ضريح الـ: "سوما" لم يكن هو جسد الإسكندر. كما أنه كان قد ربط بين ذلك الجسد وبين عملية سرقة بعض بحارة البندقية لجسد القديس مرقس. وهذا هو سبب مجيئك إلى البندقية. ولقد أقدمتِ على قتله لتضمني لنفسك أنه لن يصرِّح بهذه الأسرار سوى لك وحدك. ولكنه، مع ذلك، كان قد باح بها لشخص ما، وهذا الشخص هو أنا."

"أما أنتِ فقد أخبرتِ هنريك ثورفالدسن بذلك."

"بل أخبرته بذلك من ضمن أشياء أخرى أيضاً."

بدت هذه مشكلة، وقد خامرها تساؤل: هل يكون ثمة علاقة بين هذه المرأة وبين محاولة الاغتيال الفاشلة التي كانت قد تعرّضت لها؟ هل يكون لها علاقة مع فينسينتي؟ كما أن هنريك ثورفالدسن يبدو عليه بكل وضوح نمط الرجل الذي قد يكون عضواً في عصابة البندقية. ولكن حيث أن لائحة أسماء الأعضاء هي لائحة بالغة السريّة، فلن يكون لها من سبيل للتأكد من عضويته. "لكن إلي لي يأت لي على نكر مرة."

"لكنه أتى على نكر أنتِ أمامي."

إن هذه المرأة تشبه كارين فعلاً. إذ أن لها الجاذبية الساحرة نفسها، والسلوك الصريح نفسه. وزوفاستينا امرأة يجتذبها التحدي. فهي تحب الطباع التي تحتاج إلى تصميم واصطبار لترويضها.

لكنها مهمة يمكن القيام بها رغم ذلك.

"وماذا تقولين إذا أخبرتك أن إلي لم يمت؟"

الفصل التاسع والخمسون

البندقية

تبع مالون الآخرين إلى عمق جناح الكاتدرائية الجنوبي. وأمام مدخل قليل الإضاءة تعلوه قنطرة متقنة العمارة من طراز بربري، توقف ثورفالدسن وأخرج مفتاحاً استعمله لفتح الباب البرونزي.

وفي الداخل، ثمة دهليز معقود يؤدي إلى مختلى. وإلى الجدار الأيسر كان ثمة كُوى تُحفظ فيها الميداليات والذخائر الدينية. وإلى اليمين كانت الخزانة التي توضع بداخلها الأشياء الثمينة، أو التي هي أكثر عرضة للكسر والتلف. أما الشعارات التي تعود إلى الجمهورية البائدة، فهي إما معلقة على الجدران، أو محرزة في خزائن عرض.

"إن معظم هذه الأشياء، كانت قد جُلبت من القسطنطينية." قال ثورفالدسن. "كان ذلك عندما نهب أهل البندقية تلك المدينة في العام 1204. لكن أعمال التجديد، والحرائق، والسرقات، قد ذهبت بمعظم تلك المجلوبات. وعندما سقطت جمهورية البندقية، فإن معظم تلك المجموعات كانت إما قد تم تفكيكها، أو صهرها للحصول على ما تحتوي عليه من ذهب وفضة وحجارة كريمة. ولم يسلم منها سوى مئتين وثلاث وثمانين قطعة."

أعجب مالون بكؤوس القربان اللامعة، وأوعية حفظ الذخائر، وغُلب المجوهرات، والصُّلبان، والطاسات، والأيقونات، المصنوعة من الصخر، أو الخشب، أو الكريستال، أو الزجاج، أو الفضة، أو الذهب. كما أنه لاحظ وجود القوارير الضيقة العنق، وقوارير حفظ الزيت المقدس، والأغطية الجلدية للمخطوطات، ومجامر البخور

المتقنة الصُّنع، وكلُّ منها غنيمة أو تذكّار قديم كان قد أتى إما من مصر، أو من بيزنطة.

"يا لها من مجموعة فذّة،" قال.

"إنها إحدى أفضل المجموعات على وجه الأرض." أعلن ثورفالدسن.

"وعمّ نحن نبحث هنا؟"

أشارت ستيفاني. "قال ميشنير إنها موجودة هنا."

اقترب الجميع من صندوق زجاجي عُرض فيه سيفٌ، وصولجان أُسقف، وبعض طاساتٍ سداسية الشكل، وبضع صناديق صغيرة مطعّمة بالذهب. استعمل ثورفالدسن مفتاحاً آخر لفتح الصندوق. ثم فتح واحداً من صناديق الذخائر الصغيرة. "إنهم يحفظونها بعيداً عن الأنظار."

لاحظ مالون وجود التحفة التي يبحثون عنها. "إنها عبارة عن جُعلٍ."

خلال عمليات التحنيط، كان المحنّطون المصريون في الغالب يزيّنون الجسد المطهّر بمئاتٍ من التماثيم. وقد كان معظمها يوضع على الجسد بكل بساطة من أجل الزينة. أما بعضها الآخر فلربما تمّ وضعه لتثبيت أطراف الميت وتقويتها. أمّا التحفة التي كان ينظر الآن إليها، فقد سمّيت على اسم الخنفساء التي هي حشرة تفقس في الرّوث. لقد كان يُعتقد على الدوام أن الارتباط هنا غريب. لكن المصريين القدماء كانوا قد لاحظوا كيف أن هذه الحشرات تبدو وكأنها تقفز من داخل زبل الماشية، لهذا السبب فإنهم أطلقوا على هذه الخنفساء لقب شيبارا، أي خالق جميع الأشياء، أو وايلد جميع الآلهة، وهو إله عُرف عنه تخليقه لذاته من المادة التي تصدر عنه.

"هذه التميمة هي تميمة قلبٍ." قال.

أومأت ستيفاني إيجاباً. "هذا ما قاله ميشنير أيضاً."

كان يعرف أن جميع أعضاء الجسد تُزال منه خلال عملية التحنيط. ما خلا القلب. وكان يوضع دائماً جُعلٌ فوق القلب كناية عن رمز الحياة الخالدة. أمّا هذا الجُعل فقد كان نموذجياً. فهو مصنوع من المرمر الأخضر، أو ربما من العقيق. لكنّ

شيئاً واحداً قد لاحظته. "ليس ثمة من ذهبٍ على التميمة، وهي في العادة تكون مصاغة من الذهب، أو مزينة به."

"ولعلّ هذا هو السبب الذي جعلها تبقى." قال ثورفالدسن. "فالتاريخ يذكر أن مقبرة الـ: "سوما" في الإسكندرية كانت قد تعرضت للنهب على يد البطالسة اللاحقين. وهكذا، فإن كل الذهب قد نُزع منها، كما أن التابوت الذهبيّ قد جرى صهره، وكل ما هو قيّم الثمن فيها قد أزيل عنها. إلا أن هذه القطعة من الحجر فإنها لم تعن لهم شيئاً."

مدّ مالون يده وقام برفع التميمة. فرأى أنها لا يزيد طولها عن أربعة إنشات وأن عرضها لا يتجاوز الإنشين. "إنها أكبر حجماً مما هو مألوف في التماثم. فالتميمة تكون عادة في نصف هذا الحجم."

"يبدو أنك تعرف الكثير عن هذه الأشياء،" قال دايفيس. ضحكت ستيفاني. "هذا الرجل يقرأ. فهو في زيادة الأمر رجلٌ كُتبيّ." ابتسم مالون لكنه استمرّ ينظر إلى التميمة في إعجاب. وقد لاحظ أن ثلاثة أحرف هيروغليفية كانت قد نُقشت على أجنحة الحنفساء



"ما هي هذه النقوش؟" سأل. "قال ميشنير إنها تعني: الحياة، الاستقرار، والحماية." أجاب ثورفالدسن. أدار التميمة رأساً على عقب. فوجد أن ظهرها يحتلّه رسم طائر.



تابع ثورفالدسن: "لقد عُثر على هذه التميمة بين عظام القديس مرقس أثناء استخراجها من الديماس في العام 1835 ورُفعت إلى المذبح في الطابق العلوي. لقد استشهد القديس مرقس في الإسكندرية وجرى تحنيطه فيها، لهذا، فإنه كان من المعتقد أن هذه التميمة كانت بكل بساطة هي جزء من طقوس التحنيط. ولكن حيث أنها تحمل معاني وثنية فإن آباء الكنيسة قرروا فصلها عن الرفات. وبما أنهم ثمنوا ما لها من قيمة أثرية فقد قاموا بوضعها هنا في هذه الخزانة. وعندما عرفت الكنيسة باهتمام زوفاستينا برفات القديس مرقس، فإن هذه التميمة اتخذت آنئذ أهمية أكثر من ذي قبل. إلا أنني، عندما كلمني الرئيس دانيالز بخصوصها، فإنني تذكرت ما كان قد قاله بطليموس عنها."

وكذلك تذكر هو.

لامس قدس أقداًس الوهم المذهب

وقعت قطع الأحجية في مكانها الصحيح. "فالوهم الذهبي لم يكن سوى المومياء نفسها الموجودة في ممفس، حيث أنها كانت مغلفة بالذهب. أمّا قدس الأقداس فهو القلب." رفع التميمة "أي هذه."

"وهذا يعني." قال دايفيس، "أن الرفات الموجودة هنا في هذه الكاتدرائية هي ليست رفات القديس مرقس."

أوما مالون بالموافقة. "فهذه التميمة هي شيء آخر مختلف كلياً، شيء ليس له أي علاقة بالديانة المسيحية."

"أشار ثورفالدسن إلى ظهر التميمة. "هذا هو الرسم الهيروغليفي لطائر الفينيق، إنه رمز البعث من الموت."

التمتع في ذهنه المزيد من الأشياء عن اللغز:

'قم بقلبي طائر الفينيق'

وقد عرف الآن بالضبط، ماذا عليه أن يعمل.



خالط كاسيوبيا يقيناً بأن زوفاستينا إنما هي تتلاعب بمشاعرها عن طريق طرح السؤال عليها. ماذا لو كان إيلي لم يمت؟

وهكذا، فإنها سيطرت على عواطفها وقالت بهدوء. "لكنه قد مات، وكان ذلك منذ بضعة شهور."

"وهل أنت متأكدة؟"

كانت كاسيوبيا قد عجبت لنفسها مراراً كيف يمكن لها ألا تكون متأكدة؟ لكنها قاومت آلام أمانيتها وأعلنت. "بل هو ميت". مدت زوفاستينا يدها إلى جهاز هاتف ونقرت على أحد مفاتيحه. مرت ثوانٍ قليلة ثم تكلمت عبر الجهاز قائلة: "فيكتور أريدك أن تخبر شخصاً ما، عن الذي حدث ليلة وفاة إيلي لوند."

ناولت زوفاستينا الهاتف إلى كاسيوبيا.

لم تتحرك كاسيوبيا من مكانها، واسترجعت في ذاكرتها أن ما كان قد قاله لها في القارب. ولم يكن فيه شيء من هذا القبيل.

"هل تستطيعين مقاومة الإصغاء إلى ما سوف يقوله؟" سألتها زوفاستينا وهي تنظر إليها بوجه مشمئز بينما بدت نظرة تنم عن الإكتفاء والتشفي على عينيها السوداوين.

يبدو أن هذه المرأة تعرف نقطة ضعفها، وقد أرهقها ذلك الإدراك أكثر مما خالت أنها ستسمع من فيكتور. وكانت حقاً تريد أن تعرف. فالأشهر القليلة الماضية كانت جحيماً من العذاب. ولكن مع هذا....

"إذهبي أنت وهاتفك إلى الجحيم."

تردّت زوفاستينا قليلاً، ثم ابتسمت. وأخيراً قالت في الجهاز: "ربما في مرة أخرى يا فيكتور. تستطيع الآن أن تجعل الكاهن يذهب في حال سبيله."

أقفلت الخط.

تابعت الطائرة صعودها في الفضاء متجهة شرقاً نحو آسيا.

"لقد كان فيكتور يراقب منزل إيلي بناء على أوامري."

لم تكن كاسيوبيا راغبة في الاستماع.

"لقد دخل من خلف المنزل، وكان إيلي مقيداً إلى كرسيّ فيما القاتل يستعد لإطلاق النار عليه. لكن فيكتور عاجل إلى إطلاق النار على القاتل قبل أن يتمكن من القيام بذلك. ثم قام بإحضار إيلي لعندي وأحرق البيت والقاتل لا يزال في داخله." "لا يمكنك أن تتوقعي مني تصديق هذا الكلام."

"هنالك أشخاص في حكومتي من الذين يتمنون زوالي.

لسوء الحظ، إن الخيانة هي جزء من حياتنا السياسية. إنهم يخشونني ويعرفون أن إيلي يقوم بمساعدتي. ولهذا فقد أمروا بقتله، مثلما كانوا قد دبّروا قتل البعض ممن هم سواه من حلفائي."

بقيت كاسيوبيا في شكٍّ من أمرها.

"إن إيلي يحمل فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب الإيجابي."

تلك الحقيقة أسرت انتباه كاسيوبيا. "وكيف عرفت ذلك؟"

"هو الذي كان قد أخبرني. ولقد درجتُ على تزويده بالأدوية اللازمة له طيلة الشهرين الماضيين. فبخلافك أنت إنه يثق بي."

علّمت كاسيوبيا أن إيلي لا يمكن له أن يخبر أحداً عن حقيقة كونها هي أيضاً تحمل العدوى. ولم يكن أحد سوى إيلي وهنريك ليعلم عن إصابتها.

أمّا الآن، فإنها قد باتت مضطربة.

لكنها تعجّبت

هل كان ذلك هو كلُّ الموضوع؟



داعبَ مالون عنق أيقونة القلب بأنامله متحسّساً خط الكفاف العائد للرسم المحفور الذي يمثل طائر الفينيق المصري. "لقد قال بطليموس بوجوبِ فلقِ طائر الفينيق."

هزّ التحفة قرب أذنه مصغياً.

لم يتحرك شيء بداخلها.

بدا ثورفالدسن فاهماً ما هو على وشك القيام به "إن عمر هذه التميمة هو ما يزيد على ألفي سنة."

لكنّ مالون لم يكن ليأبه لمثل ذلك ما دام أن كاسيوبيا في خطر، وما دام أن العالم قد يقع في وقتٍ قريب ضحية لحربٍ جرثومية. وكان بطليموس قد خطّ أحجية يبدو بوضوح أنها تقود إلى معرفة المكان الذي كان الإسكندر الكبير يرغب في أن يُدفن فيه. ويبدو من الواضح كذلك أن القائد الإغريقي المحارب الذي تحوّل في ما بعد إلى فرعون على مصر، كان قد امتلك معلومات خصوصية دقيقة عن الأمر، وإذا كان بطليموس يقول إفلق الفينيقي، فإن مالون لن يتورّع عن عمل ذلك.

رمى التميمة بقوة على الأرض الرخامية لناعية وجهها الأسفل.

ارتدت، وانكسر حوالي ثلث الجُعل كما لو أنه جوزة تنكسر. جمع القطع المتناثرة على الأرض وقام بفحصها.

خرج شيء ما، من جوانب التميمة.

ركع الآخرون معه.

دلّ بإصبعه قائلاً: "إن داخل التميمة قد انشقّ وصار جاهزاً لإخراج محتواه، وهو محشوٌّ بالرمل."

رفع الجزء الأكبر من جسم التميمة وقام بإخراج حبّات الرمل منه.

أشار إيوين دايفيس بإصبعه قائلاً: "انظروا."

رأى مالون ما رآه دايفيس. أزاح حبّات الرمال جانباً فوق نظره على جسم أسطواني صغير ربما يبلغ قطره ربع إنش. ثم لاحظ إن هذا الجسم لم يكن أسطوانة أبداً.

إنها قِدة من الذهب.

بل هي رقاقة ملفوفة.

قام بتقليب اللقافة بدراية فلاحظ وجود أحرف عشوائية منقوشة على جانب منها.

"إنها أحرف إغريقية." قال.

أنعمت ستيفاني النظر في اللقافة. "انظر أيضاً كم أن هذه الرقاقة قليلة السماكة، فهي أشبه بورقة شجر."

"وما هي؟" سأل دايفيس.

بدأ عقل مالون يضع القطع النهائية للأحجية في مكانها الصحيح.

لقد صار الجزء الثاني من أحجية بطليموس الآن ذا أهمية خاصة.

"إن الحياة سترشدك إلى مقاسات قبوري لكن عليك أن تجانب الحذر."

مدَّ يده إلى جيبه وأخرج الميدالية التي كانت ستيفاني قد أطلعت عليها. "إن طيَّات هذه الميدالية تحتوي على الحرفين ZH. ونحن نعلم أن بطليموس كان قد سكَّ قطع العملة هذه عندما قام بتأليف الأحجية." وقد لاحظ وجود رمزٍ ضئيل  على أحد وجهيها فعرف وجه العلاقة على الفور. "لقد كانت تلك العلامة ذاتها مرسومة على الخطيطة التي أطلعتني عليها. في أسفل الأحجية." لقد تخيل ترادف الكلمات بوضوح في ذاكرته.

"إن الحياة سترشدك إلى مقاسات قبوري لكن عليك أن تجانب الحذر."

"ما هو وجه الصلة بين الميداليات وبين هذه اللقافة من الذهب؟" سأل دايفيس.

"لكي نكشف الصلة،" قال مالون، "علينا أن نعرف ما هي هذه الرقاقة."

لقد رأى أن ستيفاني كانت تقرأ أفكاره.

"وهل تعرف؟" سألته.

أوماً بالإيجاب. "إنني أعرف ما هي بالضبط."



أوقف فيكتور تعشيق التروس سامحاً للقارب بأن ينساق مع الماء في اتجاه رصيف ميناء سان ماركو. فقد كان اقتاد ميشنير معه من الكاتدرائية مباشرة إلى المكان الذي ربط فيه القارب معتقداً أن المكان الأكثر أماناً لانتظار مغادرة زوفاستينا إنما هو سطح الماء. وهناك كان قد جلس ينتظر محدقاً إلى الأبراج والقباب الكثيفة الإضاءة، كما إلى قصر الدوق، الأبيض الزهري. كما إلى برج الناقوس، وإلى صفوف من الأبنية القديمة الصلبة المترصّة العالية المرصّعة بالشرفات والنوافذ، وكلها على خلفية من الليل الأسود المتثائب. كم سيكون مسروراً ساعة مغادرته لإيطاليا.

لا شيء في هذا المكان كان قد سار معه سيراً حسناً.

"لقد جاء الوقت الذي ينبغي لي فيه أن أتحدث معك." قال ميشنير.

كان قد أبقى الكاهن في داخل الكابينة الأمامية بمفرده، بينما جلس هو في انتظار مكالمه من زوفاستينا. وقد جلس ميشنير جلوساً عرضياً وبقي صامتاً.

"وعمّا تُرانا سنتحدث؟"

"ربما عن حقيقة أنك جاسوس أمريكي."

الفصل الستون

اتحاد آسيا الوسطى

منح فينسينتي كارين وايلد وقتاً كافياً لكي تستوعب كل ما قاله لها. وتذكر اللحظة التي كان قد أيقن فيها لأول مرة أنه قد وُفق إلى اكتشاف علاج للإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية المكتسب.

"لقد أخبرتك عن الرجل الجبليّ العجوز -"

"هل كان ذاك هو المكان الذي اكتشفت فيه العلاج؟" سألت والأمل المشوق واضح في صوتها.

"أعتقد أن عبارة: 'أعدت اكتشاف'، هي العبارة الأكثر دقة".

لم يكن قد تحدث مع أحد حول هذا الموضوع قط. وكيف له أن يفعل هذا؟ لذلك، فقد وجد نفسه الآن تواقاً للاستفاضة في الشرح. "إنه لأمر مثير للعجب كيف أن أبسط الأشياء تكون قادرة على حلّ أعقد المسائل. ففي بدايات القرن العشرين انتشر مرضُ البري بري في جميع أنحاء الصين حاصداً أرواح مئات الألوف. هل تعرفين لماذا؟ كان التجار قد بدأوا بقشْر حَبَّات الأرز من أجل جعل إنتاجه أكثر قابلية للتسويق، الأمر الذي أفقدها الفيتامين باء، الذي هو الثيامين. الذي لا يوجد إلا في قشرة البذرة. وفي غياب الثيامين من الوجبة الغذائية لأولئك الناس فإن مرض البري بري انتشر بينهم دون رادع. أمّا عندما توقف التجار عن قشْر حَبَّات الأرز، فإن الثيامين قد تولى بنفسه معالجتهم من الوباء.

"كذا، فإن اللحاء المستخرج من شجر الطقسوس الباسيفيكي (شجر من فصيلة الصنوبريات) هو علاج فعّال في مكافحة مرض السرطان. ورغم أنه لا يكفي

للشفاء من المرض إلا أن له أثراً كبيراً في إعاقة تفاقمه. كذلك فإن عفن الخبز، البسيط كان قد قاد إلى اكتشاف مضادات حيوية شديدة التأثير في قتل الإلتهابات البكتيرية. كذا فإن شيئاً بسيطاً مثل تضمين وجبة غذائية غنية بالدهون الكيتونية في النظام الغذائي يستطيع في الحقيقة أن يوقف داء الصرع عند بعض الأطفال. إنها جميعاً مواد بسيطة. وإني قد وجدتُ أن المبدأ نفسه صحيح أيضاً بالنسبة إلى مرض الإيدز.

"ما هو العنصر الموجود في ذلك النبات الذي قمتَ بمضغه فعِملَ عملِه؟" سألتُه.

"لا تقولي: 'ما هو'؟ قولي: 'مَنْ هم'؟"

لاحظ كيف أن خوفها بدأ يتراجع، كما لو أن الشعور بالتهديد بات ينقلب إلى شعور تطلُّع نحو المنقذ.

"منذ ثلاثين عاماً وقعنا على فيروس في المجاري الدموية للقردة الخضر. وكانت معرفتنا حول الفيروسات في ذلك الوقت معرفة عشوائية بالقياس إلى ما نعرفه عنها الآن. وكنا قد اعتقدنا أن تلك الفيروسات ما هي سوى نوع من فيروس الكساح. لكن شكلها وحجمها وتركيبها البيولوجي والعضوي بدا مختلفاً."

"وفي النهاية أطلق على هذا الفيروس إسم فيروس نقص المناعة القردي (SIV). ونحن نعرف الآن أن هذا الفيروس يستطيع العيش في القردة دون تحديد، ودون أن يتسبب بأي أذى للحيوان المضيف. وكنا نعتقد أن لدى القردة نوعاً ما، من المقاومة. لكننا علمنا لاحقاً أن المقاومة تأتي من الفيروس ذاته حيث أنه أيقن من خلال سلوكه الكيميائي أنه لا يقوى على إتلاف أيِّ متعضٍّ بيولوجي يمكن له أن يحتكَّ به. لقد تعلَّم الفيروس العيش في أجسام القرود دون أن تحسَّ القردة حتى بكونها تحمله في أجسادها."

"كنت قد سمعتُ هذا الكلام من قبل،" قالت له. "كما سمعتُ أن مرض الإيدز الوبائي كان قد ابتدأ مع عضّة قرد."

هزَّ كتفيه إشارة على عدم التأكد. "ومن الذي يدري؟ قد تكون عضّة أو مجرد خدج، أو قد يكون الفيروس قد دخل إلى الجهاز الهضمي. فالقرود هي جزء من

أطباق الطعام المعتادة في عددٍ من الأنظمة الغذائية. ولكن بصرف النظر عن كيفية حدوث انتقال الفيروس، فإنه قد غابر القردة ليعيش في جسم الإنسان. لقد رأيت هذا الأمر يحدث أمامي للمرة الأولى مع رجل يدعى شارلي إيستون. وهو رجلٌ تحوّل الفيروس في جسده من فيروس نقص المناعة القردِيّ (SIV)، إلى فيروس نقص المناعة البشرية. المكتسب (HIV)."

وهنا، أخبرها المزيد عمّا حصل معه منذ بضعة عقود، ولم يكن المكان الذي مات فيه إيستون بعيداً جداً عن المكان الذي يقف فيه الآن.

فلم يكن الـ (HIV) يَكُنْ قرابة بيولوجية للبشر مثلما كان يفعل الـ (SIV) بالنسبة إلى القردة. لقد انكبت على العمل بسرعة أُستنسخ الخلايا في العُقد الليمفاوية إلى نسخٍ مكرّرة عن نفسها. ولقد مات شارلي في غضون أسابيع.

"لكنه لم يكن الأول. فالحالة الأولى التي يمكن تشخيصها على وجه التأكيد كانت قد حدثت لرجل في إنكلترا. ففي العام 1959 كان قد عُثِرَ على عيّنة مثلجة من مصل الدم بعد اختبارها في بداية التسعينيات، على وجود فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب في دم الرجل. وأغلب الظن أن كلا نوعَي الفيروس كانا موجودين معاً منذ عدة قرون. فقد كان الناس يموتون في القرى المعزولة دون أن يلاحظ أحدٌ وجود المرض فيهم. وكانت الإلتهابات الثانوية مثل الانصباب الدموي الوعائي الصدري تتسبب في الواقع بقتل المريض. لهذا، فإن الأطباء خلطوا بين مرض الإيدز وبين أشياء أخرى. وفي الأصل، فقد أُطلق في الولايات المتحدة على هذا المرض إسم مرض الانصباب الدموي العائد للمثليين (نيومونيا الشذوذ الجنسي). وأفضل الظن الآن يذهب إلى أنه خلال خمسينيات وستينيات القرن الماضي، عندما بدأت الحضارة تغزو إفريقيا، وبدأ سكانها يتجمعون في حياة مدنية، فإن المرض قد تفشّى بينهم. وفي نهاية الأمر، قام شخص غريب عن القارة بنقل الفيروس إلى خارجها. ومع حلول الثمانينيات كان فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب قد انتشر في جميع أرجاء الكرة الأرضية."

"وهو أحدُ أسلحتكم البيولوجية الجيدة."

"لقد كنا في الحقيقة نعتقد أن هذا الفيروس هو فيروس سيء الاستخدام كسلاح بيولوجي. فهو صعب الإلتقاط، بطيء فترة المرض المؤدية إلى الوفاة. مع

أنها فترة ليست بطويلة. لكننا نملك ما هو أسهل وأفضل منه من الطواعين السوداء الحديثة."

"صحيح إنها لدينا"، قالت. "لكن السيئ فيها هو أنها لا تقوم حتى الآن، بقتل الناس الذين ينبغي قتلهم."

عرف ما ترمي إليه بكلامها. ففي الوقت الحاضر يوجد نوعان رئيسان من هذا الفيروس. الأول هو (HIV-1)، وهو منتشر في أفريقيا، أما الثاني وهو (HIV-2) فقد بقي الأكثر انتشاراً بين متعاطي الحقن المخدرة والشاذين جنسياً. أما في الفترة الأخيرة، فإن أجناساً مختلفة قد بدأت بالظهور مثل ذلك النوع الشديد الأذى الذي ظهر في منطقة جنوبي شرقي آسيا وقد اكتسب في المرة الأخيرة تسمية (HIV-3).

"بالنسبة إلى إيستون"، قالت له. "أعتقد أنه قد نقل عدوى الفيروس إليك؟"

"لقد كنا نعرف القليل عن طريقة انتقال الفيروس في ذلك الوقت. وتذكرني أن أي سلاح بيولوجي هجومي لا يعتبر سلاحاً ذا قيمة إلا إذا كان مقترناً بوجود علاج له. وهكذا، عندما قام ذلك المداوي العجوز باصطحابي معه إلى الجبال، فإنه قد قام بإطلاعي على النبات، وقال لي إن عصير أوراقه يستطيع وقف ما سمّاه بمرض الحمى. وهكذا، فإنني قد أكلت بعض الأوراق."

"ولم تقم بإعطاء إيستون أيّاً منها؟ هل تركته يموت به؟"

"لقد أعطيتُه عصارة ذلك النبات. لكن ذلك لم ينفعه بشيء."

بدت محتارة فتركها في حيرتها معلقة السؤال قليلاً.

"وعندما مات شارلي، فإنني قمت بتصنيف هذا الفيروس كفيروس غير صالح للاستخدام كسلاح بيولوجي. لقد كان العراقيون يريدون فقط معرفة التجارب الناجحة. لقد طلب منا إهمال التجارب الفاشلة في ميدانها حيث هي. ولكن في منتصف الثمانينيات، عندما تم عزل فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب في كل من فرنسا والولايات المتحدة. فإنني قد تذكرت التركيب العضوي. ولم أعط الأمر في البداية جانباً كبيراً من تفكيري. ولا غرو، فلم يكن ثمة أحد ليهتم بالأمر خلا الجماعات التي تضم الشذاذ والمثليين. ولكن مع حلول العام 1985 فإنني بدأت أسمع المداولات حول المرض من المنتديات الصيدلانية. وقد كان يقال إن أي شخص

يمكنه إيجاد علاج للمرض لا بد من أن يحصد الكثير من المال. وعليه، فإنني قررت أن أبدأ البحث. وبعد ذلك كنت قد صرتُ أعرف الكثير. وهكذا، فإنني عدت أدراجي إلى آسيا الوسطى، وقمت باستئجار دليل ليأخذني إلى المناطق العالية. حيث تمكنت من العثور على النبات من جديد. ولقد جلبت معي عند عودتي عيّنات منه حيث قمت بإجراء اختبارات عليها. وقد تبين لي أن هذا الشيء اللعين يستطيع أن يمسح أثر الفيروس بمجرد الاتصال به تقريباً."

"لكنك قلت إنه لم ينفع مع إيستون."

"كان ذلك النبات عديم الفائدة. إذ في الوقت الذي عالجتُ به شارلي، فإن الأوراق كانت قد باتت جافة. فالسر ليس في الأوراق. بل في الماء. وذلك هو المكان الذي وجدتُ فيه المتعضيات."

رفع الحقنة في يده.

"إنها البكتيريا النافعة."

الفصل الحادي والستون

البندقية

"هل سبق لكما وأن سمعتما بما يسمى: "سيتايل"؟" سألهما مالون.

ولم يكن أحدهما يعرف عن الأمر شيئاً.

"تأتي بعصا، وتلف حولها قطعة من الجلد. تكتب رسالتك على قطعة الجلد، ثم تُقَرِّدها وتضيف إليها مجموعة أخرى من الأحرف. يكون في حوزة الرجل الذي تنوي توجيه الرسالة إليه عصاً أخرى شبيهة بعصاك ولها القطر نفسه، بحيث أنه عندما يقوم بلف قطعة الجلد حول عصاه تصبح الرسالة قابلة للقراءة. أما لو استعملت عصاً ذات محيط أوسع أو أضيق فإن كل ما يمكنك الحصول عليه هو مجموعة من الأحرف المشوشة. وقد استعمل الإغريق القدماء أسلوب السيتايل هذا، لوقتٍ طويلٍ من أجل تبادل الرسائل السريّة."

"وكيف لك بحق الله أن تحصل على المعرفة بمثل هذه الأشياء؟" سأله

دايفيس.

هزّ مالون كتفيه في عدم اكتراث. "كان هذا الأسلوب سريعاً وفعالاً ولا يُخشى من وقوع التباس فيه. وكان هذا شيئاً بالغ الأهمية في ميادين المعارك. فهو طريقة عبقرية لإرسال رسالة سرية. أمّا الجواب عن سؤالك، فهو لأنني أقرأ كثيراً."

"لكننا الآن لا نملك العصا الصحيحة." قال دايفيس، "فكيف لنا أن تفك رموز

هذا الشيء؟"

تذكرُ الأحجية التي تقول: "إن الحياة سترشدك إلى مقاسات قبيري؛" حمل الميدالية. " (ZH) معناها الحياة. فهذه العملة هي المقياس. لكن عليك أن تجانب الحذر فثمة

فرصة لديك للنجاح واحدة". "قالت ستيفاني: "إن هذه الرقاقة الذهبية شديدة الرقة. ولا سبيل إلى إفراطها ثم طيها من جديد. فيبدو أن لديك فرصة للقيام بذلك لمرة واحدة فقط."

أوما مالون برأسه موافقاً. "هذا ما أعتقد أنه أيضاً." قاد عملية البحث حالما غادروا الكاتدرائية عائدين إلى مكاتب المطرانية وقد جلبوا معهم اللقافة الذهبية والأيقونة. قدر أن يكون قطر قطعة العملة إنشاً واحداً. لهذا، فإنهم شرعوا في البحث عن شيء يمكن أن يصلح لذلك. زوج من عصي المكانس كان قد وُجد في خزانة مستودع أثبت أنه شديد الثخانة. بينما تبين أن عدداً آخر من الأشياء الأخرى شديدة النحافة.

"إن جميع الأنوار مضاءة،" قال مالون. "لكن ليس من أحد في الجوار."

"كان ميشنير قد أمر بإخلاء المبنى عندما تركت زوفاستينا وحدها في داخل الكاتدرائية." قال دايفيس. "كنا نرغب في تقليص عدد المشاهدين إلى آخر ما نستطيع ذلك."

وبالقرب من آلة لتصوير المستندات، فوق أحد الرفوف، لمح مالون بعض الشموع. التقط صندوق الشمع فلاحظ أن قطر كل شمعة هو أكبر من قطر الميدالية بقليل فقط. "سوف نقوم بصناعة السيتايل الخاص بنا."

فهمت ستيفاني على الفور. "هنالك مطبخ في آخر هذا البهو. سأذهب لإحضار سكين."

كان يحمل رقاقة الذهب في باطن كفه وهي ملفوفة بقطعة مثنية من الورق كانوا قد عثروا عليها في الكشك الخاص بقطع تذاكر الدخول إلى الخزنة.

"هل من أحد هنا يحسن اللغة اليونانية القديمة؟" سأل. هرّ دايفيس وثورفالدسن رأسيهما إعراباً عن النفي.

"سوف نكون في حاجة إلى كومبيوتر. لأن كل كلمة سيتمكن استخراجها من هذه الرقاقة، إنما سوف تكون مكتوبة باللغة اليونانية القديمة."

"يوجد جهاز كومبيوتر في المكتب الذي كنا فيه من قبل." قال دايفيس. "إنه في نهاية هذه الردهة."

عانت ستيفاني وفي يدها سكين تقشير.

"تعرفون أنني مشغول البال على ميشنير." قال مالون. "ما الذي يمنع فيكتور من القيام بقتله، بعد قيام زوفاستينا بالمغادرة في سلام؟"

"هذه لن تكون مشكلة." قال دايفيس. "لقد أردت أنا أن يذهب ميشنير معه."

دهشة أصابت مالون. "من أجل ماذا؟"

تركزت عينا إيوين دايفيس عليه، كما لو أنه يفكر بأمر ما إذا كان هذا الرجل يمكن الوثوق به.

هذه النظرة أقلقّت مالون. "ما الأمر؟"

أعطت ستيفاني إيماءة إيجابية فقال دايفيس، "إن فيكتور يعمل معنا."



صُعِقَ فيكتور. "أنت من تكون؟"

"إنني كاهن أعمل مع الكنيسة الكاثوليكية مثلما قلت لك. لكنك أكثر بكثير مما تبدو في ظاهر الأمر. وإن رئيس الولايات المتحدة يريدني أن أتحدث إليك."

كان القارب لا يزال ينساب في اتجاه رصيف الرسو. وفي وقت وجيز ينبغي أن يكون ميشنير قد تركه وانصرف. لقد أحسن الكاهن عملية توقيت البوح عن هذه الرؤيا.

"لقد قيل لي إن زوفاستينا قد جئتك لمصلحتها من بين قوات الأمن الكرواتية، بعد أن كان الأمريكيون قد قاموا بتجنيدك لمصلحتهم مرة من قبلها. ولقد كنت ذا منفعة لهم في البوسنة. وبعدها دروا بعلاقتك الجديدة مع زوفاستينا، فإنهم بادروا إلى تجديد اتصالهم بك مجددين علاقتهم القديمة معك."

أيقن فيكتور أن كل هذه المعلومات المعروضة، الصادقة، إنما الغرض منها إقناعه بأن هذا المبعوث هو مبعوث أصيل، ليس به زيف.

"ما الذي يدعوك لتقول ذلك؟" سأله ميشنير. "فأنت تعيش حياتك كلها في وسط كذبة؟"

قرر أن يكون صادقاً. "لنقل إنني فضّلت ألاّ تتّم محاكمتي أمام محكمة جرائم الحرب، فقامت بالمحاربة مع الطرف الآخر في البوسنة. لكننا جميعاً نعمل أشياء نندم عليها. ولقد قمت بتخفيف العبء عن ضميري بتبديل المواقع، وبمساعدة الأمريكيين في إلقاء القبض على أسوأ المعتدين."

"وهذا يعني أن الطرف الآخر سيمقتك بدوره لو عرف الحقيقة."

"شيء من هذا القبيل."

"وما زال الأمريكيون يرفعون تلك العصا فوق رأسك."

"ليس هنالك من حدّ أعلى للعقاب على جريمة القتل. وإن لي عائلة في البوسنة. كما أن القرابة في ذلك الجزء من العالم تشتمل على كل شخص قريب منك. لقد غادرت ذلك المكان لكي أهرب من تلك الأشياء. ولكن عندما عرف الأمريكيون أنني أعمل لمصلحة زوفاستينا فإنهم وضعوني أمام الخيار إما أن يبيعوني لمصلحة البوسنيين وإما لمصلحتهم. لذلك فقد قرّرت أن أسلم الطرق إنما هي في الانضمام إليهم."

"إنها لعبة خطيرة تلعبها."

هز كتفيه في لامبالاة. "زوفاستينا لا تعرف شيئاً عني. وهذا هو أحد نقاط ضعفها. إنها تعتقد أن كل من يحيط بها هو إما شديد الخوف منها أو شديد المديونية لها بحيث أن أحداً لا يستطيع التفكير في الوقوف في وجهها." ولقد أراد أن يعرف. "ماذا عن المرأة كاسيوبيا فيت التي كانت هذه الليلة في الكاتدرائية، والتي غادرت مع زوفاستينا؟"

"إنها جزء من كل هذا."

أيقن فيكتور الآن فداحة الخطأ الذي ارتكبه. إنه في الحقيقة عميل تمكن التسوية عليه. لهذا فإنه كان في حاجة لكي يقول "لقد تواجعت معها في الدانمارك. حاولتُ هناك قتلها وقتل رفيقها الآخرين اللذين كانا معها في الكاتدرائية. لم يكن

لديّ علمٌ، لكنها عندما تقوم بإخبار زوفاستينا عن ذلك الأمر فإن زوفاستينا ستقتلني."

"لن تفعل كاسيوبيا ذلك. لقد جرى إخبارها بشأنك قبل مجيئها إلى الكاتدرائية هذه الليلة. وهي تعوّل على مساعدتك لها في سمرقند."

لقد فهم الآن همساتها الغريبة على شرفة جناح الكنيسة، كما فهم سبب عدم قيام أحد من الذين كانوا في الدانمارك بذكر أي شيء عنه أمام زوفاستينا.

وصل القارب إلى جانب الرصيف. قفز ميشنير منه. "قم بمساعدتها. فلقد قيل لي إنها واسعة الحيلة."

"وقد قامت بارتكاب القتل بقلب بارد."

"ليكن الله معك يا فيكتور. يبدو أنك محتاج إليه."

"لا أمل لي به."

ابتسامة عبرت على وجه الكاهن. "هذا ما كنت أعتقد أنه يوماً." هزّ ميشنير رأسه. "لكنني كنت مخطئاً."

لقد كان فيكتور وثنياً، مثله في ذلك مثل زوفاستينا. ولم يكن ذلك لأسباب دينية أو أخلاقية. بل بكل بساطة لأنه لم يكن ليأبه بماذا يحدث له من مصير بعد أن يكون قد مات.

"شيء آخر أريد قوله لك:" قال ميشنير. "أثناء وجودنا في الكاتدرائية، كانت كاسيوبيا قد ذكرت اسم رجل يدعى إيلي لوند. والأمريكيون مهتمون بمعرفة ما إذا كان لوند لا يزال على قيد الحياة."

الإسم نفسه يُطرح للمرة الثانية. مرة من المرأة، والآن من واشنطن.

"لقد كان على قيد الحياة. لكنني لم أعد أعرف عنه شيئاً."



هز مالون رأسه. "هل لديكم أحد داخل مؤسستها؟ إذاً ما هو سبب حاجتكم إلينا؟"

"نحن لا نستطيع المساومة عليه." قال دايفيس.
 "وهل كنت تعرفين ذلك؟" سأل ستيفاني.
 هزت رأسها نافية. "ليس سوى منذ وقت قريب."

"لقد أصبح ميشنير هو قناة التسريب المثالية." قال دايفيس. "ولم نكن متأكدين كيف ستحصل الأمور هنا. ولكن مع قيام زوفاستينا بتوجيه الأمر له بأخذه معه، فإن الأمور سارت على نحو تام. إننا نحتاج الآن أن يقوم فيكتور بمساعدة كاسيوبيا."

"ومن هو فيكتور؟"
 "إنه ليس واحداً منا، لا بالولادة ولا بالنسل." قال دايفيس.
 "لقد قامت السي. أي. إيه. بتبنيه منذ عدة سنوات. إنه من الموجودات الاتفاقية."

"هل جرى تبنيه طوعاً منه أم إكراهاً؟" كان يعرف أن كثيراً من المجندين الاتفاقيين كانوا مجبرين على الخدمة مع السي. أي. إيه. إجباراً.
 تردّد دايفيس. "بل هو تجنيد تحت وطأة الإكبار."
 "إن هذه لمشكلة."

"لقد جدّدنا عقد عمله في السنة الماضية. ولقد كان شديد المنفعة."
 "إنه بئر غويط، وليس من سبيل للوثوق فيه. لا أستطيع أن أخبركم كم من مرة كنت قد تعرضت للخيانة على يد المجندين اتفاقاً. إن لهم سلوك العاهرات."

"كما قلت لك، إنه يبدو حتى الآن جيد النفع."
 لم يكن شديد التأثر بما سمع. "يبدو أنك لم تمضِ بعد وقتاً طويلاً في هذه اللعبة."

"لكنه وقت طويل بما يكفي ليعرف المرء أن عليه القبول بالمغامرة."
 "إن المسافة الفاصلة بين المغامرة وبين الحماسة ليست مسافة كبيرة جداً."
 "يا كوتون،" قالت ستيفاني، "لقد قيل إن فيكتور كان هو الرجل الذي وجّه أنظارنا إلى فينسينتي."
 "ومن أجل هذا صارت ناومي ميتة، وهذا سبب آخر يدعو إلى عدم الثقة به."

ألقي الكرة المكورة من الورق على ظهر الآلة الناسخة وأخذ سكين التقشير من يد ستيفاني. وضع الميدالية على عقب إحدى الشمعات. ولقد كانت قطعة العملة هذه عتيقة قد نالت منها قرون الزمان العديدة لكن قُطرها كان لا يزال صحيحاً تقريباً. ولم يكن من اللازم سوى إجراء كشطاتٍ قليلة فقط على الشمعة لإزالة كمية الشمع الزائدة.

ناول الشمعة إلى ستيفاني وفكّ كتلة الورق بدراسة. كانت كفّاه رطبتان، الأمر الذي أدهشه. أمسك الورقة الذهبية من حافتها ملتقطاً إياها بلطفٍ بين سبابتها وإبهامه. حرّر طرف لفافة الذهب ولفّ الرقاقة على الشمعة التي كانت تحملها ستيفاني بشكلٍ ثابت.

وببطءٍ بدأ يُفرد الرقاقة الملفوفة على الشمعة عندما بدت الأحرف اللامترابطة تنتظم من جديد بعدما استعيد النسق الأصلي اللولبي إليها. ولقد استنكر شيئاً كان قد قرأه مرة عن السُّيتايل. ما لحق يضاف إلى ما سَبَق.

صارت الرسالة واضحة

سته أحرف إغريقية:

ΚΑΙΜΑΞ

"لكن عليك أن تجانب الحذر، فثمة فرصة لديك للنجاح واحدة."

"إنها طريقة جيدة لإرسال رسالة مشفرة من وقتٍ لآخر، وهذه الرسالة قد تم إرسالها منذ ثلاثة وعشرين قرناً مضت على الحادثة التي وقعت."

تطابقت رقاقة الذهب مع الشمعة فوعى أهمية تحذير بطليموس:

WWW.REWITY.COM
RAYAHEEN

الفصل الثاني والستون

سرّ فينسينتي لأنه يمسك بناصرية الأمور. "إنك امرأة ذكية. ومن الواضح أنك متشبّثة بالعيش. ولكن ما هو مبلغ معرفتك عن الحياة؟"

ولم ينتظر أن تجيبه كارين عن سؤاله.

"لقد علّمنا العلم دائماً أن هنالك من حيث الأساس نوعين من الأشياء. البكتيريا، والأشياء التي هي سوى البكتيريا. وقد تسألين ما هو الفرق؟ فبينما تملك البكتيريا حمضاً نووياً حراً طافياً، فإن كل ما عداها تكون أحماضه النووية محصورة في داخل نواة. ثم في سبعينيات القرن الماضي، قام عالم من علماء الأحياء الحيّة المجهرية، ويدعى كالي ووز باكتشاف نوع ثالث من أنواع الحياة. وقد أطلق على هذه الفئة اسم آرشيا. وهي فئة تقع بين البكتيريا وما عداها. وعندما اكتُشفت هذه الفئة في بادئ الأمر، فإنها بدت كأنها تعيش في أقسى البيئات. كالبحر الميت، وفي وسط الينابيع الحارة، وفي أعماق تمتد إلى أميال تحت سطح مياه المحيطات، وفي قارة أنتاركتيكا، وفي المستنقعات القليلة الأوكسيجين. وقد كنا نعتقد أن هذه الأماكن هي النطاقات الوحيدة لوجودها. ولكن خلال السنوات الأخيرة العشرين، تبين أن الأرشيا موجودة في كل مكان."

"وهل أن هذه البكتيريا التي وجدتها قادرة على تدمير الفيروس؟" سألته.

"بل تدمّره تدميراً انتقامياً. وإنني الآن أعني فيروس نقص المناعة البشرية المكتسبة واحد، وفيروس نقص المناعة البشرية المكتسبة إثنان، وفيروس نقص المناعة القرديّة، وكلّ نسل هجين لها قد وقع تحت يديّ لفحصه، بما في ذلك آخر شكل جديد ظهر فيه هذا الفيروس في جنوب شرقي آسيا. فهذه البكتيريا لها عرق

بروتيني من شأنه أن يمحو البروتينات التي تمسك فيروس نقص المناعة المكتسب بعضاً لبعض. فهي تدمر هذا الفيروس بالطريقة نفسها التي يقوم بها الفيروس ذاته بتدمير خلايا الجسد المضيف. وهذا الأمر يحدث بشكل سريع. والحيلة التي يجب أن تلعب هنا هو في منع جهاز الجسد المناعي من تدمير الأرشيا قبل أن تتمكن البكتيريا من تدمير الفيروس. "أشار إليها. "في أشخاصٍ مثلك من الذين يكون جهازهم المناعي قد تعطل في واقع الأمر، فلا يكون في الأمر مشكلة، حيث أنه لن يكون ثمة عدد كافٍ من الكريات الدفاعية البيضاء قد بقي لكي يقوم بقتل البكتيريا الغازية. ولكن حيث يكون فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب قد سيطر منذ مدة قصيرة، بحيث يكون جهاز الجسد المناعي ما زال قوياً نسبياً، فإن خلايا الدم البيضاء تقوم بقتل البكتيريا قبل أن تنال البكتيريا من الفيروس."

"وهل أمكنك إيجاد طريقة لمنع حدوث ذلك؟"

هز رأسه إيجاباً. "إن البكتيريا في الحقيقة تبقى حية حتى بعد مرورها في القناة الهضمية. وهذه هي الطريقة التي اعتمدها المعالج العجوز لإدخال هذه البكتيريا إلى أجساد الناس. الفرق وحده يقع في أنه اعتقد أن الفعل هو فعلُ النبات. أما أنا فلم أقم فقط بمضغ النبات، بل قد شربتُ الماء أيضاً، بحيث لو أن فيروساً كان يعيش في جسدي في ذلك اليوم فإن هذه البكتيريا لا بد أنها تكون قد قامت بقتله. ومنذ ذلك الوقت، عرفتُ أنه من الأفضل إدخال جرعة البكتيريا إلى جسد المصاب بواسطة حقنه بها. فبذلك يمكنك التحكم في النسب. ففي الإلتهابات العائدة إلى العدوى الحديثة العهد بالفيروس، حيث يكون الجهاز المناعي لا يزال قوياً، فإن مزيداً من البكتيريا يكون مطلوباً. أما في المراحل المتأخرة مثلما هو حالك، حيث يكون عدد كريات الدم البيضاء قد هبط إلى ما يقارب الصفر، فلن تكون ثمة حاجة إلى جرعة كبيرة."

"ومن أجل ذلك، أردت إجراء الاختبار على مرضى من ذوي المعدلات المختلفة من الإصابة؟ لقد أردت أن تعرف المدى اللازم لقوة الجرعة."

"فتاة زكية."

"ولهذا السبب، فإن كائناً من كان كاتب هذا التقرير الذي قرأته لي منذ قليل،

والذي أعتقد أنك لم تكن مهتماً لأمر السُمِّية فيه، إنما كان على خطأ في ذلك الاعتقاد."

"بل لقد كنتُ شديد الاهتمام بمسألة السُمِّية. لقد أردتُ أن أعرفَ كم هو مقدار الأرشيا اللازم لقتل فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب في كل مرحلة من المراحل التي يكون قد بلغها المرض. أمّا الشيء الطيب فهو أن هذه البكتيريا بحدّ ذاتها إنما هي ليست مؤذية. إذ باستطاعتك استهلاك البلايين منها دون أن يحدث لك شيء."

"وهكذا، فإنك قمتَ باستعمال أولئك العراقيين كأنهم حيوانات مختبر."

هزَّ كتفيه في عدم مبالاة. "كان عليّ أن أفعل ذلك من أجل أن أعرف. وحيث أنهم لا يعرفون. فقد قمت باختراع غلافاتٍ قشريّة هدفها حفظ البكتيريا وفعاليتها، الأمر الذي يعطيها وقتاً أطول للقيام بالتهام الفيروس. لكن الشيء العجيب هو أن الغلاف يقوم في نهاية الأمر بطرح ما فيه، فيقوم الجهاز المناعيّ بامتصاص الأرشيا. مثلها في ذلك مثل أي غازٍ للجهاز الدموي الدوري. إنه يقوم بتنظيف مجاري الدم منه. فالفيروس يزول وكذلك تزول معه الأرشيا. أما أنتِ فلا تحتاجين إلى الكثير من هذه البكتيريا. فالكثير منها يُجهد الجهاز المناعيّ. لكن الأمر برمّته بسيط. وهو دواء كامل التأثير في علاج واحد من أكثر الفيروسات قابلية لقتل الإنسان في العالم. هذا ولم أجد تأثيراً جانبياً واحداً قد استطعت العثور عليه، لهذا العلاج."

وكان يعرف أنها قد خبرت مباشرة بنفسها الآثار الجانبية المؤذية للعلاجات التي تعطى لمكافحة أعراض هذا المرض، التي قد تظهر على شكل طفح جلديّ، أو تقرّحات، أو تعب، أو غثيان، أو ضعف في ضغط الدم، أو صداعات، أو تقيؤ، أو تلف في الأعصاب، أو أرق، وهي كلها أعراض شائعة تصاحب المرض.

رفع الحقنة من جديد. "أما هذه فسوف تشفيك."

"هياً عَجَل بحقني بها." بدت نكهة الإستماتة واضحة في ضراعتها.

"تعرفين أنه قد كان بمقدور زوفاستينا أن تقدّم لك ذلك." لقد رأى أن هذه الكذبة قد أعطت مفعولها المرتجى. "إنها تعلم."

"أعرف أنه لا بدّ لها من أن تعلم. فهذه الجرثومة وسواها.. هي ما يشغل عقلها منذ سنوات."

"لقد علمتُ بذلك أنا وإياها معاً. ومع ذلك فإنها لم تقدّم لك شيئاً."

هزّت رأسها نافية. "أبداً أبداً. لقد اكتفت بالحضور لتراقبني بينما أنا أموت."

"إنها كانت تملك سيطرة كاملة عليك. فأنت لا تستطيعين عمل أي شيء. إنني أستطيع أن أفهم كيف أن فترة انفصالك عنها خلال سنوات مضت قد كانت قاسية وصعبة عليك. لقد شعرتُ هي أنك تخونين عهداً. وعندما رجعت إليها تطلبين منها المساعدة، فإنك قد أيقنت أنك قد أعطيتها بذلك فرصة لتوقع بك مقداراً من الانتقام تقوم هي بتحديد مدها. ولقد تعمّدت أن تدعك فريسة للموت. ألا تريدان أن تقومي بردّ الجميل إليها؟"

راقب وجهها بينما لحظة الحقيقة تفرض نفسها على عقلها، ولكن مثلما كان يعتقد هو فيها أصلاً، فإن كل ذرة ضمير عندها كانت قد زالت وتحلّلت منذ عهد بعيد.

"إنّ كل ما أريده هو أن أحيأ وأن أتنفس. وإذا كان هذا هو الثمن الذي تطلبه مني، فإنني جاهزة لدفعه."

"إذاً ستكونين أول إنسانٍ قد تمّ له الشفاء من مرض الإيدز."

"يستطيع أن يبقى حياً ليحكي حكايته؟"

أوما برأسه إيجاباً. "هذا صحيح. أنا وأنت سنكتب التاريخ."

لم يظهر عليها الكثير من شدة الإعجاب. "ما دام علاجك في هذه السهولة، لم لم يقم أحدهم باقتباسه عنك أو بسرقة منك؟"

"لا أحدٌ غيري يعرف مكان وجود الأرشيا الخصوصية النافعة بشكل طبيعي. صدّقيني أن هنالك أنواعاً كثيرة من الأرشيا، لكن هذا النوع وحده هو الذي يمكن أن يفيد."

تضيق عيناها الزيتونيتان. "لقد بتنا نعرف لماذا أريد أنا الإقدام على هذا العمل. ولكن ماذا عن بوافعك أنت؟"

"إنها أسئلة فضولية كثيرة بالنسبة لامرأة على فراش الموت."

"تبدو لي مثل رجلٍ يرغب في تقديم الإجابات."

"إن زوفاستينا عقبة في طريق آمالي."

"قم بشفائي وسأساعدك على إزالة هذه العقبة."

كان في ريبة من أمره حول تأكيدات هذه المرأة غير المشروطة. لكن إبقاءها على قيد الحياة يبدو أمراً منطقياً. وحققها يمكن توجيهه والاستفادة منه. لقد كانت خطته هي القيام باغتيال زوفاستينا. ولذلك فإنه كان قد ترك الحبل للفلورنسي على غاربه. لكنه ما لبث أن تراجع عن رأيه وخان شريكه في المؤامرة. فالاغتيال لن يؤدي سوى إلى جعلها شهيدة. أما إذلالها وتلطيف سمعتها، فتلك هي الطريقة الأفضل. والمرأة لها أعداء. لكن كل واحد منهم هو في خشية منها. ولعله الآن يستطيع أن ينفحهم بالشجاعة من خلال هذه المرأة ذات الروح الحاقدة، التي تحق الآن إليه. فلم تكن لا عصابة البندقية، ولا هو، لتهتم بمسألة الفتوحات العالمية. فالحروب باهظة التكلفة في غير وجه من الوجوه. وأسوأ وجوها هو إهدار الثروات والموارد القومية. والعصابة تريد عالمها الطوباوي الجديد مثلما هو الآن بالضبط، وليس مثلما تحلم به زوفاستينا وتراه. فما يريده هو لنفسه شخصياً هو مجرد كسب البلايين الوفيرة إضافة إلى التنعم بحياسة لقب الرجل الذي تمكن من قهر مرض فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب. شهرة كان قد تنعم بها من قبله كل من لويس باستور، وليتوس بولنغ، وجوناس سولك. والآن، جاء الوقت لكي يضاف إلى هذه المجموعة اسم جديد هو أنريكو فينسينتي.

وهكذا، فإنه قام بإفراغ محتويات الحقنة في مخرج أنبوب التغذية الاصطناعية. "كم هو الوقت الذي يحتاجه ظهور النتيجة؟" سأله بصوت مليء بالتوقع، وقد أشرق وجهها المجهّد.

"بعد ساعات قليلة ستشعرين بالكثير من التحسّن."



جلس مالون أمام جهاز الكمبيوتر، وفتش عن محرك غوغل على شبكة الإنترنت. وهناك وجد بعض المواقع الإلكترونية التي تتعاطى مع اللغة اليونانية

القديمة وقام في نهاية المطاف بفتح واحدٍ منها يقدم خدمات ترجمة. قام بطباعة الأحرف الإغريقية الستة KAIMA= فأدهشه لفظها ومعناها معاً.

"كلمة 'كلايمكس' في اللغة الإغريقية، تقابل كلمة 'لأَنَر' (سَلَم) باللغة الإنكليزية،" قال لهم.

فتُش عن موقعٍ آخر يقدم أيضاً تحويلاً للعبارات من لغةٍ لأخرى. قام بطباعة الأحرف نفسها من بين جدول الأحرف الهجائية الموفور فجاءه الجواب نفسه. وكانت ستيفاني لا تزال تحمل الشمعة التي لُفت عليها الرقاقة الذهبية.

"إن بطليموس،" قال ثورفالدسن، "قد تكبَّد الكثير من العناء كي يترك لنا هذه. فهذه الكلمة لا بدَّ من أن يكون لها شأن كبير في الموضوع." "وما الذي يحصل عندما نتَمَكَّن من فهم معناها؟" قال مالون. "ما هو وجه الأهمية في ذلك؟"

"وجه الأهمية،" قال صوت جديد، "هو أن زوفاستينا تقوم بالتخطيط لقتل ملايين البشر."

استدار الجميع فشاهدوا ميشنير واقفاً في الباب.

"لقد تركتُ فيكتور منذ لحظات في البحيرة. لقد أصيب بالذهول عندما عرف أنني أعرف عنه."

"يمكنني أن أتصوّر ذلك." قال ثورفالدسن.

أوما ميشنير مؤيداً. "لقد بحثتُ فتأكَّد لي أنه قد غادر اليايسة منذ مدة مضت."

أراد مالون أن يعلم، "كيف علَمت كاسيوبيا عن فيكتور؟" ثم خطر الأمر في باله فواجه ثورفالدسن. "لا بدَّ أنها المكالمة التي أجريتها معها عند رصيف الميناء لحظة وصولنا، حيث قمتُ بإخبارها."

أوما الدانماركيُّ إيجاباً. "إنها معلومات هي في حاجة إليها. لقد كنا محظوظين لأنها لم تقتله في تورسيلو. ولكن بالطبع، لم أكن أنا يومئذٍ أعرف شيئاً عنه."

"هل هنالك المزيد من مثل هذه الخطط كلما توغلنا قُدماً." قال مالون متوجهاً بتعليقه إلى دايفيس.

"إنني أتحمل الملامة بسبب ذلك، لكن الأمور بعد كل شيء، قد جرت جرياً حسناً."

"لكن ثلاثة رجال قد ماتوا."

لم يقل ديفيس شيئاً.

وقد أراد أن يعرف أيضاً. "وماذا لو أن زوفاستينا لم تصرَّ على اصطحاب رهينة معها لتأمين خروج آمنٍ لها من المطار؟"
"من حسن الحظ أن ذلك لم يحدث."

"يبدو لي أن سلوكك كان شديد الطيش والتهور." قال ذلك فيما بدا عليه القلق والغضب. "ثم ما دام أن فيكتور يعمل لمصلحتكم من الداخل فما الذي يجعلك غير عارفٍ ما إذا كان إيلي لوند لا يزال على قيد الحياة؟"

"تلك الحقيقة لم تكن ذات أهمية حتى يوم أمس عندما صار ثلاثتكم مشتركين في الأمر. إن لدى زوفاستينا معلماً يلقنُها، لكننا لا نعرف من هو. لكنَّ ثمة منطقاً يفترض أن يكون هذا الرجل هو لوند نفسه. وعندما أدرَكنا ذلك احتجنا إلى الاتصال بفيكتور."

"لقد قال فيكتور أن إيلي لوند قد كان حياً، لكن من المحتمل ألا يكون ما يزال على قيد الحياة حتى الآن." قال لهم ميشنير.

"إن كاسيوبيا لا تملك علماً بما قد يواجهها." قال مالون.

"لقد رتبت هي كل ذلك الترتيب بنفسها،" قالت ستيفاني. "ربما على أمل أن يكون إيلي ما يزال حياً."

ولم يكن يستسيغ سماع هذا الكلام لأسباب عديدة. هو غنيٌّ عن الاصطدام بأيٍّ منها في الوقت الراهن.

"يا كوتون،" قال ثورفالدسن. "لقد سألت منذ قليل عن وجه الأهمية لهذا العمل كُلِّه. ففي ما يتعدى الكارثة الواضحة التي يمكن أن تنشأ عن نشوب حرب

بيولوجية، فإنني أسأل: ماذا لو كان الترياق ليس سوى نوع من العلاج الموجود في الطبيعة؟ فالقدماء قد اعتقدوا هذا الاعتقاد. كما أن الإسكندر ذاته هكذا اعتقد. وكذا المؤرخون الذين كتبوا هذه المخطوطات. فماذا إذا كان هنالك من شيء؟ لست أعرف لماذا. لكن زوفاستينا تريد الحصول عليه. وإيلي أيضاً يريد الحصول عليه، وكذلك هو الحال مع كاسيوبيا.

بقي متشككاً. "لكننا لا نكاد ندري شيئاً."

أشارت ستيفاني بالشمعة التي في يدها. "لكننا نعلم أن هذه الأحجية صحيحة."

ولقد كانت محقة في قولها هذا. وكان عليه الاعتراف أنه بات ينتابه الشعور بالفضول. تلك الشعور الذي - وليسامحه الله - كان أبداً يبقيه في حمأة المتاعب.

"كما أننا نعرف أن ناومي ميتة"، قالت.

وكان هو بالطبع لم ينس.

حق من جديد نحو السيتايل. ماذا يكون معنى كلمة 'سَلْم'؟ هل هي موقع؟ إذا كان الأمر هكذا، فإن ذلك لا بد من أن يكون له مزيد من المعنى وايلدلالة في أيام بطليموس. فلقد عرف مالون أن الإسكندر الكبير قد أصر على أن تُرسم خرائط دقيقة لمملكته. ولقد كان علم رسم الخرائط لا يزال علماً ناشئاً في ذلك الوقت. لكنه كان قد رأى استنساخاً لتلك الخرائط القديمة. لهذا، فإنه قرر أن يبحث في شبكة الإنترنت. مضت عشرون دقيقة من البحث دون أن يقع على شيء يفيد ما قد تكون تعنيه كلمات ladder, Klimax, KΛΙΜΑΞ (سَلْم).

"قد يكون هنالك مصدر آخر"، قال ثورفالدسن. "فإيلي لديه منسك في جبال الباميرز، كوخ يذهب إليه للعمل والتفكير. لقد كانت كاسيوبيا قد أخبرتني عن ذلك المكان. كما أنه يحتفظ بكتبه وأوراقه في ذلك المنتجع. إن لديه مجموعة محترمة عن الإسكندر. كما أنها ذكرت أنه يوجد لديه الكثير من الخرائط التي تعود لأيام الإسكندر."

"لكن ذلك المكان واقع ضمن حدود الاتحاد." أوضح مالون. "وأنني أشك في أن زوفاستينا سوف تقوم بمنحنا تأشيرة دخول."

"كم هي بعيدة عن الحدود؟" سأل دايڤيس.

"عشرون كيلومتراً."

"يمكننا الدخول من الحدود الصينية إذاً. فالصينيون يتعاونون معنا في هذه المسألة."

"وما هي 'هذه المسألة؟' سأل مالون. "وما الذي يدعونا حتى إلى إقحام أنفسنا في هذا الأمر؟ ألا تملكون وكالة الـ: سي. آي. إيه. وعدداً وفيراً مما عداها من وكالات الاستخبار؟"

"في الواقع يا سيد مالون أنك كنت قد قمت بتوريط نفسك، مثلما فعل ذلك أيضاً كلٌّ من ثورفالدسن وستيفاني. ففي الظاهر المعلن للأمر إن زوفاستينا هي الحليف الوحيد لنا في تلك المنطقة. وهكذا، ولأسباب سياسية لا يجوز لنا أن نرى أنفسنا في موقف المواجهة معها. أمّا تحريك العملاء المرتزقة السريين ضدها، فعمل إنما ينطوي على المجازفة بخطر انكشاف أمر هؤلاء العملاء. وحيث أننا نملك فيكتور في داخل مؤسستها، فقد كنا نعرف بمعظم تحركاتها. لكن الأمور تتفاقم الآن. وإني أتفهم في هذه اللحظة، المأزق الذي تقع فيه كاسيوبيا."

"في الحقيقة أنك لا تتفهم شيئاً. لكن مصير كاسيوبيا هو السبب الذي يدعوني إلى البقاء في هذه الحلبة. وإني لذهاب وراء زوفاستينا."

"إنني أفضل لو أنك تذهب إلى الكابينة وترى ماذا يوجد فيها."

"هذا هو الشيء الجميل في أن يكون المرء متقاعداً. فالآن يمكنني أن أفعل ما يحلو لي فقط." استدار نحو ثورفالدسن. "أنت وستيفاني تذهبان إلى الكوخ."

"إنني أوافقك الرأي،" قال صديقه. "أمّا أنت فتدبر أمرها."

حقّق مالون نحو ثورفالدسن. صحيح أن الدانماركي كان قد عاضد كاسيوبيا وتعاون مع الرئيس في مسألة جرّهم وتوريطهم جميعاً. لكن صديقه هذا لا يستسيغ فكرة أن تكون كاسيوبيا متروكة هناك وحدها.

"لا شك في أن لديك خطة،" قال ثورفالدسن. "أليس كذلك؟"

"أعتقد أن لديّ خطة نعم."

الفصل الثالث والستون

الساعة 4:30 فجراً.

شربت زوفاستينا من قارورة ماء معدنية تاركة لرفيقة سفرها رفاهية التخبُّط المتماذي في أفكارها المبلبلة. طارا في صمتٍ لأكثر من ساعة من الزمن بعد أن كانت قد عذبت كاسيوبيا فيت حينما أبقتها حائرة حول مدى احتمال أن يكون إيلي لوند لا يزال حياً. هل من الأكيد أن جلادتها تعتبر نفسها في صدد أداء رسالة؟ وهل أنها تتعلق بأمر شخصي؟ أم مهني؟ هذا ما لا بد من الكشف عنه.

"كيف يتمُّ لكِ وللدانماركي أن تعلمنا بشؤوني؟"

"إن أناساً كثيرين يعلمون بشؤونك."

"ما دام أنهم يعرفونها إلى هذه الدرجة من الوضوح، فلمَ لمَ يَقم أحدهم بمحاولة ردعي؟"

"ألا ترين أننا ربما صرنا على وشك القيام بذلك؟"

ضحكت. "جيش من ثلاثة أشخاص؟ أنتِ والرجل العجوز، والسيد مالون؟"

"بل وزارة العدل الأمريكية."

لقد افترضت أن ما حدث في أمستردام قد استرعى اهتماماً رسمياً، لكن الموقف لم يكن يستحق حجماً كبيراً من الاهتمام. فكيف أمكن للأمريكيين أن يتحركوا إلى ساحة الحدث بمثل هذه السرعة، بل كيف تمَّ لهم أن يعرفوا أنها آتية إلى البندقية؟ أيكون ميشنير هو المصدر؟ هذا احتمال ممكن. وزارة العدل الأمريكية. الأمريكيون. مشكلة أخرى التمتعت في ذهنها: فينسينتي.

"لست تملكين فكرة،" قالت فيت لها، "كم نحن عارفون بأمورك."

"لستُ في حاجة لكي يكون لديّ فكرة. فما أنتِ الآن تحت يدي."

"لكنني بيدق قابل للتضحية به."

راودها شكٌ حول صحة هذا الاعتراف. "لقد أعلمني إيلي عن كثيرٍ من الأشياء. علمني أشياءٍ ما اعتقدتُ مرةً أنها توجد. لقد فتح ناظريّ على الماضي. وإنني أشكُّ في أن يكون قد فتح عينيك أيضاً."

"لن تنفعكِ هذه الحيلة. فلن تفلحي في جعله طعاماً لاصطيادي" إنها في حاجة لدفع هذه المرأة إلى الانهيار. لقد كان أساس استراتيجيتها العامة يقضي بأن تتحرك في سريةٍ تامة. فأنكشاف أمرها لن يعرضها إلى الفشل فحسب، بل سيجلب عليها الهجمات المضادة. وها هي كاسيوبيا فيت تمثلُ الآن أسرع الطرق وأسهلها للتأكد من مدى حجم مشكلتها الراهنة.

"لقد ذهبتُ إلى البندقية بحثاً عن إجابات،" قالت. "وكان إيلي هو الذي وجَّهني إلى هناك. لقد اعتقد أن الجثمان المدفون في الكاتدرائية قد يقود إلى مكان القبر الحقيقي للإسكندر الكبير. وهذا شيء قد يكون فيه منفعة حتى بالنسبة إليه."

"إنها أحلام."

"لكنه حلمٌ كان قد اشترك فيه معكِ، أليس كذلك؟"

"وهل هو حي؟"

أخيراً تلقت سؤالاً مباشراً. "لن تصدقيني مهما قلت لك."

"جربيني."

"إنه لم يمت في حادث الحريق الذي استهدف منزله."

"هذا ليس جواباً."

"لكن هذا القدر من الإجابة هو كلُّ ما ستحصلين عليه."

هبطت الطائرة بعدما صدم اضطرابٌ في ضغط الهواء جناحيها، وتابعت المحركات أنينها الدائم تتقدم بهم أبعد فأبعد في اتجاه الشرق. وكانت كابينة الطائرة

خالية من سواهما. فكلا حارساها اللذين رافقاها في طيرانها إلى البندقية قد قُتلا هناك. وقد صار جسداهما الآن مشكلة، على ميشنير وكنيستة وحدهما أمر تدبُّر أمرها. فيكتور وحده هو الذي استطاع أن يجمع إلى الوفاء لها حسن الأداء في عمله، مثل عاداته.

لقد كانت هي ورهينتها متشابهتين إلى حدٍّ كبير. فكلتاهما مهتمة بشخصٍ مصابٍ بعدوى فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب. لقد كانت كاسيوييا فيت مهتمة إلى درجة المجازفة بحياتها. أما زوفاستينا فقد كانت مهتمة إلى درجة جعلتها تقامر بالقيام برحلة مثيرة للتساؤلات إلى البندقية، وإلى درجة وضع نفسها في مخاطرة سياسية وجسدية. هل هو ضربٌ من الجنون؟ ربما.

لكن على الأبطال في بعض الظروف أن يكونوا مجانين.

WWW.REWITY.COM
RAYAHEEN

الفصل الرابع والستون

اتحاد آسيا الوسطى
8:50 صباحاً

انجر فينسينتي في المختبر الذي كان قد بناه تحت بيته الكبير ولم يكن أحدٌ قطُ بجانبه سوى غرانت ليندسي. وكان الأخير قد أتى مباشرة من الصين بعد أن صفى عمله هناك. فمئذ سنتين كان فينسينتي قد ضمَّ ليندسي إليه كرجل يضع فيه ثقته. ذلك بعدما دعتَه الحاجة إلى شخصٍ ما، يكون في الواجهة من أجل الإشراف على جميع الاختبارات التي تجري على الفيروسات ومضاداتها. شخص يستطيع أيضاً أن يحسن تهئية زوفاستينا واسترضائها.

"كيف هي الحرارة؟" سألَه.

فحص ليندسي القراءات الرقمية. "مستقرة."

كان المختبر هو ميدان فينسينتي الذي لا يَنازَع فيه. أما مختبره فمساحة ساكنة معقمة تغلفها الجدران المطلية باللون الأصفر الشاحب، ويكسو أرضها حصيرٌ من المطاط الأسود اللامع. وفي وسط المساحة امتدت سلسلة متصلة من الطاولات المصنوعة من الستاينلس ستيل في خطّين متوازيين. أمّا القوارير والأواني وكركات التقطير، والأنابيب، والسّحّاحات، فقد نُصِّدت جميعاً فوق مناضد معدنية تنتصب كلٌّ منها فوق مِحْمٍ للتعقيم البخار. ولم يغب عن المختبر تجهيزات خاصة للتقطير، وجهاز طردٍ مركزيّ، وموازن دقيقة التحاليل، ومحطتا كومبيوتر طرفيّتان. هذا، وتلعب المعايير الرقمية دوراً أساسياً في الاختبارات التي يجريها فينسينتي في مختبره، وهو أمر شديد الاختلاف عما كان يقوم به أيام العراقيين، عندما كانت التجربة والخطأ تكلف ما تكلفه من الوقت والمال والأخطاء. فبرامج اليوم المتطورة

الدقيقة، قادرة على استنساخ، ومحاكاة، معظم النتائج التي يمكن أن تنتج عن أي تأثير كيميائي أو بيولوجي، ما دام أن هنالك مثبتات. وقد قام ليندسي خلال العام المنصرم بعملٍ باهرٍ عندما نجح في إيجاد مثبتات للاختبارات السبرانية التي تحاكي العلاج العتيد ZH.

"إن المحلول محفوظ في درجة حرارة الغرفة العادية،" قال ليندسي. "مع ذلك فإن الفيروسات تسبح بداخله في كل عفوانها، إنه لأمرٌ مدهش."

فالبركة التي وجد فيها الأرشيا إنما كانت تتغذى بحرارة بركانية. فحرارتها كانت تقارب المئة درجة فهرنهايت. فإنتاج تريليونات الأعداد من البكتيريا سيكون أمراً تستدعيه الحاجة. والقيام بشحن هذه البكتيريا إلى جميع أنحاء العالم على هذه الدرجة العالية ذاتها من الحرارة يبدو أمراً مستحيلاً. وهكذا، فإنهما غيراً هذه الأرشيا عن طريق أقلمتها ببطءٍ للعيش في بيئاتٍ أقل حرارة. واللافت أن حركة البكتيريا تحت حرارة الغرفة العادية قد تبين أنها لم تتأثر إلا لנاحية الإبطاء في السرعة، سرعة تكاد تلامس في بطئها درجة الجوع. لكنها عندما تنتقل إلى داخل مجرى الدم عند درجة حرارة 98.6 فهرنهايت فإن سرعاتها لا تلبث أن تنشط فوراً من جديد.

"إن التجربة الإكلينيكية التي فرغتُ منها منذ بضعة أيام،" قال ليندسي، "قد أكدت لي أن هذه البكتيريا يمكن تخزينها تحت درجة حرارة الغرفة العادية لمدة طويلة. فلقد احتفظتُ بهذه العينة منذ ما يزيد عن أربعة أشهر. مع ذلك، فإن قدرتها على التكيف لتدهشني."

"وهذا هو سبب احتفاظها ببقائها منذ بلايين السنين، لكي تنتظر مصادفة عثورها عليها."

ربض بالقرب من إحدى الطاولات، ومدّ يدين لحميتين، عليهما قفازان، إلى داخل حاوية مُحكمة الإغلاق. وكان الهواء يئزُّ في أعلى السقف بعد دفعه من خلال صفائح تحتوي على جهاز تنقية دقيقٍ لالتقاط الهباءات والشوائب. وكان لهدير الهواء الرتيب تأثير يقارب القدرة على استحضار النعاس. حدّق من خلال غطاء من الزجاج البلاستيكي الشفاف وعالج بإتقان الوعاء المقعّر الذي يصعد منه البخار. وضع عينة من مزرعة فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب، الفاعل، فوق زجاجة منزقة،

خالطاً تلك النقطة بنقطة أخرى موجودة على الزجاجاة من قبل، ثم قام بتثبيت الزجاجاة المنزلقة تحت عدسة مجهر ثابت في طاولة المختبر. حرّر كفيه من القفازين البلاستيكيين المتعرقين وركّز بؤرة النظر فوق العينة المراد فحصها.

بعد مناورتي تثبيت، وصل إلى قوة درجة التركيز الصحيحة وبعد ذلك كانت نظرة منه أكثر من كافية.

"لقد ذهب الفيروس في خبر كان. بمجرد التلامس تقريباً. بدا كما لو أن البكتيريا كانت متأهبة لالتهم الفيروس."

لقد عرف أن التعديلات البيولوجية إنما هي المفتاح إلى النجاح. إذ أنه منذ بضع سنوات كان مكتب محاماة في نيويورك قد أفاده، غيب استشارة قانونية، أن معدناً جديداً قد يكتشف في الطبيعة، أو نباتاً جديداً يكشف عنه لأول مرة في القفار، لم يكن يُعتبر في نظر القانون شيئاً يستحق أن يكون اختراعاً مسجلاً. فإن آينشتاين مثلاً، لم يستطع أن يسجل حق اختراع معادلته الرياضية الشهيرة ($E=mc^2$)، ولا استطاع نيوتن أن يستأثر ببراءة اختراع قانون الجاذبية. فمثل هذه الاكتشافات لم تكن سوى مجرد تجليات للطبيعة، وهي ملكٌ شائعٌ متاحٌ للجميع. أمّا النباتات الخاضعة لهندسة وراثية جينية، والحيوانات المتعددة الخلايا التي قام بتخليقها الإنسان، وقام بتعديل هندستها الجينية، وكذلك بكتيريا الأرشيا التي حولها الإنسان عن هيئتها التي توجد بها في الطبيعة، فهي كلها أشياء قابلة لاكتساب حقوق الاختراع عليها.

وكان قد هاتف مكتب المحاماة العتيد ذاته في المدة الأخيرة وكلفه الشروع في معاملات تسجيل براءة الاختراع. وكانت موافقة مكتب إدارة الدواء والغذاء (FDA) أمراً ضرورياً أيضاً. لكن فترة إثنتي عشرة سنة إنما هي المدة المطلوبة لمحلول تحت الاختبار لكي يجتاز عتبة اعتباره مجرد محلول مخبري إلى اعتباره عقاراً يمكن وضعه على أرفف الدواء وفقاً لنظام إجازة الأدوية الأمريكي الذي هو النظام الأشد صرامة في العالم. وكان هو يعرف الاحتمالات التي قد تترتب على ذلك. فمن بين أربعة آلاف مركب جرت غربلتها في مختبرات مكتب الغذاء وايلدواء الأمريكي، فإن خمسة منها فقط قد سُمح لها بأن تكون صالحة للاختبار على الإنسان. ثم أن واحدة منها فقط قد حازت على مصادقة نهائية. ومنذ سبع سنوات كان نظام عمليات جديدة لاختبارات سريعة تجري على مستحضرات تستهدف مكافحة الأمراض المهددة

للحياة البشرية قد أجز، وكانت العلاجات المتجهة إلى مكافحة مرض الإيدز تقع في صميم تلك الفئة من الاختبارات. ومع أن مدة ستة إلى تسعة أشهر تعتبر مدة قصيرة لإجازة الدواء وفق معايير مكتب الغذاء وايلدواء. فإن المعايير المعتمدة لمثل هذه المصادقة في أوروبا تعتبر أيضاً قاسية وصارمة وإن بدرجة أقل من مكتب الغذاء وايلدواء الأمريكي. إلا أن الأمم الأفريقية والآسيوية، حيث توجد معظم المشكلة لمرض الإيدز، لا تقتضي أي مصادقات حكومية.

وهكذا، فإن هذه الأمكنة هي المواضع الصحيحة التي ينبغي له البدء في تسويق دوائه فيها.

إنه سيدع العالم بأسره يرى كيف أن علاجه يشفي مرضى الإيدز في آسيا وإفريقيا بينما المرضى في أوروبا وأمريكا يموتون. ولا بد ساعتئذٍ من أن تُمنح له الموافقة دون أن يكلف نفسه أمر السعي وراءها.

"لم أقم بسؤالك مرة." قال ليندسي. "أما أنت فلم تتبرّع من تلقائك بجواب. لكن أين استطعت أن تجد هذه البكتيريا؟"

لقد انتهى وقت السكوت. وها هو الآن في حاجةٍ لوضع ليندسي في مجلس الإدارة بشكل كامل. لكن الإجابة عن السؤال الذي يسأل 'أين' كان يعني الدخول في نقاشٍ حول 'متى'.

هل سبق لك وأن فكرت في قيمة شركة تقوم على إنتاج الكبابت الإنكليزية قبل أن ينتشر وباء فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب؟ بكل تأكيد كان ثمة سوق معين لهذه السلعة. ولكن كم تراه كان يبلغ حجم سوقها؟ بضعة ملايين في السنة؟ ولكن إلى أين طارت أرقام هذا السوق بعدما انتشر وباء الإيدز؟ إن البلايين من هذه الكبابت الواقية صار يتم تصنيعها وبيعها في جميع أرجاء العالم. وما قولك في الأدوية التي تعالج أعراض المرض أيضاً؟ إن معالجة مرض الإيدز هي ماكينة صناعة عملة، حقيقية. فالتداوي بكوكثيلٍ علاجيٍّ مؤلفٍ من ثلاثة عقارات يكلف مبلغاً يتراوح من إثني عشر ألفاً إلى ثمانية عشر ألفاً من الدولارات الأمريكية في السنة. فإذا ضربت هذا العدد بعدد الملايين من المصابين بالعدوى حول العالم فإنك تكون تتكلم على بلايين الدولارات التي تُنفق سنوياً دون أن تكون قادرة على شفاء أحد.

"ثم فكر في أرباح التوريدات، توريدات الأشياء من أمثال القفازات البلاستيكية، العباءات البلاستيكية، الإبر المعقمة. هل لديك فكرة عن عدد الملايين من الإبر المعقمة التي جرى شراؤها وتوزيعها من أجل وقف انتشار فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب بين مستعملي العقاقير المخدرة؟ وهي مثلها في ذلك مثل الكبابيت الواقية، فإن أسعارها قد اخترقت كل سقف سابق لها. أما مجال الربح هنا فهو مفتوح ولا نهاية له. فبالنسبة إلى شركة متخصصة في إنتاج الدواء مثل فيلوجين، سيكون فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب منجماً للذهب وميزاباً للنقد السائل. فخلال السنوات الثماني عشرة الماضية، حُلِّقَت أعمالنا التجارية في الفضاء. فالمصنع الذي نملكه لصناعة الكبابيت الإنكليزية تضاعف حجمه ثلاث مرات. وقد اخترقت مبيعاتنا كل سقف سابق لها بالنسبة إلى جميع منتجاتنا. لقد قمنا بتطوير عقارين لمعالجة أعراض المرض. وقد كان مبيعها جيداً. ومنذ عشر سنوات قمت بطرح أسهم الشركة أمام مساهمة الجمهور ورفعت قيمة رأسمالها كما استخدمت الأرباح التي جناها توسُّع مبيعات قسمي التوريدات الطبية، والأدوية العلاجية من أجل تمويل المزيد من أعمال التوسُّع. فاشتريت شركة لانتاج مواد التجميل، وأخرى لصناعة الصابون، وسلسلة من المخازن التجارية الكبرى، وشركة لصناعة الأطعمة المجمدة، وذلك لأنني عرفتُ أن فيلوجين سوف تتمكن يوماً من تسديد الديون المترتبة على أثمان شراء كل هذه الأعمال."

"وكيف استطعت أن تعرف ذلك؟"

"لقد عثرتُ على البكتيريا منذ ثلاثين سنة تقريباً. ثم احتفظتُ بسرِّ علاج فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب. مع علمي المسبق أنني أستطيع إطلاق هذا السرِّ في أيِّ وقتٍ أشاء."

لاحظ كيف يتسرَّب اليقين إلى أذني محدثه.

"ولم تقم بإخبار أحدٍ أبداً؟"

"لا لم أخبر مخلوقاً قط." أراد أن يختبر ما إذا كان ليندسي رجلاً عديم الأخلاق كما كان يظنه دائماً. "هل يشكُّ ذلك مشكلة لك؟ لقد قمتُ بكلِّ بساطة، بترك السوق يتنامى."

"هذا مع العلم أنه ليس لديك حرجٌ أو انحياز، فهو في نهاية الأمر مسار سيئٌخذه المرض لنفسه حول العالم. فيما أنت عارفٌ أن علاجك يبقى هو العلاج الوحيد القادر على الشفاء التام. وهو الطريقة الوحيدة لاجتثاث فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب. وحتى على افتراض أن أحداً قد وُفق إلى العثور على علاج من شأنه أن يقمع المرض، فإن علاجك سيبقى هو العلاج الأكثر فعالية والأسرع أداءً، والأسلم عاقبة، وهو فوق ذلك كله لا يكلف سوى دريهماتٍ قليلة لإنتاجه."

"لقد كانت هذه هي فكرتي."

"ألم تكن معرفتك بموت ملايين البشر لتحرك فيك شعرة؟"

"وهل تظن أنت أن العالم بأسره يابئٌ لأمرٍ مرض الإيدز؟ كن واقعياً. فثمة الكثير من الكلام والقليل من الفعل حول هذا المرض. إنه مرضٌ فريدٌ من نوعه. فهو يقتل بشكلٍ أساسيٍّ أبناء العرق الأسود، والمثليين، ومستعملي المخدرات. وقد تسبَّب الوباء في تدحرج جذع كبيرٍ عَفِن، وفي كشف النقاب عن حياة موبوءةٍ متمعجةٍ تضجُّ تحته، وهي تشكّل مدار البحث الآن في وجودنا - الجنس، والموت، والسلطة، والمال، والحب، والحق، والرعب، في كل طريقة تقريباً يمكن مقارنة مرض الإيدز، أو تصوُّره، أو فهمه، أو تخيله، أو البحث فيه، أو تمويل علاجه، من خلالها لقد بات هذا المرض أكثر الأمراض أهميةً سياسية."

هنا التَمَعَ في ذهنه ما كانت قد قالت له كارين وايلد في وقتٍ سابقٍ. "إن المرض لمّا يبدأ بعدُ بقتلٍ من يجب عليه أن يقتلهم."

"وماذا عن الشركات الدوائية الأخرى؟" قال ليندسي. "ألم ينتبكِ الخوف من أن يوفَّق أحدهم إلى العلاج؟"

"إنها مجازفةٌ بالطبع، لكنني أبقيت عينيَّ مفتوحتين على منافسينا. ودَعْنَا نُقَل: إن أبحاثهم لم يأتِ منها سوى القليل. عدا بعض الأخطاء." كان يشعر بمعنوياتٍ جيدة. فبعد كل شيء، إنه سعيدٌ بالكلام على هذا الأمر هذه المرة. "أتريد أن ترى أين تعيش هذه البكتيريا؟"

اتَّقَدَت عينا الرجل. "أهي تعيش هنا؟"

أوماً بالإيجاب. "بل في مكانٍ قريبٍ منّا."

الفصل الخامس والستون

سمرقند

الساعة 9:15 صباحاً.

اقتيدت كاسيوبيا من الطائرة بواسطة رجلين من حُرَّاس زوفاستينا. لقد قيل لها أنهما سيصطحبانها إلى القصر الرئاسي، حيث سيتم احتجازها هناك.

"أنت تعرفين،" قالت لزوفاستينا، من قرب الباب المفتوح، "أنك تقامرين للحصول على المتاعب."

ولم تكن زوفاستينا لترغب، بكل تأكيد، أن تخوض في هذا الحديث هنا على أرض المطار في حضور طاقم طائراتها، وعلى مقربة من حُرَّاسها. أمَّا في قمرة الطائرة حيث كانتا وحدهما، فقد كان ثمة وقت للحديث ومجالاً له. لكن كاسيوبيا قد بقيت صامته عن سابق تصميمٍ طيلة الساعتين الماضيتين من الرحلة.

"إن المتاعب هي طريقةٌ من طُرُق العيش هنا." قالت لها زوفاستينا.

وعندما تمَّ اقتيادُها إلى مقعد السيارة الخلفي وأطبقتِ الأصفاد على معصميهما بعد ثني ذراعيها إلى ما وراء ظهرها، فإن كاسيوبيا قررت أن تغرز سكينها. "لقد كنت مخطئة حول العظام."

بدت زوفاستينا وكأنها تفكّر في أمر هذه المقارعة. لقد كانت رحلتها إلى البندقية فاشلة إن لناحية الأهداف وإن لناحية النتائج، لذلك لم يكن تقدُّم زوفاستينا منها لتسألها "بأيِّ معنى؟" أمراً مفاجئاً.

أنين محركات الطائرة النفثة ونسيم الخريف القارس، حرَّكا الهواء العابق بالدخان. جلست كاسيوبيا بهدوء في المقعد الخلفي وهي تحدّق خلال زجاج السيارة

الأمامي. "كان ثمة شيءٌ عليكِ إيجاده." التقى وجهها بوجه رئيس الوزراء. "لكنكِ قد عميت عنه."

تجاهلت هذا التهديد. "إذا شئتِ حقاً حلّ اللغز، فعليكِ القبول بمساومة." إن هذا الشيطان لا تصعب قراءته. فبكل تأكيد كانت زوفاستينا تشكُّ في أنها تعرف بعض الأشياء. وإلا لماذا أصرت على اصطحابها معها؟ ولقد بقيت كاسيوبيا حريصةً حتى الآن، نظراً لمعرفة أنها لا قبل لها بالإفصاح عن الكثير. إذ أنه بعد كل شيء، تبقى حياتها رهونةً بمقدار ما تستطيع حجبهُ من معلوماتٍ بطريقة مؤثرة.

تقدّم أحد رجال الحرس وهمس في أذن زوفاستينا. أصغت رئيس الوزراء. ثم لاحظت كاسيوبيا كيف أن وقع الصدمة قد ارتسم على وجهها. ثم ما لبثت زوفاستينا أن أومأت برأسها وانصرف الحراس في سبيلهم. "هل أنت مأزومة؟" سألتها كاسيوبيا.

"إنها المتاعب المترتبة على كون المرء رئيساً للوزراء. أمّا أنا وأنتِ فسيكون لنا حديث لاحق." قالت هذا ومشّت.



كان الباب الخارجي للمسكن مفتوحاً. ولم يلحق أذىً بأي شيءٍ. ولم يكن ثمة دليلٌ على اقتحامٍ قد جرى بالعنف. وفي الداخل وقف في انتظارها رجلان من رجال عصابة حرسها المقدسة. حملت زوفاستينا في أحدهما وقالت، "ما الذي جرى؟" "لقد أطلقت النيران على رأس كلٍّ من حارسينا في وقتٍ ما، من الليلة الماضية. وقد اختفت كارين وايلد وممرضتها. أمّا ثيابهما فلا تزال هنا، ولقد كان منبّه ساعة الممرضة مُعدّاً لإطلاق جرسه عند الساعة السادسة صباحاً. وما من دليل على عزم المرأتين على الانسحاب طوعاً."

عادت إلى غرفة النوم الرئيسية. كان جهاز التنفس الاصطناعي يقبع صامتاً، وفيما كيس المصل والتغذية عبر الوريد، غير موصولٍ إلى يد أي مريض. هل تكون

كارين قد هربت؟ وإلى أين يمكنها أن تذهب؟ عادت إلى الردهة وسألت الحارسين: "هل من شهود عيان؟"

"لقد سألنا المقيمين في المساكن الأخرى. لكن أحداً لم يرَ أيَّ شيء." لقد حصل كل ذلك أثناء غيابها. وهذا أمر لا يمكن له أن يكون قد حدث بفعل الصدفة. قررت الرجوع إلى حديقها. تقدمت نحو أحد أجهزة الهاتف الموجودة في البيت وطلبت رقم سكرتيرتها الخاصة. أملت عليها كل ما تريده منها وانتظرت ثلاث دقائق حتى عادت المرأة إلى الهاتف وقالت: "لقد دخل فينسينتي حدود الاتحاد في الليلة الماضية عند الساعة الثانية وايلدقيقة الأربعين من بعد منتصف الليل. جاء في طائرة خاصة واستعمل تأشيرة دخول الحدود المفتوحة."

كانت لا تزال تعتقد أن فينسينتي يقف وراء محاولة اغتيالها الفاشلة. ولا بدّ أنه قد عرف أيضاً أنها قد غادرت الاتحاد. فمن الواضح أن حكومتها تشكو من الكثير من ثغرات التسرب الأمني - وإن هنريك ثورفالدسن، وكاسيوبيا فيت هما خير شاهد على ذلك - ولكن ما العمل مع هذه الأشياء؟

"يا دولة الرئيس،" قالت سكرتيرتها على الخط، "لقد كنتُ على وشك محاولة البحث عن مكان وجوبك. فثمة ضيفٌ ينتظرك."

"هل هو فينسينتي؟" سألت بشيء من السرعة.

"بل أمريكي آخر."

"هل هو السفير؟" لقد كانت سمرقند مرصّة بالسفارات الأجنبية. وكثير من ساعات برامج أيامها كانت مليئة بالزيارات التي يقوم بها إلى قصرها عدد مختلف من ممثلي تلك السفارات.

"إنه إدوين دايفيس، المستشار المعاون للرئيس الأمريكي لشؤون الأمن القومي. لقد دخل البلاد منذ بضع ساعات مستعملاً جواز سفره الدبلوماسي."

"ودون إعلامٍ مسبق؟"

"لقد ظهر بكل بساطة على أبواب القصر سائلاً إجراء لقاءٍ معك. وهو يرفض الإفصاح عن مهمته لأيّ من الحاضرين هنا."

وهذه أيضاً لا يمكن أن تكون مجرد صدفة.

"سوف أكون هناك بعد وقتٍ قصير."

الفصل السادس والستون

سمرقند

الساعة العاشرة والنصف صباحاً.

شرب مالون علبة كوكاكولا لايت، وراقب طائرة لير 36 أي النفاثة تقترب من مدرج الهبوط. وقد كان مطار سمرقند الواقع شمالي المدينة يتألف من مرفق ذي مهبط واحد، يقوم ليس بتأمين الخدمة للطيران التجاري فحسب، بل للطيران العسكري والخاص أيضاً. وكان قد سبق كلاً من فيكتور وزوفاستينا بالوصول إلى المدينة عائداً من إيطاليا. والشكر في ذلك يعود لطائرة الـ: أف 16 إي النفاثة من طراز سترايك إيغل، وهي التي كان الرئيس دانيالز قد أمر بوضعها تحت تصرفه. فقاعدة أفيانو الجوية التي تبعد خمسين كيلومتراً عن البندقية كانت على مجال قريب منه بالطائرة العمودية. أما الرحلة شرقاً، فالفضل يعود فيها إلى هذه الطائرة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت والتي قد تزيد عن ألف وثلاث مئة ميل في الساعة. فبفضل هذه الطائرة لم تستغرق رحلته سوى ساعتين. أما طائرة زوفاستينا التي هي من طراز لير جت النفاثة، التي يراقب هو الآن هبوطها، فقد احتاجت رحلتها إلى ما يقارب الخمس ساعات.

طائرتا أف 16 كانتا قد وصلت إلى مطار سمرقند أيضاً ودون سابق علم. ذلك لأن طائرات الولايات المتحدة تملك حق هبوط غير مشروط في جميع مطارات وقواعد الاتحاد الجوية. ففي ظاهر الأمر، إن الولايات المتحدة هي دولة حليفة. لكنه كان يعلم أن هذا التصنيف هو تصنيف متلاشٍ في هذا الجزء من العالم. لقد كانت الطائرة المقاتلة الأخرى قد حملت إدوين دايفيس الذي كان الآن قد أدرك القصر الرئاسي. ولم يكن الرئيس دانيالز يحب إقحام دايفيس، إذ كان يفضل إبقاءه على مسافة ما، من هذا الأمر. لكنه عاد وفكر في تعقّل أن مالون لن يقبل بكلمة "لا"

على أساس أنها جواب. هذا إلى جانب أن الرئيس قال متفكهاً إن الخطة بكاملها لا تحوز سوى على عشرة بالمئة من الحظ بالنجاح في أي حال. فليكن ما يكون.

احتسى ما تبقى له في قعر عبوة الكوكاكولا، وقد وجد أن مذاقها ضعيف بالقياس إلى ما يماثلها في أمريكا، لكن لا بأس به مع كل ذلك. وكان قد غفا ساعة من الزمن أثناء الرحلة التي هي رحلته الأولى في طائرة مقاتلة منذ عشرين سنة. لقد كان قد تلقى تدريباً على قيادة الطائرات العسكرية في وقت مبكر من خدمته العسكرية في سلاح البحرية. ولقد كان ذلك قبل أن يصبح محامياً، ثم ينتقل إلى وظيفة محام عام في مكتب المدعي العام. وكان أصدقاء وإيلده في القوات البحرية هم الذين أشاروا عليه بالقيام بهذه النقلة.

وإيلده!

أجل وإيلده الذي كان ضابطاً كبيراً في البحرية إلى أن جاء يوم من أيام أغسطس/آب غرقت فيه الغواصة التي هي تحت إمرته. ولقد كان مالون يومها لا يزال في العاشرة من عمره. لكن ذكرى وإيلده كانت تجلب وخزة من الحزن. ومع مجيء الوقت الذي تطوَّع فيه في البحرية، كان معاصرو وإيلده قد ترقُّوا إلى مراكز قيادية عالية. وكان لديهم خطط لمساعدة ابن زميلهم السابق فورست مالون. وهكذا، وبدافع من احترامه لهم فقد قام بعمل كل ما قد طُلب منه عمله وانتهى به الأمرُ كعميلٍ يعمل في فرقة ماجيلان بيلييه.

ولم يندم مرة على الخيارات التي اتخذها. وكانت خدمته في وزارة العدل الأمريكية خدمة مشهودة لا تُنسى. فحتى بعد تقاعده، فإن العالم لم يتجاهله. من المحامين، إلى مكتبة الإسكندرية، والآن إلى ضريح الإسكندر الكبير. هز رأسه. إنها الخيارات. خيارات على كل إنسان أن يختارها لنفسه.

مثل فيكتور، هذا الرجل الذي يترجّل الآن من طائرة لير النفثة مخبرٌ حكوميّ، تجنيد ارتزاقِي.

مشكلة.

رمى علبة الكوكاكولا في سلة المهملات وانتظر نزول فيكتور إلى الباحة.

وكانت طائرة من طراز أواكس إي 3 تحوم دائماً في أجواء الشرق الأوسط، وقد تتبعت طائرة الـ: لير النفّاثة من البندقية. وها هو مالون يعلم الآن موعد وصولها على وجه الدقة.

بدا شكل فيكتور كما رآه في الكاتدرائية، وجهٌ قشْفٌ، وثيابٌ وسخة. وكان يمشي في تصلُّبٍ يشي بتعب رجلٍ قد أمضى ليلة طويلة قاسية.

تراجع مالون إلى خلف جدارٍ غير طويل، وانتظر إلى أن صار فيكتور في الداخل، واستدار نحو محطة الوصول، فخرج من مكانه وتبعه. "لقد استغرقتُ رحلتك وقتاً طويلاً."

توقّف فيكتور واستدار. لم تبدُ ذرّةً واحدةً من الدهشة على وجه الرجل. "لقد اعتقدتُ أن عليّ القيام بمساعدة فيت."

"وها أنا أيضاً هنا لكي أساعدك."

"أنت وزملاؤك قد وضعتُموني في وضعٍ خطرٍ مشبوهٍ في كوبنهاغن. وإنني لا أحب أن يتلاعب بي أحد."

"ومن ذا الذي يحب ذلك؟"

"إرجع من حيث أتيت يا مالون. ودعني أتولّى هذا الأمر وحدي."

سحب مالون مسدسه. لقد كانت واحدة من حسنات الوصول على متن طائرةٍ عسكريةٍ هي عدم تعرّض أفراد أطقمها العاملة عليها، أو المسافرين على متنها، لأي شكلٍ من أشكال التفتيش الجمركي. "لقد قيل لي أن آتي لمساعدتك. وهذا هو ما سأقوم بعمله، سواء سرّك هذا أم ساءك."

"وهل يصل الأمر بك إلى حدّ إطلاق النار عليّ؟" هزّ فيكتور رأسه. "إن كاسيوبيا فيت قد قتلت زميلي في البندقية، وحاولت القيام بقتلي أيضاً."

"في ذلك الوقت لم تكن تدري أنك تلبس القبعة البيضاء."

"يبدو من حديثك كأنك ترى في ذلك مشكلة."

"لم أقرر بعد ما إذا كنت مشكلة أم لا."

"تلك المرأة هي مشكلة"، قال فيكتور. "فإنني أشك في أنها سوف تسمح لأي منّا بمساعدتها."

"ربما يكون الحق معك، لكنها رغم ذلك ستحصل على تلك المساعدة." "قرر أن يجرب تربيت كتف فيكتور. "لقد قيل لي أنك عميل شديد النفع. لهذا، دعنا نقم بمساعدتها." "لقد كنت قد عزمْتُ على فعل ذلك، لكنني لم أضع في حسابي تلقّي مساعدة من أحد."

أعاد حشو المسدس تحت سترته. "قم بإيصالي إلى القصر." بدا فيكتور محتاراً بهذا الطلب. "هل هذا هو كل شيء؟" "لا يجب أن يشكّل هذا الطلب مشكلةً لرئيس العصابة المقدسة. فما من أحد سيقوم باستجوابك."

هزّ فيكتور رأسه. "إنكم مجانين. أتملكون كلكم رغبة في الموت؟ إنه لأمر سيء بما يكفي أن تكون هي قد جاءت إلى هنا، والآن ها أنت تأتي أيضاً؟ لن أستطيع أن أكون مسؤولاً عن كل هذا. وبالمناسبة، إنها لحماقة حتى أن يتحدث أحد منّا مع الآخر. إن زوفاستينا تعرف وجهك."

كان مالون قد فحص هذا الأمر من قبل. فلم تكن الباحة مزودة بأي من كاميرات مراقبة. فقد كانت تلك الكاميرات في منطقة أبعد عند قاعة الوصول. ولم يكن حولهما أحد يطوف، ومن أجل هذا فإنه كان قد قرر أن هذا المكان ملائم للحديث. "عليك بإيصالي فقط إلى قصرها. فإذا وجّهتني الوجهة الصحيحة فإنني أستطيع القيام بالمهام الشاقة. وهذا سيمنحك غطاءً. وليس عليك القيام بأي شيء سوى حماية ظهري. إن واشنطن تريد إبقاء هويتك سرية تحت أي تكلفة. ومن أجل هذا فإنني هنا."

هزّ فيكتور رأسه في غير تصديق. "ومن ذا الذي وضع هذا المخطط السخيف؟"

ضحك. "أنا الذي وضعته."

الفصل السابع والستون

قاد فينسينتي ليندسي إلى ما وراء الأراضي المحيطة بالبيت فوق دربٍ صخرية تتلوّى صعوداً إلى الأراضي الجبلية العالية. وكان قد أمر بجعل ذلك الممر القديم مرتباً مهذباً، فثمة تمديدات كهربائية كان قد أمر بإحداثها لعلّهم أنه سيقوم بالارتحال على هذا الممر مراتٍ عديدة. وكان الطريق والجبل كلاهما واقعين في نطاق ملكية فينسينتي. وفي كل مرة يعود فينسينتي إلى هذا المكان كان فكره يذهب إلى ذلك المعالج العجوز الذي تسلق يوماً وجه الصخور بمشية هي أشبه بمشية القط، متشبّثاً بنواتئ الممر بأصابع كفيه، وأصابع قدميه العاريتين. أمّا فينسينتي فقد تبعه متسلقاً بكثير من الرويّة والتفكير كأنه طفل يتبع وائلده فوق درجات عليّة وهو يعجب في أمر ما قد يلقاه فيها.

ولم تخب آماله في ما قد لقيه.

صخور رمادية مشوبة ببقع وعروقٍ من البلّور الصقيل اللامع كانت تحيط بهما وكأنهما في أحضان كاتدرائية بنّتها الطبيعة. كانت ساقاه تؤلمانه من شدة الإجهاد. كما كادت رئتاه تنفجران من جهد الأنفاس. جرّ نفسه جرّاً إلى الأعلى لمسافة أخرى من المنحدر. فيما حبات العرق تتفصّد على جبينه وتجتمع على حاجبيه.

أمّا ليندسي، الرجل النحيف العضلي فبدأ كأنه لم يتأثر.

أخرج فينسينتي نفساً طويلاً وهو يشعر بالامتنان حالما توقفا فوق المصطبة النهائية من صعودهما. "إلى الغرب تقع دولة الاتحاد، وإلى الشرق دولة الصين، ونحن الآن نقف عند المفترق بينهما."

حدّق ليندسي نحو الأفق. وكانت شمس الأصيل تكتفّ نورها فوق الامتدادات البعيدة المتشكّلة من المنحدرات الشديدة، وقباب التلال الناهضة نهوض الأهرامات. وثمة قطيع من الخيول التي كانت تندفع في صمت خلال الوادي الواقع خلف المنزل. وكان فينسينتي سعيداً بوجود مشارك له في متعة التطلّع. إذ أنه بعد أن أفضى بما أفضاه إلى كارين وايلد، فقد انقدحت شرارة شهيته إلى المزيد من الإفضاء والاعتراف. كيف لا! وقد صادف له العثور على اكتشاف جليل الشأن، كما نجح في التكتّم عليه والاستئثار به وبإمكانية تصريحه دون منازعة أحد! وهذا إنجاز يرقى إلى مستوى البطولة. خصوصاً بعد الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الأرض إنما كانت من قبل تحت سيطرة السوفييت. لكن الاتحاد قد غيّر الآن كل تلك الأشياء. ومن خلال عصابة البندقية، فإنه قد نجح في اقتياد كل تلك التغييرات كيما تصبّ في مصلحته الخاصة.

"من هنا." قال لرفيقه مشيراً نحو تغصّن بين الصخور. "من خلال هذا الشقّ."

منذ ثلاثة عقود، كان من الممكن له اجتياز هذا الشقّ بسهولة. إذ أن وزنه آنذاك كان أخفّ من وزنه الحالي بما يزيد عن مئة وخمسين رطلاً. أمّا الآن، فقد بات عليه أن يحشّر جسده في الثغرة حشراً.

بعد مسافة قليلة انفتح الصّدع على قاعة رمادية واقعة تحت قبة من الصخور المسنّنة، ليس لها شكل منتظم، وكانت القاعة محاطة بجدران من جميع الاتجاهات. وكان النور الضئيل يتسرّب من المداخل. مشى نحو علبة لمفاتيح الكهرباء، وأشعل مصباحاً كهربائياً يتدلى من السقف. بدت بركتان تحتلّ كل منهما حيزاً مستديراً بقطر عشرة أقدام من الأرض الحجرية للقاعة إحداها بنية اللون، ضاربة إلى الحمرة، والثانية بلون زبد البحر الأخضر. وكلا البركتين مضاءتان بمصابيح كهربائية تمتد حبال أسلاكها تحت سطح الماء.

"إن الينابيع الساخنة ترصّع أسطح هذه الجبال،" قال "ومنذ أقدم الأزمان إلى الآن، درج السكان المحليون على الاعتقاد أن هذه الينابيع تحتوي على مزايا علاجية لا تقدّر بثمن. أمّا هنا فقد كان الحق معهم."

"وما الذي دعاك لإنارتهم؟"

هزّ كتفيه في لا مبالاة. "إنني أحتاج إلى دراسة المياه، وكما أنت ترى فإنهما مدهشتان في ألوانهما المتباينة."

"وهل هذا هو المكان الذي تعيش فيه الآرشيا؟"

أشار إلى البركة الخضراء. "هذا هو بيتها."

انحنى ليندسي ومسح بيده على ظهر المياه. طيف من التموجات عبر على صفحة البركة الشفافة. لم يبق أي من النباتات التي كانت هناك عندما زار فينسينتي هذه البركة للمرة الأولى. بدا كما لو أن تلك النباتات قد ماتت منذ عهد بعيد. لكن لا أهمية لذلك في كل حال.

"حرارة الماء هنا هي أكثر من مئة درجة بقليل"، قال. "لكن التعديلات التي طورناها باتت تسمح للبكتيريا الآن بأن تعيش عند درجة حرارة الغرفة العادية."

كانت إحدى مهام ليندسي: الإعداد لخطة عمل عنوانها: "ما الذي يجب على الشركة أن تفعله حالما تشرع زوفاستينا في تنفيذ خطتها؟" ذلك عندما تكون الحاجة مفترضة إلى كميات هائلة من العامل المضاد، وعليه، فإن فينسينتي إدلى بسؤاله. "هل نحن جاهزون للإنطلاق؟"

"إن زرع الكميات القليلة التي كنا نستعملها في الاختبار على الفيروسات القابلة للانتقال من الحيوان إلى الإنسان كان أمراً يسيراً. أما إنتاج هذا العامل المضاد على نطاق واسع فهو مسألة أخرى مختلفة."

كان قد فكر في جسامه هذه الخطوة من قبل، ولهذا، فإنه قام بحجز قرض هائل من آرثر بينوا. إذ لا بد من بناء بنية تحتية للمشروع، كما ينبغي توظيف القوى العاملة، وابتداع شبكات التوزيع، واستكمال المزيد من الأبحاث. وكلها تحتاج إلى مبالغ هائلة من الرساميل.

"إن منشآتنا الصناعية في فرنسا وإسبانيا يمكن تحويلها إلى مواقع تصنيع مقبولة"، قال ليندسي. "أما في نهاية الأمر، فإني أوصي بإقامة منشأة خاصة"

مستقلة، حيث أننا سنكون. في حاجة إلى ملايين الليترات منها، ومن حسن حظنا أن البكتيريا يمكن استيلائها بسهولة.

لقد أزفت الساعة لامتحان مدى اهتمام الرجل بالأمر العتيد. "هل سبق لك وأن راودتك أحلامٌ بدخول التاريخ؟"

ضحك ليندسي. "ومن ذا الذي لا يراوده مثل ذلك الحلم؟"

"إنني جادٌ في سؤالي. وأعني أن تدخل التاريخ بوصفك إنساناً قد قدم مساهمةً علميةً جبارةً. ماذا لو أردتُ أن ألقى ذاك الشرف الرفيع فوق هامتك؟ أتكونُ على درجةٍ كافيةٍ من السرور والاهتمام؟"

"مثلما قلتُ لك. مَنْ هو الذي لا يريد ذلك؟"

"تخيّل تلامذة المدارس بعد عشرات السنين من الآن وهم يبحثون عن مرض فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب، وعن مرض الإيدز في بطون الموسوعات العلمية فيجدون اسمك هناك بصفتك الرجل الذي ساعد على قهر جائحة القرن العشرين." استدعى لحظة سروره الأولى عندما تخيّل هذه الرؤيا للمرة الأولى. وهي ليست كثيرة الاختلاف عن نظرة ليندسي الأولى الجارية الآن والتي ملؤها الفضول وايلدهشة.

"بالطبع." قالها دون تردد.

"إنني أستطيع أن أمنحك ذلك الشرف. لكن لي شروط. فليس من الضروري أن أقول لك إنني لا أستطيع القيام بذلك بنفسني. فأنا بحاجة إلى شخصٍ ما، يقوم بالإشراف الشخصي على عملية الإنتاج. شخص يفهم في علم الأحياء، والعنصر الأمني هو بالطبع في رأس قائمة الهواجس. فحالما تنتهي المعاملات الإدارية لتسجيل حقوق براءة اختراعنا. سوف أكون قد شعرت بأنني قد صرت في وضع أفضل من الآن. لكن هذا لن يغنيني رغم ذلك، عن ضرورة وجود شخصٍ ما يدير هذا المشروع على أسسٍ يوميةٍ. وأنت هو اختياري المنطقي يا غرانت. وفي مقابل ذلك، ستتلقى بعض الرصيد بصفتك عالماً مكتشفاً، كما ستتلقى جزاءً مالياً سخياً. وعندما أقول سخياً، فإنني أعني مبلغاً يُحتسب بالملايين." فتح ليندسي فمه ليفوه بالكلام. لكن فينسينتي أسكتته برفع إصبعه إلى فمه.

"هذا هو الجانب الإيجابي من الصفقة، وسيأتيك الآن الجانب الرديء منها. إذا صرت تشكّل عقبة في طريقي، أو إذا استبدّ بك الطمع، فإنني سأجعل أوكونيّه يغرّس رصاصة في رأسك. ففي البيت كنت قد أوضحت لك سابقاً كيف أننا نقوم بتدبير أمر من ينافسنا. أمّا الآن، فدعني أزيدك على تلك القصيدة بيتاً."

هنا قام بإخبار ليندسي عن ذلك العالم الدانماركي من علماء الأحياء المجهرية، الذي وُجد في العام 1997 في غيبوبة أشبه بغيبوبة الموت، في شارع قريب من مختبره. وعن العالم الآخر من كاليفورنيا الذي تبخّر فيما وجدت سيارته المستأجرة مركونة قرب جسر. أمّا جسده فلم يُعثَر عليه أبداً. وعن عالم ثالث وُجدت جثته خلال العام 2001 ملقاةً على طريق ريفي في الريف الإنكليزي وهو يبدو في ظاهر الأمر كأنه ضحية لعملية دهس هرب بعدها السائق الجاني. وعالم رابع كان قد قُتل في فرنسا في بيت داخل مزرعة. وعن عالم سواهم كان قد مات بطريقة فريدة من نوعها. وقد اكتُشف جسده منذ عشر سنوات عندما وُجد عالقاً في مغلّق الهواء التابع لثلاجة ضخمة في مختبره. وقد توفي خمسة من العلماء في وقت متزامن خلال العام 1999 عندما تحطمت طائرتهم فوق البحر الأسود.

"كلّ هذا حصل لمنافسينا،" قال له. "لقد كانوا يتقدمون علينا، لقد بالغوا في تقدّمهم. إذاً، يا غرانت، افعل كلّ ما أقوله لك. وكن حامداً شاكرًا للفرصة التي منحك إياها، وسوف يحيا كلّ منا ليصبح رجلاً ثرياً طاعناً في السن."

"لن ترى مني أيّ أذى أو متاعب."

هذا ما كان يعتقد من أن الرجل سيختار الاحتفاظ بحياته. ولطالما استطاع ليندسي أن يتعامل مع زوفاستينا باقتدار، وإنه لم يقم مرة بالمساومة معها في أمر العامل المضاد، كما أنه نجح في المحافظة على سرية العمل في المختبر. فكلّ شيء جرى على أفضل وجه حتى في أدق جزئياته. والفضل في ذلك كله عائد إلى هذا الرجل.

"لكن الفضول يأخذني إلى نقطة واحدة،" قال ليندسي. وهنا قرّر فينسينتي أن يساير ليندسي ويُشبع فضوله.

"لم الآن بالذات؟ لطالما أنك قد تكثمت على العلاج حتى الآن، فما الذي يمنعك من الانتظار لمدة أطول؟"

"إن خطة زوفاستينا لإشعال الحرب تجعل هذا التوقيت هو التوقيت الصحيح. إن لدينا الآن عربة، يمكن أكمال عمليات البحث من خلالها دون أن يكون أحد قادراً على تجاوزنا. وإني لا أرى داعياً يدعو إلى المزيد من الانتظار. كل ما عليّ أن أفعله هو وضع حدّ لزوفاستينا قبل أن تتوغل أكثر مما يجب. وماذا عنك يا غرانت؟ الآن، وقد عرفت كل شيء، هل ترى في أيّ منه ما يزعجك؟"

"لقد كابدت أنت عناء هذا السرّ عشرين سنة. أمّا أنا فلم أطلع عليه سوى منذ ساعة من الزمن. لذلك فإن المشكلة ليست مشكلتي أنا."

ابتسم لجوابه. إنه أسلوب جيد. "سيكون هناك طوفان مفاجيء من الشهرة. وستكون أنت جزءاً من كل ذلك. لكنني سأكون مراقباً لكل تصريحاتك. لهذا عليك أن تكون حذراً في اختيار كلماتك. يجب أن يراك الناس أكثر مما يسمعونك، وسرعان ما سيصبح اسمك في مصافّ أسماء الرجال العظام." أقرّد نراعيه حول قوس هالة اللقب المفترضة "غرانت ليندسي! أحد قاتلي مرض الإيدز القاتل."

"إن لعبارتك طينياً جميلاً."

"سوف نخرج إلى العلنية والشهرة خلال فترة الثلاثين يوماً القادمة. وفي هذا الوقت أريدك أن تتأبر على العمل مع فريق المحامين الذي يعمل معي من أجل تسجيل حقوق الاختراع. إنني أنوي أن أكشف لهم غداً عن خطوتنا المتقدمة المفاجئة في عالم المعرفة والطب. وعندما يتم الإعلان الفعلي عن الحدث، فإنني أريدك أن تكون واقفاً معي فوق المنصة. كما أنني أريد أن يكون هناك عينات تبرهن على صدق ما نعلنه ونقوله. سيقومون بوضع صور فوتوغرافية عملاقة. كما سيكون ثمة شرائح زجاجية تحفظ فيها البكتيريا. وسنطلب من جماعة العلاقات العامة أخذ الصور. وسيكون الأمر مهرجاناً لافتاً رائعاً."

"هل من شخص سوانا يعرف عن هذه الأشياء؟"

هز رأسه نافياً. ما من مخلوق آخر سوى تلك المرأة التي هي الآن خلفنا في البيت، وهي امرأة تشهد الآن بنفسها بركات هذا العلاج ومنافعه. إننا نريد شخصاً

ما، قد أبّل من المرض كي نستعرضه أمام الناس. وهي تصلح لهذه المهمة مثلما يصلح كل من هو مثّلها."

مشى ليندسي إلى البركة الأخرى. والأمر الذي أدهش فينسينتي هو كيف أن الرجل لم يلاحظ ما يوجد في قعر كل منهما، ولعلّ هذا هو سبب آخر لوقوع اختياره عليه. "كنت قد أخبرتك أن هذا المكان هو مكان قديم. أنظرت إلى الأحرف المنقوشة في قعر كل من البركتين؟"

وجد ليندسي الأحرف في قعر كليهما.

"إن معنى هذه الأحرف، هو الحياة في اللغة الإغريقية القديمة. أمّا كيف جاءت هذه الأحرف إلى مواضعها، فليس لديّ أدنى علم بذلك. وقد أمكنني أن أعرف من ذلك الشيخ المعالج أن الإغريق كانوا مرّة يقدسون هذه المنطقة، ولعلّ هذا ما يفسّر وجود هذه الأحرف. لقد أطلقوا على هذا الجبل تسمية (Klimax). وهي كلمة تعادل كلمة (Ladder) باللغة الإنكليزية [سلم، أو مرقاة، أو معراج باللغة العربية]. لماذا؟ ربما يكون لذلك كثير من التداخل مع الإسم الذي أطلقه الآسيويون على هذا المكان. (أريما). ولقد قرّرت أن استعمل هذه الكلمة كإسم أطلقه على ملكيتي العقارية هنا."

"لكنني رأيت شعاراً معلقاً فوق قوس البوابة عندما كنت أقود سيارتي إلى هنا، هو كلمة (أتيكو). ترى ماذا تعني هذه الكلمة؟"

"إنها الترجمة الإيطالية لكلمة (أريما) وهي مثّلها تعني المكان الرابض في الأعلى. مثل كلمة (attic) باللغة الإنكليزية [العلية باللغة العربية]."

الفصل الثامن والستون

سمرقند

مشى زوفاستينا إلى قاعة استقبال الضيوف في قصرها فلقيت رجلاً نحيلاً له شعرٌ أشيبٌ كثٌ. وكان وزيرٌ خارجيتها كميل رافين موجوداً هناك أيضاً. فقد كان البروتوكول يقتضي حضوره في مثل هذه المقابلة. قدّم الأمريكي نفسه تحت اسم إيوين دايفيس، واستخرج رسالةً مرسلةً من رئيس الولايات المتحدة تؤيدُ قوله أنه رسولٌ معتمد.

"إذا جاز لي يا دولة رئيس الوزراء،" قال ديفيس بلهجة خفيفة، "هل لي أن أتحدث معك على انفراد؟"

جبر في أمرها. "إن كل ما ستقوله لي، سأقوم بتمريره بعد ذلك إلى كميل، في أي حال."

"لا أظن أنك ستقومين بتمرير ما سنتداول به لأي شخص أبداً."

خرجت كلماتها وكأنها تنطوي على منازلة. لكن قسمات وجه المبعوث لم تتبدل، لذا فإنها قررت الاحتراس، "دعنا وحدنا،" قالت موجهة كلامها إلى كميل.

تردد الرجل الشاب قليلاً. لكن بعد الذي حصل في البندقية، وبعدها حدث ما حدث مع كارين، فإن مزاج زوفاستينا لم يكن ليتحمل تباطؤاً.

"الآن وفوراً،" قالت له.

هنا نهض وزير خارجيتها وانصرف.

"هل تعاملين شعبك دائماً بهذه الطريقة؟"

"هذه ليست ديمقراطية هنا. فالرجال من أمثال كميل يفعلون ما يُطلب إليهم،
والأ -"

"والأ تقوم جراثيمك بغزوة إلى أجسامهم؟"

كان عليها أن تكتشف قبل الآن أن ثمة المزيد من الناس باتوا يعرفون الكثير عن شؤونها. لكن المدهش هذه المرة أن تكون الأخبار قد سرت حتى بلغت واشنطن. "لا أتذكر مرة أن رئيسكم قد شكاً يوماً من السلام الذي فرضه هذا الاتحاد على هذه الرقعة من العالم. فلقد مرّ زمنٌ كانت فيه هذه المنطقة بؤرة للمشاكل. وها هي أمريكا تتنعمُ بفوائد صداقتها لنا. وطريقة الحكم هنا ليست مسألة إقناع، بقدر ما هي مسألة قوةٍ وحزم."

"لا تخطئي فهمي يا دولة الرئيس. ليس أسلوبك في الحكم هو ما يقلقنا، ونحن نوافق على أن اكتساب صديقٍ يستحقُّ القبول،" هنا تردّد دايفيس قليلاً. "باستبدال موظفين بسواهم." وهنا تبادل معها نظرةً فيها من الاحترام ما يستحقُّ الحسد. "يا دولة الرئيس إنني هنا كي أخبرك شخصياً عن شيء ما. شيء يعتقد رئيسنا أنه لا ينبغي نقله عبر القنوات الدبلوماسية الاعتيادية. وإن حديثنا هذا ينبغي أن يبقى سرّاً شخصياً بيننا كأصدقاء."

وما هو الخيار الآخر المتاح أمامها؟ "حسناً، تفضل."

"هل تعرفين امرأة تدعى كارين وايلد؟"

تصلبت ساقاها حالما تناوشتها المشاعرُ. لكنها حافظت على تماسكها وقرّرت أن تكون صابقةً. "أجل. وماذا في الأمر؟"

"لقد تمّ خطفها خلال الليلة الماضية. خُطفت من منزلٍ يقع هنا في سمرقند. وقد كانت في يوم من الأيام خدينتك، وهي في الوقت الحاضر تعاني من إصابة بالأيدين."

بنلت قُصاري جهدها لتحافظ على هيئةٍ مبهمَةٍ. "يبدو أنكم تعرفون الكثير عن حياتي."

"نرغب في معرفة كل ما نستطيع معرفته عن أصدقائنا. فخلافاً لكم، إننا

نعيش في مجتمعٍ منفتحٍ حيث تكونُ جميعُ أسرارنا إما مذاعةً على التلفاز، وإما على شبكة الإنترنت.

"وما الذي دعاكم للغوص في تفاصيل حياتي؟"

"هل هذه مسألة مهمة؟ إنه لمن حُسن الحظ أننا فعلنا ذلك."

"وماذا تعرفون عن اختفاء كارين؟"

"لقد أخذها رجلٌ يدعى أنريكو فينسينتي. وهي الآن محتجزةٌ داخل حدود ملكيته العقارية، هنا في هذا الاتحاد. إنها الأرض التي اشتراها في سياق الصفقة التي قمت بإبرامها مع عصابة البندقية."

بَدَت الرسالة شديدة الوضوح. إنَّ هذا الرجل يعرف أشياء كثيرة أخرى.

"إنني موجود هنا أيضاً لأقول لك إنَّ كاسيوبيا فيت ليست مشكلةً لك."

قامت بإخفاء شعورها بالمفاجأة.

"بل إن فينسينتي هو مشكلتك الحقيقية."

"وما الذي يدعوك إلى قول ذلك؟"

"عليَّ أن أعترف لك أن هذا هو مجرد توقُّع من جانبنا. ففي معظم أنحاء العالم لا يهتمُّ أحدٌ لأمر ميولك الجنسية - صحيحٌ أنك كنت متزوجةً، ولكن مما تيسَّر لنا معرفته، فإن ذلك الزواج كان مظهرياً. وقد مات زوجك ميتة مفاجئة."

"لم يحدث مرة أن تبادل أيُّ واحدٍ منا كلمةً نابيةً مع الآخر. لقد فهمَ ما هو مبرَّر وجوده في حياتي. وإني في الواقع قد رغبتُ بوجوده معي."

"إنَّ هذا ليس ما يعنيني، وإني لم أرغب قطُّ في إهانتك. لكنك قد بقيت دون زواج بعد وفاته. ولقد قامت كارين وايلد بالعمل معك كواحدة من سكرتيراتك. لهذا، فإنني أتصوَّر أنَّ علاقةً شخصية تجمعك بها كانت أمراً ميسوراً. فلا أحدٌ يعطي الكثير من الانتباه ما دمتما حريصتين كتومتين. لكن آسيا الوسطى ليست مثل أوروبا الغربية." مدَّ دايفيس يده إلى سترته، وأخرج منها آلة تسجيلٍ صغيرة. "دعيني أسمعُ شيئاً ما." قام بتشغيل الآلة ووضعها في وضعٍ قائمٍ على الطاولة بينهما.

"إنني لأشكرك لأنني وجدت أن معلوماتك كانت دقيقة."

"ما كنت لأزعجك بمجرد أوهام."

"لكنك حتى الآن، لم تقل لي كيف تسنّى لك أن تعرف أن أحدهم ينوي اليوم القيام باغتيالتي."

"إن العصابة تراقب أوضاع أعضائها، وأنت يا دولة الرئيس أحد أهم الأعضاء لدينا."

"وأنت يا أنريكو لرجل على قدر المهمة."

أغلق دايفيس آلة التسجيل. "هذا تسجيلٌ لحديثٍ هاتفٍ جرى بينك وبين فينسينتي منذ يومين. إنها مكالمة دولية تسهل مراقبتها." ضغط من جديد على زر التشغيل.

"علينا أن نجلس معاً."

"هل هذه هي الأجرة التي تقتضيها مني لقاء إنقاذك لحياتي؟"

"بل إنها النهاية التي اقترحتها لصفقتنا حسبما جرى النقاش الأصلي حولها بيننا منذ وقت طويل."

"سوف أكون جاهزة للالتقاء مع المجلس بعد أيام قليلة. لكن عليّ الانتهاء من حلّ بعض المسائل أولاً."

"إنني أكثر اهتماماً بالمسألة متى نلتقي أنت وأنا."

"لا شك عندي في ذلك. وفي الحقيقة فإن هذا ما أشعر به أنا أيضاً، لكن ثمة شؤون لديّ يتوجب عليّ إنهاؤها."

"هل هنالك من خيانات أخرى؟"

"إنني محاطة بالأعداء."

"أعداء تستطيعين سحقهم ساعة تشائين."

"صحيح، لكننا حريصون في هذه المسألة. ولا نرغب في ركوب

الجنون الآن. فالفتح ليس أمراً من الأمور السهلة الركوب."

"إن مدة ولايتي في المجلس سوف تنتهي قريباً. لذلك، فسوف يكون هناك سواي ممن تتعاملين معهم. وقد لا يكونون متعاونين مثلي."

"أعجبتني كلمة متعاونين: إنني أرتاح للتعامل معك يا أنريكو. فكلُّ منا يفهم الآخر."

"علينا أن نلتقي"

"أجل قريباً. لكن لديك أولاً تلك المشكلة الأخرى التي سبق أن تحدثنا بشأنها الأمريكيين:"

"لا تقلقي سأتعامل اليوم مع هذه المشكلة."

أقفل دايفيس زرَّ التشغيل. "لقد تعامل فينسينتي مع المشكلة. فقد قام بقتل امرأة من عملائنا. لقد وجدنا جسدَها محشوراً مع جسد رجلٍ آخر. هو جسد الرجل نفسه الذي رتب لعملية القيام باغتيالكَ."

"وسمحتم لها بأن تموتَ رغم علمكم بالمحادثة الهاتفية؟"

"لسوء الحظ إننا لم نحصل على هذا التسجيل إلا بعد أن كانت المرأة قد اختفت."

لم تعجبها الطريقة التي كانت عينا دايفيس تنتقل بها بينها وبين آلة التسجيل. إلى جانب الاضطراب الغريب الذي ترافق مع غضبها المتنامي.

"من الجليّ أنك أنتِ وفينسينتي منخرطان معاً في مغامرة مشتركة. وإنني الآن هنا - وأؤكد لك للمرة الثانية 'كصديق' - لأخبرك عن عزم هذا الرجل على الإخلال باتفاقكما. وهذا هو ما نعتقده نحن. فينسينتي يريد خروجك من السلطة. وبوجود كارين وايلد تحت يده، فإنه يستطيع تشويه سمعتك لتخرجي من الحكم، أو على الأقل ليتسبب لك بمتاعب سياسية عديدة. فالشذوذ الجنسي ليس أمراً مقبولاً في هذه المنطقة من العالم. الأصوليون الدينيون الذين تتركين رسنهم في قبضة يدك الشديدة، سوف يجدون أخيراً الذخيرة التي كانت تنقصهم للقيام بهجومهم المعاكس

عليك. وستجدين نفسك تواجهين مشاكل كبيرة الحجم، وحتى جراثيمك لن تكون كافية لتذليلها."

لم تكن قد فكّرت في أمر هذا الاحتمال من قبل. لكن ما قاله هذا الأمريكي يبدو قريباً من العقل. وأيُّ سبب يدعو فينسينتي إلى اختطاف كارين سوى ذلك السبب؟ ومع ذلك فثمة شيء يستحق أن يشار إليه. "إنها في حالة احتضار بسبب إصابتها بمرض الإيدز ومن المحتمل أن تكون قد ماتت الآن."

"ليس فينسينتي مجنوناً. فلربما كان يعتقد أن إعلان موتها قد يكون له تأثير أسوأ عليك. إذ سيكون أمامك الكثير من الأسئلة التي عليك الإجابة عنها حول المنزل، وحول سبب وجودها فيه، وحول الممرضة. وقد قيل لي إن الممرضة أيضاً تعلم ببعض الأسرار، هذا بالإضافة إلى عدة أشخاص من أفراد عصبتك المقدسة الذين عملوا على حراسة المنزل. إن فينسينتي يأخذ الممرضة أيضاً تحت يده. وهذا يجعل عدد الناس المشمولين بالأمر أكبر من أن يمكن احتواؤه وحصره."

"لكن هذه ليست أمريكا. فالتلفزيون هنا يمكن السيطرة عليه وتوجيه مواد بثه."

"ولكن، هل يمكن السيطرة على الأصولية؟ هذا إلى جانب الحقيقة التي تقول: إنَّ لك الكثير من الأعداء الذين يرغبون في الحلول مكانك في السلطة. وإني أعتقد أن الرجل الذي غادرنا منذ قليل هو واحدٌ من هذه الزمرة. وبالمناسبة، فإنه قد التقى فينسينتي في الليلة الماضية أيضاً. كما قام بنقله من المطار إلى المدينة."

يبدو أن هذا الرجل واسع المعلومات بقيقها.

"يا دولة الرئيس، نحن لا نرغب في رؤية فينسينتي ينجح في تنفيذ ما قد يكون عازماً عليه من خطة. ولهذا، فإنني موجودٌ هنا لأعرض عليك مساعدة الولايات المتحدة. وإننا على علمٍ برحلتك إلى البندقية. كما أننا على علمٍ بأن كاسيوبيا فيت قد عادت معكِ إلى هنا. وأؤكد لك من جديد أنها ليست هي مشكلتك. وفي الحقيقة فإنها تعرف الشيء الكثير عما أردت أن تبحثي عنه في البندقية. لقد كان ثمة معلومات هناك قد فانتك."

"قل لي ما هي تلك المعلومات."

"لو كنت أعرف لقلت لك. لكن عليك أن تسألني فيت. فهي ورفيقاتها هنريك ثورفالدسن، وكوتون مالون، يعرفون عن شيء ما، يسمى: أحجية بطليموس، وعن أشياء تسمى ميداليات الفيل." رفع دايفيس كفيه في استسلام هازئ. "لست أدري، لا أهتم فالشأن شأنك. وكل ما أعرفه: هو أن هناك شيئاً ما، برسم العثور عليه في البندقية. وهو شيء قد فقدت أثره على ما يبدو.

فإذا كنت تعرفين عن كل ذلك قبل مجيئي، فلا بد لي من الاعتذار لإهداري وقتك. لكن الرئيس دانيالز يريد منك أن تعرفي أنه، مثله في ذلك مثل عصابة البندقية، يهتم أيضاً بأصدقائه."

كفى. هذا الرجل صار في حاجة لكي يوضع عند حده. "لا بد أنكم تخالون أنني حمقاء خرقاء."

تبادلا النظرات دون كلام.

"قل لرئيسك إنني في غنى عن مساعداته."

بدا ديفيس منزعجاً مهاناً.

"ولو كنت مكانك،" قالت له. "لقلت بمغادرة الاتحاد بالسرعة التي قدمت بها إليه."

"هل هو تهديد يا دولة الرئيس؟"

هزت رأسها. "إنها مجرد نصيحة."

"لكنها طريقة غريبة للتكلم مع الأصدقاء."

وقفت. "لكنك لست بصديقي."



أغلق البابُ حالما غادر إدوين ديفيس القاعة. عمل ذهنها بسرعة وفق مقدرتها التي كانت تستحضرها دائماً وانتها لحظة ملائمة.

عاد كميل رافين إلى دخول القاعة من جديد ومشى نحو مكتبها. تمعنت في

وجه وزير خارجيتها. لقد حسب فينسينتي نفسه ذكياً بتنشئة هذا الرجل كي يصبح جاسوساً له. لكن هذا الآسيوي الذي نال تعليمه على أيدي الروس، هذا الرجل الذي يزعم أنه مسلم لكنه لم يدخل مسجداً في حياته. لقد عمل كوسيلة إتصالٍ تامةٍ لنقل المعلومات المضللة. ولقد صرفته قبل قليل من اجتماعها مع دايفيس لأنه لن يكون قادراً إلى إعادة كلامٍ لم يطرق سمعه.

"لقد سكت عن إعلامي أن فينسينتي كان هنا في الاتحاد." قالت له.

هز رافين كتفيه إشارة لعدم أهمية الأمر. "لقد وصل هنا خلال الليلة الماضية في شغلٍ له. وهو ينزل في فندق الإنتركونتيننتال كجاري عادته."

"بل هو في ملكيته العقارية في الجبال."

لاحظت الدهشة في عيني الرجل الذي يصغرها سناً هي دهشة حقيقية؟ أم أنه يمثل عليها؟ إن الحكم في شأن هذا الرجل هو أمرٌ من الأمور الصعبة. لكنه بدا وكأنه يستشعر شكوكها.

"يا دولة الرئيس لطالما كنت دائماً حليفك. لقد كذبت من أجلك. لقد قمتُ بتسليم الأعداء إلى قبضتك. لقد قمتُ بمراقبة فينسينتي لعدة سنين، وكنت أعمل بكل أمانة وفقاً لتعليماتك." لم يكن لديها وقتٌ للجدال. "إذا أرني ولاءك. إن لدي مهمة خاصة لك، وعليك القيام بتنفيذها."

الفصل التاسع والستون

لقد راق لستيفاني أن ترى هنريك ثورفالدسن بالياً متهرئاً. لقد طارا من قاعدة أفيانو الجوية على متن مقاتلتَي أف 16، أس. كانت هي في واحدة منها، وكان هو على متن الأخرى. لقد تابعت هي وثورفالدسن من هناك، الرحلة معاً شرقاً، لينزلا في مطار كاشغر الذي يقع داخل حدود الصين وعبر حدودها مع الاتحاد. لم يكن ثورفالدسن يحب ركوب الطائرات. لقد اعتبر ركوب الطائرة شراً لا بد منه قبيل صعوده سلّم الطائرة، لكن السفر على متن طائرة مقاتلة نفّاثة تزيد سرعتها عن سرعة الصوت لم تكن رحلة اعتيادية. وقد ركبت هي خلف الطيار حيث يجلس ضابط جهاز تسليح الطائرة في العادة. فالصدمات، وصرير الأسنان، في سرعة تزيد عن ألف وثلاث مئة ميل في الساعة، قد بعثت فيها النشوة والرعب في آن معاً. وجعلتها تقف عند حافة أعصابها طيلة مدة الساعتين التي استغرقتها الرحلة، بكاملها.

"أنا لا أصدّق أنني قد فعلتها." كان ثورفالدسن يقول. ولا عجب أن تلاحظ أنه كان لا يزال يرتجف. وكانت سيارة في انتظارهما في مطار كاشغر. وقد تعاونت الحكومة الصينية تعاوناً كاملاً مع كل طلبات دانيالز. فلقد كان الصينيون كما يبدو قلقين جداً بشأن هذه الدولة الجارة، بل كانوا عازمين حتى على الاشتراك مع واشنطن من أجل التثبت من حقيقة ما إذا كانت شكوكهم لها ما يبرّرُها، أم أنها مجرد مخاوف وهمية.

"أما أنا فلم تكن حالتي سيئة جداً." قالت له.

"صار الآن لديّ مذكرة جديدة أضُمُّها إلى أرشيفي وهي تقول: لا تركبُ مطلقاً مثل هذه الأشياء مرة أخرى تحت أيّ ظرف، ومهما قال الناس عنك."

ضحكت، كانت السيارة تتسلق بهما جبال الباميرز داخل حدود دولة الاتحاد. ولم يكن عند المعبر الحدودي ما هو أكثر من شعار يقول: "أهلاً بكم". تسلقا المرتفعات في طريق تستدير بهما حول قمم جبلية جرداء، ووديان تشابهها عرياً. وهي تعرف أن كلمة "باميرز"، وهي اسم لنوع خاص من الوديان التي يبدو فيها الشتاء بعيداً والمطر نادراً. وكان فيها الكثير من أشجار الشَّيح الخفيضة العلو، وأشجار الصنوبر المقزومة، مع وجود مناطق عرَضية من المراعي الخصبة. وهي في غالبيتها، منطقة خالية من السكان. خلا قرى قليلة متناثرة هنا وهناك. مع بعض الخيام الجلدية العرَضية. وهي تختلف كثيراً عن سلسلة جبال الألب، وسلسلة جبال البيرينيه حيث كانت قد مرّت فوقها هي وثورفالدسن، قبل ذلك، معاً.

"لقد قرأتُ عن هذه المنطقة"، قالت. "لكنني لم آتِ إلى هذا الجزء من العالم من قبل. وإنني أكاد لا أصدق ما تراه عيناى."

"لقد أحبّ إليّ جبال الباميرز وكان يتحدث عنها بكل إجلالٍ ومهابة. وأستطيع الآن أن أدرك لماذا."

"هل عرفته معرفة جيدة؟"

"بالطبع، نعم. لقد عرفتُ وإيلديه. وكان صديقاً شديداً القرب لولدى. وقد عاش حياته عملياً في كريستيان غايد عندما كان هو وولدى كاي صبيين."

بدا ثورفالدسن مرهقاً في مقعده بجانب السائق ليس بسبب رحلة الطائرة المرهقة فحسب، بل لأمرٍ آخر تعرفه. "إن كوتون سوف يهتم لأمر كاسيوبيا."

"أشك في أن زوفاستينا تحتفظ بإيلي." بدا ثورفالدسن مذعناً بشكلٍ مفاجئ. "إن فيكتور على حق، فقد يكون إيلي الآن ميتاً."

صار الطريق مسطحاً فيما كانا يشقان طريقهما خلال إحدى الممرات الجبلية إلى بطن وادٍ آخر. وكان الهواء في الخارج دافئاً بدرجة مدهشة، المرتفعات الأقل انخفاضاً عارية من الثلوج. فلا جدال في أن دولة اتحاد آسيا الوسطى محظوظة بجمال الطبيعة الساحر. لكنها كانت قد قرأت أيضاً وثيقة معلوماتٍ من إعداد وكالة السي آي إيه، تقول إن دولة الاتحاد قد استهدفت في خطتها كامل المنطقة، بالتطوير الاقتصادي. فالكهرباء، والماء، والهاتف، وإنشاءات الصرف الصحي، كانت تمتد مع

عملية تحسين الطرق. وهذا الطريق السريع لم يكن سوى فاتحة الأمثلة على ذلك. فالإسفلت فيه يبدو أنه ما يزال جديداً.

وكانت الشمعة التي تلتف حولها الرقاقة الذهبية لا تزال ضمن علبة من الستاينلس ستيل ترقد فوق المقعد الخلفي. وهي "سيتايل" عصرية تُفصح عن كلمة من اللغة الإغريقية القديمة KΛΙΜΑΞ. إلى أين ستقودهم هذه الكلمة؟ إنهم لا يملكون فكرة. لكن لربما كان شيء ما، في منتجع إيلي لوند الجبلي، يمكنه شرح أهمية وفحوى هذه الكلمة. ولقد جاء أيضاً مسلّحين. فهما يصطحبان مسدسي 9 ملم مع مخازن إضافية هدية من القوات العسكرية للولايات المتحدة لم تتردد الصين في تمريرها.

"إن خطة مالون." قالت له. "قد تنجح."

لكنها كانت توافق كوتون في اعتقاده أن المجندين المرتزقة، من أمثال فيكتور، لا يمكن الركون إليهم. فهي تفضل العملاء المتمرسين عليهم، عملاء من الذين يهتمون بالتفكير في أمر مستقبلهم التقاعدي.

"إن مالون شديد الاهتمام بكاسيوبيا"، قال ثورفالدسن. "إنه لم يصرّح بذلك مرة. لكنني أستطيع قراءة هذه الحقيقة في عينيه."

"لقد لمحت الألم في عينيه عندما أخبرته أنها مريضة."

"إن هذا هو أحد الأسباب التي دعنتني إلى الإعتقاد أن كاسيوبيا وإيلي قد يربط الواحد منهما صلة بالآخر. فإصابة كليهما بالمرض ذاته، قد صارت بشكل أو بآخر، جزءاً من انجذاب الواحد منهما لصاحبه."

مرّاً عبر قريتين أخريين من القرى المتفرقة، وتابعا القيادة غرباً. أخيراً، ومثلما كانت كاسيوبيا قد أخبرت ثورفالدسن، تشعب الطريق إلى شعبتين، فأنحرفا شمالاً. وبعد عشرة كيلومترات، صارت المشاهد الطبيعية أكثر غنى بالغابات. وإلى الأمام، وقرب طريق خاص ملتف الشجر من جانبيه بشدة، لمحت شعاراً مكتوباً على لوحة مثبتة إلى قضيبٍ موتورٍ إلى جانب الطريق، وقد كتبت فيه كلمة "سوما".

"يبدو أن إيلي هو من أطلق هذا الاسم على هذا المكان"، قالت. "قياساً على اسم الضريح الذي بُني أساساً للإسكندر في مصر."

أدارت مقودَ السيارة، فصارت تتمايل وتضطرب على الطريق الخشن. وبعد أن تصاعد الممر في خطٍّ لولبيٍّ قُرابة ربع ميل بين الأشجار: إذا به ينتهي عند كوخٍ مؤلَّف من طابقٍ واحدٍ، مصنوع من ألواح نصف مصقولة من الخشب السميك، وله شرفة صغيرة تظلُّ الباب الأمامي.

"يبدو وكأنه أشبه بشيءٍ ينتمي إلى شمالي الدانمارك"، قال ثورفالدسن. "وهذا شيءٌ لا يدهشني، فأني متأكد من أنه كان يعتبر هذا المكان نوعاً من الوطن بالنسبة إليه."

أوقفت السيارة، فترجلا منها في دفء الأصيل. وكانت الأشجار كلها من حولهما صامتة. ومن خلال ظلال الشجر خُيِّل إليها أن مزيداً من الجبال يمكن أن ترى شمالاً. كما شوهد نسرٌ يحلق فوقهما.

انفتح الباب الخارجي للكوخ.

فاستدارا معاً.

وخرج رجلٌ من الباب.

كان طويلاً ووسيماً، وله شعر أشقر مَوَّج، وهو يرتدي سروالاً من الجينز، فوقه قميصٌ طويل الكُمَيْن. وينتعل زوجاً من الأحذية العالية الساقين - وقف ثورفالدسن متسماًراً، لكنَّ عينيه سرعان ما تخضبتا. لقد قرأت ذاكرة الرجل الدانماركي ملامح هذا الشاب.

إنه إيلي لوند.

الفصل السبعون

سمرقند

الساعة 11:40 قبيل الظهر

شمّت كاسيوبيا روائح التبن والخيول فعلمت أنها محتجزة قرب إصطبل. كانت الغرفة أشبه بمضافة، والأثاث الذي تحويه يكفي للغرض وإن يكن ليس على شيء من الأناقة، ولعلها مكانٌ لسكنِ الخدم. ألواحٌ خشبية أقفلت النوافذ عن العالم، أما الباب فموصد، وقد افترضت أنه محروسٌ بالحراس أيضاً. وأثناء مرورها على طريق القصر، كانت قد لمحت وجودَ جنودٍ رماةٍ متمركزين على شرفات السطح. الأمر الذي يعني أن محاولة الهرب من هذا السّجن قد تكون مقامرة بالحياة خاسرة. هذا، والغرفة مجهزة بهاتف معطل، وتلفاز لا تغذيه إشارة. جلست على حافة السرير، وعجبت لنفسها. ترى ما ستكون الخطوة القادمة؟ لقد استطاعت إحضار نفسها إلى آسيا. وماذا بعد؟ حاولت أن تغري زوفاستينا عن طريق التلاعب على هواجسها. ولكن إلى أيّ درجة قد نجحت في ذلك، فهذا أمرٌ يبقى من الصعب تقديره. لا بد أن نبأ سيئاً كان قد أقلق زوفاستينا في المطار. نبأً كان كافياً لجعلها فجأة لا تعود تعتبرها في المقام الأول من الاهتمام. فهي على الأقل لا تزال حيّة ترزق.

مفتاحٌ أدير في قفل الباب، فانفتح على مصراعيه.

دخل فيكتور متبوعاً برجلين مسلحين.

"انهضي"، قال لها.

بقيت تجلس ساكنة.

"لا يحسن بك أن تتجاهليني."

هَجَمَ إلى الأمام وصفعها بظهر كفه على وجهها نافضاً إياها عن السرير لتقع على البساط. لَمَلَمَتْ نَفْسَهَا، ونَهَضَتْ على قدميها، مستعدة للقتال. رفع الرجلان الواقفان وراء فيكتور سلاحهما.

"هذا كان من أجل رافائيل"، قال جلاًدُها.

مَلَأَ الاهتياجُ عينيها. لكنها علمت أن هذا الرجل يفعل بالضبط ما هو متوقع منه أن يفعل. لقد قال لها ثورفالدسن إن هذا الرجل حليف، رغم أنه حليف سري. وهكذا، فإنها دخلت معه في اللعبة. "إنك لا تكون شرساً سوى عندما يقف وراءك رجلان مسلحان بالمسدسات."

ضحك فيكتور. "أتظنين أنني أخشاك؟ هل هذا هو ما تريدين قوله؟"

تَلَمَّسَتْ شَفَتَهَا السفلى المرضوضة.

قفز فيكتور نحوها، ولوى ذراعها إلى ما وراء ظهرها، ورفع زندها في اتجاه كتفيها. لقد كان قوياً لكنها كانت على ثقة من أنه كان يعرف ما يفعل. استسلمت له، فأطبق القيد على معصمها الأول، ثم على الثاني. كما تمّ تقييد كاحليها أيضاً بالأصفاد. ثم طرحها فيكتور أرضاً، وقلبها لتستلقي عن ظهرها.

"أحضراها." أعطى أمره.

أَمْسَكَ بها الرجلان من قدميها وكتفيها، وحملوها إلى الخارج عبر ممر تعلوه الحصى، ثم توجهوا بها إلى داخل الإصطبل، حيث قاما بقذفها على معدتها على ظهر حصان. اندفع الدم إلى رأسها بعدما تدلّى وجهها إلى الأسفل لتواجه الأرض. قام فيكتور بشدّ وثاقها بشكلٍ مُحْكَمٍ بحبلٍ خشن، ثم قاد الحصان إلى الخارج.

مشى مع رجالٍ ثلاثة آخرين مع الحيوان في صمتٍ عبر مساحةٍ ممتدةٍ مُعَشَبَةٍ يبلغ طولها قرابة طول ملعب كرة قدم. وكان ثمة قطعٌ ماعزٍ يرعى في الحقل منتشراً ضمن نطاق أشجار عالية تحدّد محيط الحقل. وبعد اجتيازهم لفسحة الفضاء هذه، دخلوا غابة، وعبروا ممراً يفضي إلى مساحة خالية مسوّرة بالمزيد من الأشجار.

فُكَّت عنها الأربطة. وأُنزلت عن ظهر الحصان، فوقفت على قدميها. وقد

استغرق الأمر منها بعض الوقت حتى تسرّب احتقان الدم عن رأسها وعاد إلى مجاريه العادية. أمّا المشهد أمام ناظريها فكان يأتي ويذهب إلى أن عاد إليها وضوح الرؤيا فشاهدت شجرتي حور عاليتين قد أنيختا إلى الأرض، ورُبطتا إلى جذع شجرة ثالثة. كانت الحبال تمتد من قبة كل من الشجرتين، وقد أُلقيت أطرافها الأخرى على الأرض. تم جرّها في اتجاه الحبال، حيث حُررت يداها من القيود، ورُبط كل من معصمها إلى حبل.

ثم أزيلت السلاسل من كاحليها.

وقفت بذراعين ممدودتين وعرفت ماذا سوف يحدث لها إذا تمّ تحرير الحورتين من عقالهما.

وهناك، من الغابة، اقترب حصان آخر. فحلّ طويل مشنشل بالذهب تعلو صهوته إيرينا زوفاستينا. وكانت رئيس الوزراء تنتعل زوجاً من الأحذية الجلدية العالية الساق، وسترة جلدية ملحفة. مسحت المنظر العام بنظرة شاملة، وصرفت فيكتور وبقية الرجال. ثم ترجّلت عن جوادها.

"لم يبق هنا سوى أنت وأنا." قالت لها زوفاستينا.



لكز فيكتور الحصان وانطلق عائداً إلى الإصطبل. وكان حالما وصل إلى القصر، قد عاجلته زوفاستينا بالطلب إليه أن يقوم بإعداد الشجرتين. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تطلب منه ذلك. فمئذ ثلاثة أعوام كانت قد قامت بإعدام رجل بالطريقة نفسها لأنه تأمر لإحداث ثورة عليها. لقد وجدت أنّ لا سبيل لتحويله إلى موالٍ لها. لهذا، فقد ربطته إلى جذعي شجرتين وأمرت بإحضار المتآمرين معه ليشهدوا موته. ثم قامت هي بنفسها بقطع الأربطة التي تُمسك الشجرتين. تمزّق الجسد عندما تراجعت الشجرتان إلى وضع الوقوف من جديد. وهكذا بقي جزء من الجسد يتدلى من شجرة والأجزاء الباقية تتدلى من الأخرى. بعد ذلك، صار تحويل زملائه إلى موالين أمراً هيئاً.

وقد أخذ الحصان يعدو نحو زرييته.



انتظر مالون في غرفة إسراج الخيول. وكان فيكتور قد تمكّن من تهريبه إلى داخل القصر في داخل صندوق السيارة الخلفي. ولم يقد أحدٌ بسؤال رئيس فرقة الحرس ولا بتفتيشه. وعندما تمّ إيقاف السيارة في مرآب القصر، انسحب مالون إلى الخارج. وكان فيكتور قد زوّده بأوراق يبرزها كأحد موظفي القصر. وكانت زوفاستينا هي الوحيدة القادرة على تمييزه.

وبوجود فيكتور في صحبته، فقد تمكن مالون من السير بسهولة إلى الإصطبلات. حيث قال له فيكتور إنه يستطيع الإنتظار هناك في أمان.

لم يكن يروق له هذا الوضع. فقد كان هو وكاسيوبيا تحت رحمة رجلٍ لا يعرفان عنه شيئاً. وإلى جانب تأكيدات إدوين دايفيس أن فيكتور رجل قد برهن أنه يمكن الاعتماد عليه حتى الآن، فإنه كان يأمل فقط في أن يتمكن دايفيس من إرباك زوفاستينا بما يكفي لكي يشتري له وقتاً. وكان لا يزال يحمل مسدسه فجلس صابراً طيلة الساعة الفائتة. ولم تأت حركة واحدة من خارج الإصطبل.

وكانت الإصطبلات نفسها فاخرةً تليق بالقائد الأعلى لدولة اتحادية شاسعة. قام بإحصاء أربعين معلفاً عندما أحضره فيكتور إلى هذا المكان للمرة الأولى. وكانت غرفة السروج مجهزة بمختلف أنواع السروج الجيدة النوعية، وكذلك بالتجهيزات الغالية الثمن. ولم يكن هو خيئلاً ماهراً لكنه كان يعرف كيف يمسك بعنان الحصان. وكان شبّاك الغرفة الوحيد يفتح إلى خلفية الإصطبل ولا يُفسح مجالاً للنظر.

كفى. لقد جاء وقتُ التصرّف.

سحب مسدسه وقام بفتح الباب.

ليس من أحدٍ يبدو أمام مجال النظر.

استدار يساراً واتجه نحو مدخل مخزن العلف في الطرف البعيد ماراً بالقرب من معالفٍ رُبِطت إليها فحولٌ لافتةٌ للنظر.

لمح خيالاً خلف الأبواب، وهو يعدو بشكلٍ مستقيم نحو الإصطبل. تحرّك وعانق الجدار، اقترب من المخرج، ومسدسه جاهز لإطلاق النار. سكت وقع الحوافير، وسُمع زفير أنفاس الحصان بعد أن أجهده شدة سرعة العدو.

نزل الخيال عن السرج.

ودق كعباه وجه الأرض.

استعدّ لإطلاق النار. اندفع رجلٌ إلى الداخل ثم توقف فجأة واستدار. إنه فيكتور.

"إنك لا تحسن التقيد بالتعليمات. لقد كنتُ طلبت منك البقاء في غرفة السروج."

قام بخفض مسدسه. "لقد احتجت لاستنشاق بعض الهواء."

"لقد أمرت بإخلاء هذا المكان، لكن رغم ذلك فقد يخطر لأحدهم أن يأتي."

لم يكن في مزاجٍ يسمح له بتقبُّل الوعظ. "ما الذي يجري؟"

"الأمر يتعلق بكاسيوبيا، وهي الآن تكابد محنة عظيمة."

الفصل الحادي والسبعون

راقبت ستيفاني ثورفالدسن وهو يعانق إيلي لوند عناقاً محموراً في تأثر أبٍ قد عثر على ولده الضائع.

"إنه لشيءٌ رائعٌ أن أتمكن من رؤيتك." قال ثورفالدسن. "لقد حسبتُ أنني قد أضعتك."

"وما الذي يأتي بك إلى هذا المكان؟" سأله إيلي وايلدهشة تخالط صوته.

بدا أن ثورفالدسن قد تمكن من استعادة توازنه، فقام بتقديم ستيفاني.

"يا إيلي،" قالت "إننا نبدو كأننا مومياءات مصرية، قد حُفظت منذ زمنٍ بعيد. إن أحداثاً كثيرة تحدث لنا. هل نستطيع الكلام؟" قادهما معاً إلى داخل الكوخ. كان الكوخ مكاناً أربد لا يكاد يجد المرء فيه سوى الكثير من الكتب والمجلات والأوراق. وقد لاحظت أن لا أثر فيه لأي شيء يتغذى بالكهرباء.

"ليس من تيارٍ كهربائيٍّ في هذا المكان،" قال "إنني أطهو طعامي على الغاز، وأتدفأ على الحطب. لكن يوجد ماء نقّي، وكثيرٌ من الخصوصية."

"وكيف وصلَ بك الأمرُ إلى هنا؟" سأله ثورفالدسن. "هل تحتجزك زوفاستينا في هذا المكان؟"

بدت نظرة حائرة على وجه الرجل. "لا، أبداً. بل هي التي أنقذت حياتي. كما أنها تقوم على حمايتي."

استمعا إلى شرحٍ قدّمه إليهما إيلي، كيف أن رجلاً اقتحم بيته في سمرقند وقام باحتجازه بحدّ السلاح. ولكن قبل أن يحدث أي شيء آخر، قام شخصٌ آخر

بإنقاذه، مجهزاً على الأول. ثم احترق منزله والمهاجم ما يزال في داخله. وقد تمّ نقل إيلي إلى مقر زوفاستينا حيث بقي فيه طيلة الأشهر القليلة الماضية. وثمة حارس يعيش في القرية هو الوحيد الذي يأتي لتفقد أحواله مرتين في كل يوم مُحضراً له معه التموينات.

"وهذا الحارس يحمل هاتفاً جوالاً،" قال إيلي. "وهذه هي الوسيلة التي نستعملها أنا وزوفاستينا للتواصل."

ولقد أرادت ستيفاني أن تعرف منه. "هل قمت بإخبارها عن أحجية بطليموس؟ أو عن ميداليات الفيل؟ أو عن مقبرة الإسكندر الكبير المفقودة؟"

ضحك إيلي. "إنها تهوى التحدث عن هذه الأشياء. والإلياذة هي شغفها الكبير، هو شغف يتعدى ذلك إلى كل ما هو إغريقي. فقد قامت بسؤالي كثيراً من الأسئلة عن مثل هذه الأمور. وهي لا تزال تتأثر على ذلك. فهي تسألني المزيد من الأسئلة في كل يوم تقريباً. وإني كنت قد أخبرتها عن الميداليات وعن القبر الضائع. فهذا شيء صحيح."

لقد استطاعت أن تستبين أن إيلي لا يملك تصوّراً عن ما يحدث. ولا عن الخطر المحيق بهم جميعاً، بمن فيهم هو. "إن كاسيوبيا سجينّة تحت يد زوفاستينا. وقد تكون حياتها تحت الخطر الشديد."

رأت أن كل علامات الثقة قد غادرت. "وهل كاسيوبيا هنا؟ هل هي في الاتحاد؟ وما الذي يدعو رئيس الوزراء إلى إيدائها؟"

"يا إيلي،" قال ثورفالدسن، "دعنا نقول لك باختصار، إن زوفاستينا ليست منقذتك، بل هي سجانك، مع أنها قد بنت لك سجنًا نكياً. سجنٌ كان كفيلاً باحتوائك دون كبير جهد."

"أنت لا تدري كم من مرة رغبت في الاتصال بكاسيوبيا. لكن رئيس الوزراء كانت دائماً تقول لي: إننا في حاجة إلى الرويّة في الوقت الراهن. فاتصالي قد يعرّض حياة آخرين للخطر، بمن فيهم كاسيوبيا نفسها، إذا جعلتهم يرتبطون بي. وقد أكدت لي أن كل ذلك سيزول قريباً فيصبح بإمكانني من جديد أن أعود إلى الاتصال بأي شخص أريد الاتصال به. كما أن بإمكانني العودة مجدداً إلى عملي."

قررتُ ستيفاني الدخول مباشرةً إلى النقطة الجوهريّة. "لقد قمنا بحلّ أحجية بطليموس. كما عثرنا على سيتايل تحتوي على كلمة واحدة." ناولته ورقةً مربعة الشكل، كتبت عليها الكلمة التالية: KAIMAE "هل تستطيع ترجمتها؟"

"إن كلمة 'كلايمكس'، هي الكلمة الإغريقية القديمة لكلمة 'سَلْم'."

"وما هي الدلالة الممكنة التي يمكن أن يقود إليها هذا التعبير؟" سألته.

بدا كأنه يريد أن يعفي نفسه من أي توقُّع. "هل هذه الكلمة واردةٌ في سياق الأحجية؟"

"إنها من المفترض أن تشير إلى اسم المكان الذي يقع فيه القبر"

"لامِسُ قدس أقداس الوهم المذهب"

"قم بشطر طائر الفينيق إلى شطرين"

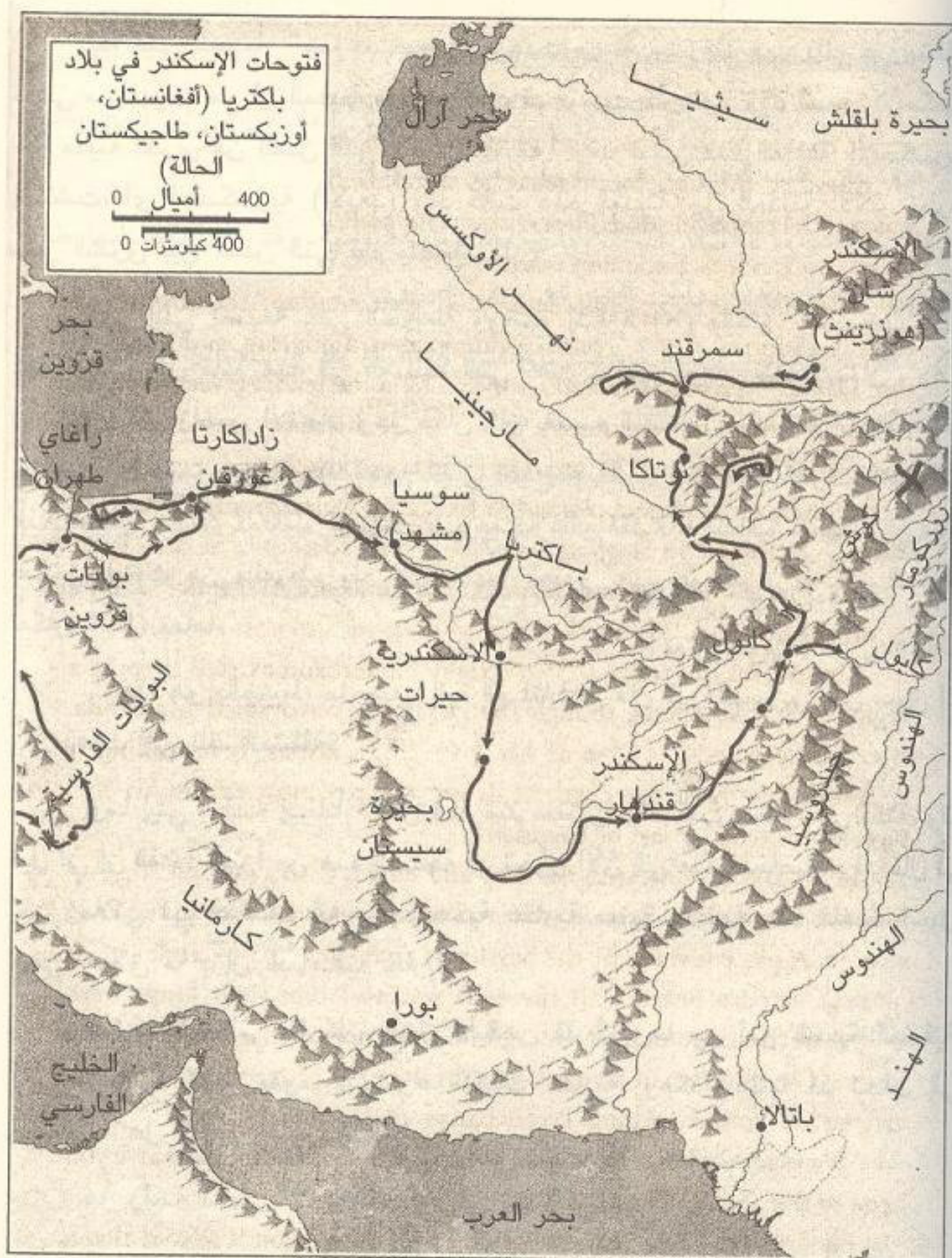
"وإن الحياة سترشك إلى مقاسات قبوري."

لقد فعلنا كلّ ذلك، "وهنا أشارت إلى الورقة. "وهذا ما وجدنا."

بدا إيلي وكأنه أحسّ بفداحة الأمر حتى دون تلقين. مشى نحو إحدى الطاولات، واستلّ عنها كتاباً من إحدى كدسات الكتب. تصفّحه حتى وجد ما يبحث عنه في باطنه، ثم أعاد الكتاب إلى الطاولة وهو مفتوح الدرفتين. تقدم ثورفالدسن إلى الكتاب ليرى خريطةً عنوانها: "فتوحات الإسكندر جنوب غرب آسيا."

"كان الإسكندر قد زحف بجيشه شرقاً واستولى على ما يسمى اليوم بأفغانستان والاتحاد - الذي كان يوماً ينقسم إلى: تركمانستان، وطاجيكستان، وقيرغيزستان. لكنه لم يقدّر باجتياز جبال الباميرز إلى بلاد الصين. بدلاً عن ذلك فإنه انحرف جنوباً إلى بلاد الهند حيث توقفت فتوحاته هناك عندما حصلت حركة تمردٍ في جيشه." أشار إيلي إلى الخريطة. "وهذه المنطقة الواقعة بين نهري جاكسارتز والأوكسُس، التي كان الإسكندر قد قهرها في العام 330 ق. م. وإلى الجنوب كانت بلاد باكتريا الواقعة شمالي سيثيا."

قامت على الفور بوصل النقاط. "ذلك هو المكان الذي تعلّم فيه الإسكندر عن الترياق من السكان السيثيين."



بدا إيلي معجباً. "هذا صحيح ثم وجدت مدينة سمرقند بعد ذلك في منطقة تدعى سوغديانا، مع أن المدينة نفسها كانت قد سُميت كاركندة. وقد أسَّس الإسكندر هنا مدينةً أخرى من المدن التي سُميت بإسمه" وقد سمَّى هذه المدينة: الإسكندرية إستشت، أي الإسكندرية (الأبعد) وقد كانت هذه المدينة هي المدينة الأكثر تطرفاً نحو الشرق بين المدن التي قام بتأسيسها."

مرَّر إيلي إصبعه على الخريطة ووضَعَ إشارة (x) بالقلم 'كلايمكس' كان عبارة عن جبلٍ قائمٍ هنا، في المنطقة التي كانت تسمى يوماً، 'طاجيكستان'، وهي الآن جزء من أراضي الاتحاد. وهو مكان كان يقدسه السيثيون، واستمرَّ تقديسه بعد ذلك مع الإسكندر عندما عقد معهم اتفاق صلح. ويقال إن ملوكهم كانوا يُدفنون في هذه الجبال، مع أن لا دليل قد ظهر على صحة ذلك. فقد قام متحف سمرقند بإرسال بعثتين للبحث عن ذلك فلم يتمَّ لأيٍّ منهما العثور على أيِّ شيء. إنه في الحقيقة لمكانٌ قاحلٌ تماماً."

"وهذا هو بالضبط، ما يشير إليه السيتايل"، قال ثورفالدسن. "هل سبق لك وأن ذهبت إلى تلك المنطقة؟"

أوما إيلي برأسه إيجاباً. "كان ذلك منذ سنتين. وقد كنتُ عضواً في بعثة. وقد قيل لي إن قسماً كبيراً من هذه المنطقة قد تحوَّل الآن إلى مُلكية خاصة. وقد قال لي أحد زملائي في المتحف أنه يوجد ملكية عقارية مبنية ضخمة عند قاعدة الجبل. مبنى عملاق ما يزال البناء فيه جارياً."

تذكرت ستيفاني ما كان إدوين دايفيس قد أخبرها من أمر عصابة البندقية، وعن الأعضاء الذين يقومون بشراء مُلكيات عقارية، وهكذا، فإنها قد لجأت إلى حدسها. "هل تعرف اسم مالكها؟"

هزَّ رأسه نافياً. "لا فكرة لديَّ عن ذلك."

"علينا أن نذهب"، قال ثورفالدسن. "يا إيلي هل تستطيع أن تدلِّنا على ذلك المكان؟"

أوما إيلي بالإيجاب. "إنها منطقة تبعد حوالي ثلاث ساعات جنوباً من هنا." "وكيف تشعر بحالك؟"

عرفت ستيفاني ما يعنيه الرجل الدانماركي.

"إن زوفاستينا تعرف،" قال إيلي "في الأحوال العادية إنني لن أبوح بشيء عن هذا. لكن هذه الظروف هي ظروف غير عادية.

وزوفاستينا درجت على تزويدي بعلاجاتي اليومية. وقد قلت لكما إنها طالما عاملتني معاملة جيدة. ولكن كيف هو حال كاسيوبيا؟"

هز ثورفالدسن رأسه أسفاً. "يؤسفني أن أقول لك: إن صحتها الآن قد تكون واقعة في آخر لائحة همومها."

صوت محرك سيارة سُمع وهو يقترب آتياً من خارج الكوخ. تصلبت ستيفاني واندفعت نحو النافذة. نزل شخص من سيارة أودي وهو يحمل رشيشاً أوتوماتيكياً.

"إنه حارسي." قال إيلي دون أن يلتفت. "إنه من سكان القرية." أطلق الرجل النار على عجلات سيارتهما.

الفصل الثاني والسبعون

سمرقند

كانت كاسيوبيا تواجه صعوبة في تقدير اتجاهات سلوك زوفاستينا.

"لقد تلقيت زيارة للتو من المستشار المساعد للرئيس الأمريكي، لشؤون الأمن القومي. وقد قال لي الشيء نفسه الذي كنت قد قلته لي في المطار. وهو أنني قد عميت عن شيء ما، في البندقية. وهو شيء أنت تعرفين ما هو."

"وهل تعتقدين أن ما تفعلينه الآن بي سيدفعني إلى القيام بشرح هذا الموضوع لك؟"

نظرت زوفاستينا نظرة إعجاب إلى شجرتي الحور الكبيرتين اللتين يربط جذعيهما جبل متين، معاً إلى الأرض. "لقد طلبت إعداد هذه البقعة الخلاء من الأرض منذ زمن بعيد. ولقد خبر فيها العديد من الناس عذاب انشلاع أجسادهم فيها بينما هم أحياء. وفي الحقيقة فإن اثنين منهم لم يموتا فوراً بعد انفصال أذرعهما عنهما فاستغرق الأمر منهما بضع دقائق إضافية ليصل بهما النزيف حتى الموت." هزّت رأسها. "إنها طريقة رهيبة للرحيل عن هذه الحياة."

وجدت كاسيوبيا نفسها دون حولٍ أو طولٍ. إذ أن ثمة القليل مما تستطيع أن تقدمه لنفسها سوى القيام بمخادعة عدوتها. أمّا فيكتور الذي كان من المفترض به أن يساعدها في ورطتها فإنه لم يقدم لها شيئاً سوى التسبب في تعقيد محنتها.

"بعد موت فستيشيون، قام الإسكندر بقتل طبيبه الشخصي بهذه الطريقة نفسها. ولقد بدا لي أنها أسلوبٌ عبقرى، فقامت بإعادة الاعتبار لهذه الطريقة في الإعدام."

"أنا كل ما تملكين،" قالتها بصوت خفيض لا يلين.

بدت زوفاستينا شديدة الفضول. "أحقاً هكذا؟ وما هوذا الشيء الذي تملكينه أنت؟"

"يبدو أن إيلي لم يشركك بما أشركني به."

اقتربت زوفاستينا إلى مسافة قريبة منها. لقد كانت امرأة عضلية، لها وجه شاحب. وكانت نظراتها الغضوبية المجنونة التي تفصح عن نفسها عرضاً من خلال عينيها الفاحمتين المضطربتين، تبعث على القلق الشديد، كيف ذا، وأحشاؤها تنقبأ الآن بالفضول والغضب معاً! "هل تعرفين شيئاً عن الإلياذة؟ عندما ينفلت غضب أخيل أخيراً، فيقدم على قتل هكتور، فإنه يقول قولاً جديراً بالاهتمام: "إن أمنيته الوحيدة الآن هو لو يستطيع غضبي أن يمكنني من تقطيع أوصالك لأكلها نيئة بسبب فعلتك. ولن يستطيع أحد أن يُبعد الكلاب عن رأسك حتى وإن افتدأك بفدية مقدار قيمتها عشرة أضعاف مقدار قيمة ما قد جنته يدك".

"قولي لي لماذا جئت إلى هنا؟"

"أنت التي جلبتني معك."

"لكنك لم تمانعي في المجيء."

"لقد جازفت أنت بالكثير بقدومك إلى البندقية. لماذا؟ إن السبب لا يمكن أن يكون كله سياسياً."

لاحظت هنا أن عيني زوفاستينا قد غدتا أقل شراسة.

"أحياناً تنتدبنا الحياة لنعمل من أجل الآخرين. ولنخاطر في سبيلهم. وليس هنالك مهمة تستحق الاعتبار ما لم تنطو على بعض المخاطرة. لقد كنت أبحث عن قبر الإسكندر، أمله أن أجد إجابات عن بعض المسائل المربكة. ولا شك في أن إيلي كان قد أخبرك عن ترياق الإسكندر. ومن الذي يدري ما إذا كان ثمة شيء هنالك؟ لكن أن يتمكن المرء من العثور على المكان، أتدريين كم أن ذلك يمكن أن يكون رائعاً!"

كانت زوفاستينا تتكلم في شوق وعجب أكثر مما تتكلم بدافع الغضب. بدت منجذبة بعمق إلى تلك الفكرة. فمن جهة أولى، تطرح هذه المرأة نفسها بطريقة

رومنسية متهورة، فيما تستحوذ عليها مبادئ العظمة الآتية من الفتوحات الكبيرة، ومن جهة ثانية - ووفقاً لـ: ثورفالدسن - فإنها تخطط وتتآمر لقتل ملايين البشر.

أمسكت زوفاستينا طرف نغن كاسيوبيا بقبضة شديدة. "عليك أن تقولي لي الآن كل ما تعرفينه."

"لقد كذب الكاهن عليك. ففي خزانة الكاتدرائية يوجد تميمة كان قد عُثر عليها بين الرفات العائدة للقديس مرقس. إنها جُعل قلبي محفور عليه رسم طائر فينيق. هل تتذكرين ماذا تقول الأحجية 'لامس قدس أقدس الوهم المذهب، وقم بشطر طائر الفينيق إلى شطرين'."

لكن زوفاستينا بدت كأنها لا تسمع شيئاً. "أنت جميلة." كانت أنفاسها عابقة برائحة البصل. "لكنك كذوبة وغشاشة، ولم تأتِ إلى هنا سوى لمخادعتي." أرخت زوفاستينا قبضة يدها عن نغن كاسيوبيا وتراجعت. وسمعت كاسيوبيا ثغاء قطيع الماعز.



"إننا في ورطة." قالت ستيفاني. "هل هناك من طريق آخر للخروج من هنا؟" أشار إيلي إلى المطبخ.

اندفعت هي وثورفالدسن إلى الأمام في اللحظة التي انفتح فيها باب الكوخ إلى الداخل. بدأ الرجل يطلق الأوامر بلغة لم تكن لتعرفها. وجدت باب المطبخ وفتحته طالبة من ثورفالدسن التزام الهدوء وكان إيلي يحدث الرجل بلُغته.

تسللت إلى خارج الكوخ وثورفالدسن يتبعها. نار بندقية أوتوماتيكية تفجرت من داخل الكوخ وقد اخترقت الرصاصات قطع الخشب الثقيلة الموجودة وراءهما. قفزا إلى الأرض بعدما انفجر زجاج نافذة متناثرأ حولهما. وجدت رصاصات أخرى طريقها نحو الأشجار. سمعت إيلي يصرخ ببعض الكلمات في وجه مهاجمهما فاستفادت من تلك اللحظة لتقفز على قدميها وتجري حول الكوخ نحو السيارة فيما

بقي ثورفالدسن على الأرض مكافحاً للنهوض. وكان جلُّ ما تأمله هو أن ينجح إيلي في إلهاء الحارس لمدة كافية.

وصلت إلى السيارة، وفتحت الباب الخلفي والتقطت أحد الرشاشات الأتوماتيكية.

استدار ثورفالدسن من وراء الكوخ.

اتخذت لها موقعاً دفاعياً مستعملة السيارة حاجزاً ومصوبةً عبر غطاء السيارة ومشيرةً بندقيتها إلى ثورفالدسن لكي يتحوّل مباشرة نحو الشرفة الأمامية. انحرف بعيداً عن خطّ نارها تماماً عندما برز الحارس حاملاً رشيشه إلى مستوى خصره. بدا كأنه قد وقع نظره على ثورفالدسن أولاً، ثم استدار للتسديد نحوه.

لكنها أطلقت عليه طلقتين.

واتخذت الرصاصتان كلتاهما طريقهما إلى صدر الرجل.

أطلقت عليه رصاصتين أخريين.

انهار الحارس وسقط إلى الأرض.

أطبق الصمت عليها. وتجمدت في مكانها لا تتحرك حتى خرج إيلي ووقف خلف جثة الرجل. خرج ثورفالدسن من على الشرفة. وكانت بندقيتها ما تزال مرفوعة. وكلا يديها قابضتان على الخشب والمقبض وهما ترتجفان. لقد أيقنت فجأة أنها قد قتلت الرجل، وهي المرة الأولى التي تقوم فيها بقتل إنسان.

مشى ثورفالدسن إليها. "هل أنتِ على ما يرام؟"

"لطالما سمعتُ الآخرين يتحدثون عن مثل هذا الحدث، فقلت لهم إنها وظيفتكم. لكنني الآن قد فهمتُ. فقتلُ شخصٍ ما، ليس مسألة هيئّة."

"لم يكن لديك بدٌّ من فعل ذلك."

مشى إيلي نحوهما. "لم يشأ أن يصغي إلى كلامي. لقد قلتُ له إنكما لا تشكّلان تهديداً لأحد."

"لكننا نشكّل تهديداً." قال ثورفالدسن. "فأنا متأكد أن الأوامر التي يحملها تقضي بعدم السماح لأحد بالاتصال بك. فذلك هو آخر ما تريده لك زوفاستينا."

بدأت ستيفاني تستعيد جلاء تفكيرها. "علينا الآن أن نغادر."

الفصل الثالث والسبعون

تقدّم مالون في باطن الغابة الكثيفة التي بدت له سوداء وصامتة ومليئة بالخطر المهدّد. تسرّع إلى بقعة خالية قليلاً حيث تنتشر أشعة الشمس دون أن تعيقها الظلّة المورقة. التفت خلفه فلم ير أثراً لفيكتر، لكنه فهم سبب اختفاء الرجل. سمع أصواتاً فضاعف سرعة خطواته متوقفاً خلف جذع ثخين قرب نهاية الشعب.

لقد رأى كاسيوبيا، مربوطة بين جذعي شجرتين وذراعاها ممدودان يميناً وشمالاً. وكانت إيرينا زوفاستينا تقف إلى جانبها.

لقد كان فيكتور على حق. إنها في محنة عظيمة.



كانت زوفاستينا محتارة في أمر كاسيوبيا وغاضبة منها في آنٍ معاً. "يبدو أنك لا تبالين لأمر كوناك على وشك الموت."

"لو كنت أبالي لما أتيتُ معك."

قرّرت أنه قد آن الأوان لإقناع هذه المرأة بأن ثمة سبباً يدعوها إلى التمسك بالحياة. "لقد سألتني في الطائرة عن إيلي. وعمّا إذا كان لا يزال حياً. لكنني لم أجبك عن سؤالك. ألا تريدان الآن معرفة الجواب؟"

"لن أصدق كلمة واحدة تقولينها."

هزّت كتفيها في لا مبالاة. "إنها عبارة تبدو معقولة. ولو كنت مكانك لاعتقدتُ الشيء نفسه."

استخرجت هاتفاً محمولاً من جيبتها وضغطت على أحد أزراره.



سمعت ستيفاني رنين جرس الهاتف. وامتدت نظرتها نحو الرجل الميت الملقى فوق الأرض الصخرية.

وكان ثورفالدسن قد سمع ما سمعته هي، أيضاً.

"إنها زوفاستينا،" قال إيلي. "فهي تتصل بي عادة على الهاتف الذي يحضره الحارس معه."

اندفعت نحو الجثمان، واستخرجت الهاتف وقالت لإيلي: "أجب."



أصغت ستيفاني فيما زوفاستينا تقول. "هنالك شخصٌ ما، هنا يريد التحدث إليك."

وضعت زوفاستينا الهاتف لـصق أنن كاسيوبيا، ولم يكن لديها قصد بأن تقول أي كلمة. لكن الصوت الذي أتاها من الطرف الآخر من المكالمة كان قد بعث هزةً كهربائية في فقارها.

"ما الأمر يا دولة الرئيس؟" توقف الصوت قليلاً. "دولة الرئيس؟"

"يا إيلي. أنا كاسيوبيا."

لكن لم يجبها سوى الصمت.

"أأست إيلي؟ هل أنت هناك يا إيلي؟" اشتعلت عيناها.

"نعم أنا هنا. لكنني فوجئت بك. كم هو جيد أن أسمع صوتك."

"وأن أسمع صوتك أيضاً." ثارت العواطف في كيائها. لقد تغير كل شيء.

"ما الذي تفعلينه هنا؟" سألها إيلي.
 "جئت أبحث عنك. لقد علمتُ... بل أملتُ في ألا تكون ميتاً." حاولت أن تمسكَ
 بزمام عواطفها. "هل أنت في خير؟"
 "إنني في حالٍ طيبة، لكنني قلقٌ عليك. إن هنريك هنا ومعه امرأة تدعى
 ستيفاني نيل."
 كان هذا نبأً جديداً بالنسبة إليها. حاولت كاسيوبيا أن تزيع مخاوفها جانباً وأن
 تستحضر تركيزها. فعلى ما يبدو إن زوفاستينا لم تكن تدري ما الذي يحدث، كائناً
 ما كان المكان الذي تحتجز فيه إيلي، "أخبرِ زوفاستينا ما أخبرتني إياه بالضبط."
 أصغت زوفاستينا إلى الهاتف.



سمعت ستيفاني إيلي يكرر الكلام نفسه. وفهمت الصدمة التي لا بد من أن تكون
 كاسيوبيا تمرُّ بها، ولكن ما الذي يدعو كاسيوبيا لتطلب من إيلي أن يخبر زوفاستينا
 بوجودهما معه؟



"متى وصل صديقك ثورفالدسن وتلك المرأة؟" قالت زوفاستينا لإيلي عبر
 الهاتف.

"لقد قديماً منذ برهة قريبة. وقد حاول حارسك قتلهما، لكنه الآن ميت."
 "يا دولة الرئيس،" صوتٌ جديد تنأى إلى مسمعها، صوتٌ تمكنت من تمييزه
 على الفور.

إنه ثورفالدسن.

"إن إيلي الآن معنا."

"وأنا معي كاسيوبيا فيت. وأودُّ أن أقول أنه ما زال لديها قرابة عشر دقائق فقط تعيش فيها."

"لقد تمكنا من حلِّ الأحجية."

"هذان كثير يأتيني منك ومن فيت. هل لديك دليل على صدق كلامك؟"

"أوه.. بالطبع. سوف نكون عند موضع القبر مع حلول الظلام. لكنك لن تعلمي."

"لكنكما في دولة الاتحاد.. في بلدي،" أوضحت له.

"باستثناء أننا قادران على الدخول، وأخذ سجينك والمغادرة به دون أن تعرفي."

"ولكنك الآن قد جعلتني أعرف."

"إن الشيء الوحيد الذي أريده مما هو لديك، هو كاسيوبيا. اتصلي بنا إذا شئتِ التفاوض."

وانقطع الاتصال.



"أعتقد أن ذلك كان من الذكاء في شيء؟" سألت ستيفاني ثورفالدسن.

"علينا أن نجعلها فاقدة الاتزان."

"لكننا لا ندري ما الذي يحدث هناك."

"قولي لي شيئاً أكون لا أعرفه."

لقد بات واضحاً لها أن ثورفالدسن في حالة قلق.

"علينا أن نثق بأن كوتون يتدبّر الأمور هناك."



قاومت زوفاستينا شعورها بالاضطراب الذي اجتاحت كيائها. هؤلاء الناس شديداً الشكيمة والتصميم. وستلعب معهم لعبة الحرب التالية التي يلعبونها. استلّت سكيناً من جرابها الجلديّ. "إن أصدقاءك هنا. وهم يأخذون إليّ لسوء الحظ، وبخلاف ما يعتقد ثورفالدسن، فإن إليّ ما عاد يملك أيّ شيء لي فيه مأرب." تقدمت إلى مسافة لصيقة بحزمة الحبال. "إنّ ما أفضله هو أن أتفرج على موتك."



رأى مالون كلّ شيء وسمّعه. لقد كان إليّ لوند في ما يبدو هو الذي يتكلّم على الطرف الثاني من المكالمة. لقد رأى كيف بدا التأثّر على وجه كاسيوبيا. لكنه أيقن أيضاً أن شخصاً ما، سوى إليّ كان قد اشترك معه بالكلام على الهاتف أيضاً. أيقن هذا هنريك؟ أكون ستيفاني؟ لا بد من أن يكونا مع إليّ لوند الآن.

لم يكن في وسعه المزيد من الانتظار. اندفع من مكانه. "كفى."

وقفت زوفاستينا فيما كان ظهرها لا يزال مداراً نحوه. ولقد رأى أنها قد أوقفت الفتك بالحبال.

"تلك السكين،" قال لها. "إرمها من يدك."

راقبته كاسيوبيا بنظرة تحملُ الرجاء. لقد شعر هو بذلك أيضاً. إنه شعورٌ مزعجٌ مرير. شعورٌ بدا كما لو أنه متوقّع.

خرج رجلان من بين الأشجار وكان سلاحهما مشرّعاً نحوه.

"سيد مالون." قالت زوفاستينا وهي تستدير نحوه بوجهٍ كالحِ عابقٍ بالشعور بالتشفي. "لن تستطيع أن تقتلنا جميعاً."

القسم
الخامس

الفصل الرابع والسبعون

دخل فينسينتي مكتبته، ثم أغلق الباب وراءه، وسكب لنفسه كأساً من شراب الكوميس، وهو شراب محليّ يستسيغه مصنوع من حليب الخيول المخمر. وهو وإن كان لا يحتوي على الكثير من الكحول، لكنه شراب نشيط. كرع الكوب جرعة واحدة، وتلذذ بمذاقه الذي يشبه مذاق اللوز.

سكب كأساً آخر.

زمرت معدته. لقد كان جائعاً. كان عليه أن يوصي الطاهي على الطبق الذي يريده للعشاء. لعل قطعة ستيك مكتنزة من لحم الخيل مطهّوة على الطريقة اليابانية قد توفي بالغرض. كان يحبّ الإقبال على هذا الطبق المحليّ أيضاً.

احتسى المزيد من شراب الكوميس.

كل شيء بدا على بواكير تفتّحه. لقد كان حدسُه البعيد الذي راوده طيلة تلك السنوات الماضية صحيحاً. لم يبق أحدٌ يقف عقبة في طريقه سوى زوفاستينا.

تقدّم نحو مكتبته. وكان المنزل مزوداً بجهاز اتصالٍ بالغ التطور، بواسطة الأقمار الاصطناعية وله صلات مباشرة مع سمرقند ومع مركز شركته الرئيسي في البندقية. وبينما هو يحمل كأسه بإحدى يديه، لاحظ أن رسالة البريد الإلكتروني قد وصلت من كميل رافين منذ حوالي نصف ساعة. وكان هذا أمراً غريباً. إذ أن رافين رغم كل جذله ومرحه كان لا يثق بأيّ شكلٍ من أشكال التواصل عدا الاتصال المباشر وجهاً لوجه، خصوصاً إذا أمكن التحكم في الزمان والمكان.

فتح الملف الإلكتروني وقرأ الرسالة التالية:

الأمريكيون مرؤوا من هنا

صحا ذهنه المتعب وصار مستنفراً. الأمريكيون؟ كان على وشك أن ينقر على زر "إجابة" عندما انفتح باب مكتبه فجأة، واندفع من خلاله بيتر أوكوئييه.

"أربع طائرات هليكوبتر مقاتلة تابعة للاتحاد تغير علينا."

اندفع نحو النوافذ وحدث غريباً. عند نهاية الوادي الغربية بدت أربع نقاط ترقط السماء الصافية. والنقاط لا تنفك تكبر حجماً.

"لقد ظهرت لتوها في الأفق." قال أوكوئييه. "لا أعتقد أن هذه هي زيارة ودية. أنت تتوقع أحداً؟"

ولم يكن هو يتوقع أحداً في الواقع. عاد إلى الكمبيوتر وقام بمحو الرسالة.

"سيكونون على الأرض في أقل من عشر دقائق." قال أوكوئييه. "لا بد أن شيئاً ما، يسير سيراً خاطئاً."

"أتكون زوفاستينا قادمة في طلب المرأة؟" سأل أوكوئييه.

"إنه احتمال ممكن. لكن كيف يمكن لها أن تكون قد عرفت بهذه السرعة؟"

كان لا يمكن أن يدور في مخيلة زوفاستينا ما هو يقوم بالتخطيط له. وصحيح أنها لا تثق به، مثلما هو لا يثق بها أيضاً. لكن لم يكن هنالك ما يدعو للتكشير عن الأنيا. ليس في هذه المرحلة على الأقل. ثم أنه كانت حوادث البندقية وما جرى عندما تحرك هو للنيل من ستيفاني نيل، والأمريكيون؟

ترى ما هو ذا الشيء الذي يجهل خبره؟

"الحوادث تطوف استعداداً للهبوط." قال أوكوئييه من قرب النافذة.

"إذهب وأتني بها."

اندفع أوكوئييه إلى خارج المكتب.

فتح أحد جوارير مكتبه، واستخرج منه مسدساً. كان لا يزال عليه استخدام فريق حراسة كافية لملكه هذه، وهذه ضرورة كان لا بد منها في نهاية الأمر. وكان من المقرر إنجاز هذه الضرورة خلال الأسابيع القادمة عندما تبدأ زوفاستينا بحشد

استعداداتها للشروع في الحرب. وكان يخطط لاستغلال ذاك التحول من أجل التوسع في احتياطاته الأمنية إلى أوسع مدى.

دخلت كارين وايلد المكتبة وهي تلبس عباءة استحمام وخُفين في قدميها. كانت تسير بمفردها فيما يمشي أوكونييه وراءها.

"كيف تجدین نفسك الآن؟" سألها.

"إنني أفضل حالاً مما كنت عليه منذ شهور. فها أنا أستطيع الآن أن أمشي."

وكان قد تمَّ الإعداد لاستقدام طبيب من البندقية لمعالجة ما أصابها من التهابات ثانوية. ومن حسن الحظَّ أنها كانت جميعاً قابلة للمعالجة. "سيتطلب الأمر بضعة أيام لكي يبدأ جسمك مرحلة الشفاء الكامل. لكن الفيروس في هذه اللحظة قد قُضي عليه بفضل العامل المضادَّ المهاجم الذي لا قِبَل لهذا الفيروس بالاحتماء منه، وهو بالمناسبة، يكابد وضعاً يشبه الوضع الذي نحن فيه الآن."

اتَّخذ أوكونييه موقِعاً له بجانب النافذة. "لقد نزلوا إلى الأرض. إنهم جنود مشاة، آسيويون يبدو أنهم من جنودها."

تطلَّع نحو وايلد. "يبدو أن إيرينا قد تريد استرجاعك. ونحن لا ندرى الآن ما يحدث حولنا."

مشى عبر الغرفة إلى خزانة كتب بُنيت من صميم أثاث الغرفة ولها أبوابٌ أمامية زجاجية مزخرفة. لقد جُلِب الخشب اللازم لصنعها من الصين، مثلما جُلِب الصانع الذي صنع هذه القطعة من الأثاث أيضاً. لكن أوكونييه كان قد أضاف إليها شيئاً إضافياً. ضغط على زرٍّ في جهاز تحكم عن بُعدٍ يحمله في جيبه، فتحررت جهازية آلية ذات نباضاتٍ من أعلى الخزانة وأسفلها جاعلة هذه القطعة الثقيلة تستدير في مكانها بمعدلٍ مئة وثمانين درجة. وكان خلفها يقع دهليزٌ مضاء.

أثار هذا إعجاب وايلد. "إنها مثل المشاهد التي نراها في أفلام الرعب."

"وهو ما قد يتحول إليه هذا الموقف الآن." قال لها. "يا بيتر سلِّهم عمّا

يريدون، وعبر لهم عن أسفي لعدم التمكن من الوجود هنا لاستقبالهم." أشار إلى وايلد. "اتبعيني."



كانت يدا ستيفاني لا تزالان ترتجفان وهي تراقب قيام إيلي بسحب الجثة إلى ما وراء الكوخ. وكانت لما تزل كارهة لفكرة إعلام زوفاستينا عن وجودهما في بلادها. فهي لم تر أنه من الحكمة تنبيه عدوٍ مثلها يملك ما يملكه من القوة والمصادر تحت تصرفه. لكن كان عليها أن تثق أيضاً بأن ثورفالدسن يعرف ماذا يفعل، خاصة وأن حياته هو على المحك أيضاً.

خرج إيلي من باب الكوخ الأمامي يتبعه ثورفالدسن. حمل معه غمراً من الكتب والأوراق. "سوف أكون في حاجة إلى هذه الأشياء."

كانت ستيفاني تقوم على مراقبة الشعب الذي يقود إلى الطريق الرئيسي. بدا كل شيء هادئاً. تقدم ثورفالدسن إلى جانبها. لاحظ يدها المرتجفة فأمسك بها بهدوء. لم يفه أحدهم بكلمة. كانت لا تزال تمسك المسدس بقبضة متعركة. وإذا هي في حاجة لإعادة جمع أفكارها المشتتة، فإنها سألت، "ماذا سنفعل الآن بالضبط؟" "نحن نعرف المكان." قال إيلي. "إنها 'كلايمكس'. لهذا علينا أن نرى ماذا يوجد هناك. فالأمر يستحق إلقاء نظرة." جاهدت فكرها لتستعيد كلمات بطليموس فكررتها. "تسلق المعازل التي أوجدها الله

وعندما تتناهى إلى سطحها

حدق بناظريك نحو العين السمراء

ولا تخش الاهتداء إلى الملاذ البعيد."

"إنني أتذكر الأحجية،" قال إيلي. "أحتاج إلى التأكد من بعض المعلومات عن طريق حث ذاكرتي. لكنني أستطيع أن أفعل ذلك فيما نحن في الطريق."

أرادت أن تعرف. "ما الذي يدعو زوفاستينا للبحث عن ميداليات الفيل؟"

"لقد استبينتُ علاقة تربط الأحجية بإشارة موجودة على الميداليات. إنها

عبارة عن شعار يشبه حرفي (B)، ملتصقين إلى جانبي حرف (A) (باللغة الانكليزية). فهذا الشعار موجود على أحد وجهي كل من الميداليات، كما أنه موجود في الأحجية نفسها. ولا بد من أن تكون لتلك الميداليات أهمية حيث أنه لا يوجد منها سوى قطع ثمانٍ فقط معروفة لدينا، وقد أفصحت زوفاستينا عن عزمها على جمع تلك القطع الثماني من أجل المقارنة في ما بينها، لكنها قد قالت لي إنها عازمة على الحصول عليها بالشراء."

"ليس إلى أيِّ قدر." قالت ستيفاني. "إنني ما زلتُ محتارة. فبما أنه يُفترض أن يكون عمر هذه المسألة قد تجاوز الألفي سنة، ألا يجب أن يكون قد ظهر أيُّ شيء عنها حتى الآن في ما لو كان موجوداً بالفعل؟"

هزَّ إيلي كتفيه. "يصعبُ الحكم في ذلك. لنواجه الأمر، إن مفاتيح اللغز لم تظهر قبلُ إلى العلن. وقد استلزم الأمر اللجوء إلى تقنية الأشعة السينية المطيافية للعثور على الجزء الأكثر أهمية منه."

"لكن زوفاستينا تريد هذا الدليل كائناً ما يكون."

أوما إيلي إيجاباً. "في ذهنها الذي لم أجده مرة سوى غريب الأطوار، فإنها تعتبر نفسها الإسكندر، أو هي أخيل، أو سواهما من الأبطال الأسطوريين. إنها رؤية رومنسية يبدو أنها تروق لها. بل هو فتحٌ تستعذب خوض غماره. فهي تعتقد بوجود نوع من العلاج خلف هذه المسألة. ولقد سبق لها وأن تكلمت في هذا الأمر كثيراً. فلطالما كان هذا هو الموضوع الأكثر أهمية عندها، لكنني لا أدري لماذا." صمت إيلي قليلاً. "أنا لم أقل أن الأمر لم يكن مهماً بالنسبة لي أيضاً. فلطالما صار حماسها يسري كالعدوى. وإنني في حقيقة الأمر قد بدأتُ أعتقد أنه ربما يكون ثمة شيء ينتظر أن يعثر أحدٌ عليه."

كان من البين لها أن إيلي قلقٌ حائرٌ في أمر كل ما جرى. لهذا، فإنها تبرعت بالقول له، "قد تكون على حق."

"وسيكون هذا شيئاً رائعاً. أليس كذلك؟"

"ولكن كيف يمكن أن يكون هناك أيُّ علاقة بين القديس مرقس وبين الإسكندر الكبير؟" سأل ثورفالدسن.

نحن نعلم أن جثمان الإسكندر كان في الإسكندرية حتى حلول العام 391 من العصر المسيحي. وذلك عندما باتت الوثنية محظورة في نهاية الأمر. لكن لم يعد ثمة نكرٌ للجثمان أبداً ولا في أي مكانٍ بعد ذلك. وقد ظهرت رفات القديس مرقس في الإسكندرية من جديد حوالي العام أربع مئة من العصر المسيحي. وعلينا أن نتذكر أن الذخائر الوثنية إنما كان يتم تبنيها لأغراض مسيحية.

"وهناك العديد من الأمثلة الآتية من الإسكندرية، التي كنت قد قرأت عنها. فقد أذيب وثنٌ برونزيٌ للإله ساتورن كان موجوداً في القيصرية ذاتها التي تحولت إلى كاتدرائية مسيحية. وإن نظريتي التي استخلصتها من كل ما استطعت قراءته عن القديس مرقس، وعن الإسكندر، هو أن بطريكاً في القرن الرابع قد ابتدع طريقة ليس لمجرد المحافظة على جسد مؤسس مدينة الإسكندرية فحسب، بل ليقدم إلى المسيحية تلك الذخيرة الشديدة الأهمية، أيضاً. إنه ربحٌ على ربح. وهكذا، وبكل بساطة، تحول جسد الإسكندر إلى جسد القديس مرقس. ومن ذا الذي يستطيع التمييز بينهما؟"

"تبدو هذه مجرد شطحة خيالٍ كبيرة." قالت له.

"لست أدري. أنتما تقولان لي إن بطليموس قد أرفق شيئاً ما، بتلك المومياة الموجودة في الكاتدرائية، شيء قد قادكما إلى هنا مباشرة. وأنا أقول الآن إن النظرية قد بات لها تجذُرٌ في الحقيقة الواقعية."

"إنه مصيبٌ في كلامه." قال ثورفالدسن. "إن الأمر يستحق السفر جنوباً لاجتلاء الأمر."

لم تكن بالضرورة موافقةً على هذا الطرح. لكن أي مكانٍ آخر في العالم كان مفضلاً لديها على البقاء في هذا المكان الذي بات عليهم أن يتحركوا منه. لكن خاطراً خطر لها. "لقد قلت إن المنطقة التي تقع فيها "الكلايمكس" هي الآن مملوكة ملكية خاصة. وقد نواجه عقباتٍ في الدخول إلى المكان."

ابتسم لها إيلي: "ربما سيكون المالك الجديد سعيداً بالسماح لنا بالدخول لإلقاء نظرة."

الفصل الخامس والسبعون

بات مالون واقعاً في الشرك. لقد كان عليه أن يعرف ذلك، فإن فيكتور قد قاده إلى قبضة زوفاستينا مباشرة.

"هل جئت لإنقاذ السيدة فيت؟"

وكان لا يزال يرفع مسدسه.

أشارت زوفاستينا. "من الذي تريد أن تقتله من بيننا؟ عليك أن تختار واحداً من ثلاثة." أشارت إلى حارسَيها. "إن أحدهما سوف يطلق النار عليك قبل أن تتمكن من إطلاق النار على الشخص الآخر." وهنا شرعت له سكينها. "بعد ذلك، سأقوم أنا بقطع هذه الحبال."

وقد وجد أن كلامها صحيح، فخياراته محدودة فعلاً.

"خذوه،" أمرت الحارسين.

اندفع أحد الرجلين إلى الأمام. لكن صوتاً جديداً استرعى انتباه مالون. ثغاء ما لبث أن ازداد تعالياً. كان الحارس على مبعدة عشرة أقدام منه عندما اندفعت الماعز من الممر الآخر الذي يقود إلى ميدان لعبة البوزكاشي. عبرَ في البداية عددٌ قليل من أفراد القطيع ليتبعه القطيع بكامله إلى وسط رقعة الأرض الخلاء.

وكانت الأظلاف تعفرُ التراب.

لمح مالون فيكتور على صهوة جوارٍ وهو يحاول أن يجعل القطيع المتنامي العدد، يندفع أمامه اندفاعاً مكثفاً مستمراً إلى الأمام. فالتقدم العاثر استحال إلى اندفاعٍ مذعور يدفع فيه اللاحق السابق، الأمر الذي أجبر المعزى الجافلة إلى الفرار

الدائم إلى الأمام. وقد بدا أن الاندفاع المحمومة للقطيع قد جاءت بنتيجتها المرجوة. لقد صار الحارسان مرتبكين على الفور وقد استغلّ مالون هذه الفرصة ليطلق النار على الحارس المتجه نحوه.

طلقة أخرى سُمعت، ثم سقط الحارس الآخر إلى الأرض.

ولقد لاحظ مالون أن فيكتور هو الذي كان قد أطلق الطلقة الثانية.

احتشد قطيع الماعز في الساحة كلها يدفع بعضه بعضاً - وفي وسط روعها، أيقنت الماعز أن لا سبيل لها سوى الإنسراب بين الأشجار.

وانعقدت في جوّ الساحة سحابة من الغبار.

حدّد مالون مكان زوفاستينا فشق طريقه نحوها ونحو كاسيوبيا بين الحيوانات الكريهة الرائحة.

وانكفأ القطيع نحو داخل الغابة.

وصل مالون في الوقت ذاته الذي كان فيه فيكتور يترجل عن سرج الحصان، وكان مسدسه ما يزال مرفوعاً، أما زوفاستينا فما زالت تسلّ سكينها لكن فيكتور يحاصرها بين مجال الشجرتين على بعد أقدام قليلة من الحبال التي تشدّ إحداها إلى الأخرى.

"إطرحي السكين من يدك." قال لها فيكتور.

بدت زوفاستينا غير مصدقة. "ما الذي تفعله؟"

"أقوم بإيقافك عن هذا العمل." أشار فيكتور برأسه. "قم بتحريرها يا مالون."

"أقول لك ماذا؟" قال مالون. "قم أنت بتحرير كاسيوبيا وسأقوم أنا بمراقبة دولة الرئيس."

"أما زلت لا تثق بي."

"دعنا نقول إنني أفضل عمل الأشياء على طريقي." رفع مسدسه. "مثلما قال لك إرم السكين من يدك."

"والأ ماذا؟" قالت زوفاستينا. "هل ستطلق النار عليّ؟"

أطلق النار فعلاً على الأرض بين قدميها فتراجعت. "ستكون الرصاصة الأخرى في رأسك."

أرخت قبضتها عن السكين.

"قومي بركلها بعيداً عنك."

فعلت ما طُلب منها.

"ما الذي تفعله هنا؟" سألته كاسيوبيا.

"هل أنا مدين لك بثمن بعض الماعز؟ قال ليفيكتور بينما الأخير يحلّ وثاق كاسيوبيا.

"المرء يستعمل ما يقع تحت يده، لقد بدا هجوماً طريفاً."

ولم يكن بوسعها أن يجادل.

"أأنت تعمل لمصلحة الأمريكيين؟" سألت زوفاستينا فيكتور.

"هذا صحيح."

اشتعلت النيران في عينيها.

نفضت كاسيوبيا الحبال عنها واندفعت نحو زوفاستينا. طوّحت بقبضة يدها لتسد لكمة إلى وجه المرأة الأخرى مباشرة. ثم ركلة على الركبتين فترنحت زوفاستينا إلى الخلف واستمرت كاسيوبيا في الهجوم غارسة قدمها في معدة زوفاستينا دافعة رأسها ليصطدم بجذع شجرة.

تكوّمت زوفاستينا على الأرض هاجعة ساكنة.

راقب مالون الهجوم في هدوء. "هل أخرجت كل ما في كيانك من مودة؟"

تنفست كاسيوبيا أنفاساً مجهّدة. "كان يمكنني أن أشبعها المزيد من هذا."

توقفت لحظة وهي تمسّد معصمها من أثر حز الحبال عليهما. "إن إيلي لا يزال حياً، وقد تكلمت معه على الهاتف. وستيفاني وهنريك موجودان معه. وعلينا أن نذهب الآن."

واجه مالون فيكتور. "كنت أظن أن واشنطن لا تريد كشف هويتك."

"لم يعد لدي خيار."

"لكنك أرسلتني إلى الفخ."

"هل أنا هو من طلب منك المواجهة معها. إنك لم تدع لي مجالاً لعمل أي شيء. وعندما رأيت ورطتك فإنني قمت بما كان علي أن أفعله."

لم يكن موافقاً معه على هذا الكلام، لكن لم يجد ثمة مجالاً للاسترسال في الجدل. "وماذا علينا أن نفعل الآن؟"

"سوف نغادر هذا المكان. سيكون لدينا قليل من الوقت. لن يقوم أحد بإزعاجها هنا."

"وماذا عن صوت الطلقات؟" سأل مالون.

"لن يتنبه أحد إليها." أشار فيكتور حوله. "إن هذه الساحة هي الساحة التي تستخدمها لإعدام أعدائها. لقد قامت بتصفية الكثيرين منهم هنا."

وكانت كاسيوبيا منهمكة في رفع جسد زوفاستينا المتراخي عن الأرض.

"ما الذي تفعلينه؟" سألها مالون.

"أقوم بربط هذه العاهرة إلى هذه الحبال. بحيث أمنحها فرصة لتذوق طعم هذا الموقف."



قادت ستيفاني السيارة، فيما جلس هنريك إلى جانبها في المقعد الأمامي، بينما جلس إيلي في المقعد الخلفي. ولم يكن ثمة خيار آخر لهم سوى مصادرة سيارة الحارس بعد تلف عجلات سيارتهم. غادروا الكوخ على وجه السرعة، ودخلوا الطريق السريع، وبدأوا الارتحال نحو الجنوب في محاذاة التلال السفحية لجبال الباميرز، متجهين صوب ما كان يسمى منذ ألفي سنة أو أكثر باسم جبل كلايمكس.

"إنه لشيء مدهش مذهل،" قال إيلي.

نظرت إلى المرأة الخلفية فوجدت أنه يلقي نظرة دقيقة مشدوهة على السيتايل. "عندما قرأت أحجية بطليموس، كنت أحرار في أمر أن تكون هذه الأحجية قادرة على التمحُّض عن أيّة رسالة من أيّ نوع. لكنها في الحقيقة أحجية نابهة." حمل إليي السيتايل. "كيف تمكنتما من تأويلها؟"

"لقد تمكّن من ذلك صديق لنا. إنه كوتون مالون. وهو الشخص الموجود الآن مع كاسيوبيا."

"ألا يحسُن بنا أن نذهب للاطلاع على أحوالها؟"

سمعت نبذة الشوق واللهفة في سؤاله. "علينا أن نثق بأن مالون يمسك بالطرف الذي يعنيه من الحبل جيداً. أمّا مشكلتنا التي تعنينا فهي محصورة هنا." باتت تتكلم من جديد كرئيسة هادئة العقل والعواطف لمجموعة من رجال الاستخبارات. فهي باردة وغير عابئة. لكن دخيلتها كانت لمّا تزل تضطرب لما حصل معها في الكوخ. "إن كوتون رجلٌ يعوّل عليه، وسيقوم بالتعامل مع الموقف حسب المقتضى."

أمّا ثورفالدسن فبدأ كأنه يتحسّس ورطة إليي. "كما أن كاسيوبيا ليست امرأة قليلة الحيلة. فهي تحسن تدبّر أمرَ نفسها. لمَ لا تقول لنا ما ينبغي لنا معرفته من أجل فهم كل هذه الأمور؟ لقد قرأنا في المخطوطة عن الترياق الآتي من السيثيين. فما الذي تعرفه عن هذه الجماعة؟"

لاحظت كيف أن إليي ألقى السيتايل جانباً بكلّ عناية.

إنهم قومٌ من البدو الرُّحّل الذين هاجروا من آسيا الوسطى إلى جنوبي روسيا في القرنين الثامن والسابع قبل المسيح. وقد كتب عنهم المؤرّخ هيرودوتس. كانوا بطاشين قبلين مرهوبي الجانب. وقد عُرف عنهم إقدامهم على قطع أعناق أعدائهم واقتناؤهم لأقحافٍ للشراب مغلفة بالجلد، ومأخوذة من جماجم هؤلاء الأعداء.

"أرى أنهم سيجلبون لك شهرة محترمة،" قال ثورفالدسن. "ما هو وجهُ علاقتهم بالإسكندر؟" سألته.

"لقد استوطنوا في القرنين الرابع والثالث قبل المسيح، المنطقة التي باتت في ما بعد تسمى كازاخستان. ولقد تمكنوا من مقاومة الإسكندر بنجاح، قاطعين عليه

طريقه نحو الشرق عبر نهر سيرداريا. ولقد حاربهم الإسكندر بشراسة وأصيب على أيديهم في جسده بالجراح عدة مرات، لكنه في نهاية الأمر عقد هدنة معهم. وإني لا أذهب إلى حدّ القول إن الإسكندر قد خشي بأس السيثيين، لكنني أقول إنه قد احترمهم."

"وماذا عن الترياق؟" قال ثورفالدسن. "هل يعود فضل المعرفة به إليهم؟"

أوما إيلي بالإيجاب. "لقد قاموا باطلاع الإسكندر عليه. كان ذلك جزءاً من بنود معاهدة السلام معهم. ويبدو أنه قد استعمل هذا الترياق ل مداواة نفسه. ومما قرأته، يبدو أن الترياق عبارة عن شراب طبيعي. وقد جاء في إحدى المخطوطات إن الإسكندر نفسه، فستيشيون، ومساعد طبيب الإسكندر الشخصي، قد تعالجوا كلهم بذلك الترياق فنالوا الشفاء. هذا على افتراض أن تلك الرواية صادقة."

"لقد كان السيثيون شعباً غريباً،" قال إيلي. "فعلى سبيل المثال، بينما هم في معمعان إحدى المعارك مع الفرس، فإنهم تركوا ساحة المعركة لمطاردة أرنب. لا أحد يعرف سرّ تصرفهم هذا. لكنها رواية مكتوبة في مدونة رسمية. ولقد كانوا خبراء في شؤون الذهب،" قال متابعاً. "يستعملونه لتزيين البستهم بكميات كبيرة. ويتخذون منه الزّين والحلي، والأحزمة، وصحون الطعام، وحتى أسلحتهم كانوا يرصّعونها بالذهب. والهضاب التي جعلها السيثيون مقابر لموتاهم مليئة بالتحف والمشغولات الذهبية. لكن مشكلتهم الرئيسية إنما كانت في اللغة. فقد كانوا، قوماً لا يقرأون ولا يكتبون. لذلك لم يتركوا وراءهم سجلاً مكتوباً باقياً بعدهم. لقد تركوا فقط بعض الصور، والحكايات الرمزية، وبعض الروايات التي كتبها الآخرون عنهم. وحتى كلماتهم لم يبق منها سوى القليل مما هو معروف، والفضل في ما بقي منها إنما يعود إلى تاريخ هيرودوتس."

كانت تستطيع رؤية وجهه بواسطة المرآة الخلفية، وقد أيقن أن لديه ثمة المزيد مما يقال. "وماذا لديك بعد؟"

"مثلاً قلت لكما، نزرّ قليل من كلماتهم هو الذي بقي حياً. فكلمة 'باتا' تعني، اقتل، وكلمة 'سباو'، تعني: عين، وكلمة 'أويور' تعني رجل. ثم أن هناك كلمة 'أريما'،

وهنا قام بتصفّح بعض الأوراق التي كان قد أحضرها معه. "لم تكن تعني لي الكثير حتى هذه اللحظة أتذكران الأحجية" وعندما تتناهى إلى سطح عليّتها.

"إن بطليموس كان قد قاتل السيثيين إلى جانب الإسكندر فكلمة "أريما"، تعني بشكل عام، المكان الذي يتربع فوق القمة."

"بل إن لها معنى أكثر أهمية ودلالة. فالمكان الذي سمّاه الإغريق مرة باسم "كلايمكس! وهو المكان الذي نتوجه نحن الآن إليه، فإن المحليين هنا كانوا على الدوام يطلقون عليه اسم "أريما". وإنني لأتذكر ذلك منذ زيارتي الأخيرة إلى ذلك المكان."

"أليس ثمة الكثير من تطابق الصُدف؟" سأل ثورفالدسن.

"يبدو أن جميع المسالك تقودنا إلى هنا."

"وما الذي نأمل إيجاده؟" سألت ستيفاني.

"لقد استعمل السيثيون الرجوم والقباب لتغطية أضرحة ملوكهم، لكنني كنت قد قرأت أنهم كانوا يختارون المواقع الجبلية الشاهقة لدفن أهم قادتهم شأنًا. وهذه المنطقة كانت أقصى ما بلغته إمبراطورية الإسكندر. إنها تشكّل حدودها الشرقية. وهي نقطة شديدة النأي عن موطن الإسكندر الأصلي. ولا مجال لإقلاق راحته هنا."

"أعتقد أنه قد اختار هذه المنطقة لهذا السبب؟" سألته.

"لست أدري. فالمسألة برمتها تبدو غريبة شاذة."

وقد لاقى كلامه في نفسها قبولا.



فتحت زوفاستينا عينيها فوجدت نفسها ملقاة على الأديم فتذكرت على الفور ما كان من شأن هجوم كاسيوبيا فيت عليها. نفضت الضياع عن تفكيرها ولاحظت أن ثمة ما يمسك معصمها بقوة.

ثم أتاها اليقين أنها مقيدة إلى الشجرتين مثلما كان حال كاسيوبيا فيت من قبلها. هزّت رأسها. يا للمهانة.

وقفت وحدّقت حولها في جوانب الأرض الخلاء.

قطيع الماعز، مالون، فيت، وفيكتور. لقد ذهب الجميع الآن عنها.

أحد الحارسين يستلقي قتيلاً. لكن يبدو أن الآخر لا يزال حياً. وهو مستندٌ إلى جذع شجرة وبه جرحٌ نازفٌ من إصابة في كتفه.

"هل تستطيع التحرك؟" سألته.

أوما الرجل أن نعم، لكن من الجليّ أنه كان يتألم. فجميع أفراد عصبته المقدسة كانوا من العتاة الأشداء، ولهم أنفُسٌ مروّضة على الانضباط والطاعة. وقد كانت تحرص كل الحرص على التأكد من ذلك فنسختها الحديثة لم تكن سوى تجسّد جديد لعصبة حماية الإسكندر المقدسة الأصلية المندثرة.

ناضل الحارس للوقوف على قدميه، وكانت يده اليمنى تمسك بذراعه اليسرى.

"السكين،" قالت. "إنها هناك على الأرض."

ولم تصدر نامةً ألم واحدة من فم الرجل. حاولت جاهزة أن تتذكر اسمه لكنها لم تقوَ على التذكّر. لقد قام فيكتور شخصياً بانتقاء جميع أفراد فرقة عصبة الحرس المقدسة. وقد دأبت هي على عدم إقامة صلة مباشرة مع أيّ منهم. فهم مجرد حاجاتٍ لازمة. أدوات للاستعمال. هذا هو كلُّ ما في الأمر.

ترنح الرجل حتى وصل إلى السكين ونجح في رفعها عن الأرض.

اقترب من الحبال، ففقد توازنه وسقط إلى ركبتيه.

"تستطيع القيام بذلك،" قالت له. "قاوم الألم. وركّز على أداء واجبك."

بدا الحارس كأنه يفولذ نفسه فيما العرق يتصبّب من حاجبيه، كما لاحظت الدماء الطازجة ما تزال تنزف من جرحه. ومن العجب ألا يكون قد دخل في صدمة الغيبوبة. لكن تلك الروح الصلبة كانت تبدو في هيئة جثمانية رائعة.

رفع السكين، تنشق أنفاساً قليلة ثم قصّ الرباط الذي يحيط بمعصمها الأيمن.

هدأت ذراعاه المرتجفة بينما كان يناولها السكين وقامت بتحرير نفسها من الحبل الذي يلفُّ على معصمها الآخر.

"لقد أبليت بلاءً حسناً،" قالت له.

ابتسم لمجاملتها له، وقد صارت أنفاسه لاهثة، وهو لا يزال جاثياً على ركبتيه.

"اضطجع واسترخ"، قالت له.

سمعتة يريح جسده على التراب، بينما كانت هي تبحث في أرض الغابة. وقرب جثة الحارس الآخر عثرت على مسدس.

عادت إلى مكان الحارس الجريح.

لقد رآها حارسها قابلة للعطب وفي موقفٍ ضعيف. وهي لم تكن قطُّ قد مرّت بموقفٍ ضعف منذ وقتٍ طويل، وقد شعرت الآن بقابلية العطب.

كان الرجل مستلقياً على ظهره ويده لا تزال تضغط على كتفه المجرّوح.

وقفت فوق رأسه. وقد تركزت نظرات عينيه السوداوين عليها، وقد رأت في نظراته أنه قد أيقن ما هي عازمة عليه.

فابتسمت لشجاعته.

وصوّبت المسدس إلى رأسه وأطلقت النار.

الفصل السادس والسبعون

ألقي مالون نظرة إلى الأسفل حيث سطح الأرض الوعر يتكون من مزيج من التربة الجرباء والأراضي الخضراء، والتلال المتعاقبة، ودوحات الشجر. كان فيكتور هو الذي يتولى قيادة المروحية. وهي طوافة من طراز هايند كانت تجثم على مصطبة إسمنتية على بعد أميال قليلة من القصر الرئاسي. وكان هو يعرف هذه الطائرة. فهي روسية الصنع، مزودة بمحركين من الأعلى لهما مروحتان توربينيتان أفقيتان منصوبتان على محورين عموديين، هذا بالإضافة إلى مروحتي دفع أمامي عموديتي الدوران أساسيتين. الأولى منهما عند مقدمة بدن الحوامة والأخرى عند ذيلها. وقد أطلق السوفييت على هذه الحوامة لقب "الدبابة الطائرة". أما حلف الناتو فقد أطلق عليها لقب التمساح الطائرة، نظراً لشكلها القميء من جهة، وبسبب ما لها من لون مرقط مموه وجسم مميز من جهة أخرى. فهي بعد كل شيء قلعة جوية مقاتلة لا تقهر. أما هذه النسخة من الطائرة بالذات، فكان قد أجري عليها تعديل سمح بإيجاد مساحة كبيرة في مقصورتها الخلفية مما جعلها صالحة للنقل المحدود لعناصر المشاة. ومن حسن الحظ إنهم قد تمكنوا من مغادرة القصر ومدينة سمرقند دون أية مشاكل.

"أين تعلمت قيادة الطائرات؟" وجه سؤاله إلى فيكتور.

"في البوسنة وكرواتيا، لقد كانت هذه هي وظيفتي أثناء خدمتي العسكرية. البحث عن الأهداف وتدميرها."

"إنه مكان جيد لبناء طاقة احتمال الأعصاب."

"ولتعريض نفسك للموت أيضاً."

ولم يكن ليستطيع مجادلته في ذلك.
 "كم نحن لا نزال بعيدين عن هدف رحلتنا؟" سألته كاسيوبيا من خلال سمّاعتي الرأس.

كانوا يطيرون شرقاً بسرعة تقارب الثلاث مئة كيلومتر في الساعة في اتجاه الكوخ الواقع في جبال الباميرز. وقد تصبح زوفاستينا بعد وقتٍ قريب حرة من عقالها، إذا لم يكن قد حرّرها حتى الآن أحدٌ منه، ولهذا، فإنه سأل: "ماذا عن احتمال أن يلحق بنا بعض المهاجمين؟"

أشار فيكتور إلى الجبال المطلة أمامهم. "وهذه الجبال ستمنحنا غطاء. لأن تتبّع أيّ شيءٍ بينها هو مهمة عسيرة ولسوف ندخل بين قمم هذه الجبال بعد قليل. كما أننا نحلق على مسافة دقائق قليلة من الطيران فقط، تفصلنا عن الحدود الصينية. ولذلك فنحن نستطيع الهرب إلى هناك متى شئنا."

"لا تتصرف كأنت لم تسمع سؤالِي." كررت له كاسيوبيا.

"كم نحن ما زلنا بعيدين عن هدف الرحلة؟"

وكان مالون قد تعمّد التغافل عن سؤالها. فلقد كانت شديدة القلق. وقد أراد أن يقول لها أنه يعرف عن سرّ مرضها. وأن يجعلها تعرف أن شخصاً ما، يهتمُّ بها وبشأنها وأنه يتفهّم شعورها بخيبة الأمل والإحباط. لكنه كان يعرف أن الأفضل له رغم ذلك هو أن يسكت عن الإفصاح. لذلك، فقد قال لها: "إننا نتحرك بأقصى سرعة ممكنة." ثم صمت قليلاً. "لكن وضعك الآن هو على الأرجح أفضل من وضعك عندما كنت موثقة الأطراف إلى الشجرتين."

"لقد اعتقدتُ أنني لن أنجو من تلك المحنة."

"ومن كان مكانك هكذا يعتقد."

"حسناً يا كوتون، إنني مضطربة قليلاً. لكن عليك أن تتفهمني لأنني كنت أخال أن إيلي قد قُتل. لقد أردته أن يكون حياً، لكنني علمتُ - بل اعتقدتُ - هنا جاهدتُ لتمسك نفسها. "والآن -"

استدار نحوها فرأى الاهتياج والشوق في عينيها، الأمر الذي شحن أعصابه بالعزم بقدر ما بعث في نفسه الحزن. ثم ما لبث أن تدارك نفسه وأكمل لها جملتها. "وهو الآن مع ستيفاني وهنريك. لذا عليك بأن تهديني."

كانت تجلس وحدها في المقصورة الخلفية. وقد رآها تربت كتف فيكتور. "هل كنت تعرف أن إيلي كان لا يزال حياً؟"

هز فيكتور رأسه. "لقد كنت أحاول إهانتك والسخرية منك عندما قلت لك في القارب في البندقية أن إيلي قد مات."

"لقد كان عليّ أن أقول لك شيئاً. أما حقيقة الأمر، فهي أنني قد أنقذت حياته. لقد اعتقدت زوفاستينا أن أحداً قد يهدد حياته. فقد كان هو مستشارها الخاص. والاغتيال السياسي شيء شائع في دولة الاتحاد. لقد أرادت أن يكون إيلي في مأمن من الأذى. وبعد محاولة اغتياله تلك، فإنها لجأت إلى تخبئته. ولم يقع لي أي تعاطٍ معه منذ ذلك الحين. ومع أنني كنت رئيساً لفرقة الحرس، فقد كانت هي من يتولى مباشرة أمر الإشراف على حماية إيلي. وهكذا، فإنني فعلاً لم أعد أدري ماذا حصل معه. ولقد تعلمت ألا أقوم بطرح الأسئلة، بل الاكتفاء بالقيام بما تطلبه مني ليس إلا."

التقط مالون صيغة الفعل الماضي التي يستخدمها فيكتور الآن في حديثه عن وضعه الوظيفي. "لا بد أنها ستقتلك إن وضعت يدها عليك."

"لقد عرفت قواعد هذه اللعبة قبل أن أبدأها."

استمروا في طيرانهم في خط هادئ مستقيم. ولم يكن مالون قد طار من قبل في طائرة هايند. كانت طريقة صناعتها، وآلاتها مثيرة للإعجاب، مثلما هي قوة نيرانها، وصواريخها الموجهة ورشاشاتها الثقيلة المتعددة السبطانات. وجيبي المدفعية فيها.

"يا كوتون،" قالت كاسيوبيا. "هل لديك وسيلة للاتصال مع ستيفاني؟"

ولم يكن هذا سؤالاً يرغب بالإجابة عنه في تلك اللحظة، لكنها لم تكن قد تركت له خياراً. "أجل لدي."

"اعطني وسيلة الاتصال."

بحث من هاتفه الجوال العالمي - الذي زودته به ستيفاني من ماجيلان بيليه في البندقية - وقام بالترقيم بعد أن خلع السماعتين عن رأسه. وقد استلزم الأمر منه بضع ثوانٍ قبل أن يسمع جرساً نابضاً يُعلمه أن الخط قد انفتح، ثم حياه صوت ستيفاني.

"نحن متجهون نحو مكان وجودكم." قال لها.

"لقد قمنا بمغادرة الكوخ." قالت له. "وإننا نقود سيارة جنوباً على خطٍ سريع يحمل الرقم أم 45، ونحن في طريقنا إلى ما كان يُعرف في الماضي باسم جبل كلايمكس. إن إيلي يعرف مكانه جيداً، وهو يقول، إن السكان المحليين يعرفون هذا الجبل باسم "أريما".

"أخبريني المزيد."

أصغى إليها ثم أعاد المعلومات التي استقاها منها على سمع فيكتور، الذي أوماً إشارة إلى حُسن استيعابه. "إنني أعرف مكان ذلك الجبل."

جنح فيكتور بطوافته نحو الجنوب الشرقي وزاد في سرعتها.

"نحن في طريقنا الآن إلى هناك إذًا،" قال لستيفاني. "الجميع هنا بخير."

لقد رأى أن كاسيوبيا ترغب في التحدث على جهاز الهاتف. لكن ذلك الأمر لن يحصل. أشار لها برأسه إشارة تعني أن: لا، آملاً منها أن تكون قد أدركت أن الوقت ليس مناسباً لكلامها على الهاتف. ولكن، ومن أجل تهدئة خواطرها فإنه سأل ستيفاني قائلاً: "هل إيلي بخير؟"

"نعم بخير، لكنه قلق."

"أعرف قصدك. سنصل إلى هناك قبلكم. سوف أتصل بك ثانية. وسنقوم ببعض التحويم إلى أن تتمكنوا من الوصول إلى هناك."

"هل كان فيكتور نافعاً؟"

"لم نكن لنكون الآن هنا لولا مساعدته."

أنهى المكالمة وأخبر كاسيوبيا عن الوجهة التي يتجه إيلي الآن نحوها.

جرس إنذار سُمِعَ في قمرة القيادة.

حدّق نحو شاشة الرادار فأشارت الشاشة له بوجود هدفين يقتربان منهم من ناحية الغرب.

"إنها الأقراش السوداء،" قال فيكتور، "وهي قادمة نحونا مباشرة." وكان مالون يعرف عن تلك الطوافات. فحلف الناتو أيضاً يطلق عليها لقب هوكماس كاي. أي. 50. وهي مروحيات سريعة كفوءة مجهزة بالصواريخ الموجهة، ومدافع عيار 30 ملم. وقد رأى أن فيكتور قد استشعر الخطر أيضاً.

"لقد عثروا علينا بسرعة." قال مالون.

"لأنه يوجد قاعدة جوية قريبة هنا."

"وما الذي تنوي أن تفعله؟"

بدأوا الآن بالارتقاء في الجو وهم يغيرون مسارهم في الصعود. ستة آلاف قدم. سبعة - تسعة. إلى أن أصبحوا عشرة آلاف قدم.

"أتعرف كيفية استعمال المدافع؟" سأل فيكتور.

وكان هو جالس أصلاً في مقعد ضابط الأسلحة. لهذا، فإنه ألقى نظرة سريعة على لوحة التحكم في الأجهزة. ولحسن حظه أنه كان يستطيع قراءة اللغة الروسية. "أستطيع أن أتدبّر الأمر."

"إنن هبّء نفسك لمعركة جويّة."

الفصل السابع والسبعون

جلست زوفاستينا تراقب بينما كان جنرالات جيشها يتدارسون خطة الحرب. كان الرجال المحيطون بطاولة الاجتماع هم القادة الأكثر موثوقية بين أركان جيشها - ومع ذلك، فقد كانت تميل رغم كل تلك الثقة، إلى اليقين بأن واحداً أو أكثر من هؤلاء المجتمعين حولها قد يكون خائناً. فبعد أحداث الأربع والعشرين ساعة الماضية، لم يعد في وسعها الثقة بأي شيء. وهؤلاء الرجال قد كانوا يتابعون مسيرتها منذ البدايات فيرتفع شأنهم مع ارتفاع شأنها، وهم يقومون إلى جوارها بالبناء المستديم للقوة الهجومية للاتحاد، متخذين الأهبة لما سيأتي في قادم الأيام.

"علينا أن نستولي على إيران أولاً." أعلنت.

وكانت تعرف الحسابات جيداً. فعدد سكان الباكستان الحالي هو مئة وسبعون مليوناً. أما أفغانستان فأثنان وثلاثون. أما إيران فثمانية وستون وهذه الدول الثلاث هي جميعها أهداف عسكرية. وكانت بادىء ذي بدء، قد أعدت خطة لهجوم ثلاثي يجري في وقت متزامن أما الآن، فقد باتت تعتقد أن ضربة استراتيجية قد تكون هي الأفضل. فلو أحسن اختيار مواقع البدء في زرع الوباء بعناية جيدة، بحيث تكون تلك المواقع بالغة الحد الأقصى من الكثافة السكانية، وأن يجري زرع الفيروسات بطريقة ماهرة، فإن نماذج المعايرة بالكومبيوتر تشير إلى إنقاص عدد السكان بنسبة سبعين بالمئة أو أكثر في غضون أسبوعين. أخبرت رجالها بما هم يعرفونه أصلاً. ثم أضافت. "إننا نحتاج إلى إشعار العدو بحالة من الذعر الكامل والشدة العصبية. عندها سيكون الإيرانيون في حاجة إلينا لمد يد المساعدة إليهم. فما الذي قمتم بالتخطيط لعمله؟"

"نبدأ ضربتنا الأولى باستهداف القوات العسكرية ومنسوبي القطاع

الحكومي." قال أحد جنرالاتها. "إن معظم المتعضيات الفيروسية تعمل عملها في أقل من ثمان وأربعين ساعة. وسوف نقوم بتبديل الفيروس المستخدم من وقت لآخر. إذ سيكون بمقدورهم تحديد نوع الفيروس بسرعة كبيرة نسبياً، لكنهم سرعان ما سيجدون أن عليهم التعامل مع فيروس آخر مختلف عنه. هذا سيجعل الأمر خارجاً عن سيطرتهم وسيمنعهم من القيام بأي استجابة طبية ذات جدوى."

لقد كان يقلقها أمر تلك المسألة، لكن ليس الآن. "لقد أخبرني العلماء أن تعديلاً قد حصل على جينات جميع هذه الفيروسات بحيث بات الكشف عنها ووضع حد لها أمراً أكثر صعوبة من ذي قبل."

ثمانية رجال كانوا يتحلقون حول الطاولة، وجميعهم من قواتها البرية والجوية. لقد عانت آسيا الوسطى طويلاً بين دول الصين والاتحاد السوفييتي، والهند، والشرق الأوسط، فهي لم تكن جزءاً من أي من هذه الدول إلا أنها كانت تثير شهية الجميع. وقد عبرت تلك اللعبة الكبيرة عن نفسها هنا منذ قرنين من الزمن عندما احتربت روسيا وبريطانيا في صراعهما للسيطرة على هذه المنطقة دون أي اهتمام برغبات السكان المحليين.

وإن هذا لن يحدث لمرة أخرى.

فآسيا الوسطى تتكلم اليوم من موقع وحدتها، ومع أن لها برلمان منتخب ديموقراطياً. كما أن لها مجلس وزراء، وانتخابات شعبية، ومحاكم، وحكم للقانون. فإن لها أيضاً صوتاً واحداً.

وهو صوتها هي.

"وماذا عن الموقف المحتمل للأمريكيين والأوروبيين؟" طرح أحد الجنرالات هذا السؤال. "كيف سيستجيبون لحركتنا الهجومية؟"

"هذا أمر لا يمكن أن يحدث،" أوضحت لهم. "إننا لن نقوم بتحريك أي هجوم، بل إننا بكل بساطة، سوف نملأ الفراغ، ونقدم النجدة، والمساعدة، للشعوب المنكوبة المتخبطة في المتاعب - وسيكونون مشغولين بأمر دفن موتاهم إلى درجة لا تسمح لهم للقلق بشأننا."

لقد تعلّمت من التاريخ. تعلمت من سيرة أعظم الفاتحين في العالم - من قادة الإغريق، والمغول، والألمان، والرومان، والعثمانيين - أنهم جميعاً قد مارسوا اللين والتساهل مع الأمم التي أحرزوا الغلبة عليها. فقد كان بوسع هتلر مثلاً أن يغيّر وجه الحرب العالمية الثانية لو أنه بكل بساطة استمال إليه مساعدة ملايين الأوكرانيين، الذين كانوا يكرهون السوفييت، بدلاً من القيام بإفنائهم. أمّا قواتها فستدخل الأراضي الإيرانية كقوات منقذة لا كقوات غازية تسعى إلى الاضطهاد. هذا مع معرفتها أنه عندما تكون فيروساتها قد أنجزت عملها فلن يكون ثمة مقاومة يمكن أن تنتظم ضدها. عند ذلك ستقوم بإلحاق الأراضي بدولتها. وستعيد حشدها بالسكان وستقوم بنقل جماعات من مناطق بلدها التي دمرها السوفييت سابقاً إلى مواقع سكنية جديدة. بل ستقوم بعملية ممزجة بين السكان والأعراق. وستقوم بكل ما قام به الإسكندر الكبير في ثورته الهيلينية مع فارقي وحيد هو أن يكون اتجاه هذه الثورة معاكساً هذه المرة هجرة من الشرق إلى الغرب، وليس العكس.

"وهل يمكننا الركون إلى عدم تدخل الأمريكيين؟" سألها جنرال آخر.

فهمت المخاوف الكامنة وراء السؤال. "لن يقول الأمريكيون، أو يفعلوا شيئاً. إذ ما الذي يدعوهم إلى الاهتمام؟ سيما بعدما أصابهم من كارثة كاملة إثر تدخلهم في العراق، فلن تبقى لديهم شهية للتدخل. خاصة إذا نجحنا في رفع هذا الحمل الثقيل عنهم. بل على عكس كل ذلك سيكونون نشوانين لمشاهدة إيران تندحر وتُزال من الخريطة."

"ولكن عندما ننتقل إلى أفغانستان فسيكون ثمة وفيات في صفوف الأمريكيين أيضاً،" أشار أحد الرجال. "فالقوات الأمريكية لا تزال موجودة هناك."

"عندما يأتي ذلك الوقت، سنبذل جهودنا لتقليص الإصابات في صفوف الأمريكيين،" قالت. "إن ما نريده في النتيجة هو أن ينسحب الأمريكيون من البلاد في الوقت الذي نقوم نحن فيه بالإمساك بالأمور. وإنني أفترض أن قرار الإنسحاب الأمريكي من هناك سيكون قراراً يطالب به الرأي العام الأمريكي. وعلينا أن نستعمل هناك فقط ما يمكن احتواؤه من الفيروسات أما موجات العدوى الاستراتيجية فيجب أن تقتصر على استهداف مناطق محدّدة وجماعات محدّدة فقط. فإن غالبية الخسائر البشرية يجب أن تقتصر على المحليين، خاصة من جماعة طالبان، وعلينا التأكد من

أن أي إصابة تحدث في صفوف الأمريكيين إنما يجب ألا تتعدى الإصابات المترتبة على العدوى الأصلية."

قابلت نظرة كل من رجالها المتحلّقين حول الطاولة. ولم يفه أحدهم بكلمة أو بسؤال واحد عن الكدمة البارزة في وجهها. تلك الكدمة التي نتجت عن عراكها مع كاسيوبيا فيت. أيكون ثمة وكرٌ تسرّب بين هؤلاء الرجال الحاضرين؟ وإلا كيف تمكّن الأمريكيون من معرفة كل هذا الكمّ عن نواياها؟

"سيموت ملايين من البشر في هذه الحرب"، قال أحد الرجال بصوت يشبه الهمس.

"إنهم ملايين من الأعباء فقط" قالت بكل صراحة. "فإيران دولة رائدة في دعم الإرهابيين. وهي مكانٌ يحكمه المهاويس. إن هذا ما لا ينفك الغرب عن قوله وتكراره. لقد حان الوقت لإنهاء هذه المشكلة. والحل موجود في أيدينا. أمّا من يبقى من الإيرانيين بعد الحرب، فسيكون في حياة أفضل حالاً من الآن. كما أننا أيضاً سنكون أفضل حالاً. وسنحصل على بترولهم وعرفانهم معاً. أمّا طريقتنا في إدارة هذين المكسبين، فسوف تقرر مصير نجاحنا ومداه."

أصغت بينما كانت المداولات تدور حول أحجام القوات، وحول خطط الطوارئ وسائر الاستراتيجيات الأخرى. ففرّق من الرجال كان قد تمّ تدريبها على دس الفيروسات. وقد باتت تلك الفرق جاهزة للاتجاه جنوباً. ولقد كانت سعيدة بذلك. فسنوات من الأمل والرجاء قد آلت آخر الأمر إلى نهاياتها المرجوة. تخيلت كيف يمكن أن يكون شعور الإسكندر الكبير عندما عبرت قواته حدود اليونان نحو آسيا بادئة فتوحاته الكونية. وهي مثله الآن تتخيّل الوصول إلى النصر الكاسح الكامل. فحالما يتمّ لها الأمر بالسيطرة على إيران وباكستان وأفغانستان، فسوف تتحرك في اتجاه الشرق الأوسط. إلا أن سيادتها على بلدان الشرق الأوسط ستكون ملتزمة بطرق أكثر براعة وخفاءً إذ سيبدو هجومها الفيروسي على هذه الدول مجرد تفشٍ طبيعيٍّ للوباء الأصلي الوافد من الدول الأخرى. فإذا كانت لم تخطيء في تقدير قراءتها لموقف الغرب، فإن أوروبا والصين وروسيا وأمريكا سوف تنكمش كل على نفسها وستقوم بإقفال حدودها. وتخفّض من مستوى الرحلات والسفر على أمل أن يجري احتواء الجائحة الوبائية التي أصابت شعوب دول لا يعنيتها من أمرها الكثير.

وسيكون موقف هذه الدول المتراخي فرصة لها للمطالبة بالمزيد من الصّلات والعلاقات مع الأمم التي تقع بين الاتحاد وبين قارة أفريقيا. وإذا هي أحسنت إدارة اللعبة جيداً فقد تتمكن من السيطرة على الشرق الأوسط بكامله في غضون أشهر قليلة دونما حاجة إلى إطلاق طلقة رصاص واحدة.

"وهل لدينا سيطرة على العوامل الدوائية المضادة؟" طرح السؤال عليها رئيس أركان جيشها في النهاية.

وكانت تترصد هذا السؤال. "سوف تكون لنا السيطرة قريباً." فالسلام المشوب بالحذر بينها وبين فينسينتي قد آذن إلى نهايته.

"إن شركة فيلوجين لم تقم بتزويدنا بالمخزون الاحتياطي من الأدوية اللازمة لنا لمعالجة سكان بلادنا." قال رجل آخر من رجالها. "كما أننا لا نملك كميات العلاج التي ستكون لازمة لنا لوقف انتشار الفيروس في البلدان المستهدفة بهجومنا بعدما نكون قد تأكدنا من الانتصار."

"إنني متنبّهة إلى هذه المشكلة." قالت لهم.

وكانت طوافة تجثم في انتظارها.

وقفت. "أيها السادة، نحن على وشك مباشرة فتح جديد غير مسبوق منذ أقدم العصور. لقد جاء الإغريق وسيطروا علينا مبتدئين بذلك، العصر الهيليني من التاريخ، وهو عصر شكّل في النتيجة قالباً للحضارة الغربية. أما نحن فسنبدأ الآن فجرًا جديدًا في تطور الإنسانية. فجرٌ يبدأ مع العصر الآسيوي."

الفصل الثامن والسبعون

ربطت كاسيوبيا أحزماتها إلى المقعد الفولاذي في الحجرة الخلفية. وترنّحت الطوافة بينما كان فيكتور يقوم بمناورات خادعة لتضليل مطارديه. وكانت تعرف أن مالون يعلم أنها كانت تتحرّق إلى الكلام مع إيلي، لكنها كانت تعلم أيضاً أن الوقت الآن لم يكن ملائماً لذلك. لقد قدّرت لمالون قيامه بالمجازفة بحياته من أجلها. إذ كيف كان سيمكن لها النجاة من بين يدي زوفاستينا بدونه؟ ثمة شك كبير في أنها ستكون قادرة على ذلك حتى بالرغم من وجود فيكتور هناك. إذ أن ثورفالدسن كان قد أخبرها أن فيكتور كان مجرد حليف لكنه حذّرها رغم ذلك من محدودية مساعدته لها. إذ أن مهمته إنما يجب أن تبقى مستورة خفية، لكن في ما يبدو لها الآن، أن هذه السياسة قد تغيّرت.

"إنهم يطلقون النار علينا." قال فيكتور من خلال سماعتَي الأذن.

انحرفت الطوافة يساراً وهي تشق الهواء كالسكين. وكان حزام الأمان العائد إلى كاسيوبيا يثبّت جسدها بشكل آمن إلى الفاصل الإنشائي. وكانت يداها قابضتين على حافة المقعد. بينما هي تقاوم رغبة متصاعدة في التقيؤ، حيث أنها، والحق يقال، كانت عرضة لدوار الحركة. فهي تجتنب السفر في الزوارق والطائرات على وجه العموم، إلا أن السفر في مثل هذه الوسائل لم يكن يشكل مشكلة كبيرة لها ما دام أنها تسير سيراً مباشراً سليماً. أمّا طيرانها الآن فهو مشكلة بكل تأكيد. بدت معدتها كأنها تنقلب رأساً على عقب لتبلغ حلقومها طالما هم يغيّرون مستويات ارتفاعهم وكأنهم وسط مصعد كهربائي خارج عن السيطرة. ولم يكن في استطاعتها أن تفعل شيئاً سوى التمسك والانتظار آملّة من الله أن يكون فيكتور يدرى بما يفعل.

رأت مالون يقوم بتشغيل مفاتيح التحكم بإطلاق النار، كما سمعت طلقات المدفعين من جانبي جسم الطوافة. حدثت مباشرة من خلال زجاج قمرة القيادة فشاهدت قمم الجبال ترتفع فوق السحاب وتحيط بطائرتهم من الجانبين.

"هل هم لا يزالون وراءنا؟" سأل مالون.

"إنهم قادمون بسرعة،" قال فيكتور. "كما أنهم يحاولون إطلاق النار علينا."

"لسنا بحاجة إلى إطلاق الصواريخ."

"أوافق معك. فإطلاقها قد يكون مسألة خادعة لنا ولهم."

خرجت طائرتهم إلى سماء أكثر نقاء. انحرفت الطوافة يمينا ثم هبطت هبوطاً عمودياً حاداً.

"هل من الضروري لنا عمل كل ذلك؟" سألت محاولة الاحتفاظ بمعدتها تحت السيطرة.

أخشى أن الأمر هو كذلك، أجابها مالون. "إننا نحتاج إلى استعمال هذه الأودية للاختفاء عنهم علينا أن ندخل فيها ونخرج وكأنها متاهة."

كانت تعرف أن مالون قد قاد يوماً الطائرات المقاتلة وهو ما زال يحتفظ برخصته لقيادة الطائرات. "إن بعضنا لا يحب هذا النوع من الطيران."

"لا حرج عليك في إخراج ما في جوفك من الكعك المحلى في أي وقت."

"لن أسمح لكما بتلك المتعة." فالشكر لله أنها لم تكن قد تناولت طعاماً منذ غذائها بالأمس في تورسييلو.

مزيد من الانحرافات الحادة جرت لطائرتهم بينما هي تنزُّ وسط سماء بعد منتصف الظهر. بدت ضجة المحركات باعثة على الصمم، ولم تكن قد جرّبت الطيران في الطوافات إلا قليلاً. ولم يحصل لها مرة أن طارت في طائرة تخوض معركة. لقد كانت هذه الرحلة أشبه بركوب محدلة تسير في اتجاهات ثلاث.

"لقد بدت طوافتان أخريان في مجال شاشة الرادار،" قال فيكتور. "لكنهما لا تزالان بعيدتين عنا نحو الشمال."

"والى أين نحن نتجه؟" سأله مالون.

انحرفت الطوافة إنحرافة أخرى شديدة الانحدار.

"إننا نتجه جنوباً،" قال فيكتور.



حدّق مالون نحو شاشة الرادار. كانت الجبال تشكّل لهم دريئة تحميهم. لكنها في الوقت نفسه قد شكّلت لهم مشكلة لاستدعائها المزيد من الطائرات التي تقوم بمطاردتهم. كانت الأهداف تظهر حيناً وتختفي تارة أخرى. وقد اعتادت القوات العسكرية الأمريكية الاعتماد على الأقمار الاصطناعية وطائرات الأواكس من أجل تأمين صورة واضحة للهدف. ولكن لحسن الحظ فإن دولة اتحاد آسيا الوسطى لم تكن تحظى بتلك التقنية العالية.

بانت الآن شاشة الرادار خالية.

"لا أحد وراءنا،" قال مالون.

وكان عليه أن يعترف أن فيكتور كان طياراً ماهراً. وها هم الآن يتسللون بشكلٍ متعرجٍ منحرف بين منعرجات جبال الباميرز. وهم على مسافات شديدة الخطورة والقرب من المهوي الرمادية الحادة الانحدار. ولم يكن مرة قد تعلّم قيادة الطائرات المروحية رغم أنه كان يرغب دائماً في تعلّم هذه المهارة. كما أنه ما عاد جلس مرة وراء مقود القيادة في طائرة مقاتلة سرعتها أسرع من سرعة الصوت منذ عشر سنوات خلت. لقد حافظ على مهارته في قيادة الطائرات المقاتلة لسنوات قليلة فقط عقب انتقاله إلى فرقة بيليه، لكنه بعد ذلك سمح لرخصة قيادته بأن تنقضي. ولم يكن قد أقام لذلك وزناً كبيراً في ما مضى. أمّا الآن، فكم هو يتمنى لو أنه حافظ على تلك المهارة لتجري جرياً مستمراً.

جعل فيكتور طوافته تسير بشكلٍ مستقيم على علو ستة آلاف قدم، وسأل مالون: "هل استطعت إصابة أيّ هدف؟"

"يصعب عليّ التأكد من ذلك. لكنني أعتقد أننا قد نجحنا في إجبارهم على البقاء على مبعدة عنا."

"إن المنطقة التي نقصدها الآن هي على بعد مئة وخمسين كيلومتراً إلى الجنوب. إنني أعرف منطقة "أريما". فلقد ذهبْتُ إليها من قبل، لكن ذلك قد كان منذ مدة بعيدة."

"وهل طريقنا كلها جبليّة؟"

أوما فيكتور إيجاباً، "كما أن هنالك المزيد من الأودية. وأعتقد أنني أستطيع القول إنها تحت مستوى قدرة أيّ رادار على الالتقاط. وهذه المنطقة لا تعتبر منطقة ذات أهمية أمنية. فالحدود مع الصين ما زالت مفتوحة منذ بضع سنين. ومعظم استعدادات زوفاستينا العسكرية إنما تتجه نحو الغرب عند الحدود الباكستانية والأفغانية." اقتربت كاسيوبيا من ورائهما. "هل انتهت المطاردة؟"

"يبدو أن الأمر كذلك."

"سوف أتخذ لي طريقاً التفاضلية،" قال فيكتور. "وذلك من أجل تجنب أية مواجهات. وسيقتضي هذا منا وقتاً أطول. لكن كلما أوغلنا شرقاً صارت رحلتنا أشدّ سلامة."

"وكم ستؤخرنا تلك المناورة؟" سألته كاسيوبيا.

"ربما مدة نصف ساعة."

أوما مالون برأسه موافقاً، ولم تقدّم كاسيوبيا أيّ اعتراض. إن تجنب الرصاص شيء، لكن صاروخ الجو - جو، هو شيء آخر. فأسلحة السوفييت الهجومية. مثلها مثل صواريخهم، هي من الطراز الأول. وقد تبين أن اقتراح فيكتور كان اقتراحاً جيداً. استقرّ مالون في مقعده وراقب تتابع القباب العارية المدوّرة. ومن المسافة البعيدة بدا الضباب وكأنه يشكّل ملعباً رياضياً عملاقاً تحيط به وتسوّره قمم الجبال. وانشعب نهر إلى مجريين بنفسجيين بين الهضاب السفحية في سيل غريني. لقد وطئت قدما كل من الإسكندر الكبير، وماركو بولو وجنّة هذه الأرض القاتمة. وقد كان المكان كلّ ذات مرة، مسرحاً للمعارك. فالدول المستقلة عن بريطانيا واقعة إلى

جنوبه، وتلك التابعة لروسيا إلى شماله، أما الصين وأفغانستان فهما إلى شرقه وغربه. وسحابة معظم القرن العشرين، كانت موسكو وبكين تتنازعان على السيطرة عليه. وكلُّ منها يجربُ الآخر، حتى انتهى الأمر بينهما إلى إرساء سلام محفوف بالمكاره. أمّا جبال الباميرز بحدِّ ذاتها فيبدو أنها قد خرجت منتصرة. ولقد اختارها الإسكندر الكبير لتكون مكاناً لراحة جسده عن حكمة وتبصُّر.

لكنه عجب.

هل يكون جسد الإسكندر، هنالك في الأسفل، حقاً؟

ينتظر وصولنا إليه؟

الفصل التاسع والسبعون

الساعة الثانية بعد الظهر.

طارت زوفاستينا من سمرقند إلى ملكية فينسينتي العقارية في رحلة مباشرة على متن أسرع طائرة هليكوبتر تملكها قواتها الجوية.

بدا منزل فينسينتي تحتها، بيت كبير ممتد باهظ الكلفة، لكنه رغم ذلك كله، يبقى مثل صاحبه، قابل للاستغناء عنه، وغير جدير بالمحافظة عليه. إن السماح للرأسمالية بأن تنتعش في الاتحاد قد لا تكون فكرة شديدة الذكاء. ولا بد من إجراء بعض التعديلات في هذا المجال. وكذا عصابة البندقية ينبغي الإمساك بلجامها.

لكن الأشياء الأكثر أهمية تأتي أولاً.

لامست الطوافة الأرض.

فبعد أن غادر إيوين دايفيس قصرها أمرت كميل رافين أن يتصل بفينسينتي ويعلمه بأنها قادمة لزيارته. لكن هذا الإعلام كان قد جرى استئخاره مدة كافية للسماح لقواتها البرية بالوصول. وقد أعلمت أن المنزل قد بات الآن محاطاً وأمناً، لذلك فإنها أمرت رجالها بالمغادرة على متن الطوافات التي حملتهم إلى المكان، عدا عن تسعة جنود طلبت منهم البقاء. كما أنه قد تم أيضاً إخلاء المنزل من الخدم. فهي لا تريد كسب أي عداوة مع السكان المحليين الذين يجهدون إلى كسب أرزاقهم فحسب. فخلافاً إنما هو محصور مع فينسينتي نفسه فحسب.

ترجّلت من الطوافة ومشّت فوق الأرض المزروعة بالعشب المجزوز ثم إلى مصطبة حجرية دخلت منها إلى المنزل الفخم. ومع أن فينسينتي كان يحسب أنها غير مبالية لأمر ملكيته هذه، إلا أنها كانت تتابع أعمال إنشاء هذا المنزل عن كثب.

ثلاث وخمسون غرفة، إحدى عشرة غرفة منامة، ستة عشر غرفة حمام. ولقد قام مهندس المعماري بتزويدها عن طيب خاطر بمجموعة من خرائط البناء. وقد علمت عن قاعة الطعام الملكية، وعن الصالونات الضخمة، والمطبخ القادر على خدمة كل ذواق للطعام، والقبو المخصص لاختزان الخمور. وعند النظر إلى ديكور المنزل نظرة أولى تسهل معرفة سبب وقوع ثمنه برقم مؤلف من ثمانية مقامات.

وعند الردهة الرئيسية وقف الآن حارسان من قواتها لحراسة المدخل الأمامي. وقد تولى إثنان آخران مراقبة سلم درج رخامي كل شيء هنا كان يذكرها بالبندقية. وهي لم تهو مرة تذكر الفشل.

لفتت انتباه أحد الحراس الذي تحرك يمينا وهو يحمل رشيحه تقدمت قدماً في قاعة غير بعيدة المدى، لتدخل منها إلى ما بدا كأنه مكتبة. وكان رجال ثلاثة آخرون من حراسها يحتلون تلك الغرفة ومعهم رجل رابع. ومع أنها لم تكن قد التقت مرة من قبل، إلا أنها عرفت اسمه وخلفيته.

"يا سيد أوكونييه، عليك أن تتخذ قراراً."

انتصب الرجل واقفاً من كرسي منجد وهب لملاقاتها.

"لقد عملت مع السيد فينسينتي لمدة طويلة. وهو يعتمد عليك في أمور كثيرة. وبكل صراحة، فإنه بدونك لربما أنه ما كان ليصل إلى ما توصل إليه حتى الآن."

سمحت لمجاملتها له كي تكون قد تسربت إلى عقله. بينما كانت هي تتفقد الغرفة المترفة الأثاث. "إن فينسينتي يعيش عيشة رخيّة. وإنني لأعجب ما إذا كان يقوم بإشراكك في نعمته هذه؟

لم يقل أوكونييه شيئاً.

"دعني أقول لك شيئاً قد تكون تعرفه أو تجهله. لقد جنى فينسينتي خلال السنة الماضية ما يزيد عن أربعين مليون يورو من الأرباح الصافية من شركته. وهو يملك من الأسهم فيها ما تفوق قيمته البليون يورو. فما هي قيمة الألعاب التي يدفعها لك؟"

لا جواب.

"إنه يدفع لك مئة وخمسين ألف يورو في السنة فقط." رأت النظرة البادية على وجهه عندما تنزلت عليه الحقيقة. "أترى يا سيد أوكونييه، إنني أعرف الكثير عنك. مئة وخمسون ألف يورو فقط مقابل كل خدمتك التي تسديها إلي. لقد قمت بتهديد الآخرين من أجله، كما قمت بقهرهم ومضايقتهم، لا بل إنك نفذت أعمال قتل من أجله. وها هو يجني عشرات الملايين بينما أنت تكتفي بمبلغ مئة وخمسين ألف يورو. هو يعيش هذه المعيشة الفاخرة أما أنت، وهنا ترئدت قليلاً. "فإنك تعيش فحسب."

"لكنني لم أشتك مرة." قال لها أوكونييه.

توقفت خلف مكتب فينسينتي. "كلا أنت لم تشتك وهذا شيء يستحق المديح."

"وما الذي تريدينه؟"

"أين هو فينسينتي؟"

"لقد ذهب. كان قد غادر قبل وصول رجالك."

ضحكت. "هذه هي حقيقتك. شيء آخر تحسن عمله له، وهو أنك تُقَارِفُ الكذب من أجله."

هز كتفيه هزة اللامبالي. "لك أن تعتقدي ما تشائين. فمن المؤكد أن رجالك قد قاموا بتفتيش هذا المكان كله."

"بلى، لقد قاموا بتفتيشه، ثم إنك على حق، لم يتم العثور على فينسينتي. لكن أنت وأنا نعرف سبب عدم العثور عليه."

لاحظت الرسوم الجميلة المحفورة على خشب المكتب المطعم بالمرمر، وكذلك التماثيل الصينية. وهي لم تكن في الحقيقة تحفل بالفنون الشرقية. رفعت واحداً من التماثيل الصغيرة. رجلٌ بدينٌ في حالة انثناء، وله جسدٌ نصف عارٍ. "عندما كان فينسينتي يقوم بتشديد هذه الماخورة الداعرة، فإنه قد قام بتضمينها دهاليز خلفية سرية تُستخدم في ظاهر الأمر لمرور الخدم. لكنني أعرف، مثلما أنت أيضاً تعرف، ما هو غرض استعمالها الحقيقي. كما أنه يملك أيضاً غرفة كبيرة تحت الأرض كان

قد تمّ احتفارها في الصخر، وهي واقعة تحتنا الآن. وذاك هو المكان الذي يُحتمل أن يكون فينسينتي قابعاً فيه في هذه اللحظة."

لكن وجه أوكونييه لم يُجفل.

"إذاً، ومثلما قلتُ لك يا سيد أوكونييه، إن لديك خياراً تختاره. لسوف أجدُ فينسينتي سواء بتعاونك معي أو بدونه. لكن تعاونك سيجعل العملية تجري بشكل أكثر سرعة، وعليّ الاعتراف بأن الوقت جوهري. ومن أجل هذا، تراني راغبة في المساومة معك. فقد يروق لي أن أستخدم رجلاً مثلك. واسع الحيلة." سككت برهة. "بعيد عن الطمع. إذاً الخيار الآن هو خيارك. أتريد تبديل موقعك أم أنك مصرٌّ على البقاء إلى جانب فينسينتي؟"

ولقد كانت قد قدّمت مثل هذا الخيار إلى آخرين سواء. وكان جلُّهم أعضاء في الجمعية الوطنية، أو جزءاً من حكومتها، أو من المعارضين لها. وكان البعض منهم لا يستحقّ عناء تجنيده، فوجدت أن من الأسهل التخلص منهم بقتلهم وطّي أمرهم. لكن أكثرهم كان يبرهن على أنه مهتدٍ طائع يستحق الاهتمام والعناية. وقد كان جميعهم إما من الآسيويين، أو الروس، أو مزيج بينهما. وها هي الآن تدلي لهذا الرجل الأمريكي بالطعم، ولذا فهي شديدة الفضول لمعرفة كيفية استقباله للإغراء.

"إذاً أختارك أنتِ،" قال لها أوكونييه. "ما الذي أستطيع أن أعمله من أجلك؟"

"أن تجيب عن سؤالي."

مدّ أوكونييه يده إلى جيبه فرفع أحد الحراس سلاحه فوراً، رفع أوكونييه على الفور يديه عارضاً كفيه الفارغتين. "إنني في حاجةٍ إلى شيء ما، من أجل الإجابة عن سؤالك"

"إفعلْ ما بدا لك،" قالت له.

استخرج من جيبه جهاز تحكُّم فضيٍّ يحمل ثلاثة أزرار. "إن هذه الغرف يمكن الوصول إليها من أبواب موجودة في أرجاء هذا البيت. أما الغرفة الموجودة تحت الأرض فلا يمكن الوصول إليها سوى من هذا المكان." عرض أمامها الجهاز. "أحد هذه الأزرار يفتح كل باب في حال وجود حريق. والثاني يقفل الأبواب جميعاً."

أما الزرُّ الثالث، " وهنا أشار إشارة عبر الغرفة ضاغطاً على ذلك الزر، "فإنه يفتح ذلك."

هنا استدارت الخزانة الصينية الباذخة كاشفة عن ممر مضاء بأضواء خافتة. ملأها الآن دفء الشعور بالانتصار.

تقدمت نحو أحد جنودها المشاة وسحبت من داخل القراب الذي يشده إلى وسطه مسدسه الذي هو من ماركة ماكاروف عيار 9 ملم.

ثم استدارت وأطلقت النار على أوكوئييه في رأسه.

"لستُ في حاجة إلى مثل هذا الولاء الضحل."

WWW.REWITY.COM
RAYAHEEN

الفصل الثمانون

كانت الأمور تجري جرياً معاكساً، وقد عرف فينسينتي ذلك. لكنه جلس جلسة يقظة محافظاً على هدوئه وحرصه، فلعلّ وعسى أن يستهلك هذا الموقف نفسه. وأوكونيه جديرٌ بالإمساك بالأمور إمساكاً جيداً مثلما كان يفعل دائماً. لكن كارين وايلد، وغرانت ليندسي، فقد كانا شيئاً آخر تماماً.

كانت كارين تذرع أرض المختبر كأنها حيوان مقفوص، أمّا قوتها فمن الجلي أنها قد رجعت إليها بشكل ملحوظ، وكان الأمل يساندها.

"إنك في حاجة إلى الاسترخاء والهدوء." قال لها، "إن زوفاستينا تحتاج إليّ أنا، وهي لن تقوم بأيّ عملٍ أحمق."

وكان يعرف أن وجود المتعضيات المضادة في حوزته كفيلاً بجعلها تلتزم حدودها معه. وكان هذا هو بالضبط سبب عدم سماحه لها بمعرفة الكثير عنها.

"يا غرانت، قم بتأمين حاسوبك. فكلّمة السر تحمي كلّ شيء مثلما اتفقنا."

كان يستطيع أن يلاحظ أنّ ليندسي كان أكثر قلقاً من كارين، ولكن في الوقت الذي كانت فيه هي مشحونة بالغضب، كان هو واقعاً في قبضة الخوف. ولقد كان في حاجة إلى أن يكون هذا الرجل في وضع يمكنه من التفكير الواضح، فقال له: "نحن في مأمنٍ هنا في هذا المكان السفلي. فلا يأخذنك الخور."

"لقد كانت ممتعة مني منذ بداية الأمر. كما كانت تكره أن تكون مضطرة للتعاطي معي."

"قد تكون كرهتك، لكنها كانت، ولا تزال، في حاجة إليك. استعمل هذه الحقيقة لمصلحتك."

لكن ليندسي لم يكن قادراً على التركيز ولا على الإصغاء. وكان ينقر على لوحة مفاتيح حاسوبه متكلاً مع نفسه في روعٍ واهتياج.

"أصغيا أنتما الإثنان،" صاح بهما بصوتٍ مرتفع. "إهدأ. فنحن لا ندري حتى ما إذا كانت قد أتت فعلاً إلى هنا."

رفع ليندسي نظره عن الكمبيوتر. "لقد مرَّ وقتٌ طويل. فما الذي يفعله هؤلاء الجنود هنا؟ ماذا يدور هنا بحق جهنم؟"

إنها أسئلة جيدة، لكن لا مناص له من الاعتماد على أوكونييه.

"إنني متأكد من أن المرأة التي اصطحبتهَا معها ذلك اليوم من المختبر،" قال ليندسي. "لم تعد معها إلى الاتحاد. لقد رأيت ذلك في عينيها. لقد كانت زوفاستينا عازمة على قتلها. أرادت أن تقتلها لمجرد متعة التسلية بقتلها. إنها على أهبة الاستعداد للقيام بقتل الملايين. فما الذي يردعها عن قتلنا؟"

"خلاصها."

أو على الأقل هذا ما كان يأمل به.



خرجت ستيفاني عن الخط السريع إلى طريق ممهّد تحرسه أعمدة طويلة تقف كأنها الحراس. قطعوا مسافة المئة وخمسين كيلومتراً في وقتٍ جيد، إذ لم يستغرق منهم ذلك سوى أقل من ساعتين. وكان إيلي يعلّق على مسألة كيفية تغير وسائل النقل والطرق في دولة الاتحاد في السنتين الماضيتين. فجودة الطرق ترقى إلى أفضل المستويات، تضاف إليه أعمال فتح الأنفاق خلال الجبال مع ما وفّرت من تقصير للمسافات من شمالي البلاد إلى جنوبيها.

"لكن هذا المكان قد اختلف،" قال إيلي من المقعد الخلفي. "لقد مرَّ الآن سنتان على زيارتي الأخيرة إليه. ولقد كانت هذه الطريق مجرد طريق مرصوفة بالحجارة والحصى."

"يبدو أن هذا الإسفلت لم يمض عليه وقت طويل." قالت.

امتد أمامهم، وخلف أشجار الطريق أرض وادٍ خصيب، مقسمة إلى مربعات من الحقول والمراعي التي تنتهي عند أقدام تلالٍ متعاقبة جرداء تتوالى علواً لتصبح مرتفعاتٍ ثم جبلاً عالية. وقد وقع نظرها على رعاة يقومون على رعاية قطعانهم من الأغنام والماعز. أما الخيول فتجوب السهوب في حرية، فيما الطريق تمتد بين الأشجار في خط مستقيم آخذة إيّاهم في اتجاه الشرق مباشرة، نحو نجدٍ بعيدٍ له أضلع فضية.

"كنا قد جئنا إلى هنا في نطاق بعثة استكشافية"، قال إيلي. "وكان ثمة كثير من الأكواخ. فالبيوت الباميرية المحلية تبنى من الصخر والطين وتكون لها أسقف مسطحة. ولقد مكثنا في إحداها. ولقد كان ثمة قرية صغيرة هناك في ذلك الوادي، ولكن يبدو أنها قد أزيلت."

لم تكن قد سمعت المزيد من مالون، ولم تكن لتجروا على الاتصال به. إذ لم يكن لديها فكرة عن موقفه سوى ما كان قد أخبرها عن تمكنه في ما يبدو من تحرير كاسيوبيا والتسبب في كشف هوية فيكتور. هذا ولن يكون لا إوين دايفيس، ولا الرئيس دانيالز سعيدين لذلك، لكن الأمور في كل حال، نادراً ما يتطابق التخطيط فيها مع الواقع.

"لِمَ يبدو كلُّ شيءٍ شديدَ الخُصرة هكذا؟" سأل هنريك، "لقد كنتُ أعتقدُ على الدوام أن جبال الباميرز هي جبال جافة عارية."

"إن معظم الأودية هنا على هذه الشاكلة. إلا أنه حيث توجد المياه، فإن الأودية تغدو شديدة الروعة وكأنها قطعة من سويسرا. لقد كانت المدة الأخيرة متّصفة هنا بالجفاف والطقس الدافئ. إذ كانت الحرارة تتعدى في ارتفاعها المستويات التي تسود هذه المنطقة عادة."

وفي آخر خط الطريق المستقيم الرفيع الممتد بين الأشجار، لمحت مبنى ضخماً من الحجر يتربّع فوق قنّةٍ معشبة تقع وراءها خلفيّة من شماريخ الجبال الناتئة القرعاء من الثلوج. ولقد ارتفع بنيان البيت في خطوط عمودية صارخة تكسرهما جملونات مائلة من الحجر الأردوازي الأسود. أما الواجهة الخارجية فهي لوحة موزاييك من الحجر المسطح ذات أطراف ألوان تتراوح من البني، إلى الفضي،

إلى الذهبي. أما النوافذ ذات العمد الحجرية الذي يقسمها في الوسط، فهي تتخلل المنظور الخارجي الأنيق للمبنى في أبعاد متناظرة. وجميعها مبرزة بأطر من الأفاريز الغنية التي تعكس شللاً من الضوء الذي تبعثه شمس الأصيل. ثلاث طبقات، وأربع مداخل من الحجر. وكانت السقالات لا تزال تزخر أحد الجوانب مما يدل على أن الأعمال الخارجية لا تزال جارية. ولقد نكرها منظر البناء بكامله بواحد من القصور الكثيرة التي ترصع أطلانتا الشمالية. أو بشيء آخر ما، من مجلة أركيتاكتشورال دايجست (مجلة متخصصة بتصاميم المباني).

"هناك منزل"، قالت لهما.

"وهو منزل لم يكن قائماً منذ سنتين"، قال إيلي.

حقق ثورفالدسن من خلال الزجاج الأمامي. "ويبدو أن صاحبه هو المالك الجديد لكل هذه الملكية العقارية."

كان المسكن الأنيق يتألق على مبعدة نصف ميل عن السيارة، ويقوم وسط واد أخضر لا ينفك عن التصعيد في اتجاه القنّة وقد بانّت أمامهم بوابة حديدية تقفل الطريق، ويحيط بها عمودان من الصخر يرتفعان كمئذنتين متراصتين لتحمل في أعلاهما قاعدتي قوس من حديد يحمل في وسط قنطرتة كلمة "أتিকা"، (العلية).

"إنها الكلمة الإيطالية المقابلة لكلمة عليّة." قال ثورفالدسن. "ويبدو أن المالك الجديد له ميل نحو هذه التسمية المحلية".

"إن لأسماء الأماكن مغازي مقدسة في هذه البقعة من العالم"، قال إيلي. "ولعل هذا سبب من أحد الأسباب التي دعت الآسيويين إلى النفور من السوفييت. إذ قام هؤلاء بتغيير جميع تلك الأسماء. وبالطبع إن الأسماء الجديدة ما لبثت أن غيّرت من جديد لتستعيد الأماكن أسماءها الأصلية القديمة، كان ذلك عندما تم تأسيس الاتحاد. وهذا سبب آخر من بين أسباب كثيرة أكسبت زوفاستينا هذا الرصيد الشعبي الكبير."

فتشت ستيفاني عن طريقة للاتصال مع سكان البيت من عند البوابة، بحثت عن علبة اتصال أو عن زر، لكنها لم تجد شيئاً من هذا. وبدلاً من ذلك، برز لهم شخصان من وراء عمودي البوابة. كانا شابين نحيلين يرتديان سترتين عسكريتين

مموهتين ويحمل كلُّ منهما بندقية AK-47. شرَّع أحدهما سلاحه، بينما قام الآخر بفتح البوابة.

"إنه استقبال مثير للاهتمام." قال ثورفالدسن.

قارب أحد الرجلين السيارة وأشار صارخاً بكلماتٍ تعود إلى لغة تجهلها.

لكنها لم تكن في حاجة إلى فهم لغته.

لأنها علمت بالضبط كلُّ ما يريده.



دخلت زوفاستينا إلى الممر، بعد أن استولت على جهاز التحكم من يد أوكوئييه الذي غدا الآن جثة، وقامت باستعمال الجهاز المذكور لإقفال بوابة الممر. ثمة سلسلة من المصابيح الضئيلة المسلسلة بسلك كهربائي، تتدلى من أقواس حديدية بين موضع وآخر، وتفصل بينها مسافات موحدة. هذا إلى أن انتهى الدهليز الضيق بعد عشرة أمتارٍ إلى بوابة معدنية.

قاربت البوابة وأصاحت السمع.

لا صوت يأتي من الجانب الآخر.

حاولت معالجة المزلاج.

فانفتح.

بدت لها سفرة درجٍ صخريٍّ محفورة في الصخر في الطرف المقابل، ولاحظت أن سلّم الدرج المحفور في الصخر، هذا، يهبط إلى الأسفل في انحدارٍ حادٍّ.

إنه لشيء مثير للإعجاب.

ولا بدُّ أن عدوها قد احتسب ليومٍ مثل هذا.



استشار فينسينتي ساعة يده، كان يجب أن يكون قد سمع شيئاً من أوكونييه بعد مرور كل هذه المدة. وكان جهاز الهاتف المثبت إلى الجدار يؤمن الاتصال المباشر مع الطابق العلوي. قاوم فكرة القيام بالاتصال خشية التسبب بالكشف عن نفسه. لقد مرّت قرابة ثلاث ساعات على ركونهم إلى هذا المكان وكان هو جائعاً، مع أن آلام معدته كانت تصدر عن جزع أكثر مما تصدر عن جوع.

شغل نفسه ببيانات أزمنة الحفظ الممكنة، مستعملاً جهازي الكمبيوتر الموجودين في المختبر. كما أنه ختم استنتاجات بحثه حول اختبارين آخرين كان يقوم بهما ليندسي بغية الوصول إلى دليل يقيني عن أقصى مدة ممكنة لتخزين الأرشيا تحت حرارة الغرفة العادية دون أن يصيبها الفساد. وقد تبين له أن مرور بضعة أشهر بين الحصاد والبيع لا تشكل مشكلة بالنسبة لفعاليتها. ولقد نفعه التركيز على التجارب والاختبارات، كما نفع ليندسي أيضاً من أجل مداراة الخوف وتهديته. أمّا وايلد فقد بقيت على حالها من القلق والاهتياج.

"أهريق كل شيء." قال مخاطباً ليندسي. "تخلص من كل السوائل. ومن كل محاليل الحفظ، ومن العينات. ولا تدع شيئاً واحداً من كل ذلك." "ما هذا الذي أنت تنوي أن تفعله؟" سأله كارين.

لم يكن في مزاج يسمح له بمجادلتها. "لم نعد في حاجة إلى هذه الأشياء." قفزت عن كرسيها الذي كانت تجلس عليه. "وماذا عن علاجاتي أنا؟ هل أعطيتني ما يكفيني من هذا العلاج؟ هل أنا قد شفيتُ حقاً؟" "سنعرف ذلك غداً أو بعد غد."

"وإذا تبين أنني لم أشف بعد تماماً؟ ماذا يكون قد حصل؟"

نظر إليها نظرة فاحصة كأنه يوازن بين حسابين. "إنك تبالغين في الإلحاف والطلب، سيما وأنك كنت امرأة على فراش النزاع."

"أجب عن سؤالي. هل أنا شفيتُ تماماً؟"

تجاهل سؤالها وعاد إلى التركيز على شاشة الكمبيوتر. وبعد نقرات قليلة

على الفأرة كان قد تمكّن من نسخ كل البيانات عن ذاكرة الكمبيوتر إلى حافظته وجيزة (flash drive). ثم أعاد ذاكرة القرص الصلب إلى الحالة المرمّزة.

أمسكت كارين بتلابيب قميصه. "لقد كنت أنت قد أتيت إليّ. ولقد قلت إنك أردت مساعدتي. وأنت تريد النيل من إيرينا. وقد أعطيتني الأمل. فلا تدعني الآن معلقة في الهواء."

إن هذه المرأة قد تتكشف عن متاعب تفوق ما يستحقه الاحتفاظ بها من ثمن. لكنه قرر أن يكون صالحياً معها. "إننا نستطيع إعداد المزيد منه،" قال لها بلهجة مهدئة. "إنه أمر في غاية السهولة. وإذا احتجنا إلى ذلك، فلسوف نأخذك إلى المكان الذي تعيش فيه البكتيريا وندعك تشربين الماء الذي يحتوي عليها. فإن تناولها بتلك الطريقة نافع أيضاً."

لكنّ هذا التأكيد لم يطمئن لها بالاً ولم يهدئ بلبالاً.

"يا ابن العاهرة الكذوب." أرخت قبضتها عن طرف قميصه. "لم يأت ببالي يوماً أن أكون في مثل هذه المحنة."

وفي الحقيقة أنه لم يأت في باله ذلك هو أيضاً. ولكن قد تأخر الأمر ولات حين مناص.

"هل انتهيت من كلّ ما طلبته منك؟" قال سائلاً ليندسي. أوما الرجل أن نعم.

لفت تحطّم الزجاج انتباه فينسينتي، فاستدار ليرى كارين وهي تحمل بقايا قارورة محطمة وهي تندفع نحوه. تقدّمت بخنجرها الزجاجي المرتجل إلى مقربة من كرشه وتوقفت. وكانت عيناها شعلتين من الجحيم. "أريد أن أعرف الآن فوراً. هل أنا قد شفيت؟"

"أجبها،" قال له سائل جديد.

استدار نحو مخرج المختبر.

وكانت إيرينا زوفاستينا تقف في الممر شاهرة مسدسها. "هل هي قد شفيت يا أنريكو؟"

الفصل الحادي والثمانون

لمح مالون منزلاً على مبعده ميلين اثنين. وكان فيكتور قد طار به، وبكاسيوبيا من الشمال بعد الانحراف شرقاً والطواف على حافة خط الحدود مع الصين. نظر نظرة تقدير لمساحة المنزل فوجدها تمتد فوق أربعين إلى خمسين ألف قدم مربع مجزأة على ثلاثة أدوار. كانوا يواجهون خلفية البناء، أمّا واجهته فتطلّ على وادٍ يشكّل تجويفاً واقعاً عند قدم حواجز من الجبال التي تسوّره من جهات ثلاث. وكان يبدو للناظر أن هذا المنزل قد ركّز عن قصدٍ فوق رابية تتحكّم بالسهل الممتدّ العريض. وكانت شبكة من السقالات تغلف إحدى جوانب المبنى معلنة أن البنّائين لمّا يفرغوا بعد من العمل. كما لاحظ وجود كومة من الرمال، وخلاطة للملاط. وخلف حافة القنّة الناتئة، كان ثمة حاجزٌ حديديّ قيد التركيب. بعضه كان قد أنجز، وبعض أقسامه الأخرى لا تزال مركونة في كدساتٍ قريبة من المكان. ولم يكن ثمة عمالٌ هناك ولا رجال حراسة، بل لا أحد في المطلق يمكن رصدّه في الجوار.

مرآبٌ موصدّ الأبواب يقف على حدةٍ وحديقة تقف شاهداً على حسن التنسيق والعناية فرّخت أُماليدها بين المصطبة وبين بدايات الغيضة التي تنتهي عند قاعدة أحد التلال الشامخة. أمّا الأشجار فقد فرّخت أوراقاً ربيعياً جديدة طرية نحاسية اللون.

"ما اسم مالك هذا البيت؟" سأل مالون.

"لا فكرة لديّ عن ذلك. ففي زيارتي الأخيرة إلى هنا - ربما من سنتين أو ثلاث، لم يكن ثمة بناء هنا."

"وهل هذا هو المكان الذي نقصده؟" سألت كاسيوبيا مشرّبة بعنقها من خلف كتفه.

"أجل، هذه هي "أريما؟"

"إنها مكان شديد الهدوء"، قال مالون.

"لقد قامت الجبال بتغطية رحلتنا"، أشار فيكتور "فشاشة الرادار نظيفة. وها نحن وحدنا."

لاحظ مالون وجود طريقٍ رجلٍ محدّدَةٍ تتلوّى خلال دغلٍ كثيف. ثم تتخذ لها مساراً إلى الأعلى عبر منحدرٍ صخريٍّ لتختفي في شقٍّ ضليل. كما أنه رأى ما يشبه سلكاً لنقل الطاقة ممدوداً بمحاذاة طريق الرّجل وهو مثبت على مسافة قريبة من الأرض. "يبدو أن أحدهم مهتمٌ بشأنٍ هذا الجبل."

"لقد لاحظتُ أنا ذلك أيضاً." قالت كاسيوبيا.

"إننا نحتاج إلى معرفة اسم مالكٍ هذا المكان، كما أننا نحتاج إلى أن نكون مستعدين." كان لا يزال يحمل المسدس الذي جلبه معه إلى داخل البلاد. لكنه لم يطلق منه سوى عدد قليل من العيارات.

"هل لدينا أسلحة فريّة على الطائرة؟"

أشار فيكتور إلى الخلف. "هناك في المقصورة الخلفية." نظر إلى كاسيوبيا. "إبحثي عن مسدسٍ لكلٍ منّا."



استلذت زوفاستينا طعم الصدمة البادية على وجه كلٍّ من ليندسي وفينسينتي. "هل حسبتماني غيبةً إلى هذه الدرجة؟"

"ليلعنك الله يا إيرينا"، قالت لها كارين.

"كفى." رفعت زوفاستينا مسدسها نحوها.

تردّدت كارين إزاء هذا التحدي ثم تراجعَت إلى ما وراء إحدى المناضد. أعادت زوفاستينا تركيزها على فينسينتي. "كنت قد حذّرتك من الأمريكيين، وقلت لك إنهم يراقبون. فهل هذه هي طريقتك في إظهار عرفانك لي؟"

"هل تتوقعين مني أن أصدق كلامك؟ فلو لم يتعلق الأمر بالمتعصيات المضادة لكنت قد تخلصت مني منذ وقت طويل."

"أنت وأرباب عصبتك أردتم أن يكون لكم جنة ضريبية. وقد هيأت لكم كل ما تطلبون. لقد أردتم حرية الحركة التجارية وكان لكم ما أردتم. لقد أردتم أراضٍ وأسواقاً وطرقاً تستخدمونها لتبييض أموالكم القدرة فجّهزت لكم مبتغاكم. لكن هذا كله لم يكن كافياً لك، أليس كذلك؟"

حُتّق فينسينتي بها، في ما يبدو أنه عازمٌ على الإمساك عن الكلام.

"يبدو أن لك جدول أعمالك الخاص المختلف. جدول لا تدري به حتى عصبتك وهو يضمُّ كارين أيضاً." لقد أيقنت الآن تماماً أن فينسينتي لن يعترف بشيء ولن يدلي بأي حجة. لكن ليندسي هو مسألة أخرى. لذلك فإنها ركّزت انتباهها عليه. "وها أنت أيضاً جزء من كل هذا."

رنا إليها العالم برعبٍ لم يرَ مجالاً لإخفائه.

"أخرجي من هنا يا إيرينا،" قالت كارين. "دعيه يعيش، دعيهما معاً يعيشان. إنهما يقومان بأعمالٍ بالغة الأهمية."

أخذت الدهشة والذهول منها كل مأخذ. "تقولين أعمالاً بالغة الأهمية؟"

"لقد كان شفائي عن يده هو يا إيرينا وليس عن يدك."

تعاظمت حشريتها حالما أحسّت أن كارين قد تفوه بالمعلومات التي هي في حاجة إليها. "لكن فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب مرض غير قابل للشفاء."

ضحكت كارين. "إن هذه هي مشكلتك الكبرى يا إيرينا لا تصدّقين أن أمراً يمكن أن يتم في الدنيا بدونك. فأنت دائماً البطل العظيم أخيل في فتحه المستمر لإنقاذ حبيبه. هذا هو شأنك. تعيشين في عالمٍ خيالي لا وجود له سوى في عقلك."

توتّرت حبال رقبتها، وتصلّبت قبضتها على المسدس.

"أما أنا فلستُ قصيدةً من القصائد الملحمية،" قالت كارين. "هذا شيء حقيقي. شيء لا علاقة له لا بالإغريق، ولا بهوميروس، ولا بالإسكندر. إنه شيء يتعلق بالحياة والموت. حياتي وموتي أنا. وإن هذا الرجل." وهنا أمسكت بقبضتها

نراع فينسينتي، "هذا الرجل قد عالجنني وشفاني."

"ما هو هذا الهراء الذي حشوت دماغها به؟" سألت فينسينتي.

"تقولين هراء؟" صاحت كارين من جديد. "لقد عثر عليه. عثر على العلاج.

جرعة واحدة ولم أشعر بمثل هذه العافية منذ سنوات."

ما الذي يكون فينسينتي قد اكتشفه؟

"ألم تلاحظي يا إيرينا؟" قالت كارين. "أنت لم تفعلي لي شيئاً. لقد قام هو

بكل شيء. إنه يملك العلاج."

حدقت نحو كارين. حزمة من الطاقة القاسية. بل كتلة من العواطف "هل لديك

أدنى فكرة عما قد فعلته في محاولة إنقاذك؟ وعن المخاطر التي عرّضت نفسي لها؟

وعندما عدت إليّ تلتمسين المساعدة ألم أمدك بها؟"

"أنت لم تفعلي شيئاً من أجلي. كل ما فعلته كان من أجل أنايتك. لقد اكتفيت

بمراقبتي كيف أعاني، لقد أردتني أن أموت -"

"إن الطب الحديث يقف عاجزاً. لذلك فقد كنت أحاول الحصول على مصدر

آخر لعله ينفعك. أيتها الساقطة الأبية." ارتفع صوتها بالحنق الشديد.

غام وجه كارين بالكآبة. "لكنك لم تحصلي عليه، أليس كذلك؟ ولن تحصلي

عليه. إنه استحواذ. هذا هو الأمر كله بالنسبة إليك. يا إيرينا أنا مجرد شيء

تستطيعين السيطرة عليه. وكان هذا هو سبب خيانتك لي. كنت أخونك لكي أثبت لك

أنه لا يمكنك السيطرة عليّ. لكنك لم تفهمي ذلك مرة، ولن تفهميه."

تمرد قلبها بينما أذعن عقلها للمنطق الذي يجري عليه كلام كارين. واجهت

فينسينتي. "هل تمكنت من العثور على علاج لمرض الإيدز؟"

حلق في وجهها بنظرة من لا يريد الإجابة.

"قل لي،" صاحت بصوت عالٍ. لأنها تعتبر أن من حقها أن تعرف. "هل

استطعت العثور على الترياق، ترياق الإسكندر. هل اهتديت إلى مكان السيثيين؟"

"ليس لدي أي فكرة عن كل ما تقولين." قال لها. "فأنا أجهل كل شيء عن

الإسكندر والسيثيين والترياق. لكنها على حق. فلقد عثرتُ على العلاج منذ زمن طويل خلف هذا البيت في الجبل. وكان معالج محليّ قد أرشدني إلى المكان. مكان سمّاه بلغته المحلية باسم أريما، أي الأتيك، (العليّة)، إنها مادة طبيعية يمكنها أن تجعلنا جميعاً أثرياء"

"هذا هو كل ما في الأمر بالنسبة إليك؟ طريقة أخرى لكسب المزيد من النقود؟"

"إن طموحك سوف يتسبب بتدميرنا جميعاً."

"أمن أجل هذا قد حاولتَ تدبيرَ اغتيالي؟ لتضع حداً لي؟ ومع ذلك عدت وحذرتني من المحاولة. هل فقدت أعصابك؟"

هزّ رأسه نافياً. "بل لأنه قد قرّر قراري على طريقة أنجع."

لقد سمعت من جديد ما كان إدوين دايفيس قد أخبرها به فأيقنت أنه كان كلاماً مصيباً. ثم أشارت إلى كارين. "لقد كنت تريد وسيلة لتشويه سمعتي، ولتحريض الناس عليّ، أولاً تقوم بإشغائها، ثم تقوم باستعمالها ضدي. ثم ماذا بعد ذلك يا أنريكو؟ تقتلها؟"

"ألا تسمعينني؟" قالت كارين. "لقد أنقذ حياتي."

كانت زوفاستينا قد تخطت جميع حدود الاهتمام بالعواقب. إن إيواء كارين من جديد كان غلطة مؤسفة. مخاطرات كثيرة حمقاء، وكلها كانت تحدث على حسابها هي.

وكل ذلك مقابل لا شيء من العرفان.

"إيرينا،" صاحت كارين، "لو كان شعب هذه الدولة الاتحادية الملعونة يعرف فعلاً شيئاً عن حقيقتك لما تبعك أحدٌ من أفرادهِ. فأنتِ غشاشة مخادعة بل غشاشة قاتلة. كل ما تعرفينه هو إيقاع الألم بالآخرين. هذه هي متعتك الكبرى. نعم لقد أردتُ أن أدمرك. أردتُ أن أجعلك تشعرين بالصغارة مثلما أشعر أنا."

وكانت كارين هي المخلوق الوحيد الذي أبرزت أمامه روحها العارية. فالتصاقها

بها وقربها منها كان شيئاً لم تشعر به أبداً مع أيّ بشريّ آخر. ولقد كان هوميروس على صواب عندما قال: "بعدما يكون الأذى قد حلّ، والقلق قد وقع، فحتى المجنون مناً يصبح قادراً على المحاضرة فيه."

وهكذا، فإنها أطلقت النار على صدر كارين.

ثم سدّت رصاصة ثانية إلى رأس كارين أيضاً.



كان فينسينتي ينتظر شروع زوفاستينا بالتصرّف. وهو لا يزال يمسك بالحافظة الوجيهة flash drive في قبضة كفه اليسرى المقفلة. وقد ترك تلك اليد ترتاح على الطاولة التي هي بعلوّ خصره، بينما كانت يده اليمنى تمتد ببطء لتفتح دُرج الطاولة الأعلى حيث يوجد بداخله السلاح الذي جلبه معه من الطابق العلويّ.

أطلقت زوفاستينا رصاصة ثالثة على كارين وايلد.

فأطبق يده على مسدسه.



أخذ غضب زوفاستينا يتعاظم مع كل رصاصة تقوم بإطلاقها على جسد كارين وايلد المشوّه الذي كانت تخترقه الرصاصات ثم تنزّ بعد اصطدامها بالجدار الذي يقف وراءها. ولم تكن خدينتها السابقة لتدري بعد ذلك بكلّ ما يحصل لأنها كانت قد فارقت الحياة بسرعة وصار جسدها يتثنّى على الأرض مضرّجاً بالدماء التي لا تزال تنزف منه.

أما غرانت ليندسي فقد أخذى ساكتاً خلال كل تلك اللحظات. لقد كان أشبه بلا شيء، روح ضعيفة في تلك الغرفة، لا قيمة ولا فائدة. أما فينسينتي فقد كان شيئاً مختلفاً. فهو لا يمكنه الذهاب دون قتال مع أنه كان متأكداً أن أجله قد بات قريباً.

لهذا، فإنها أدارت فوهة مسدسها نحوه.

فبدا إليها أنه يحمل مسدساً في يده اليمنى.

فأطلقت عليه رصاصاتٍ أربعٍ خلا بعدها مخزنُ المسدس من أية رصاصة باقية.

تفتحت زهراً حمراء فوق قميص فينسينتي.

واستدارت مقلتاه إلى الخلف فارتخت قبضة يده عن المسدس فسقط بعيداً عنه، ليسقط جسده الضخم بعد ذلك إلى الأرض.

مشكلتان قد وجدت لهما حلاً.

تقدّمت إلى مسافة لصيقة من ليندسي وسدّدت فوهة المسدس الفارغ إلى وجهه. ردّ عليها بنظرة خوف وارتعاب. ولم تكن حقيقة كون المسدس خالياً لتمنع عنه الهلع. فالمسدس بحدّ ذاته كان أكثر من كافٍ لها لكي تفهمه رسالتها.

"لطالما نصحتك"، قالت له. "بالبقاء في الصين."

الفصل الثاني والثمانون

جرى احتجاز ستيفاني وهنريك وإيلي في داخل البيت. لقد جرى اقتيادهم من البوابة إلى داخله. أمّا سيارتهم فقد خُبَّت في كراجٍ مستقلٍّ. تسعة رجال من المشاة كانوا يقومون على حراسة الأقسام الداخلية للبيت. وكانوا يقفون في ما بدا وكأنه مكتبة. غرفة رحبة أنيقة لها شبابيك عالية تشكل أطراً للوحات تطل عليها من مناظر بانورامية للوادي الأخضر الذي يقع في ما وراء البيت. ثلاثة رجال مسلحين ببنادق Ak-74 - وفروات رؤوسهم مجزوزة بعلو جعلها تبدو أشبه بفرشاة ثياب سوداء. وقد وقف هؤلاء الثلاثة في كامل أهبّتهم قرب الخزانة المشرقية. وكان ثمة جثة منطرحه على الأرض. جثة رجلٍ قوقازيٍّ في منتصف عمره، بل ربما كان أمريكياً، وله ثقب رصاصة في رأسه.

"لا يبشّر شيء من هذا كلّ بالخير"، همست إلى هنريك. "وأنا مثلك لا أرى مظهراً إيجابياً."

أما إيلي فقد بدا هادئاً. لكنه كان قد عاش شهره الماضيين تحت وطأة التهديد، وربما إنه لا يزال مشوش الذهن حول ما عساه يحصل حوله، لكن نيته كانت تتّجه إلى الثقة في هنريك. أو بتعبير أكثر واقعية، بكاسيوبيا، التي كان يعرف أنها موجودة في مكان ما، قريب منه. فمن الواضح أن هذا الشاب كان شديد الاهتمام بها. لكن أيّ إعادة لُحمة لعلاقتها لم يكن مقدراً لها أن تحدث في وقت قريب. وقد كانت ستيفاني تأمل بأن يكون مالون أكثر دراية وحذراً مما كانت هي عليه. ولقد بقي هاتفها الخليوي في جيبيها. والعجيب أن الجنود رغم تفتيشهم لها، فقد سمحوا لها بالاحتفاظ بالهاتف، فرقة مزلاج استلقت انتباهها.

استدارت لترى الخزانة المشرقية تدور على محورها نحو الداخل توقف دوران الخزانة فأنكشف وراءها ممر.

رجل هزيل القامة، عفريتّي الشكل، أصلع الرأس برز من الظلمة بينما تسير في أثره إيرينا زوفاستينا وهي ترفع مسدساً. أفسح الحارس لزعيمة مجالاً واسعاً للمرور متراجعاً إلى قرب النوافذ. ضغطت زوفاستينا على زرّ في جهاز التحكم فعاتت الخزانة من جديد إلى وضعيّة الإقفال. ثم ما لبثت أن رمت الجهاز فوق الجثة الملقاة أمامها.

سلّمت زوفاستينا مسدسها لأحد رجالها وأخذت منه بندقيته من طراز Ak-74. مشّت في خطّ مستقيم نحو ثورفالدسن وغرست عقب البندقية في بطنه. اختنقت أنفاس الرجل الدانماركي عندما تثنّى على نفسه وهو يمسك معدته.

تحرك كل من ستيفاني وإيلي لمساعدة الرجل. لكن الحراس الآخرين سرعان ما شهبوا السلاح.

"لقد قررت"، قالت زوفاستينا "أن أت للقائكم شخصياً بدلاً من العودة إلى الاتصال بكّ بالهاتف كما اقترحت عليّ."

جاهد ثورفالدسن لالتقاط أنفاسه من جديد ثم وقف مستوياً، وهو يقاوم شعوره بالألم. "يسرني أن أعرف... أنني استطعت... أن أترك عندك هذا الانطباع القوي..."

"وأنت من تكونين؟" سألت زوفاستينا ستيفاني.

قدّمت نفسها وأضافت. "من وزارة العدل في الولايات المتحدة."

"وهل يعمل مالون تحت إمرتك؟"

أومأت برأسها عن كذب "نعم إنه يعمل معي."

هنا واجهت زوفاستينا إيلي. "ماذا قال لك هؤلاء الجواسيس؟"

"قالوا لي إنك كاذبة، وأنت تقومين باحتجازي رغم إرادتي، دون أن أكون داريّاً بذلك." سكت قليلاً، ربما لاستجماع شجاعته. "وبأنك تخططين لشنّ حرب."



كانت زوفاستينا حانقة على نفسها. فلقد سمحت لعواطفها أن تتحكم بها. لقد كان قتل فينسينتي أمراً ضرورياً. أمّا كارين؟ لقد ندمت على قتلها، مع أنه لم يكن ثمة خيار لديها. كان عليها أن تفعل ذلك. وماذا عن العلاج الناجع لمرض الإيدز؟ كيف يُعقل أن يكون ذلك صحيحاً؟ هل كانوا يخدعونها؟ أم أنهم كانوا مخدوعين بكل بساطة؟ فينسينتي كان يتهياً لشيء ما، جديد، منذ بعض الوقت. كانت هي تعرف هذا، ومن أجل ذلك فقد وظفت جواسيس يعملون لمصلحتها بطريقة خاصة، من أمثال كميل رافين الذي كان يحيطها علماً بكل ما يجري.

حدثت نحو سجنائها الثلاثة وقامت بإفهام ثورفالدسن. "ربما أنك كنت متقدماً عليّ في البندقية، لكن هذا الوضع قد تغير الآن."

أشارت بالرشيش نحو ليندسي "تقدم إلى هنا."

وقف الرجل كالوتد الصامت، ونظرته لا تفارق البندقية. أومأت زوفاستينا إلى أحد رجالها فقام بدفع ليندسي إلى مقربة منها. تعثّر إلى الأرض فحاول النهوض لكنها زجرته بينما هو لا يزال جاثياً على إحدى ركبتيه موجّهة سبطانة البندقية نحو قناة أنفه. "قلّ لي بالضبط كلّ الذي يجري في هذا المكان. وإن لديك مهلة للبدء في الكلام ريثما أنتهي من العدّ إلى ثلاثة. واحد."

سكوت.

"إثنان."

مزيد من السكوت.

"ثلاثة."



ازداد شعور مالون بالتوجّس تأوُّجاً. كانوا لا يزالون يحومون على مسافة بضعة أميالٍ من المنزل مستعملين الجبال غطاء لهم. وكانت لما تظهر بعد أية إشارة على

وجود حركة في نطاق البيت أو حوله. ولا شك في أن تكلفة بناء مثل هذا البيت لا بد لها من أن تفوق مبلغ عشرة ملايين من الدولارات. وهو يقوم في منطقة من العالم هي بكل بساطة، منطقة غير مأهولة بالناس الذين يمكن أن يكون بمستطاعهم الإنفاق على مثل هذا البذخ، ما عدا، ربما، زوفاستينا نفسها.

"يحتاج هذا المكان إلى استطلاع"، قال.

ثم لاحظ من جديد طريق الرجل التي تتعرج نحو قمة الجبل، وكذلك لاحظ السلك الكهربائي. وكانت حرارة ما بعد الظهر ترقص في موجات متلاحقات فوق وجنة الصخور. فكر من جديد في أحجية بطليموس:

"تسلق المعازل التي أوجدها الله

"وعندما تتناهى إلى سطح عليتها

"حدق بناظريك نحو العين السمراء

"ولا تخش الاهتداء إلى الملاذ البعيد"

الجدران التي الله شيدها

إنها الجبال.

قرر أنه لا يمكن لهم الاستمرار في التحليق.

وعليه، فإنه نزع عن رأسه السماعتين، والتقط هاتفه المحمول.



لاحظت ستيفاني الرجل الجاثي إلى الأرض على ركبتيه يبكي وينتحب بطريقة خارجة عن سيطرته، عندما قامت زوفاستينا بالعد من واحد إلى ثلاثة.

"لطفاً، يا الله"، قال. "لا تقتليني."

لكن البندقية كانت لمّا تزل مصوّبة إليه فقالت زوفاستينا، "قل لي كلّ ما أريد

معرفته."

"لقد كان فينسينتي صادقاً في كلامه في المختبر عندما قال لك إنهم يعيشون في الجبل الواقع وراءنا، عند نهاية طريق الرُّجُل الصاعد. يعيشون في بركة خضراء. وقد قام هو بإيصال الطاقة والإنارة الكهربائية إلى هناك. لقد عثر عليهم منذ زمن بعيد." كان يتكلم في سرعة فتستبق الكلمات معاً في اعترافٍ محموم. "لقد أخبرني كل شيء. كما أنني قمت بمساعدته على تغيير طبيعتهم ... وإني عارف بالطريقة التي يعملون بها."

"ولكن ماذا يكون هؤلاء؟" سأله في هدوء.

"إنها جماعة البكتيريا، إنها الأرشيا، وهي نوع متميز من أنواع الحياة." سمعت ستيفاني تغيراً في نبرة الصوت، كما لو أن الرجل قد شعر بوجود حليف له جديد.

"إنهم ياكلون الفيروسات ويدمرونها، لكنهم لا يؤذوننا نحن. ومن أجل هذا كنا قد أجرينا كل تلك الفحوصات المخبرية. أجريناها لكي نتعرف على طريقة عملها على فيروساتك."

بدت زوفاستينا وكأنها تفكر في كل الذي سمعته. وكانت ستيفاني قد سمعت الإشارة إلى فينسينتي وعجبت ما إذا كانت ملكية هذا البيت عائدة له.

"يا ليندسي،" قالت زوفاستينا، "إنك تهذر بكلماتٍ لا قيمة لها. وأنا ليس لدي وقت لك -"

"لقد كذب عليك فينسينتي بخصوص المتعضيات المضادة."

وقد أثارت تلك العبارة اهتمامها.

"لقد اعتقدت بوجود متعضٍ مضاد لكل نوع من أنواع الفيروسات الناقلة للأمراض من الحيوان إلى الإنسان." هزَّ ليندسي رأسه نافياً. "هذا ليس بصحيح، بل يوجد متعضٌ واحد يعمل كعاملٍ مضاد." أشار إلى الاتجاه المعاكس لشبابيك الغرفة، نحو خلفية البيت. "إن البكتيريا هي هناك خلفنا تعيش في البركة الخضراء. لقد ثبت أنها تشكل العامل المضاد لكل فيروس تمكناً من العثور عليه وعزله. لقد كذب عليك. عندما جعلك تعتقدين بوجود أكثر من إجراء مضاد في الوقت الذي لا يوجد فيه سوى إجراء واحد فقط."

زانت زوفاستينا من ضغطها على فوهة البندقية المحشورة فوق أرنبة أنف الرجل. "إذا كان فينسينتي قد كذب عليّ فإنك قد فعلت ذلك أيضاً." رن جرس الهاتف في جيب ستيفاني.

رفعت زوفاستينا نظرها. "لا بد أنه السيد مالون.. أخيراً،" استدارت فوهة البندقية نحو ستيفاني. "أجيبني على الهاتف."

تردّدت ستيفاني.

سدت زوفاستينا بندقيتها نحو ثورفالدسن. "ليس لي من حاجة إليه سوى جعله وسيلة لإرغامك على الإجابة."

رفعت ستيفاني الهاتف من جيبيها. اقتربت زوفاستينا منها وأصغت.

"أين أنتم الآن؟" سألها مالون.

هزت زوفاستينا رأسها.

"لم نذهب إلى هناك بعد،" أجابته ستيفاني.

"متى تصلون؟"

"أعتقد أننا على مبعده نصف ساعة."

أومأت زوفاستينا، إشارة إلى موافقتها على الكذبة.

"نحن هنا،" قال مالون، "ننظر إلى أكبر بيت كنتُ قد رأيته في حياتي، خاصة وأنه يقوم في منطقة مقفرة من السكان. إنه منزل يبدو مهجوراً. وهو يتصل بالخط السريع بطريق ممهّدة تتصل به مباشرة ويبلغ طولها ميلاً واحداً تقريباً. إننا نحلق الآن على بعد بضعة أميال خلف هذا المكان. هل يستطيع إليّ توفير المزيد من المعلومات لنا؟ إن هنالك طريق رجل جبليّة تقود إلى الجبل وتنتهي عند شقّ صخري هل تريدوننا أن نكشف على ذلك المكان؟"

"دعني أسأل."

أومأت زوفاستينا مرة جديدة بأن نعم.

الفصل الثالث والثمانون

وجدت كاسيوبيا ثلاثة مسدسات في خزانة الأسلحة. وكانت هي أليفة مع طرازها. فهي من طراز مكاروف. وهو سلاح أقصر بقليل من النموذج العسكري التقليدي المعروف باسم باريثا، ولكنه بشكل عام سلاح جيد.

بدأت الهليكوبتر تهبط فلاحظت كاسيوبيا كيف أن الأرض ترتفع نحو طائرتهم بسرعة، من خلال النوافذ. وكان مالون يتحدث مع ستيفاني عبر الهاتف. فعلى ما يبدو من الحديث أنهم لم يصلوا إلى المكان بعد. كانت متحرقة لرؤية إيلي وللتأكد من أنه في وضع جيد. لقد كانت تتفجّع عليه، ولكن ليس بصورة مطلقة، فهي دائماً في شك حول موته، وهي دائماً في أمل لم ينقطع. والوضع السابق لم يعد الآن قائماً. فلقد تبين أنها كانت محقة في الاستمرار في بحثها عن ميداليات الفيل. كما كانت محقة في استهدافها لإيرينا زوفاستينا، كما أنها كانت أيضاً محقة في قتلها للرجال في البندقية. ومع أنها كانت مخطئة بخصوص فيكتور، فإنها لم تشعر بأي ندم بسبب قتلها لزميله. فإن زوفاستينا قد بدأت هذه الحرب، وليست هي.

لامست الطوافة الأرض. واستُبدِلَ بهدير المحرك صمتٌ مخيف. فتحت باب المقصورة. وبدأ كل من مالون وفيكتور في النزول. كان طقس العصر جافاً والشمس مشرقة والهواء دافئاً. فحصت ساعة يدها، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة والخامسة والعشرين دقيقة بعد الظهر. لقد كان يومهم هذا طويلاً. ولم يكن من المعروف بعد، كيف سينتهي. ولم تكن قد عرفت النوم سوى مدة ساعتين فقط إبان رحلتها على الطائرة من البندقية مع زوفاستينا، لكن نومها آنذاك لم يكن نوماً هنيئاً.

ناولت سلاحاً فردياً لكل من الرجلين.

رمى مالون مسدسه الآخر إلى داخل الطوافة ودسّ المسدس الجديد في حزامه مثلما فعل فيكتور.

كانوا ربما على مسافة مئة وخمسين متراً وراء البيت خلف دغلٍ من الشجر. وكانت طريق الرجل التي تقود إلى الجبل تمتد عن يمينهم. انحنى مالون وتحسّس الكابل الكهربائي التخين الذي يحاذي الطريق المذكورة. "إنه يئز. فمن المؤكد أن أحدهم يحتاج إلى الكهرباء فوق."

"وماذا يمكن أن يوجد هناك؟" سأل فيكتور.

"ربما يوجد ذلك الشيء الذي كانت تفتش عنه زعيمك السابقة."



قامت ستيفاني بتفقدُ حال هنريك بينما أمرت زوفاستينا إثنين من جنودها بالنزول إلى المختبر في الأسفل.

"هل أنت بخير؟" سألته.

"أوماً إيجاباً. "لقد مرّ عليّ ما هو أسوأ من هذا."

لكنها عجبت لأمره. فقد كان في النصف الثاني من عقده السادس، وله جذع مقوَّس، وليس في ما اعتقدته عنه من أنه في أفضل حالاته الصحية.

"عليك ألا تصغي إلى ما يقوله هؤلاء الناس." قالت زوفاستينا لإيلي.

"ولمَ لا؟ فأنتِ هو من يصوّب الأسلحة نحو أيّ كان. كما تقومين بالاعتداء بالضرب على الرجال العجزة. أتريدين أيضاً أن تجربيني؟"

ضحكت زوفاستينا "أكاديميٌّ وتشتهي القتال؟ لا يا صديقي الذكي، لا ينبغي لي ولك أن نتقاتل. فإني محتاجة إليك لكي تساعدني."

"إذاً، أوقفني كل هذا. دعهم يذهبون في سبيلهم، وستحصلين على ما تريدين."

"كنتُ أتمنى لو أن الأمور في هذه البساطة."

"إنها على حق. فهذه الأمور لا يمكن أن تكون بسيطة." قال ثورفالدسن "ليس عندما تكون تخطط لحرب بيولوجية. وأن تتصرف كإسكندر عظيم حديث. إسكندر ينوي قتل ملايين البشر ليعيد قهر من قهرهم ولكي يقهر سواهم أيضاً." "إياك والسخرية مني،" حذّرت زوفاستينا.

لكن ثورفالدسن بدا غير منزعج. "سأتكلم معك حسبما يروق لي." رفعت زوفاستينا سلاحها الـ AK-74.

قفز إيلي إلى أمام ثورفالدسن. "إذا كنت تريدان العثور على ذلك القبر." قال لها بوضوح، "فإن عليك تنكيس هذا السلاح." عجبّت زوفاستينا في أمر ما إذا كان هذا الطاغية يستحق هو وكنزه القديم قبولها بالتعرض للتحدي في حضور رجالها.

"إن حاجتي إليك تتناقص بسرعة،" أوضحت زوفاستينا الأمر له. "إن ذلك القبر قد يكون على مسافة يمكن اجتيازها مشياً على الأقدام من هذا المكان." قال إيلي.

أعجبت ستيفاني بتصميم إيلي. فهو قد كان يدلي بشريحة لحم أمام أنياب أسد غير مربوط على أمل أن يتغلب جوعه الشديد على غريزته التي تدعوه إلى الفتك. لكنه يبدو أنه قد أحسن قراءة شخصية زوفاستينا.

وقد قامت زوفاستينا فعلاً بتنكيس سلاحها.

عاد الجنديان من المختبر، فإذا بكلّ منهما يحمل بين ذراعيه جهاز حاسوب. "كلّ شيء موجودٌ عليهما،" قال ليندسي. "التجارب، والبيانات، والمنهجية اللازمة للتعامل مع الأرشيا. وكلها معلومات مشفرة لكنني أستطيع فكّ شيفرتها. فأنا وفينسينتي فقط نعرف الكلمات السرية. لقد وثّق بي، وأخبرني بجميع الأسرار."

"ثمة خبراء يمكنهم فكّ شيفرة أيّ شيء. وإنني لست في حاجة إليك."

"لكن ذلك سيستهلك الكثير من الوقت من الآخرين من أجل معايرة الكيمياء المطلوبة للتعامل مع البكتيريا. لقد اشتغلتُ أنا وفينسينتي على ذلك الأمر طيلة

السنوات الثلاث الماضية. وأنت لا تملكين كل ذلك الوقت. ولن يمكن لك الحصول على المتعضيات المضادة."

أيقنت ستيفاني أن هذا الأحق الجبان إنما يقدم ضمانته الوحيدة الباقية في حوزته. ولكنها على الأقل ضماناً لا شك فيها.

تكلمت زوفاستينا بكلماتٍ شديدة اللهجة. وهي أشبه بالنباح، مستعملة لغة لا تعرفها ستيفاني فانصرف الرجلان اللذان يتأبطان جهازى الكومبيوتر عن الغرفة مع حليلهما. ثم أشارت إليهم بماسورة بندقيتها بأن يتبعوا الرجلين إلى الخارج.

مشوا في القاعة إلى الموزع الرئيسي واتجهوا نحو خلفية الطابق الأرضي. ظهر جندي آخر فسأله زوفاستينا عن شيء ما، بلغة بدت كأنها اللغة الروسية. أوما الرجل إيجاباً مشيراً بيده إلى باب مغلق.

تم إيقافهم أمام ذلك الباب، ثم وبعد فتحه، حُشرت هي، وثورفالدسن، وإيلي، وليندسي، وراءه قبل أن يجري إغلاقه عليهم. نقلت أنظارها في سجنهم.

حجرة للتخزين فارغة، ربما تبلغ أبعادها ثمانية في عشرة أقدام. جدرانها مزودة بألواح من الخشب غير المصقول. أما هوائها فتعقب به روائح مواد التعقيم. هجم ليندسي نحو الباب يقرع بقبضته على الخشب السميك. "إنني أستطيع مساعدتكم،" كان يصيح. "أخرجوني من هنا."

"إخرس،" انتهرته ستيفاني.

همد ليندسي لائذاً بالصمت.

درست ورطتهم الراهنة، وكان ذهنها يتسارع. بدت زوفاستينا في عجلة من أمرها، بل مشغولة البال.

فُتح الباب من جديد.

"الشكر لله،" قال ليندسي.

وقفت زوفاستينا وهي لا تزال تشدُّ على قبضة سلاحها Ak-74.

"لماذا أنتِ - فتح ليندسي فمه بادئاً بالكلام.

"إنني أوافق معها،" قالت زوفاستينا "عليك أن تخرس." ركزت زوفاستينا أنظارها على إيلي. "أريد أن أعرف، هل هذا هو المكان المذكور في الأحجية؟"

لكن إيلي لم يجب بسرعة، وقد عجبت ستيفاني أ تكون هذه شجاعة منه أم هي الحماسة تقف خلف عناده وتباطئه. أخيراً قال لها: "كيف لي أن أعرف؟ لقد كنت محتجزاً في ذلك الكوخ."

"لكنك جئت إلى هنا مباشرة من ذلك الكوخ،" قالت زوفاستينا.

"وكيف لك أن تعرفي ذلك؟" سألها إيلي.

لكن ستيفاني كانت قد عرفت الجواب. فالحق قد وقعت في موقعها المطابق، فأيقنت بقدوم الأسوأ. لقد كانت زوفاستينا تلعب بهم وتراقب تحركاتهم. "لقد أمرت ذلك الحارس بإطلاق النار على عجلات سيارتنا. وأردتنا أن نقوم باستعمال هذه السيارة. وهي سيارة يمكن لك تتبعها."

"لقد كانت هذه هي أسهل الطرق لمعرفة ما تعرفون. لقد علمت بحضوركم إلى الكوخ عن طريق وسائل المراقبة الإلكترونية التي كنت قد نصبتها حوله."

لكن ستيفاني قامت بقتل ذلك الحارس. "ويبدو أنه كان لا علم لديه بذلك." هزت زوفاستينا كتفها في غير اهتمام. "لقد كان يقوم بواجبه. فإن كنتم قد تغلبتم عليه، فالخطأ يكون خطؤه."

"لكنني قتلته،" قالت بصوت مرتفع.

بدت زوفاستينا كأنها في حيرة من أمرها. "إنك تبالغين في القلق من أجل شيء لا يعني شيئاً."

"ما كان هنالك من حاجة لموت ذلك الرجل."

"هذه مشكلتك. هذه هي مشكلة الغربيين. أنتم لا تستطيعون عمل ما ينبغي عمله."

فهمت ستيفاني الآن أن موقفهم هو أسوأ مما قد تصوّرت من قبل، كما أدركت

فجأة شيئاً آخر أيضاً وهو أن حال مالون وكاسيوبيا لن يكون أفضل من حالهم. وقد لاحظت أن ثورفالدسن قد قرأ أفكارها المغممة.

أمّا خلف زوفاستينا فكان عدد من الجنود في جيئة ورواح، وكل واحد منهم يحمل آلة غريبة المنظر. وقد قاموا بوضع إحداها على الأرض قرب زوفاستينا. وكان ثمة خرطوم قمعيّ يمتدُّ من فوقها كما لاحظت وجود عجالاتٍ تحتها.

"هذا بيت واسع. وسيستغرق الأمر بعض الوقت للانتهاء من إعداده."

"إعداده من أجل ماذا؟" سألتها.

"من أجل الإحراق." أجاب ثورفالدسن.

"جوابه صحيح تماماً،" قالت زوفاستينا. "وفي الوقت نفسه، فإنني ذاهبة للقيام بزيارة إلى السيد مالون والسيدة فيت، لذلك عليكم ألا تذهبوا."

ثم صفقت زوفاستينا الباب خلفها.

الفصل الرابع والثمانون

قاد مالون الطريق أمامهما عبر الدرب الصاعد في المنحدر وكان يلحظ الأماكن التي جرى احتفار مواطئ القدم فيها في الصخر منذ مدة ليست بعيدة. وكانت كاسيوبيا وفيكاتور يتبعانه وكلاهما يلقي من وقت لآخر نظرة إلى خلفه. بقي البيت البعيد الآن عنهم، على هدوئه، وكانت كلمات أحجية بطليموس تضجُّ في رأسه. "تسلق المعازل التي أوجدها الله". لقد طابق هنا المقال المقام بكل تأكيد. مع أنه تخيل أن التسلق في أيام بطليموس كان لا بد من أن يكون أكثر مشقة.

استوت الطريق عند مصطبة.

واستمرَّ الكابل الكهربائي يتسلَّل تسلُّل الأفعى حتى انتهى إلى داخل الصدع الصخريّ المظلم، صدع في جدار من الصخور ضيق، لكن المرور فيه ممكن مع كل ذلك.

"وعندما تتناهى إلى سطح عليتها".

قادهم في الطريق نحو الممر الضيق.

لم تكن عيناه قد اعتادتاً بعد، على الضوء الشحيح، فاحتاج منه الأمر إلى بضع ثوانٍ للتأقلم. كان الممر قصيراً، ربما يبلغ طوله عشرين قدماً، وقد استعمل الكابل الكهربائي كدليل له إلى الطريق. انتهى الممر إلى غرفة أكثر اتساعاً. وقد كشف الضوء الضعيف الذي يكتنف الحجرة أن الكابل قد انعطف يساراً لينتهي عند صندوق توصيل كهربائي. اقترب من العلبة فرأى أربعة مصابيح كهربائية كشافة مركونة على الأرض. أشعل أحد المصابيح مستفيداً من عمود ضوءه المشرق لاستكشاف أرجاء الغرفة.

كانت أبعاد القاعة ربما تقارب الثلاثين قدماً في طولها وما يعادل ذلك أيضاً، أو يزيد، في عرضها. أما علو سقفها فيذهب إلى ما ينوف عن العشرين قدماً. ثم لاحظ وجود بركتين تفصل بينهما مسافة عشرة أقدام.

سمع صوت نقرّة فاشتعلت القاعة بالنور الآتي من مصباح كهربائي. استدار ليرى فيكتور بجانب علبة توزيع الكهرباء.

أطفاً مصباحه الكهربائي الكشاف. "لقد رغبتُ في التحرّي عن الأشياء حولنا قبل الشروع بالعمل."

"منذ متى؟" قالت له كاسيوبيا.

"أنظرا،" قال فيكتور مشيراً إلى البركتين.

كانت كلّ منهما مضاءة بمصابيح تحت مستوى الماء تغذيها كابلات كهربائية تمتد في باطن الأرض. وكانت البركة الواقعة إلى اليمين مستطيلة الشكل ولها لون ضارب إلى البني. أما تلك الواقعة إلى اليسار فقد كانت تبدو من خلال الضوء، بلون أخضر فوسفوري.

"حدّق بناظريك نحو العين السمراء" قال مالون. خطا إلى مقربة من البركة البنية اللون فلاحظ أن الماء كان صافياً صالحاً للسباحة، أمّا اللون الذي يكتسبه فهو قادم من انعكاس لون الصخور في أسفلها. انحنى إلى الأرض فانحنّت كاسيوبيا إلى جانبه. ذاق طعم الماء. "ماء دافئ لكنه ليس سيئاً المذاق. إنه أشبه بالمياه الآتية من حنفية ساخنة. لا بدّ أن تكون هذه المياه متصلة بشرخ بركاني. فهذه الجبال لا تزال غير هامدة."

مرّرت كاسيوبيا إصبعاً مبللاً إلى شفّتيها. "ليس لها طعم."

"انظر إلى القعر."

راقب ما قد لاحظته كاسيوبيا أيضاً. فثمة حرفٌ بدا محفوراً على قطعة مسطّحة من الحجر، يقبع عند عمق ما يقارب العشرة أقدام من المياه النقية. وكان ذلك الحرف هو الحرف Z.

مشى إلى البركة الخضراء. وتبعته بعد ذلك كاسيوبيا. كان في هذه البركة المزيد من الماء الصافي الشفاف كالهواء، إنما يأتيه لونه من لون

الصخر المحيط به. وفي قعر تلك البركة كان يوجد الحرف H محفوراً على قطعة حجرٍ مماثلة.

"هذان حرفان يأتيان من الميداليات"، قال. "ZH ومعناها الحياة."

"يبدو لي أن هذا هو المكان."

لاحظ أن فيكتور قد بقي واقفاً قرب علبة توزيع الكهرباء. دون أن يبدو عليه عظيم اهتمام بما اكتشفاه. لكن كان ثمة شيء آخر. إذ أنه قد أدرك الآن معنى السطر الأخير من الأحجية. "ولا تخشَ الاهتداء إلى الملاذ البعيد."

عاد إلى البركة البنيّة "هل تذكرين ذلك الرمز الغريب الذي يوجد على الميداليات، كما في أسفل المخطوطة التي وجدها إليي؟" هنا قام برسم الشعار المذكور بواسطة إصبعه على صفحة التراب الرملية المحيطة بالبركة.



"لم أستطع في الماضي أن أقرّر ماذا كان يمثل ذلك الشعار. أهى أحرف؟ لقد خلّتها عبارة عن حرفي "B"، ملتصقان إلى حرف "A"؟ أمّا الآن، فإنني أعرف ماذا تمثل بالضبط. هناك "هنا أشار إلى جدارٍ صخريّ يقع على عمق ستة أقدام تحت سطح البركة. "انظري إلى تلك الفتحة. ألا تبدو لك مألوفة؟"

ركّزت كاسيوبيا نظرها إلى ما كان قد تنبّه هو إليه أولاً. لقد بدت الفتحة أشبه بحرفي "B"، ملتصقان إلى حرف "A". إن تلك الفتحة تشبه هاتيك الإشارة.

"وعندما تتناهى إلى سطح عليّتها

"حدّق بناظريك نحو العين السمراء

"ولا تخشَ الاهتداء إلى الملاذ البعيد"

أتعرفين ماذا يعني ذلك؟"

"لا، يا مالون. لسنا نعرف. قل لنا ماذا يعني."

استدار.

ولكن ليرى إيرينا زوفاستينا واقفة خلفهم عند المدخل الخارجي.



أصقت ستيفاني جسدها إلى الباب مصغية لأي صوت يأتي من خارجه. سمعت أنين محرك كهربائي، ينطلق ثم يقف، ثم يصطدم بالباب. وتمضي فترة تردد قصيرة، ثم ينطلق الطنين الميكانيكي في كل مرة من جديد.

"إنها عملية رش وفرش." قال ثورفالدسن. "تقوم الآلات التي هي أشبه بالإنسان الآلي في بادئ الأمر برش ذلك السائل قبل أن تنفجر مشعلة معها كل شيء."

لاحظت وجود رائحة. رائحة حلوة إلى درجة تبعث على الغثيان. وكانت الرائحة أقوى ما تكون عليه عند أسفل الباب. "أهي النار الأغريقية؟" سألتها.

أوما ثورفالدسن إيجاباً، ثم قال موجهاً الكلام إلى إيلي. "إنه اكتشافك." "هذه الكلبة المجنونة سوف تشوينا شيئاً بأجمعنا،" قال ليندسي. "فنحن عالقون هنا."

"قل لنا شيئاً نكون لا نعرفه." دمدت ستيفاني في وجهه.

"هل سبق لها وأن قتلت أحداً بهذه الطريقة؟" سأل إيلي.

"ليس لحد علمي،" قال ثورفالدسن. "وقد يكون لنا الشرف في أن نكون الأوائل. مع أن كاسيوبيا كانت بكل تأكيد قد استخدمتها لمصلحتها الخاصة في البندقية." هنا تردد الرجل العجوز. "لقد قامت بقتل ثلاثة رجال."

بدا إيلي كالمصعوق. "لماذا؟"

"للتأثر لك."

تحول الوجه الأنيس للشاب الوديع إلى سحنة قاسية محتارة متجهمة.

"لقد شعرت بالأسى والغضب عندما أيقنت أن زوفاستينا تقف وراء هذه الأعمال. ولم يعد ثمة من يستطيع إيقاف جموحها."

تفحّصت ستيفاني الباب. كان له مفاصل فولاذية في أعلاه كما في أسفله. وكانت الدرايبس تمسك مساميرها في مواضعها دونما أي أثر لوجود مفكٍ للبراغي في تلك المكان. دقّت بقبضة يدها فوق ألواح الخشب. "هل يملك فينسينتي هذه الكرخانة؟" وجّهت السؤال إلى ليندسي.

"لقد كان يملكها، إذ هي قد أطلقت النار عليه."

"يبدو أنها تركّز سلطتها." قال ثورفالدسن.

"إنها حمقاء،" قال ليندسي. "ثمة أكثر من هذا بكثير، من الأمور التي تجري هنا. لقد كان من الممكن لي أن أحصل على ذاك كله. كالقوس الذهبي الذي كان يمنيّني بالحصول عليه."

"فينسينتي؟" سألته.

أوما ليندسي إيجاباً.

"ولكن ألم تحصل على ما ينبغي لك الحصول عليه؟" قالت ستيفاني. "فقد وضعت زوفاستينا الآن يدها على جهاز الكومبيوتر بما يحتويان عليه من بيانات. وهي لديها ما لديها من فيروساتها، وحتى أنك قد أخبرتها أنه يوجد ثمة متعضّ مضادّ واحد لجميع الفيروسات. كما أنك أخبرتها أين يمكنها الحصول عليه. وها أنت الآن لم يبقَ فيك نفع لها."

"لكنها محتاجة إلّي حق الحاجة،" بصق. "وهي تعلم ذلك." وكان صبر ستيفاني قد بدأ ينفد.

"إن البكتيريا هذه هي علاج لمرض الإيدز."

الفصل الخامس والثمانون

سمع فيكتور صوت زوفاستينا المميز. إذ كم من مرة قد وجهت أوامرها إليه بهذه النبرة الانفعالية نفسها. بقي قرب المخرج بعيداً عن طريق فيت ومالون ومجانباً لها. كان يصيح السمع رغم أنه خارج حقل نظر زوفاستينا التي لم تكن بعد قد دخلت القاعة المضاءة. وهكذا، فإنه بقي في الممر المظلم.

راقب كيف واجه كلُّ من مالون وفيت زوفاستينا. ولم يقم أحدٌ منهما بالإفصاح عن وجوده. بدأ في بطءٍ يتقدم إلى مسافة أقرب إلى المكان الذي ينفتح فيه الصخر. قبض على مسدسه بيده اليمنى بثبات وانتظر قدوم اللحظة التي دلفت فيها زوفاستينا إلى الداخل مسدداً فوهة مسدسه إلى مستوى رأسها.

توقفت.

"كنت أتساءل أين يمكن أن تكون يا خائني."

لاحظ أنها جاءت دون أيِّ سلاح.

"هل أنت عازم على إطلاق النار علي؟"

"أجل، إذا أعطيتني أيَّ سببٍ لأفعل ذلك."

"لكنني لا أحمل سلاحاً."

أقلقه هذا الأمر. ونظرة سريعة نحو مالون جعلته يرى أن مالون قلقٌ أيضاً.

"سألقي نظرة على الخارج"، قالت كاسيوبيا وهي تتحرك نحو المخرج.

"سوف تندمين بسبب هجومك عليّ"، قالت زوفاستينا لكاسيوبيا.

"سوف أكون مسرورة بإعطائك فرصة للتعاذل."

ابتسمت زوفاستينا. "أشك في أن السيد مالون، أو خائني هذا، سيمنحاني مثل هذه المتعة."

خرجت كاسيوبيا من خلال فجوة الجدار الصخري لتعود بعد ثوانٍ قليلة. "لا يوجد أحد في الخارج. أما البيت والأراضي حوله فما زالت هادئة."

"إذاً من أين جاءت؟" سأل مالون، "وكيف عرفت طريق الوصول إلى هنا؟"

"عندما بدأت بمحاولة التخفي عن القوات التي أرسلتها في إثركم فوق الجبال،" قالت زوفاستينا، "فإننا قررنا التخلّف عنكم من أجل أن نعرف إلى أين تتجهون."

"ومن الذي يملك هذا المكان؟" سألها مالون.

"إنه أنريكو فينسينتي. أو قلّ كان يملكه. فلقد قتلته منذ وقتٍ قريب."

"لا رده الله،" قال مالون. "لو لم تفعلي أنتِ ذلك لفعلته أنا."

"ومن هو سبب حقدك عليه؟"

"لقد قتل امرأة من بين أصدقائي."

"وهل جئت أنت أيضاً لإنقاذ السيدة فيت؟"

"في الحقيقة، لقد أتيتُ من أجل إيقافك."

"لكنك قد تجد أن ذلك مهمة صعبة."

أسلوبها المتنمّر ألقه.

"هل يمكنني إلقاء نظرة على البركتين؟" سألت زوفاستينا.

كان يحتاج إلى وقتٍ للتفكير. "إفعلي ما بدا لك."

أنزل فيكتور مسدسه، لكنه أبقاه جاهزاً. فمالون لم يكن متأكداً من حقيقة مجريات الأمور. لكن موقفهم قد فرض عليهم مشكلة. إذ ليس ثمة سوى ثغرة واحدة فقط للدخول والخروج. وهذا شيء لا يمكن أن يكون في مصلحتهم.

تقدمت زوفاستينا إلى البركة البنية وحدّقت نحو أسفلها. ثم مشت بعد ذلك نحو البركة الخضراء. "حرفي ZH، هما أيضاً على الميداليات. كنتُ أعجبُ من السبب الذي جعل بطليموس ينقش هذين الحرفين على الميداليات. فمن المحتمل أن يكون هو الذي أمرَ بوضع هذين الحجرين في قعر كل من البركتين. إذ من عداه يمكن أن يكون قد فعل ذلك؟ فكرة عبقرية. وقد استغرق حلُّ هذا اللغز وقتاً طويلاً. إلى من يجب علينا أن نتوجّه بالشكر؟ إليك يا سيد مالون؟"

"لنقل أنه كان جهداً جماعياً مشتركاً."

"يا لك من رجلٍ متواضع. ويؤسفني ألا أكون قد التقيت بشخصك قبل الآن وفي ظروف مختلفة. وإنه ليسعدني لو أستطيع أن اتخذك مساعداً لي."

"إن لديّ عملاً أرتزق منه."

"أهي وظيفة عميل أمريكي؟"

"بل في الحقيقة، إنني بائع كتب."

تضاحكت، وتملّكها حسُّ دعاية.

وقف فيكتور في كامل أهبطه خلف زوفاستينا. أمّا كاسيوبيا فتولّت مراقبة المدخل.

"قل لي يا مالون. هل تمكنت من حلّ اللغز بكامله؟ هل يرقد الإسكندر الكبير هنا؟ لقد كنت على وشك إيضاح شيء ما للسيدة فيت عندما قمت بمقاطعتكم."

كان مالون لا يزال يحمل الضوء الكشاف. كشاف قوي الإحتمال، ويبدو أنه مضادٌ للماء أيضاً. "إن فينسينتي قد مدّد أسلاكاً كهربائية، ووزّع أنواراً في هذا المكان. حتى في وسط البركتين. ألا يثير هذا فضولك عن السبب الذي جعل المكان والبرك مهمة له إلى هذا الحد؟"

"لكن يبدو لي كأنه لا يوجد شيء هنا."

"إن هذه هي النقطة التي كنت مخطئة فيها."

ألقي مالون الضوء الكشاف على الأرض ثم خلع سترته وقميصه "ما الذي تفعله؟" سألته كاسيوبيا.

خلع نعليه وجوربيه وأفرغ جيوب سرواله من الهاتف والحافظة "تلك الإشارة المحفورة عند جانب البركة. إنها لا بد من أن تقود إلى الملاذ البعيد."
 "يا كوتون،" قالت كاسيوبيا.

أنزل نفسه وسط المياه. لقد شعر بأنها كاوية في بداية الأمر، لكن دفأها ما لبث أن هدأ أطرافه المتعبة. "لا تزيلى أنظارك عنها."
 أخذ نفساً طويلاً وغطس تحت الماء.



"علاجٌ لمرض الإيدز؟" سألت ستيفاني ليندسي.
 "كان مداوي محليّ قد دلّ فينسينتي على بركتين في الجبل منذ عدة سنوات، بينما كان فينسينتي يعمل مع العراقيين. ثم ما لبث أن اكتشف أن البكتيريا التي تعيش في البركتين قادرة على قتل فيروس نقص المناعة البشري المكتسب."
 لاحظت كيف أن إيلي يصغي بانتباه شديد.
 "لكنه لم يذكر ذلك لأيّ أحد،" قال ليندسي. "لقد احتفظ بالمعلومة لنفسه."
 "وما السبب؟" سأل إيلي.
 "كان ينتظر الوقت المناسب. لقد ترك السوق يتنامى. أراد السماح للمرض بالانتشار، فانتظر."

"لا يمكنك أن تكون جاداً في ما تقوله،" قال إيلي.
 "لقد كان على وشك نشر الدواء."

الآن فهمت ستيفاني. "وهل كنت تنوي الاشتراك معه في جني الغنائم؟"
 بدا ليندسي كأنه استشعر رائحة التحفّظ في نبرتها. "لا تلقي عليّ تلك الوصمة من النفاق. فأنا لستُ فينسينتي. وأنا لم أكن أعرف عن وجود أي علاج شافٍ حتى اليوم. لقد كشف لي عن ذلك منذ وقتٍ وجيز."

"وما الذي كنت تنوي أن تفعله؟" سأله.

"كنت سأساعده على إنتاج الدواء. هل من خطأ في ذلك؟"

"بينما تقوم زوفاستينا بقتل الملايين؟ لقد قمت أنت وفينسينتي بجعل ذلك الأمر ممكناً."

هز ليندسي رأسه. "لقد قال فينسينتي أنه كان عازماً على وضع حد لها قبل أن تتمكن من فعل أي شيء. لقد أمسك هو المتعضيات المضادة. ولم يكن بوسعها أن تتحرك بدون هذه المضادات."

"لكنها الآن تسيطر عليها. فكلكما معتوه."

"أنت تدركين، يا ستيفاني،" قال ثورفالدسن، "أن لا فكرة لدى فينسينتي عن وجود أي شيء آخر هنا. "لقد اشترى المكان طمعاً في الاحتفاظ بمصدر البكتيريا. وقد أطلق عليه الاسم الذي يعرفه به الآسيويون. ومن الجلي أنه لم يعلم شيئاً عن قبر الإسكندر."

كانت قد ربطت بين هذه النقاط من قبل. "إن مسألتي الترياق والقبر متلازمتان. ولكن لسوء الحظ أننا محتجزون في هذا المستودع."

ولكن زوفاستينا كانت على الأقل قد تركت لهم الأنوار مضاءة. لذلك فقد سمح لها ذلك بفحص كل إنش من الجدران والأرض الحجرية التي لم ينته العمل بها. ليس ثمة طريق إلى الخارج. وفوق ذلك كله فإن الرائحة التي تجلب الغثيان ما انفكت تتسرب من تحت الباب.

"هل توجد كل البيانات المتعلقة بالعلاج في ذاكرة هذين الحاسوبين؟" وجه إيلي سؤاله إلى ليندسي.

"ليس الأمر بشديد الأهمية،" قال لهم. "إن الخروج من هذا المكان هو الأمر الذي يهم. قبل أن تبدأ النار بالاشتعال."

"بل هو أمر مهم،" قال له إيلي. "لا نستطيع السماح لها بالحصول على تلك البيانات."

"يا إيلي ألق نظرة من حولك. ما الذي نستطيع أن نفعله حيال هذا الأمر؟"

"إن كاسيوبيا ومالون طليقان في الخارج."
 "هذا صحيح،" قال ثورفالدسن. "لكن ما أخشاه هو أن تكون زوفاستينا
 متقدمة بخطوة عليهما."

وافقت ستيفاني على كلام ثورفالدسن، لكن هذه المسألة تقع تحت مسؤولية
 مالون وعليه الاهتمام بها.

"هنالك أمرٌ هي لا تدري عنه شيئاً." قال ليندسي.
 سمعت قصده في نبرة صوته، ولم تكن في وارد هذا المزاج. "لا تحاول
 المساومة معي."

"إن فينسينتي قد قام باستنساخ كل شيء إلى حافظة وجيزة flash drive
 قبيل لحظة دخول زوفاستينا عليه بقليل. وقد كان يمسك بالحافظة في قبضته عندما
 قامت زوفاستينا بإطلاق النار عليه. والحافظة لا تزال في المختبر، في الأسفل. فإذا
 بقيتُ أنا وبقيت تلك الحافظة فسيكون لكم العلاج الناجع المضاد لما لديها من
 فيروسات."

"صدّقني،" قالت له. "حتى وإن كنتُ ابن حرامٍ قدر، فإنني رغم ذلك، لو كان
 ذلك بمستطاعي لكنت أخرجتك من هنا."

عمدت إلى امتحان صلابة الباب من جديد.
 "ليس لنا فيه حولٌ ولا طول."



أبقت كاسيوبيا عينها على زوفاستينا التي كان فيكتور يحاصرها بمسدسه في زاوية
 حرجة، أما عينها الثانية فقد أبقتها على البركة. لقد غطس مالون تحت الماء منذ
 حوالي ثلاث دقائق. ولا يمكن أن يكون قادراً على البقاء دون تنفّس طيلة هذه المدة.
 لكنّ ضوءاً ما لبث أن ظهر لها تحت الماء ثم بزغ مالون من الفتحة الغربية
 الشكل وعام فوق سطح الماء مريحاً ذراعيه على حافة صخرية. بينما هو لا يزال
 يمسك الضوء الكشاف بإحدى يديه.

"أتريدون أن تشاهدي ذلك؟" قال لها.

"ونتركهما؟ لا.. لا مجال."

"إن فيكتور يحمل مسدساً، وبإمكانه أن يتدبر أمرها."

لكنها كانت لا تزال مترددة. شيء ما، لم يكن على ما يرام. كان عقلها ما يزال مع إيلي. لكنها لم تكن عمياء عن الواقعية. كما أن فيكتور كان لا يزال يعتبر غامضاً رغم أنه قد برهن عن كثير من النفع خلال الساعات الماضية. فبدونه ربما كانت أجزاء من جسدها لا تزال معلقة الآن على الأشجار.

"لا بد لك من مشاهدة ذلك،" كرر لها مالون القول.

"هل هو هناك؟" جاء السؤال من زوفاستينا.

"ألا تريدون أن تعرفي؟"

كانت كاسيوبيا لا تزال ترتدي البذلة الجلدية الضيقة من البندقية. نزعَتْ عنها القسم الأعلى من ثيابها وتركت القسم الأسفل منها. وضعت المسدس أرضاً وعلى مبعدة من متناول زوفاستينا، إلى جانب مسدس مالون. وكانت حمالة صدر رياضية سوداء تغطي صدرها، وقد لاحظت نظرة فيكتور إليها. "دع نظرك عليها هي." قامت بإفهامه.

"لن تقوى على الذهاب إلى أي مكان."

انسلت إلى الماء.

"التقني نفساً طويلاً واتبعيني." قال لها مالون.

رأته يغطس ويدخل جسده كالإسفنج خلال الفتحة. تبعته على بعد أقدام قليلة منه، ثم سبحت خلال إحدى المداخل التي تأخذ لها شكل الحرف "B". كانت عيناها مفتوحتين وقد لاحظت أنهما يسافران في نفق صخري ربما يبلغ عرضه متراً ونصف المتر. وكانت البركة تقع على مبعدة مترين من جدار القاعة. وهكذا فقد وجدا نفسيهما الآن يسبحان في باطن الجبل فيما عمود ضوء المصباح الكشف الذي يحمله مالون يتراقص عبر النفق فساءلت نفسها كم تُراه سيمتد ذلك النفق؟

ثم رأت مالون يرفع رأسه.

لقد خرجت هي من الماء أيضاً لتجد نفسها إلى جانبه مباشرة. كشف مصباحه عن غرفة أخرى محصورة. وقد كانت تتخذ لها شكل قُبَّة، فيما الحجر الكلسي العاري مخطَّط بظلالٍ من اللون الأزرق الداكن. وكانت المشاك (جمع مشكاة) المحفورة في الجدران تحمل فوقها ما بدا أشبه بجرارٍ من المرمر لها أغطية دقيقة النحت. ومن ناحية السقف فقد كان الحجر الكلسي الطري مرصعاً بفتحات منحوتة على نحو لا نسق له ولا انتظام لشكله. وكانت أنوار باردة فضيَّة تنسربُ إلى القاعة السامقة من خلال كل فتحة فتذوب أشعتها المحمَّلة بذريرات الغبار في داخل الصخر.

"هذه الفتحات عليها أن تتَّجه إلى الأسفل"، قال مالون. إن المكان هنا جافٌ إلى أقصى ما يكون الجفاف. فهي مصمَّمة لتسمح بدخول الضوء وليس الرطوبة. كما أنها تلعب دور المسارب التي تكفل تجديد الهواء.

"وهل هذه الثقوب من صنع يدٍ بشرية؟" سأله.

"إني أشكُّ في ذلك. وإن ظني يذهب إلى أن هذا المكان إنما كان قد تم اختياره بسبب وجود هذه الثقوب فيه."

رفع نفسه مستعيناً بذراعيه، إلى خارج البركة، فانسكب الماء من سرواله المنتقع. "إن علينا أن نسرع."

تسلَّقت خلفه.

"إن هذا النفق هو الشيء الوحيد الذي يصل هذه الحجرة بتلك"، قال لها. "ولقد ألقيت حولها نظرة سريعة من أجل التأكد."

"وهذا يفسِّر بكل تأكيد سبب عدم العثور عليها."

استعمل مالون المصباح الكشاف لتتبع الجدران، فلاحظت وجود لوحاتٍ ملوَّنة باهتة، متناثرة هنا وهناك. محارب في عربة تجرها الخيول يحمل صولجاناً باليد التي تمسك الأعنة، ويخاصر امرأة باليد الأخرى. وعلَّ مصابَّ بسهم، شجرة عارية من الأوراق، رجلٌ يقف على رجلٍ واحدة في وضعية قذف الرمح. رجلٌ آخر يتحرك إلى الأمام نحو ما بدا أشبه بخنزير بري. أما ما تبقى من الألوان فقد كان يبدو أسراً. فمن لون عباءة الصياد البنفسجية، إلى لون العربة الأحمر الداكن، إلى لون الحيوانات

الأصفر، كما أنها لاحظت مشاهد أخرى كثيرة على الجدار المقابل. خيال فتّي يعتمر إكليلاً وريشةً فوق شعره، وهو يبدو بوضوح في ريعان الشباب ويستعد لمهاجمة أسدٍ تساوره الكلاب. وكانت خلفية بيضاء جُعِلت شبه باهتة بظلالٍ وسطيةٍ من الأصفر البرتقالي، والأحمر الباهت، والبنّي الممزوج بظلالٍ من الأخضر والأزرق.

"إني أميل إلى القول أنها تأثيراتٌ آسيوية إغريقية." قال مالون. "لكنني رغم ذلك لست بخبير في هذا المجال."

أشار بالضوء عبر الحجارة المرصوفة مثل الأرضية المفروشة بالباركيه. وقد برز ممرٌ ينضج بالتأثير الإغريقي - أعمدة مثلمة وقواعد منمّقة - من خلال العتمة. وقد ميّزت كاسيوبيا الدارسة للهندسة القديمة، نور الحضارة الهيلينية الساطع. وفي الأعلى انتشر نقشٌ رقيق بأحرف إغريقية. "من هناك"، قال لها.

WWW.REWITY.COM
RAYAHEEN

الفصل السادس والثمانون

جاهد فينسينتي حتى تمكّن من فتح عينيه. كان الألم في صدره يوجع دماغه. كل التقاط نفس كان يبدو مشقّة مضيئة. كم هو عدد الرصاصات التي أصابته؟ أهى ثلاث؟ أم أربع؟ ما عاد يستطيع أن يتذكّر. ولكن بشكلٍ أو بآخر، فإن قلبه لا يزال ينبض. فلربما لم تكن السُمنة سيئة بشكلٍ مطلقٍ، ومن جميع الوجوه. تذكر أنه كان قد سقط أرضاً لتجتاحه بعد ذلك سحابة من الظلمة السوداء العميقة. لم يتمكن من إطلاق أية رصاصة. يبدو أن زوفاستينا كانت قد توقعت ما هو عازم عليه من تصرف. بدا الأمر وكأنها كانت ترغب في جعله يتصدى لها.

أرغم نفسه على الانقلاب إلى جانبه ثم أمسك برجل طاولة. نزف الدم مجدداً من صدره وأنشبت موجة جديدة من الألم أظفارها في نخاعه الشوكي. ضاعف من كفاحه لالتقاط أنفاسه. لقد أخذ المسدس منه لكنه انتبه إلى أنه لا يزال يمسك شيئاً آخر. قرّب يده إليه فرأى الحافظة الوجيزة.

كل ما عمل له منذ عشر سنوات يجمد الآن في قبضة كفّه الدامية. كيف استطاعت زوفاستينا أن تهتدي إليه؟ من الذي خانته وانقلب عليه؟ هل هو أوكونييه؟ ألا يزال أوكونييه حياً؟ هذا الرجل كان الإنسان الوحيد الذي يستطيع فتح الخزانة الموجودة في المكتبة.

فليس هناك سوى جهازيّ تحكّم.

أين جهازه هو؟

جاهد جهاداً لاستعادة تركيزه إلى أن تمكّن أخيراً من رؤية الجهاز مطروحاً على الأرضية المبلّطة. يبدو أن الخسارة قد عمّت كل شيء.

لكن قد لا يكون الأمر إلى هذه الدرجة من سوء.

فها هو لا يزال على قيد الحياة. وقد تكون زوفاستينا قد انصرفت.

استجمع قواه والتقط جهاز التحكم إلى يده. كان عليه البدء بتجهيز منزله بجهاز حماية كاملة قبل الشروع بخطط كارين وايلد. لكن لم يدُرْ بخلده مرة أن زوفاستينا ستقوم بالربط بينه وبين عملية اختفاء كارين. وإن قامت بذلك فمن المؤكد أن ذلك كان لا يجب أن يحدث بهذه السرعة. كما أنه لم يصدق مرة أن زوفاستينا يمكن أن ترتدّ عليه أبداً إذا أخذت مخططاتها الأخرى بعين الاعتبار.

فهي في مسيس من الحاجة إليه.

أو هل تراها فعلاً محتاجة إليه؟

كان الدم يتجمع في حنجرته فقام ببصق ذاك الطعم البغيض. لا بد أن إحدى رئتيه قد أعطبت. وقد أجبره المزيد من تسرّب الدماء على السعال. والسعال كان لا بدّ له من أن يرسل صواعق ناخزة من الألم في سائر أنحاء جسده.

تُرى أيحضر أوكوئيّه لنجدته؟

تحسّس جهاز التحكم فلم يستطع أن يقرر أيّاً من الأضرار عليه أن يعالج. فأحدها يفتح الباب في المكتبة. والثاني يفتح كل الأبواب الموصدة في جميع أرجاء البيت. والأخير يقوم بتشغيل جهاز الإنذار.

وليس لديه كثير من الوقت يصرفه على الاختيار الصحيح. لهذا، فإنه ضغط على الأضرار جميعها.



حدّقت زوفاستينا نحو البركة البنيّة. وكان مالون، وفيت، قد غطسا فيها منذ عدة دقائق.

"لا بدّ من وجود قاعة أخرى." قالت على سمع فيكتور.

لكن فيكتور بقي صامتا.

"أخفِضْ ذلك المسدس."

فعلَ مثلما أمرته.

نظرت في وجهه عيناً ليعين. "هل راق لك أن تنظر إليّ وأنا مربوطة الوثاق إلى تلكم الشجرتين؟ هل استمتعت بكون حياتي مهددة؟"

"لقد أردت أن يظهر الأمر وكأنني واحدٌ منهم."

لقد نجح فيكتور في تمثيل دوره إلى درجة تخطت جميع توقعاتها، لقد قام باقتيادهم مباشرة إلى مرماها. "هل من شيء آخر ينبغي لي أن أعرفه؟"

"يبدو أنهم يعرفون عمّا يفتشون."

لقد كان فيكتور هو عميلها المزدوج منذ أن عاد الأمريكيون إلى الاتصال به لإعادة تجنيده معهم. وكان في ذلك الوقت قد أتى مباشرة إليها وأخبرها بكل تفاصيل محنته. وقد قامت باستعماله طيلة السنة الماضية لتسريب الأخبار التي أرادت أن يعرف الغرب بها. كانت لعبة توازن خطيرة لكن كان لا بدّ من أن تخوضها بسبب من تجدد اهتمام واشنطن بها.

وقد سار كل شيء على ما يرام.

إلى أن وقعت حادثة أمستردام.

والى أن قرر فينسينتي أن يقوم بقتل العميلة المكلفة بمراقبته. ولقد كانت هي قد شجعتة على تصفية تلك الجاسوسة، أملة من وراء ذلك أن تسلط واشنطن بعد ذلك جلّ تركيزها عليه هو. لكن تلك الخديعة لم تنفع. ولحسن الحظ، فإن ألعاب الخداع التي تقوم بها اليوم تسير سيراً أكثر نجاحاً.

فلقد كان فيكتور قد نبّها على الفور إلى وجود مالون في قصرها. وقد قامت بالتفكير من غير إبطاء كيف يمكنها أن تجني أقصى فائدة ممكنة لها من هذه الفرصة السانحة، وذلك بالقيام بإخراج عملية التهريب المدبرة إلى القصر. وقد كانت زيارة إلوين دايفيس هي الوجه الآخر لمحاولة تحويل انتباهها. ولكن مع معرفتها بوجود مالون في قصرها، فإنها لم تؤخذ بتلك الخطة الخادعة.

"لا بدّ من وجود قاعة أخرى،" كرّرت كلامها خالعة حذاءها ونازعة عنها سترتها. "أحضِر ضوئين كشّافين ودعنا نذهب ونرى."



سمعت ستيفاني صوت جرس إنذار يدوي في أنحاء البيت لكن الصوت كان يأتي إلى مسامعهم بليداً بسبب كثافة الجدران التي تحيط بهم. حركة استلفتت نظرها فرأت لوحاً يدور وينفتح في الطرف المقابل من الحجرة.

وقد أراح إيلي نفسه بسرعة من مجال دورانه.

"إنه بابّ من أبواب السماء،" صاح ليندسي من فرط دهشته.

تحركت نحو هذا المخرج، وهي في شكّ من أمرها، وكشفت على أعلاه. إنها أقفال كهربائية مرتبطة بجهاز الإنذار. هكذا يجب أن تكون وكان خلف الباب ممر مضاء بمصابيح كهربائية.

توقف صوت الإنذار.

بهت الجميع في سكون تأملي.

"ما الذي نقوم بانتظاره؟" قال ثورفالدسن.

خرجت من البوابة تتقدمهم.

الفصل السابع والثمانون

قاد مالون كاسيوبيا من خلال الممر وراقب كيف هي تتطلع في دهشة وعجب. كشف ضوءه الكشف عن نقوش محفورة في الجدران الصخرية نابضة بالحياة. ومعظم الرسوم كانت تمثل محارباً في ربيع عمره وعنقوان شبابه، فهو فتى ذو حياة، يحمل رمحاً في يده، وإكليلاً فوق رأسه. وقد بدا فوق أحد الأفاريز مشهدٌ يصور ملوكاً يقدمون الطاعة والمبايعة. مشهدٌ آخر يصور عملية قنص أسد، وآخر يصور مشهد معركة ضارية. وفي كل المشاهد والصور كان العنصر البشري حاضراً أبداً - عضلات، وأيدي، ووجوه، وأرجل، وأقدام، وأصابع أقدام - وكلها مصورة بعناية فائقة مضنية. وليس في أيٍّ منها أي مسحة من اللون. فهي كلها بلونٍ أحادي هو اللون الفضي.

ركّز عمود الضوء على وسط حجرة ذات شكلٍ مستدير (الوغم) ووطيدتين من حجر تدعم كل منهما ناووساً حجرياً. وكانت خارجة كلٍّ منهما مزينة بنماذج محفورة تمثل أزهاراً لوتس، وسعف نخيل، وأوراق شجر. أشار إلى غطاء التابوتين "تلك هي النجمة المقدونية ترتسم على كلٍّ منهما."

انحنى كاسيوبيا أمام الضريحين وتفحصت الأحرف المنقوشة عليهما. كانت أناملها تتبّع الكلمات على كلٍّ منهما بلمسة حنان.

"أنا لا أحسن قراءة هذه اللغة، لكن لا بدّ لهاتين الكلمتين من أن تكونا: الإسكندر، وفستيشيون."

لقد فهم خشيتها وروعها. لكن كان ثمة مسألة أكثر إلحاحاً. "هذه الأمور تستطيع الانتظار. إن لدينا مشكلة أعظم من ذلك."

وقفت منتصبة.

"ما الأمر؟" سألته.

"أخلعي عنك هذه الثياب المبللة وسوف أشرح لك."



قفزت زوفاستينا إلى البركة فتبعها فيكتور. وسبحت من خلال الفتحة التي بدت شديدة الشبه بالرمز الموجود على ميداليات الفيل. لقد لاحظت الشبه بينهما على الفور.

تجذيفات بسيطة كانت كافية لدفعها إلى الأمام. وكانت المياه مهدئة أشبه بغطسة تغطسها في الحمامات البخارية (الساونا) الموجودة في قصرها.

وبعد مسافة إلى الأمام ارتفع علو السقف الحجري.

طفت على وجه الماء.

لقد كانت مُحَقَّة في ما اعتقدته عن وجود حجرة أخرى. وكانت أصغر من الأولى. نفضت نقاط الماء عن عينيها ولاحظت أن السقف المرتفع مضاء بضوء يكتنفه من الخارج، إذ هو يتسرّب من خلال ثقوب عالية موجودة في الصخر. خرج فيكتور إلى جانبها، من الماء. فارتقيا إلى اليابسة. استطلعت الحجرة صوراً جدارية باهتة كانت تزيّن الجدران وبابان يفضي كل منهما إلى جوف مظلم أعمق.

ولم يظهر أثر لوجود أحدٍ سواهما.

وليس ثمة أعمدة ضوء سوى ما لديهما.

يبدو أن كوتون مالون لم يكن سانجاً إلى الدرجة التي كانت تعتقدها عنه.

"حسناً، مالون،" نادت عليه. "الفضل والفائدة يعودان كليهما إليك، ولكن هل

تسمح لي بأن ألقى نظرة أولاً؟"

أجابها الصمت.

"سأعتبر سكوتك بمثابة موافقة."

مرّ ضوء مصباحها الكشاف على الأرض مروراً متفحّصاً الأرض الرملية المرصّعة بالبَلَق، ثم ما لبثت أن لاحظت وجود ممرٍ مبلّلٍ بالماء يبدأ من المدخل الذي يقع إلى يمينها.

دخلت القاعة الأخرى فوجدت ضريحين، وكلاهما مُزَيْن من الخارج بنقوش وأحرفٍ، لكنها لم تكن ضليعة باللغة الإغريقية القديمة. وكان هذا هو سبب استخدامها لإيلي لوند. صورة استلقت نظرها فاقتربت إلى مسافة قريبة ونفخت عنها بلطف الغبائر التي تعتورُ خطوطها. شيئاً فشيئاً بدت تتوضح لها صورة حصان، كان طول الصورة يقارب الخمسة سنتيمتراتٍ تقريباً. وكان للحصان عُرفٌ منتصبٌ وذيلٌ أعقفٌ مرفوع.

"هذا هو بوسيفيلُس"، تمتمت لنفسها.

رغبت في اكتشاف المزيد، فقالت مخاطبة العتمة، "يا مالون، لقد جئتُ إلى هنا غير مسلحة لأنني لا أحتاج إلى مسدس. فإن فيكتور كان دائماً يعمل معي كما يبدو لي أنك تدرك ذلك.

لكنني أرغب في اتخاذ ثلاثكم أصدقاء لي. لقد كنت أنا موجودة هناك عندما تحدثت مع ستيفاني على الهاتف. ورفاقكم محجوزين هناك في البيت وسوف تلتهمهم النار الإغريقية بعد وقتٍ قريب، وقد خطر لي أنك قد يهْمُك أن تعرف ذلك." ولم يجبها سوى الصمت أيضاً.

"افتح عينيك جيداً، همست في أنن فيكتور.

لقد جاءت من مكان بعيد، وعانقها أملٌ طويل، وقاتلت قتالاً مريراً ليس لتأتي وتذهب دون إلقاء نظرة على الأقل. ألقت مصباحها فوق أحد الضريحين، الضريح الذي وجدت عليه رسم الحصان، ودفعت. بعد لحظة من الشدِّ العنيف تحرّك الغطاء الكثيف. دفعت أخرى قليلة، واستطاعت بعدها إيجاد فتحة بمساحة الفطيرة.

التقطت المصباح الكشاف، وبخلاف ما جرى لها في البندقية، كانت على ثقةٍ أن آمالها لن تخيب هذه المرة.

وكان ثمة جسدٌ محنط في داخل الناووس.

مومياء ملفوفة بالذهب ومغلقة به.

رغبت في لمس المومياء، بل في رفع القناع عنها. لكنها أعادت النظر في هذه الفكرة. فهي لا تريد أن تفعل أي شيء يمكن أن يتسبب بالأذى للرفات.

لكنها عجبت في أمرها.

أ تكون هي حقاً الإنسان الأول الذي نظر إلى رفات الإسكندر الكبير منذ ثلاثة وعشرين قرناً؟ هل استطاعت حقاً العثور على الفاتح الكبير كما على إكسیره؟ يبدو أنها قد فعلتها، وأهم ما في الأمر كله هو أنها تعرف بالضبط، ماذا يجب عليها أن تعمل بكليهما.

فالترياق يمكنها استعماله لإنجاز فتوحاتها. وقد عرفت الآن كيف تستطيع أن تستغلّ حظها غير المرتقب لاجتناء الأرباح الوفيرة. أما المومياء التي لا تقوى على رفع أنظارها عنها، فسوف تكون رمزاً لكل ما استطاعت عمله. فالإمكانات والاحتمالات بدت واعدة لا نهاية لها. لكن الخطر المحيق بها أعاد أفكارها من جديد إلى عالم الحقيقة والواقع.

لقد كان مالون يلعب أوراقه بعناية.

ومثلّه، عليها هي كذلك أن تفعل.



رأى مالون مشاعر الشوق والتعجّل والإحباط والأمل ترتسم معاً على وجه كاسيوبيا. فيإيلي، وستيفاني، وهنريك في ضنك كبير، وكانا يرقبان من الممر الآخر الذي لم تمرّ به زوفاستينا، حيث كانت هي وفيكتور قد تبعوا الممر الرطب بالمياه وبخلا إلى غرفة المدفن.

"كيف عرفت أن فيكتور كان يخادعنا؟" همست له.

"إثنتا عشرة سنة من التعامل مع العملاء المجنّدين بصورة ظرفية ألا يشير

كل ما جرى معك في القصر إلى شيء ما؟ إنه أمر سهل الاستنتاج. ثم أن هنالك شيء آخر كانت قد أسرته إليّ ستيفاني وهو أن فيكتور كان هو المصدر الذي يغذيهم بأخبار فينسينتي. لماذا؟ إنه أمر ليس فيه منطق سوى أن يكون فيكتور يلعب على الحبلين معاً.

"كان عليّ أن ألاحظ ذلك."

"وكيف تستطيعين ذلك؟ فأنت لم تسمعي ما قالته لي ستيفاني في البندقية."

وقفاً بأكثاف غارية محشورة إلى الجدران المائلة. أزالا سرواليهما واعتصرا الماء عنهما بحيث لا يتركان خلفهما أي أثر جديد. وعندما صارا في غرفتي المقبرة الآخرين، المليئين بالتحف، فإنهما لبسا ثيابهما من جديد وانتظرا. وكانت المقبرة مؤلفة من غرف أربع متصل بعضها ببعض الآخر، ولم تكن أي منها كبيرة الحجم. إثنان منها فقط تنفتحان إلى البركة. وكانت زوفاستينا على الأرجح تستمتع بلحظة انتصار. لكن المعلومات عن ستيفاني وإيلي وهنري قد غيرت الأشياء. وسواء أكان ما قالته زوفاستينا صحيحاً أم لا، فإن الإمكانية قد استأثرت باهتمامه. وهو ما كانت الفكرة عليه تماماً من وراء قيام زوفاستينا بإخبارهم.

تطلع إلى الخارج نحو البركة. وكانت الأضواء تتراقص في غرفة الدفن. أمل أن يكون منظر ضريح الإسكندر الكبير قد اشترى لهما لحظات قليلة.

"أأنت مستعدة؟" سأل كاسيوبيا.

أومات: أن نعم.

قاد هو الطريق.

وخرج فيكتور من الممر الآخر.

الفصل الثامن والثمانون

لاحظت ستيفاني أن الرائحة السكرية الباعثة على الغثيان لم تكن شديدة التركيز في الممرات الخلفية لكنها رغم ذلك موجودة إلى درجة ما. وها هم الآن، على الأقل، لم يعودوا محتجزين. عدة استدارات قادتهم إلى مناطق أعمق في المنزل، ولكن مازال عليهم رغم ذلك، العثور على مخرج مفتوح إلى الخارج.

"لقد رأيت من قبل، كيف تعمل هذه الآلة الملفقة"، قال ثورفالدسن. حالما تنقذ شرارة النار الإغريقية، فإن جميع هذه الجدران سوف تحترق بسرعة، وعلينا أن نكون موجودين خارج هذا المكان قبل أن يحدث ذلك."

كانت على دراية بمحتنهم هذه، إلا أن خياراتهم بدت رغم ذلك محدودة. ولقد كان ليندسي لا يزال شديد الاضطراب. أمّا إيلي فقد بدا هادئاً إلى درجة مدهشة. كانت ترتسم عليه الآن ملامح العميل السري وليس ملامح الرجل الأكاديمي، برودة أعصاب لافتة قياساً بظرف عصبي مثل هذا. وكم تمنى لو كان لها درجة أكبر من متانة الأعصاب بالقياس إليه.

"ماذا تقصد بكلامك عندما تقول "بسرعة"؟" سأل ليندسي ثورفالدسن، "ما هي درجة السرعة التي سيلتهم بها الحريق هذا المكان؟"

"إنها سرعة كافية لمحاصرتنا."

"إذاً، ما الذي نقوم بعمله هنا؟"

"هل تريد العودة إلى حجرة المخزن؟" قالت له.

استداروا حول زاوية أخرى وقد نكّرتها القاعة المظلمة بممر في القطار. ولقد

انتهى الممر عند قاعدة سلّم درج شديد التحدُّر يقود إلى الأعلى. ليس من خيار آخر. لذلك صعدوا.



رَسَخَ مالون قدميه في مكانه.
 "هل أنتما ذاهبان إلى مكانٍ ما؟" سأله فيكتور.
 وقفت كاسيوبيا وراءه. تساءل عن مكان وجود زوفاستينا. أكان الضوء المتراقص مجرد خديعة لاستدراجهما؟
 "نفكر في الذهاب."
 "لا نستطيع السماح لكما بذلك."
 "إذا كنتَ تعتقد أنك قادر على منعي فأهلاً بك إلى -"

هجم فيكتور إلى الأمام. تجنب مالون الهجوم بالانحراف جانباً. ثم أطبق على مهاجمه بما يشبه عناقاً قاسياً.
 وقعا على الأرض معاً وتدحرجا.

وجد مالون نفسه فوق خصمه. تملل فيكتور تحته. أطبق كفّه حول عنق فيكتور وأغرق ركبته عميقاً في صدره. وبسرعة، ومستعملاً يديه الإثنتين، جذب فيكتور بعنف إلى الأعلى ثم صدم رأسه بقوة فوق الأرض الحجرية.



جهزت كاسيوبيا نفسها للقفز إلى البركة حالما انفلت مالون من خصمه. وفي اللحظة ذاتها ارتخى جسد فيكتور تحت مالون، حركة رصدتها بطرف عينها استلقت انتباهها إلى الممر الذي كانا يختبئان فيه.
 "مالون،" نادته.

اندفعت زوفاستينا نحوها.

قفز مالون من فوق فيكتور إلى البركة.

قفزت كاسيوبيا خلفه وسبحا بسرعة إلى النفق.



ارتقت ستيفاني الدرج ووجدت أنه صار أمامها أكثر من طريق مفتوح. يميناً أم يساراً؟ ذهبت يساراً، واتجه إيلي يميناً.

"هنا، هنا، ناداهم إيلي.

اندفع الجميع في اتجاهه فوجدوا ممراً مفتوحاً.

"احترسوا، ناداهم ثورفالدسن. "لا تدعوا هذه الأشياء ترش عليكم رذاذها. تجنبوها."

أوما إيلي أن نعم، ثم اتجه نحو ليندسي. "أما أنا وأنت فسندذهب في طلب تلك الحافظة الوجيهة."

هز العالم رأسه، أن لا. "لا، ليس أنا."

وافقت ستيفاني. "إنها ليست بفكرة جيدة."

"لكنك لست مريضاً."

"إن هذه الآلات الذكية،" قال ثورفالدسن، "هي مبرمجة كي تنفجر، ونحن لا ندري متى."

"لا أهتم لذلك أبداً،" قال إيلي، وكان صوته يرتفع. "إن هذا الرجل يملك سرّاً علاج مرض الإيدز. وسيده يعرف السرّ منذ سنوات، لكنه يترك الملايين من الناس يموتون. وزوفاستينا صارت تمتلك ذلك العلاج الآن. وأنا لن أسمح لها بالتلاعب والمناورة به هي الأخرى." قبض إيلي على طرف قميص ليندسي. "ستذهب معي للحصول على الحافظة الوجيهة."

"أنت مجنون"، قال له ليندسي. "مجنون تماماً، يكفيك أن تذهب إلى البركة الخضراء وتشرب منها. لقد قال فينسينتي أن العلاج ينفع بهذه الطريقة أيضاً. لست بحاجة إليّ."

راقب ثورفالدسن إيلي عن كثب. أيقنت ستيفاني أن الرجل الدانماركي ربما كان يرى في إيلي وجه ولده المتوفى، كأنه لا يزال واقفاً أمامه بشبابه الغض، ووقفته المعبرة عن التحدي والشجاعة والطيش. كما أن ابنها هي مارك قد كان على هذه الشاكلة أيضاً.

"بل ستذهب معي رغم أنفك إلى المختبر"، قال إيلي. كما أن ستيفاني أدركت شيئاً جديداً أيضاً. "إن زوفاستينا التي انطلقت في إثر كوتون وكاسيوبيا، قد تركتنا في هذا البيت ليس بدون سبب. وأنت قد سمعتها. لقد تعمدت إخبارنا أن الماكينات ستأخذ بعض الوقت قبل أن تشتعل." "لعلها تريدنا ضماناً لها". قال ثورفالدسن.

"ربما تريدنا أن نكون طعماً تصطاد بواسطته كوتون وكاسيوبيا. لكن مع ذلك، فإن هذا الشاب"، وهنا أشارت نحو ليندسي، "هو من تحرص عليه. فإن في لغوه وثرثرته بعض المنطق. فهي لا تملك الوقت الكافي من أجل التأكد من أن المتعضيات المضادة ستنجح في عملها، أو أنه صادق في ما ذهب إليه. فبالرغم من أنها قد لا تعترف صراحة، فإنها محتاجة إليه. لذلك فإنني أعتقد أنها سوف تعود إلى هنا من أجله قبل أن يحترق هذا المكان. وإن بإمكانك الاعتماد على هذه الفرضية."



قفزت زوفاستينا إلى البركة. وقد أيقنت أن مالون قد تفوق على فيكتور، وأن كاسيوبيا فیت قد نجحت في التملص منها ومخادعتها.

لذلك فإنها ارتأت أنها إذا سبحت بسرعة كافية فقد تستطيع إدراك فيت في النفق.



وضع مالون كفيه على حافة البركة ورفع نفسه إلى خارجها. أحسّ باندفاعه وراءه ثم رأى كاسيوبيا تطفو على وجه الماء. خرجت في رشاقة من البركة الدافئة. وفيما لا يزال جسدها يتقطر ماءً، التقطت أحد المسدسات الموجودة على مبعده أقدام قليلة من الحافة.

"لنذهب"، قال لها. مستعيداً حذاءه وقميصه.

تراجعت كاسيوبيا في اتجاه المخرج فيما هي تصوب مسدسها نحو البركة. ظلّ بدا تحت سطح الماء.

وارتفع رأس زوفاستينا في الهواء.

أطلقت كاسيوبيا النار.



كانت الطلقة الأولى قد باغتت زوفاستينا أكثر مما أرهبتها نفضت قطرات الماء عن عينيها فرأت فيت تصوب نحوها مسدساً.

وانطلقت طلقة أخرى لها صوت مرتفع لا يكاد يطاق.

فغطست تحت سطح الماء.



أطلقت كاسيوبيا النار مرتين أخريين في اتجاه الظل الذي يلتصق تحت الماء. ثم بدا كما لو أن المسدس قد علق فيه العيار لذلك فإنها سحبت العيار من بيت النار وجهزت المسدس بعيار جديد. ثم لاحظت شيئاً ما، وواجهت مالون.

"هل أنت في حال أفضل؟" سألها.

"أهي عيارات خلبيّة؟" سألته.

"بالطبع. إنها عيارات محشوة بألياف، أستطيع أن أتخيل ذلك. يكون في أسطوانة العيار من الحشوة ما يكفي لإخراج الرصاصة من الأستون وتحريك المزلاج فحسب. ومن الواضح أن هذه الحشوة لا تكفي. هل تعتقدين أن فيكتور كان سيزودنا بعيارات جيدة؟"

"لم يخطر ببالي شيء يشبه هذا."

"هذه هي المشكلة، فأنّ لا تفكرين. هلاً انصرفنا الآن؟"

رمت المسدس جانباً. "إن العمل معك متعة وأي متعة."

وهربا معاً من الحجرة.



هرش فيكتور قفا رأسه وانتظر. ثوانٍ قليلة، قبل أن يعود إلى الخوض في البركة، لكن زوفاستينا عادت مبهورة الأنفاس حالما رفعت رأسها من الماء وأراحت ذراعيها على الحافة الحجرية.

"لقد نسيْتُ أمر المسدسات. لقد جعلنا داخل المصيدة. والطريق الوحيد للخروج يقع تحت حراستهما."

كان رأس فيكتور يؤلمه بسبب الصدمات التي تلقاها مع الأرض، وكان يقاوم دواراً مقلقاً. "يا دولة الرئيس إن عيارات تلك المسدسات محشوة بحشوات خلبيّة. لقد قمت بتغيير جميع مخازن المسدسات قبل هروبنا من القصر. إذ لم أر أنه من الحكمة وضع مسدسات ذات ذخيرة جيدة تحت أيديهما."

"لكن ألم يلاحظ أحد ذلك؟"

"من ذا الذي يقوم بتفحص الأعيرة عادة؟ لقد افترضنا بكل بساطة، أن أسلحة محمّلة على متن طوافة عسكرية لا بدّ لها من أن تكون منخّرة بالذخيرة المناسبة."

"إنه تفكير جيد، لكن كان باستطاعتك أن تحيطني علماً بالأمر."

"لقد حصل كل شيء بسرعة. لم يكن ثمة متسع من الوقت، ولسوء الحظ فإن مالون قد رضَّ جمجمتي رضاً محكماً فوق هذه الصخور.

"وماذا عن المسدس الذي جلبه مالون معه من القصر؟ إنه كان مذكراً. أين هو الآن؟"

"إنه في الطوافة. لقد استبدل به واحداً من مسدساتنا."

راقبها بينما ذهنها يطوف على الاحتمالات.

"نحن بحاجة إلى ليندسي المحتجز في البيت. فهو كلُّ ما بقي لنا الآن."

"وماذا عن مالون وفيت؟"

"إن لدي رجالاً في انتظارهما، أما مسدسات رجالي فهي محشوة."

WWW.REWITY.COM
RAYAHEEN

الفصل التاسع والثمانون

حدّقت ستيفاني من خلال شق بابٍ مفتوحٍ، إلى إحدى غرف النوم في القصر. كانت الغرفة مترفة التّأثيث بطرازٍ إيطاليّ، كما أنّها تامّة الهدوء لولا أزيز ميكانيكي يأتي من خارج باب مفتوح يقود إلى قاعة الطابق الثاني.

خرجاً من الممر الخلفي.

وكانت إحدى ماكينات النار الإغريقية تنفّز أزيزها المعتاد، مرّةً في القاعة، ترشّ ما ترشّه من رذاذ.

حجاب كثيف من الرذاذ كان يلفّ الغرفة كدليلٍ على أنّ الماكينات الروبوتية قد أنهت زيارتها إليها.

"هذه الماكينات تقوم بسرعة بفرش المادة الحارقة في البيت"، قال ثورفالدسن فيما هو يتحرك إلى باب القاعة.

كانت على وشك القيام بتحذيره لكي يتوقف عندما خرج الدانماركي إلى خارج القاعة، فسُمع صوتٌ غريبٌ زكوريٌّ جديدٌ يصيح به.

تجمّد ثورفالدسن في مكانه ثم قام برفع يديه ببطء.

أبقى ثورفالدسن رأسه متجهاً نحو الحارس الذي بدا أنّه متمركز إلى يمينهم، دون أن يكون كاشفاً لداخل الغرفة. كانت تتعجب في أمر الجنود المشاة أملة أن يكونوا قد انسحبوا جميعاً عندما بدأت الماكينات الروبوتية عملها برش البيت.

ازدادت الكلمات الصارخة.

"والآن ماذا؟" قالت هامسة.

"إنه يريد أن يعرف منه ما إذا كان أحدٌ بصحبته."



خَفَّ مالون وكاسيوبيا نزولاً على الدرب المنحدر بثيابهما البليلة. وكان مالون يزرر قميصه فيما هما سائران.

"كان بإمكانك أن تذكر لي أن المسدسات باطلة المفعول." قالت له كاسيوبيا. "ومتى كان لي فرصة من أجل ذلك؟" استمر في القفز فوق الصخور مسرعاً في نزوله على المنحدر القوي.

تسارعت الآن أنفاسه. إذ هو بكل تأكيد ما عاد في الثلاثينيات من عمره أبداً. لكن عظامه التي بلغت سنواتها الثماني والأربعين لم تكن في حالة سيئة. "أردتُ ألاّ يحسّ فيكتور أننا قد استشعرنا منه أيّ قلق."

"في الواقع إننا لم نفعل شيئاً من هذا. ولكن لم تخلّيت عن مسدسك؟"

"كان عليّ أن أجاريه في لعبته."

"أنت طائر غريب." قالت له حالما وصلا إلى الأرض المنبسطة.

"سأعتبر كلامك هذا مجرد مجاملة من إنسانة تسكّعت في شوارع البندقية وهي تحمل قوساً وسهماً."

صار البيت على مبعدة ملعب كرة قدم منهما. لكنه لمّا يلمح بعد أيّ حركة في داخله عبر النوافذ.

"علينا أن نستكشف شيئاً ما،"

اندفع نحو الطوافة وقفز إلى الحجرة الخلفية. فتح خزانة الأسلحة. فوجد أربعة بنادق AK-74 جاهزة، بينما أمشاط الذخيرة مكدمة تحتها.

قام بفحص الذخيرة. "كلها خَلْبِيّة"، وكانت المقذوفات والصواعق مثبتة في مكانها من أجل مساعدة العيارات الزائفة على الانفجار إلى درجة تكفي فقط لبصق المقذوفة من الفوهة. "لعبةٌ صغيرة ملعونة مُحكمة. سوف أتابعها معه."

استعاد المسدس الذي كان قد جلبه معه من إيطاليا وفحص مخزنه فوجد فيه خمسة عيارات حية.

التقطت كاسيوبيا رشاشاً هجومياً وألقته مشطاً من الأمشاط. "لا أحد غيرنا يعرف أنها لا نفع لها. لكنها ستفي ببعض الغرض الآن."

مدّ يده والتقط رشاشاً آخر بدوره. "أوافق معك، إن الخداع هو كل شيء."



خرجت زوفاستينا وفكتور من البركة. وكان مالون وفيت قد انسحبا.

وكانت المسدسات جميعها ملقاة على الأرض الرملية.

"إن مالون يشكّل مشكلة،" أوضحت له.

"لا تقلقي،" قال فيكتور "فأنا مدين له بواحدة."



أصغت ستيفاني بينما استمرّ جندي المشاة بقذف الأوامر في وجه ثورفالدسن، وكان الصوت يزداد اقتراباً من المدخل. تجمّد وجه ليندسي رُعباً فأطبق إيلي يده على فم الرجل في سرعة، وسحبه إلى ما وراء لوحة إعلان حيث تكوّم خلفها بعيداً عن الأنظار.

وببرودة أدهشت نفسها بها، سدّدت نظرها إلى تمثال من الفخار الصيني كان مركوناً فوق منضدة التزيّن فالتقطته وانسلت إلى وراء الباب.

ومن خلال صدع المفصّلة رأت الحارس يدخل إلى غرفة النوم. وعندما بات لتوّه في الداخل قامت بغرس التمثال في قفا عنقه. ترنح الرجل فثنت له بضربة أخرى على رأسه. ثم انتزعت منه رشاشه. اندفع ثورفالدسن لقرب الجندي، وجردّه من سلاحه الجانبي. "كان أُملي الوحيد هو في أن تحسني ارتجال الموقف."

"كان يحدوني أملٌ برحيل هؤلاء الرجال."

جلب إيلي ليندسي.

"لقد أحسنت إدارة أمره،" قالت لإيلي.

"إن له فقارٌ ثمرة موز."

تفحّصت رشاشها الـ AK-74، كانت تعرف عن المسدسات. أما الرشاشات الهجومية فقد كانت مسألة أخرى. فهي لم تطلق رصاصة واحدة من قبل من مثل هذا السلاح. بدا أن ثورفالدسن أحسّ تردُّدها فقدم لها مسدسه. "أترغبين في المبادلة؟"

ولم ترفض عرضه. "أتحسن استعمال هذه الأسلحة؟"

"إن لديّ خبرة بسيطة بها."

سجّلت ملاحظة ذهنية بوجوب تعزيز خبرتها في ذلك السلاح لاحقاً. اقتربت من المدخل وتجنّست بعناية على القاعة. لم ترَ أحداً يعترض سبيلهم. قادت الطريق فتسلّوا قُدماً في القاعة في اتجاه رُدهة الطابق الثاني حيث يتجه درجٌ إلى الأسفل صوب المدخل الرئيسي.

واحدة أخرى من ماكينات النار الإغريقية تبدّت لهم من خلفهم وهي تندفع من غرفة إلى أخرى. لفت بروز الماكينة المفاجيء انتباهها للحظة فشغلها عما ينتظرهم في الأمام.

لقد انتهى الجدار الواقع إلى يسارها، ليحلّ محله درابزين سميك من الحجر. حركةٌ في الأسفل استرعت انتباهها.

جنديان.

تفاعلا فوراً برفع رشاشيهما والمباشرة بإطلاق النار.



برزت زوفاستينا وفيكتور من صدع الصخر وتفحّصا المشهد الطبيعي لمسافة تمتد

إلى مئة مترٍ تحتهما. كان مالون وفيت يندفعان من الحوامة وكل منهما يحمل رشاشاً هجومياً.

"وهل هذه الأسلحة محشوة؟" سألته.

"لا يا دولة الرئيس، إنها محشوة برصاص خلبي."

"وهو أمرٌ يعرفه مالون جيداً، إذاً هما يقومان بحمل سلاحيهما على سبيل المظهر فقط."

لكن إطلاقاً للنار من داخل البيت أثار قلقها.

"تلكم السلاحف لا بد أن تنفجر إذا ما أصابها عطب،" قال فيكتور، وكانت تحتاج إلى استرجاع ليندسي قبل أن يحدث حدثٌ مثل هذا.

"لقد قمتُ بتخبئة أمشاط ذخيرةٍ للرشاشات، ومخازنٍ للمسدسات، على ظهر الطوافة،" قال فيكتور. "تحسباً لاحتياجنا إليها."

أعربت عن إعجابها بحُسن استعدادده. "لقد أبليت بلاءً حسناً. وربما فكرتُ في مكافأتك."

"علينا أولاً أن نتجاوز هذا الأمر."

أطبقت كفها على كتفه. "أما هذا الأمر فسننجزه."

الفصل التسعون

كانت الرصاصات تتطاير وترتدُّ عن الدرابزون الرخامي. وتكسَّرت مرآة جدارية وتناثرت على الأرض. التمسّت ستيفاني غطاء لها حيث ابتدأ الدرابزون، فيما تلطَّى الآخرون وراءها.

مزيد من الرصاصات أزال الطين عن الحائط الواقع إلى يمينها.

ولكن، لحسن الحظ، فإن الزاوية وفَّرت لهم عنصر حماية. ولكي يحصل الجنود على مرمى نظر أفضل للرماية، كان عليهم تسلُّق سلَّم الدرج، وهو أمر كان سيؤدي في الوقت نفسه إلى إعطائها فرصة عليهم.

اقترب ثورفالدسن منها. "دعيني أتعامل معهم."

تراجعت لإفساح المجال له، فأطلق الدانماركي صليَّةً من رشَّاشه الـ Ak-74 في اتجاه الطابق الأرضي. وهنا أعطت الصُّلية مفعولها المطلوب. إذ توقَّف إطلاق النار من الأسفل تماماً.

ظهرت ماكينة روبوتية للنار الإغريقية خلفهم من جديد خارجة من جهة غرف النوم فلم تُعرها كبيرَ بالٍ إلى أن بات أزيز محركها الكهربائي عالياً. أدارت رأسها فوجدت أنَّ الماكينة باتت قريبة من المكان الذي يقف فيه كلٌّ من إيلي وليندسي.

"قم بإيقاف ذلك الشيء"، أشارت بفمها إلى إيلي.

مدَّ رجله وعرقل تقدُّم الماكينة. أحسَّت الآلة بالعائق الذي يعيقها، اضطربت قليلاً ثم قامت برشٍّ سرّوَالٍ إيلي بذُريراتها الضبابية. رآته ستيفاني يُجفِل من الرائحة المَغْنَّة التي كانت نفاذة حتى عن بُعد ستة أقدامٍ من موقعها.

ثم استدارت الماكينة الروبوتية متخذة لها اتجاهًا معاكسًا. مزيدٌ من الطلقات انطلقت من الطابق الأرضي، في الوقت الذي صار فيه الطابق الثاني مُخرقًا بالرصاص. كانوا بحاجة للتراجع والاحتباء داخل الممرات المستورة. ولكن قبل أن يتيسر لها الظرف بإعطاء أوامرها بالانسحاب، فقد قام أحد الجنود بالاستدارة حول زاوية في الطرف المقابل من الدرايزين.

تمكّن ثورفالدسن من رصد الجندي بدوره، ولذلك، قبل أن يتيسر لها رفعُ مسدسها كان ثورفالدسن قد حصد الرجل بأربع طلقات من رشاشه عيار: AK-74.



اقتربَ مالون من البيت في حذر. أمسك قبضة المسدس في يده، بينما ترك رشاشه يتدلى من كتفه الآخر. دخلا من المدخل الخلفي إلى الصالون الباذخ. رائحةٌ مألوفةٌ عبقت بأنفه. إنها النار الإغريقية.

شاهد أن كاسيوبيا قد تميزت الرائحة ذاتها أيضاً. سُمع المزيد من صوت إطلاق العيارات. وكان مصدرها مكاناً ما، في الطابق الأرضي. اتجه نحو مصدر البلاء.



تبعَ فيكتور زوفاستينا بينما هما يقتربان من البيت. بقيا متلطيّان وراقبا دخول مالون وفيت إليه. وكانت عيارات كثيرة تطلق من داخل البيت. "ثمة تسعة من رجال الميليشيا في داخل البيت." قالت زوفاستينا. "ولقد

طلبت منهم عدم استعمال أسلحتهم. وثمة ست مكينات روباتية تدور في أنحاء البيت، وجميعها مجهزة لكي تنفجر حالما أضغط على هذا.

استخرجت واحداً من أجهزة التحكم عن بُعد مثل سواه من الأجهزة التي كان هو قد استعملها عدة مرات لتفجير السلاحف. كما فكر في محذور آخر موجود "إن رصاصة تدخل إلى أي من هذه المكينات فتعطّلها، سوف تشعل نار الانفجار حتى دونما حاجة إلى جهاز التحكم عن بُعد."

وقد لاحظ أنها ليست في حاجة إلى من يذكرها بذلك الاحتمال. لكنها لم تتفاعل معه بعُدوانيتها المعهودة، بل اكتفت بالقول: "إذا علينا توخي الحذر." "ليس خوفي على نفسي، ولا عليك."



كانت كاسيوبيا قلقة. فأيلي موجود في مكان ما، في داخل البيت، وربما يكون محتجزاً في مكان قد تحاصره النار الإغريقية من كل صوب. فلقد شهدت بأم عينها القوة التدميرية لتلك النار.

كان جهلها حول مخطط مواقع الغرف في البيت وحده مشكلةً بحد ذاتها. فقد بدا الطابق الأرضي يدور على نفسه كأنه المتاهة. كانت تسمع أصواتاً أمامها مباشرة، خلف صالون آخر مزين بنقوش مذهبة.

قاد مالون الطريق.

أكبرت فيه شجاعته. خاصة وأنها تأتي من شخص لم ينفك عن التذمر والتعبير عن عدم رغبته في الدخول في تلك اللعبة، ومع ذلك، فما هو يخوضها الآن، كلاعبٍ ماهر.

وفي داخل غرفة أخرى تنضج بسحر الفن الباروكي العائد للقرن السابع عشر، ربض مالون خلف كنية عالية الظهر، وأشار إليها أن تتجه يساراً إلى خلف مدخل مقنطر واسع يبعد قرابة عشرين قدماً، هناك رأت خيالات تتراقص على الجدران.

كما سمعت المزيد من الأصوات التي ترطُنُ بلغة لا تعرفها.
 "أحتاجُ القيامَ بهجومٍ مضللٍ،" همسَ لها مالونُ.
 فهمت قصده. فهو لديه بعضُ الطلقاتِ، أمّا هي فليس لديها.
 "فقط حانزُ أن لا يصيبني رصاصُك،" أفهمتهُ بفمِها بينما استمرتُ في البقاء
 في موضعها في مكانٍ محاذٍ للمدخل.

انتقلَ مالونُ بسرعةٍ إلى وراءِ كرسيٍّ آخر يوفّرُ له رؤية واضحة.
 استجرتُ نفساً طويلاً، عدتُ إلى الثلاثة، وطلبتُ من قلبِها الذي يقرعُ كالطبل
 أن يبقى هادئاً. فهذا العملُ ضربٌ من الجنون، لكنّ لديها ثانيةٌ أو اثنتين من
 الأفضلية. رفعتُ الرُشيشَ إلى مستوى كتفِها، واستدارتُ وغرستُ قدميها في
 الممرِ المقنطر. وضعتُ إصبعها على الزناد، وأطلقتُ صليّةً من النيرانِ الخُلبيّة.
 وقفَ جنديان على الجانب الآخر من الرُدهةِ وبندقيتاهما مشرعتان نحو
 درابزون الطابق الثاني. وهكذا، استدرجتُ طلقاتُها ما كان يُرجى من ورائها من
 نتيجة.

وجوهٌ مذعورة باتت تحقّقُ بها.
 توقفتُ عن إطلاقِ النارِ وانبطحتُ أرضاً.
 ثم أتى صوتُ طلقتين ذلك عندما قامَ مالونُ بإرداء الرجلين.



سمعتُ ستيفاني صوتَ عياريّ المسدس. إنه شيءٌ جديدٌ. كان هنريك يربض بجانبها
 ويدهُ جاهزةٌ فوق الزناد.

ظهرَ جنديان آخران في الطابق الثاني، خلفَ المكان الذي كان قد سقط فيه
 زميلُ لهما ميتاً.

أرداهما ثورفالدسن على الفور.

كانت قد بدأت بتشكيل فكرةٍ جديدةٍ عن هذا الدانماركي. فهي قد عرفتَه

كشخصٍ مستعدٍ للتسُّرُّ على جريمةٍ ما، دون أن يوبَّخه ضمير، لكنها تراه الآن باردَ الأعصاب، مستعداً للقيام بكلِّ ما يرى ضرورةً للقيام به.

طارَت أجساد الجنود إلى الوراء بينما مرَّقت الطلقات العنيفة لحومهم. رأت الروبوت، وسمعت أزيز الرصاص في وقتٍ معاً. إحدى السلاحف استدارت في زاويةٍ عندما اصطدمت بالكومة المتكوَّنة من جثتي جنديين.

اخترقت الرصاصات بدنَّها الخارجي. ففأفأت السلاحف الروبوتية واختلجت كأنها حيوانٌ جريح، ثم انكمش خرطومُها. ثم انفجرت بعد ذلك، في جحيمٍ من اللهب.

الفصل الحادي والتسعون

سمع مالون صوت الطلقات في الأعلى، ثم صوت شهب النار الذي تبعته اندفاعاً حادة من حرارة خارقة للطبيعة.

هنا صار على يقين من الذي حصل، فهرب من موقعه وراء الكنبه مندفعاً في الممر المقنطر هو وكاسيوبيا التي انتفضت على قدميها. ألقى نظرة حوله.

كانت اللهبات تنسكب من الطابق الثاني مغلفةً الدرايزون الرخامي، ومستهلكة الجدران. أما الزجاج العائد للنوافذ الخارجية فكان في تناثر وتحطم تحت وطأة هجمة النيران الوقادة.

وهكذا، صار الطابق بكامله موقداً موقوداً.



أما ستيفاني فقد وُقَّتْ نفسها من موجات الحرارة المارة بالقرب منها. فالسلحفاة الروبوتية لم تنفجر في واقع الأمر، بل إنها كادت أن تكون قد تبخّرت في ما يشبه وميض شعلة نووية. خفضت ذراعها لترى النار تمتد في كل الاتجاهات كأنها احتياج ماء بحر يفور على فوهة بركان. حملت ناءت به الجدران والسقف، وحتى الأرض أيضاً. "تعالوا"، قالت لهم.

هربوا من وجه الدُربور الهائل الذي يعدو وراءهم. هربوا بسرعة، لكن النيران ما انفكت تكتسح الأرض. وقد أدركت هي الخطر، فإن إيلي كان قد ناله ما ناله من رذاذ الماكينة.

ألقت نظرة سريعة خلف كتفيها.

فإذا بالنار على مبعدة عشرة أقدام فقط، وهي ما زالت تزحف وتقترب.
كان باب غرفة النوم التي تلي مباشرة الممر الذي يتواجدون فيه، مفتوحاً.
وجد ليندسي الباب أولاً، ثم تلاه إيلي.

تبعتهما هي وثورفالدسين إلى داخل الغرفة قبيل مدهمة الخطر لهم تماماً.



"إنه هناك في الأعلى"، قالت كاسيوييا مخاطبة مشهد الطابق الثاني المشتعل، ثم
صرخت منادية، "إيلي".

لف مالون ذراعه حول عنقها، وأطبق كفّه على فمها.
"لسنا هنا وحدنا"، همس في أذنها "أعتقد أن مزيداً من الجنود، وكذلك
زوفاستينا وفكتور، كلهم موجودون هنا. عليك أن تحسبي حساباً لذلك."
ثم رفع قبضته عنها.

"سوف أذهب لنجدته." أوضحت نيتها له. "لا بد أن هؤلاء الجنود يطلقون
النار عليهم. وإلا فمن يكون مطلقو النار؟"

"ليس لنا من سبيل لمعرفة شيء عما يدور هنا."

"إذاً، أين هم الآن؟" وجّهت سؤالها في اتجاه النيران.

أعطى إشارته فتراجعت معه إلى الردهة. سُمع صوت تكسير أثاث وتحطّم
زجاج يأتي من الطبقة العليا. ومن حسن الحظ أن أياً من شعلات النار لم تكن قد
امتدت إلى الأسفل عبر بيت الدرج مثلما جرى سابقاً في المتحف الإغريقي الروماني.
لكن إحدى الماكينات الروبوتية المعدة لتكون شرارة للشعلة، بدا كأنها قد تحسّست
الحرارة، وظهرت عبر الردهة، الأمر الذي أثار قلقاً بالغاً.

فلو انفجرت واحدة أخرى من هذه الماكينات فالمزيد من البلاء قد يعمُ المكان.



سمعت زوفاستينا صوت شخص ما، ينادي على إيلي، لكنها أيضاً كانت قد شعرت بالحرارة الناتجة عن تبخر الماكينة الروبوتية، كما أنها اشتمت رائحة النار الإغريقية. "إنهم حمقى"، همست لجنودها، في مكان ما من البيت. "لا بد أنها فيت." قال فيكتور. "هي التي نادته." "فتش عن رجالنا. وسوف أقوم أنا بالبحث عنها وعن مالون."



وجدت ستيفاني أن الباب الخفي لا يزال مفتوحاً فقامت الطريق إلى الداخل وأغلقتة بسرعة وراءهم.

"الحمد لله" قال ليندسي.

لم يتجمع أي دخان بعد في الدهليز السري، لكنها سمعت فرقعة النار التي تحاول أن تجد لها منفذاً من خلال الجدران.

تراجعوا إلى بيت الدرج، وفرّوا نزولاً إلى الطابق الأرضي.

أبقت أنظارها في بحث عن أول فتحة خروج ممكنة فرأت باباً مفتوحاً أمامهم تماماً. وكان ثورفالدسن قد رأى هذا المنفذ أيضاً فخرجوا منه إلى صالة الطعام الكبرى العائدة للقصر.



لم يكن بمستطاع مالون الإجابة عن تساؤلات كاسيوبيا حول مكان وجود ستيفاني وهنريك وإيلي. وقد كان هو نفسه في حالة شديدة من القلق عليهم.

"لقد آن لك الألوان كي تنسحب من هذه المهمة." قالت له كاسيوبيا.

لقد عادت إليها موجة الفظاظ التي انتابتها في كوبنهاغن. لكنه اعتقد رغم ذلك،

أن قليلاً من الواقعية قد تنفع معها. وليس في حوزتنا سوى ثلاث طلقاتٍ فقط. "كلّا، هذا ليس صحيحاً."

اندفعت مارّة به واستعادت الرشاشين الهجوميين من أيدي الجنديين القتيلين وكشفت على مخزنٍ كلٍّ منهما. "بل لدينا الكثير من العيارات." ناولته أحد الرشاشات. "شكراً لك يا كوتون لأنك أتيت بي إلى هنا. لكن عليّ أن أقوم بهذا الأمر." أبطأت قليلاً. "بمفردي."

رأى أن الجدل معها لا فائدة منه ترجى.

"هنالك بكل تأكيد طريقة أخرى للارتقاء إلى فوق،" قالت. "ولسوف أجد هذه الطريقة."

كان على وشك التسليم للواقع والقيام بالحقاق بها عندما استنفرت حركته عن يساره فاستدار ورشاشه جاهز.

وظهر له فيكتور في الممر.

أطلق مالون صليّة من رشاشه عيار AK-74 ولاذ بالاحتماء في الردهة. لم يستطع أن يرى ما إذا كان قد أصاب الرجل، لكنه عندما نظر حوله، فقد بات أمرٌ واحد مؤكّداً له.

وهو أن كاسيوبيا، قد ذهبت وتركته.



سمعت ستيفاني صوت طلقاتٍ يأتي من مكان ما، في الطابق الأرضي - كانت قاعة الطعام تمتدّ أمامها بشكلها المستطيل الضافي وجدرانها الشاهقة.

سقفٌ معقود بالقناطر وشبابيك ذات زجاجٍ محجّرٍ، إضافة إلى طاولة طعام عملاقة تتسع جوانبها لإثنتي عشرة كرسيّاً تحتلّ كل جانبٍ من جانبيها.

"علينا أن نغادر،" قال ثورفالدسن.

اندفع ليندسي نحو الخارج، لكن إيلي أمسك بتلابيبه وألصق به بعنفٍ فوق

سطح الطاولة متسبباً بتبعثر الكراسي. "قلت لك إننا سنذهب معاً إلى المختبر."

"تستطيع أن تذهب إلى الجحيم."

وعلى مبعدة أربعين قدماً، ظهرت كاسيوبيا في الممر. كانت مبللة الثياب، وتبدو عليها أمارات التعب، وهي تحمل رشاشاً.

راقبت ستيفاني وجه صديقتها وهي ترى وجه إيلي. لقد قامرت بحياتها عندما رضيت بالخروج من البندقية مع زوفاستينا. لكن المقامرة يبدو الآن أنها قد أتت بنتيجتها المرجوة.

وقع نظر إيلي عليها أيضاً فأرخی قبضته عن ليندسي. وخلف كاسيوبيا، ما لبثت إيرينا زوفاستينا أيضاً أن تجسدت لتضع فوهة رشيشها وراء ظهر كاسيوبيا.

تجمد إيلي.

كانت ثياب زوفاستينا وشعرها مبللين أيضاً. وكانت ستيفاني تشاور نفسها في أمر التصدي لزوفاستينا، لكن حسابات الربح والخسارة قد تغيرت تماماً عندما ظهر فيكتور ومعه ثلاثة جنود، والجميع شاهراً سلاحه.

"أنزلوا أسلحتكم"، قالت زوفاستينا. "أنزلوها ببطء."

أغلقت ستيفاني نظرتها على كاسيوبيا وهي تهز رأسها. فقد أيقنت أن هذه المعركة لا بد من أن تكون خاسرة. أخذ ثورفالدسن المبادرة، وألقى بسلاحه على الطاولة. وقررت هي أن تفعل ما فعله ثورفالدسن.

"يا ليندسي"، قالت زوفاستينا. "لقد آن الوقت لك لكي تأتي معي."

"لا مجال لذلك." بدأ بالتراجع في اتجاه ستيفاني. "لن أذهب معك إلى أي مكان."

"ليس لدينا وقت لمثل هذا الجدل." قالت زوفاستينا، وأشارت إلى أحد الجنود، فاندفع نحو ليندسي الذي كان يتراجع إلى الوراء إلى حيث بقي السرداب الخفي مفتوح الباب.

تحرك إيلي في حركة بدت. وكأنه عازم على التقاط العالم. لكن ما إن وصل

الجندي إليهما حتى دفع ليندسي عنه، ودخل في الدهليز السري، وأغلق الباب وراءه. لاحظت ستيفاني كيف انتصبت فوهات البنادق.

"لا،" صرخت بهم زوفاستينا. "دعوه يذهب. لم أعد في حاجة إليه. ثم إن هذا المكان سوف يحترق ليصبح عاليه سافله بعد قليل."



أوغل مالون في متاهة الغرف، واحدة بعد أخرى. فمن ممرٍ إلى غرفة ثم إلى ممر آخر، فلم يعثر على أحد. لكنه استمرَّ يشمُّ رائحة النار التي تحترق في الطوابق العلوية. ويبدو أن معظم الدخان كان يتسلل إلى الطابق الثالث، لكن لن يمرَّ وقتٌ طويل حتى يصبح الهواء هنا فاسداً أيضاً.

كان في حاجة إلى العثور على كاسيوبيا.

تُرى أين اختفت؟

مرَّ أمام بابٍ يفتح على ما قد بدا أشبه بمستودع كبير. اختلس نظرة إلى الداخل فلاحظ شيئاً غير اعتيادي. لقد كان جزءاً من الجدار الملبس بالخشب غير المكتمل الإنجاز، يبدو شاغراً مفتوحاً على دهليز سري. وكان الدهليز مضاءً بمصابيح كهربائية ضعيفة النور.

اقترب

التقط رُشيشه وألصق نفسه إلى جانب الجدار الكريه الرائحة، قرب الخزانة مباشرة. خطوات سريعة ما انفكت تقترب منه.

جهَّز نفسه لما سيطرأ.

بزغ أحدهم من الممر.

دفع الرجل بقوة بإحدى يديه حتى ألصقه بالجدار، وحشر المسدس في حنكه، فيما يده على الزناد. عينان زرقاوان غاضبتان حدقتا به، وكان الوجه شاباً ووسيماً ولا سيما خوفٍ عليه.

"من أنت؟" سأل.

"إيلي لوند."

الفصل الثاني والتسعون

كانت زوفاستينا الآن سعيدة بنفسها، فها قد تمّت لها السيطرة على ليندسي، وعلى كل بيانات فينسينتي، وعلى ضريح الإسكندر، وعلى ترياقه، والآن على ثورفالدسن، وكاسيوبيا فيت، وستيفاني نيل. ولم يعد ينقصها سوى السيطرة على كوتون مالون وإيلي لوند. ولم يكن أيّ من الأخيرين في الحقيقة ليشكل عندها أهمية حقيقية. كانوا في الخارج يتجهون نحو الطوافة. وكان إثنان من جنودها يستعرضان المساجين تحت فوّهة السلاح.

أخذ فيكتور رجلي الميليشيا الآخرين، واستعاد منهما جهازَي الكومبيوتر، واثنَين من السلاحف الروبوتية التي لم تستعمل في البيت.

كانت تريد العودة إلى سمرقند لترأس بنفسها الهجوم العسكري المقنّع الذي كان على وشك الانطلاق. أمّا مهمّاتها هنا فقد انتهت إلى نجاح كامل. لقد أملت منذ وقتٍ طويل أن يتم لها العثور على قبر الإسكندر في منطقة تكون تحت حكمها. والشكر لله أن هذه الأمنية قد تحققت لها الآن وفق مشتهاها.

اقترب فيكتور حاملاً الحاسبين الإلكترونيين.

"ضعهما على متن الطوافة"، قالت له.

راقبته وهو يضعهما في الحجرة إلى جانب السلحفتين الإلكترونيتين. وكلاهما أعجوبة من الهندسة الآسيوية التي قام مهندسوها بتطويرها.

فهذه القنابل القابلة للبرمجة تعمل بكفاءة تقارب الكمال، فهي تبثُّ مادة النار الإغريقية بدقّة متناهية. ثم هي تنفجر وفقاً للأوامر. ولذلك فهي ماكينات عالية التكلفة أيضاً. ولهذا، فإنها حريصة على مخزونها منها. وسعيدة بكون هاتين الماكينتين قد بقيتا دون استعمالٍ الآن على أمل الاستفادة منهما في مكانٍ آخر يوماً.

سلّمت إلى فيكتور جهاز التحكم عن بُعد بالماكينات التي لا تزال في داخل البيت.
 "تدبّر أمر هذا البيت حالما أصبح أنا في الجو." ذلك أنها عرفت أن الطوابق
 العليا تشتعل الآن بكاملها، ولن يحتاج الأمر سوى إلى دقائق قليلة قبل أن يصبح
 البيت بكامله جحيماً. "وقم بقتلهم جميعاً."

أوما برأسه علامة الطاعة.

"لكن، قبل أن أرحل فإن لدي ديناً عليّ أن أردّه."

أعطت مسدسها إلى فيكتور وتقدّمت إلى أمام كاسيوبيا فيت وقالت: "لقد
 قدّمت لي عرضاً هناك عند البركتين بإعطائك لي فرصة للتعاذل معك."
 "وإني ما زلت أرغب في إعطائك إياها."
 ابتسمت. "كنتُ أعتقد أنك قد ترغبتين."



"أين هم الباقون؟" سأل مالون إيلي حالما أنزل المسدس.

"إنهم تحت قبضة زوفاستينا."

"وما الذي تفعله أنت؟"

"لقد انسربتُ من بينهم." تردّد إيلي. "كان ثمة شيء عليّ أن أقوم به."

انتظر مالون تفسيراً للقول الأخير، أملاً أن يستمع إلى سبب وجيه.

"إن علاج مرض الإيدز موجود في هذا البيت، وكان علي الحصول عليه."

ليس سبباً سيئاً، فهو يفهم إلحاحية هذه الضالة المنشودة بالنسبة إلى كل من
 إيلي وكاسيوبيا. إلى يساره مرّ واحد من التنانين النافثة عند تقاطع للممرات كان يدفعه
 ليبقى متسكعاً في داخل البيت، لكنه كان يحتاج إلى أن يعلم. "أين ذهب الآخرون؟"

"لست أدري، لقد كانوا في قاعة الطعام. أسرتهم زوفاستينا ورجالها. لكنني
 استطعت الدخول داخل الجدار قبل أن يتمكنوا من اللحاق بي."

"وأين هو العلاج؟"

"إنه موجود في غرفة مختبر تحت البيت. وهناك مدخل إليه في المكتبة التي كنا محتجزين فيها."

لم يكن يستطيع إخفاء الاهتمام في صوته. إنه جنون مطبق بكل تأكيد. ولكن ماذا بحق الجحيم؟ لقد بدا أن قصة حياته ترتسم هكذا.
"دلّني على الطريق."



دارت كاسيوبيا حول زوفاستينا. وكان كل من ستيفاني، وهنريك، وليندسي، يقفون جانباً تحت تهديد السلاح. لقد أرادت رئيس الوزراء أن تستعرض بأسها وشجاعته أمام رجالها. وهي الآن ستطعم كاسيوبيا عُلقةً مرّةً أمامهم.

شرعت زوفاستينا بالهجوم أولاً، أطبقت بذراعيها حول عنق كاسيوبيا ودفعت عمودها الفقري إلى الأمام. بدت المرأة قوية. قوية أكثر مما دار في حساباتها. أنزلت زوفاستينا نفسها إلى الأرض في براعة وقذفت بكاسيوبيا فوقها، في الهواء.
سقطت كاسيوبيا على الأرض سقطة موجعة.

نفضت الألم عنها ووثبت إلى قدميها. ثم غرست قدمها اليمنى في صدر زوفاستينا، فترنحت الأخيرة، ولم تتوانَ هي عن استغلال هذه اللحظة لنفض الألم من أطرافها، ثم هجمت من جديد.

اصطدم صدرها بفخذين جامدين كالحجر. وانقلبت المراتان معاً إلى الأرض.



دخل مالون إلى المكتبة. ولم يلتقيا أيّ جنديٍّ خلال رحلتهما الحذرة خلال الطابق الأرضي. كانت الحرارة شديدة وايلدخان يرتفع. اندفع إيلي مباشرة نحو جثة رجلٍ ملقاة على الأرض.

"لقد أطلقت زوفاستينا النار عليه. هذا ما قاله تابعه،" قال إيلي، بينما عثر على الجهاز الفضّي للتحكّم عن بُعد. "لقد استعملت هذه الآلة لفتح اللوح في الجدار."

هنا سدّد إيلي جاز التحكّم وضغط على أحد أزراره. استدار جدارٌ هو كناية عن خزانة خشبية صينية، إستدارة بلغت مئة وثمانين درجة.

"هذا المكان أشبه بحديقة ألعاب،" قال مالون وهو يتبع إيلي إلى الممر المعتم.



صار غضب زوفاستينا يغلي غلياناً. فهي لم تعتد في حياتها سوى الريح. سواء في لعبة البوزكاشي، أم في السياسة، أم في الحياة. وكانت قد قامت بتحدّي فيت لأنها إنما أرادت أن تجعل هذه المرأة تعلم أيهما الأقوى. كما أرادت أن يرى رجالها رؤية العين أن قائدتهم لا تخشى أحداً. وصحيح أن شهود هذه المعركة ليسوا بكثير. لكن القصص التي يرويها القليلون بادیء ذي بدء، كثيراً ما تصبح أساساً للأساطير الشائعة.

والموقع الآن بكامله قد بات موقعها. فمَنْزل فينسينتي سوف يزول عن وجه الوجود. وسيقوم على أنقاضه نصبٌ تذكاري مناسبٌ على شرف الفاتح العظيم الذي اختار هذه البقعة من العالم كي تكون مثواه الأخير. وقد يكون من الصحيح أن هذا الفاتح العظيم إغريقيّ المولد، لكنه كان آسيوياً في قلبه. وهذا هو الأمر المهم.

أدارت ساقها ورمت عنها فيت من جديد، لكنها حافظت على لقطة قاسية على أحد ذراعيها وقد استعملت هذه اللقطة لتدفع المرأة بعنفٍ إلى الأعلى.

وقد التقت ركبتهما بنقن فيت. وهي ضربة تعرف جيداً أنها كفيلة بإرسال موجاتٍ من الألم إلى داخل الدماغ، فلطالما كانت قد شهدت الألم الناتج عن مثل هذه الضربة بنفسها. سدّدت لكمة قوية إلى وجه فيت. فكم من مرة كانت قد هاجمت

لاعب شوبينوز آخر على ميدان اللعب؟ وكم من مرة انتشلت بقبضتها رُمة عنزة ثقيلة؟ فيدها المتينة وساعدها القوي معتادان على تحمل الألم. ترنحت فيت على قدميها دائخة.

كيف تجرؤ هذه المخلوقة التافهة على اعتبار نفسها نداً لها؟ لقد بات أمر فيت مفروغاً منه. هذا ما بدا الآن واضحاً. إذ لم يبق في داخل المرأة عزم للقتال. وهكذا، فإن زوفاستينا غرست بلطفٍ عقب قدمها فوق جبين فيت. وبركلة واحدة طوّحت بقساوة بعدوتها إلى الأرض.

ولم تستطع فيت أن تتحرك بعد ذلك.

لملمت زوفاستينا نفسها لتقف في ثبات على قدميها، فيما تقطع أنفاسها يضارع غضبها، ومسحت الغبار عن وجهها. واستدارت مكثفياً بهذا القدر من العراك. لم يكن في عينيها ظرف، ولا مزاح، ولا شفقة. أوما فيكتور برأسه، علامة الاستحسان. فيما ملأت نظرات الإعجاب وجوه جنودها. بدا من الجيّد أن يكون المرء محارباً.



دخل مالون إلى المختبر الخفي. كانا في عمق ثلاثين قدماً تحت الأرض على الأقل. مختبرٌ يحيط به صخر الأديم من كل ناحية. وكان فوقهما بيت يشتعل. الهواء عابق برائحة النار الإغريقية وقد شعر بدبقٍ مألوف لديه فوق الدرجات التي تقود إلى الأسفل.

يبدو أن الأبحاث البيولوجية إنما كانت تجري هنا، حيث أن كثيراً من الحاويات المغلفة كانت في المكان، بالإضافة إلى ثلاجة، وعليها جميعاً إشارات تحذير ذات ألوان فاقعة، من خطر التلوث البيولوجي. تردّد هو وإيلي في الممر، وكلاهما كاره للإيغال في هذه المغامرة. وقد زاد من أمر نفوره من المكان وجود الكثير من الأكياس الشفافة التي تحتوي على سائلٍ صافٍ، وهي مبعثرة فوق الطاولات. وكان قد رأى مثل هذه الأشياء من قبل في المتحف الإغريقي -الروماني في الليلة الأولى. جسدان كانا ممدّين على الأرض. الأول يعود لامرأة مشوّهة ترتدي ثوب

حمّام، والثاني يعود لرجلٍ ضخمٍ يرتدي ملابس غامقة اللون. وكلاهما قد قضى بعد إطلاق النار عليه.

"وفقاً إلى رواية ليندسي،" قال إيلي. "فإن فينسينتي كان يقبض في راحة يده على حافظه وجيزة flash drive. عندما قامت زوفاستينا بإطلاق النار عليه."

كانا في حاجة إلى إنهاء هذه المهمة. لهذا، فإنهما تقدّما في عناية وحذرٍ حول الطاولات وحدّقا إلى الأسفل نحو الرجل القاتل الذي يبلغ وزن جثته ثلاث مئة رطلٍ على الأقل. كانت الجثة ملقاة إلى أحد جانبيها، ولها يدٌ ممدودة كمن يحاول النهوض. ثلاثة ثقبٍ رصاصات في الصدر. ويد تمتدُّ مفتوحة القبضة قرب رجل طاوله. بينما قبضة اليد الأخرى مغلقة. استعمل ماسورة الرشيش كعتلةٍ لفتح الأصابع.

"تلك هي،" قال إيلي بشيء من الأمل، حالما انحنى وأزال الحافظة الوجيزة عن موضعها في الكف.

ذكّر الرجل الأحدث عمراً مالون، بـ: كاي ثورفالدسن. ومع أنه كان قد رأى الوجه مرة فقط في مكسيكو سيتي عندما تقاطعت حياته مع حياة هنريك ثورفالدسن. فالشابان الصغيران كان لا بد لهما أن يكونا في العمر نفسه. إذًا، صار من السهل معرفة سبب انجذاب ثورفالدسن إلى إيلي.

"إن هذا المكان على وشك الاحتراق،" قال.

وقف إيلي. "لقد ارتكبتُ خطأً فاحشاً عندما وضعتُ ثقتي في زوفاستينا. لكنها كانت شديدة الحماس. بدت كأنها حقيقة تقدّر الماضي."

"إنها تقدّره، بسبب ما قد تستطيع أن تتعلم منه فقط."

أشار إيلي إلى ثيابه. "إنني أحمل تلك المادة فوق كل ثيابي."

"لقد كنتُ في مثل هذا المكان، وقد حصل لي ما حصل لك."

"إن زوفاستينا قاتلةٌ مجنونة."

وافق معه على قوله. "حيث أننا قد حصلنا على ما قد أتينا من أجله، ما رأيك في ألا يكون أيُّ منا ضحيةً أخرى من ضحاياها؟" صمت قليلاً. "هذا إلى جانب أن كاسيوبيا ستنتقم مني إذا عرفت أن أيَّ أذى قد أصابك."

الفصل الثالث والتسعون

احتلت زوفاستينا مقعدها على متن الطوافة. وكان ليندسي قد حُشر في حجرة الطوافة أيضاً، مكبل اليدين إلى حاجز إنشائي.

"يا دولة الرئيس، لن أسبّب لك أيّ متاعب، أقسم لك بذلك. سأفعل كلّ ما تطلبينه مني. إني أوكد لك. ليس من الضروري لك أن تكبليني. أرجوك يا دولة الرئيس -"

"إذا لم تقم بإقفال فمك،" قالت له بهدوء. "سأطلب إطلاق النار عليك حالاً."

عندها بدا أن العالم قد شعر أن السكوت أولى له فلاذ بالصمت.

"إياك أن تفتح فمك مرة ثانية."

قامت بتفحص المقصورة الواسعة التي تتسع عادة لركوب دزينة من الرجال المسلحين كان جهازا الكمبيوتر العائدان إلى فينسينتي، وكذلك السلحفاتان الروبوتيتان مربوطة بشكل وثيق. وكانت كاسيوبيا فيت لا تزال تضطجع دون حراك على الأرض وبقية المساجين تحت حراسة الجنود الأربعة.

وقف فيكتور خارج المقصورة.

"لقد أبليت بلاءً حسناً،" قالت له. "عندما أرتقي في السماء، قم بتفجير المنزل، وكذلك قم بقتل هؤلاء الناس. وإني أعهد إليك أن تُبقي هذا المكان آمناً سرياً. وسوف أرسل إليك رجالاً إضافيين يعاونونك، حالما أعود إلى سمرقند. إن هذا المكان قد صار منذ هذه اللحظة مكاناً مملوكاً لدولة الاتحاد."

حدّقت في اتجاه القصر، وكانت طبقاته العليا تشتعل بالكامل. وبعد قليل

سوف لن يبقى منه سوى الانقراض. وكانت قد تصوّرت في ذهنها القصر الآسيوي الذي ستقوم ببنائه في هذا المكان. أمّا مسألة ما إذا كان يتوجب الكشف للعالم عن مكان وجود قبر الإسكندر، فهي مسألة عليها أن تفكر بها لتبتّ في أمرها لاحقاً. فهي في حاجة للتفكير في جميع الاحتمالات. وحيث أنها الوحيدة التي تسيطر على مكان وجود الضريح، فإن مثل هذا القرار يجب أن يكون قرارها وحدها.

واجهت فيكتور، حدّقت بشدّة في عينيه، وقالت: "شكراً لك. يا صديقي،" رأت الصدمة الخاطفة ترتسم على وجهه حالما تمثّل كلمات الشكر الصادرة عنها. "لا، لم أكن قد قلتُ هذا الكلام مرة من قبل. فأنا أتوقع منك القيام بواجبك. لكن في هذه المناسبة، فإن أدائك كان جيداً إلى درجة استثنائية."

ألقت نظرة أخيرة نحو كاسيوبيا فيت، وستيفاني نيل، وهنريك ثورفالدسن. إنهم متعبون، وسوف يصبحون شيئاً من الماضي بعد قليل. أما كوتون مالون، وإيلي لوند فما زالا في داخل البيت. فإذا لم يكونا قد ماتا بعد، فإنهما أيضاً سيموتان بعد دقائق قليلة.

"سوف أراك في القصر"، قالت ليفيكتور، حالما أغلق باب مقصورة الطائرة بإحكام.



أصغى فيكتور حالما هدر صوت المحرك التوربيني، وبدأت مروحة الطوّافة بالدوران. وصل هدير المحرك إلى أقصى طاقته. وثارَت زوبعة من الغبار على الأرض الجافة، ثم نهضت الطوّافة فارتقت إلى أجواء سماء الأصيل.

استدار نحو رجاله بسرعة وأمر اثنين منهم بالاتجاه نحو بوابة الملكية العقارية الرئيسية والقيام بمنع دخول أي أحدٍ إليها. كما طلب من الإثنين الباقيين أن يتابعوا مراقبة نيل وثورفالدسن.

تقدّم فوق جسد كاسيوبيا التي كان وجهها مرضوضاً وأنفها دامياً. وكان العرق يتصبّب منها تاركاً ندوباً في طبقة الوسخ.

التمعت عيناها حالما أجالتهما به. ثم شددت بقوة على ذراعه.

"هل جئت لتُكْمِل؟" سألته.

كانت يده اليسرى تقبض على مسدس، فيما تحمل يده اليمنى جهاز تحكمٍ بالسلاحف عن بعد. ألقى جهاز الإشارة بهدوء على الأرض إلى جانبها "هذا هو بالضبط ما جئت الآن من أجله."

كانت الهليوكوبتر، وزوفاستينا على متنها الآن، قد استوفت ارتقاءها في الجو، وبدأت تتجه شرقاً من جديد راجعة نحو المنزل والوادي الواقع وراءه.

"بينما كنت تتعاركين معها،" قال لكاسيوبيا، "قمت بتفعيل السلحفاتين اللتين هما على ظهر الطوافة، فهما الآن مبرمجتين لتتفجرا في الوقت نفسه مع تلك الموجودة في داخل البيت عندما يُطلب منها أن تتفجر،" أشار إليها. "هذا الجهاز القادر على التحكم، سيجعل ذلك الأمر ممكناً." التقطت الجهاز عن الأرض.

لكنه أدنى المسدس من رأسها في سرعة. "انتبهي."

حدقت كاسيوبيا في وجه فيكتور، فيما إصبعها ما يزال على زرّ جهاز التحكم. ترى أ تستطيع أن تضغط الزرّ قبل أن يطلق النار عليها؟ لعلّه كان يفكر أيضاً في الشيء نفسه؟

"عليك الآن بالاختيار،" قال لها. "إن إيلي ومالون العزيزين عليك قد يكونان لا يزالان في داخل البيت. وقيامك بقتل زوفاستينا قد يتسبب بقتلهما أيضاً."

كان عليها أن تثق بأن مالون يمسك بالموقف إمساكاً جيداً. لكنها أيضاً أيقنت، بين أشياء أخرى، "كيف يستطيع أيّ شخص أن يعرف متى يمكنه أن يثق بك؟ فلقد لعبت على جميع الحبال."

"كانت مهمتي تقضي بإنهاء هذا الأمر. وهذا ما نحن على وشك القيام بعمله."

"إن قتلَ زوفاستينا قد لا يكون هو الجواب."

"بل هو الجواب الوحيد. لأنها لن تتوقف عما هي عازمة عليه، دون ذلك."

فكرت في عبارته. فوجدت أنه على صواب.

"كنت عازماً على القيام بذلك بنفسي،" قال لها. "لكنني عدتُ وفكرتُ أنك قد ترغبين في نيل ذلك الشرف."

"وهل المسدس الذي تقوم بإشهاره فوق وجهي هو من أجل المظهر فقط؟" سألته في هدوء.

"إن الحارسين لا يمكنهما رؤية يدك."

"وكيف لي أن أعلم أنني عندما أفعل ذلك فإنك لن تتورع عن إطلاق النار على وجهي؟"

أجابها بأمانة. "ليس لك من سبيلٍ لتعلمي."

صارت الطوافة وراء البيت، فوق المرج المعشب. وربما كان علوها قد بلغ الألف قدم.

"إذا تماهلتِ أكثر من ذلك،" قال لها. "فإن الإشارة قد لا تعود تصل إلى الطوافة."

هزت كتفها في غير مبالاة. "إنني لم أفكر مرة في أنني سوف أعيش لكي أعمّر."

وقامت بالضغط على الزر.



راقبت ستيفاني من بُعد ثلاثين قدماً كيف أن فيكتور كان يصوب المسدس إلى رأس

كاسيوبيا. وكانت قد رآته يلقي شيئاً ما، على الأرض. لكن كاسيوبيا كانت مشيخة بوجهها عنهم ولم يكن من الممكن معرفة حقيقة ما يحدث. صارت الطوافة كتلة طائفة من النار.

لم تنفجر الطائفة، بل حصل فيها مجرّد اندلاع نيران تحيط بها من جميع الاتجاهات كأنها نجمٌ متشعشع ملتهب، وقد انضمّ وقود الطائفة القابل للاشتعال إلى كتلة اللهب فجأة فتسبب ذلك بتدمير مدوّ في أرجاء الوادي. كتلٌ ملتهبة من الانقاض تطايرت إلى المحيط ممطرة المكان بشلالات من النيران. وفي الوقت نفسه، تحطمت النوافذ العائدة للطابق الأرضي من المنزل وكانت إطاراتها مليئة باللهب الهادر. نهضت كاسيوبيا إلى جانب فيكتور.

"يبدو أنه يعمل معنا"، قال ثورفالدسن بعدما لاحظ ذلك هو الآخر. أشار فيكتور إلى الحارسين ووجه أوامر صارمة إليهما في لغة بدت كأنها اللغة الروسية.

اندفع الرجلان بعيداً. هربت كاسيوبيا في اتجاه المنزل. فلاحق ثورفالدسن وستيفاني بها.



ارتقى مالون سلّم الدرج يسير خلفه إيلي وعادا إلى المكتبة. خفقات نعالٍ سُمعت في مكان ما، في داخل البيت، كما لاحظ على الفور تغييراً في الحرارة. "لقد جرى تفعيل هذه الأشياء."

استعرت النار خارج باب المكتبة، فصار وقع الأقدام أشدّ اقتراباً. كما ازدادت الحرارة أيضاً. إنها تتعاضم.

اندفع نحو الباب وتطلّع إلى الاتجاهين. كان الممر في كلٍّ من نهايتيه غير قابل للمرور فيه وقد كانت النيران تاكل الأرض وتتقدم نحوه. تذكر ما كان قد قاله

إيلي. إنَّ هذه المادة في بنطالي أيضاً. استدار ودرَس الشبابيكَ العالية الضخمة. ربما تبلغ أطوالها عشرة أقدام في ثمانية. ووراء المنزل في الوادي كان قد لاحظ شيئاً يحترق في تلك المسافة. ولن تمر ثوانٍ قليلة حتى تكون النيران قد وصلت إليهما.

"ساعدني قليلاً."

رأى إيلي يحشو الحافظة الوجيزة في جيبه ويلتقط طرف كرسي خشبي منجد. التقط مالون الطرف الآخر للكرسي. قاما معاً برمي الكرسي من خلال الشباك. تحطَّم الزجاج عندما اندفع الكرسيُّ إلى الخارج فاتحاً ثغرة للمرور خلال الزجاج لكن كثيراً من النواتيء الزجاجية قد بقيت عائقاً لهما عن القفز من خلال الثغرة.

"استعمل الكراسي،" ناداه.

تكوَّرت النار على نفسها في وسط الممرِّ، وبدأت هجومها على جدران المكتبة. بدأت الكتب والأرفف بالتساقط. التقط مالون كرسيّاً وبدأ يحطم بواسطتها ما تبقى من زجاج الشباك، واستعمل إيلي كرسيّاً آخر ليكشط به النثار والقطع الناتئة.

بدأت الأرضية بالاشتعال.

مِيز كل ما هو مفروشٌ بمادة النار الإغريقية نفسه بسرعة. لم يعد ثمة مزيد من الوقت.

قفز الإثنان من خلال الشباك.



سمعت كاسيوبيا تحطُّم الزجاج، فانطلقت هي، وفيكتور، وثورفالدسن، وستيفاني، إلى مسافة أشد قرباً من مكان الدمار. رأت كرسيّاً منجّداً يطير في الفضاء من خلال النافذة ليتحطم على الأرض. لقد قامت بعمل مجازفة في اختيارها قتل زوفاستينا مع أن مالون وإيلي لا يزالان في الداخل، ولكن، ومثلما مالون ذاته، يقول: أكان صواباً أم خطأ، على المرء أن يقوم بعمل شيءٍ ما.

طار كرسي آخر من خلال الشباك.

ثم ما لبث إيلي ومالون أن قفزا إلى الخارج فيما امتلأت الغرفة خلفهما بأمواج من اللون البرتقالي الفاتح.

ولم تكن وثبة مالون هذه المرة سليمةً مثل وثبته السابقة في كوبنهاغن. فكثفه الأيمن اصطدم بالأرض المعشبة، ثم تدرج. أما إيلي، فقط سقط أيضاً سقطةً صعبةً، وانقلب على نفسه بضع مرات، مستعملاً ذراعيه لوقاية رأسه.

هرعت كاسيوبيا إليهما. تطلع إيلي من مكانه على الأرض إليها فابتسمت له وقالت. "هل أنتما تستمتعان باللعبة؟"

"مثلما تستمتعين بها أنت؟ ما الذي حصل لوجهك؟"

"لقد أعطتني زوفاستينا علقاً لن أنساها. لكنني كنتُ أنا من ضحك أخيراً." رفعته للوقوف على قدميه، وتعانقا.

"إنك دبق،" لاحظت.

"ال نار الإغريقية. آخر عطر في السوق."

"وماذا عني أنا." قال مالون ناخراً، وهو يقف ويكشط التراب عن نفسه. "أليس من يقول لي كيف حالك؟ إني سعيد بالأأراك مخلوقاً متجعداً قصيفاً!" هزّت رأسها وعانقته هو الآخر.

"كم هو عدد الباصات التي مرّت فوقك؟" سألها مالون بعد أن لاحظ وجهها. "باص واحد فقط."

"أيعرف كل منكما الآخر؟" سأل إيلي.

"نحن متعارفان."

رأت وجه مالون مريراً عندما وقع نظره على فيكتور. "ما الذي يعمل هذا بينكم؟"

"صدّق أو لا تصدّق"، قالت له. "إنه يعمل إلى جانبنا حسب اعتقادي".
أشارت ستيفاني إلى الحرائق عند المسافة وإلى الرجال الذين يهرعون نحوها.
"لقد ماتت زوفاستينا."

"أمرٌ فظيع"، قال فيكتور. "حادث تحطّم طوافةٍ مأساوي شاهدَه أربعةٌ من رجال الميليشيا التابعة لها. لسوف يقام لها مأتمٌ ماجدٌ مهيب."

"أمّا دانيالز فسيحاول التأكّد من أن رئيس الوزراء القادم لدولة اتحاد آسيا الوسطى سيكون شخصاً أكثر صداقة"، قالت ستيفاني.

لاحظت كاسيوبيا وجود نقاطٍ في السماء الغربية لا تنفكُ تصبح أكبر حجماً كلما اقتربت. "لقد صار لنا رفاق."

لاحظوا كيف أن الطائرة ازدادت اقتراباً.

"إنها طائرتنا"، قال مالون. "إنه طائرات أباتشي AH64 مصحوبة بطائرة بلاك هاوك."

مرت الطائرات المقاتلة الأمريكية. انفتح بابٌ مقصورة إحدى طائرات الأباتشي. ولمح مالون من خلاله وجهاً مألوفاً لديه.

إنه إدوين دايفيس.

"إنها قواتٌ من أفغانستان"، قال فيكتور. "لقد أخبرني دايفيس قائلاً: أنا سنكون في وضع الرقابة عن كثب. جاهزين للتدخل عند الحاجة."

"أعرفون"، قالت ستيفاني لهم. "لم يكن قتل زوفاستينا بهذه الطريقة عملاً ذكياً."

أحسّت كاسيوبيا بنبرة خنوعٍ في صوت صديقتها. "ما الأمر؟"

تقدم ثورفالدسن إلى الأمام. "كان جهازيّ الكمبيوتر العائدين إلى فينسينتي، كما كان ليندسي أيضاً، على متن الطوافة مع زوفاستينا. أنتم لا تعرفون ذلك، لكن فينسينتي كان قد اهتمى إلى العلاج، علاج فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب. لقد قام هو وليندسي بتطوير الدواء. وكانت كل البيانات موجودةً على هذين

الحاسوبين. ولقد كان ثمة حافظة وجيزة، كانت في حوزة فينسينتي عندما قُتل. لكن لسوء الحظ، "أشار الدانماركي إلى البيت المشتعل، "لا بدّ من أن هذه الحافظة قد ذهبت بها النيران."

لمحت كاسيوبيا نظرة شقية ترتسم على وجه مالون الوسخ. كما لاحظت أنّ إيلي هو أيضاً يبتسم. بدا كلُّ من الرجلين منهكاً. لكن شعورهما بالنصر بدا شديد العدوى.

مدّ إيلي يده إلى جيبه ورفع منها يداً مفتوحة الكف.

وكان في كفه حافظة وجيزة.

"ما هذا؟" سألته في أمله.

"إنها الحياة." قال مالون.

الفصل الرابع والتسعون

نظر مالون بإكبار إلى ضريح الإسكندر الكبير. فبعد وصول إدوين دايفيس وصل جيش من وحدة القوات الخاصة على وجه السرعة للسيطرة على الملكية العقارية المعنية، وقد تمكنوا من تجريد الجنود الحراس الأربعة من أسلحتهم دون قتال. كانت تلك الغارة قد نالت إذناً خاصاً من الرئيس دانيالز، بعد أن قال دايفيس أنه يشك في أمر أن يكون هناك أية مواجهة رسمية لتلك القوة من جانب الاتحاد.

ماتت زوفاستينا، وابتدأ بموتها يوم آخر جديد.

وحالما صارت الملكية العقارية مؤمنة، وبدأت العتمة بالزحف على الجبال تسلق الجميع إلى البركتين، وغطسوا، وسبحوا عبر العين العسلية. وحتى ثورفالدسن الذي كان مستميتاً لرؤية القبر، قام هو الآخر بالسباحة أيضاً. ولقد قام مالون بمساعدته أثناء عبور النفق. وقد تكشف الرجل الدانماركي، قياساً إلى عمره وتقوس ظهره، عن سباح قوي.

جلبوا معهم مصابيح كشاف، وأضواء إضافية، أتوا بها من طائرات الأباتشي. صار الضريح الآن مشتعلاً بالألوان الآتية من الإضاءة الكهربائية. حنق في عجب إلى جدار من قطع الفخار المزجج، وكانت ألوان القطع، تتراوح بين أزرق، وأصفر، وبرتقالي، وأسود، وهي جميعها لا تزال حيوية الالتماع بعد مرور ألفيتين من الزمن عليها.

وكان إيلي يتفحص ثلاثة رسوم لأسار جرى تشكيلها بخبرة كبيرة من نثار الفخار الملون. "شيء ما، يشبهها، كان يزتر الطريقة البابلية الأصولية. لقد عثرنا على بعض البقايا منها. لكننا نشهد هنا عملاً لا يزال على حاله، سليماً بالكامل."

كان إدوين دايفيس قد خوض في البركة سابحاً معهم. فهو أيضاً أراد أن يرى بعينه ما طمعت زوفاستينا في الاستئثار به. أما مالون، فقد تحسنت معنوياته كثيراً لدى علمه أن الجانب الآخر من البركة كان محروساً بواسطة ضابط نظام من فريق عمليات، ومعه ثلاثة جنود أمريكيين مسلّحين ببنادق صغيرة من طراز M-4. قام هو وستيفاني بتقديم تقرير شفهي موجز إلى دايفيس عن المجريات التي حصلت. وقد كانا على بدء الاطمئنان إلى المستشار المساعد لشؤون الأمن القومي، خاصة بعدما استعجل هو نفسه طرح تفهّمه إلى حاجتهما إلى الدعم والمساندة، وعن استعداده للتحرك في ذلك الاتجاه.

وقف إيلي بجانب الناوسين. على الجانب الأول لأحدهما، كان ثمة كلمة واحدة محفورة بالإزميل هي: ΑΛΕΞΑΝΔΡΟΣ، وكان ثمة أحرف أكثر منها تزيّن الجانب الآخر منه هي:

ΑΙΕΝ ΑΡΙΣΤΕΥΕΙΝ ΚΑΙ
ΥΠΕΙΠΟΧΟΝ ΕΜΜΕΝΑΙ ΑΛΛΩΝ

"هذه الكلمة معناها الإسكندر"، قال إيلي. "أمّا الجملة المحفورة الأطول منها، فهي مأخوذة من الإلياذة. ومعناها: لتكون دائماً الأفضل والسائد على الجميع. وهو تعبير يعود إلى هوميروس عن مثاله البطولي.

وكان الإسكندر يعيش لهذا الشعار. وقد أحببت زوفاستينا هذا الإستشهاد أيضاً، وقامت باستعماله مراراً عديدة، وإن الناس الذين دفنوه هنا قد أحسنوا اختيار العبارة التي تليق بضريحه، بشكل جيد."

أشار إيلي إلى التابوت الآخر، وكان الكلام المحفور عليه أكثر بساطة.

ΗΦΑΙΣΤΙΩΝ
ΦΙΟΣ ΑΛΕΞΑΝΔΡΟΥ

"فستيشيون. صديق الإسكندر. فكلمة "خدين" لم تكن لائقة للدلالة على علاقتهما. فالإشارة إليه بكلمة "صديق" كانت شرفاً كبيراً لإغريقي، لا تُطلق سوى على الأكثر قرباً ومودة."

لاحظ مالون كيف أنَّ الغبارَ والحُتاتَ، قد أزيلًا عن صورة حصانٍ على تابوت الإسكندر.

"لقد عملت زوفاستينا ذلك عندما كنت وإياها هنا،" قال فيكتور. "لقد كانت في حالة فتونٍ بهذه الصورة."

"إنها صورة بوسيفيلُس،" قال إيلي. "يجب أن يكون هذا الحصان هو حصان الإسكندر. فقد كان متيماً بحصانه. ولقد قُتل الحصان خلال الحملة على آسيا وجرى دفنه في مكانٍ ما، في الجبال، مكانٌ ليس بعيداً عن هذا المكان."

"ولقد قامت زوفاستينا بتسمية حصانها المفضلٍ بهذا الاسم أيضاً،" أشار فيكتور.

ألقي مالون نظرةً شاملةً على الغرفة. وأشار إيلي إلى قحافٍ تُستعمل في الطقوس الدينية، كما إلى حُقٍّ للعطر، ودورقٍ للشراب جعل على شكل رأس غزال، وحتى درعين للساق (تطلقُ اللغة العامية على درع الساق كلمة "طماق") برونزيين مذهَّبين، ولهما أجزاء من الجلد لا تزال موجودة وهي كناية عن بطانةٍ كانت يوماً تحمي ربلتي المحارب (الريلة هي بطَّة الساق)، "إنها فتانة،" قالت ستيفاني. وقد وافقها الرأي.

وقفت كاسيوبيا قرب واحدٍ من الناووسين، وكان غطاؤه مُزاحاً عن موضعه قليلاً.

"ألقي نظرة إلى داخله يا كاسيوبيا،" قال فيكتور.

كانت الأنوار ساطعةً في داخله، وواقعةً على المومياء.

"إنه شيء غير اعتياديٍّ ألا يكونوا قد وضعوا هذه المومياء في غلافٍ،" قال إيلي. "لكن قد لا يكونون يملكون إما الخبرة الكافية، وإما الوقت اللازم، لعمل ذلك."

كانت رقائق الذهب تغطي الجسد من العنق إلى أصابع القدمين. وكانت كل رقاقةٍ في حجم طبقٍ من الورق، وقد بقي المزيد من أوراق الذهب مبعثراً في داخل التابوت. كانت اليد اليمنى مثنية من عند المرفق، وترتاح فوق البطن.

أما الذراع اليسرى فممتدة في شكلٍ مستقيم. وكان الساعد منفصلاً عن الذراع. وكانت اللفائف تلفُ معظم الجثمان لفاً شديداً، وعلى الصدر المكشوف جزئياً كان ثمة ثلاثة أقراصٍ ذهبية.



"إنها النجمة المقدونية"، قال إيلي. "إنها شعار الإسكندر للنبالة. إنها أنجمٌ قوية التعبير أيضاً، كما أنها عيّنات شديدة الجمال." وكيف تمكّنوا من إدخال كل هذه الأشياء إلى هنا؟" تساءلت ستيفاني. "فهذان الناووسان كبيران."

أشار إيلي إلى الغرفة. "منذ ألفين وثلاث مئة سنة، كان لا بد لعلم الطبوغرافيا من أن يكون مختلفاً عما هو عليه الآن، بكل تأكيد. لكنني أراهن على أنه كان يوجد ثمة طريق أخرى إلى هنا. ولربما أن البرك لم تكن في ذاك الوقت عالية المستوى إلى هذا الحد. وبذلك يكون النفق أكثر قابلية للعبور، وغير مغمور بالمياه. من يدري؟"

"لكنّ الحرفين في البركتين"، قال مالون. "كيف وصلا إلى هناك؟ لا يمكن أن يكون الأناس الذين أنجزوا العمل في هذا الضريح هم الذين وضعوهما. فهما أشبه بإشارة من ضوء النيون هدفها تنبيه الناس."

"أعتقد أن بطليموس هو الذي قام بوضعهما. فهما جزء من أحجيته. حرفان إغريقيان في قعر بركتين مظلمتين. إنها طريقته، كما أفترض، من أجل الدلالة على المكان."

كان ثمة قناع ذهبي يغطي وجه الإسكندر. "ما من أحدٍ بعد، قد لامس ذلك القناع.." قال مالون أخيراً. "لَمْ لا تلامسه يا إيلي؟ دعنا نرى كيف يبدو وجهُ ملك العالم بأسره."

كان قد رأى نظرة الأمل في وجه الشاب الصغير. فهو قد درس عن الإسكندر

من بعيد، وتعلم ما يستطيع تعلمه من المعلومات، ومن المصادر القليلة المتفرقة التي بقيت على الدهر. والآن، قد يستطيع أن يكون هو الإنسان الأول الذي يلامس الإسكندر منذ ما يزيد على ألفي عام.

قام إيلي بإزالة القناع في رفي وتودة.

كان ما تبقى من الجلد يطرح لوناً خفيفاً مائلاً إلى الأسود، كما كان جافاً كالعظام وقابلاً للتقصّف والعطب. ولقد بدأ الموت متوافقاً مع محياً الإسكندر. فالعينان نصف المغمضتين تفصحان في تعبير غريب عن غرابة الأطوار. أما الفم فقد امتد من وجنة لأخرى، مفتوحاً كما لو أنه على وشك الشروع بالنداء. كان الزمن قد جمّد كل شيء. وكان الرأس خالياً من الشعر. أما الدماغ الذي كان أكثر ما يكون مؤثراً وحاسماً في نجاحات الإسكندر، فقد ذهب أيضاً.

حدّق الجميع في صمت.

أخيراً مرّرت كاسيوييا ضوءها عبر الغرفة، عبر تمثال خيال على صهوة جواده متّشح فقط بعباءة طويلة تمتد من فوق أحد كتفيه لتصل إلى قاعدة أخاذه من البرونز. وقد بدت أمارات الثقة على الوجه المستطيل القوي الملامح، كما برزت النظرة الثاقبة للعينين المتضيّقتين المتطلعتين إلى البعيد. أما الشعر فيتدرّج إلى الوراء من حدود الجبهة تدرّجاً كلاسيكياً وينثال منذ منتصف طوله في جعور غير ذات انتظام. أما العنق فقد ارتفع في استقامة وصعور ليحمل ملامح وهيئة الرجل الذي سيطر يوماً ما، على الدنيا قاطبة.

إنه الإسكندر الكبير.

يا لها من مقارنة بين التمثال وبين وجه الميت في الكفن.

"إن جميع التماثيل النصفية التي كنت قد رأيته من قبل للإسكندر،" قال إيلي. "إنما كان الأنف، والشفتان، والجبهة، والشعر، كانت ترمّم فيها عادة، بلصوق إضافية لاستعادة ما تلف منها. كما أن القليل منها هو الذي بقي على الأيام. أما الآن، فيوجد أمامنا تمثال يعود إلى أيامه، وهو لا يزال في حالة تامة من الكمال."

"كما أنه موجود هنا أيضاً،" قال مالون، "بلحمه وعظامه."

انتقلت كاسيوبيا إلى الناوس المجاور وعالجت غطاءه بما يكفي لإزاحته بالقدر الذي يسمح باختلاس نظرة إلى داخله. مومياء أخرى غير مكتملة الزينة بالذهب، لكنها مقنعة، وهي تضطجع في حالة مماثلة للأخرى. "الإسكندر وفستيشيون"، قال ثورفالدسن. "يستريحان هنا منذ زمن طويل."

"وهل سيبقيان في راحتهما؟" تساءل مالون.

هز إيلي كتفيه. "إن هذا اكتشاف أركيولوجي بالغ الأهمية. وسوف يكون الأمر مأساة كبيرة إذا لم نتعلم منه."

وقد لاحظ مالون أن اهتمام فيكتور قد تحول إلى صندوق ذهبي مودع على مقربة من الجدار. وكانت الصخرة الواقعة فوقه محفورة بكتلة متشابكة من الرسوم المنحوتة التي تصور المعارك، والعربات، والخيول، والرجال الذين يحملون السيوف، وعلى ظهر الصندوق، بدت نجمة مقدونية ذهبية قد سُكبت فوقه. كما رُصع وسطه بمزهريات لها تويجات من الزجاج الأزرق. كما رُصع شريط يجري في وسط ظاهر الصندوق بمزهريات مماثلة. أمسك فيكتور بجانب الصندوق، وقبل أن يستطيع إيلي إيقافه، كان قد رفع الغطاء.

أطلق إدوين دايفيس نور مصباح كشاف إلى داخله.

بدا لهم إكليل للرأس، ذهبي يمثل أوراق سنديان وثمرات بلوط، وكان إلى ذلك، غنياً أيضاً بالتفاصيل والمنمنمات المدهشة.

"إنه تاج ملكي"، قال إيلي.

ابتسم فيكتور ابتسامة متكلفة. "هذا ما كانت تشتهيهِ زوفاستينا لنفسها. هذا ما كان سيصبح تاجها. وكان من الممكن لها أن تستخدم كل هذا لإعادة إلهاب نفسها وحماسها."

هز مالون كتفيه. "من المؤسف أن تكون طائرتها قد تحطمت."

وقف الجميع في الغرفة منتقنين بملابسهم المبللة بسبب السباحة في البركة، لكنهم شاعرون رغم ذلك، بالراحة، لأن ذاك الكابوس قد انتهى. وأدرك مالون أن ما بقي الآن من عمل إنما يهم رجال السياسة. ولا يعنيه هو في شيء.

"يا فيكتور،" قالت ستيفاني. "إذا شعرت يوماً بالضجر من العمل الاستخباراتي المستقل، وشئت لنفسك وظيفة ثابتة في هذا المجال، فدعني أعرف بذلك."

"سأبقي عرضك هذا في ذهني."

"لقد سمحت لي أن أبزك عندما كنا هنا من قبل." قال مالون. "أليس كذلك؟" أوما فيكتور موافقاً. "لقد اعتقدت أن من الأفضل أن أدعكما تغادرا. لذلك فقد أعطيتكما فرصة للقيام بذلك. إنني لست بتلك السهولة يا مالون."

ضحك. "ساعد هذا القول في ذهني." ثم أشار إلى التابوتين. "وماذا عنهما؟"

"لقد مرَّ عليهما زمنٌ طويلٌ من الانتظار." قال إيلي. "والآن يمكنهما الاستراحة لمدة أخرى إضافية. أما الآن، فإن لدينا شيئاً آخر كي نفعله."



كانت كاسيوبيا آخر من خرج من البركة العسلية اللون عائدة إلى الغرفة الأولى. "لقد ذكر ليندسي أن البكتيريا الموجودة في البركة الخضراء من المستطاع شربها." قال إيلي. "فهي غير ذاتِ ضررٍ لنا مع أنها تدمر فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب."

"لكننا لا نعلم ما إذا كان أيُّ من هذا الكلام صحيحاً." قالت ستيفاني.

لكن إيلي بدا مقتنعاً بهذا الكلام. "لقد كانت رقبة الرجل تحت المقصلة. ولقد كان لا يدلي من الأقوال إلا بما من شأنه الإبقاء على جلده سالماً."

"إننا نملك البيانات الإلكترونية الآن،" قال ثورفالدسن. "وإنني أستطيع أن أجعل أفضل العلماء في العالم يعطوننا الجواب الشافي في الحال."

هزَّ إيلي رأسه. "لم يكن لدى الإسكندر الكبير أيُّ علماء، لكنه كان يثق بخبرة الدنيا."

أكبرت كاسيوبيا شجاعته. لقد كانت تحمل العدوى منذ أكثر من عشر سنين قضتها في خوفٍ دائمٍ متى سينتشر المرض في جسدها معلناً عن وجوده في نهاية المطاف. فهي دائماً في انتظار تلك القنبلة الموقوتة التي تنكُّ عقاربها في داخلها في انتظار اليوم الذي ينهار فيه جهازها المناعي في النهاية فتتغير حياتها. وكانت تعلم أن إيلي يعاني من القلق ذاته ولا ينفكُ يتعلق بأذيال أيٍّ أمل. ولقد كانا من المحظوظين. لأنهما كانا يستطيعان توفير الأدوية كلٍّ لنفسه. تلك الأدوية التي كان من شأنها أن تدع الفيروس في وضعٍ حرجٍ لا يتعدى الدفاع عن نفسه. بينما الملايين من بقية المرضى الآخرين لا يستطيعون ذلك.

حدقت نحو البركة العسلية اللون، حدقت نحو الحرف الإغريقي "H" الذي يستلقي في قعرها. ثم استعادت في ذاكرتها ما كانت قد قرأته في إحدى المخطوطات.

لقد كشف إيمينيس عن مكان الرقدة الأبدية، هنالك بعيداً، في الجبال، حيث كان الإسكِيثيون يقومون بتعليم الإسكندر علوم الحياة. عادت إلى البركة الخضراء، ونظرت بإعجاب إلى علامة "E" في أسفلها!!

الحياة.

يا له من وعدٍ جميل.

أمسك إيلي بيدها. "أمستعدة؟"

أومات برأسها إيجاباً.

ركع كلاهما على ركبتيه، وشربا.

الفصل الخامس والتسعون

كوبنهاغن

السبت، السادس من حزيران

الساعة 7:45 مساءً

جلس مالون في الطابق الثاني من مقهى نورين، واستمتع بالمزيد من شوربا الطماطم. فهي لا تزال ألذ طبق لديه. وكان ثورفالدسن يجلس إلى الجانب المقابل له. شبابيك الطابق الثاني كانت مفتوحة آنئذٍ سامحة للمساء الرائع لآخر فصل الربيع أن ينسكب فوقها. فطقس كوبنهاغن في هذا الوقت من السنة كان رائعاً تقريباً. وهذا سبب واحد من أسباب أخرى دعتة للعيش في هذا المكان.

"لقد سمعتُ من إيلي اليوم." قال ثورفالدسن.

تساءل ماذا عساه يحدث الآن في آسيا الوسطى. فلقد كانا قد عادا إلى كوبنهاغن منذ ستة أسابيع، وقد كان طيلة الوقت مشغولاً في بيع الكتب. هذا كان ما يعنيه أن يكون المرء عميلاً في مهمات ميدانية عارضة فقط. فإنك تنهي مهمتك وتعود، دون أن تكون عرضةً لتحليل المهمة اللاحق، ولا لمتابعة النتائج. فإن مثل هذه المهمات إنما تُترك دائماً للآخرين.

"إنه يقوم الآن بأعمال التنقيب في ضريح الإسكندر. وتقوم حكومة الاتحاد الجديدة الآن بالتعاون مع اليونانيين."

كان يعلم أن إيلي قد تسلم الآن وظيفة في أثينا مع متحف الآثار القديمة. والفضل يعود في ذلك لمداخلات ثورفالدسن. فبالطبع، إن اكتشاف موقع قبر الإسكندر الكبير كان لا بد له من أن يلهب حماس المتحف.

وكان قد خلف زوفاستينا نائب رئيس مجلس وزراء معتدل، وهو الذي يحق له، وفقاً لدستور دولة الاتحاد، أن يتسّم السلطة حتى تتمكن البلاد من إجراء انتخابات جديدة. وقد عملت واشنطن على التأكد، في هدوء، أن جميع مخزونات الأسلحة البيولوجية المتوفرة لدى الاتحاد قد تمّ تدميرها والتخلص منها وذلك بعد أن كانت سمرقند قد وضعت أمام خيارين: إما التعاون، وإما إعلام جيران الاتحاد بما كانت قد خطّطته لهم زوفاستينا وجنرالاتها. وعند ذلك لا بدّ أن يُترك للطبيعة أمر اتخاذ مجراها المناسب. ومن حسن الحظ أن الاعتدال هو الذي تغلب. وعليه، فإن الولايات المتحدة أرسلت فريقاً ليراقب عملية تدمير الفيروسات. هذا بالطبع، مع قيام الغرب بالإمساك بمصدر المتعضّيات المضادة. وهو الأمر الذي لم يترك واسع خيار للاتحاد. فقد تستطيع دولة الاتحاد أن تشرع بالقتل، لكنها لن تكون بعد ذلك قادرة وحدها على إيقافه.. فالتحالف الصعب الذي كان قائماً بين زوفاستينا وفينسينتي قد حلّ محله الآن، تحالف جديد بين أمتين لا تتبادلان الثقة.

"إن إليي يملك الآن حق الإدارة الكاملة للضريح، وهو يقوم بوظيفته بكل هدوء." قال ثورفالدسن. "وهو يقول إن كثيراً من صفحات التاريخ إنما ينبغي إعادة كتابتها من جديد. إذ أن هناك الكثير من المخطوطات في داخل الضريح، وكذلك الكثير من الأعمال الفنية، وحتى أنه يوجد أيضاً خريطة واحدة أو خريطتان. إنها مادة لا تصدّق."

"وكيف هو حال إيوين دايفيس وداني دانيالز؟" سأله. "هل هما مكتفيان؟"

ابتسم ثورفالدسن. "لقد تكلمت مع إيوين منذ بضعة أيام. ويبدو أن دايفيس ممتنٌّ لكل ما كنا قد فعلناه. كما أنه سرُّ بشكلٍ خاص لقيام كاسيوبيا بتفجير طائرة الهيلوكوبتر. ليس هناك عواطف كثيرة عند ذلك الرجل. إنه رجل فذ."

"إنني سعيدٌ لأنني قد استطعت مساعدة الرئيس في خارج البلاد. مرة أخرى جديدة." سكت قليلاً. "وماذا عن عصابة البندقية؟"

هزّ ثورفالدسن كتفيه. "تراجعت إلى أوجارها. فهي لم تقم بأي عملٍ يمكن إقامة دليلٍ عليه."

"ماعدًا قيامها بقتل ناومي جونز."

"لقد كان فينسينتي هو الذي قام بتدبير ذلك الاغتيال. وإني أعتقد أنه قد قام بدفع الثمن."

وكان ذلك صحيحاً. "أتعرف، سيكون من الرائع أن يقوم دانيالز، ولو مرة واحدة بطلب المساعدة مني."

"لكن ذلك لن يحدث."

"مثلاً هو الحال معك؟"

أوما صديقه بالإيجاب. "أجل مثلاً هو الحال معي."

انتهى من احتساء طبق الشوربا، وحثق إلى الأسفل نحو باحة هوجبرو بلاذر. كانت الساحة تعج بالناس الذي يستمتعون بمساء دافئ من الأمسيات القليلة التي تأتي من وقت لآخر على مدينة كوبنهاغن. كانت مكتبته التي هي في الطرف الثاني من الساحة، مغلقة. وقد كانت التجارة معه مزدهرة في المدة الأخيرة لذا، فهو الآن يخطط للقيام برحلة تسوق إلى لندن خلال الأسبوع القادم، قبل أن يأتي ابنه غاري لقضاء عطلة الصيفية السنوية معه. فهو أيضاً ينتظر رؤية ولده البالغ السنة الخامسة عشرة من عمره.

لكنه كان أيضاً من أمره في حزن دفين. وكانت هذه الحال قد لازمته منذ عودته إلى كوبنهاغن. لقد درج على تناول عشائه مرة في الأسبوع على الأقل مع صديقة ثورفالدسن. لكنهما لم يتطرقا مرة في حديثهما إلى ما كان يدور في ذهنه بالفعل. فبعض النقاط من الحديث لا يجوز التطرق إليها.

ما لم يكن ذلك مسموحاً به.

لهذا، فإنه سأل: "كيف هو حال كاسيوبيا؟"

"كنت أتعجب متى سأسمع هذا السؤال منك."

"أنت هو من كان قد وضعني وسط كل ذلك."

"إن كل ما فعلته هو قلبي لك: إنها في حاجة إلى مساعدة."

"يطيب لي أن أعتقد أنها ستقوم بمساعدتي يوماً لو احتجت المساعدة."

"ولسوف تفعل ذلك. ولكن، وللإجابة عن سؤالك، فإنها وإيلي كلاهما قد شفي من أيّ أثرٍ للفيروس. ويقول لي إدوين أن العلماء قد تأكدوا أيضاً من فعالية البكتيريا. وسوف يقوم دانيالز بالإعلام عن اكتشاف العلاج في وقتٍ قريب. وسوف تقوم حكومة الولايات المتحدة بالسيطرة على عملية توزيعه. وقد أصدر الرئيس أوامره بأن يُعمل على توفير الدواء للجميع بأقلّ كلفةٍ ممكنة."

"سيشعر الكثير من الناس بتأثر عاطفي تجاه هذا الإعلان."

"لكن الفضل يعود إليك. فأنت حللت الأحجية، وعثرت على المقبرة،"

ولم يكن كل ذلك هو ما كان يريد الاكتفاء بسماعه. "لقد قام كلُّ منا بأداء مهمته، ولكن بالمناسبة، لقد سمعت أنك قناص مجنون. فلقد قالت ستيفاني إنك كنت كالجحيم في ذلك البيت."

"لستُ شخصاً قليل الحيلة بالمرة."

كان ثورفالدسن قد أخبره عن ستيفاني وعن تبادل إطلاق النار. ثم قام هو بالتحدث معها في الموضوع قبل أن يغادرا آسيا، كما أنه كان قد تكلم معها مرة جديدة خلال الأسبوع الفائت.

"إن ستيفاني قد أيقنت أن العمل الميداني شديد القساوة،" قال له.

"أنا أيضاً كنت قد تكلمت معها منذ بضعة أيام."

"هل أصبحتما صديقين حميمين؟"

ابتسم صديقه. "نحن متشابهان إلى درجة كبيرة، مع أن لا أحد منا يعترف بذلك للآخر."

"إن القتل ليس شيئاً هيئاً مهما كانت الأسباب."

"لقد قتلْتُ ثلاثة رجالٍ بنفسني في ذلك البيت. إنك على حق. إنها ليست بمسألة سهلة."

لكنه كان لم يسمع بعد الجواب الذي ينتظره عن سؤاله الأول. وقد بدا ثورفالدسن شاعراً بما يرغب صديقه في الحقيقة، في معرفته.

"لم أتحدث كثيراً مع كاسيوبيا منذ أن غادرنا الاتحاد. لقد غادرت إلى منزلها في فرنسا. وإني لا أعرف ماذا جرى بينها وبين إيلي. فهي لا تُفصح سوى عن القليل." هزّ ثورفالدسن رأسه. "عليك أن تقوم بتوجيه السؤال إليها مباشرة." قرّر أن يقوم بنزهة مشياً على الأقدام. كان يحب التسكّع في باحة ستروجت، فسأل ثورفالدسن إذا كان لديه من مانع يمنعُه عن مشاركته النزهة. لكن صديقه اعتذر.

وقف.

رمى ثورفالدسن بعض الأوراق المطوية فوق الطاولة. "هذا هو صكّ ملكية ذلك العقار الواقع في ذاك اللسان البحري، حيث يوجد المنزل الذي احترق. إذ ليس لي من حاجة إليه."

فتح الأوراق، فرأى اسمه مكتوباً في الخانة المخصصة لاسم الموهوب له.

"إني أريدك أن تمتلك ذلك المكان."

"إن هذه الملكية تساوي الكثير من المال. فهي عند حافة المحيط. وأنا لا أستطيع أخذها منك."

"قم بإعادة بناء البيت. واهناً به. سمّه مجرد مكافأة مني لك لقاء قيامي بتوريثك في كل هذا الممععان."

"لكنك كنت تعلم أنني لن أتردّد في المساعدة."

"بهذه الطريقة، فإن ضميري، أياً يكن ما بقي منه، سوف يكون مطمئناً."

كان يعلم من مجريات علاقتهما خلال السنتين المنصرمتين أن ما يتوصل ثورفالدسن إليه من قرار في ذهنه، يكون نهائياً وغير قابل للمراجعة. لهذا، فإنه قام بحشو صك الملكية في جيبه، واتخذ طريقه على الدرج نحو الأسفل.

خرج من الباب الرئيس إلى نكهة الطقس الدانماركي الدافئ. لاقاه الناس بأحاديثهم ولغوهم القادم من الطاولات التي تنتشر حول الطابق الأرضي من المقهى، والتي يتحلّق القوم حولها.

"مرحباً، مالون."

استدار.

فإذا به يرى كاسيوبيا تجلس إلى إحدى الطاولات!

وقفت ومشّت نحوه.

كانت تلبس سترّة من القنب، بحريّة الطراز، وتلبس تحتها سروالاً مناسباً لها. كما تحمل حقيبة كتف جلدية، وتنتعل زوجاً من الصنادل يضمّ قدميها. أما شعرها الأسود فيتدلّى في جعود غزيرة. كان لا يزال يتصوّر أنه يراها في الجبل. بنطلون جلديّ ضيق وحمالة صدر رياضية حينما كانت تسبح إلى جانبه في طريقهما إلى الضريح. وتلك الدقائق القليلة التي تجرداً فيها سوى من لباس كل منهما الداخلي.

"ما الذي تفعلينه هنا في هذه المدينة؟" سألها.

هزت كتفيها. "كنت دائماً تشرح لي عن جودة الطعام في هذا المقهى، لهذا فإنني قد أتيت لتناول عشائي."

ابتسم لها. "إنه سفرٌ طويلٌ ليحصل المرء على وجبة طعام،"

"ليس إذا كنت لا تحسن الطهي."

"لقد عرفتُ أنك قد شفيت، لذلك فإنني سعيد بذلك."

"إنه أمر يزيح أشياء قليلة من رأسك. كالتفكير في كل يومٍ ما إذا كان هذا يومك الأول الذي قد تبدأ فيه رحلة موتك."

استذكر استغراقها وسرحانها في تلك الليلة السالفة في كوبنهاغن عندما ساعدته على الفرار من جحيم المتحف الإغريقي - الروماني. كل تلك التعاسة يبدو الآن قد رحلت.

"إلى أين أنت ذاهب؟" سأله.

حدّق إلى البعيد عبر الساحة. "إني ذاهب إلى مجرد نزهة مشياً على الأقدام."

"أتريد رفيقاً لك؟"

نظر نظرة إلى الأعلى، حيث الطابق الثاني من المقهى، وحيث الشباك المفتوح على مقربة من الطاولة التي كان يجلس إليها مع صديقه ثورفالدسن. فرأى صديقه يحدث إلى الخارج من ذلك الشباك المفتوح وهو يبتسم. وكان عليه أن يدري بما يدبر له صديقه.

نظر إلى وجهها وقال: "وهل أنتما الإثنين دائماً وراء شيء ما؟"

"إنك لم تجب عن سؤالي حول النزهة."

ماذا بحق جهنم. "طبعاً أودُّ لو تتيسّر لي بعض الرفقة."

شبكت ذراعها في ذراعه، وقادته إلى الأمام.

وكان لا بدّ له من أن يسأل. "وماذا عنك وعن إيلي؟ لقد اعتقدتُ -"

"مالون."

عرف ماذا سوف تقوله. لذلك فقد وفّر عليها عناء الجواب.

"أعرف ماذا سوف تقولين. فقط أغلقي فمك وامشي معي."

ملاحظات من المؤلف

لقد آن الأوان للفصل بين الخيال والواقع.

إن طريقة الإعدام التي جرى شرحها في الفصل التمهيدي كانت تستعمل في أيام الإسكندر الكبير. والطبيب الذي طُلب إليه معالجة فستيشيون، كان الإسكندر الكبير قد أمر بإعدامه فعلاً، ولكن ليس بالطريقة التي جرى تصويرها في الرواية. فلقد تمَّ إعدام ذلك الطبيب شنقاً وفق ما ذكرته معظم الروايات التاريخية.

العلاقة بين الإسكندر وفستيشيون كانت علاقة معقدة. فلو قلنا إنه كان صديقه، أم موضع سره، أم خدينه، فإن جميع هذه النعوت قد تصحّ. حزن الإسكندر وغمُّه العميق إثر رحيل فستيشيون، المبكر، هو أمرٌ موثَّق، كما هو الحال مع المأتم الضخم الذي جرى للأخير. إذ يذكر البعض أنه كان المأتم الأكثر تكلفة في التاريخ كله. وبالطبع، إن رواية تحنيط جسد فستيشيون وتهريبه لدفنه سرّاً، الواردة في الفصل الرابع والعشرين، هي محض خيال.

أما النار الإغريقية (الفصل الخامس) فهي شيء حقيقي. فالتركيب الكيماوي كان بالفعل سرّاً يحتفظ به الأباطرة البيزنطيون شخصياً. وقد ضاع سرُّ هذه التركيبة مع سقوط آخر أباطرتهم. وحتى يومنا هذا، يبقى التركيب الكيماوي لتلك الخلطة، لغزاً تاماً. أما بخصوص قابلية هذه النار للانطفاء بالماء المالح، فهو مجرد اختراع من عندي. ففي الحقيقة، كانت النار الإغريقية تستعمل كسلاحٍ هجوميٍّ لمهاجمة السفن في عرض البحر.

أمّا لعبة البوزكاشي (الفصل السابع) فهي لعبة قديمة وعنيفة في آنٍ معاً، وهي لعبة لا تزال تُلعب في وسط آسيا. فقواعد اللعبة، واللباس اللازم لها،

والتجهيزات، مثلما جرى تفصيلها: هي صحيحة، مثلما هو صحيح أيضاً أن بعض اللاعبين فيها قد يقتلون بشكلٍ روتيني.

أما دولة اتحاد آسيا الوسطى فهي دولة وهمية. لكن التفاصيل الاقتصادية والسياسية المختصرة في الفصل السابع والعشرين لهذه المنطقة من العالم، فهي تفاصيل دقيقة. فلسوء الحظ، إن تلك الأراضي قد كانت دائماً ساحة قتال ملائمة، وقد بقيت حكومات تلك المنطقة ينخرها الفساد دائماً.

ولقد علّمني كتاب فرانك هولت، الذي هو بعنوان: "الإسكندر الكبير وسر ميداليات الفيل"، كل ما ذكرته عن هذه الأشياء اللاعتيادية. وفي هذه الرواية كنا قد حصرنا عدد هذه الميداليات بثمانية. وفي الحقيقة إن أكثر من هذا العدد ما يزال إلى الآن موجوداً. أما وصفها (الفصلان الثامن والتاسع) فهو وصف أمين، خلا ما ذكرناه عن وجود الأحرف المجهرية -ZH- التي هي محض إضافة من عندياتي. فمن المدهش أن يكون الحفّارون القدماء قد استطاعوا القيام بأعمال الحفر المجهرية مكثفين باستعمال العدسات البدائية.

أما العصابة المقدسة التي تقوم على حراسة إيرينا زوفاستينا (الفصل الثاني عشر) فهي مقتبسة عن سيرة أقسى وحدة مقاتلة إغريقية. فقد جرى قتل مئة وخمسين زوجاً من الذكور من مدينة شيبس فداء لرجل واحد على يد فيليب الثاني وولده الإسكندر الكبير في العام 338 قبل المسيح. ولا يزال نُصَبُ دفني يقف حتى الآن تخليداً لشجاعتهم، وذلك في اليونان في شيرونيا.

الترياق الذي يجري الكلام عليه في الرواية هو فكرة وهمية، وكذلك الرواية المتعلقة باكتشافه في الفصل الرابع عشر. أما بكتيريا الأرشيا (الفصل الثاني والستون)، فمع أنها موجودة، ومع أن بعض أنواع البكتيريا والفيروسات تقوم في الحقيقة بالاغتذاء على بعضها الآخر، إلا أن استعمالها للأرشيا بهذه الطريقة ليس سوى ابتكار قصصي محض.

أما الكلام على التفاصيل المحلية في مدينة البندقية فهو كلام دقيق. إن داخلية كاتدرائية القديس مرقس مذهلة. وكذلك فإن ضريح القديس مرقس (الفصل الثاني والأربعون) مع ما جرى من سرد تاريخي حولها فهي موصوفة بدقة. أما في تورسيلو، فالمتحف، والكنيسة، وبرج الناقوس، هي كلها أشياء موجودة. وكذلك

المطعم القريب منها - أما جغرافية الجزيرة وتاريخها (الفصل الرابع والثلاثون) فهي أيضاً أشياء أعيدت روايتها بأمانة. عصابة البندقية ليست حقيقية. ومع ذلك، فإن جمهورية البندقية خلال تاريخها الطويل، قد شكلت من وقت لآخر تحالفات مع سواها من الدول المدنية وقد كان يطلق على مثل تلك التحالفات تسمية عصابة.

إن تقنية الصور الشعاعية المطيافية باستعمال أشعة إكس (الفصل الحادي عشر) هي خطوة متقدمة مفاجئة حديثة قد بدأت توضع موضع الاستعمال لدراسة الرقوق القديمة. وإنني مدين لهذه الناحية للروائي الموهوب كريستوفر ريش لإرساله لي مقالة عن هذا المفهوم.

إن تاريخ هيرونيموس عن كارديا (الفصل الرابع والعشرون) هو محض خيال، مثلما هو الحال مع أحجية بطليموس، مع أن كل الأعمال التي قام بها بطليموس إزاء العربة الجنائزية العائدة للإسكندر، وكذلك سيادته على مصر، فهي جميعها حقائق تاريخية. إن السطو على جسد القديس مرقس، وخطفه من الإسكندرية على يد تجار من البندقية في العام 828 مسيحية (الفصلين التاسع والعشرون، والخامس والأربعون) قد حدث بالشكل الذي تمت روايته. وكذلك فإن جثمانه كان قد اختفى بالفعل في البندقية لفترات طويلة. أما الرواية عن عودته إلى الظهور في العام 1094 (الفصل الخامس والأربعون) فهي قصة تعاد روايتها كل يوم بافتخار على ألسنة أهل البندقية.

ولسوء الحظ، فإن الفيروسات والأمراض الحيوانية القابلة للانتقال إلى الإنسان (الفصل الحادي الثلاثون) فهي شيء موجود، وهو يهدد الصحة البشرية من وقت لآخر. أما البحث عن هذه السموم الطبيعية، واستخدامها للاستعمالات الهجومية (الفصل الرابع والخمسون) فهي ليست بالشيء الجديد. لقد تلاعب الجنس البشري بالحرب البيولوجية منذ قرون عديدة. وليست شخصيتي الخيالية المسماة إيرينا زوفاستينا سوى مثل على ذلك جديد.

أما الإحصائيات الواردة في الفصل الثاني والثلاثين، فهي تعكس بدقة المشكلة المتنامية لمرض فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب. إفريقيا، وجنوبي شرقي آسيا، هي بالفعل مواضع انتشار المرض المفضلة. إن بيولوجيا الفيروس كما جرى شرحها في الفصل الحادي والخمسين، والكلام على الكيفية التي قد يكون فيها

فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب قد انتقل من القردة إلى الناس (الفصل الستون) فهو كلام صحيح. أما الفكرة عن قيام شخص ما، بالاهتداء إلى علاج لمرض الإيدز، ثم السكوت عن ذلك بانتظار تنامي سوق هذا الدواء (الفصل الرابع والستون) فهو بكل بساطة مجرد جزء من هذه الرواية. لكن ما جرى من كلام حول تسييس مرض فيروس نقص المناعة البشرية المكتسبة، والاستجابة العالمية غير الكافية لهذا الوباء الخطير الوافد، فإنه كله يبقى كلاماً شديداً الصحة.

أما جزيرة فوزروزيدينا فهي المكان الذي أنتج فيه السوفييت الكثير من أسلحتهم البيولوجية. أما العضلة التي سببتها هجرتهم للجزيرة (الفصل الثالث والثلاثون)، فهي عضلة قد حصلت في الواقع. أما الكلام على زوال بحر الآرال (الفصل الثالث والثلاثون) الذي عجل فيه التحويل السوفييتي الأحقق لرافده المائي الأساسي، فإنه يعتبر على وجه العموم واحداً من أسوأ الكوارث الإيكولوجية في التاريخ. ولسوء الحظ، فإنه لم يجرِ إيجاد حل سعيد بعد، لهذه الكارثة التي حدثت في حياة الناس الحقيقية.

إن تميمة القلب (الفصل التاسع والخمسون) هي حقيقة مع أن إدخالها فيها الأسطوانة المكونة من رقاقة ذهبية هو عمل قصصي. أما السيتايل (الفصل الحادي والستون) فقد كان يجري استخدامها على أيام الإسكندر الكبير وذلك من أجل إرسال الرسائل المشفرة. ولا تزال واحدة منها معروضة في متحف الجاسوسية العالمي في واشنطن دي. سي. ولم أقوَ على مقاومة رغبتني في إدخالها في هذه الرواية. أما السيثيون (الفصل الخامس والسبعون) فإنهم قوم قد وُجدوا فعلاً. وتاريخهم قد أعيد الحديث عنه بشكل صحيح. ما عدا أنه لا يوجد حقيقة أي دليل على أنهم قد درجوا على دفن ملوكهم في أي مدافن خلا الرجوم. والتلال والآن، نأتي إلى الإسكندر الكبير.

فالرواية عن وفاته (الفصل الثامن) هي رواية مركبة من عدة روايات. وهي روايات فيها الكثير من التناقضات. فالروايات الثلاث عما كان قد قاله الإسكندر جواباً عن السؤال الذي قد وُجّه إليه: لمن تريد ترك مملكتك؟ إنما هي روايات من عندي. أما الجواب الذي يحظى بأكثر نسبة من القبول فهو: للأقوى. لكن استجابةً مختلفةً عن تلك، تقع موقعاً أفضل في هذه الرواية. لقد تفكّر المؤرخون طويلاً في قضية وفاة الإسكندر.

فكونها وفاة فجائية ذات طبيعة ليس لها تفسير، إنما توحى بسلوك غير أخلاقي (الفصل الرابع عشر)، لكن ليس ثمة برهان على ذلك.

إن اللجوء إلى تحنيط الإسكندر بالعسل، وما جرى مع عربته الجنائزية والضريح المصري الذي أقيم له في النهاية في الإسكندرية، إنما هي كلها أشياء مأخوذة عن الروايات التاريخية المختلفة. أما الكلام على إمكانية أن تكون رفات القديس مرقس الموجودة في البندقية ليست سوى رفات الإسكندر الكبير هو كلام لم آت به من عندي. فقد كان الروائي أندرو ميخائيل تشغ في روايته الرائعة الضريح المفقود للإسكندر الكبير قد افترض هذه النظرية. ومع هذا، فإن الحقيقة هي أن أوائل المسيحيين قد كانوا يستبيحون بشكل روتيني التحف الوثنية (الفصل الرابع والسبعون)، وإن جسد الإسكندر الكبير كان قد اختفى من الإسكندرية في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهر فيه جسد القديس مرقس (الفصل التاسع والعشرون). أكثر من ذلك، فإن الجدل السياسي حول مسألة إعادة كل أو بعض الرفات الموجودة في كاتدرائية القديس مرقس إلى مصر مازال مستمراً حتى الآن. وقد قام الفاتيكان في الواقع بتسليم القليل من الذخائر الصغيرة إلى الاسكندرية في العام 1968.

أما الكلام عن كون ضريح الإسكندر موجوداً في آسيا الوسطى فهو كلام قصصي بكامله. لكن المسائل المشروحة في الفصل الرابع والتسعين، فقد تم اقتباسها من روايات عن مقبرة وايلد الإسكندر، فيليب الثاني، الذي من المفترض أن يكون قد عثر علماء الإحاثة عليها في العام 1977. ومع هذا، فإن شكوكاً قد أثرت في المدة الأخيرة حول هوية الدفين في ذلك القبر.

أما ميراث الإسكندر السياسي والتاريخي فيستمر في كونه مسألة نقاش حاد. هل كان شخصاً عاقلاً، حالماً، كثير الرؤى؟ أم مجرد فاتح دموي طامش بطاش؟ إن نقاش كاسيوبيا مع مالون في الفصل العاشر يعكس وجهتي النظر معاً. لقد كتبت كتب كثيرة حول هذا الموضوع. لكن أفضلها هو كتاب بيتر غرين المسمى: "الإسكندر المقدوني، سيرة تاريخية"، فدراسة غرين العميقة توضح أن الإسكندر قد صرف حياته بكاملها في النجاحات الأسطورية، سعياً وراء لا شيء سوى مجده الشخصي. ومع أن إمبراطوريته التي حارب بكل قوة لتأسيسها قد انهارت لحظة وفاته، فإن أسطورته لا تزال حية. والبرهان على خلود ذكر هذا الإنسان يمكن رؤيته

في الإيمان الذي ألهم الآخرين منذ أزمان بعيدة. وهو إيمان كان جيداً في بعض الأحيان، أما في أحيان أخرى (كما هو الحال مع إيرينا زوفاستينا) فهو إيمان مؤذٍ. فبالنسبة إلى بيتر غرين لم يكن الإسكندر سوى طلسم غامض تتحدى عظمته، بكل بساطة أي حكم نهائي عليه.

فهو يجسّد نموذجاً قائماً بذاته، نموذج قلق، يعصى على الزوال، كما يمثل تجسّداً للبحث الأبدي عن ضالة منشودة، شخصية قد تنامت بما يتعدى مجموع ما يمكن مقايسته مع أعماله الرائعة.

وختاماً، فإن الإسكندر يبقى خير الذين عبّروا عن هذه المسألة.

إن الكدح والمخاطرة هما ثمن المجد. لكنه شيء جميل أن يعيش المرء في شجاعة وأن يموت تاركاً وراءه شهرة باقية على الدهر.

WWW.REWITY.COM
RAYAHEEN